

موسوعة السير ٥

تيسير الكريم المنان في سيرة أمير المؤمنين

عَلِيُّ بْنُ ابْرَاهِيمَ بْنُ عَفَانَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

شُخُصِيهُ وَعَصْرُهُ

تأليف

الدكتور علي محمد محمد الصلاوي

دار ابن كثير

الإهدا

إلى العلماء العاملين ، والدعاة المخلصين ، وطلاب العلم المجتهدين ، وأبناء الأمة الغيورين ، أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى - عزّ وجل - باسمه الحسنى ، وصفاته العلی أن يكون خالصاً لوجهه الكريم .

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف : ١١٠]

المؤلف

علي محمد محمد الصالabi

تيسير الکریم المثان فی سیرۃ امیر المؤمنین

عَمَّانُ بْنُ عَفَانَ

شَخْصِيَّةٌ وَعَصْرٌ



القدار (2009)

عاصمة الثقافة العربية
اتحاد الناشرين العرب

الموضوع: سيرة - تراث
العنوان: موسوعة السير 10/1
التأليف: الدكتور علي محمد محمد الصلايبي

الورق: كريم
الألوان الطباعية: لونان
عدد الصفحات: 5558
القياس: 24×17
التجليد: كرتوني
الوزن: 10 كغ

التنفيذ الطباعي:
مطبعة 53dots - بيروت
التجليد:
مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

ISBN: 978-9953-520-38-4

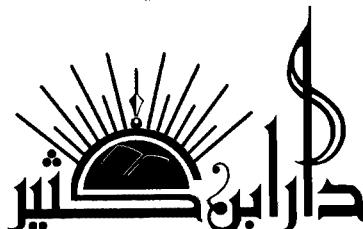
9 789953 520384

الطبعة الثانية

1430 هـ - 2009 م

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المركبي
و المسموع و الحاسوبي و غيرها من الحقوق
إلا بإذن خططي من



للتقطيع و النشر و التوزيع

دمشق - سوريا - ص.ب: 311

حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي

طالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2225877

الإهارة تلفاكس: 2243502 - 2458541

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318

برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة

تلفاكس: 03 204459 - 01 817857 جوال:

www.ibn-katheer.com

info@ibn-katheer.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمَدُه ، وَنَسْتَعِينُه ، وَنَسْتَغْفِرُه ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ رُؤْسَنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهُ اللَّهُ فَلَا يُضْلِلُ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلُ فَلَا هَادِي لَهُ . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُولُوا أَنَّهُ حَقٌّ ثُقَالٌ وَلَا يَعْلَمُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ أَتَقُولُونَ إِنَّمَا الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَقْسِيرٍ وَجَهَنَّمَ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَتَقُولُوا أَنَّهُ أَلَّا يَكُونُ لَهُ ذَرَّةٌ وَالْأَرْضَامُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُولُوا أَنَّهُ اللَّهُ وَقُولُوا قُولًا سَدِيدًا ﴿٧﴾ يُصْلِحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيُغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١-٧٠]

أما بعد :

هذا الكتاب يتحدث عن شخصية عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وعصره ، وهو امتداد لاما سبقه من كتب تحدث عن الصديق ، والفاروق ، تبحث في دراسة عهد الخلفاء الراشدين ؛ لكي تستخرج الدروس ، وال عبر ، ونستوعب السنن ، والقوانين الإلهية في حركة المجتمعات ، وبناء الدول ، ونهضة الشعوب ، وتربية القادة ، والأفراد العاملين لنشر دين الله بين الناس .

إنَّ عودة الأُمَّةِ لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي قِيَادَتِهَا لِلْبَشَرِيَّةِ مِنْ وَطْ بَسِيرَهَا عَلَى هُدِي النَّبِيِّ ﷺ وَخَلْفَائِهِ الرَّاشِدِينَ ، فَقَدْ أَخْبَرَ الْحَبِيبِ الْمُصْطَفَى ﷺ عَنِ الْمَرَاحِلِ التَّارِيْخِيَّةِ الَّتِي تَمُّرُّ بِهَا الأُمَّةُ فِي مَسِيرَتِهَا فِي الْحَيَاةِ ، فَقَالَ ﷺ : « تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيْكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعُهَا ، ثُمَّ تَكُونُ خَلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعُهَا ، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاصِيًّا ، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعُهَا ، ثُمَّ تَكُونُ خَلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ »^(١).

(١) المستند (٤/٢٧٣) . والبزار رقم (١٥٨٨) . رجاله ثقات .

إنَّ معرفة عهد الخلافة الرَّاشدة ، و منهاج الْبُرَوَّة خطوة لا بدَّ منها في تحقيق الأهداف التي تسعى الأُمَّة لتحقيقها في هذه الحياة ؛ فقد قال ﷺ : « عليكم بستي ، و سَتَّة الخلفاء الرَّاشدين المُهَدِّيُّين من بعدي »^(١) .

إنَّ تاريخ عصر الخلفاء الرَّاشدين مليء بالدُّرُوس ، وال عبر ، وهي منتشرة في بطون الكتب ، والمصادر ، والمراجع سواءً كانت تاريخيةً ، أو حديثةً ، أو فقهيةً ، أو أدبيةً ، أو تفسيريةً ، فنحن في أشد الحاجة لجمعها ، وترتيبها ، وتوثيقها ، وتحليلها ، فتارikh الخلافة الرَّاشدة إذا أحسن عرضه ؛ يغذى الأرواح ، ويهدِّب القلوب ، وبيني العقول ، ويشحذ الهمم ، ويقدم الدُّرُوس ، ويسهلُ العبر ، وينضج الأفكار ، ويوضح معالم هذه الخلافة ، وصفات قادتها ، ونظام حكمها ، وأخلاق جيلها ، وعوامل ازدهارها ، وأسباب زوالها ؛ فنستفيد من ذلك في إعداد الجيل المسلم ؛ الذي يتربى على منهاج الْبُرَوَّة ، وفقه الخلافة الرَّاشدة ، ونتعرف على حياة عصر مَنْ قال الله تعالى فيهم : « وَالسَّيِّفُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ أَتَبَعُوهُمْ يَإِحْسَنُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَأَعْدَّهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِيهِنَّ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » [التوبية : ١٠٠] .

وقال تعالى : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدُّهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ تَرَهُمْ رُكَعًا سُجَّدًا » [الفتح : ٢٩] .

قال فيهم رسول الله ﷺ : « خير أمتي القرن الذي بعثتُ فيهم ... »^(٢) .

وقال فيهم عبد الله بن مسعود : « من كان مستنًّا فليسَنَّ بمن قد مات ؛ فإنَّ الحَيَ لا تؤمن عليه الفتنة) ، أولئك أصحاب محمد ﷺ ، كانوا والله أفضل هذه الأمة ! وأبرأها قلوباً ، وأعمقها علمًا وأقلَّها تكُلُّفًا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، وتمسّكوا بما استطعتم من أخلاقهم ، ودينهم ، فإنَّهم كانوا على الهدي المستقيم »^(٣) .

فالصحابية قاموا بتطبيق أحكام الإسلام ونشروه في مشارق الأرض ومعاربها ، فعصرهم خير العصور ، فهم الذين علموا الأُمَّة القرآن الكريم ، ورووا السنن ، والأثار عن رسول الله ﷺ ، فتارิกهم هو الكنز الذي حفظ مَذَرَّرات الأُمَّة في الفكر ، والثقافة ، والعلم ، والجهاد ، وحركة الفتوحات ، والتعامل مع الشعوب ، والأمم ، فتجدد الأجيال في هذا التاريخ المجيد ما يعينها على مواصلة رحلتها في الحياة على منهج صحيح ، وهديٌ رشيدٌ ، وتعرف من خلاله حقيقة رسالتها ، ودورها في دنيا الناس .

(١) سنن أبي داود (٤٢٠) . والترمذى (٥/٤٤) حسن صحيح .

(٢) مسلم (٤/١٩٦٣ - ١٩٦٤) .

(٣) شرح السُّنَّة للبغوي (١/٢١٤ - ٢١٥) .

إنَّ التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ أَصْبَحَ غَرْضًا وَمِرْمَىً لِسَهَامِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ عَلَى مُخْتَلِفِ مَذَاهِبِهِمْ ، وَعَقَائِدِهِمْ ، يَحَاوِلُونَ أَنْ يَوجُدوْ فَجُوَّةً فِي الْإِسْلَامِ ، وَتَارِيخِهِ الرَّاهِنِ ؛ حَتَّى يَتَسَوَّلُ لَهُمْ عَزْلُ الْأَجِيَالِ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَعَقِيدَتِهِ ، وَشَرِيعَتِهِ ، وَقِيمَتِهِ ، وَتَرَاثَهُ الْعَلْمِيُّ ، وَلَذِكْ يَذَلُّونَ قَصَارِي جَهَدِهِمْ لِنَفْتِ السُّمُومِ فِي الْمَجَمِعِ الْإِسْلَامِيِّ .

لَقَدْ حَاوَلَ الْمُسْتَشِرُوْنَ عَلَى مُخْتَلِفِ مَشَارِبِهِمْ أَنْ يَنْشُرُوا كُلَّ رَوَايَةً بَاطِلَّةً تَنْقُصُ مِنْ شَأنِ الصَّحَابَةِ الْكَرَامَ ، وَتَطْعَنُ فِي تَارِيخِ الْأَمَةِ الْمَجِيدَ ، وَتَصْوِرُ تَارِيخَهُمْ بِأَنَّهُ صَرَاعَةٌ عَلَى السُّلْطَةِ ، وَالسِّيَادَةِ ، وَالثُّقُودِ ، وَلَذِكْ يَجِبُ الْحَذْرُ مِنْ كُلَّ مُؤْرِخٍ كَاذِبٍ ، وَمُسْتَشْرِقٍ حَاقِدٍ ، وَعَلَمَانِيٍّ جَاهِلِيٍّ ، وَكُلَّ مَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ ، وَلَا بَدَّ مِنَ الدِّفَاعِ الْمُسْتَمِيتِ عَنْ تَارِيَخِنَا الْخَالِدِ ، وَالْهَجُومِ الشُّجَاعِ عَلَى مَنَاهِجِ الْكَذَابِيِّينَ وَالْمُنْتَرَفِيِّينَ ، وَيَكُونُ هَذَا الْهَجُومُ الْمَبَارَكُ بِقَذَافِ الْحَقِّ الْعَلْمِيَّ الْمَمْلُوَّةِ بِالْحَقَّاَقَاتِ السَّاطِعَةِ ، وَالْأَدَلَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَةِ .

إِنَّ صِياغَةَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ بِمِنْهَجِ أَهْلِ السُّنْنَةِ وَالْجَمَاعَةِ ضَرُورَةٌ مُلْحَّةٌ لِأَبْنَاءِ الْأَمَةِ ، وَقَدْ بَدَأَتْ أَقْلَامُ الْبَاحِثِيْنَ وَالْكَتَابِ تَصْوِيْغَ التَّارِيخِ مِنْ هَذَا الْمَنْظُورِ ، وَهُمْ لَمْ يَبْدُؤُوا مِنْ فَرَاغٍ ؛ لَأَنَّ اللَّهَ حَمَى دِيْنَهُ ، وَحَمَى أَمَّةَ الْإِسْلَامِ ، فَقَيَّضَ لِتَارِيخِ الصَّحَابَةِ مِنْ يَحْقُّقَ وَقَائِعَهُ ، وَيَصْحَّحَ أَخْبَارَهُ ، وَيَكْشِفُ السُّتَّارَ عَنِ الْوَضَاعِيْنَ ، وَالْكَذَابِيِّينَ مِنْ مُلْفَقِيِّ الْأَخْبَارِ ، وَيَرْجِعُ الْفَضْلَ فِي ذَلِكَ الْجَهَدِ الْعَظِيمِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ إِلَى أَهْلِ السُّنْنَةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ أَئِمَّةِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثَيْنَ ، الَّذِينَ حَفَلَتْ مَصَادِرُهُمْ بِالْكَثِيرِ مِنِ الإِشَارَاتِ ، وَالرَّوَايَاتِ الصَّحِيحةِ الَّتِي تَنْقُصُ ، وَتَرْدُ كُلَّ مَا وَضَعَهُ الْمُلْفَقُوْنَ^(١) .

هَذَا ، وَقَدْ سِرَّتْ عَلَى أَصْوَلِ مِنْهَجِ أَهْلِ السُّنْنَةِ ، فَعَكَسَتْ عَلَى الْمَصَادِرِ ، وَالْمَرَاجِعِ الْقَدِيمَةِ ، وَالْحَدِيثَةِ ، وَلَمْ أَعْتَدْ فِي دراسةِ عَصْرِ الْخَلْفَاءِ الرَّاشِدِيِّينَ عَلَى الطَّبْرِيِّ ، وَابْنِ الْأَثِيرِ ، وَالذَّهَبِيِّ ، وَكَتَبِ التَّارِيخِ الْمُشْهُورَةِ فَقْطَ ؛ بَلْ رَجَعَتْ إِلَى كَتَبِ التَّقْسِيرِ ، وَالْحَدِيثِ ، وَشَرِوحِهَا ، وَكَتَبِ الْعَقَائِدِ ، وَالْفَرَقِ ، وَكَتَبِ التَّرَاجِمِ ، وَالْجُرُوحِ ، وَالْعَدَدِيْلِ ، وَكَتَبِ الْفَقَهِ ، فَوُجِدَتْ فِيهَا مَادَّةً تَارِيَخِيَّةً غَزِيرَةً ، يَصْبَعُ الْوَقْوفُ عَلَى حَقِيقَتِهَا فِي الْكَتَبِ التَّارِيَخِيَّةِ الْمُعْرُوفَةِ ، وَالْمَتَداوِلَةِ ، وَقَدْ شَرَعَتْ فِي هَذَا الْكِتَابِ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الَّذِي قَالَ فِيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَأَصْدَقُهَا حَيَاءُ عُثْمَانَ »^(٢) .

وَقَالَ فِيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ بَعْدَ تَقْدِيمِهِ النَّفَقَةِ الْعَظِيمَةِ : « مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ »^(٣) ، وَقَدْ بَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى

(١) المنهج الإسلامي لكتابه التاريخ ، د . محمد محزون ، ص ٤ .

(٢) فضائل الصحابة ، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل (٦٠٤/١) إسناده صحيح .

(٣) سنن الترمذى رقم (٣٧٨٥) .

تصيبه^(١) ، وحثَّ النَّاسَ عِنْدَ وقوعِ الفتنةِ أَنْ يَكُونُوا مَعَ عُثْمَانَ ، وَأَصْحَابِهِ ، فَعَنْ أَبِي هَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : « إِنَّكُمْ تَلْفُونَ بَعْدِي فَتْنَةً ، وَاحْتَلَافًاً - أَوْ احْتَلَافًاً وَفَتْنَةً » - فَقَالَ لَهُ قَاتِلُ الْمُؤْمِنِيْنَ : فَمَنْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ! قَالَ : عَلَيْكُمْ بِالْأَمْمَنِ ، وَأَصْحَابِهِ » وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى عُثْمَانَ^(٢) .

وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - فِي زَمِنِ النَّبِيِّ ﷺ لَا يَعْدِلُونَ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَدًا ، ثُمَّ عُمَرَ ، ثُمَّ عُثْمَانَ ، فَعَنْ أَبْنَى عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : (كَتَنَا فِي زَمِنِ النَّبِيِّ ﷺ لَا نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَدًا ثُمَّ عُمَرَ ، ثُمَّ عُثْمَانَ ، ثُمَّ نَرَكُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ لَا نَفَاضِلَ بَيْنَهُمْ)^(٣) .

* وقد قال فيه الشاعر التميري :

عَلَى مُتَوَكِّلٍ أَوْفَى وَطَابَا
وَرَاءِمُ خَيْرٍ مَنْ وَطَئَ الْتُّرَابَا^(٤)

عِشِيَّةَ يَدْخُلُونَ بِغَيْرِ إِذْنٍ
خَلِيلُ مُحَمَّدٍ وَزَيْرُ صَدْقٍ
* وقال فيه أبو محمد القحطاني :

دَفَعَ الْخِلَافَةَ لِلإِمَامِ الثَّانِي
بِالسَّيْفِ بَيْنَ الْكُفَرِ وَالْإِيمَانِ
وَمَحَا الظَّلَامَ وَبَاهَ بِالْكِتَمَانِ
فِي الْأَمْرِ فَاجْتَمَعُوا عَلَى عُثْمَانَ
وَثُرَا فَيَكِمِلُ خَتْمَةَ الْقُرْآنِ

لَمَّا قَضَى صَدِيقُ أَحْمَادَ نَجْبَةُ
أَعْنَى بِهِ الْفَارُوقَ فَرَرَّ عَنْهُ
هُوَ أَظَهَرَ الْإِسْلَامَ بَعْدَ خَفَائِهِ
وَمَضَى وَخَلَى الْأَمْرَ شُورَى بَيْنَهُمْ
مَنْ كَانَ يَسْهُرُ لَيْلَهُ فِي رَكْعَةٍ

* إلى أن قال :

عُثْمَانَ فَاجْتَمَعُوا عَلَى الْعِصْيَانِ^(٥)

وَالْوَيْلُ لِلرَّكِبِ الَّذِينَ سَعَوا إِلَيْ

إِنَّ حَيَاةَ ذِي الْتُّورِينَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - صَفَحَةٌ مُشْرِقَةٌ فِي تَارِيخِ الْأَمَّةِ ، وَقَدْ قَمَتْ بِتَبْيَعِ أَخْبَارِهِ ، وَحَيَاةِ ، وَعَصْرِهِ ، وَقَمَتْ بِتَرتِيبِهِ ، وَتَسْنِيقِهِ ، وَتَوْثِيقِهِ ، وَتَحْلِيلِهِ ، لَكِي تَصْبِحُ فِي مَتَنَاهُ أَبْنَاءُ أُمَّتِي عَلَى مُخْتَلَفِ طَبَقَاتِهِمْ مِنْ عُلَمَاءَ ، وَدُعَاءَ ، وَخُطَبَاءَ ، وَسَاسَةَ ، وَمُفَكِّرِينَ ، وَقَادِهِ جَيُوشَ ، وَحُكَّامَ ، وَطَلَابَ عِلْمٍ ، وَعَامَّةَ النَّاسِ ؛ لِعَلَّهُمْ يَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا فِي حَيَاةِهِمْ ، وَيَقْتَدُونَ بِهَا فِي أَعْمَالِهِمْ ، فَيَكْرِمُهُمُ اللَّهُ بِالْفَوزِ فِي الدَّارِينَ .

(١) البخاريُّ رقم (٣٦٩٥) .

(٢) فضائل الصحابة (١/٥٥٠) إسناده صحيحٌ .

(٣) البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ رقم (٣٦٩٨) .

(٤) البداية والنهاية (٢٠٦/٧) .

(٥) نونية القحطاني ، ص (٢١ - ٢٥) .

لقد تحدّثت في هذا الكتاب عن اسم ذي الثورين ، ونسبة ، وكتنيته ، وألقابه ، وأسرته ، ومكانته في الجاهلية ، وإسلامه ، وزواجه من رقية بنت رسول الله ﷺ ، وابنته ، وهجرته للحبشة ، وعن حياته مع القرآن الكريم ، وملازمته للنبي ﷺ ، وعن مواقفه في غزوات رسول الله ﷺ ، وعن حياته الاجتماعية بالمدينة ، ومساهمته الاقتصادية في بناء الدولة ، وتبعـت أحـادـيث رسـول الله ﷺ فـي ذـي الثـورـين فـيـما وـرـدـ فـيـ فـضـائـلـهـ مـعـ غـيـرـهـ ، وـما وـرـدـ عـنـ رسـولـ اللهـ فـيـ أـخـبـارـهـ عـنـ فـتـنـةـ الـتـيـ يـقـتـلـ فـيـهاـ عـثـمـانـ ، وـتـكـلـمـتـ عـنـ مـكـانـتـهـ فـيـ عـهـدـ الصـدـيقـ ، وـالـفـارـوقـ ، وـبـيـنـتـ قـصـةـ اـسـتـخـالـفـهـ ، وـما قـامـ بـهـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ عـوـفـ مـنـ عـمـلـ عـظـيمـ فـيـ إـشـرافـهـ عـلـىـ إـدـارـةـ الشـورـىـ ، وـرـدـدـتـ عـلـىـ الرـوـاـيـاتـ الـبـاطـلـةـ الـتـيـ دـسـتـ فـيـ قـصـةـ الشـورـىـ ، فـأـثـبـتـ بـطـلـانـهـ وـزـيـفـهـ بـالـحـجـجـ الـعـلـمـيـةـ ، وـالـبـرـاهـيـنـ الـقـوـيـةـ ، وـالـأـدـلـةـ الـمـنـطـقـيـةـ ، وـذـكـرـتـ أـقـوـالـ أـهـلـ الـعـلـمـ فـيـ أـحـقـيـةـ عـثـمـانـ بـالـخـلـافـةـ ، وـانـقـادـ إـلـيـجـمـاعـ عـلـىـ خـلـافـتـهـ ، وـشـرـحـتـ مـنـهـجـ عـثـمـانـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ - فـيـ نـظـامـ الـحـكـمـ مـنـ خـلـالـ رـسـائـلـهـ لـلـوـلـاـةـ ، وـأـمـرـاءـ الـجـنـدـ ، وـعـامـةـ النـاسـ ، وـمـوـاقـفـهـ فـيـ الـحـيـاةـ ، فـقـدـ وـضـحـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ - الـمـرـجـعـيـةـ الـعـلـيـاـ لـلـدـوـلـةـ ، وـحـقـ الـأـمـةـ فـيـ مـحـاـكـمـةـ الـخـلـيفـةـ ، وـقـوـاـعـدـ الشـورـىـ ، وـالـعـدـلـ ، وـالـمـسـاـواـةـ ، وـالـحـرـيـاتـ ، وـأـهـمـيـةـ الـأـمـرـ بـالـمـعـرـوفـ ، وـالـنـهـيـ عـنـ الـمـنـكـرـ فـيـ حـيـةـ الـمـجـمـعـاتـ .

وقد أشرت إلى أهم صفات عثمان - رضي الله عنه - القيادية ، وذكرت تسعة عشرة صفةً من صفاته مع المواقف الدالة على تلك الصفات الرفيعة ، والأخلاق الحميدة ، وتحدّثت عن المؤسسة المالية ، فيبيّن معاالم السياسة المالية التي أعلنتها عثمان عندما توَّلَ الحكم ، وأنواع النفقات العامة في عهده ، كصرف مرتبات الولاية ، والجنود ، والإنفاق على الحجّ ، وتمويل إعادة بناء المسجد النبويّ ، وتوسيعة المسجد الحرام ، وإنشاء أول أسطول بحريّ ، وتمويل الساحل من السُّعْدية إلى جدّة ، وتمويل حفر الآبار ، ورواتب المؤذنين ، وأشارت إلى أثر تدقُّق الأموال على الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، وإلى حقيقة العلاقة بين عثمان ، وأقاربه ، والعطاء من بيت المال ، وتكلّمت عن مؤسسة القضاء ، وبعض الاجتهادات الفقهية لعثمان ، والتي أثرت في المدارس الفقهية فيما بعد .

وجمعت فتوحات عثمان المتناثرة في كتب التاريخ ، وقامت بترتيبها ، وتنظيمها وفق حركة الجيوش في المشرق ، وبلاد الشّام ، وفي الجبهة المصرية ، والشّمال الإفريقي ، واستخرجت من حركة الفتوح دروساً ، وعبرًا ، وفوائد ، كتحقّق وعد الله للمؤمنين ، وتطور فنون الحرب ، والسياسة ، والاهتمام بحدود الدولة ، والحرص على وحدة الكلمة في مواجهة العدوّ ، وجمع المعلومات عن الأعداء ، وترجمت بعض قادة الفتوح ، كالأنف بن قيس ، وعبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، وسلمان بن ربيعة ، وحبيب بن مسلمة الفهري ، وأشدت بأعظم مفاخر عثمان في توحيد للأمة على قراءة المصحف العثماني ، ووضحت المراحل التي مرّت بها كتابة القرآن

الكريم ، وتحدّث عن ال باعث على جمع القرآن في عهده ، واستشارته لجمهور الصحابة ، وعن عدد المصاحف التي أرسلها إلى الأنصار ، وفهم الصحابة لآيات النهي عن الاختلاف ، وعن مؤسسة الولاية ، وأقاليم الدولة في عهده ، وسياسته مع الولاية ، وحقوقهم ، وواجباتهم ، وأساليبه في متابعة ولاته ، ومراقبتهم ، والاطلاع على أخبارهم ، وبيّنت حقيقة ولاة عثمان - رضي الله عنهم - وماذا لهم ، وحقيقة علاقة عثمان بأبي ذر ، وابن مسعود ، وعمار بن ياسر - رضي الله عنهم - جميعاً .

وفضلت أسباب فتنة مقتل عثمان ، وأهمية دراسة وقائع هذه الفتنة ، وتحدّث عن كل سبب من الأسباب في فقرة مستقلة ، كالرّباء وأثره في المجتمع ، وطبيعة التحول الاجتماعي ، ومجيء عثمان بعد عمر - رضي الله عنهم - وخروج كبار الصحابة من المدينة ، والعصبية الجاهلية ، وتوقف الفتوحات ، والورع الجاهلي ، وطموح الطامحين ، وتأمر العاقدين ، والتّدبير المحكم لإثارة المأخذ ضد الخليفة الرّايد المظلوم ، واستخدام الأساليب والوسائل المهيّجة للناس ، وعن أثر السّببية في أحداث الفتنة ، والخطوات التي اتّخذها عثمان - رضي الله عنه - لمعالجتها ، بإرسال لجان تحقيق ، وتفتيش ، وإرساله لكل الأنصار كتاباً شاملًا بمثابة إعلان عام لكل المسلمين ، ومشورته لولاة الأنصار ، وإقامة الحجّة على المتمرّدين ، والاستجابة لبعض مطالبهم ، وبيّنت ضوابط التعامل مع الفتن من خلال فقه عثمان - رضي الله عنه - ، كالثّثبت ، ولزوم العدل ، والإنصاف ، والحلم ، والأناة ، والحرص على ما يجمع ، ونبذ ما يفرّق ، ولزوم الصّمت ، والحدّر من كثرة الكلام ، واستشارة العلماء الرّبّانيين ، والاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ في الفتنة ، ووصفت احتلال أهل الفتنة للمدينة ، وحضارهم لعثمان ، ودفع الصحابة عنه ، ورفضه لذلك ، وذكرت مواقف الصحابة من مقتل عثمان - رضي الله عنه - وما ورد من أقوالهم في الفتنة .

إنَّ هذا الكتاب يبرهن على عظمة ذي الثُّورين ، ويثبت للقارئ الكريم بأنَّه كان عظيماً بإيمانه ، ويعمله ، وبخلُقه ، وبأثاره ، وكانت عظمته مستمدَّةً من فهمه ، وتطبيقه للإسلام ، وصلته العظيمة بالله وآبائه لهدي الرّسول ﷺ .

إن عثمان - رضي الله عنه - من الأنئمَةِ الّذين يتأسَّى الناس بهديهم ، وبأقوالهم ، وأفعالهم في هذه الحياة ، فسيرته من أقوى مصادر الإيمان ، والعاطفة الإسلامية الصّحيحة ، والفهم السَّليم لهذا الدين ، فلذلك اجتهدت في دراسة شخصيته ، وعصره حسب وسعي ، وطاقتني ، غير مدع عصمةً ، ولا متبرئٍ من زلة ، ووجه الله الكريم لا غيره قصدتُ ، وثوابه أردتُ ، وهو المسؤول في المعونة عليه ، والانتفاع به ، إنَّه طيّب الأسماء ، وسميع الدُّعاء .

هذا ، وقد انتهيتُ من هذا الكتاب السّاعة الثانية من فجر يوم الأربعاء بتاريخ ٨ من شهر ربّيع

حالثاني لعام ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٠٠٢/٦/١٨ م والفضل لله من قبل ، ومن بعد ، وأسئلته سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملى لوجهه خالصاً ، ولعباده نافعاً ، وأن يثبتني على كل حرف كتبته ، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثبت إخوانى الذين أعانونى بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع ، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ، ومغفرته ، ورحمته ، ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَرْزَعْنِيْ أَنْ أَشَكُّ رَحْمَتَكَ أَتَيْ أَعْمَلَتْ عَلَيَّ وَعَلَى وَالدَّيْرَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَلَاحًا تَرْضَهُ وَأَدْخِلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَتِ الْصَّالِحِين﴾ [النمل: ١٩] .

وقال تعالى : « مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يَمْسِكَ فَلَا مُرْسِلٌ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ أَعْرِبُ الْحَكِيمُ » [فاطر: ٢] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلی آلہ وصحبہ أجمعین .

سبحانك اللهم وبحمدك

أشهد أن لا إله إلا أنت

أستغرك وأتوب إليك

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفوريه ، ومغفرته ، ورحمته ، ورضوانه

علي محمد محمد الصلاي

الفصل الأول

ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه بين مكة والمدينة

المبحث الأول

اسمه ، ونسبة ، وكنيته ، وألقابه ، وصفته ، وأسرته ، ومكانته في الجاهلية

أولاً : اسمه ، ونسبة ، وكنيته ، وألقابه :

١ - هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب^(١) ، ويلتقي نسبه بنسب رسول الله ﷺ في عبد مناف . وأمه أروى بنت كُرَيْزَر بنت ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ^(٢) ، وأمهما أمُّ حكيم البيضاء بنت عبد المطلب ، وهي شقيقة عبد الله والد النبي ﷺ ، ويقال : إنَّهَا ولدت اعواماً ، حكاه الرُّبِّيرُ بْنُ بَكَارٍ ، فكان ابن بنت عمَّة النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ ابن خال والدته ، وقد أسلمت أمُّ عثمان ، وماتت في خلافة ابنها عثمان ، وأنَّه كان ممَّن حملها إلى قبرها^(٣) ، وأمَّا أبوه فهلك في الجاهلية .

٢ - كنيته : كان يُكنى في الجاهلية أبا عمرو ، فلما ولد له من رقية بنت رسول الله غلام سماه عبد الله ، واكتنى به ، فكناه المسلمين أبا عبد الله^(٤) .

٣ - لقبه : كان عثمان رضي الله عنه يلقب بذى النورين ، وقد ذكر بدر الدين العيني^(٥) في شرحه على صحيح البخاري : أنه قيل للمهلب بن أبي صفرة^(٦) : لم قيل لعثمان : ذو النورين ؟

(١) الطبقات ، لأبن سعد (٣/٥٣) . والإصابة (٤/٣٧٧) رقم (٥٤٦٣) .

(٢) التمهيد والبيان ، لمحمد يحيى الأندلسى ، ص (١٩) .

(٣) الخلافة الرشيدة والدولة الأموية ، د . يحيى اليعيني ، ص (٣٨٨) .

(٤) التمهيد والبيان ، ص (١٩) .

(٥) هو محمود بن أحمد بن موسى العيني ، أبو محمد : من علماء التاريخ ، والحديث ، والفقه ، له تأليف كثيرة . توفي ٨٥٥ هـ . انظر : شذرات الذهب (٧/٢٨٦) . والضوء اللامع (١٠/١٣١) .

(٦) هو المهلب بن أبي صفرة الأزدي العقلي : من الأمراء الأبطال ، غزا الهند في خلافة معاوية ، وولى الجزيرة لابن الزبير ، وحارب الخوارج في عهد عبد الملك بن مروان ، ثم ولّ خراسان من قبله سنة

الفصل الأول: ذو التورين عثمان بن عفان رضي الله عنه بين مكة والمدينة

فقال: لأنّا لا نعلم أحداً أرسل سترأ على بنتينبيّ غيره^(١).

وقال عبد الله بن عمر بن أبان الجعفي: قال لي خالي حسين الجعفي: يا بني! أتدرى لم سمي عثمان ذا التورين؟ قلت: لا أدرى! قال: لم يجمع بين ابنتينبيّ منذ خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة، غير عثمان، فلذلك سمي ذا التورين^(٢).

وقيل: قد سمي بذى التورين؛ لأنّه كان يكثر من تلاوة القرآن في كل ليلة في صلاته، فالقرآن نور، وقيام الليل نور^(٣).

٤- ولادته: ولد في مكة بعد عام الفيل بست سنين على الصحيح^(٤)، وقيل: ولد في الطائف؛ فهو أصغر من رسول الله ﷺ بنحو خمس سنين^(٥).

٥- صفتة الخلقيّة: كان رجلاً ليس بالقصير، ولا بالطويل، رقيق البشرة، كث اللحية، عظيمها، عظيم الكراديس^(٦)، عظيم ما بين المنكبين، كثير شعر الرأس، يصفّر لحيته، وقال الزهرى: كان عثمان رجلاً مربوعاً، حسن الشعر، حسن الوجه، أصلع، أرّوح الرّجلين^(٧)، وأقنى^(٨)، خدل الساقين^(٩)، طويل الذراعين، قد كسا ذراعيه، جعد الشعر، أحسن الناس ثغراً، جمّته^(١٠) أسفل من أذنيه، حسن الوجه، والراجح: أنه أبيض اللون، وقيل: أسمّر اللون^(١١).

ثانياً: أسرته:

تزوج عثمان رضي الله عنه ثمانى زوجات، كلّهنّ بعد الإسلام و هنّ: رقية بنت رسول الله

= ٧٩ هـ، وترجع شهرته إلى حرب الخوارج. توفي ٨٣ هـ. وفيات الأعيان (٥/٣٥٠)، سير أعلام النبلاء (٤/٣٨٣).

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦/٢٠١).

(٢) سنن البيهقي (٧/٧٣)، قال الدكتور عاطف لماضة: خبر حسن.

(٣) عثمان بن عفان ذو التورين - عباس العقاد، ص (٧٩).

(٤) الإصابة (٤/٣٧٧) رقم (٥٤٦).

(٥) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص (٤٥).

(٦) الكراديس: جمع كردوس، وهو كلّ عظيم التقى في مفصل.

(٧) تاريخ الطبرى (٥/٤٤٠). وأروح الرّجلين: منفرج ما بينهما.

(٨) أقنى: طويل الأنف مع دقة أربنته، وحدب في وسطه.

(٩) خدل الساقين: أي: ضخم الساقين.

(١٠) جمّته: مجتمع شعر الرأس.

(١١) صفة الصّفوة (١/٢٩٥)، صحيح التوثيق في سيرة وحياة ذي التورين، ص (١٥).

، وقد أنجبت له عبد الله بن عثمان ، ثم تزوج أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة رقية ، وتزوج فاختة بنت غزوان ؛ وهي أخت الأمير عتبة بن غزوان ، وأنجبت لعثمان عبد الله الأصغر ، وأم عمرو بنت جنبد الأزدية ؛ وقد أنجبت لعثمان : عمراً ، وخالداً ، وأبان ، وعمراً ، ومریم ، وتزوج فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزومية ؛ وأنجبت لعثمان : الوليد ، وسعیداً ، وأم سعد ، وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية ؛ وأنجبت لعثمان ، عبد الملك ، وتزوج رملة بنت شيبة بن ربيعة الأموية ؛ وأنجبت لعثمان ، عائشة ، وأم أبان ، وأم عمرو ، وقد أسلمت رملة ، وبايعت رسول الله ﷺ ، وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية ، وكانت على النصرانية ، وقد أسلمت قبل أن يدخل بها ، وحسن إسلامها^(١) .

وأمّا أبناؤه ؛ فقد كانوا تسعة أبناء من الذكور من خمس زوجاتٍ . وهم : عبد الله : وأمه رقية بنت رسول الله ﷺ ، ولد قبل الهجرة بعامين ، وأخذته أمُّه معها هاجرت مع زوجها عثمان إلى المدينة ، وفي أوائل أيام الحياة في المدينة نقره الذيل في وجهه قرب عينه ، وأخذ مكان نقر الذيل يتسع حتى طمر وجهه حتى مات في السنة الرابعة للهجرة ، وكان عمره ست سنوات^(٢) .

وعبد الله الأصغر : وأمه فاختة بنت غزوان . وعمرو : وأمه أم عمرو بنت جنبد ، وقد روى عن أبيه ، وعن أسامة بن زيد ، وروى عنه علي بن الحسين ، وسعید بن المسیب ، وأبو الزناد ، وهو قليل الحديث ، وتزوج رملة بنت معاوية بن أبي سفيان ، توفي سنة ثمانين للهجرة .

خالد : وأمه أم عمرو بنت جنبد . وأبان : وأمه أم عمرو بنت جنبد ، كان إماماً في الفقه ، يكنى أبا سعيد ، وتولى إمرة المدينة سبع سنين في عهد عبد الملك بن مروان ، سمع أباه ، وزيد بن ثابت ، له أحاديث قليلة ، منها ما رواه عن عثمان : « مَنْ قَالَ فِي أَوَّلِ يَوْمِه وَلِيْلَتِه : بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِه شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ؛ لَمْ يَضُرِّهِ ذَلِكَ الْيَوْمُ شَيْءٌ ، أَوْ تَلَكَ اللَّيْلَةَ ». فلما أصاب أبا الفالج قال : إني والله نسيت هذا الدُّعَاءَ لِيَمْضِي فِي أَمْرِ الله^(٣) . ويعتبر من فقهاء المدينة في زمانه ، وقد توفي سنة خمس وعشرين مئة^(٤) .

(١) تاريخ الطبرى (٤٤١/٥) ، والتمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان ، ص (١٩) . والأمين ذو الثورين ، لمحمود شاكر ، ص (٣٦٤) .

(٢) الأمين ذو الثورين ، ص (٣٦٥) ، والتمهيد والبيان ، ص (١٩) .

(٣) سنن الترمذى ، كتاب الدعوات رقم (٣٣٨٥) حديث صحيح .

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/٢٥٣) . وتاريخ القضاوى ، ص (٣٠٨) .

و عمر : وأمّه أم عمرو بنت جندب . والوليد : وأمّه فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزوميَّة . و سعيد : وأمّه فاطمة بنت الوليد المخزوميَّة ، تولَّى أمر خراسان عام ستة وخمسين أَيَّام معاوية بن أبي سفيان . و عبد الملك : وأمّه أمُّ الْبَنِين بنت عبيدة بن حصن ، ومات صغيراً . ويقال : ولدت نائلة بنت الفرافصة ولدأَلْعَثَمَان سُمِّيَ : عنبرة^(١) .

وأمّا بناته ؛ فهنَّ سبُّع من خمس نسائِه . مريم : وأمّها أمُّ عمرو بنت جندب . وأمُّ سعيد : وأمّها فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس المخزوميَّة . وعائشة : وأمّها رملة بنت شيبة بن ربيعة . ومريم بنت عثمان : وأمّها نائلة بنت الفرافصة . وأمُّ الْبَنِين : وأمّها أم^(٢) ولد .

وأمّا شقيقة عثمان ؛ فهي آمنة بنت عفَّان ، فقد عملت ماشطةً في الجاهليَّة ، ثمَّ تزوَّجت الحكَم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة المخزومي ، وأسرت سريَّة عبد الله ابن جحش الحكم بن كيسان ، وفي المدينة أسلم ، وحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله ؛ حتَّى قتل يوم بئر معونة شهيداً في بداية السنة الرابعة للهجرة ، وبقيت آمنة بنت عفَّان في مَكَّة على شِرِّكَهَا حتَّى يوم الفتح ، حيث أسلمت مع أمّها ، وبقيَّة أخواتها ، وبايعت رسول الله ﷺ مع هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقُن ، ولا يزنين^(٣) .

وأمّا إخوة عثمان من أمّه ؛ فله ثلاثة إخوة ، وهم : الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، قتل أبوه يوم بدرٍ صبراً وهو كافرٌ ، وخرج الوليد مع أخيه عمارة بعد الحديبية لرَدَّ أختهما أمَّ كلثوم التي أسلمت ، وهاجرت ، فأبى رسول الله ﷺ رَدَّها ، وأسلم الوليد يوم الفتح . وعمارة بن عقبة ، تأخَّر إسلامه . وخالد بن عقبة .

وأمّا أخواته من أمّه ؛ فهنَّ : أمَّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، أسلمت بمَكَّة ، وهاجرت ، وبايعت رسول الله ﷺ ، وهي أول من هاجر من النِّسَاء بعد أن عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية . وأمُّ حكيم بنت عقبة . وهند بنت عقبة^(٤) .

ثالثاً : مكانته في الجاهليَّة :

كان رضي الله عنه في أيام الجاهليَّة من أفضل النَّاس في قومه ؛ فهو عريض الجاه ، ثريٌ ، شديد الحياة ، عذب الكلمات ، فكان قومه يحبُّونه أشدَّ الحُبّ ، ويوقِّرونَه ، لم يسجد في

(١) الأمين ذو الْتُّورِين ، ص (٣٦٩) .

(٢) التَّمَهِيدُ وَالبَيَان ، ص (٢٠) .

(٣) الأمين ذو الْتُّورِين ، ص (٣٤٦) .

(٤) المصدر السَّابِق نفسه ، ص (٣٥٤) .

الجاهلية لصنم قطُّ ، ولم يقترب فاحشة قطُّ ، فلم يشرب خمراً قبل الإسلام ، وكان يقول : إنَّها تذهب العقل . والعقل أسمى ما منحه الله للإنسان ، وعلى الإنسان أن يسمو به ، لا أن يصارعه ، وفي الجahلية كذلك لم تجذبه أغاني الشَّباب ، ولا حلقات اللَّهُو ، ثمَّ إنَّ عثمان كان يتعفَّف عن أن يرى عورته^(١) ، ويرحم الله عثمان رضي الله عنه فقد يسَّر لنا سبيل التعرُّف عليه ، حيث قال : « ما تغنىت ، ولا تمنيت ، ولا مسَّست ذكري بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ ، ولا شربت خمراً في جاهلية ، ولا إسلام ، ولا زنيت في جاهلية ولا في إسلام »^(٢) .

وكان رضي الله عنه على علمٍ بمعارف العرب في الجاهلية ، ومنها الأنساب ، والأمثال ، وأخبار الأيام ، وساح في الأرض ، فرحل إلى الشام ، والحبشة ، وعاشر أقواماً غير العرب ، فعرف من أحوالهم ، وأطوارهم ما ليس يعرفه غيره^(٣) ، واهتم بتجارته التي ورثها عن والده ، ونمث ثرواته ، وأصبح يعُد من رجالاتبني أميّة الذين لهم مكانة في قريش كلها ، فقد كان المجتمع المكيُّ الجاهليُّ الذي عاش فيه عثمان يقدر الرجال حسب أموالهم ، ويُهاب في الرجال حسب أولادهم ، وإخوتهم ، ثمَّ عشيرتهم ، وقومهم ، فنال عثمان مكانة مرموقة في قومه ، ومحبَّة كبيرة . ومن أطرف ما يروى عن حب الناس لعثمان لما تجمع فيه من صفات الخير : أنَّ المرأة العربية في عصره كانت تغنى لطفلها أغنية تحمل تقدير الناس له ، وثناءهم عليه ، فقد كانت تقول :

أحْبَابُ الْرَّحْمَةِ وَالْكَوَافِرُ حَبَّ قَرِيرِيَّشِ لِعَثْمَانَ^(٤)

رابعاً : إسلامه :

كان عثمان قد ناهز الرابعة والثلاثين من عمره حين دعاه أبو بكر الصديق إلى الإسلام ، ولم يُعرف عنه تلاؤ ، أو تلعم ، بل كان سباقاً أجاب على الفور دعوة الصديق ، فكان بذلك من السابقين الأولين حتى قال أبو إسحاق : كان أول الناس إسلاماً بعد أبي بكر ، وعليٌ ، وزيد بن حارثة عثمان^(٥) ، فكان بذلك رابع من أسلم من الرجال ، ولعل سبقه هذا إلى الإسلام كان نتيجة لما حدث له عند عودته من الشام ، وقد قصه رضي الله عنه على رسول الله ﷺ حين دخل عليه هو ، وطلحة بن عبيد الله ، فعرض عليهم الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن ، وأباهمما بحقوق

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ، لأحمد شلبي (٦١٨/١) .

(٢) حلية الأولياء (٦١ / ٦٠ ، ٦١) الخبر صحيح .

(٣) عبقرية عثمان ، للعقاد ، ص (٧٢) .

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامي (٦١٨/١).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩).

الإسلام ، ووعدهما الكرامة من الله ، فآمنا ، وصدقنا . فقال عثمان : يا رسول الله ! قدمت حديثاً من الشّام ، فلماً كنّا بين معان والرّقاء ، ونحن كالثّيام إذا منادٍ ينادي : أيّها الثّيام ! هبُوا ؟ فإنَّ أَحْمَد قد خرج بمكّة ، فقدمنا ، فسمعنا بك^(١) .

لا شكَّ أنَّ هذه الحادثة تركت في نفس صاحبها أثراً إيجابياً لا يستطيع أن يتخلّى عنه ، عندما يرى الحقيقة ماثلةً بين عينيه ، فمن ذا الذي يسمع بخروج النبي ﷺ قبل أن يصل إلى البلد الذي يعيش فيه ؟ حتّى إذا نزله ، ووُجِدَ الأحداث والحقائق تنطق كلُّها بصدق ما سمع به ، ثمَّ يتَرَدَّد في إجابة الدّعوة ؟ لا يستطيع الإنسان مهما كان مكابرًا إلا أن يذعن للحقّ ، ومهمًا أظهر الجفاء فإنَّ ضميره لا يزال يتجلج في صدره ؛ حتّى يؤمّن به أو يموت ، فيتخلص من وخذ الضمير ، وتأنيبه ، ولم تكن سرعة تلبية عن طيش ، أو حمق ، ولكنّها كانت عن يقينٍ راسخ ، وتصديق لا يتَرَوّق إليه شكٌ^(٢) ، فقد تَمَّلَ في هذه الدّعوة الجديدة بهدوء كعادته في معالجة الأمور ، فوجد : أنَّها دعوةٌ إلى الفضيلة ، ونبذٌ للرّذيلة ، دعوةٌ إلى التّوحيد ، وتحذير من الشرك ، دعوةٌ إلى العبادة ، وترهيب من العفة ، ودعوةٌ إلى الأخلاق الفاضلة ، وترهيبٌ من الأخلاق السيئة ، ثمَّ نظر إلى قومه ، فإذا هم يعبدون الأوّثان ، ويأكلون الميتة ، ويسيئون الجوار ، ويستحلّون المحارم من سفك الدماء ، وغيرها^(٣) ، وإذا بالتبّيَّن محمد بن عبد الله ﷺ صادق أمينٍ ، يُعرف عنه كُلُّ خير ، ولا يُعرف عنه شُرٌّ قطُّ ، فلم تعهد عليه كذبةٌ ، ولم تُحسب عليه خيانةٌ ، فإذا هو يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى صلة الرّحم ، وحسن الجوار ، والصلة ، والصوم ، وألا يعبد غير الله^(٤) ، فأسلم على يد أبي بكر الصّديق ، ومضى في إيمانه قدماً ، قوياً ، هادئاً ، وديعاً ، صابراً ، عظيماً ، راضياً ، عفوأً ، كريماً ، محسناً ، رحيمًا ، سخيًّا ، باذلاً ، يؤاسي المؤمنين ، ويعين المستضعفين ، حتّى اشتَدَّتْ قنة الإسلام^(٥) ، وفي إسلام عثمان قالَتْ خالتَه سعد بنت كريز :

هَدَى اللَّهُ عُثْمَانَ بِقَوْلِي إِلَى الْهُدَى
فَتَابَعَ بِالرَّأْيِ السَّدِيدِ مُحَمَّداً
وَأَنْكَحَهُ الْمَبْعُوثُ بِالْحَقِّ بِتَّهُ
وَأَرْسَدَهُ وَاللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ
وَكَانَ بِرَأْيٍ لَا يُصَدِّعُ عَنِ الصَّدْقِ
فَكَانَ كَبُدْرٌ مَازَاجَ الشَّمْسَ فِي الْأَفْقِ

(١) الطّبقات ، لابن سعد (٣/٥٥) .

(٢) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الرّاشدين ، ص (٣٠٢) .

(٣) انظر : مرويات العهد المكي ، لعادل عبد الغفور (٢/٨٠٥) .

(٤) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص (٥٣) .

(٥) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/٣٧) .

فِدَاؤُكَ يَا بْنَ الْهَامِشِيِّنْ مُهْجَتِي
وَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ أَرْسِلْتَ لِلْخَلْقِ^(١)
خَامِسًاً : زواجه من رقية بنت رسول الله ﷺ :

فرح المسلمين بإسلام عثمان فرحاً شديداً ، وتوثقت بينه وبينهم عرّا المحبة ، وأخوة الإيمان ، وأكرمه الله تعالى بالزواجه من بنت رسول الله ﷺ رقية ، وقصة ذلك : أنَّ رسول الله ﷺ كان قد زوجها من عتبة بن أبي لهب ، وزوج اختها أم كلثوم من عتبة بن أبي لهب ، فلما نزلت سورة المسد : ﴿تَبَّتْ يَدَاهُ أَبْيَاهُ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ سَيَصْلَنَ نَارَادَاتَ لَهُبِّ وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَسَدٍ﴾ [المسد : ١ - ٥] قال لهم أبو لهب ، وأمهما أم جميل بنت حرب بن أمية (حمالة الحطب) : فارقا ابتي محمد ! ففارقا هما رضي الله عنه يسمع بخبر طلاق رقية حتى استطار^(٣) فرحاً . وبادر خطبها من رسول الله ﷺ فزوجها الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مِنْهُ ، وزفتها^(٤) أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وقد كان عثمان من أبهى قريش طلعةً ، وكانت هي تضاهيه قسامه ، وصباحةً ، فكان يقال لها حين زفت إليه : **أَحَسَّنْ زَوْجَيْنِ رَأَى إِنْسَانٌ رُقَيَّةُ وَزَوْجُهَا عُثْمَانُ^(٥)** وعن عبد الرحمن بن عثمان القرشيّ : أنَّ رسول الله ﷺ دخل على ابنته وهي تغسل رأس عثمان ، فقال : يا بُنْيَة ! أحسني إلى أبي عبد الله ، فإنه أشبه أصحابي بي خلقاً^(٦) . ظنت أم جميل بنت حرب ، وزوجها أبو لهب : أنهما بتسريع رقية ، وأم كلثوم رضي الله عنها سيصييان من البيت المحمدي مقتلاً ، أو سيوهنانيه ، ولكن الله - عز وجل - اختار لرقية ، وأم كلثوم الخير ، ورد الشَّقَيْنِ أم جميل ، وأبا لهب بغيظهما لم ينالا خيراً ، وكفى الله البيت النبوي شرّهما ، وكان أمر الله قدرًا مقدوراً^(٧) .

سادساً : ابتلاء ، وهجرته إلى الحبشة :

إِنَّ سَنَةَ الْابْتِلَاءِ ماضِيَّةٌ فِي الْأَفْرَادِ ، وَالْجَمَاعَاتِ ، وَالسُّعُوبِ ، وَالْأَمْمِ ، وَالدُّولِ ، وَقَدْ

(١) البداية والنهاية (٢١٠ / ٧).

(٢) ذو التورين عثمان بن عفان رضي الله عنه لمحمد رشيد رضا ، ص (١٢) .

(٣) كاد يطير من شدة الفرح .

(٤) زفتها : قدمتها إلى زوجها .

(٥) أنساب الأشراف ، ص (٨٩) .

(٦) رواه الطبراني و رجاله ثقات ، قاله الهيثمي ، المجمع ، رقم (٨١ / ٩) .

(٧) دماء على قفيص عثمان ، د . إبراهيم المتناوي ، ص (٨٤) .

مضت هذه السنة في الصحابة الكرام ، وتحملوا من البلاء ما تنوء به الرؤاسي الشامخات ، وبذلوا أموالهم ، ودماءهم في سبيل الله ، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابلاء ، فقد أودى عثمان ، وعذب في سبيل الله تعالى على يدي عمّه الحكم بن أبي العاص بن أمية ، الذي أخذه ، فأوثقه رباطاً ، وقال له : أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين ! فقال عثمان رضي الله عنه : والله لا أدعه أبداً ، ولا أفارقه ! فلما رأى الحكم صلاته في دينه ؛ تركه^(١) ، واشتبأ الإيذاء بالمسلمين جميعاً ، وتجاوز الحدّ ؛ حيث قُتل ياسر ، وزوجته سميرة ، والنبي يتالم أشدّ الألم ، ويفكر إلى أين يذهب المسلمين ؟ ثم اهتدى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحبشة ، حيث قال للMuslimين : « لو خرجتم إلى الحبشة ؛ فإنّ بها ملكاً صالحاً ، لا يظلم عنده أحد »^(٢) .

وبدأت الهجرة والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتالم ، وهو يرى الفئة المؤمنة تتسلّل سراً^(٣) خارجة من مكة ، ويركبون البحر ، وخرج يمتطي بعضهم الذواب ، والبعض الآخر يسير على الأقدام ، وتابعوا السير حتى وصلوا ساحل البحر الأحمر ، ثم أموروا عليهم عثمان بن مظعون ، وشاءت عنابة الله أن يجدوا سفيتين ، فركبوا مقابل نصف دينار لكلّ منهم ، وعلمت قريش ، فأسرعت في تعقبهم إلى الساحل ، ولكنّهم كانوا قد أبحرت بهم السفيتان^(٤) ، وكان ممّن هاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الأولى ، والهجرة الثانية عثمان بن عفان ، ومعه فيما أمرأته رقية بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان وصولهم للحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة منبعثة ، فوجدوا الأمان ، والأمان ، وحرمة العبادة ، وقد تحدّث القرآن الكريم عن هجرة المسلمين الأوائل إلى أرض الحبشة قال تعالى : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لِتُبَوَّثُنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُرْأَةً لِآخِرَةٍ أَكْبَرُهُمْ كَائِنُوا يَعْلَمُونَ » [النحل : ٤١] .

وقد نقل القرطبي - رحمه الله - قوله قتادة - رحمه الله - : المراد : أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ظلمهم المشركون بمكة ، وأخرجوهم ؛ حتى لحق طائفه منهم بالحبشة ، ثم بوأهم الله تعالى دار الهجرة ، جعل لهم أنصاراً من المؤمنين^(٥) .

وقال تعالى : « قُلْ يَعْبُدُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ رَبُّكُمْ لِلَّذِينَ أَخْسَسُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضَ اللَّهِ

(١) التمهيد والبيان ، ص (٢٢) .

(٢) الهجرة في القرآن الكريم ، ص (٢٩٠) . والسيرة النبوية لابن هشام (٤١٣/١) .

(٣) دماء على قميص عثمان ، ص (١٥) . والطبقات (٢٠٤/١) .

(٤) الطبقات (٢٠٤/١) . وتاريخ الطبرى (٦٩/٢) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٠٧/١٠) .

وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ [الزمر : ١٠] . قال ابن عباس رضي الله عنهم : يريد جعفر بن أبي طالب ، والذين خرجوا معه إلى الحبشة^(١) . وقد استفاد عثمان رضي الله عنه من هذه الهجرة ، وأضاف خبرة ، ودروساً لنفسه ، استفاد منها في مسيرته الميمونة ، ومن أهم هذه الدروس ، وال عبر :

١ - أن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن ينزل بهم الأشرار ، والضاللون أنواع العذاب والاضطهاد دليل على صدق إيمانهم ، وإخلاصهم في معتقداتهم ، وسمو نفوسهم ، وأرواهم ، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير ، واطمئنان النفس ، والعقل ، وما يأملونه من رضا الله - جل شأنه - أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب ، وحرمان ، واضطهاد ، لأن السيطرة في المؤمنين الصادقين ، والدعاة المخلصين ، تكون دائماً وأبداً لأرواهم ، لا لأجسادهم ، وهم يسرعون إلى تلبية مطلب أرواهم من حيث لا يبالون بما تتطلبه أجسامهم من راحة ، وشبع ، ولذة ، وبهذا تنتصر الدعوات وبهذا تتحرر الجماهير من الظلمات ، والجهالات^(٢) .

٢ - وقد تعلم عثمان رضي الله عنه من هدي النبي ﷺ الشفقة على الأمة ، وظهرت هذه الشفقة عندما تولى الخلافة ، وقبلها لما كان في المجتمع المدني في عهد النبي ﷺ ، وأبي بكر ، وعمر رضي الله عنهم فقد رأى بعينه وبصيرة قلبه شفقة النبي ﷺ على أصحابه ، ورحمته بهم ، وحرصه الشديد للبحث عن أمنهم ، وراحتهم ، ولذلك أشار عليهم بالذهاب إلى الملك العادل الذي لا يظلم عنده أحد ، فكان الأمر كما قال ﷺ ، فأمنوا في دينهم ، ونزلوا عنده في خير منزل^(٣) ، فالرسول ﷺ هو الذي وجّه الأنظار إلى الحبشة ، وهو الذي اختار المكان الآمن لجماعته ، ودعوته ؟ كي يحميها من الإيادة ، وهذه تربية نبوية لقيادات المسلمين في كل عصر أن تخطّط بحكمة ، ويعُد نظر لحماية الدعوة ، والدعاة ، وتبث عن الأرض الآمنة التي تكون عاصمةً احتياطيةً للدعوة ، ومركزًا من مراكز انطلاقها فيما لو تعرض المركز الرئيسي للخطر ، أو وقع احتمال اجتياده ، فجنود الدعوة هم الثروة الحقيقة ، وهم الذين تنصب الجهود كلها لحفظهم ، وحمايتهم ، دون أن يتم أي تفريط بأرواهم ، وأمنهم ، ومسلم واحد يعادل ما على الأرض من بشر خارجين عن دين الله ، وتوحيده^(٤) .

(١) المصدر السابق نفسه (١٥ / ٢٤٠) .

(٢) السيرة النبوية ، للدكتور مصطفى السباعي ، ص (٥٧) .

(٣) الهجرة في القرآن الكريم ، ص (٣١٢) .

(٤) التربية القيادية (١ / ٣٣٣) .

٣ - وتعلَّم عثمان رضي الله عنه من هدي النَّبِيِّ ﷺ في هجرة الحبشة : أنَّ الأخطار لا بدَّ أن يتجشَّمها المقربون إلى القائد ، وأهله ، ورحمه ، أمَّا أن يكون خواصُّ القائد في منأى عن الخطير ، ويدفع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة ، فهو منهجٌ بعيدٌ عن نهج النَّبِيِّ ﷺ^(١) ، ولهذا لمَّا تولَّ ذو الْتُّورِين الخلافة كان أقرباؤه في مقدمة الجيوش ، فهذا عبد الله بن أبي سرح في فتوحات إفريقية ، وذاك عبد الله بن عامر في فتوحات المشرق ، وألزم معاوية أن يركب البحر ومعه زوجته ، وأن يكون في مقدمة الجيوش الغازية ، وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله عند حديثنا عن الفتوحات .

٤ - كان عثمان رضي الله عنه أول من هاجر إلى الحبشة بأهله من هذه الأمة^(٢) ، قال رسول الله ﷺ : « صحبهما الله ! إنَّ عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوطٍ »^(٣) .

ولمَّا أُشِيعَ : أنَّ أهل مكَّة قد أسلموا وبلغ ذلك مهاجري الحبشة أقبلوا حتى إذا دنو من مكَّة بلغهم أنَّ ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكَّة كان باطلًا ، فدخلوا في جوار بعض أهل مكَّة ، وكان فيما رجع عثمان بن عفَان وزوجه رقِيَّة رضي الله عنهما^(٤) ، واستقرَّ المقام به حتَّى أذن الله بالهجرة إلى المدينة ، ومنذ اليوم الذي أسلم فيه عثمان لزم النَّبِيِّ ﷺ حيث كان ، ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه ، أو في مهمَّة من المهام التي ينبد لها ، ولا يغُنِي أحد فيها غناءه ، شأنه في هذه الملازمة شأن الخلفاء الرَّاشدين جميعًا ، كائناً هي خاصةً من خواصِّهم ، رشحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين^(٥) ، لقد كان ذو الْتُّورِين على صلةٍ وثيقةٍ بالدعوة الكبرى من سنتها الأولى ، فلم يفته شيءٌ من أخبار النُّبوة الخاصة ، والعامَّة في حياة النَّبِيِّ ﷺ ، ولم يفته شيءٌ بعدها من أخبار الخلافة في حياة الشَّيَخِين ، ولم يفته بعبارة أخرى شيءٌ مما نسميه اليوم بأعمال التَّأسيس في الدُّولَة الإسلامية^(٦) .

* * *

(١) المصدر السَّابق نفسه (٣٣٣/١) . والسيرة النبوية للصلابي (٣٤٨/١) .

(٢) الصواعق المرسلة (٣١٤/١) .

(٣) المعرفة والتاريخ (٢٦٨/٣) ضعيف الإسناد .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٤٠٢/١) .

(٥) عثمان بن عفان ، للعقاد ، ص (٨٠) .

(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٧٨) .

المبحث الثاني

حياة عثمان رضي الله عنه مع القرآن الكريم

كان المنهج التربويُّ الذي تربَّى عليه عثمان بن عفان وكلُّ الصَّحابة الكرام هو القرآن الكريم ، المنزَل من عند ربِّ العالمين ، فهو المصدر الوحيد للتلقي ؛ لذلك حرص الحبيب المصطفى على توحيد مصدر التلقي وتقْرُّدِه ، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج الذي يتربَّى عليه الفرد المسلم ، والأسرة المسلمة ، والجماعة المسلمة ، فكانت للآيات الكريمة التي سمعها عثمان رضي الله عنه من رسول الله ﷺ مباشرةً أثرها في صياغة شخصية ذي الُّورين الإسلامية ، فقد ظهرت قلبه ، وزُكِّرت نفسه ، وتفاعلَت معها روحه ، فتحولَ إلى إنسانٍ جديدٍ بقيمه ، ومشاعره ، وأهدافه ، وسلوكه ، وتطلعاته^(١) ، وقد تعلقَ عثمان رضي الله عنه بالقرآن الكريم ، وحدَّثنا أبو عبد الرحمن السُّلمي كيف تعلَّمَه من رسول الله ﷺ ، وله أقوالٌ تدلُّ على حبه الشَّديد للعيش مع كتاب الله تعالى ، فعن أبي عبد الرحمن السُّلمي قال : حدَّثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن - كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما : أنَّهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات ، لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم ، والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن ، والعلم ، والعمل جميعاً ، ولهذا كانوا يبقون مدَّةً في حفظ السُّورة^(٢) ، وذلك : أنَّ الله تعالى قال : «كَتَبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ مُّبَرَّأُ مِنْ أَيْنَهُ، وَلِتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» [ص : ٢٩] وقد روى عثمان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قوله : «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعْلَمَ الْقُرْآنَ وَعَلِمَه»^(٣) .

وقد عرض القرآن الكريم كاملاً على رسول الله ﷺ قبل وفاته ، ومن أشهر تلاميذ عثمان في تعلم القرآن الكريم ، أبو عبد الرحمن السُّلمي ، والمغيرة بن أبي شهاب ، وأبو الأسود ، وزر بن حبيش^(٤) ، وقد حفظ لنا التاريخ بعض أقوال عثمان رضي الله عنه في القرآن الكريم حيث

(١) السيرة النبوية ، للصلabi (١٤٥/١) .

(٢) الفتاوى (١٣/١٧٧) .

(٣) البخاري ، فضائل القرآن رقم (٥٠٢٧) .

(٤) تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الراشدين للذهبي ، ص (٤٦٧) .

قال : لو ظهرت قلوبنا ، لما شيعت من كلام الله عَزَّ وجلَّ^(١) ، وقال : إني لأكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله .^(٢) - يعني المصحف . - وقال : حُبِّبَ إلَيَّ مِن الدُّنْيَا ثَلَاثٌ : إشباع الجيعان ، وكسوة العريان ، وتلاوة القرآن .^(٣) وقال : أربعة ظاهرون فضيلة ، وباطنهم فريضة : مخالطة الصالحين فضيلة ، والاقتداء بهم فريضة ، وتلاوة القرآن فضيلة ، والعمل به فريضة ، وزيارة القبور فضيلة ، والاستعداد للموت فريضة ، وعيادة المريض فضيلة ، واتخاذ الوصيَّة فريضة^(٤) .

وقال رضي الله عنه : أضيع الأشياء عشرة : عالمٌ لا يُسأَلُ عنه ، وعلمٌ لا يُعْلَمُ به ، ورأيٌ صوابٌ لا يُقْبَلُ ، وسلاحٌ لا يستعمل ، ومسجدٌ لا يُصْلَى فيه ، ومصحفٌ لا يقرأ فيه ، ومالٌ لا ينفق منه ، وخيلٌ لا تُركب ، وعلم الرُّهْد في بطن من يرید الدنيا ، وعمرٌ طويلٌ لا يتزَوَّد صاحبه فيه لسفره^(٥) .

وكان رضي الله عنه حافظاً لكتاب الله ، وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف ، فقيل له في ذلك ، فقال : إِنَّه مباركٌ جاء به مباركٌ^(٦) . وما مات عثمان حتَّى خرق مصحفه من كثرة ما يديم^(٧) النَّظر فيه ، وقالت امرأة عثمان يوم الدَّار : اقتلوه ، أو دعوه ، فوالله لقد كان يحيي الليل بالقرآن في ركعة^(٨) .

وقد ذكر عنه أَنَّه قرأ القرآن ليلةً في ركعةٍ لم يصلِّ غيرها^(٩) . وقد تحقق فيه قول الله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ فَقِيتُ أَنَّهُ أَتَيَّل سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَاب﴾ [الزمر : ٩] .

لقد تشرَّبَ عثمان رضي الله عنه بالمنهج القرآني ، وتتلذذ على يدي رسول الله ﷺ ، وعرف من خلال القرآن الكريم من هو الإله الذي يجب أن يعبد ، وكان الشَّيْطَان يغرس في نفسه معاني تلك الآيات العظيمة ، فقد حرص ﷺ أن يربِّي أصحابه على التصور الصحيح عن ربِّهم ، وعن حقِّه عليهم ، مدركاً : أَنَّ هذا التصور سيورث التَّصْدِيق ، واليقين عندما تصفو التَّقوس ،

(١) الفتوى (١٢٢/١١) . والبداية والنهاية (٢٢٥/٧) .

(٢) البداية والنهاية (٢٢٥/٧) . وفرائد الكلام ، ص (٢٧٥) .

(٣) إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاذ ، ص (٨٨) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص (٩٠) وفرائد الكلام ، ص (٢٧٨) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص (٩١) . وفرائد الكلام ، ص (٢٧٨) .

(٦) البيان والتبيان (١٧٧/٣) ، فرائد الكلام ، ص (٢٧٣) .

(٧) يديم : يطبل . البداية والنهاية (٢٢٥/٧) .

(٨) البداية والنهاية (٢٢٥/٧) .

(٩) الخلافة الرَّاشدة والدُّولَةُ الْأُمُوَّةُ ، ص (٣٩٧) .

وستقييم الفطرة ، فأصبحت نظرة ذي الثورين إلى الله - عز وجل - ، والكون ، والحياة ، والجنة ، والثار ، والقضاء ، والقدر ، وحقيقة الإنسان ، وصراعه مع الشيطان مستمدًا من القرآن الكريم ، وهدي النبي ﷺ .

● فالله سبحانه وتعالى متّه عن النّقائص ، موصوف بالكلمات ، التي لا تناهى فهو سبحانه (واحد لا شريك له ، ولم يتّخذ صاحبة ولا ولد) .

● وأنّه سبحانه حدد مضمون هذه العبودية ، وهذا التّوحيد في القرآن الكريم^(١) . وأمّا نظرته للكون ، فقد استمدّها من قول الله تعالى : « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِاللَّهِ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَحْكَمُوا لَهُ وَأَنَّهَا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑤ وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسِيَّ مِنْ فَوْقَهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَرَ فِيهَا أَفْوَاتَهَا فِي أَيْمَانِهِ سَوَاءٌ لِلْسَّابِلَيْنَ ⑥ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَتَيْتَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا إِنَّنَا طَلَّاعِينَ ⑦ فَقَضَيْنَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَ أَسْمَاءَ الْأَرْضِ بِمَصَبِّيحٍ وَحَفَظَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ⑧ » [فصلت : ٩ - ١٢] .

وأمّا هذه الحياة مهمًا طالت ؟ فهي إلى زوال ، وأنّ متابعتها مهمًا عظم ؛ فإنه قليلٌ حقيقٌ ، قال الله تعالى : « إِنَّمَا مَثَلُ الْحَوْقَةِ الدُّنْيَا كَمَّا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَخَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَمُ حَتَّى إِذَا أَخْدَتِ الْأَرْضَ زُحْفَهَا وَأَرْتَيْتَ وَظَرَبَ أَهْلَهَا أَهْلَمُهُمْ قَنْدِرُوكَ عَلَيْهَا أَنَّهَا أَمْرٌ نَّا يَلَّا أَوْتَهَا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَفْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَتِ لِتَوْمِ يَنْفَكَرُونَ ⑨ » [يومن : ٢٤] .

وأمّا نظرته إلى الجنة ، فقد استمدّها من خلال الآيات الكريمة ، فأصبح هذا التّصور رادعاً له في حياته عن أي انحرافٍ عن شريعة الله ، فيرى المتبّع لسيرة ذي الثورين عمق استيعابه لفقة القدوم على الله عز وجل ، وشدة خوفه من عذاب الله ، وعقابه ، وسُنْرِي ذلك في صفحات هذا البحث بإذن الله تعالى .

وأمّا مفهوم القضاء ، والقدر ، فقد استمدّه من كتاب الله ، وتعليم رسول الله ﷺ له ، فقد رسم مفهوم القضاء والقدر في قلبه ، واستوعب مراتبه في كتاب الله تعالى ، فكان على يقين بأنّ علم الله محيطٌ بكل شيء ، قال الله تعالى : « وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَنْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْبَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْيِضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابِ مِنِّي ⑩ » [يومن : ٦١] .

وأنّ الله تعالى قد كتب كل شيء كائن ، قال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نُحْكِي الْمَوْقَعَ وَنَحْكُمُ مَا قَدَّمُوا وَإِنَّا هُمْ وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَا فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ⑪ » [يس : ١٢] .

(١) منهج الرّسول في غرس الرّوح الجهادية ، ص (١٠ إلى ١٦) .

الفصل الأول: ذو الْمُورِّين عثمان بن عفَّان رضي الله عنه بين مَكَّة والمدينه

وَأَنَّ مُشَيْئَةَ اللَّهِ نَافِذَةٌ ، وَقُدْرَتِه تَامَّةٌ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿أُولَئِنَّ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَلَيْهِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّمَا كَانَ عَلِيمًا قَبْرِيَّا﴾ [فاطر: ٤٤].

وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَلِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقد ترتب على الفهم الصَّحيح والاعتقاد الرَّاسخ في قلبه لحقيقة القضاء والقدر ، ثمارٌ نافعةٌ ، ومفيدةٌ ، ظهرت في حياته ، وسنراها - بإذن الله تعالى - في هذا الكتاب ، وعرف من خلال القرآن الكريم حقيقة نفسه ، وبني الإنسان ، وأنَّ حقيقة خلقه ترجع إلى أصلين : الأصل البعيد ، وهو الخلقة الأولى من طين ، حين سُوَّاه ، ونفحَ فيه الرُّوح . والأصل القريب ، وهو خلقه من نطفةٍ ، قال الله تعالى : ﴿أَلَّذِي أَحَسِنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَنِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَحَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ الْتَّمَمَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئَدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩-٧].

وعرف : أنَّ هذا الإنسان خلقه الله بيده ، وأكرمه بالصُّورة الحسنة ، والقامة المعتدلة ، ومنحه العقل ، واللُّطُق ، والتَّميُّز ، وسُخِّر له ما في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وفضَّله على كثير من خلقه ، وكرَّمه بإرساله الرُّسُل له ، وأنَّ من أروع مظاهر تكريمه المولى - عَزَّ وَجَلَ - للإنسان أن جعله أهلاً لحِبَّه ، ورضاه ، ويكون ذلك باتِّباعَ الَّذِي ﷺ الذي دعا النَّاسَ إلى الإسلام ؛ لكي يحيوا حياةً طيبةً في الدنيا ، ويظفروا بالنَّعيمِ المقيمِ في الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ اُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْكِمَنَّ لَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنُبَرِّئَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وعرف عثمان رضي الله عنه من خلال القرآن الكريم حقيقة الصراع بين الإنسان والشَّيطان ، وأنَّ هذا العدوَّ يأتي للإنسان من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله يosoos له بالمعصية ، ويستثير فيه كواطن الشَّهوات ، فكان مستعيناً بالله على عدوِّه إبليس ، وانتصر عليه في حياته .

وتعلَّمَ من قصَّةَ آدم مع الشَّيطان في القرآن الكريم : أنَّ آدم هو أصل البشر ، وجوهر الإسلام الطَّاعة المطلقة لله ، وأنَّ الإنسان له قابليةُ اللّوقوع في الخطيئة . وتعلَّمَ من خطيئة آدم ضرورة توگل المسلم على ربِّه ، وأهميَّة التَّوْبَة . والاستغفار في حياة المؤمن ، وضرورة الاحتراز من الحسد ، والكبر ، وأهميَّة الشَّخاطب بأحسن الكلام مع الصَّحَاة لقول الله تعالى : ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا إِلَيَّ هُنَّ أَحَسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْهَا بِنَهْمَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

لقد أكرم المولى - عز وجل - عثمان بن عفان رضي الله عنه بالإسلام فعاش به ، وجاحد به من أجل نشره ، واستمدّ أصوله ، وفروعه من كتاب الله ، وهدي النبي ﷺ وأصبح من أئمة الهدى ؛ الذين يرسمون للناس خط سيرهم ، ويتأسّى الناس بأقوالهم ، وأفعالهم في هذه الحياة ، ولا ننسى : أنَّ عثمان بن عفان كان من كُتاب الوحي لرسول الله ﷺ^(١) .

* * *

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص(٢٢) ، والتبين في أنساب القرشيين ، ص(٩٤) .

المبحث الثالث

ملازمته للنَّبِيِّ ﷺ في المَدِينَة

إنَّ الرَّافِدَ القويَّ الَّذِي أَثَرَ فِي شَخْصِيَّةِ عُثْمَانَ رضيَ اللهُ عنه وصَقَلَ مَوَاهِبَهُ، وَفَجَرَ طَاقَتِهِ، وَهُذِّبَ نَفْسَهُ هُوَ مَصَاحِبُهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَلَمَّذَهُ عَلَى يَدِيهِ فِي مَدْرَسَةِ النَّبِيِّ ؛ ذَلِكَ أَنَّ عُثْمَانَ رضيَ اللهُ عنه لَازَمَ الرَّسُولَ ﷺ فِي مَكَّةَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ كَمَا لَازَمَهُ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ هِجْرَتِهِ، فَقَدْ نَظَمَ عُثْمَانَ نَفْسَهُ، وَحَرَصَ عَلَى التَّلَمِذَةِ فِي حَلَقَاتِ مَدْرَسَةِ النَّبِيِّ فِي فَرْوَعِ شَتَّى مِنَ الْمَعَارِفِ، وَالْعِلُومِ عَلَى يَدِي مَعْلُومِ الْبَشَرِيَّةِ، وَهَادِيهَا، وَالَّذِي أَدَبَهُ رَبُّهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ، فَحَرَصَ عَلَى تَعْلُمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالسُّنْنَةِ الْمُطَهَّرَةِ مِنْ سَيِّدِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَهَذَا عُثْمَانٌ يَحْدُثُنَا عَنْ مَلَازِمِهِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَيَقُولُ :

(إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - بَعَثَ مُحَمَّداً بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، فَكَنْتَ مَمَّنْ اسْتَجَابَ اللَّهُ ، وَلِرَسُولِهِ ، وَآمَنَ ، فَهَاجَرَتِ الْهَاجِرَتَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ ، وَنَلَّتِ صَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَرَأَيْتَ هَذِهِ) ^(١) ، لَقَدْ تَرَبَّى عُثْمَانَ رضيَ اللهُ عنه عَلَى الْمَنْهَاجِ الْقُرْآنِيِّ ، وَكَانَ الْمَرْبُّ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَكَانَ نَقْطَةُ الْبَدَءِ فِي تَرْبِيَةِ عُثْمَانَ لِقَاءَهُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَحَدَثَ لَهُ تَحْوُلٌ غَرِيبٌ ، وَاهْتَدَاءٌ مَفَاجِئٌ بِمَجْرَدِ اِتَّصَالِهِ بِالنَّبِيِّ ﷺ؛ فَخَرَجَ مِنْ دَائِرَةِ الظُّلَامِ إِلَى دَائِرَةِ النُّورِ، وَاكْتَسَبَ الإِيمَانَ، وَطَرَحَ الْكُفَّرَ، وَقَوَى عَلَى تَحْمُلِ السَّدَائِدِ، وَالْمَصَابِ فِي سَبِيلِ الْإِسْلَامِ، وَعَقِيدَتِهِ السَّمَحةُ .

كَانَتْ شَخْصِيَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَمْلِكُ قَوْيَ الْجَذْبِ ، وَالتَّأْثِيرِ فِي الْآخِرِينَ ، فَقَدْ صَنَعَهُ اللَّهُ عَلَى عَيْنِهِ ، وَجَعَلَهُ أَكْمَلَ صُورَةً لِبَشَرٍ فِي تَارِيخِ الْأَرْضِ ، وَالْعَظَمَةِ دائِمًا تُحَبُّ ، وَتُحَاطُّ مِنَ النَّاسِ بِالْإعْجَابِ ، وَيَلْتَفُّ حَوْلَهَا الْمُعْجَبُونَ ، يَلْتَصِقُونَ بِهَا التَّصَافَّاً بِدَافِعِ الْإعْجَابِ ، وَالْحَبَّ ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُضَيِّفُ إِلَى عَظَمَتِهِ تَلْكَ : أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ، مَتَلَقَّيُ الْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ ، وَمُبْلَغٌ إِلَى النَّاسِ ، وَذَلِكَ بُعْدُ آخِرٍ ، لَهُ أَثْرٌ فِي تَكْيِيفِ مَشَاعِرِ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِ تَجَاهَهُ ، فَهُوَ لَا يَحْبِبُهُ لِذَاتِهِ فَقَطُّ ، كَمَا يَحْبُبُ الْعَظَمَاءَ مِنَ النَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَيْضًا لِتَلْكَ النَّفْحَةِ الْرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَشَملُهُ مِنْ عَنْ

(١) فَضَائِلُ الصَّحَابَةِ ، لأَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلِ (٥٩٧/١) إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ .

الله ، فهو معه في حضرة الوحي الإلهي المكرم ، ومن ثم يلتقي في شخص الرَّسُول ﷺ : البشر العظيم ، والرَّسُول العظيم ، ثم يصيّحان شيئاً واحداً في النهاية ، غير متميّز البداية ، ولا النهاية ؟ حبٌّ عميق شاملٌ للرَّسُول البشّر ، أو للبشر الرَّسُول ، ويرتبط حبُّ الله بحبِّ رسوله ، ويُمْتَزِجُان في نفسه ، فيصيّحان في مشاعره مما نقطـة ارتـكاز المشاعـر كلـها ، ومحور الحركة الشـعورـية ، والسلوكـية كلـها كذلك .

كان هذا الحبُّ الـّذـي حـرـك الرـّاعـيل الأوـل من الصـحـابة هو مفتـاح التـّرـقـية الإـسـلامـيـة ، ونقطـة ارتـكـازـها ، وـمنـطـلقـها الـّذـي تـنـطـلـقـ منه^(١) ، لقد حـصـل عـثـمـان رـضـي الله عـنـه ولـلـصـحـابة بـبرـكـة صـحـبـتـهم لـرسـول الله ﷺ ، وـتـربـيـتهم عـلـى يـدـيه أـحـوال إـيمـانـيـة عـالـيـة ، ولـقد تـلـمـذ عـثـمـان رـضـي الله عـنـه عـلـى يـدـي رـسـول الله ﷺ ، فـتـلـمـذ مـنـه الـقـرـآن الـكـرـيم ، وـالـسـنـنـة الـتـبـوـيـة ، وـأـحـكـام الـتـلـاـوة ، وـتـرـكـيـة الـتـفـوـس ، قـالـ تـعـالـى : «لـقـدـمـنـ مـكـهـ عـلـى الـمـؤـمـنـيـنـ إـذـبـعـثـ فـيـهـمـ رـسـوـلـكـ مـنـ آـنـفـسـهـمـ يـتـلـمـذـ عـلـيـهـمـ ءـاـيـتـهـ وـيـزـكـيـهـ وـيـعـلـمـهـمـ الـكـتـبـ وـالـحـكـمـةـ وـإـنـ كـانـوـا مـنـ قـبـلـ لـفـي ضـلـلـ مـيـنـ» [آل عمران : ١٦٤].

وـحرـصـ عـلـى التـبـخـرـ فيـ الـهـدـيـ الـنـبـويـ الـكـرـيمـ خـالـلـ مـلـازـمـتـهـ لـرسـولـ اللهـ ﷺـ فيـ غـزوـاتـهـ ، وـسـلـمـهـ ، وـقـدـ أـمـدـتـهـ تـلـكـ الـمـعـاـيـشـ بـخـبـرـةـ ، وـدـرـبـةـ ، وـدـرـاـيـةـ بـشـؤـونـ الـحـرـبـ ، وـمـعـرـفـةـ بـطـبـائـعـ الـتـفـوـسـ ، وـغـرـائـزـهـ ، وـفـيـ الصـفـحـاتـ الـقـادـمـةـ سـنـيـنـ - بـإـذـنـ اللهـ تـعـالـىـ - مـوـاقـفـهـ فيـ الـمـيـادـينـ الـجـهـادـيـةـ ، وـالـسـيـاسـيـةـ ، وـالـاجـتمـاعـيـةـ ، وـالـاـقـتصـادـيـةـ مـعـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ فيـ الـعـهـدـ الـمـدـنـيـ .

أولاً: عـثـمـان رـضـي الله عـنـهـ فـيـ مـيـادـينـ الـجـهـادـ مـعـ رـسـولـ اللهـ :

شرع رـسـولـ اللهـ ﷺـ بـعـدـ استـقـارـاهـ بـالـمـدـيـنـةـ فـيـ تـبـيـتـ دـعـائـمـ الدـوـلـةـ الـإـسـلامـيـةـ ، فـآنـيـ بـيـنـ الـمـهـاجـرـينـ ، وـالـأـنـصـارـ ، فـكـلـ مـهـاجـرـيـ يـتـخـذـ أـخـاـ لـهـ مـنـ الـأـنـصـارـ ، فـكـانـ نـصـيبـ عـثـمـانـ بنـ عـقـانـ فـيـ الـمـؤـاخـاةـ أـوـسـ بنـ ثـابـتـ^(٢) ، ثـمـ أـقـامـ الـنـبـويـ ﷺـ الـمـسـجـدـ ، وـأـبـرـمـ الـمـعاـهـدـةـ مـعـ الـيـهـودـ ، وـبـدـأـتـ حـرـكـةـ السـرـايـاـ ، وـاهـتـمـ بـالـبـنـاءـ الـاـقـتـصـادـيـ ، وـالـتـعـلـيمـيـ ، وـالـتـرـبـويـ فيـ الـمـجـتمـعـ الـجـدـيدـ ، وـكـانـ عـثـمـانـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ مـنـ أـعـمـدـ الدـوـلـةـ الـإـسـلامـيـةـ ، فـلـمـ يـبـخـلـ بـمـشـورـةـ ، أـوـ مـالـ ، أـوـ رـأـيـ ، وـشـهـدـ الـمـشـاهـدـ كـلـهاـ إـلاـ لـأـغـزـوـةـ بـدـرـ^(٣) .

(١) منهج التربية الإسلامية ، لمحمد قطب ، ص (٣٤ ، ٣٥) .

(٢) الأمين ذو التورين ، ص (٤٠) .

(٣) الخلفاء الرآشدون ، عبد الوهاب النجار ، ص (٢٦٩) .

١- عثمان وغزوة بدر :

لما خرج المسلمون لغزوة بدر كانت زوجة عثمان السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ مريضةً بمرض الحصبة ، ولزمت الفراش ، في الوقت الذي دعا فيه رسول الله ﷺ للخروج لملاقاة القافلة ، وسارع عثمان رضي الله عنه للخروج مع رسول الله ﷺ ، إلا أنه تلقى أمراً بالبقاء إلى جانب رقية رضي الله عنها لتوريضها ، وامتنع لها هذا الأمر بنفسه راضية ، وبقي إلى جوار زوجته الصابرة الطاهرة رقية ابنة رسول الله ﷺ ؛ إذ اشتد بها المرض ، وطاف بها شبح الموت ، كانت رقية رضي الله عنها تجود بأنفسها ، وهي تتلهَّف لرؤيه أبيها الذي خرج إلى بدر ، ورؤيه أختها زينب في مكَّة ، وجعل عثمان رضي الله عنه يرنو إليها من خلال دموعه ، والحزن يعتصر قلبه^(١) ، وودع نبع الحياة وهي تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ولحقت بالرَّفيق الأعلى ، ولم تَأْبَاها رسول الله ﷺ ، حيث كان بدر مع أصحابه الكرام ، يُعلوّن كلمة الله ، فلم يشهد دفنه رضي الله عنها وجَّهَّرت رقية ثم حمل جثمانها الطَّاهر على الأعنق ، وقد سار خلفه زوجها عثمان وهو حزينٌ ، حتى إذا بلغت الجنازة البقيع ؛ دفت رقية هناك ، وقد انهمرت دموع المشيعين ، وسوَّي التُّراب على قبر رقية بنت رسول الله ﷺ ، وفيما هم عائدون إذا بزيد بن حارثة قد أقبل على ناقة رسول الله ﷺ يبشر بسلامة رسول الله ﷺ ، وقتل المشركين ، وأسر أبطالهم ، وتلقى المسلمين في المدينة هذه الأنباء بوجه مستبشرٍ بنصر الله لعباده المؤمنين ، وكان من بين المستبشررين وجه عثمان الذي لم يستطع أن يخفى آلامه لفقد رقية رضي الله عنها .

وبعد عودة الرسول ﷺ علم بوفاة رقية رضي الله عنها فخرج إلى البقيع ، ووقف على قبر ابنته يدعوا لها بالغفران^(٢) .

لم يكن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ممَّن تخالفوا عن بدر لتقاعسٍ منه ، أو هروبٍ ينشده كما يزعم أصحاب الأهواء ممَّن طعن عليه بتغييشه عن بدر ، فهو لم يقصد مخالفة الرَّسول ﷺ ؛ لأنَّ الفضل الذي حازه أهل بدر في شهود بدر طاعةً للرَّسول ، ومتابعةً له ؛ حازه عثمان رضي الله عنه ، حيث خرج فيمن خرج مع رسول الله فرَّدَه ﷺ للقيام على ابنته ، فكان في أجلٍ فرضٍ لطاعته لرسول الله بتحفه عن بدر ، وقد ضرب له سهمه ، وأجره ، فشاركتهم في الغنيمة ، والفضل ، والأجر لطاعته لله ، ورسوله وانقياده لهما^(٣) ، فعن عثمان بن عبد الله بن موهبٍ ، قال : جاء رجلٌ من مصر حجَّ البيت فقال : يابن عمر ! إني سائلك عن شيءٍ ، فحدَّثني أنسدك الله بحرمة هذا البيت ! هل تعلم أنَّ عثمان تغَيَّب عن بدرٍ فلم يشهدها ؟ فقال :

(١) نساء أهل البيت ، أحمد خليل جمعة ، ص (٤٩١ - ٥٠٤) .

(٢) دماء على قميص عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، ص (٢٠) .

(٣) كتاب : الإمام والرَّؤُس على الرَّأْفَاضَة ، للأصبهاني ، ص (٣٠٢) .

نعم ، ولكن أمّا تغطّيّبه عن بدرٍ فإنّه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ ، فمرضت رضي الله عنها فقال له رسول الله ﷺ : لك أجر رجل شهد بدرًا ، وسهمه^(١) . وعن أبي وائلٍ عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أَنَّه قَالَ : أَمَّا يَوْمُ بَدْرٍ ؛ فَقَدْ تَخَلَّفَ عَلَى بَنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَقَدْ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ لِي فِيهَا بَسْهَمٍ . وَقَالَ زَائِدٌ فِي حَدِيثِهِ : وَمَنْ ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ فِيهَا بَسْهَمٍ ؟ فَقَدْ شَهَدَ^(٢) . وَقَدْ عَذَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَدْرِيِّينَ بِالْاِتْفَاقِ^(٣) .

٢- عثمان ، وغزوة أحدٍ :

في غزوة أحدٍ منح الله - عَزَّ وَجَلَّ - النَّصْرَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي أَوَّلِ المَعرَكَةِ ، وَأَخْذَتْ سِيُوفُ الْمُسْلِمِينَ تَعْمَلُهَا فِي رِقَابِ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ لَا شَكَّ فِيهَا ، وَقُتْلَ أَصْحَابُ لَوَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَاحْدَادًا ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَدْنُو مِنَ الْلَّوَاءِ ، وَانْهَمَ الْمُشْرِكُونَ ، وَوَلَوْلَتِ النُّسُوَّةِ بَعْدَ أَنْ كَنَّ يَعْنِيْنَ بِحَمَاسٍ ، وَيَسْرِبْنَ بِالْدُّفُوفَ ، فَأَلْقَيْنَ بِالْدُّفُوفَ ، وَانْصَرَفْنَ مِنْ دُعْوَاتِهِ إِلَى الْجَبَلِ كَاشِفَاتٍ سِيَقَانَهُنَّ .. وَلَكِنَّ مَالَ مِيزَانُ الْمَعرَكَةِ فَجَاءَ ، وَكَانَ سَبْبُ ذَلِكَ : أَنَّ الرُّؤْمَاءَ الَّذِينَ أَوْكَلُ إِلَيْهِمُ النَّبِيَّ مَكَانًا عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ ، لَا يَغَادِرُونَهُ مِمَّا كَانَتْ نَتِيْجَةً لِلْمَعرَكَةِ قَدْ تَخَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا عَنْ أَمَاكِنِهِمْ ، وَنَزَلُوا إِلَى السَّاحَةِ يَطْلَبُونَ الْغَنَائِمَ لِمَا نَظَرُوا مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَجْمِعُونَهَا ، وَانْتَهَزُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ قَائِدُ سَلاَحِ الْفَرَسَانِ الْقَرْشَيِّ فِرْصَةً خَلُوِّ الْجَبَلِ مِنَ الرُّؤْمَةِ ، وَقَلَّةً مِنْ بَهْنِهِمْ ، فَكَرِّرُوا بِالْخَيْلِ ، وَمَعَهُ عَكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ، فَقَتَلُوا بِقِيَّةَ الرُّؤْمَةِ وَمَعَهُمْ أَمْيَرُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَبَيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي ثَبَتَ هُوَ وَطَافَةٌ قَلِيلَةٌ مَعَهُ ، وَفِي غَفلَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَثْنَاءَ انشَغَالِهِمْ بِالْغَنَائِمِ أَطْبَقَ خَالِدٌ وَمَنْ مَعَهُمْ عَلَيْهِمْ ، فَأَعْمَلُوا فِيهِمُ الْقَتْلَ ، فَاضْطَرَبَ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ اضْطَرَابًا شَدِيدًا ، وَانْهَمَتْ طَافَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَرْبِ الْمَدِينَةِ مِنْهُمْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ ، وَلَمْ يَرْجِعُوا حَتَّى انْفَضَّ الْقَتَالُ ، وَفَرَقَّتْ صَارُوا حِيَارَى لِمَا سَمِعُوا : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قُدِّمَ قَتْلًا ، وَفَرَقَّتْ ثَبَتَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ .

أَمَّا الْفَرَقَةُ الَّتِي انْهَمَتْ ، وَفَرَّتْ ، فَلَقِدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا قُرْآنًا يُنْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، قَالَ تَعَالَى : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَّقْوَى الْجَمِيعَانِ إِنَّمَا أَسْتَرِزُهُمُ الشَّيْطَانُ بِعَيْنِهِنَّ كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ » [آل عمران: ١٥٥] . غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَا تَهْوِي أَنْفُسُهُمْ ، فَلَمْ يَرُوا مِنَ الْمُتَرَاجِعِينَ ، إِلَّا عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَكَانُوا يَتَهَمِّونَهُ دُونَ سَائِرِ الْمُتَرَاجِعِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَهَلْ يَبْقَى وَحْدَهُ ؟ وَلَوْ فَعَلَ ؛ لَخَاطَرَ بِنَفْسِهِ^(٤) ، وَبَعْدَ أَنْ عَفَ اللَّهُ عَنْ

(١) البخاري رقم (٣٦٩٨) .

(٢) الإمامة والرَّدُّ على الرَّافِضةِ ، ص (٣٠٤) .

(٣) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص (٤٧) .

(٤) الأمين ذو التورين ، ص (٤٩) .

المترجعين ، فالحكم واضحٌ جليٌّ ، لا لبس فيه ، ولا غموض . فلا مؤاخذة بعد ذلك على عثمان بن عفَّان رضي الله عنه^(١) فيكتفي : أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْهُ بِنَصْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَحَيَاتِهِ الْجَهَادِيَّةِ بِمَجْمُوعِهَا تَشَهِّدُ لَهُ عَلَى شَجَاعَتِهِ رضي الله عنه .

٣- في غزوة غطفان (ذي إمر) :

ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج إلى غطفان ، فخرجوها في أربعينه رجل ، ومعهم بعض الجياد ، واستختلف على المدينة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه فأصاب المسلمين رجالاً منهم (بِذِي الْقُصَّةِ) يقال له : جبار من بني ثعلبة ، فأدخل على رسول الله ﷺ ، فأخبره مِنْ خَبْرِهِمْ ، وقال : لَنْ يَلْقَوْكُمْ لَمَّا سَمِعُوا بِمَسِيرِكُمْ ؛ هَرَبُوكُمْ إِلَى رَؤُسِ الْجَبَالِ ، وَأَنَا سَائِرُ مَعَكُمْ ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَأَسْلَمَهُ وَضَمَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَلَالٍ ، وَلَمْ يَلْقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَدًا ، ثُمَّ أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَلْقَ كِيدًا ، وَكَانَتْ غَيْتِهِ إِحدَى عَشْرَ لَيْلَةً^(٢) .

٤- في غزوة ذات الرّقاع :

بلغ رسول الله ﷺ : أَنَّ جَمِيعًا مِنْ غُطَفَانَ مِنْ ثَعْلَبَةِ وَأَنْمَارٍ يَرِيدُونَ غَزْوَةَ الْمَدِينَةِ ، فَخَرَجَ فِي أَرْبَعِينَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ حَتَّى قَدَمَ صَرَارًا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ اسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ قَبْلَ خَرْوَجِهِ عَثَمَانَ بْنَ عَفَّانَ ، وَلَقِيَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا غَيْرًا مِنْ غُطَفَانَ ، وَتَقَارِبَ النَّاسَ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ ، وَقَدْ خَافَ النَّاسُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا ، حَتَّى صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ صَلَاةَ الْخُوفِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ بِالنَّاسِ ، وَقَدْ غَابَ عَنِ الْمَدِينَةِ خَمْسَةَ عَشْرَ يَوْمًا^(٣) .

٥- في بيعة الرّضوان :

عندما نزل رسول الله ﷺ الحديبية رأى من الضَّرورة إِرْسَال مَبْعوثٍ خاصٍّ مِنْ جَانِبِهِ إِلَى قُرِيشٍ ، يَلْغِيُهُمْ فِيهَا نُوَايَاهُ السُّلْمَيَّةَ بِعَدِمِ الرَّغْبَةِ فِي الْقَتَالِ ، وَحَرَصَهُ عَلَى احْتِرَامِ الْمَقْدِسَاتِ ، وَمِنْ ثُمَّ أَدَاءِ مَنَاسِكِ الْعُمْرَةِ ، وَالْعُودَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَوَقَعَ الْاِخْتِيَارُ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَبْعوثُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى قُرِيشٍ (خَرَاشَ بْنَ أُمِيَّةَ الْخَزَاعِيِّ) وَحَمَلَهُ عَلَى جَمْلٍ يَقَالُ لَهُ : (الْتَّعْلُبُ) ، فَلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ عَقَرَتْ بِهِ قُرِيشٌ ، وَأَرَادُوا قَتْلَ خَرَاشَ ، فَمَنْعَمُ الْأَحَبِيَّشُ ، فَعَادَ خَرَاشَ بْنَ أُمِيَّةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا صَنَعَتْ قُرِيشٌ ، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَرْسُلَ سَفِيرًا آخَرَ يَتَبَلَّغُ قُرِيشًا رسالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَوَقَعَ الْاِخْتِيَارُ فِي بَدَائِيَّةِ الْأَمْرِ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ^(٤) ، فَاعْتَذَرَ

(١) ذُو التُّورِينَ مَعَ السَّبِيلِ ، د . عاطف لمامنة ، ص (٣٢) .

(٢) الرَّوْضُ الْأَنْفُ (٣ / ١٣٧) . وَالْطَّبَقَاتُ ، لَابْنِ سَعْدٍ (٢ / ٣٤ ، ٣٥) .

(٣) الْأَمِينُ ذُو التُّورِينَ ، ص (٥٢ ، ٥٣) .

(٤) غَزْوَةُ الْحَدِيدَيْةِ لِأَبِي فَارِسٍ ، ص (٨٣) .

لرسول الله ﷺ عن الذهاب إليهم ، وأشار على رسول الله ﷺ أن يبعث عثمان مكانه^(١) ، وعرض عمر رضي الله عنه رأيه هذا معززاً بالحجّة الواضحة ، وهي ضرورة توافق الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء ، وحيث إنَّ هذا الأمر لم يكن متحققاً بالنسبة إلى عمر رضي الله عنه فقد أشار على النبي ﷺ بعثمان رضي الله عنه لأنَّ له قبيلة تحميه من أذى المشركين ، حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ^(٢) ، وقال لرسول الله ﷺ : إني أخاف قريشاً على نفسي ، قد عرفت عداوتي لها ، وليس بها منبني عديٌّ من يمنعني ، وإن أحبيت يا رسول الله ! دخلت عليهم^(٣) . فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً ، قال عمر : ولكن أدلك يا رسول الله ! على رجلٍ أعزَّ بمكَّة مني ، وأكثرعشيرةً ، وأمنع : عثمان بن عفان . فدعا رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه فقال : اذهب إلى قريش فخبرهم أنا لم نأت لقتال أحدٍ ، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت ، معظمين لحرمه ، معنا الهدى ، ننحره ، وننصرف . فخرج عثمان بن عفان رضي الله عنه حتَّى أتى بلدح^(٤) ، فوجد قريشاً هناك ، فقالوا : أين تريد ؟ قال : بعثني رسول الله ﷺ إليكم ، يدعوكم إلى الله ، وإلى الإسلام ، تدخلون في دين الله كافية ، فإنَّ الله مظهر دينه ، ومعزٌّ نبيه ، وأخرى : تكفُون ويلي هذا منه غيركم ، فإنَّ ظفروا بمحمدٍ ؛ فذلك ما أردتم ، وإنَّ ظفر محمدٍ كنتم بال الخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس ، أو تقاتلوا ، وأنتم وافرون جامون ، إنَّ الحرب قد نهكتكم ، وأذهبت بالأمثال منكم . . . فجعل عثمان يكلِّهم ، فرأيتهم بما لا يریدون ، ويقولون : قد سمعنا ما تقول ، ولا كان هذا أبداً ، ولا دخلها علينا عنوةً ، فارجع إلى صاحبك ، فأخبره ، أنَّه لا يصل إلينا . فقام إليهم أبان بن سعيد ابن العاص ، فرَحِب به ، وأجاره ، وقال : لا تنصر عن حاجتك ، ثمَّ نزل عن فرسٍ كان عليه ، فحمل عثمان على السرج ، وردهه وراءه ، فدخل عثمان مكَّة ، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً : أبا سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وغيرهم ممن لقي بيده ، ومنهم من لحقه بمكَّة ، فجعلوا يرددون عليه : إنَّ محمداً لا يدخلها علينا أبداً^(٥) .

وعرض المشركون على عثمان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت ، فأبى^(٦) ، وقام عثمان بتبلیغ رسالة رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكَّة ، وبشرهم بقرب الفرج ، والمخرج^(٧) ،

(١) المغازى (٢/٦٠٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) مكان قريب من مكَّة .

(٥) زاد المعاد (٣/٢٩٠) . والسيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٤٤) .

(٦) زاد المعاد (٣/٢٩٠) .

(٧) المصدر السابق نفسه (٣/٢٩٠) .

وأخذ منهم رسالةً شفهيةً إلى رسول الله ﷺ جاء فيها : اقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام ، إنَّ الذي أنزله بالحدبية قادر على أن يدخله بطن مَكَّة^(١) ، وتسربت شائعة إلى المسلمين ، مفادها : أنَّ عثمان قتل ، فدعا رسول الله أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين ، ومناجزتهم ، فاستجاب الصحابة وبايدهم على الموت^(٢) ، سوى الجد بن قيس ، وذلك لنفاقه^(٣) ، وفي رواية ، أنَّ البيعة كانت على الصبر^(٤) ، وفي رواية : على عدم الفرار^(٥) ، ولا تعارض في ذلك ؛ لأنَّ المبايعة على الموت تعني : الصبر ، وعدم الفرار^(٦) ، وكان أول من بايده على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأنصاري^(٧) ، فخرج الناس بعده ببايعون على بيته^(٨) ، وبايده سلمة بن الأكوع ثلث مرات ، في أول الناس ، وأوسطهم ، وأخرهم^(٩) ، وقال النَّبِي ﷺ بيده اليمني : (هذه يد عثمان) فضرب بها على يده^(١٠) ، وكان عدد الصحابة الذين أخذ منهم الرَّسُول المبايعة تحت الشَّجَرَة ألفاً وأربعين صاحبي^(١١) .

وقد تحدث القرآن الكريم عن أهل بيضة الرِّضوان ، وورد فضلهم في نصوصٍ كثيرة من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، منها :

١- قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ لِمَنْ يَدْعُ اللَّهَ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ تَكَّثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » [الفتح : ١٠] .

٢- قال تعالى : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلُهُ جَنَّتِنَّ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَبْهَرُ وَمَنْ يَسْوَلْ يُعْذِبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا ١٧ لَمَّا رَضَى اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنْذَهُمْ فَتَحَّا فَرِيسًا » [الفتح : ١٧-١٨] .

(١) غزوة الحديبية لأبي فارس ، ص (٨٥) .

(٢) البخاري ، رقم الحديث (٤١٦٩) .

(٣) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص (٤٨٦) .

(٤) البخاري ، رقم (٤١٦٩) .

(٥) مسلم ، رقم (١٨٥٦) .

(٦) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، (٤٨٦) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

(٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) زاد المعاد (٢٩١/٣) .

(١٠) صحيح السيرة النبوية ، ص (٤٠٤) .

(١١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص (٤٨٢) .

٣- قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية : « أنتم خير أهل الأرض » وكذاً ألفاً وأربعين ، ولو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة^(١) . هذا الحديث صريح في فضل أصحاب الشّجّرة ، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعة بمكّة ، وبالمدينة ، وبغيرهما . . . وتمسّك به بعض الشيعة في تفضيل عليٍّ على عثمان ، لأنّ علياً كان من جملة من خوطب بذلك ، ومنمن بايع تحت الشّجّرة ، وكان عثمان حينئذٍ غائباً ، وهذا التمسّك باطل ؟ لأنّ النبي ﷺ بايع عنه ، فاستوى معهم عثمان في الخبرية المذكورة ، ولم يقصد في الحديث إلى تفضيل بعضهم على بعض^(٢) .

وفي الحديبية ذكر المحب الطّبرى اختصاص عثمان بعدة أمور ، منها : اختصاصه بإقامته يد النبي الكريمة مقام يد عثمان لما بايع الصحابة ، وعثمان غائب ، واحتياجه بتبلیغ رسالة رسول الله ﷺ إلى من بمكّة أسيراً من المسلمين ، وذكر شهادة النبي لعثمان بموافقته في ترك الطواف لما أرسله في تلك الرّسالة^(٣) ، فعن إِيَّاسِ بْنِ سَلْمَةَ عَنْ أَبِيهِ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَايِعَ عُثْمَانَ إِحْدَى يَدِيهِ عَلَى الْأُخْرَى ، فَقَالَ النَّاسُ : هَنِئْنَا لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ آمِنًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَوْ مَكَثَ كَذَا مَا طَافَ حَتَّى أَطْوَفَ »^(٤) .

وقد أثّر عثمان ظلماً بأبيه لم يبايع رسول الله ﷺ بيعة الرّضوان ، وكان متغيّراً عنها ! فهذه من الاتهامات التي أصّقت بعثمان في أحضان فتنـة أريد بها تقويض أركان الخلافة خاصة^(٥) ، وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله تعالى . وعن أنسٍ ، قال: لما أمر رسول الله ﷺ بيعة الرّضوان كان عثمان بن عفان بعثه رسول الله إلى أهل مكّة ، فباعيه الناس ، فقال: إنّ عثمان في حاجة الله ، وحاجة رسوله ، فضرب بإحدى يديه على الأرض فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم^(٦) .

٦- شفاعة عثمان بن عفان في عبد الله بن أبي السّرح في فتح مكّة :

لما كان يوم فتح مكّة اختباً عبد الله بن سعد بن أبي السّرح عند عثمان بن عفان ، فجاء به حتّى أوقفه على النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! بايع عبد الله ، فرفع رأسه ، فنظر إليه ثلاثة ، كلُّ

(١) مسلم (٣/١٤٨٥) .

(٢) فتح الباري (٧/٤٤٣) .

(٣) الرياض النّصرة في مناقب العشرة ، ص (٤٩٠ ، ٤٩١) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، (٤٩١) وفي سنته ضعف .

(٥) ذو الثورين مع النبي ﷺ ، ص (٣٢) .

(٦) سير السّلف الصالحين (١/١٨١) ، إسناده ضعيف ، والحديث صحيح . سنن الترمذى رقم (٣٧٠٢) .

ذلك يأبى ، فبایعه بعد ثلاثة ، ثم أقبل على الصحابة فقال : « أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رأني كففت يدي عن بيته ، فيقتله ؟ » فقالوا : ماندري يا رسول الله ما في نفسك ! لا أوّمأت إلينا بعينك ؟ قال : « إنَّه لَا ينبعي لنبِيٍّ أَنْ يكون له خائنة الأعين »^(١) ، وجاء في روایة : لماً كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله النّاس إلّا أربعة نفر ، وقال : « اقتلُوهُمْ ؛ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُم متعلّقين بأسْtar الكعبَة » عكرمة بن أبي جهل ، وعبد الله بن خطل ، ومقيس بن صبابة^(٢) ، وعبد الله بن سعد بن أبي السَّرَح^(٣) ، فأمّا عبد الله بن خطل ؛ فأدرك وهو متعلّق بأسْtar الكعبَة ، فاستبقي إليه سعيد بن حارث ، وعمّار بن ياسر ، فسبق سعيد عمّاراً ، وكان أشَبَ الرَّجُلَيْن ، فقتله .

وأمّا عكرمة ؛ فركب في البحر فأصابتهم ريح عاصف ، فقال أصحاب السَّفينة : أخلصوا فإنَّ آلهتكم لا تغنى عنكم شيئاً ها هنا ، فقال عكرمة : والله لئن لم ينجّني في البحر إلا الإخلاص لا ينجّني في البر غيره ، اللهم لك علَيَّ عهْدٌ إنْ أنت عافيتني مما أنا فيه أَنْ آتَيْتَنِي مُحَمَّداً ؛ حتَّى أضع يدي في يده ، ولأجْدَنَه عَفْواً كريماً ! فجاء ، وأسلم ، وأمّا عبد الله بن سعد بن أبي السَّرَح ؛ فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان ، فلما دعا رسول الله النّاس إلى البيعة ؛ جاء به ؛ حتَّى أوقفه على التَّبَيِّن^(٤) ، ثم ذكر الباقي كما مرَّ معنا .

وعن عبد الله بن عباس ، قال : كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ ، فازَّ الشَّيْطَان ، فلحق بالكافر ، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح ، فاستجار له عثمان ، فأجاره رسول الله^(٥) . وذكر ابن إسحاق سبب أمر رسول الله بقتل سعيد ، وشفاعة عثمان فيه ، فقال : وإنما أمر رسول الله بقتله ؛ لأنَّه كان قد أسلم ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي ، فارتَدَّ مشركاً راجعاً إلى قريش ، ففرَّ إلى عثمان بن عفان ، وكان أخاه للرَّضاعة ، فغَيَّبه ، حتَّى آتَى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأنَ النّاس ، وأهْلَ مَكَّة ، فاستأمن له . قال ابن هشام : ثمَّ أسلم بعد ، فولاه عمر بن الخطاب بعض أعماله ، ثمَّ ولاه عثمان بن عفان بعد عمر^(٦) .

٧- غزوة تبوك :

في العام التاسع الهجري ولَى هرقل وجهه المتآمر صوب الجزيرة العربية متلمظاً برغبة

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ ، ص (١٠٩) .

(٢) أضواء البيان في تاريخ القرآن ، لصابر أبي سليمان ، ص (٧٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص (٨٠) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (٤/٥٨ ، ٥٧) .

شريدة في العداون عليها ، والتهمها . . وامر قوّاته بالاستعداد ، وانتظار أمره بالرّاحف ، وترامت الأنباء إلى الرّسول ﷺ فنادى في أصحابه بالتهيؤ للجهاد ، وكان الصيف حاراً يصهر الجبال ، وكانت البلاد تعاني الجدب ، والعسرة ، فإن قاوم المسلمون بإيمانهم وطأة الحرّ القاتل ، وخرجوا إلى الجهاد فوق الصحراء الملتهبة المتأجّحة ، فمن أين لهم العتاد ، والثّغقات التي يتطلّبها الجهاد . . ؟ لقد حضَّ الرّسول على التّبرُّع ، فأعطى كلُّ قدر وسعه ، وسارعت النّساء بالحلي يقدمّنه إلى رسول الله ﷺ يستعين به في إعداد الجيش . . بيد أنَّ التّبرُّعات جميعها لم تكن لتغني كثيراً أمام المتطلبات للجيش الكبير . . ونظر الرّسول ﷺ إلى الصُّفوف الطّويلة العريضة من الّذين تهيؤوا للقتال وقال : « من يجهز هؤلاء ، ويغفر الله له ؟ » وما كاد عثمان يسمع نداء الرّسول ﷺ هذا ؛ حتّى سارع إلى مغفرة من الله ورضوانٍ ، وهكذا وجدت العسرة الضّاغطة (عثمانها المعطاء) ^(١) . وقام رضي الله عنه بتجهيز الجيش ، حتّى لم يتركه بحاجة إلى خطامٍ ، أو عقالٍ .

يقول ابن شهاب الرّهري : قدم عثمان لجيش العسرة في غزوة تبوك تسعمئة وأربعين بعيراً ، وستين فرساناً أتمّ بها الألف ، وجاء عثمان إلى رسول الله في جيش العسرة بعشرة آلاف دينار صبّها بين يديه ، فجعل الرّسول يقلّبها بيده ، ويقول : « ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم » - مرّتين ^(٢) .

لقد كان عثمان رضي الله عنه صاحب القيْدُ المعلى في الإنفاق في هذه الغزوّة ^(٣) ، وهذا عبد الرّحمن بن حباب يحدّثنا عن نفقة عثمان ، حيث قال : شهدت النبي ﷺ وهو يحيث على جيش العسرة ، فقام عثمان بن عفان ، فقال : يا رسول الله ! عليَّ مئتا بعير بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، ثمَّ حضَّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفان ، فقال : يا رسول الله ! عليَّ ثلاثة مائة بعير بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر ، ويقول : « ما على عثمان ماعمل بعد هذه ! ما على عثمان ما عمل بعد هذه ! » ^(٤) . وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنهما قال : جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة ، قال : فجعل النبي ﷺ يقلّبها بيده ، ويقول : « ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم » يرددتها مراراً ^(٥) .

(١) فتح الباري (٦٧/٧) . وخلفاء الرّسول ، ص (٢٥٠) . والعشرة المبشرون بالجنة ، محمد صالح عوض ، ص (٥٣) .

(٢) سنن التّرمذى رقم (٣٧٨٥) . وصحیح التوثيق ، ص (٢٦) .

(٣) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص (٦١٥) .

(٤) سنن التّرمذى ، رقم (٣٧٠٠) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، رقم (٣٧٠٢) .

إِنَّه يَبْدُو وَكَانَهُ الْمُمَوَّلُ الْوَحِيدُ لِلأُمَّةِ الْجَدِيدَةِ ! وَمَضَى الرَّسُولُ ﷺ عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ ، حَتَّى وَصَلَوَا مُوْطَنًا يُدْعَى تِبُوكَ فِي مِنْتَصِفِ الطَّرِيقِ بَيْنِ الْمَدِينَةِ وَدَمْشِقَ ، وَهُنَاكَ جَاءَتِهِ الْأَنْبَاءُ مُبَشِّرَةً بِأَنَّ هَرْقَلَ الَّذِي كَانَ يَعْدُ الْعَدَّةَ لِلرَّحْفَ مِنْ دَمْشِقَ ، قَدْ ثَلَمَ اللَّهُ عَزَّمَهُ ، وَغَادَرَ دَمْشِقَ نَافِضاً يَدِيهِ مِنْ مَحَاوِلَتِهِ الْيَائِسَةِ بَعْدَ أَنْ عَلِمَ بِخُرُوجِ النَّبِيِّ ، وَأَصْحَابِهِ إِلَيْهِ ، وَرَجَعَ الْجَيْشُ بِكُلِّ عَتَادِهِ الَّذِي أَمْدَهُ بِهِ عُثْمَانُ ، فَهَلْ اسْتَرْجَعَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ؟ كَلا .. وَحَاشَهُ أَنْ يَفْعُلَ ! وَقَدْ ظَلَّ كَمَا كَانَ دَوْمًا سَرِيعَ التَّالِبِيَّةِ لِكُلِّ إِيمَاعٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ تَعْنِي جَدِيدًا مِنَ الْبَذْلِ ، وَمُزِيدًا مِنَ الْعَطَاءِ^(١) .

ثانيًا : من حياته الاجتماعية في المدينة :

١- زواجه من أم كلثوم سنة ٣ هـ :

عُرِفتْ أُمُّ كُلُثُومِ رضي الله عنها بكنيتها ، وَلَا يُعْرَفُ لَهَا اسْمٌ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ الْحَاكِمُ عَنْ مَصْبَعِ الْأُبْرِيِّيِّ : أَنَّ اسْمَهَا أُمَّةَيَّةٌ ، وَهِيَ أَكْبَرُ سَنَّةٍ مِنْ فَاطِمَةَ رضي الله عنها^(٢) .

قال سعيد بن المسيب : تأيَّمَ عثمان من رقِيَّة بنت رسول الله ﷺ ، وتأيَّمتْ حفصة بنت عمر من زوجها ، فمَرَّ عمر بعثمان ، فقال : هل لك في حفصة؟ وَكَانَ عُثْمَانَ قدْ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يذَكِّرُهَا فَلَمْ يَجْبُهُ ، وَذَكَرَ ذَلِكَ عَمَرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : « هل لك في خيرٍ مِنْ ذَلِك؟ أَتَرْوَجُ حَفْصَةَ، وَأَزْوَجُ عُثْمَانَ خَيْرًا مِنْهَا : أُمَّةَيَّةٌ »^(٣) . وَفِي رِوَايَةِ الْبَخَارِيِّ : قَالَ عَمَرٌ : تَأيَّمَتْ حَفْصَةَ بنتِ عَمْرٍ مِنْ خَنِيسَ بْنِ حَذَافِرَةِ السَّهْمِيِّ ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ، فَتَوَفَّتِي فِي الْمَدِينَةِ . فَقَالَ عَمَرٌ : أَتَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ بنتِ عَمْرٍ ، قَالَ : فَقُلْتُ : إِنِّي شَتَّتْتُ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ ، فَقَالَ : سَأَنْظُرْ فِي أُمْرِيِّ ، فَلَبِثْتُ لِيَالِيَّ ، ثُمَّ لَقَيْتُنِي ، فَقَالَ : قَدْ بَدَأْتِ أَنْزُوْجُ يَوْمِيَّ هَذَا .

قال عَمَرٌ : فَلَقِيْتُ أَبَا بَكْرَ الصَّدِيقَ ، فَقُلْتُ : إِنِّي شَتَّتْتُ زَوْجَتِكَ حَفْصَةَ بنتِ عَمْرٍ ، فَصَمَّتْ أَبُو بَكْرُ الصَّدِيقُ رضي الله عنه ، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا ، فَكَنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدُ مُنْيًّا عَلَى عُثْمَانَ ، فَلَبِثْتُ لِيَالِيَّ ، ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ ، فَلَقِيْتُنِي أَبُو بَكْرٌ ، فَقَالَ : لَعْلَكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ ، فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ شَيْئًا ؟ قَالَ عَمَرٌ : نَعَمْ . قَالَ : فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ عَلَيَّ ، إِلَّا أَتَيْتُ كُنْتُ عَلِمْتُ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ ذَكَرَهَا ، فَلَمْ أَكُنْ لَأَفْشِي سَرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلَوْ تَرَكَهَا رَسُولُ اللهِ ؛ قَبْلَتَهَا^(٤) .

(١) خلفاء الرَّسُول ، ص (١٣٨) . والعشرة المبشرون بالجنة ، ص (٣١) .

(٢) الدَّوْحةُ النَّبِيَّيَّةُ الشَّرِيفَةُ ، فاروق حمادة ، ص (٤٥ ، ٤٦) .

(٣) مستدرك الحاكم (٤٩/٤) . والآثار لأبي يوسف ، رقم (١٩٥٧) .

(٤) الْبَخَارِيُّ ، كِتَابُ النِّكَاحِ ، رقم (٥١٢٢) .

وتروي أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها خبر زواج أم كلثوم من عثمان رضي الله عنه فتقول : لَمَّا زَوَّجَ النَّبِيُّ ابْنَتَهُ أُمَّةً كَلْثُومًا ؛ قَالَ لَامَّأْيَمْنَ : « هَبْتِي ابْنَتِي أُمَّةً كَلْثُومًا وَزَوَّجْتُهَا إِلَى عُثْمَانَ ، وَأَخْفَقْتُنِي (١) بَيْنِ يَدِيهَا بِالدُّفْ » فَفَعَلَتْ ذَلِكَ ، فَجَاءَهَا النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ التَّالِثَةِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا قَوْلَ : « يَا بُنْيَةَ ! كَيْفَ وَجَدْتَ بَعْلَكَ . ؟ » قَالَتْ : خَيْرٌ بَعْلٌ (٢) . وَعَنْ أَبِي هَرِيرَةِ رضي الله عنه : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ عَنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ ، قَالَ : يَا عُثْمَانَ ! هَذَا جَرِيلٌ أَخْبَرَنِيَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ زَوَّجَكَ أُمَّةً كَلْثُومًا بِمِثْلِ صِدَاقِ رَقَّةِ ، وَعَلَى مِثْلِ صَحِيفَتِهَا . وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةً ثَلَاثَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ ، وَبَنَى بَهَا فِي جَمَادِيِ الْآخِرَةِ (٣) .

٢-وفاة عبد الله بن عثمان :

وفي جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة مات عبد الله بن عثمان رضي الله عنه من رقيقة بنت رسول الله ﷺ ، وهو ابن ست سنين ، فصلّى رسول الله ﷺ عليه ، ونزل حضرته والده عثمان (٤) ، وهذه محنّة عظيمة تعرّض لها عثمان ، وما أكثر المحن في حياة الدعاة إلى الله تعالى !

٣-وفاة أم كلثوم رضي الله عنها :

ولم تزل أم كلثوم عند عثمان رضي الله عنه إلى أن توفيت في شعبان سنة تسع من الهجرة ، بسبب مرض نزل بها ، وصلى عليها رسول الله ﷺ ، وجلس على قبرها . وعن أنس بن مالك : أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا عَلَى قَبْرِ أُمَّةِ كَلْثُومَ ، قَالَ : فَرَأَيْتَ عَيْنِي تَدْمَعَانِ ، قَالَ : « هَلْ مِنْكُمْ رَجُلٌ لَمْ يَقَارِفْ الْلَّيْلَةَ ؟ » فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : أَنَا ، قَالَ : « فَانْزِلْ فِي قَبْرِهَا » (٥) . وعن ليلى بنت قانف الثقافية ، قالت : كُنْتُ فِيمَنْ غَسَّلَ أُمَّةً كَلْثُومَ بَنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ وَفَاتِهَا ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا أَعْطَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْحَقْوَ ، ثُمَّ الدَّرْعَ ، ثُمَّ الْخَمَارَ ، ثُمَّ الْمَلْحَفَةَ ، ثُمَّ أُدْرِجَتْ بَعْدَهُ فِي التَّوْبَ الْآخِرِ ، قَالَتْ : وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ الْبَابِ ، وَمَعَهُ كَفَنَهَا ، يَنَاوِلُنَا إِيَّاهُ ثُوبًا ثُوبًا (٦) ، وَجَاءَ عِنْدَ أَبِي سَعْدٍ : أَنَّ عَلَيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَالْفَضْلَ بْنَ الْعَبَّاسَ ، وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ، قَدْ نَزَلُوا فِي حَفْرَتِهَا مَعَ أَبِي طَلْحَةَ ، وَأَنَّهُمْ غَسَّلُوهَا هِيَ أَسْمَاءَ بْنَ عُمَيْسٍ ، وَصَفِيَّةَ بْنَ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ (٧) .

(١) خفق : اضطرب ، وتحرك .

(٢) السيرة النبوية ، لأبي شهبة (٢٣١/٢) . ودماء على قميص عثمان ، ص (٢٢) .

(٣) سنن ابن ماجه رقم (١١٠) وفيه عثمان بن خالد ، وهو ضعيف .

(٤) الكامل ، لابن الأثير (١٣٠/٢) . ودماء على قميص عثمان ، ص (٢٢) .

(٥) البخاري ، كتاب الجنائز ، رقم (١٣٤٢) .

(٦) سنن أبي داود ، رقم (٣١٥٧) .

(٧) الطبقات ، لابن سعد (٣٩/٨) . والدوحة النبوية ، ص (٤٨) .

وقد تأثَّر عثمان رضي الله عنه وحزن حزناً عظيماً على فراقه لأمَّ كلثوم ، ورأى رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه وهو يسير منكسرًا ، وفي وجهه حزنٌ لما أصابه ، فدنا منه وقال : « لو كانت عندنا ثالثةٌ لزوجناها يا عثمان »^(١) ! وهذا دليل حب رسول الله ﷺ لعثمان ، ودليل وفاء عثمان لنبيه ، وتقديره ، وفيه دليلٌ على نفي ما اعتاده الناس من الشَّائِم في مثل هذا الموطن ، فإنَّ قدر الله ماضٍ ، وأمره نافذٌ ، ولا رادٌ لأمره^(٢) .

ثالثاً : من مساهمه الاقتصادية في بناء الدولة :

كان عثمان رضي الله عنه من الأغنياء الذين أغناهم الله - عز وجل - وكان صاحب تجارة ، وأموال طائلة ، ولكنَّه استخدم هذه الأموال في طاعة الله - عز وجل - وابتغاء مرضاته ، وما عنده ، وصار سباقاً لكل خير ، ينفق ، ولا يخشى الفقر ، وممَّا أنفقه رضي الله عنه من نفقاته الكثيرة على سبيل المثال ما يأتي :

١- بئر رومة :

عندما قدم النبي ﷺ المدينة المنورة ؛ وجد : أنَّ الماء العذب قليل ، وليس بالمدينة ما يستعبد غير بئر رومة ، فقال رسول الله ﷺ : « من يشتري رومة ، فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة ؟ »^(٣) . وقال ﷺ : « من حفر بئر رومة فله الجنة »^(٤) .

وقد كانت رومة قبل قدوم النبي ﷺ لا يشرب منها أحد إلا بثمن ، فلما قدم المهاجرون بالمدينة استنكروا الماء ، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها : رومة ، وكان يبيع منها القربة بمدّ ، فقال النبي ﷺ : « تبيعها بعين في الجنة ؟ » فقال : يا رسول الله ! ليس لي ، ولا لعيالي غيرها . بلغ ذلك عثمان رضي الله عنه فاشتراها بخمسة وتلاثين ألف درهم ، ثمَّ أتى النبي ﷺ ، فقال : أتعجل لي فيها ما جعلت له ؟ قال : « نعم ! » قال : قد جعلتها للمسلمين^(٥) ، وقيل : كانت رومة ركيزة ليهودي يبيع المسلمين ماءها ، فاشتراها عثمان بن عفَّان من اليهودي بعشرين ألف درهم ، فجعلها للغني ، والفقير ، وابن السبيل^(٦) .

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٩/٨٣) ، إسناده حسن لما له من شواهد .

(٢) الخلفاء الرشدون ، أعمال ، وأحداث ، د . أمين القضاة ، ص (٧٣) .

(٣) صحيح النسائي ، للألباني (٢/٧٦٦) .

(٤) أخرجه البخاري ، رقم (٢٧٧٨) معلقاً ، وهو صحيح لشواهده .

(٥) تحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذى (١٩٦/١٠) .

(٦) فتح البارى (٥/٤٠٨) . والحكمة في الدعوة إلى الله ، ص (٢٣١) .

٢- توسيعة المسجد النبوي :

بعد أن بني رسول الله ﷺ مسجده في المدينة صار المسلمون يجتمعون فيه ليصلوا الصّلوات الخمس ، ويحضروا خطب النبي ﷺ التي يُصدر إليهم فيها أوامره ، ونواهيه ، ويتعلّمون في المسجد أمور دينهم ، وينطلقون منه إلى الغزوات ، ثمَّ يعودون بعدها ، ولذلك ضاق المسجد بالثّالث ، فرغب النبي ﷺ من بعض الصحابة أن يشتري بقعةً بجانب المسجد ، لكي تزاد في المسجد ، حتّى يتسع لأهله ، فقال ﷺ : « من يشتري بقعة آل فلان ، فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة؟ » فاشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه من صلب ماله^(١) بخمسة وعشرين ألف درهم ، أو بعشرين ألفاً ، ثمَّ أضيفت للمسجد^(٢) ، ووُسّع على المسلمين ، رضي الله عنه ، وأرضاه^(٣) .

٣- العسرة ، وعثمانها المعطاء :

عندما أراد رسول الله ﷺ الرحيل إلى غزوة تبوك حتّى الصحابة الأغنياء على البذل لتجهيز جيش العسرة الذي أعدّه رسول الله ﷺ لغزو الروم ، فأنفق الأموال من صحابة رسول الله ﷺ كلُّ على حسب طاقته وجهده ، أمّا عثمان فقد أنفق نفقةً عظيمة لم ينفق أحدٌ مثلها^(٤) ، وقد تمَّ بيانها عند حديثنا عن موقفه في غزوة تبوك .

* * *

(١) صحيح سنن الترمذى للألبانى (٣/٢٠٩) ، رقم (٢٩٢١) .

(٢) صحيح سنن النسائي (٢/٧٦٦) .

(٣) أعلام المسلمين لخالد البيطار (٣/٤١) .

(٤) الحكمة في الدّعوة إلى الله ، ص (٢٣١) .

المبحث الرابع

من أحاديث الرسول ﷺ في عثمان بن عفَّان

أولاًً : فيما ورد في فضائله مع غيره :

١- افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصبيه :

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ﷺ في حائطٍ من حيطان المدينة ، فجاء رجل ، فاستفتح ، فقال النبي ﷺ : « افتح له ، وبشره بالجنة ». ففتحت له ؛ فإذا هو أبو بكر ، فبشرته بما قال رسول الله ، فحمد الله ، ثم جاء رجل فاستفتح ، فقال النبي ﷺ : « افتح له وبشره بالجنة ». ففتحت له ؛ فإذا هو عمر ، فأخبرته بما قال النبي ﷺ ، فحمد الله . ثم استفتح رجل ، فقال لي : « افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصبيه ». فإذا عثمان ، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ ، فحمد الله ، ثم قال : الله المستعان^(١) .

هذا الحديث تضمن فضيلة هؤلاء التّلّاثة المذكورين ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ؛ وأنّهم من أهل الجنة ، كما تضمن فضيلة لأبي موسى . وفيه دلالة على جواز الثناء على الإنسان في وجهه إذا أمنت عليه الإعجاب ونحوه . وفيه معجزة ظاهرة للنبي ﷺ لإخباره بقصّة عثمان ، والبلوى ، وأنّ التّلّاثة يستمرون على الإيمان ، والهدى^(٢) .

٢- اسكن أحد فليس عليك إلا نبيٌّ وصديقٌ وشهيدان :

عن أنسٍ رضي الله عنه قال : صعد النبي ﷺ أحداً ، ومعه أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، فرَجَف ، فقال : « اسكن أحد - أظنه ضربه برجله - فليس عليك إلا نبيٌّ ، وصديقٌ ، وشهيدان »^(٣) .

(١) البخاري ، رقم (٣٦٩٥) .

(٢) شرح التّوسي على صحيح مسلم (١٥ / ١٧٠-١٧١) .

(٣) البخاري ، رقم (٣٦٩٧) .

٣- أهداً فما عليك إلا نبيٌّ ، أو صديقٌ ، أو شهيدٌ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَحَدًا مِمَّا كَانَ عَلَى حِرَاءَ ، وَأَبْوَ بَكْرَ ، وَعُمَرَ ، وَعُثْمَانَ ، وَعَلِيٌّ ، وَطَلْحَةَ ، وَالرَّبِيعَ ، فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ : « اهداً فما عليك إلا نبيٌّ ، أو صديقٌ ، أو شهيدٌ »^(١) .

٤- حياة عثمان رضي الله عنه :

عن يحيى بن سعيد بن العاص : أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ أَخْبَرَهُ : أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعُثْمَانَ حَدَّثَاهُ : أَنَّ أَبَا بَكْرَ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُضْطَجَعٌ عَلَى فَرَاشِهِ لَا يَبْسُ مِنْ طَعَاشَةٍ ، فَأَذْنَنَ لَأَبِي بَكْرٍ ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ ، فَقُضِيَ إِلَيْهِ حَاجَتِهِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانَ لَهُ ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، فَقُضِيَ إِلَيْهِ حَاجَتِهِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ ، قَالَ عُثْمَانُ : ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ ، فَجَلَسَ ، وَقَالَ لِعَائِشَةَ : « اجْمَعِي عَلَيْكِ ثِيَابَكِ » . فَقُضِيَتِ إِلَيْهِ حَاجَتِي ، ثُمَّ انْصَرَفَتْ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا لِي لَمْ أَرْكَزْ فَرَعَتْ لِأَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ رضي الله عنهما كَمَا فَرَعَتْ لِعُثْمَانَ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ : « إِنَّ عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيِّيٌّ ، وَإِنَّي خَشِيتُ إِنْ أَذْنَتُ لَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ أَلَا يَبْلُغُ إِلَيَّ فِي حَاجَتِهِ »^(٢) .

٥- استحياء الملائكة من عثمان :

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن : أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي ، كَاشِفًا عَنْ فَخْذِيهِ ، أَوْ سَاقِيهِ ، فَاسْتَأْذَنَ أَبْوَ بَكْرًا ، فَأَذْنَنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، فَتَحَدَّثَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرَ ، فَأَذْنَنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ ، فَتَحَدَّثَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانَ ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَوَّيَ ثِيَابَهُ . قَالَ مُحَمَّدٌ - أَحَدُ رواةِ الْحَدِيثِ - وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ - فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ ، فَلَمَّا خَرَجَ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : دَخَلَ أَبُوبَكْرَ ، فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ ، وَلَمْ تُبَالِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرَ ، فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ ، وَلَمْ تُبَالِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانَ ، فَجَلَسَ ، وَسَوَّيَ ثِيَابَكِ ! فَقَالَ : « أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ ؟ ! »^(٣) .

قال المناوي : مقام عثمان مقام الحياة ، والحياة فرع يتولّد من إجلال من يشاهده ، ويعظم قدره ، مع نقص يجده في النفس ، فكأنه غالب عليه إجلال الحق تعالى ، ورأى نفسه بعين النفس ، والتقدير ، وهو ما من جليل خصال العباد المقربين ، فعُلِّمَ رتبة عثمان كذلك ، فاستحبّت منه خلاصة الله من خلقه ، كما أَنَّ من أَحَبَّ اللَّهَ ؛ أَحَبَّ أُولِيَّاءَهُ ، ومن خافَ اللَّهَ ؛ خافَ منه كُلُّ شَيْءٍ^(٤) .

(١) مسلم ، رقم (٢٤١٧) .

(٢) مسلم ، رقم (٢٤٠٢) .

(٣) مسلم ، رقم (٢٤٠١) .

(٤) فيض القدير للمناوي (٣٠٢/٤) .

٦- أصدقها حياءً عثمان :

عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أرحم أمتى أبو بكر ، وأشدّها في دين الله عمر ، وأصدقها حياءً عثمان ، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأقرأها لكتاب الله أبيه ، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح »^(١) .

ثانياً : إخبار رسول الله عن الفتنة التي يُقتل فيها عثمان :

١- من نجا من ثلاثة فقد نجا :

عن عبد الله بن حواله : أنَّ رسول الله ﷺ قال : « من نجا من ثلاثة ؛ فقد نجا - ثلاثة مرات - : موتى ، والدجال ، وقتل خليفة مصطبر بالحق ، معطيه »^(٢) .

ومعلوم : أنَّ الخليفة الذي قتل مصطبراً بالحق هو عثمان ، فالقرائن تدلُّ على أنَّ الخليفة المقصود بهذا الحديث هو عثمان بن عَفَّان رضي الله عنه وفي الحديث - والله أعلم - لفتة عظيمة إلى أهمية السَّلامَة من الخوض في هذه الفتنة حسياً، ومعنىـاً، أمـا حسـياً فـذلك يكون في زـمن الفتـنة، من تحريضـ، وتألـيبـ، وقتلـ، وغيرـ ذلكـ، وأمـا معنىـاً فـبعد الفتـنة من خوضـ فيها بالباطـلـ، وكـلامـ فيها بـغيرـ حقـ، وبـهذا يـكونـ الحـديثـ عامـاً لـلـأـمـةـ، وـلـيـسـ خـاصـاًـ بـمـنـ أـدـرـكـ الفتـنةـ»^(٣) .

٢- يُقتل فيها هذا المقتَع يومئذ :

عن ابن عمر قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنة ، فمَرَّ رجل ، فقال : « يُقتل فيها هذا المقتَع يومئذ مظلوماً » ، قال : فنظرت ، فإذا هو عثمان بن عَفَّان^(٤) .

٣- هذا يومئذ على الهدى :

عن كعب بن عجرة ، قال : ذكر رسول الله فتنة ، فقربها ، فمَرَّ رجل مقنع رأسه ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا يومئذ على الهدى » . فوثبت ، فأخذت بضعي عثمان ، ثم استقبلت رسول الله ﷺ فقلت : هذا ؟ قال : « هذا »^(٥) .

٤- تهيج فتنة كالصيادي ، فهذا ومن معه على الحق :

عن مرأة البهزي ، قال : كنت عند رسول الله ﷺ ، وقال بهز - من رواة الحديث - : قال

(١) فضائل الصحابة ، للإمام أحمد (٦٠٤ / ١) إسناده صحيح .

(٢) المسند (٤١٩ / ٤) (٣٤٦ / ٥) ، تحقيق : أحمد شاكر .

(٣) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (٤٤ / ١) .

(٤) فضائل الصحابة (٥٥١ / ١) إسناده حسن .

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٢٤ / ١) .

رسول الله ﷺ : « تهيج فتنة كالصيادي ، فهذا ومن معه على الحق ». قال : فذهبت ، فأخذت بمجامع ثوبه ، فإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه^(١) .

٥- هذا يومئذ وأصحابه على الحق ، والهدى :

عن أبي الأشعث قال : قاتم خطباء باليلياء في إماراة معاوية رضي الله عنه فتكلّموا ، وكان آخر من تكلم مرأة بن كعب ، فقال : لو لا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ؟ ما قمت ، سمعت رسول الله ﷺ يذكر فتنة ، فقربها ، فمرّ رجل مقنع ، فقال : « هذا يومئذ وأصحابه على الحق ، والهدى » . فقلت : هذا يا رسول الله ؟ وأقبلت بوجهه إليه ، فقال : « هذا » فإذا هو عثمان رضي الله عنه^(٢) .

٦- عليكم بالأمين وأصحابه :

عن أبي حبيبة : أنه دخل الدار وعثمان محصور فيها ، وأنه سمع أبا هريرة يستأذن عثمان في الكلام ، فأذن له ، فقام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : إني سمعت رسول الله يقول : « إنكم تلقون بعدي فتنة ، واختلافاً - أو قال - اختلافاً ، وفتنة ». فقال له قائل من الناس : فمن لنا يا رسول الله ؟ قال : « عليكم بالأمين وأصحابه » وهو يشير إلى عثمان بذلك^(٣) .

٧- فإن أرادك المنافقون على خلعه ؛ فلا تخلعه :

عن عبد الله بن عامر ، عن العثمان بن بشير ، عن عائشة ، قالت : أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فلما رأينا رسول الله ﷺ أقبلت إحدانا على الأخرى ، فكان من آخر كلامه كلمة أن ضرب بين منكبيه ، وقال : « يا عثمان ! إن الله - عز وجل - عسى أن يلبسك قميصاً ، فإن أرادك المنافقون على خلعه ، فلا تخلعه حتى تلقاني » ثلاثاً^(٤) .

٨- إنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَاهَدَ إِلَيَّ عَهْدًا ، وَإِنِّي صَابِرٌ نَفْسِي عَلَيْهِ :

عن أبي سهلة ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « ادعوا لي بعض أصحابي ». قلت : أبو بكر ؟ قال : « لا » قالت : عثمان ؟ قال : « نعم ! » فلما جاء ؛ قال : تنحِي ، فجعل يُسَاڑَه^(٥) ، ولو ن عثمان يتغيّر ، فلما كان يوم الدّار ، وحُصرَ؛ قلنا : يا أمير

(١) المسند (٣٣/٥) له طرق تقويه .

(٢) فضائل الصحابة (١/٥٥٠) إسناده صحيح .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) فضائل الصحابة (١/٦٣١) إسناده صحيح .

(٥) من المسارأة مفاعة من السرّ : أي : المواجهة .

المؤمنين ! ألا تقاتل ؟ قال : لا ! إنَّ رسول الله ﷺ عهد إلى عهداً ، وإنَّ صابرٌ نفسي عليه^(١) . وهذا الحديث يبيِّن شدَّة محبَّة رسول الله لعثمان رضي الله عنه ، وحرصه على مصالح الأمة بعده ، فقد أخبره بأشياء تتعلَّق بهذه الفتنة التي ستنتهي بقتله ، وحرصه عليه الصَّلاة والسلام على سرِّيتها ، حتَّى إِنَّه لم يصل إلينا منها إلَّا ما صرَّح به عثمان رضي الله عنه أثناء الفتنة لِمَا قيل له : ألا تقاتل ؟ فقد قال : لا ، إنَّ رسول الله عهد إلى عهداً ، وإنَّ صابرٌ عليه^(٢) .

ويظهر من قوله هذا : أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد أرشده إلى الموقف الصَّحيح ، عند اشتعال الفتنة ، وذلك أخذنا منه ﷺ بحجز الفتنة أن تطلق . وفي بعض الرَّوايات زيادة تكشف عن بعض مكتون هذه المسارَّة ، فقد جاء فيها : أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له : « إنَّ سَأْلُوكَ أَنْ تَنْخُلُ مِنْ قَمْبِصِ قَمْصِكَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فَلَا تَفْعُلْ »^(٣) . ومضمون هذا العهد الذي ذكره عثمان رضي الله عنه يتعلق بالفتنة ، والوصيَّة بالصَّبر فيها وعدم الخلع ، وإن كان يفهم من هذه الأحاديث بأنَّه سيكون خليفة يوماً ما . ويبدو : أنَّ هناك وصايا ، وإرشادات تتعلَّق بهذه الفتنة ، انفرد بمعرفتها عثمان رضي الله عنه ، وذلك محافظةً من النَّبِيَّ ﷺ على السَّرِّيَّة فيها ، وممَّا يبيِّن ذلك : أنَّه أمر عائشة رضي الله عنها بالانصراف^(٤) عندما أراد الإسرار بها لعثمان رضي الله عنه ، كما أنَّه أسرَ إِلَيْهِ إِسْرَاراً ، رغم خلو المكان من غيرهما ، حتَّى تغيَّر لونه ، مما يدلُّ على عظم المسرَّ به ، وربط عائشة رضي الله عنها هذا الإسرار بالفتنة دليلاً واضحـاً على أنَّ هذه المسارَّة كانت حول الفتنة التي قتل فيها ، كما أنَّ الإسرار تضمَّن توجيهات منه ﷺ إلى عثمان ؛ ليقف الموقف الصَّحيح عند عرض الخلع ، وأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يقتصر على الإخبار بوقوع الفتنة ، فقد أخبر بذلك علانيةً في أحاديث كثيرة كما تقدَّم ، فإذا سرَّاه يدلُّ على أنَّ هذا الإسرار تضمَّن أشياء أخرى زيادةً على الإخبار عن وقوعها ، ورغب عليه الصَّلاة والسلام بالمحافظة على سرِّيتها لِحُكْمِ اقْتِضَت ذلك - الله أعلم بها - .

وهذا الحديث يفسِّر لنا جلياً سبب إصرار عثمان على رفض القتال أثناء الحصار ، كما يفسِّر أيضاً سبب رفضه للتنازل عن الخلافة وخلعها عندما عرض القوم عليه ذلك ، وهو ما مفاده طالما تسأَل الباحثون والمؤرِّخون عن السَّبَبِ الَّذِي أدى عثمان إِلَيْهِما ، واستشكُلُوهُما^(٥) .

وحدث فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه من ضمن حوادث كثيرة أخبر رسول الله في حياته بأنَّها ستقع بالغيب ، فإنَّ علم الغيب صفةٌ من صفات الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، ليست لأحدٍ من خلقه ، وإنما

(١) فضائل الصحابة (٦٠٥/١) إسناده صحيح .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) فضائل الصحابة (٦١٣/١) إسناده صحيح . والطبقات (٦٦/٣ - ٦٧) .

(٤) فقد قال لها النَّبِيَّ ﷺ : (تنَحِيْ) ومعنى التنَحِيْ : الانصراف ، الفيروزآبادي ، القاموس المحيط (٣٩٦/٤) . ولسان العرب (٣١١/١٥) .

(٥) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (٤٨/١) .

ذلك علم أطلعه الله عليه ، وأمره أن يبيّنه للناس^(١) ، قال تعالى : « قُلْ لَا أَمِلُكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْعَيْبَ لَا سَتَكْثُرُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَنِي السُّوءُ إِنَّمَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِّرُ لِقَوْمَ يُؤْمِنُونَ » [الأعراف : ١٨٨] .

* * *

(١) المصدر السابق نفسه .

المبحث الخامس

ذو التورين في عهد الصديق والفاروق

أولاً : في عهد الصديق

١- من أهل الشورى في مسائل الدولة العليا :

كان عثمان رضي الله عنه من الصحابة ، وأهل الشورى الذين يؤخذ رأيهم في أمميات المسائل في خلافة أبي بكر ، فهو ثالثي اثنين في الحظوة عند الصديق : عمر ابن الخطاب للحرّامة ، والشداد ، وعثمان بن عفان للرّفق ، والأنّاة . وكان عمر وزير الخلافة الصديقية ، وكان عثمان أميناً العام ، وناموسها الأعظم ، وكاتبها الأكبر^(١) ، وكان رأيه مقدماً عند الصديق ، وبعد أن قضى أبو بكر على حركة الردة ؛ أراد أن يغزو الروم ، وينطلق الجيش المجاهد إلى أطراف الأرض ، فقام في الناس يستشيرهم ، فقال الألباء ما عندكم ، ثم استزادهم أبو بكر ، فقال : ما ترون ؟ فقال عثمان : إنّي أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين ، شفيق عليهم ، فإذا رأيت رأياً لعامتهم صلاحاً ؛ فاعزم على إمضائه ، فإنك غير ظنين^(٢) ، فقال طلحة ، والرّبّير ، وسعد ، وأبو عبيدة ، وسعيد بن زيد ، ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين ، والأنصار رضي الله عنهم : صدق عثمان ! ما رأي فأمسنه^(٣) . ولما أراد الصديق أن يبعث والياً إلى البحرين ، استشار أصحابه ، فقال عثمان : ابعث رجلاً قد بعثه رسول الله إليهم ، فقدم عليه^(٤) بإسلامهم ، وطاعتهم ، وقد عرفوه ، وعرفهم ، وعرف بلادهم - يعني : العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه - فبعث الصديق العلاء إلى البحرين^(٥) .

(١) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص(٥٨) .

(٢) تاريخ دمشق ، لابن عساكر (٦٣/٢ - ٦٥) . وأبو بكر الصديق للصلابي ، ص(٣٦٤) .

(٣) أبو بكر الصديق للصلابي ، ص(٣٦٤) .

(٤) أي : على النبي ﷺ .

(٥) كنز العمال (٥/٦٢٠) ، رقم (١٤٠٩٣) . وتاريخ الطبرى (٤/١٢٢) . والقيود الواردة على سلطة الدولة ، عبد الله الكيلاني ، ص(١٦٩) .

ولما اشتدَّ المرض بأبي بكرٍ استشار النَّاسَ فيمَن يَحْبُّونَ أَنْ يَقُومُ بِالْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ ، فَأَشَارُوا بعمر ، وكان رأي عثمان في عمر : اللَّهُمَّ علِمْ بِهِ أَنَّ سَرِيرَتَهُ خَيْرٌ مِنْ عَلَانِيَتِهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي نَا مِثْلِهِ^(١) .

فقال أبو بكر : يرحمك الله ! والله لو تركته ما عَدْنَكْ^(٢) !

٢- أَزْمَةُ اقْتَصَادِيَّةٌ فِي عَهْدِ الصَّدِيقِ :

عن ابن عباس قال : قحط المطر على عهد أبي بكر الصَّدِيقِ ، فاجتمع النَّاسُ إِلَى أَبِي بكرِ ، فقالوا : السَّماء لم تمطر ، والأَرْضُ لم تُنْبَتْ ، والنَّاسُ في شَدَّةٍ شَدِيدَةٍ . فقال أبو بكر : انصرفوا ، واصبروا ، فإِنَّكُمْ لَا تُمْسِنُ حَتَّى يُفَرِّجَ اللَّهُ الْكَرِيمُ عَنْكُمْ . قال : فَمَا لَبَثْنَا أَنْ جاءَ أَجْرَاءُ عُثْمَانَ مِنَ الشَّامَ ، فجاءَتْهُ مَئِةٌ رَاحِلَةٌ بُرَّاً - أو قال : طَعَاماً - فاجتمع النَّاسُ إِلَى بَابِ عُثْمَانَ ، فقرعوا عليه الباب ، فخرج إليهم عثمان في ملأِ النَّاسِ فقال : مَا تَشَائُونَ؟ قالوا : الرَّبِّ يَمْنَعُنَا دُخُولَ الْمَدِينَةِ ، فَمَا أَنْجَانَا الْمَدِينَةَ إِلَّا بِمَوْلَانَا عُثْمَانَ . قالوا : مَا تَشَائُونَ؟ قالوا : عَنْدَكَ طَعَاماً ، فبعنا حَتَّى نُوسِعَ عَلَى فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ . فقال عثمان : حَبَّاً وَكِرَاماً ، ادخلُوا فاشتروا ، فدخلَ الْمَدِينَةَ ، فإِذَا الطَّعَامُ مَوْضِعُهُ فِي دَارِ عُثْمَانَ ، فقال : يَا مُعْشِرَ الْمَدِينَةِ كُمْ تَرِبَحُونِي عَلَى شَرَائِي مِنَ الشَّامَ؟ قالوا : لِلْعُشْرَةِ اثْنَا عَشْرَةً . قال عثمان : قَدْ زَادُونِي . قالوا : لِلْعُشْرَةِ خَمْسَةُ عَشْرَةً . قال عثمان : قَدْ زَادُونِي . قال الْمَدِينَةُ : يَا أَبَا عَمْرٍو مَا بَقِيَ بِالْمَدِينَةِ تجَارِيَّةً غَيْرِنَا ، فَمَنْ زَادَكَ؟ قال : زَادَنِي اللَّهُ - تَبارُكَ وَتَعَالَى - بِكُلِّ درهمِ عَشْرَةً ، أَعْنَدْكُمْ زِيَادَةً؟ قالوا : اللَّهُمَّ لَا! قال : فَإِنِّي أُشَهِّدُ اللَّهَ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ هَذَا الطَّعَامَ صَدَقَةً عَلَى فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ^(٣) ! قال ابن عَبَّاسٍ : فَرَأَيْتَ مِنْ لِيلَتِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ ، وَهُوَ عَلَى بِرْذُونِ أَبْلَقَ^(٤) ، عَلَيْهِ حُلَّةٌ مِنْ نُورٍ ، فِي رَجْلِهِ نَعْلَانٌ مِنْ نُورٍ ، وَبِيدهِ قَصْبَةٌ مِنْ نُورٍ ، وَهُوَ مُسْتَعْجِلٌ فَقَلَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ اشْتَدَّ شَوْقِي إِلَيْكَ ، وَإِلَى كَلَامِكَ ، فَأَيْنَ تُبَادِرُ؟ قال : « يَا بْنَ عَبَّاسٍ! إِنَّ عُثْمَانَ قَدْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ قَبَلَهَا مِنْهُ ، وَزَوْجُهُ عَرْوَسًا فِي الْجَنَّةِ ، وَقَدْ دُعِيْنَا إِلَى عَرْسِهِ »^(٥) .

فهل يفتح الله تعالى آذان عباد المال ، ومحتركي قوت العباد شحّا ، وجشعاؤ إلى صوت هذه

(١) الكامل لابن الأثير (٧٩/٢) . الخلفاء الرَّاشِدُونَ ، لمُحَمَّدٍ شَاكِرٍ ، ص (١٠١) .

(٢) الكامل لابن الأثير (٧٩/٢) .

(٣) الرقة والبكاء ، لابن قدامة ، ص (١٩٠) . والخلفاء الرَّاشِدُونَ لحسن أَيُوب ، ص (١٩١) . وشهيد الدار ، لأحمد الخروف ، ص (٢١) .

(٤) الذَّيْ فِيهِ سَوَادٌ ، وَبِيَاضٌ .

(٥) الرقة والبكاء ، ص (١٩٠) .

العظمة العثمانية حتَّى تدلُّف إلى قلوبهم فتهزُّها هزةً الأريحية ، والعطف ، وتوظُّف فيها بواعث الرَّحْمَة ، والإحسان بالفقراء ، والمساكين ، والأرامل ، واليتامي ، وذوي الحاجات من أهل الفاقة ، والبُؤس ، الذين طاحتهم أزمة الحياة ، واعتصرت دماءهم شرابةً لذوي القلوب المتحجرة من الآثارِيَّاء ؟ فما أحوج المسلمين في هذه المرحلة من حياتهم إلى نفحَّة عثمانية في إنفاق الأموال على الفقراء ، والمساكين ، والمحاجين ؟ تسرِّي بينهم تعاطفًا ، ومؤاساة ، وبرأً وإحسانًا^(١) .

هذا موقف من مواقف الكرم والبُر لعثمان رضي الله عنه ، فقد كان رضي الله عنه من أرحم الناس بالنَّاس ، فهو يقرأ قول ربِّ النَّاس : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَيَطْغَى » [العلق : ٦] ؛ فيصدُّه ذلك عن الطُّغْيَان ، ويقرأ قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَآتَمْ نَهَّلُونَ الْكِتَبَ أَفَلَا تَقْرِلُونَ » [البقرة : ٤٤] . فيجعله ذلك من أبعد النَّاس عن النِّفاق والمنافقين ، ويقرأ قوله تعالى : « لَيَسَ الْبَرُ أَنْ يُؤْلَوْا وُجُوهُكُمْ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبَرَ مِنْ مَاءَمَنَ بِاللَّهِ وَآتَيْوْمَ الْأَخْرَ وَالْمَلَئِكَةِ وَالْكِتَبِ وَالنَّبِيِّنَ وَأَعَادَ الْمَالَ عَلَى حِيمَهِ دَوَى الْقُرْبَ وَالْيَتَمَ وَالْمَسْكِينَ وَأَبْنَ الْسَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الْأَصْلَوَهَ وَأَعَادَ الْرَّكُوَهَ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّدِيقِينَ فِي الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ أَبْلَيْكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُنَقَّوْنَ » [البقرة : ١٧٧] فيحمله ذلك على أن يكون من^(٢) « أَوْلَيْكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُنَقَّوْنَ » [البقرة : ١٧٧] .

ثانياً : في عهد الفاروق :

كان عثمان ذات مكانة عند عمر ، فكانوا إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شيء ؟ زَمَّوه بعثمان ، وبعده الرحمن بن عوف ، وكان عثمان يسمى الرَّدِيف - والرَّدِيف بلسان العرب : هو الذي يكون بعد الرَّجل ، والعرب يقول ذلك للرَّجل الذي يرجونه بعد رئيس - وكانوا إذا لم يقدر هذان على عمل شيء ؟ ثَلَّوا بالعباس^(٣) .

وقد حدث ذات مرَّة أن خرج عمر بالنَّاس ، وعسكر بهم بما يُدعى (صراراً) فجاء عثمان ، فسألَه : ما بَلَغْكَ ؟ ما الَّذِي تَرِيد ؟ فنادَى عمر رضي الله عنه (الصَّلاة جامِعَة) ثُمَّ أَخْبَرَ النَّاسَ عن عزمه في غزو العراق^(٤) .

ولمَّا وَلَّيَ عمر الخلافة استشار وجهو الصحابة في عطائه من مال المسلمين ، فقال له

(١) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص (٥٢) .

(٢) شهيد الدَّار ، ص (٢٢ ، ٢٣) .

(٣) تاريخ الطَّبرِي (٨٣/٤) ، المرتضى للتلدو ، ص (١٣١) .

(٤) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، الخليفة الشَّاكر الصَّابر ، ص (٦٣) .

عثمان : كل ، وأطعم^(١) . وعندما أرسل أبو عبيدة إلى عمر أن يقدم إلى بيت المقدس ، ليفتحه ، فاستشار عمر الناس ، فأشار عثمان بأن لا يركب إليهم ؛ ليكون أحقر لهم ، وأرغم لأنوفهم ، وقال لعمر : فأنت إن أقمت ولم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخفٌ ، ولقتالهم مستعدٌ ، فلم يلبيوا إلى السير حتى ينزلوا على الصغار ، ويعطوا الجزية^(٢) . وأشار عليٌ بالمسير ، فهو عمر ما قال عليٌ ، ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم^(٣) .

لقد كانت مكانة عثمان رضي الله عنه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كمكانة الوزير من الخليفة ، وإن شئت ؛ فقل هي مكانة عمر من أبي بكر في خلافته ، وقد صنع الله لأبي بكر بوزارة عمر لخلافته ما يصنعه لخير أهله ، وصنع لعمر بوزارة عثمان لخلافته ما يصنعه لخير أهله ؛ فقد كان أبو بكر أرحم الناس بالناس ، وكان عمر أشدّهم في الحق ، فمزج الله رحمة الصديق بشدة عمر ، فكانت منهما خلافة الصديق وسياسة العدل ، وقوه الحزم .

وكان عثمان رضي الله عنه أشبه بالصديق في رحمته ، وكان عمر على سنته في شدّته ، فلما تولى بعد أبي بكر جعل الله له في وزارة عثمان لخلافته عوضاً من رحمة الصديق ، ورفقه ؛ فكان منهما تلك الأمثال المضروبة في أنظمة الحكم ، وسياسة الأمة أحكم سياسة ، وأعدلها ، وقد عرف الناس هذه المكانة لعثمان في خلافة عمر ، فهو الذي أشار على عمر بفكرة الديوان ، وكتابة التاريخ كما جاء في بعض الروايات :

١- الديوان :

لما اتسعت الفتوحات ، وكثرت الأموال ؛ جمع عمر ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ ليستشيرهم في هذا المال ، فقال عثمان : أرى مالاً كثيراً يسع الناس وإن لم يحصلوا حتى يعرف من أخذ منهم ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر ! فأقرَّ عمر رأي عثمان ، وانتهى بهم ذلك إلى تدوين الدّواوين^(٤) .

٢- التاريخ :

جاء في بعض الروايات : أن الذي أشار على عمر بجعل السنة الهجرية تبدأ بالمحرم هو عثمان ؛ وذلك : أنهما لما انفقوا بعد مشاوراتٍ على جعل مبدأ التاريخ الإسلامي من هجرة النبي

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، محمد حسين هيكل ، ص (٤٧ - ٤٨) نقاً عن السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٢٤) .

(٣) عثمان بن عفان ، الخليفة الشاكر ، ص (٦٣) .

(٤) تاريخ الطبرى (٥/٢٠٣). وعثمان بن عفان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص (٦٠) .

؛ لأنها فرق بين الحق^ﷺ ، والباطل - تعدد الآراء في أي الأشهر يجعل بداية للسنة ، فقال عثمان: أَرْخُوا مِنَ الْمُحْرَم أَوَّلَ السَّنَة ، وَهُوَ شَهْرُ حِرَامٍ ، وَأَوَّلُ الشُّهُورِ فِي الْعُدَّة ، وَهُوَ مُنْصَرِفُ النَّاسَ مِنَ الْحَجَّ ، فَرُضِيَ عَمْرٌ ، وَمَنْ شَهَدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ رَأَى عُثْمَانَ ، وَاسْتَقَرَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ ، وأصبح مبدأ تاريخ الإسلام^(١) .

٣- أرض الخراج :

كان عثمان رضي الله عنه مَمْنَ أَيَّدُوا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه في عدم تقسيم أرض الفتوح على الفاتحين ، وإبقاءها فيئاً للمسلمين ، وللذرية من بعدهم^(٢) .

٤- حجّه مع أمّهات المؤمنين :

لَمَّا اسْتُخْلَفَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه سَنَةً ثَلَاثَ عَشَرَةً ؛ بَعْثَ تِلْكَ السَّنَةَ عَلَى الْحَجَّ عَبْدَ الرَّحْمَنَ بْنَ عَوْفَ رضي الله عنه فَحَجَّ بِالنَّاسِ ، وَحَجَّ مَعَ عُمَرَ أَيْضًا آخِرَ حَجَّةِ حَجَّهَا عَمَرُ سَنَةَ ثَلَاثَ وَعِشْرِينَ ، وَأَذْنَ عُمَرُ تِلْكَ السَّنَةَ لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَجَّ ، فَحُمِّلُنَّ فِي الْهَوَادِجِ ، وَبَعْثَ مَعْهُنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنَ بْنَ عَوْفٍ ، فَكَانَ عُثْمَانٌ يَسِيرُ عَلَى رَاحِلَتِهِ أَمَامَهُنَّ ، فَلَا يَدْعُ أَحَدًا يَدْنُو مِنْهُنَّ ، وَيَنْزَلُنَّ مَعَ عُمَرَ كُلَّ مَنْزِلٍ ، فَكَانَ عُثْمَانٌ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ يَنْزَلُانَ بِهِنَّ فِي الشَّعَابِ ، فَيُقْبَلُانَهُنَّ الشَّعَابَ ، وَيَنْزَلُانَ هُمَا فِي أَذْلَلِ الشُّعَابِ ، فَلَا يَتَرَكَانَ أَحَدًا يَمْرُّ عَلَيْهِنَّ^(٣) .

* * *

(١) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص(٦٠) .

(٢) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص(٢٥) .

(٣) طبقات ابن سعد (٣/١٣٤) . وأنساب الأشراف (١/٤٦٥ ، ٤٦٦) . ومجلة البحوث الإسلامية ، العدد العاشر ، ص(٢٦٣) .

الفصل الثاني

استخلاف ذي النورين ، ومنهجه في الحكم ، وأهم صفاتـه الشخصية

المبحث الأول

استخلاف ذي النورين

أولاً : الفقه العمري في الاستخلاف :

استمر اهتمام الفاروق رضي الله عنه بوحدة الأمة ، ومستقبلها حتى اللحظات الأخيرة من حياته ، رغم ما كان يعنيه من آلام جراحاته البالغة ، وهي بلا شك لحظات خالدة ، تجلّى فيها إيمان الفاروق العميق ، وإخلاصه ، وإيثاره^(١) ، وقد استطاع الفاروق في تلك اللحظات الحرجة أن يتذكر طريقة جديدة لم يسبق إليها في اختيار الخليفة الجديد ، وكانت دليلاً ملماً ، ومعلماً واضحاً على فقهه في سياسة الدولة الإسلامية ، لقد مضى قبله الرسول ﷺ ، ولم يستخلف بعده أحداً بنصٍ صريح ، ولقد مضى أبو بكر الصديق ، واستخلف الفاروق بعد مشاورته كبار الصحابة ، ولما طلب من الفاروق أن يستخلف وهو على فراش الموت ؛ فنَّكر في الأمر ملياً ، وقرر أن يسلك مسلكاً آخر يتناسب مع المقام؛ فرسول الله ﷺ ترك الناس ، وكلهم مقرب بأفضلية أبي بكر ، وأسبقيته عليهم ، فاحتمال الخلاف كان نادراً ، وخصوصاً : أن النبي ﷺ وجه الأمة قوله وفعلاً إلى أنَّ أبي بكر أولى بالأمر من بعده .

والصديق لما استخلف عمر ؛ كان يعلم : أنَّ عند الصحابة أجمعين قناعة بأنَّ عمر أقوى ، وأفضل من يحمل المسؤولية بعده ، فاستخلفه بعد مشاورته كبار الصحابة ، ولم يخالف رأيه أحدٌ منهم ، وحصل الإجماع على بيعة عمر^(٢) . وأمّا طريقة انتخاب الخليفة الجديد ، فتعتمد على جعل الشورى في عدد محصورٍ ، وقد حصر ستةً من صحابة رسول الله ﷺ كلُّهم يصلحون لتولي

(١) الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب ، للعناني ، ص(١٦١) .

(٢) أولئك الفاروق ، ص(١٢٢) .

الأمر ، ولو أنهم يتفاوتون ، وحدّد لهم طريقة الانتخاب ، ومدّته ، وعدد الأصوات الكافية لانتخاب الخليفة ، وحدّد الحكم في المجلس ، والمرجح إن تعادلت الأصوات ، وأمر مجموعه من جنود الله لمراقبة سير الانتخابات في المجلس ، وعقاب من يخالف أمر الجماعة ، ومنع الفوضى بحيث لا يسمحون لأحد يدخل ، أو يسمع ما يدور في مجلس أهل الحلّ ، والعقد^(١) .

وهذا بيانٌ ما أجمل في الفقرات السابقة :

١- العدد الذي حدده للشّوري ، وأسماؤهم :

أمّا العدد ، فهو ستّة ، وهم : عليٌّ بن أبي طالبٍ ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، والرّبير بن العوّام ، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم جميعاً . وترك سعيد بن زيد ، وهو من العشرة المبشّرين بالجنة ، ولعله تركه لأنّه من قبيلتهبني عدي^(٢) ، وكان عمر رضي الله عنه حريصاً على إبعاد الإمارة عن أقاربه ، مع أنّ فيهم من هو أهل لها ، فهو يُبعد قريبه سعيد بن زيد عن قائمة المرشّحين للخلافة^(٣) .

٢- طريقة اختيار الخليفة :

أمرهم أن يجتمعوا في بيت أحدهم ، ويتشاوروا ، وفيهم عبد الله بن عمر يحضر معهم مشيرًا فقط ، وليس له من الأمر شيء ، ويصلّي بالناس أثناء التّشاور صهيب الرّومي ، وقال له : أنت أمير الصّلاة في هذه الأيام الثلاثة . حتّى لا يولي إمامـة الصّلاة أحداً من السّتّة ، فيصبح هذا ترشيشاً من عمر له بالخلافة^(٤) ، وأمر المقداد بن الأسود ، وأبا طلحـة الأنـصارـيـ أن يرقـبـاـ سـيرـ الـانتـخـابـاتـ^(٥) .

٣- مدة الـانتـخـابـاتـ ، أو المشـاورـةـ :

حدّدـهاـ الفـارـوقـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ بـثـلـاثـةـ أـيـامـ ، وـهـيـ فـتـرـةـ كـافـيـةـ ، وـإـنـ زـادـواـ عـلـيـهـاـ ؛ فـمـعـنـ ذـلـكـ أـنـ شـفـقـةـ الـخـلـافـ سـتـّسـعـ ، وـلـذـلـكـ قـالـ لـهـمـ : لـاـ يـأـتـيـ الـيـوـمـ الرـَّابـعـ إـلـاـ وـعـلـيـكـمـ أـمـيرـ^(٦) .

(١) أولئك الفاروق ، ص (١٢٤) .

(٢) البداية والنهائية (١٤٢/٧) .

(٣) الخلفاء الرّاشدون للخالدي ، ص (٩٨) .

(٤) الخلافة والخلفاء الرّاشدون للهنساوي ، ص (٢١٣) .

(٥) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة ، ص (٦٤٨) .

(٦) الطّبقات ، لابن سعد (٣/٣٦٤) .

٤- عدد الأصوات الكافية لاختيار الخليفة :

أخرج ابن سعيد بإسناد رجاله ثقائلاً : أنَّ عمر رضي الله عنه قال لصهيبٍ : صل بالثاس ثلاثة ، وليخل هؤلاء الرهط في بيته ، فإذا اجتمعوا على رجلٍ ؛ فمن خالفهم فاضربوا رأسه^(١) ، فعمر رضي الله عنه أمر بقتل من يريده أن يخالف هؤلاء الرهط ويشق عصا المسلمين ، ويفرق بينهم ، عملاً بقوله ﷺ : « من أتاكم وأمركم جميع على رجلٍ منكم ، يريده أن يشق عصاكما ، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه »^(٢) .

وما جاء في كتب التاريخ من أنَّ عمر رضي الله عنه أمرهم بالاجتماع ، والشّاور ، وحدّ لهم أنه إذا اجتمع خمسة منهم على رجلٍ ، وأبى أحدهم ، فليضرب رأسه بالسيف ، وإن اجتمع أربعة ، ورضوا رجلاً منهم ، وأبى اثنان ، فاضرب رؤوسهما^(٣) ، فهذه من الروايات التي لا تصح سندًا ، فهي من الغرائب ؛ التي ساقها أبو مخنف - الإمامي الشيعي - مخالفًا فيها التصوّص الصّحيحة ، وما عرف من سير الصحابة رضي الله عنهم ، فما ذكر أبو مخنف من قول عمر لصهيبٍ : وقم على رؤوسهما - أي : أهل الشّورى - فإن اجتمع خمسة ، ورضوا رجلاً ، وأبى واحدٍ ، فاشدح رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة ، فرضوا رجلاً منهم ، وأبى اثنان ؛ فاضرب رؤوسهما^(٤) : فهذا قولٌ منكراً ، وكيف يقول عمر رضي الله عنه هذا ، وهو يعلم : أنَّهم هم الصّفوة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهو الذي اختارهم لهذا الأمر لعلمه بفضلهم ، وقد ورد عن ابن سعيد^(٥) : أنَّ عمر قال للأنصار : أدخلوهم بيتأً ثلاثة أيام ، فإن استقاموا إلا فادخلوا عليهم فاضربوا أعناقهم^(٦) ، وهذه الرواية منقطعة ، وفي إسنادها (سمّاك بن حرب) وهو ضعيفٌ ، وقد تغير بأخره^(٧) .

٥- الحكم في حال الاختلاف :

لقد أوصى بأن يحضر عبد الله بن عمر معهم في المجلس ، وأن ليس له من الأمر شيء ، ولكن قال لهم : فإن رضي ثلاثة رجالاً منهم ، وثلاثة رجالاً منهم ، فحكموا عبد الله بن عمر ،

(١) المصدر السابق نفسه (٣٤٢ / ٣) .

(٢) مسلم (١٤٨٠ / ٣) .

(٣) تاريخ الطبرى (٢٢٦ / ٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبرى ، د . يحيى اليحيى ، ص (١٧٥) .

(٦) الطبقات ، لابن سعد (٣٤٢ / ٣) .

(٧) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبرى ، ص (١٧٦) .

فأيُّ الفريقين حكم له ؟ فليختاروا رجلاً منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فلنكروا مع الذين فيهم عبد الرَّحمن بن عوف ، ووصف عبد الرَّحمن بن عوف بأنه مسدُّدٌ رشيدٌ ؛ فقال عنه : ونعم ذو الرأي عبد الرَّحمن بن عوف مسدُّدٌ رشيدٌ ، له من الله حافظ ، فاسمعوا منه^(١) .

٦- جماعةٌ من جنود الله تراقب الاختيار ، وتمنع الفوضى :

طلب عمر أبا طلحة الأنصاريٍّ ، وقال له : يا أبا طلحة ! إنَّ الله - عَزَّ وَجَلَّ - أعزَّ الإسلام بكم ، فاختار خمسين رجلاً من الأنصار ، فاستحدث هؤلاء الرَّهط ، حتى يختاروا رجلاً منهم^(٢) . وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتموني في حفرتي ، فاجمع هؤلاء الرَّهط في بيتي حتى يختاروا رجلاً منهم^(٣) .

٧- جواز تولية المفضول مع وجود الأفضل :

ومن فوائد قصَّة الشُّورى : جواز تولية المفضول مع وجود الأفضل ؛ لأنَّ عمر جعل الشُّورى في ستَّة أنفسٍ مع علمه : أنَّ بعضهم كان أفضل من بعضٍ ، ويؤخذ هذا من سيرة عمر في أمرائه الذين كان يؤمرهم في البلاد ، حيث كان لا يراعي الفضل في الدِّين فقط ، بل يضمُّ إليه مزيد المعرفة بالسُّيادة مع اجتناب ما يخالف الشَّرع منها ، فاستخلف معاوية ، والمعيرة بن شعبة ، وعمرو بن العاص مع وجود من هو أفضل من كلِّ منهم في أمر الدين ، والعلم ، كأبي الدرداء في الشَّام ، وابن مسعود في الكوفة^(٤) .

٨- جمع عمر بين التَّعيين ، وعدمه :

جمع عمر بين التَّعيين ، كما فعل أبو بكر - أي : تعين المرشح - وبين عدم التَّعيين كما فعل الرَّسول ﷺ ، فعين ستَّة ، وطلب منهم التَّشاور في الأمر^(٥) .

٩- الشُّورى ليست بين الستَّة فقط :

عرف عمر ، أنَّ الشُّورى لن تكون بين الستَّة فقط ، وإنَّما ستكون فيأخذ رأي النَّاس في المدينة ، فيمن يتولَّ الخلافة ، حيث جعل لهم أمد ثلاثة أيام ، فيمكنهم من المشاورة ، والمناظرة لتقع ولاية مَنْ يتولى بعده عن اتفاقٍ من معظم الموجودين حينئذٍ ببلده التي هي دار

(١) تاريخ الطَّبرى (٣٢٥/٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (٢٢٥/٥) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المدينة النَّبوية فجر الإسلام والعصر الرَّاشدي (٩٧/٢) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

الهجرة ، وبها معظم الصحابة ، وكل من كان ساكناً في بلده غيرها كان تبعاً لهم فيما يتفقون عليه ، فما زالت المدينة حتى سنة ٢٣ هـ مجمع الصحابة بل لأن كبار الصحابة فيها ، حيث استبقاهم عمر بجنبه ، ولم يأذن لهم بالهجرة إلى الأقاليم المفتوحة^(١) .

١٠- أهل الشورى أعلى هيئة سياسية :

إن عمر رضي الله عنه أناط بأهل الشورى وحدهم اختيار الخليفة من بينهم ، ومن المهم أن نشير إلى أن أحداً من أهل الشورى لم يعارض هذا القرار الذي اتخذه عمر ، كما أن أحداً من الصحابة الآخرين لم يثير أي اعتراض عليه ، ذلك ما تدل عليه التصوص التي بين أيدينا ، فنحن لا نعلم : أن اقتراح آخر قد صدر عن أحد من الناس في ذلك العصر ، أو أن معارضة ثارت حول أمر عمر خلال الساعات الأخيرة من حياته ، أو بعده وفاته ، وإنما رضي الناس كافةً هذا التدبير ، ورأوا فيه مصلحة لجماعة المسلمين ، وفي وسعنا أن نقول : إن عمر قد أحدث هيئة سياسية عليا ، مهمتها انتخاب رئيس الدولة ، أو الخليفة ، وهذا التنظيم الدستوري الجديد ، الذي أبدعه عبقرية عمر لا يتعارض مع المبادئ الأساسية التي أقرها الإسلام ، ولا سيما فيما يتعلق بالشورى ؛ لأن العبرة من حيث النتيجة للبيعة العامة التي تجري في المسجد الجامع . وعلى هذا لا يتوجه السؤال الذي قد يرد على بعض الأذهان ، وهو : من أعطى عمر هذا الحق ؟ ما هو مستند عمر في هذا التدبير ؟ ويكفي أن نعلم أن جماعة من المسلمين قد أقرت هذا التدبير ، ورضيت به ، ولم يسمع صوت اعتراض عليه ، حتى تتأكد : أن الإجماع - وهو من مصادر التشريع - قد انعقد على صحته ، ونفذاه^(٢) ، ولا ننسى : أن عمر خليفة راشد ، كما ينبغي أن تؤكّد : أن أهل الشورى أعلى هيئة سياسية قد أقرّه نظام الحكم في الإسلام في العهد الرّاشدي ، كما : أن الهيئة التي سماها عمر ، تمتّعت بمعزى لم يتمتّ بها غيرها من جماعة المسلمين ، وهذه المزايا منحت لها من الله ، وبلغها الرّسول ؛ فلا يمكن عند المؤمنين أن يبلغ أحدٌ من المسلمين مبلغ هؤلاء العشرة ، من التقوى ، والأمانة^(٣) .

هكذا ختم عمر رضي الله عنه حياته ، ولم يشغله ما نزل به من البلاء ، ولا سكرات الموت عن تدبير أمر المسلمين ، وأرسى نظاماً صالحًا للشورى لم يسبقه إليه أحدٌ ، ولا يُشكُّ : أنَّ أصل الشورى مقرّرٌ في القرآن الكريم ، والسنّة القولية ، والفعلية ، وقد عمل بها رسول الله ﷺ وأبو بكر ، ولم يكن عمر مبتدعاً بالنسبة للأصل ، ولكنَّ الذي عمله عمر هو تعين الطريقة التي

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ، لظافر القاسمي (١ / ٢٢٧ ، ٢٢٨) .

(٣) المصدر السابق نفسه (١ / ٢٢٩) .

يُختار بها الخليفة ، وحصر عدِّ معيَّنٍ جعلها فيهم ، وهذا لم يفعله الرَّسُول ﷺ ، ولا الصَّدِيق رضي الله عنه ، بل أَوَّل من فعل ذلك عمر ، ونعمَ ما فعل ! فقد كانت أَفْضَل الطرق المناسبة لحال الصَّحابة في ذلك الوقت^(١) .

ثانياً : وصية عمر رضي الله عنه لل الخليفة الذي بعده :

أوصى الفاروق عمر رضي الله عنه الخليفة الذي سيخلفه في قيادة الأُمَّة بوصيَّة مهمَّة ، قال فيها : أوصيك بتقوى الله وحده ، لا شريك له وأوصيك بالمهاجرين الأوَّلين خيراً ؛ لأنَّ تعرف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ، فا قبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنَّهم رداء العدو ، وجبة الفئ ، لا تحمل منهم إلا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل الْبَادِيَّة خيراً ، فإنَّهم أصل العرب ومادة الإسلام ، أن تأخذ من حواشِي أموالهم ، فتردها على فقرائهم ، وأوصيك بأهل الذمة خيراً ، أن تقاتل مَنْ وراءهم ، ولا تكُلُّهم فوق طاقتهم إذا أذَّوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً ، أو عن يدِّهم صاغرون ، وأوصيك بتقوى الله ، والحدُّر منه ، ومخافحة مقتنه أن يطُّلع منك على ربيَّة ، وأوصيك أن تخشى الله في الناس ، ولا تخشى الناس في الله ، وأوصيك بالعدل في الرَّعْيَة ، والتَّفَرُّغ لحوائجهم ، وثغورهم ، ولا تؤثِّر غنائمهم على فقيرهم ، فإنَّ في ذلك بإذن الله سلامتك قلبك ، وحطَّا لوزرك ، وخيراً في عاقبة أمرك حتَّى تفضي في ذلك إلى من يعرِّف سريرتك ، ويحول بينك وبين قلبك ، وأمرك أن تشتدَّ في أمر الله ، وفي حدوده ومعاصيه على قريب النَّاس ، ويعيدهم ، ثمَّ لا تأخذك في أحدِ الرَّأْفَة ؛ حتى تنتهي منه مثل جرمك ، واجعل النَّاس عندك سواءً ، لا تبال على مَنْ وجب الحقُّ ، ولا تأخذك في الله لومة لائم .

وإياك والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء على المؤمنين ، فتجور ، وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك ، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة ، فإن اقترفت لدنياك عدلاً ، وعفةً عمَّا بسط لك ، اقترفت به إيماناً ، ورضواناً .

وإنْ غلَبَ الهوى ، اقترفت به غضب الله ، وأوصيك ألا ترْخُص لنفسك ، ولا لغيرك في ظلم أهل الذِّمَّة ، وقد أوصيتك ، وخصوصتك ، ونصحتك ، فابتغ بذلك وجه الله ، والدَّار الآخرة ، واخترت من دلالتك ما كنت دالاً عليه نفسي ، وولدي ، فإنْ عملت بالذِّي وعظتك ، وانتهيت إلى الذي أمرتك ، أخذت منه نصيباً وافراً ، وحظاً وافياً ، وإنْ لم تقبل ذلك ، ولم يهمك ، ولم تترك معظم الأمور عند الذي يرضى به الله عنك ؛ يكن ذلك بك انتقاداً ، ورأيك فيه مدخولاً ؛ لأنَّ الأهواء مشتركة^٢ .

ورأس الخطيئة إيليس ، داعٍ إلى كلِّ مهلكة ، وقد أضلَّ القرون السَّالفة قبلك ، فأوردهم

النَّارِ وَبَئْسُ الْوَرْدِ الْمُوْرُودِ ، وَبَئْسُ الثَّمَنِ أَنْ يَكُونَ حَظًّا امْرَأَ مُوالَةً لِعُدُوَّ اللَّهِ ، الدَّاعِي إِلَى مُعَاصِيهِ ، ثُمَّ ارْكَبَ الْحَقَّ ، وَخَضَ إِلَيْهِ الْغَمَرَاتِ ، وَكَنْ وَاعْظَأَ لِنَفْسِكَ ، وَأَنَا شَدِيكَ اللَّهُ إِلَّا تَرَحَّمَتْ عَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَجْلَلَتْ كَبِيرَهُمْ ، وَرَحْمَتْ صَغِيرَهُمْ ، وَوَقَرَّتْ عَالَمَهُمْ ، وَلَا تَضَرَّ بَهُمْ ؛ فَيَذْلُوا ، وَلَا تَسْتَأْثِرُ عَلَيْهِمْ بِالْفَيْءِ ؛ فَتَغْضِبُهُمْ ، وَلَا تَحْرِمُهُمْ عَطَاهُمْ عِنْدَ مَحْلِهَا ؛ فَفَقَرُّهُمْ ، وَلَا تَجْمَرُهُمْ فِي الْبَعْوَثِ فَيَنْقُطُعُ نَسْلَهُمْ ، وَلَا تَجْعَلُ الْمَالَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْهُمْ ، وَلَا تَغْلِقْ بَابَكَ دُونَهُمْ ؛ فَيَأْكُلُ قَوْيُهُمْ ضَعِيفُهُمْ . هَذِهِ وَصِيَّتِي إِلَيْكَ ، وَأَشْهَدُ اللَّهَ عَلَيْكَ ، وَأَقْرَأْ عَلَيْكَ السَّلَامَ^(١) .

هَذِهِ الْوَصِيَّةُ تَدْلُّ عَلَى بَعْدِ نَظَرِ عَمْرٍ فِي مَسَائِلِ الْحُكْمِ وَالْإِدَارَةِ ، وَتَفَصَّحُ عَنْ نَهْجِ ، وَنَظَامِ حُكْمِ وَإِدَارَةٍ مُتَكَاملٍ ، فَقَدْ تَضَمَّنَتِ الْوَصِيَّةُ أَمْوَالًا غَایِيَّةً فِي الْأَهْمَىَّةِ ، فَحَقُّ أَنْ تَكُونَ وَثِيقَةً نَفِيسَةً ، لَمَّا احْتَوَتْهُ مِنْ قَوَاعِدٍ وَمِبَادِئٍ أَسَاسِيَّةٍ لِلْحُكْمِ مُتَكَاملَةً الْجَوَانِبُ الْدِينِيَّةُ ، وَالسِّيَاسِيَّةُ ، وَالْعَسْكُرِيَّةُ ، وَالْاَقْتَصَادِيَّةُ ، وَالاجْتَمَاعِيَّةُ يَأْتِي فِي مَقْدِمَتِهَا :

١- الْحَرْصُ عَلَى تَقوِيَ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ :

أ - الْوَصِيَّةُ بِالْحَرْصِ الشَّدِيدِ ، عَلَى تَقوِيَ اللَّهِ ، وَالْخَشْيَةُ مِنْهُ فِي السَّرِّ وَالْعَلَنِ ، فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ؛ لَأَنَّ مِنْ آتَقَى اللَّهَ ؛ وَقَاهُ ، وَمِنْ خَشِيَّهِ ؛ صَانَهُ ، وَحَمَاهُ (أَوْصَيْكَ بِتَقوِيَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ) (أَوْصَيْكَ بِتَقوِيَ اللَّهِ وَالْحَذَرِ مِنْهُ . . . أَوْصَيْكَ أَنْ تَخْشَى اللَّهَ) .

ب - إِقَامَةُ حَدُودَ اللَّهِ عَلَى الْقَرِيبِ ، وَالْبَعِيدِ (لَا تَبَالْ عَلَى مَنْ وَجَبَ الْحَقُّ) (وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَا يَمِنْ) لَأَنَّ حَدُودَ اللَّهِ نَصَّتْ عَلَيْهَا الشَّرِيعَةُ ، فَهِيَ مِنَ الدِّينِ ، وَلَأَنَّ الشَّرِيعَةَ حَجَّةٌ عَلَى النَّاسِ ، وَأَعْمَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ تَقَاسُ بِمَقْتَضَاهَا ، وَلَأَنَّ التَّغَافَلَ عَنْهَا إِفْسَادٌ لِلَّدَنِ ، وَالْمَجَمِعِ .

ج - الْاسْتِقَامَةُ (اسْتَقِمْ كَمَا أَمْرَتْ) وَهِيَ مِنَ الضرُورَاتِ الْدِينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي يَجُبُ عَلَى الْحَاكِمِ التَّحْلِيُّ بِهَا قَوْلًا وَعَمَلًا أَوَّلًا ، ثُمَّ الرَّعِيَّةَ (كَنْ وَاعْظَأَ لِنَفْسِكَ) (وَابْتَغْ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَالدَّارِ الْآخِرَةِ) .

٢- النَّاحِيَةُ السِّيَاسِيَّةُ ، وَتَضَمَّنَتْ :

أ - الْاِلتَّزَامُ بِالْعَدْلِ ؛ لَأَنَّهُ أَسَاسُ الْحُكْمِ ، وَلَأَنَّ إِقَامَتِهِ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ ، تَحْقِيقُ الْحُكْمِ قَوَّةً ، وَهِيَّةً ، وَمِنَانَةً سِيَاسِيَّةً ، وَاجْتَمَاعِيَّةً ، وَتَزِيدُ مِنْ هِيَةِ وَاحْتِرَامِ الْحَاكِمِ فِي نُفُوسِ النَّاسِ (أَوْصَيْكَ بِالْعَدْلِ) ، (وَاجْعَلِ النَّاسَ عَنْدَكَ سَوَاءً) .

ب - الْعِنَايَةُ بِالْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِيِّنَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ؛ لِسَابِقَتِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَأَنَّ

(١) الْطَّبَّاقَاتُ ، لَابْنِ سَعْدٍ (٣٣٩/٣) . وَالْبَيَانُ وَالْبَيْبَنُ لِلْجَاحِظِ (٤٦/٢) . وَالْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ (٢١٠/٢) . وَالْخَلِيفَةُ الْفَارُوقُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، لِلْعَانِي ، ص(١٧١، ١٧٢) .

العقيدة وما أفرزته من نظام سياسي ، قام على اكتافهم ، فهم أهله ، وحملته ، وحماته (أوصيك بالمهاجرين الأَوَّلِينَ خيراً ، أن تعرف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم) .

٣- الناحية العسكرية ، وتضمنت :

أ- الاهتمام بالجيش وإعداده إعداداً يتناسب وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه لضمان أمن الدولة ، وسلامتها ، والعناية بسد حاجات المقاتلين (التفُرُغ لحوائجهم وثغورهم) .

ب- تجنب إبقاء المقاتلين لمدة طويلة في الشُّغور بعيداً عن عوائلهم ، وتلافيًّا لما قد يسبّبه ذلك من ملل ، وقلق ، وهبوط في المعنويات ، فمن الضروري منهم إجازاتٍ معلومةٍ في أوقاتٍ معلومةٍ يستريحون فيها ، ويجدّدون نشاطهم خلالها من جهة ، ويعودون إلى عوائلهم لكي لا ينقطع نسلهم من جهة ثانية (ولا تجمّرهم في البعث ، فينقطع نسلهم) (وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنّهم رداء العدو) .

ج- إعطاء كل مقاتل ما يستحقه من فيء ، وعطاء ، وذلك لضمان مرد ثابت له ، ولعائلته ، يدفعه إلى الجهاد ، ويصرف عنه التفكير في شؤونه المالية (ولا تستأثر عليهم بالفيء ؛ فتغضّبهم ، ولا تحرّمهم عطاياهم عند محلّها ، فتفقرهم) .

٤- الناحية الاقتصادية والمالية ، وتضمنت :

أ- العناية بتوزيع الأموال بين الناس بالعدل ، والقسطاس المستقيم ، وتلافي كلّ ما من شأنه تجميع الأموال عند طبقةٍ منهم دون أخرى (ولا تجعل الأموال دُولَةً بين الأغنياء منهم) .

ب- عدم تكليف أهل الذمة فوق طاقتهم ؛ إنهم أدوا ما عليهم من التزاماتٍ مالية للدولة (ولا تكفلهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين) .

ج- ضمان الحقوق المالية للناس ، وعدم التفريط بها ، وتجنب فرض ما لا طاقة لهم به (ولا تحمل منهم إلا عن فضلي منهم) (أن تأخذ حواشي أموالهم فتردها على فقراءهم)^(١) .

٥- الناحية الاجتماعية ، وتضمنت :

أ- الاهتمام بالرَّعية ، والعمل على تفُرُغ أمورهم ، وسدّ احتياجاتهم ، وإعطائهم حقوقهم من فيء وعطاء (ولا تحرّمهم عطاياهم عند محلّها) .

ب- اجتناب الأثرة ، والمحاباة ، واتّباع الهوى ، لما فيها من أخطار تقود إلى انحراف الرَّاعي ، وتهدي إلى فساد المجتمع ، واضطراب علاقته الإنسانية (وإياك والأثرة ، والمحاباة

(١) الخليفة الفاروق عمر بن الخطّاب ، للعاني ، ص (١٧٤ - ١٧٥) .

فِيمَا وَلَكُ اللَّهُ (وَلَا تؤثِرُ غَنِيَّهُمْ عَلَى فَقِيرِهِمْ) .

ج - احترام الرعية ، وتقديرها والتواضع لها ، صغيرها وكبیرها ؛ لما في ذلك من سمو في العلاقات الاجتماعية ، تؤدي إلى زيادة تلاحم الرعية بقادتها ، وحبها له (وأناشدك الله إلا ترَحَمت على جماعة المسلمين ، وأجللت كبارهم ورحمت صغارهم ، ووَقْرَت عالمهم) .

د- الافتتاح على الرَّعْيَةِ ، وذلك بسماع شكاواهم ، وإنصاف بعضهم من بعضٍ ، وبعكسه تضطرب العلاقات بينهم ، ويعُمُّ الارتباك في المجتمع (ولا تغلق بابك دونهم ، فـيأكل قويُّهم ضعيفهم) .

هـ- اتباع الحقّ ، والحرص على تحقيقه في المجتمع وفي كلّ الظروف ، والأحوال ؛ لكونه ضرورةً اجتماعيةً لا بدّ من تحقيقها بين الناس ، (ثمّ اركب الحقّ ، وغضّ إليه الغمرات) (واجعل الناس عندك سواءً ، لا تبال على من وجب الحقّ).

و- اجتناب الظلم بكل صوره ، وأشكاله ، خاصهًة مع أهل الذمة ؛ لأنَّ العدل مطلوبٌ إقامته بين جميع رعايا الدُّولة مسلمين ، وذميين ، لينعم الجميع بعدل الإسلام (وأوصيك ألا ترخص لنفسك ، ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة).

ز- الاهتمام بأهل الbadia ، ورعايتهم ، والعناية بهم (وأوصيك بأهل الbadia خيراً ، فإنّهم أصل العرب ، وماذة الإسلام)^(١) .

ح- وكان من ضمن وصية عمر لمن بعده : ألا يقرّ لي عاملٌ أكثر من سنة ، وأفزووا الأشعريَّ
أربع سنين^(٢) .

ثالثاً : منهاج عبد الرحمن بن عوف في إدارة الشؤون :

١- اجتماع الرّهط للمشاورة :

لم يكدر يفرغ الناس من دفن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى أسرع رهط الشورى وأعضاء مجلس الدولة الأعلى إلى الاجتماع في بيت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وقيل : إنهم اجتمعوا في بيت فاطمة بنت قيس الفهرية أخت الصحّاح ابن قيس ؛ ليقضوا في أعظم قضيّة عرضت في حياة المسلمين - بعد وفاة عمر - وقد تكلّم القوم ، وبسطوا آراءهم ، واهتدوا بتوثيق الله إلى كلامه سواء ، رضيها الخاصة ، والكافأة من المسلمين ^(٣) .

(١) المصدر السابق نفسه، ص (١٧٣ - ١٧٥).

(٢) عصـة الـخلافـة الـأشـدـة ، صـ (١٠٢) .

(٣) عثمان بن عفان رضه الله عنه ، لصادق عم حون ، ص (٦٢ ، ٦٣) .

٢- عبد الرحمن يدعو إلى التنازل :

عندما اجتمع أهل الشّورى قال لهم عبد الرّحمن بن عوف : أجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم . فقال الرّبّير : جعلت أمري إلى عليٍ . وقال طلحة : جعلت أمري إلى عثمان . وقال سعد : جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف . وأصبح المرشحون ثلاثة ، عليٌ بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف . فقال عبد الرحمن : أيهما تبرأ من هذا الأمر ، فنجعله إليه ، والله عليه والإسلام لينظرنَّ أفضليهم في نفسه ، فأسكت الشّيخان . فقال عبد الرحمن بن عوف : أفتجعلونه إلىٰ والله علىٰ أن لا آلو عن أفضلكما ؟ قالا : نعم^(١) !

٣- تفويض ابن عوف بإدارة عملية الشّورى :

بدأ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اتصالاته ، ومشاوراته فور انتهاء اجتماع المرشحين السّنة صباح يوم الأحد ، واستمرّت مشاوراته ، واتصالاته ثلاثة أيام كاملة ، حتّى فجر يوم الأربعاء الرابع من المحرم ، وهو موعد انتهاء المهلة التي حددتها لهم عمر ، وبدأ عبد الرحمن بعليٰ بن أبي طالب ، فقال له : إن لم أبأيعك فأشر عليٰ ، فمن ترشح للخلافة ؟ قال عليٰ : عثمان بن عفان ، وذهب عبد الرحمن إلى عثمان ، وقال له : إن لم أبأيعك ، فمن ترشح للخلافة ؟ فقال عثمان : عليٰ بن أبي طالب . . . وذهب ابن عوف بعد ذلك إلى الصحابة الآخرين ، واستشارهم ، وكان يشاور كلّ من يلقاه في المدينة من كبار الصحابة ، وأشرفهم ، ومن أمراء الأجناد ، ومن يأتي للمدينة ، وشملت مشاوراته النساء في خدورهنَّ ، وقد أبدىهنَّ رأيهنَّ ، كما شملت الصّبيان ، والعيّد في المدينة .

وكانت نتيجة مشاورات عبد الرحمن بن عوف : أنَّ معظم المسلمين كانوا يشيرون بعثمان بن عفان ، ومنهم من كان يشير بعليٰ بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وفي منتصف ليلة الأربعاء ، ذهب عبد الرحمن بن عوف : إلى بيت ابن أخيه : المسور بن مخرمة ، فطرق البيت ، فوجد المسور نائماً^(٢) ، فضرب الباب حتّى استيقظ ، فقال : أراك نائماً ، فوالله ما اكتحلت هذه الليلة بكبير نوم ! انطلق فادع الرّبّير ، وسعداً . فدعوتهما له : فشاورهما ثمَّ دعاني ، فقال : ادع لي علياً ، فدعوته ، فناجاه حتّى ابهارَ^(٣) الليل ، ثمَّ قام عليٰ من عنده . . . ثمَ قال : ادع لي عثمان ، فدعوته فناجاه حتّى فرق بينهما المؤذن بالصّبح^(٤) .

(١) البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، رقم (٣٧٠٠) .

(٢) الخلفاء الرّاشدون للخالدي ، ص(١٠٦ ، ١٠٧) .

(٣) ابهارَ : أي : انتصر .

(٤) البخاريُّ ، كتاب الأحكام ، رقم (٧٢٠٧) .

٤- الاتفاق على بيعة عثمان :

وبعد صلاة صبح يوم البيعة (اليوم الأخير من شهر ذي الحجة ٢٣ هـ / ٦ نوفمبر ٦٤٤) وكان صهيب الرّومي الإمام ، إذ أقبل عبد الرّحمن بن عوف ، وقد اعتمَ بالعمامة التي عمّمه بها رسول الله ﷺ ؛ وكان قد اجتمع رجال الشّورى عند المنبر ، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين ، والأنصار ، وأمراء الأجناد ، منهم : معاوية أمير الشّام ، وعمير بن سعد أمير حص ، وعمرو بن العاص أمير مصر ، وكانوا وافوا تلك الحجّة مع عمر ، وصاحبوه إلى المدينة^(١).

وجاء في رواية البخاريٌّ : (. . . فلما صلَّى للناس الصُّبح ، واجتمع أولئك الرّهط عند المنبر ، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين ، والأنصار ، وأرسل إلى أمراء الأجناد ، وكانوا وافوا تلك الحجّة مع عمر ، فلما اجتمعوا ؛ تشهد عبد الرحمن ، ثمَّ قال : أمّا بعد : يا عليٌّ ! إني قد نظرت في أمر النّاس ، فلم أرهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعل على نفسك سبيلاً . فقال^(٢) : أبأ يعك على سنة الله ، ورسوله ، والخلفيين من بعده . فباعيه النّاس : المهاجرين ، والأنصار ، وأمراء الأجناد ، والمسلمون^(٣) . وجاء في رواية صاحب التّمهيد ، والبيان : أنَّ عليًّا بن أبي طالب أولاً من بايع بعد عبد الرحمن بن عوف^(٤) .

٥- حكمة عبد الرحمن بن عوف في تنفيذ خطة الشّورى :

نَفَّذَ عبد الرحمن بن عوف خطة الشّورى بما دلَّ على شرف عقله ، ونبِّل نفسه ، وإيثاره مصلحة المسلمين العامة على مصلحته الخاصة ، ونفعه الفردي ، وترك عن طواعية ورضاً أعظم منصبٍ يطمح إليه إنسان في الدنيا ، ليجمع كلمة المسلمين ، وحقق أولاً مظهر من مظاهر الشّورى المنظمة في اختيار من يجلس على عرش الخلافة ، ويسوس أمور المسلمين ؟ فهو قد اصططع من الأنفة ، والصَّبر ، والحزم ، وحسن التَّدبير ما كفل له التَّجاج في أداء مهمته العظمى ، وقد كانت الخطوات التي اتخذها كالتالي :

أ - بسط برنامجه في أولاً جلسته عقدها مجلس الشّورى في دائرة الرَّمَن الذي حدَّده لهم عمر ؛ وبذلك أمكنه أن يحمل جميع أعضاء مجلس الشّورى على أن يُدلِّلوا برأيهم ؛ فعرف مذهب كلٍّ واحدٍ منهم ، ومرماه ، فسار في طريقه على بيته من أمره .

(١) شهيد الدّار ، ص (٣٧) . ولدى المقارنة مع التاريخ السابق يجد القارئ ثمة خلافاً واضحاً في تحديد تاريخ البيعة .

(٢) قوله : فقال : «أي : عبد الرحمن مخاطباً عثمان» .

(٣) البخاريٌّ ، كتاب الأحكام ، رقم (٧٢٠٧) .

(٤) التّمهيد والبيان ، ص (٢٦) .

ب - خلع نفسه ، وتنازل عن حقه في الخلافة ؛ ليدفع الطُّنون ، ويستمسك بعروة الثقة الوثقى .

ج - أخذ في تعرُّف نهاية ما يصبو إليه كلُّ واحدٍ من أصحابه ، وشركائه في الشُّورى ، فلم يزل يقلب وجوه الرأي معهم ، حتَّى انتهى إلى شبه انتخاب جزئيٌّ ، فاز فيه عثمان برأي سعد بن أبي وقاص ، ورأي الزبير بن العوام ، فلاحت له أغلبية آراء الأعضاء الحاضرين معه .

د - عمد إلى معرفة كلُّ واحدٍ من الإمامين : عثمان ، وعلىٍ في صاحبه بالنسبة إلى وزنه من سائر الرهط الذين رشحهم عمر ، فعرف من كلُّ واحدٍ منهم : أنَّه لا يعدل صاحبه أحداً ، إذا فاته الأمر .

و - أخذ في تعرُّف رأي مَنْ وراء مجلس الشُّورى من خاصة الأمة ، وذوي رأيها، ثمَّ من عامتها، وضيقها، فرأى أنَّ معظم الناس لا يعدلون أحداً بعثمان ، فباع له ، وباعه عامَّة الناس^(١) .

لقد تمكَّن عبد الرحمن بن عوف بكياسته ، وأمانته ، واستقامته ، ونسيانه نفسه بالتخلي عن الطَّمع في الخلافة ، والرُّهود بأعلى منصب في الدولة أن يتجاوز هذه المحنَّة ، وقد ركب الشُّورى بمهارَّة ، وتجرُّدٍ مما يستحقُّ أعظم التَّقدير^(٢) .

قال الذهبي : ومن أفضل أعمال عبد الرحمن عزلُ نفسه من الأمر وقت الشُّورى ، و اختياره للأمة مَنْ أشار به أهل الحلَّ ، والعقد ، فنهض في ذلك أتمَّ نهوض على جمع الأمة على عثمان ، ولو كان محابياً فيها ، لأنَّها لنفسه ، أو لولاه ابن عمِّه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبي وقاص^(٣) .

وبهذا تحققَت صورةٌ أخرى من صور الشُّورى في عهد الخلفاء الرَّاشدين : وهي الاستخلاف عن طريق مجلس الشُّورى ؛ ليعنوا أحدهم بعد أخذ المشورة العامة ، ثمَّ البيعة العامة^(٤) .

رابعاً : أباطيل إمامية دُسَّت في قصَّة الشُّورى :

هناك أباطيل كثيرة ، وأكاذيب للأعداء دُسَّت في التاريخ الإسلاميّ ، منها في قصة الشُّورى ، وتولية عثمان الخلافة ، وقد تلقَّفها المستشرقون ، وقاموا بتوسيع نشرها ، وتأثَّر بها الكثير من المؤرِّخين ، والمفكِّرين المحدثين ، ولم يمحصوا الروايات ، ويتحققوا في سندتها ، ومتناها ، فانتشرت بين المسلمين .

(١) عثمان بن عفان رضي الله عنه - لصادق عرجون ، ص (٧٠ ، ٧١) .

(٢) مجلة البحوث الإسلامية ، العدد (١٠) ص (٢٥٥) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٨٦/١) .

(٤) دراسات في عهد النبوة والخلافة الرَّاشدة ، ص (٢٧٨) .

لقد وردت روايات باطلة حول قصة الشُّورى ، وتولية عثمان بن عفَّان الخلافة ودُسِّت فيها الأباطيل ، والأكاذيب ، وألْفَ جماعةً كتبًا خاصةً ، فقد ألف أبو مخنف كتاب الشُّورى ، وكذلك ابن عقدة ، وابن بابويه^(١) ، ونقل ابن سعد تسع روايات من طريق الواقدي في خبر الشُّورى ، وبيعة عثمان ، وتاريخ توليه للخلافة^(٢) ، ورواية من طريق عبيد الله بن موسى تضمنت مقتل عمر ، وحصره للشُّورى في السَّة ووصيته لكلٍّ من عليٍّ ، وعثمان إذا تولى أحدهما أمر الخلافة ، ووصيته لصهيبٍ في هذا الأمر^(٣) .

وقد نقل البلاذري خبر الشُّورى ، وبيعة عثمان عن أبي مخنف^(٤) ، وعن هشام الكلبي ، منها ما نقله عن أبي مخنف ، ومنها ما تفرد به^(٥) ، وعن الواقدي^(٦) ، وعن عبيد الله بن موسى^(٧) ، واعتمد الطَّبرِي في هذه القصة على عدَّة روايات منها رواية أبي مخنف^(٨) ، ونقل ابن أبي الحديد بعض أحداث قصَّة الشُّورى من طريق أحمد بن عبد العزيز الجوهري^(٩) ، وأشار إلى نقله عن كتاب (الشُّورى) للواقدي^(١٠) ، وقد تضمنت الرِّوايات الشيعية عدَّة أمورٍ مذوقة ليس لها دليلٌ من الصَّحة ، وهي :

١- اتهام الصحابة بالمحاباة في أمر المسلمين :

اتهمت الرِّوايات الشيعية الصحابة بالمحاباة في أمر المسلمين ، وعدم رضا عليٍّ بأن يقوم عبد الرَّحمن باختيار الخليفة ، فقد ورد عند أبي مخنف ، وهشام الكلبي عن أبيه ، وأحمد الجوهري : أنَّ عمر جعل ترجيح الكفتين إذا تساوتا بعد الرحمن بن عوف ، وأنَّ علياً أحسنَ بأنَّ الخلافة ذهبت منه ؛ لأنَّ عبد الرحمن سيقدم عثمان للمصاهرة التي بينهما^(١١) ، وقد نفى ابن

(١) الدررية إلى تصانيف الشيعة (٢٤٦/١٤) .

(٢) الطبقات الكبرى (٦٣/٣) ، (٦٧/٣) .

(٣) المصدر السابق نفسه (٣٤٠/٣) .

(٤) أنساب الأشراف (١٩، ١٨/٥) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق نفسه .

(٧) المصدر السابق نفسه (٦/٥) .

(٨) أثر التشيع على الرِّوايات التاريخية ، د . عبد العزيز نور ، ص (٣٢١) وهو العمدة في هذه الفقرة .

(٩) شرح نهج البلاغة (٤٩/٩ ، ٥٠ ، ٥٨) .

(١٠) المصدر السابق نفسه (١٥/٩) .

(١١) أثر التشيع على الرِّوايات التاريخية ، ص (٣٢٢) .

تيمية أي ارتباط في النسب القريب بين عثمان ، وعبد الرحمن فقال : فإن عبد الرحمن ليس أخاً لعثمان ، ولا ابن عمّه ، ولا من قبيلته أصلاً ، بل هذا منبني زهرة وهذا منبني أمية ، وينو زهرة إلىبني هاشم أكثر ميلاً منهم إلىبني أمية ، فإنّبني زهرة أخواه النبي ﷺ ، ومنهم عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الذي قال له النبي ﷺ : « هذا حالى فليرني امرؤ خاله »^(١) . فإنّ النبي ﷺ لم يؤاخ بين مهاجري ، ومهاجرٍ ، ولا بين أنصارٍ وأنصارٍ ، وإنما آخى بين المهاجرين ، والأنصار ، فآخى بين عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع الأنصاري^(٢) ، وحديثه مشهور ثابت في الصحاح ، وغيرها ، يعرفه أهل العلم بذلك^(٣) .

وقد بنت الروايات الشيعية محاباة عبد الرحمن لعثمان للمصاهرة التي كانت بينهما ، متناسيةً ، أنّ قوّة النسب أقوى من المصاهرة من جهة ، ومن جهة أخرى تناسوا طبيعة العلاقة بين المؤمنين في الجيل الأول ، وأنّها لا تقوم على نسبٍ ولا مصاهرة ، وأما كيفية المصاهرة التي كانت بين عبد الرحمن ، وعثمان ؟ فهي أنّ عبد الرحمن تزوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت الوليد^(٤) .

٢. حزبُ أمويٌّ ، وحزبُ هاشميٌّ :

أشارت رواية أبي مخنف إلى وقوع مشادةٍ بينبني هاشم ، وبني أمية أثناء المبايعة ؛ وهذا غير صحيح ، ولم يرد ذلك برواية صحيحة ، ولا ضعيفة^(٥) ، وقد انساق بعض المؤرّخين خلف الروايات الشيعية الإمامية ، وبنوا تحليلاتهم الخاطئة على تلك الروايات ، فصوّرّوا تشاور أصحاب الرسول ﷺ في تحديد الخليفة الجديد بصورة الخلاف العشائريّ ، وأنّ الناس قد انقسموا إلى حزبين : حزب أمويٌّ ، وحزب هاشميٌّ ، وهو تصوّرٌ موهوم ، واستنتاجٌ مردودٌ لا دليل عليه ؛ إذ إنّه ليس نابعاً من ذلك الجوّ الذي كان يعيشه أصحاب رسول الله حينما كان يقف المهاجرٍ مع الأنصارٍ ضدّ أبيه ، وأخيه ، وابن عمّه وبني عشيرته ، وليس نابعاً من تصوّر هؤلاء الصحّاب لهم يضخّون بكلٍّ شيءٍ من حطام الدنيا في سبيل أن يسلم لهم دينهم ، ولا من المعرفة الصحيحة لهؤلاء التّحبّبة من المبشّرين بالجنة ، فالأحداث الكثيرة التي رويت عن هؤلاء ثبتت : أنّ هؤلاء كانوا أكتر بكثيرٍ من أن ينطلقوا من هذه الزّاوية الضّيقة في معالجة أمورهم ،

(١) صحيح سنن الترمذى (٣/٢٢٠) (٤٠١٨) رقم .

(٢) البخاريٌّ ، كتاب مناقب الأنصار رقم (٣٧٨٠) .

(٣) منهاج السنة الترمذى (٦/٢٧١ - ٢٧٢) .

(٤) الطبقات الكبرى (٣/١٢٧) .

(٥) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبرى ، ص (١٧٧ ، ١٧٨) .

فليست القضية قضية تمثيل عائليٌ ، أو عشائرٍ ، فهم أهل شوري لمكانتهم من الإسلام^(١) .

٣- أقوال نسبت زوراً أو بهتانًا لعليٍّ رضي الله عنه :

قال ابن كثير : وما يذكره كثيرٌ عن المؤرخين كابن جرير ، وغيره عن رجالٍ لا يعرفون : أنَّ علياً قال لعبد الرحمن : خدعني ، وإنك إنما ولتيه لأنَّه صهرك ، وليشاورك كلَّ يوم في شأنه ، وأنَّه تلَّكَ حتى قال عبد الرحمن : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ تَكَثَّ فِإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِ اللَّهِ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » [الفتح : ١٠] ، إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصحيح ، فهي مردودةٌ على قائلها ، وناقلها ، والله أعلم ، والمظنوں من الصحابة خلاف ما يتوهم كثيرٌ من الإمامية ، وأغبياء القصاصين الذين لا تميزون بين صحيح الأخبار ، وضعيتها ، ومستقيمةها ، وسوقيمهها ، ومبادها ، وقويمها ، والله الموفق للصواب^(٢) .

٤- اتهام عمرو بن العاص ، والمعيرة بن شعبة :

وقد ذكر أبو مخنفٍ في روايته في قضية الشورى عن عمرو بن العاص ، والمعيرة بن شعبة أنَّهما جلسا عند الباب ، وردد سعدٌ عليهما ، فهذا يستغرب من رعاع الناس فضلاً عن الصحابة الكرام ، وكيف يقول سعدٌ لهما : تريدان أن تقولا : حضرنا وكنا من أهل الشورى . وقد علم الناس أهل الشورى بأعينهم ، واستفاض ذلك عندهم . وفي الحقيقة : أنَّ رواية أبي مخنفٍ يناقض بعضها بعضاً ، وهي واضحةٌ لمن تدبَّرها وقارنها بالأصول الصحيحة ، وغرائبها أشهر من ذكرها ، وقد أشار الدكتور يحيى اليحيى إلى نماذج ، وأمثلةٌ تكفي لإسقاط هذه الرواية وعدم الاعتبار بها^(٣) . هذه بعض الإشارات العابرة ذكرتها للتتبُّع والتَّحذير من تلك السموم المبثوثة في تراثنا التاريخيّ ، والموروث الثقافي لالأمة ، فقد أثرت في رجال الفكر ، والقلم ، والتاريخ .

خامساً : أحقيَّة خلافة عثمان بن عفانٍ رضي الله عنه :

لا يشكُ مؤمنٌ في أحقيَّة خلافة عثمان رضي الله عنه وصحتها ، وأنَّه لا مطعن فيها لأحدٍ إلا ممن أصيب قبله بزيف ، فقام على أصحاب رسول الله ﷺ بسبب ما حلَّ في قلبه من الغيظ منهم ، وهذا لم يحصل إلا من الأعداء الذين جعلوا رأس مالهم في هذه الحياة الدنيا هو سُبُّ الصحابة رضي الله عنهم ، وبغضهم ، ولا قيمة لما يوجّهونه من المطاعن على خلافة الثلاثة رضي الله

(١) الخلفاء الرَّاشدون ، أمين القضاة ، ص (٧٨ ، ٧٩) .

(٢) البداية والنهاية (١٥٢/٧) .

(٣) مرويات أبي مخنفٍ ، ص (١٧٩) .

عنهم لظهور بطلانه ، وأنّها افتراءات لا تصح ، وقد جاء في جملة من النصوص القطعية الصّحّيحة ، والآثار الشّهيره التّبّيه ، والإيماء إلى أحقيّة خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، ومن ذلك^(١) :

١ - قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُوْنَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يُمْكِنْنَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي أَرْتَهُ لَهُمْ وَلَمْ يَجِدْنَهُمْ مِنْ بَعْدَ حَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَكُمْ فِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَسِيْقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] . وجّه الاستدلال بهذه الآية على أحقيّة خلافة عثمان رضي الله عنه أنّه من الّذين استخلفهم الله في الأرض ، وممكّن لهم فيها ، وسار في الناس أيام خلافته سيرة حسنة ؛ حيث حكم فيهم بالعدل ، وأقام الصّلاة ، وأتى الرّزّاكا ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، فهذه الآية تضمّنت الإشارة إلى أحقيّة خلافته رضي الله عنه^(٢) .

٢ - قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخْلَفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَئِيْ بَأْسٍ شَدِيدٍ نُقْتَلُوْنَاهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ طُبِعُوا بِوَتْكُمْ أَلَّا جَرَّ حَسْنَاتِنَا وَلَدَنْ تَوَلَّوْنَا كَمَا تَوَلَّتُمْ مِنْ قَبْلٍ يُعَذَّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح : ١٦] . وجّه الاستدلال بهذه الآية على أحقيّة خلافة عثمان رضي الله عنه هو أنّ الدّاعي لهؤلاء الأعراب داع يدعوهم بعد نبيه ﷺ وهو أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، رضي الله عنهم ، فأبو بكر دعاهم إلى قتال الروم ، والفرس ، والترك فوجبت طاعة هؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم بنص القرآن ، وإذا وجبت طاعتهم ، صحّت خلافتهم ، رضي الله عنهم ، وأراضهم^(٣) .

٣ - عن أبي موسى رضي الله عنه قال : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ حَائِطًا ، وأمرني بحفظ باب الحائط ، فجاء رجلٌ يستأذن ، فقال : « ائذن له ، وبشّره بالجنة » فإذا هو أبو بكر ، ثم جاء آخر يستأذن ، فقال : « ائذن له ، وبشّره بالجنة » فإذا هو عمر ، ثم جاء آخر يستأذن ، فقال : « ائذن له وبشّره بالجنة على بلوى تصيبه » فإذا هو عثمان ابن عفّان^(٤) . هذا الحديث فيه إشارة إلى ترتيب الثلاثة في الخلافة ، وإخبارٌ عن بلوى تصيب عثمان ، وهذه البلوى حصلت له رضي الله عنه ، وهي حصاره يوم الدّار ، حتّى قتل آنذاك مظلوماً ، فالحديث علمٌ من أعلام النّبوة ، وفي الإشارة إلى كونه شهيداً رضي الله عنه ، وأراضاه^(٥) .

(١) عقيدة أهل السنة في الصحابة (٢/٦٥٦) .

(٢) عقيدة أهل السنة في الصحابة (٢/٦٥٦) .

(٣) الفصل في الملل والأهواء والتجعل (٤/١٠٩ - ١١٠) .

(٤) البخاري ، رقم (٣٦٩٥) .

(٥) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة (٢/٦٥٧) .

٤ - روی أبو داود - رحمه الله - بإسناده إلى جابر بن عبد الله : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : رَأَى الْلَّيْلَةَ رَجُلًا صَالِحًا : أَنَّ أَبَا بَكْرَ نَيْطَ بْرَ رَسُولِ اللَّهِ ، وَنَيْطَ عَمْرَ بْنِي بَكْرٍ ، وَنَيْطَ عُثْمَانَ بَعْدَهُ . قَالَ جَابِرٌ : فَلَمَّا قَمَنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ قَلَّا : أَمَّا الرَّجُلُ الصَّالِحُ ؛ فَرَسُولُ اللَّهِ قَلَّا ، وَأَمَّا تَنُوُّطُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فَهُمْ لَوْلَاهُ هَذَا الْأَمْرُ ؛ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيًّا ^(١) .

٥ - وروي أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} يقول : « إِنَّهَا سَتَكُونُ فَتْنَةٌ ، وَاحْتِلَافٌ ، أَوْ اخْتِلَافٌ ، وَفَتْنَةٌ » قال : قلنا : يا رسول الله ! فما تأمرنا ؟ قال : « عَلَيْكُمْ بِالْأَمْنِ ، وَأَصْحَابَهُ » وأشار إلى عثمان ^(٢) .

وهذا الحديث فيه معجزة ظاهرة للنبي ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} الدالة على صدق نبوته ؛ حيث أخبر بالفتنة التي حصلت أيام خلافة عثمان وكانت كما أخبر، كما تضمن الحديث التنبية على أحقيّة خلافة عثمان ؛ إذ إنَّه ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} أرشد الناس إلى أن يلزمونه ، وأخبر بأنه حين وقوع الفتنة والاختلاف فالحق مع أمير المؤمنين، وأمرهم بالالتفاف حوله وملازمته، لكونه على الحق، والخارجون عليه على الباطل، أهل زيف ، وهوئ ، وقد شهد له الرسول ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} بأنه سيكون مستمراً على الهوى لا ينفك عنه ^(٣) .

٦ - روی أبو عيسى الترمذی بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها : أَنَّ النَّبِيَّ ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} قال : « يَا عُثْمَانَ ! إِنَّهُ لَعَلَّ اللَّهَ يَقْمِصُكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَى خَلْعِهِ ؛ فَلَا تَخْلِعْهُ لَهُمْ » ^(٤) . ففي هذا الحديث الإشارة إلى الخلافة ، واستعارة القميص لها وذكر الخلع ترشيح ، أي : سيجعلك الله خليفة ، فإن قصد الناس بذلك ، فلا تعزل نفسك عنها لأجلهم لكونك على الحق ، وكونهم على الباطل ^(٥) .

٧ - وروي الترمذی بإسناده إلى أبي سهلة ، قال : قال لي عثمان يوم الدّار : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} قد عهد إلى عهداً ، فأنا صابرٌ عليه ^(٦) . فقوله : قد عهد إلى عهداً ، أي : أوصلاني ألا أخلع بقوله : وإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم ، فأنا صابرٌ عليه ، أي : على ذلك العهد ^(٧) .

(١) سنن أبي داود (٢/ ٥١٣) .

(٢) المستدرک (٣/ ٩٩) ثمَّ قال : حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٣) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة (٢/ ٦٦٠) .

(٤) فضائل الصحابة (١/ ٦١٣) إسناده صحيح .

(٥) الدين الحالص (٣/ ٤٤٦) .

(٦) فضائل الصحابة (١/ ٦٠٥) إسناده صحيح . والترمذی (٥/ ٢٩٥) .

(٧) تحفة الأحوذی (١٠/ ٢٠٩) .

٨ - وروى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى أبي سهلة مولى عثمان عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « ادعوا لي - أو لیت عندي - رجلاً من أصحابي ». قالت : قلت : أبو بكر . قال : « لا ! » قلت : عمر . قال : « لا ! » قلت : ابن عمك عليٌّ . قال : « لا ! » قلت : فعثمان : قال : « نعم ! » قالت : فجاء عثمان ، فقال : « قومي ! » قال : فجعل النبي ﷺ يسرُّ إلى عثمان ، ولون عثمان يتغَيَّر . قال : فلما كان يوم الدّار ؛ قلنا : ألا تقاتل ؟ قال : لا : إنَّ رسول الله ﷺ عهد إليني أمراً فأنا صابرٌ نفسي عليه^(١) .

فهذا الحديث والذّي قبله فيهما دلالة على صحة خلافته ، فمن أنكر خلافته ولم يره من أهل الجنة ، والشهداء ، وأساء الأدب فيه باللسان ، أو الجنان ، فهو خارجٌ عن دائرة الإيمان ، وحِزْبِ الإسلام^(٢) .

٩ - وممَّا دلَّ على صحة خلافته ، وإمامته ما رواه البخاري بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كَيْفَ في زِمْنِ النَّبِيِّ ﷺ لَا نُعْدِلُ بْنَيْ بَكْرٍ أَحَدًا ، ثُمَّ عُثْمَانَ ، ثُمَّ نُرْكِ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ لَا نُفَاضِلُ بَيْنَهُمْ^(٣) ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَهْمَّهُمْ ، وَأَلْقَى فِي رُوْعَهُمْ مَا كَانَ صَانِعَهُ بَعْدَ نَبِيِّ ﷺ مِنْ أَمْرٍ تَرْتِيبُ الْخِلَافَةِ^(٤) .

قال ابن تيمية : وهذا إخبارٌ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ تَفْضِيلِ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ عُثْمَانَ ، ثُمَّ عَمَرَ ، وقد روى : أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَلْعَنُ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَا يَنْكِرُهُ ، وَحِينَئِذٍ فَيَكُونُ هَذَا التَّفْضِيلُ ثَابِتًا بِالنَّصْ . وإنَّ فِيهِ ثَابِتًا بِمَا ظَهَرَ بَيْنَ الْمَهَاجِرِينَ ، وَالْأَنْصَارِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ ، وَبِمَا ظَهَرَ لَمَّا تَوَفَّى عَمَرٌ ، فَإِنَّهُمْ كُلُّهُمْ بَاعْتَدُوا عَمَانَ بْنَ عَفَانَ مِنْ غَيْرِ رَغْبَةٍ ، وَلَا رَهْبَةٍ ، وَلَمْ يَنْكِرْ هَذِهِ الْوَلَايَةَ مِنْ كُلِّهِمْ^(٥) .

وكل ما نقدَّم ذكره من التّصوص في هذه الفقرة أدلةً قويةً كُلُّها فيها الإشارة والتنبيه إلى أحقيَّة خلافة عثمان رضي الله عنه ، وأنَّه لا مرية في ذلك ولا نزاع عند المتمسِّكين بالكتاب ، والسنَّة ، والذِّين هُمْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِالْعَمَلِ بِهِمَا ، وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ ، وَالْجَمَاعَةِ ، فَيُجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يعتقد أحقيَّة عثمان رضي الله عنه ، وأنَّ يسلِّمُ تسلِيمًا كاملاً للتصوص الدَّالَّةِ على ذلك^(٦) .

(١) فضائل الصحابة (٦٠٥/١) إسناده صحيح . والمستدرك (٩٩/٣) حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرّجاه ، ووافقه الذهبي .

(٢) الدين الخالص (٤٤٦/٣) .

(٣) البخاريٌّ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، رقم (٣٦٩٨) .

(٤) عقيدة أهل السنَّة (٦٦٤/٢) .

(٥) منهاج السنَّة (١٦٥/٣) .

(٦) عقيدة أهل السنَّة (٦٦٤/٢) .

سادساً : انعقاد الإجماع على خلافة عثمان :

أجمع أصحاب رسول الله ﷺ ، وكذا من جاء بعدهم ممن سلك سبيلهم من أهل السنة والجماعة على أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه أحقُّ الناس بخلافة الْبَيْوَةَ بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولم يخالف ، أو يعارض في هذا أحدٌ ، بل الجميع سلَّمَ له بذلك ؛ لكونه أفضل خلق الله على الإطلاق بعد الشَّيَخِينَ أبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما ، وقد نقل الإجماع على أحقية عثمان رضي الله عنه بالخلافة بعد عمر رضي الله عنه طائفةٌ من أهل العلم بالحديث ، وغيرهم ، ومن تلك التَّقْوَلُونَ^(١) :

١- مارواه ابن أبي شيبة بإسناده إلى حارثة بن مضرب ، قال : حججت في إماراة عمر ، فلم يكونوا يشكُّون : أنَّ الخلافة من بعده لعثمان^(٢) .

٢- وروى أبو نعيم الأصبهاني بإسناده إلى حذيفة رضي الله عنه قال : إِنِّي لواقف مع عمر تمسُّ ركبتي ركبته ، فقال : من ترى قومك يؤمّرون؟ قال : إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَسَنَدُوا أَمْرَهُمْ إِلَى ابْنِ عَفَّانَ^(٣) .

٣- ونقل الحافظ الذهبي عن شريك بن عبد الله القاضي ، أَنَّه قال : قُبضَ النَّبِيُّ ﷺ فاستخلف المسلمين أبا بكر ، فلو علموا : أنَّ فيهم أحداً أفضل منه ؛ كانوا قد غَشَّوا ، ثمَّ استخلف أبو بكرٍ عمر ، فقام بما قام به من الحق ، والعدل ، فلما احتضر جعل الأمر شورى بين ستةٍ ، فاجتمعوا على عثمان ، فلو علموا : أنَّ فيهم أفضل منه كانوا قد غَشَّونَا^(٤) .

فهذه التَّقْوَلُونَ فيها بيانٌ واضحٌ في أنَّ أصحابَ النَّبِيِّ ﷺ قد اشتهرُ بينهم أولوية عثمان بالخلافة ، وما زال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حياً ؛ لما سبق من علمهم ببعض النَّصوص المنشيرة إلى أنَّ ترتيبه سيكون في خلافة الْبَيْوَةَ بعد الفاروق رضي الله عنه ، ولعلمهم أَنَّه أفضل الناس على الإطلاق بعد أبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما^(٥) .

٤- روى ابن سعدٍ بإسناده إلى النَّزاَلِ بن سبرة رضي الله عنه قال : قال عبد الله ابن مسعود حين استُخلف عثمان : استخلفنا خير من بقي ، ولم نأْلُ - أي : لم ننصر في اختيار الأفضل - وفي رواية أخرى قال : أَمَّرْنَا خير من بقي ، ولم نأْلُ^(٦) .

(١) المصدر السابق نفسه (٢/٦٦٥).

(٢) المصطف (١٤/٥٨٨).

(٣) كتاب الإمامة والرَّد على الرَّافضة ، ص (٣٠٦).

(٤) ميزان الاعتadal (٢/٢٧٣).

(٥) عقيدة أهل السنة (٢/٦٦٦).

(٦) الطَّبقات الكبرى (٣/٦٣).

٥- وقال الحسن بن محمد الرَّعْفُرانيُّ : سمعت الشَّافعِيَّ يقول : أجمع النَّاسُ على خلافة أبي بكرٍ ، واستختلف أبو بكرٍ عمر ، ثُمَّ جعل عمر الشُّورى إلى ستَّةٍ على أن يولوها واحداً ، فولوها عثمان رضي الله عنهم أجمعين^(١) .

وقد نقل أبو حامد محمد المقتضي كلاماً عزاه للإمام الشَّافعِيَّ - رحمه الله - : أَنَّه قال : واعلموا : أَنَّ الْإِمَامَ الْحَقَّ بَعْدَ عُمُرٍ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ عُثْمَانُ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ أَهْلِ الشُّورى اخْتِيَارِ الْإِمَامَةِ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، وَالْإِخْتِيَارِ لِعُثْمَانَ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَاجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَصَوْبِيَا رأيه فِيمَا فَعَلَهُ ، وَأَفَاقَ النَّاسُ عَلَى مَحْجَةِ الْحَقِّ ، وَبَسْطَ الْعَدْلِ إِلَى أَنْ اسْتَشْهِدَ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢) .

٦- وذكر ابن تيمية عن الإمام أحمد : أَنَّه قال : لم يجتمعوا على بيعة أحدٍ ما اجتمعوا على بيعة عثمان^(٣) .

٧- وقال أبو الحسن الأشعريُّ : وثبتت إمامَة عثمان رضي الله عنه بعد عمر بعقد من عقدَه الإمامَة من أصحاب الشُّورى ، الَّذِينَ نَصَّ عَلَيْهِمْ عُمُرٌ ، فاختاروه ورضوا بإمامَتِه ، وأجمعوا على فضله ، وعدلَه^(٤) .

٨- وقال عثمان الصَّابُونِي مبيِّناً عقيدة السَّلْفِ ، وأصحابِ الحديثِ في ترتيبِ الخلافة بعد أن ذكر : أَنَّهُمْ يَقُولُونَ أَوَّلًا بخلافة الصَّدِيقِ ، ثُمَّ عُمُرٌ ، قَالَ : ثُمَّ خلافة عثمان رضي الله عنه بإجماعِ أهل الشُّورى ، وإجماعِ الأصحابِ كافَّةً ، ورضاهُمْ بِهِ حَتَّى جعلَ الْأَمْرَ إِلَيْهِ^(٥) .

٩- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة الله تعالى عليه وعلى جميع العلماء المصلحين - : وجميع المسلمين بايعوا عثمان بن عفان ، لم يتخلَّفَ عن بيعة أحد .. فلما بايعه ذُرُو الشُّوكَةُ ، والقدرة صار إماماً ، وإنما فلو قُدِرَ أن عبد الرحمن بايعه ولم يبايعه علىٰ ، ولا غيره من الصحابة أهل الشوكَة لم يصر إماماً ، ولكن عمر لما جعلها شورى في ستَّةٍ : عثمان ، وعلىٰ ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، ثُمَّ إنَّه خرج طلحة ، والزبير ، وسعد باختيارِهم ، وبقي عثمان ، وعلىٰ ، وعبد الرحمن لا يتولَّ ويولي أحد الرَّجُلَيْنِ ، وأقام عبد الرحمن ثلاثة حلف أَنَّه لم يغمض فيها بكثير نوم يشاور السابِقِيْنِ الْأَوَّلِيْنِ ، والثَّابِتِيْنِ لِهِمْ بِالْإِحْسَانِ ، يشاور

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (١/٤٣٤ ، ٤٣٥) .

(٢) الرد على الرافضة ، ص (٣١٩ ، ٣٢٠) .

(٣) منهاج السنة (٣/١٦٦) . والستنة للخلال ، ص (٣٢٠) .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة ، ص (٦٨) .

(٥) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن الرسائل المنبرية (١/١٣٩) .

أمراء الأجناد ، وكانوا قد حبّوا مع عمر ذلك العام ، فأشار عليه المسلمون بولالية عثمان ، وذكر ؛ أنَّهم كُلُّهم قدّموا عثمان ، فباعوه لا عن رغبةٍ أعطاهم إياها ، ولا عن رهبةٍ أخافهم بها ، ولهذا قال غير واحدٍ من السَّلف ، والأئمَّةِ كأبيو السَّختيانيِّ ، وأحمد بن حنبل ، والدَّارقطنيِّ ، وغيرهم : من قَدَّمَ علياً على عثمان ، فقد أزرى بالمهاجرين ، والأنصار ، وهذا من الأدلة الدَّالة على أنَّ عثمان أفضل ، لأنَّهم قدّموه باختيارهم ، واستوارهم^(١) .

١٠ - وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - حاكياً لإجماع الصَّحابة على خلافة عثمان رضي الله عنه : ويروى : أنَّ أهل الشُّورى جعلوا الأمر إلى عبد الرحمن ، ليجتهد للMuslimين في أفضلهم ، ليوليه ، فيذكر : أنَّه سأله من يمكنه سؤاله من أهل الشُّورى ، وغيرهم ، فلا يشير إلا بعثمان بن عفان ، حتَّى إنَّه قال لعليٍّ رضي الله عنه : أرأيت إن لم أولك بمن تشير به علىَّ ؟ قال : بعثمان ، وقال لعثمان رضي الله عنه : أرأيت إن لم أولك بمن تشير به ؟ قال : بعليٍّ بن أبي طالب ، والظَّاهِر : أنَّ هذا كان قبل أن ينحصر الأمر في ثلاثة ، وينخلع عبد الرحمن منها لينظر الأفضل ، والله عليه والإسلام ليجتهد في أفضل الرَّجلين فيوليه ، ثمَّ نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير النَّاسَ فيهما ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس النَّاسِ ، وأقيادهم جميعاً وأشتاباً ، مثنى وفرادي ومجتمعين ، سرّاً وجهراً ، حتَّى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهنَّ ، وحتَّى سأله الولدان في المكاتب ، وحتَّى سأله من يرِدُّ من الرُّكبان ، والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بلياليها ، فلم يجد اثنين يختلفان في تقدُّم عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فسعى في ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها لا يغتصب بكثير نوم إلا في صلاةٍ ، ودعاءٍ ، واستخارَةٍ ، وسؤالٍ من ذوي الرَّأي عنهم ، فلم يجد أحداً يعدل بعثمان بن عفان رضي الله عنه ، فلما كان اللَّيلَةُ التي يسفر صاحبها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلى منزل ابن أخيه المسور بن مخرمة ، وأمره أن ينادي له علياً ، وعثمان ، رضي الله عنهمَا ، فناداهما ، فحضرَا إلى عبد الرحمن ، فأخبرهما : أنَّه سأله النَّاسُ ، فلم يجد أحداً يعدل بهما أحداً ، ثمَّ أخذ العهد على كُلِّ منهما أيضاً لئن لاه ؛ ليعدلَّ ، ولئن ولَّ عليه ؛ ليس معنَّ ، وليطعنَّ ، ثمَّ خرج إلى المسجد ، وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عمَّمه بها رسول الله ﷺ ، وتقلَّد سيفاً ، وبعث إلى وجوه النَّاسِ من المهاجرين ، والأنصار ، ونودي في النَّاسِ عامةً : الصَّلاة جامعاً ، فامتلأ المسجد بالنَّاسِ حتَّى غصَّ بالنَّاسِ ، وترافقَ النَّاسُ ، وترافقوا حتَّى لم يبق لعثمان موضع يجلس فيه إلا في آخريات النَّاسِ - وكان رجلاً حيَاً رضي الله عنه - .

ثمَّ صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ فوقف وقفًا طويلاً ، ودعا دعاء طويلاً ،

لم يسمعه الناس ، ثمَّ تكلَّم ، فقال : أَيُّها النَّاس ! إِنِّي سَأْلُكُمْ سَرًّا وَجَهْرًا عَنْ إِمَامَكُم ، فَلَمْ أَجِدْكُمْ تَعْدِلُونَ بِأَحَدِ هَذِينَ الرَّجُلَيْنِ إِمَّا عَلَيْيَ ، وَإِمَّا عَثْمَانَ ، فَقَمَ إِلَيَّ يَا عَلَيْ ، فَقَامَ إِلَيْهِ ، فَوَقَفَتْ حَتَّى الْمَنْبَرِ ، فَأَخْذَ عَبْدَ الرَّحْمَنَ بِيَدِهِ ، فَقَالَ : هَلْ أَنْتَ مُبَايِعٍ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ، وَسَنَّةِ نَبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَفَعَلَ أَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ? قَالَ : اللَّهُمَّ لَا ! وَلَكَ عَلَى جَهَدِي مِنْ ذَلِكَ ، وَطَاقِي . قَالَ : فَأَرْسِلْ يَدَهُ ، وَقَالَ : قَمْ إِلَيَّ يَا عَثْمَانَ ! فَأَخْذَ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : هَلْ أَنْتَ مُبَايِعٍ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسَنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَعَلَ أَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ? قَالَ : اللَّهُمَّ نَعَمْ ! قَالَ : فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى سَقْفِ الْمَسْجِدِ ؛ وَيَدِهِ فِي يَدِ عَثْمَانَ وَقَالَ : اللَّهُمَّ اسْمِعْ ، وَاشْهُدْ ! اللَّهُمَّ اسْمِعْ ، وَاشْهُدْ ! اللَّهُمَّ اسْمِعْ ، وَاشْهُدْ ! اللَّهُمَّ إِنِّي قدْ جَعَلْتَ مَا فِي رَقْبِي مِنْ ذَلِكَ فِي رَقْبَةِ عَثْمَانَ .

وَقَالَ : وَازْدَحَمَ النَّاسُ بِيَابِعِيْنِ عَثْمَانَ حَتَّى غَشَوْهُ تَحْتَ الْمَنْبَرِ ، قَالَ : فَقَعَدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مَقْعِدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَجْلَسَ عَثْمَانَ تَحْتَهُ عَلَى الدَّرْجَةِ الثَّانِيَةِ ، وَجَاءَ إِلَيْهِ النَّاسُ بِيَابِعِيْنِهِ ، وَبِيَابِعِهِ عَلَيْهِ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَوْلَأً ، وَيَقَالُ : ثَانِيَا^(١) .

فَهَذِهِ النُّقُولُ الْمُتَقَدِّمُ ذَكْرُهَا لِلْإِجْمَاعِ عَنْ هُؤُلَاءِ الْأَئْمَةِ كُلُّهَا تَفِيدُ إِفَادَةً قَطْعِيَّةً أَنَّ الْبِيعَةَ بِالخِلَافَةِ تَمَّتْ لِعَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَلَمْ يَخْالِفْ ، أَوْ يَعْرَضْ فِي ذَلِكَ أَحَدً^(٢) .

سَابِعًا : حُكْمُ تَقْدِيمِ عَلَيِّ عَلَى عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا :

ذُكْرٌ - هُنَا - بِأَنَّ الصَّحَابَةَ الْكَرَامَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كُلُّهُمْ عُدُولٌ ، لَا يَحُوزُ الطَّعْنُ بِواحدٍ مِنْهُمْ ، وَمَا حَدَّثَ بَيْنَ بَعْضِهِمْ ، فَهُوَ اخْتِلَافٌ فِي وِجْهَاتِ النَّظرِ ، وَلَا عَلَاقَةَ لَهُ بِإِيمَانِ هَذَا الصَّاحِبِيِّ أَوْ ذَاكَ ، أَوْ قَرْبَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَكَانَتِ الْخِلَافَةُ قَضِيَّةً اسْتَطَاعُ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَحْلُوا إِشْكالَاهَا ، وَيَتَغَلَّبُوا عَلَى مَا اعْتَرَضُوهُمْ مِنْ عَقَبَاتِ كَادَاءِ .

وَقَالَ ابْنُ تِيمِيَّةَ : اسْتَقِرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عَثْمَانَ ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسَأَةُ - مَسَأَةُ عَثْمَانَ وَعَلَيِّ - لَيْسَتْ مِنَ الْأَصْوَلِ الَّتِي يُضَلِّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ السُّنَّةِ ، لَكِنَّ الْمَسَأَةَ الَّتِي يُضَلِّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا هِيَ مَسَأَةُ الْخِلَافَةِ ، وَذَلِكَ : أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْخِلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ عَثْمَانَ ، ثُمَّ عَلَيِّ ، وَمِنْ طَعْنِ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هُؤُلَاءِ الْأَئْمَةِ ؛ فَهُوَ أَصْلُ حَمَارِ أَهْلِهِ^(٣) .

(١) البداية والنهاية (١٥٩/٧ - ١٦١) .

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة (٦٧١/٢) .

(٣) مجموعة الفتاوى (١٠٢، ١٠١/٣) .

وذكر أقوال أهل العلم في مسألة تفضيل عليٍّ على عثمان :

فقال : فيها رواياتان :

إحداهما : لا يسوغ ذلك ، فمن قال به فقد خرج من السنة إلى البدعة ؛ لمخالفته لِجمَاع الصَّحَابَة ؛ يروى ذلك عن غير واحد ، منهم أيوب السختياني ، وأحمد بن حنبل ، والدارقطني .

والثانية : لا يُدعَعُ من قَدَمَ عَلَيْهَا ، لتقارب حال عثمان ، وعليٍّ^(١) .

* * *

المبحث الثاني

منهج عثمان بن عفان في الحكم

عندما بُويع عثمان رضي الله عنه بالخلافة قام في الناس خطيباً ، فأعلن عن منهجه السياسي مبيئناً : أَنَّهُ سُيَقِّدُ بِالْكِتَابِ ، وَالسُّنْنَةِ ، وَسِيرَةِ الشَّيْخِيْنِ ، كما أشار في خطبته إلى أَنَّهُ سيسوس الناس بالحلم ، والحكمة إلا فيما استوجبوه من الحدود ، ثُمَّ حذَّرَهُمْ مِنَ الرُّؤْكُونِ إِلَى الدُّنْيَا ، والافتتان بحطامها خوفاً من التَّنَافِسِ ، وَالتَّبَاغُضِ ، وَالتَّحَاسِدِ بَيْنَهُمْ ، مِمَّا يُفْضِي بِالْأَمَّةِ إِلَى الفرقة ، والخلاف ، وكأنَّ عثمان رضي الله عنه ينظر وراء الحجب ببصيرته النَّفَاذَةِ إِلَى ما سيحدث في هذه الأُمَّةِ مِنَ الْفَتْنَةِ بِسَبِّ الْأَهْوَاءِ ، وَتَهَالِكِ النَّاسِ بَعْدَمَا بُويع^(١) فقال :

«أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي كَلَّفْتُ ، وَقَدْ قَبَلتُ ، أَلَا وَإِنِّي مَتَّبِعٌ ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ ، أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ ، وَسِرَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ثَلَاثَةً : اتَّبَاعَ مَنْ كَانَ قَبْلِي فِيمَا اجْتَمَعْتُمْ عَلَيْهِ ، وَسَنَّتُمْ ، وَسَنَّ أَهْلُ الْخَيْرِ فِيمَا تَسْتُّوا عَنْ مَلَأِ ، وَالْكَفَّ عَنْكُمْ إِلَّا فِيمَا اسْتَوْجَبْتُمُ الْعَقُوبَةَ ، وَإِنَّ الدُّنْيَا خَضْرَةٌ وَقَدْ شَهِيتَ إِلَى النَّاسِ وَمَالَ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، فَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الدُّنْيَا وَلَا تَتَقَوَّبُوهَا ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بِثَقَةٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهَا غَيْرُ تَارِكَةٍ إِلَّا مِنْ تَرْكَهَا»^(٢).

وَأَمَّا قُولُ بعضِ النَّاسِ بِأَنَّ عُثْمَانَ لَمَّا خَطَبْ أَوَّلَ خَطْبَةً أَرْتَجَ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ ؛ حَتَّى قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ أَوَّلَ مَرْكَبٍ صَعُبٌ ، وَإِنَّ أَعْشَ ، فَسَأَتِيكُمُ الْخَطْبَةَ عَلَى وَجْهِهَا ، فَهُوَ شَيْءٌ يُذَكِّرُهُ صَاحِبُ الْعِقْدِ^(٣) ، وَغَيْرُهُ مَمْنُ يُذَكِّرُ طَرْفَ الْفَوَائِدِ ، وَأَنَّ إِسْنَادَهُ غَيْرُ صَحِيحٍ^(٤) .

أولاً : كُتب عثمان إلى عمَّاله ، وولاته ، وأمراء العجند ، وعامة الناس :

أقرَّ عثمان رضي الله عنه عُمَالَهُمْ بِعُمَالِهِمْ ، فلم يعزل منهم أحداً عاماً كاماً أخذَهُ بوصيَّةَ عمر رضي الله عنه ، وانتظر في الكتب التي بعث بها إلى الولاة وعمَالَ المَالِ ، وأمراء

(١) تحقيق موافق الصحابة في الفتنة (٣٩٢/١).

(٢) تاريخ الطبرى (٤٤٣/٥).

(٣) المراد : ابن عبد ربه الأندرسي ، صاحب كتاب العقد الفريد ، وهو كتاب في طريق الأنباء والحكايات والتواتر ، ولا يهتم بسنن الخبر ، أو صحَّته .

(٤) خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، د. السَّلَمِي، ص(٣٤، ٣٥) الخبر من طريق الواقدي، وهو متروك.

الأجناد يقف على النَّهْج ، الذي أراد السَّيِّر عليه ، وأخذ الأئمَّة به^(١) .

١- أوَّل كتابٍ كتبه عثمان إلى جميع ولاته :

أمَّا بعد : فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْأَئمَّةَ أَنْ يَكُونُوا رَعَاةً ، وَلَمْ يَتَقدَّمْ إِلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا جَبَّاءً ، وَإِنَّ صَدَرَ هَذِهِ الْأَئمَّةَ خَلْقَوْهَا رَعَاةً ، وَلَمْ يَخْلُقُوهَا جَبَّاءً ، وَلَيَكُونُوا رَعَاةً ، فَإِذَا عَادُوا كَذَلِكَ انْقَطَعَ الْحَيَاةُ ، وَالْأَمَانَةُ ، وَالْوَفَاءُ . أَلَا وَإِنَّ أَعْدَلَ السَّيِّرَةَ أَنْ تَنْظُرُوا فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا عَلَيْهِمْ ، فَتَعْطُوهُمْ مَا لَهُمْ ، وَتَأْخُذُوهُمْ بِمَا عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَشْتُرُوا بِالذَّمَّةِ ، فَتَعْطُوهُمْ الَّذِي لَهُمْ ، وَتَأْخُذُوهُمْ بِالَّذِي عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ الْعَدُوُ الَّذِي تَتَابُونَ ، فَاسْتَفْتُهُمْ عَلَيْهِمْ بِالْوَفَاءِ^(٢) .

وَالملحوظ : أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَكَّدَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمُوجَّهِ إِلَيْهِ وَلَاهُ فِي الْأَمْصَارِ وَاجْبَهُمْ نَحْوَ الرَّاعِيَةِ ، وَعَرَّفُوهُمْ : أَنَّ مَهْمَّتِهِمْ لَيْسَ هِيَ جَمْعُ الْمَالِ ، وَإِنَّمَا تَمَثَّلُ فِي رَعَايَةِ مَصَالِحِ النَّاسِ ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ بَيْنَ السَّيِّسَةِ الَّتِي يَسُوسُونَ بِهَا الْأَئمَّةَ ، وَهِيَ أَخْذُ النَّاسِ بِمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَاجِبَاتِ ، وَإِعْطاؤُهُمْ حَقُوقَهُمْ ، فَإِذَا كَانُوا كَذَلِكَ ؛ صَلَحَتِ الْأَئمَّةَ ، وَإِذَا انْقَلَبُوا جَبَّاءً لَيْسَ هُمُّهُمْ إِلَّا جَمْعُ الْمَالِ ، انْقَطَعَ الْحَيَاةُ ، وَفُقِدَتِ الْأَمَانَةُ ، وَالْوَفَاءُ^(٣) ، لَقَدْ كَانَ فِي كِتَابِ عُثْمَانَ لِلْوَلَاةِ : التَّرْكِيزُ عَلَى قِيمِ الْعَدْلِ السَّيِّاسِيِّ ، وَالْاجْتِمَاعِيِّ ، وَالْاِقْتَصَادِيِّ بِإِعْطَاءِ ذُوِّيِ الْحَقُوقِ حَقُوقَهُمْ ، وَأَخْذِ مَا عَلَيْهِمْ ، وَإِعْلَاءِ شَأنِ مَبْدَأِ الرَّعَايَةِ السَّيِّاسِيَّةِ ، لَا الْجَبَّائِيَّةِ ، وَتَكْثِيرِ الْأَمْوَالِ^(٤) .

وَنَبَّهَ عَلَى مَا سَيَكُونُ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْوَلَاةِ مِنْ رَعَاةٍ إِلَى جَبَّاءٍ ، بَأَنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ فِي تَقْلُصِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، الَّتِي مَثَّلَ لَهَا الْحَيَاةُ ، وَالْأَمَانَةُ ، وَالْوَفَاءُ ، وَذَلِكَ أَنَّ بَيْنَ الرَّاعِيِّ وَالرَّاعِيَةِ خِيطًا سَامِيًّا مِنَ الْعَلَاقَاتِ الْمُتَиَّنةِ ، وَيُؤْكِدُهُ ، وَيَبْثِبُهُ اتِّفَاقُ الْجَمِيعِ عَلَى هَدْفٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ ابْتِغَاءُ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَالْوَالِي يَسْعِيُ لِهَذَا الْهَدْفِ بِمَا يَقْدِمُهُ لِإِمَامِهِ مِنْ طَاعَةٍ ، وَوَلَاءٍ ، وَأَمَانَةٍ ، وَوَفَاءٍ ، وَيَبْقَى خُلُقُ الْحَيَاةِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ عُثْمَانَ يُظْلِلُ الْجَمِيعَ ، فَيَمْنَعُهُمْ مِنْ ارْتِكَابِ مَا يُسْتَقِبِعُ ، أَوْ التَّعَرُضُ لِحَرْجِ الْمُشَاعِرِ ، وَالْإِيقَاعِ فِي الْحَرْجِ . ثُمَّ يُوصِي عُثْمَانَ وَلَاهُ بِالْعَدْلِ فِي الرَّاعِيَةِ ، وَذَلِكَ بِأَخْذِ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقُوقِ ، وَبِذَلِكَ مَا لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُشَيرُ إِلَى نَقْطَةِ مَهْمَّةٍ ، وَهِيَ : أَنَّ الْوَفَاءَ بِالْعَهُودِ مِنْ أَهْمَّ أَسْبَابِ الْفَتْحِ ، وَالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَقَدْ بَيْنَ التَّارِيخِ أَثَرَ هَذَا الْخَلْقَ الرَّفِيعَ فِي تَفْوِيقِ الْمُسْلِمِينَ الإِدَارِيِّ وَالْحَرَبِيِّ^(٥) .

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٩٣) .

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٤) .

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٩٣) .

(٤) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ، لحمدى شاهين ، ص (٢٤٦) .

(٥) التاريخ الإسلامي (١٢/٣٦٩) .

٢- كتابه إلى قادة الجنود :

وكان أول كتاب كتبه إلى قادة الأجناد في الفروج^(١) : أمّا بعد : فإنكم حماة المسلمين ، وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنّا ، بل كان على ملأ منّا ، ولا يبلغني عن أحدٍ منكم تغيير ، ولا تبديل ، فيغير الله بكم ، ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما أزلمني الله النّظر فيه ، والقيام عليه^(٢) .

وفي هذا الكتاب لفت نظرٍ إلى أنَّ الأمور لن تتغيّر بتغيير الخليفة ؛ لأنَّ الخلفاء ومن دونهم من الولاة يسرون على خطٍّ واحدٍ ، وهو القيام بمهمة تطبيق الإسلام في واقع الحياة . وقوله : وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنابل كان على ملأ منّا . إشارةٌ إلى أنَّ حكم أولئك الخلفاء يقوم على الشُّورى ، وذلك يتربّط عليه أنَّ جميع القضايا المهمة تكون معلومةً بتفاصيلها عند أهل الحلّ والعقد ، فإذا ذهب الحاكم ، وخلفه حاكمٌ آخر ، سار على المنهج نفسه ، لوضوح الهدف لدى الجميع . وقوله : (ولا تغيروا ، فيغير الله بكم) وعنيٌّ لسنن الله تعالى في هذا الكون ، فمعية الله - جلَّ وعلا - لأوليائه بال توفيق ، والحماية ، والتَّنصر مشروطةٌ بذروهم شريعته ، واستسلامهم لأمره ، فإذا تغيّروا في ذلك غير الله ما بهم ، واستبدل بهم غيرهم في الهيمنة والتمكين^(٣) ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿لَمْ يَعْقِبْتُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يُقَوِّمُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا يُنفِسُهُمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُوِّمُ سَوْءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالِ﴾ [الرعد : ١١] . وذَكَرُهم بأنَّه على علمٍ بواجبه ، يؤديه ، ويقوم عليه لينلاقى عمل الرَّعية ، وعمل الرَّاعي في الشُّعور بالواجب ، والقيام به ، ويشعر كلُّ فردٍ أنَّه يعملاً لأمّته ، كما يعمل لنفسه^(٤) .

٣- كتابه إلى عمال الخراج :

وكان أول كتاب كتبه إلى عمال الخراج :

أمّا بعد ، فإنَّ الله خلق الخلق بالحقّ ، فلا يقبل إلا الحقّ ، خذوا الحقّ ، وأعطوا الحقَّ به ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها ، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ، ولا المعاهد ، فإنَّ الله خصمٌ لمن ظلمهم^(٥) . خصَّ في هذا الكتاب وزراء المال الذين يجبونه من أفراد الأمة ؛ لينفق في مصالحها

(١) الفروج : يعني الأقاليم .

(٢) تاريخ الطبرى (٢٤٤/٥) .

(٣) التأريخ الإسلامي (٣٧٠/١٢) .

(٤) عثمان بن عفان رضي الله عنه لصادق عرجون ، ص (١٩٩) .

(٥) تاريخ الطبرى (٢٤٤/٥) .

العامة ، فيَبَيِّنُ لَهُمْ : أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِلُ إِلَّا الْحَقَّ ، وَالْحَقُّ قَائِمٌ عَلَى الْأَمَانَةِ ، وَالْوَفَاءِ ، ثُمَّ مَيِّزَ صَنْفَيْنِ مِنَ الرَّعْيَةِ ، هُما ضَعِيفَاهَا : الْيَتَيمُ ، وَالْمَعَاهِدُ ، فَحُضِّرَ عَلَى التَّجَاجِفِيِّ عَنْ ظُلْمِهِمَا ؛ لَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَتَوَلِّ حَمَائِتَهُمَا^(١) ، وَيَذَرُّهُم بِأَنَّهُمْ إِذَا ظَلَمُوهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ مَعَرَضُونَ لِنَقْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ لَأَنَّهُ خَصَّ لِمَنْ ظَلَمَ هُؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعِفِينَ ، وَفِي هَذَا الْفَتْنَةِ إِلَى جَانِبِ مِنْ جَوَابِ عَظَمَةِ إِسْلَامٍ حِيثُ يَدْعُوا إِلَى نَصْرِ الْمُظْلُومِينَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْكُفَّارِ الْمُعَاهِدِينَ^(٢) .

٤- كتابة إلى العامة :

أَمَّا بَعْدَ : إِنَّكُمْ إِنَّمَا بَلَغْتُمْ بِالْاقْتِدَاءِ ، وَالْإِتْبَاعِ ، فَلَا تَلْفَتُنَّكُمُ الدُّنْيَا عَنْ أَمْرِكُمْ ، فَإِنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ صَائِرٌ إِلَى الْابْتِدَاعِ بَعْدِ اجْتِمَاعِ ثَلَاثَةِ فِيهِمْ : تَكَامُلَ النَّعْمَ ، وَبِلُوغِ أُولَادِكُمْ مِنَ السَّبَابِيَا ، وَقِرَاءَةِ الْأَعْرَابِ وَالْأَعْاجِمِ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الْكُفُرُ فِي الْعِجْمَةِ ، إِنَّمَا اسْتَعْجِمُ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ ، تَكْلِفُوا ، وَابْتَدِعُوا »^(٣) .

وَفِي هَذَا الْخُطَابِ نَلَاحِظُ : أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَعَبَ عَامَّةَ الْأُمَّةِ فِي الْإِتْبَاعِ ، وَتَرَكَ التَّكْلِفَ ، وَالْابْتِدَاعَ ، وَأَنَّهُ حَذَرَهُمْ تَغْيِيرُ الْحَالِ إِذَا اجْتَمَعُتْ لَهُمْ ثَلَاثَ خَلَالٍ : تَكَامُلَ النَّعْمَ ، الَّذِي يَبْطِرُ الْقُنُوْسَ ، وَيُدْفِعُهَا إِلَى التَّرْفَ ، وَيَصْدِدُهَا عَنِ الْاجْتِهَادِ ، وَالْعَمَلِ ، وَيَصْرُفُهَا إِلَى الْفَرَاغِ ، وَالْكَسْلِ ، حَتَّى تَفْتَرِ حَيْوَيَّهَا ، وَتَخُورِ عِزَائِهَا . وَبِلُوغِ أُولَادِهَا مِنَ السَّبَابِيَا ، وَقَدْ لَمَسَتْ الْأُمَّةُ فِي تَارِيْخِهَا أَثْرَ هُؤُلَاءِ فِي الْمُجَمَعِ إِسْلَامِيِّ مِنَ الْوِرْجَةِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَالدِّينِيَّةِ . وَقِرَاءَةِ الْأَعْرَابِ ، وَالْأَعْاجِمِ الْقُرْآنِ ، وَإِنَّمَا يَرِيدُ عُثْمَانَ بِذَلِكَ مَا فِي طَبَاعِ الْأَعْرَابِ مِنْ جُفَاءِ ، وَغَلْظِ الْأَكْبَادِ ، فَلَا تَبْلُغُ هَدَايَةُ الْقُرْآنِ مَكَانَ الْخَيْرِ مِنْ أَفْعَدِهِمْ ؛ وَكَذَلِكَ يَرِيدُ مَا فِي الْأَعْاجِمِ مِنْ أَخْلَاقِ مُورُوثَةٍ ، وَعَقَائِدِ مَتَّأْصَلَةٍ ، وَعَادَاتٍ قَدِيمَةٍ تَبَاعُدُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سُنْنِ الْقُرْآنِ فِي الْهَدَايَا ، وَقَدْ ظَهَرَ أَثْرُ الْأَعْرَابِ فِي فِرْقَةِ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ كَانُوا كَثُرَتْهُمْ مِنْ أُولَئِكَ الْجَفَافَا ، فَهُمْ كَانُوا أَقْرَأُ النَّاسَ لِلْقُرْآنِ ، وَأَبْعَدُهُمْ عَنْ هَدَايَتِهِ ، ثُمَّ ظَهَرَ فِيمَنْ عَدَاهُمْ أَثْرُ الْأَعْاجِمِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ مَذَاهِبٍ ، وَتَكَلَّفُوهُ مِنْ آرَاءٍ كَانَتْ شَرَّاً عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي عَقَائِدِهِمْ ، وَمِنْهُمْ أَكْثَرُ الْفَرَقِ الضَّالَّةِ الَّتِي لَعِبَتْ فِي تَارِيْخِ إِسْلَامٍ أَخْطَرَ دُوراً^(٤) .

ثانيةً : المرجعية العليا للدولة :

أُعلِنَ ذُو الْتُورِينِ : أَنَّ مَرْجِعِيَّتِهِ الْعُلِيَا لِدُولَتِهِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَسَنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ ، وَالْاقْتِدَاءِ

(١) عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِصَادِقِ عَرْجُونَ ، ص (١٩٨) .

(٢) التَّارِيْخُ الْإِسْلَامِيُّ (٣٧١/٢٠) .

(٣) تَارِيْخُ الطَّبَرِيِّ (٤٥٥/٥) .

(٤) عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِصَادِقِ عَرْجُونَ ، ص (١٩٩) .

باليشخين في هديهم ، فقد قال : ... ألا وإنّي متّع ، ولست بمبتدع ، ألا وإنّ لكم عليّ بعد كتاب الله ، وسنة نبيه ﷺ ثلاثةً : اتباع من كان قبلني فيما اجتمعتم عليه ، وسنّتكم^(١) .

١- فال مصدر الأول هو كتاب الله . قال تعالى : « إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ إِمَّا أَرَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِّلْجَاهِينَ خَصِيمًا » [النساء : ١٠٥] .

فكتاب الله تعالى يشتمل على جميع الأحكام الشرعية التي تتعلق بشؤون الحياة ، كما يتضمن مبادئ أساسية ، وأحكاماً قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة ، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كلّ ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم .

٢- المصدر الثاني : السنة المطهرة التي يستمدّ منها الدّستور الإسلاميّ أصوله ، ومن خلالها يمكن معرفة الصيغة التّنفيذية ، والتطبيقية لأحكام القرآن^(٢) .

٣- الاقتداء بالشّيخين :

قال رسول الله ﷺ : « اقتدوا باللّذين من بعدي : أبي بكرٍ ، وعمر »^(٣) .

إنّ دولة ذي التورين خضعت للشّريعة ، وأصبحت سيادة الشّريعة الإسلامية فيها فوق كلّ تشرع وفوق كلّ قانون ، وأعطت لنا صورة مضيئةً مشرفةً على أنّ الدولة الإسلامية دولة شريعة ، خاضعة بكلّ أجهزتها لأحكام هذه الشّريعة ، والحاكم فيها مقيد بأحكامها ، لا يتقّدم ، ولا يتّأخر عنها^(٤) ، ففي دولة ذي التورين ، وفي مجتمع الصحابة ، الشّريعة فوق الجميع ، يخضع لها الحاكم ، والمحكوم ، وطاعة الخليفة مقيدة بطاعته لله ، قال رسول الله ﷺ : « لا طاعة في المعصية ، إنّما الطّاعة في المعروف »^(٥) ، وهىمنة الشّريعة على الدولة من خصائص الخلافة الرّاشدة ، فحكومة الخلافة الرّاشدة تتميّز عن الحكومات الأخرى بعدة خصائص ، منها :

* أنّ اختصاصات الحكومة (الخليفة) عامة ؛ أي : تقوم على التّكامل بين الشّؤون الدينية ، والدينية .

* أنّ حكومة الخلافة ملزمة بتنفيذ أحكام الشّريعة .

* أنّ الخلافة تقوم على وحدة العالم الإسلامي^(٦) .

(١) تاريخ الطّبرى (٤٤٣ / ٥) .

(٢) فقه الشّمكين في القرآن الكريم للصالحي ، ص (٤٣٢) .

(٣) صحيح سنن الترمذى (٣ / ٢٠٠) .

(٤) نظام الحكم في الإسلام ، ص (٢٢٧) .

(٥) البخاري ، رقم (٧١٤٥) .

(٦) فقه الخلافة ، للسّنهوري ، ص (٨٠) .

ثالثاً : حق الأمة في محاكمة الخليفة :

الأمر الذي لا شك فيه : أن سلطة الخليفة ليست مطلقة ، وإنما هي مقيدة بقيدين :

١- لا يخالف نصاً صريحاً ورد في القرآن الكريم والسنّة ، وأن يكون الإجراء الذي يتّخذه متفقاً - فضلاً عن ذلك - مع روح الشريعة ، ومقاصدها .

٢- لا يخالف ما أتفق عليه الأمة الإسلامية ، أو يخرج على إرادتها .

وأساس ذلك : أن الخليفة نائب عن الأمة ، منها يستمد سلطانه ، ويرجع إليها في تحديد هذا السلطان ، ومداه ، فالآمة تستطيع في كل وقت أن توسع من هذا السلطان ، وأن تضيق منه ، أو تقيد بقيودٍ كلما رأت في ذلك مصلحة ، أو ضماناً لحسن القيام على أمر الله ، ومصلحة الأمة^(١) ، ويكون ذلك من خلال مجلس شورى الأمة ، وقد أكد عثمان رضي الله عنه حق الأمة في محاسبة الخليفة في قوله : إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في القيد ؛ فضعوا رجلي في القيد^(٢) . وحينما أخذت طائفة عليه بعض أخطاء - في زعمها - في تصريفه لشؤون الحكم ، وإسناد وظائفه ، وتطاھرت عليه جموع منهم لمحاسبته على أعماله ، فأذعن رضوان الله عليه لرغبتهم ، ولم ينكر عليهم هذا الحق ، وأبدى استعداداً كريماً للإصلاح ما عسى أن يكون أخطاء التوفيق في إبراهيم^(٣) .

رابعاً : الشورى :

إن من قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحكامها مع المسلمين والزُّرول على رضاهم ، ورأيهم ، وإمساء نظام الحكم بالشوري ، قال تعالى : ﴿فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِيَنْتَلِهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَأَ غَلِيلَ الْقَلْبِ لَأَنْفَصُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأُمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَىَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وقال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ أَسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى : ٣٨] . وقد اتّخذ عثمان رضي الله عنه في دولته مجلساً للشوري يتّألف من كبار أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار^(٤) ، وقد طلب عثمان رضي الله عنه من العمال ، والقادة قائلاً : أمّا بعد : فقوموا على ما فارقتم عليه عمر ، ولا تبدّلوا ، ومهما أشكل عليكم ؛

(١) الدولة والسيادة ، د . فتحي عبد الكريم ، ص (٢٦٨) .

(٢) مسند الإمام أحمد ، الموسوعة الحديثية ، رقم (٥٢٤) .

(٣) الدولة والسيادة ، ص (٣٧٩) .

(٤) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٢٧٧/١) .

فردُوه إلينا نجمع عليه الأمة ، ثم نرده عليكم^(١) ، فأخذ قادته بذلك ، فكانوا إذا همُوا بالغزو ، والتقى في الفتوحات الإسلامية؛ استأذنوه ، واستشاروه ، فيقوم هو بدوره بجمع الصحابة ، واستشارتهم للإعداد ، والإقرار ، والتنفيذ ، ووضع الخطط المناسبة لذلك ، ومن ثم يأذن لهم^(٢) ، فقد قام عبد الله بن أبي سرح ، بالكتابة إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه طالباً منه أن يأذن له بأن يغزو أطراف إفريقية ، وذلك لقرب جزر الرؤوم من المسلمين ، فأجابه الخليفة عثمان إلى ذلك بعد المشورة ، وندب إليه الناس^(٣) ، كما أنَّ معاوية بن أبي سفيان حين أراد فتح جزيرة قبرص ، ورودس ؟ فعل الشيء نفسه في استشارة القيادة العليا المركزية ، وطلب الإذن بالسماح له ، ولم يأته الجواب إلا بعد انعقاد مجلس الشُّورى ، وبحثه في الموضوع ، ومن ثم السماح له^(٤) .

وكان قادة الخليفة عثمان رضي الله عنه في إدارتهم للمعارك الحربية يتشارون فيما بينهم^(٥) . كما شاور عثمان كبار الصحابة في جمع القرآن ، وفي قتل عبيد الله بن عمر للهرمزان ، وحول التَّدابير الكفيلة بقطع دابر الفتنة ، وفي مقام القضاء ، وغير ذلك من المواقف ، والأحداث التي سيأتي بيانها في محلها بإذن الله .

خامساً : العدل والمساواة :

إنَّ من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النَّظام الإسلاميَّ التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم ، ومن أهم هذه القواعد : العدل ، والمساواة ، فقد كتب ذو الورين إلى الناس في الأمصار ، أن اتّمرروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، ولا يُذل المؤمن نفسه ، فإنَّى مع الضعيف على القوي ما دام مظلوماً إن شاء الله^(٦) . فقد كانت سياساته تقوم على العدل بأسمى صوره ، فقد أقام الحدَّ على والي الكوفة الوليد بن عقبة (أخوه لأمِّه) ، عندما شهد عليه الشهود بأنَّه شرب الخمر ، وعزله عن الولاية بسبب ذلك ، وسيأتي تفصيل هذه القصة بإذن الله ، وقوله بتولية أبي موسى الأشعري مكانه ؛ لأنَّ أهل الكوفة لم يوافقوا على تولية سعيد بن العاص خلفاً للوليد ، وقد روي عنه أيضاً : أنه غضب على خادم له يوماً ، فعرك أذنه ، حتى أوجعه ، ولم يستطع أن ينام ليته آنذاك إلا بعد أن دعا خادمه إلى مضجعه ، وأمره أن يقتصرَ منه ، فيعرك أذنه ،

(١) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (١/٢٧٧) نقلًا عن تاريخ الطبرى .

(٢) فتوح مصر ، ص (٨٣) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (١٨٣) .

(٤) الإدارة العسكرية (١/٢٧٨) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) تاريخ الطبرى (٤/٤١٤) .

وقد أبى الخادم في بادئ الأمر ، ولكن عثمان أمره ثانيةً في حزم ، فأطاعه^(١) .
سادساً : الحرّيات :

مبدأ الحرية من المبادئ الأساسية التي قام عليها الحكم في عهد الخلفاء الرّاشدين ، ويقضي هذا المبدأ بتأمين وكفالة الحرية العامة للناس كافةً ضمن حدود الشريعة الإسلامية ، وبما لا يتناقض معها ، فقد كانت دعوة الإسلام لحرية الناس ، جميع الناس دعوةً واسعةً ، وعريضةً قلماً تشمل على مثلها دعوةً في التاريخ ، وفي عهد الخلفاء الرّاشدين كانت الحرّيات العامة المعروفة في أيامنا معلومةً ، ومصونةً^(٢) ، كحرية العقيدة الدينية ، وحرية التنقل ، وحقّ الأمان ، وحرمة المسكن ، وحرّية الملكية ، وحرية الرأي .

سابعاً : الاحتساب :

اهتمَ أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالاحتساب بنفسه كما أستدنه إلى غيره ، فقد ثبت
قيامه رضي الله عنه بالاحتساب في مجالاتٍ عدّة منها :

١- إنكاره على لبس التّوب المعصفر :

ومن احتسابه رضي الله عنه : أنه أنكر على محمد بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لبسه التّوب المعصفر ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : راح عثمان رضي الله عنه إلى مكّة حاجاً ، ودخلت على محمد بن جعفر بن أبي طالب امرأته ، فباتت معها حتّى أصبح غداً عليه ردع^(٣) ، الطّيب ، ولحفةٌ معصفرةٌ مفدمّة^(٤) ، فأدرك الناس بمللٍ^(٥) ، قبل أن يرّوحوا؛ فلما رأه عثمان رضي الله عنه انتهر ، وأفف ، وقال : أتبس المعصفر ، وقد نهى عنه رسول الله ﷺ^(٦) ! .

٢- إنكاره على قاصدات العمرة والحجّ وهنَ في العدة :

ومن احتسابه رضي الله عنه أنه كان يرد النساء اللّواتي كنَّ يخرجن للعمرة ، أو الحجّ ، وهنَ في العدة ، فقد روى الإمام عبد الرزاق عن مجاهد ، قال : كان عمر ، وعثمان رضي الله عنهما يُرجعون حواجاً ومتّمراتٍ من الجحّة ، وذى الحلبة^(٧) .

(١) نظام الحكم في عهد الخلفاء الرّاشدين ، حمد محمد الصّمد ، ص (١٤٩) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (١٥٧ ، ١٥٨) .

(٣) ردع : لطخ وأثر .

(٤) مفدمّة : مشبعة حمرة .

(٥) ملل : موضع بين مكّة والمدينة .

(٦) المسند ، رقم (٥١٧). قال أحمد شاكر: إسناده صحيح. انظر : تعليقات الشيخ على المسند (١/٣٨٤).

(٧) المصطف ، رقم (١٢٠٧١) .

٣- أمره بذبح الحمام :

ومن احتسابه : أَنَّهُ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْأَشْغَالِ فِي طِيرَانِ الْحَمَامِ^(١) ، لَمَّا بَدَأُوا فِيهِ مَعْ سَعَةِ الْعِيشِ ، وَأَمْرَهُمْ بِذَبْحِهِ ، فَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ الْبَخَارِيُّ عَنِ الْحَسْنِ ، قَالَ : سَمِعْتُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَأْمُرُ فِي خُطْبَتِهِ بِقَتْلِ الْكَلَابِ ، وَذَبْحِ الْحَمَامِ^(٢) .

٤- احتسابه على اللَّعب بالثَّرد :

كان عثمان رضي الله عنه ينهى عن اللَّعب بالثَّرد ، وأمرهم بتحريقه ، أو كسره ممَّن كان في بيته ، فقد روى الإمام البهقي عن زيد بن الصَّلت ، أَنَّهُ سَمِعَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْمَيْسِرُ - يَرِيدُ الثَّرْدَ - إِنَّهَا قَدْ ذُكِرَتْ لِي : أَنَّهَا فِي بَيْوَتِ النَّاسِ مِنْكُمْ ، فَمَنْ كَانَ فِي بَيْتِهِ ؟ فَلِيحرِقُهَا ، أَوْ فَلِيكُسرُهَا . وَقَالَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَّةً أُخْرَى وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنِّي قَدْ كَلَمْتُكُمْ فِي هَذَا الثَّرْدَ ، وَلَمْ أَرْكِمْ أَخْرَجْتُمُوهَا ، فَلَقَدْ هَمِمْتُ أَنْ أَمْرَ بِحَرْمِ الْحَطَبِ ، ثُمَّ أَرْسَلْتُ إِلَى بَيْوَاتِ الَّذِينَ هُمْ فِي بَيْوَاتِهِمْ ، فَأَحْرَقُهَا عَلَيْهِمْ^(٣) .

٥- إخراجه من يراه على شَرٍّ ، أو يشهر سلاحًا في المدينة :

ومن احتسابه أيضاً : أَنَّهُ كَانَ يَنْكِرُ عَلَى مَنْ يَرَاهُ عَلَى شَرٍّ ، أَوْ كَانَ يَحْمِلُ مَعَهُ سِلَاحًا ، وَيَخْرُجُهُ مِنَ الْمَدِينَةِ ، فَعَنْ سَالِمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : وَجَعَلَ عُثْمَانَ لَا يَأْخُذَ أَحَدًا مِنْهُمْ عَلَى شَرٍّ ، أَوْ شَهَرَ سِلَاحٍ عَصَافِمَا فَوْقَهَا إِلَّا سَيِّرَهُ^(٤) .

٦- ضربه لمن استخفَ بِعَمَّ النَّبِيِّ ﷺ :

فِي أَيَّامِ خِلَافَتِهِ ضَرَبَ رَجُلًا فِي مَنَازِعَةٍ اسْتَخْفَ فِيهَا بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطَلِّبِ عَمِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَلَيلٌ لَهُ عَنْ مَبَرَّاتِ ضُرْبِهِ . فَقَالَ : نَعَمْ ! أَيْفَخَمْ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَمَّهُ ، وَأَرْخَصَ فِي الْاسْتَخْفَافِ بِهِ ، لَقَدْ خَالَفَ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَمَنْ رَضِيَ بِهِ مِنْهُ^(٥) .

٧- نهيِه عن الخمر ؛ لأنَّه أمُّ الْخَبَائِثِ :

روى النسائي في سننه ، والبهقي في سننه عن عثمان بن عفَّانَ رضي الله عنه أَنَّهُ قال :

(١) تاريخ الطبرى (٤١٥/٥) .

(٢) الأدب المفرد ، باب ذبح الحمام ، رقم (١٣٠٧) .

(٣) السنن الكبرى ، كتاب الشهادات (٢١٥/١٠) .

(٤) تاريخ الطبرى (٤١٦/٥) معظمه هذه الفقرة أخذتها من كتاب الحسبة في العصر التبوي ، والمعهد الراشدي للدكتور فضل إلهي .

(٥) تاريخ الطبرى (٤١٧/٥) .

اجتبوا الخمر ؛ فإنَّها أُمُّ الْخَبَائِثِ ، إنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مَمَنْ خَلَا قَبْلَكُمْ يَتَعَبَّدُ ، فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةُ أَغْوَتْهُ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : إِنَّهَا تَدْعُوكَ لِلشَّهَادَةِ ، فَانطَّلَقَ مَعَ جَارِيَتَهَا ، فَطَفَقَ كَلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ ، حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيَّةً ، عَنْهَا غَلامٌ ، وَبَاطِيَةُ خَمْرٍ ، فَقَالَتْ : وَاللهِ مَا دَعَوْتُكَ لِلشَّهَادَةِ ، وَلَكِنْ دَعْوَتُكَ لِتَقْعِدَ عَلَيَّ ، أَوْ تَشْرُبَ مِنْ هَذِهِ الْخَمْرَ كَأسًا ، أَوْ تَقْتَلَ هَذَا الْغَلامُ ، قَالَ : فَاسْقُنِي مِنْ هَذِهِ الْخَمْرِ كَأسًا ، فَسَقَتْهُ كَأسًا ، قَالَ : زَيْدُونِي ، فَلَمْ يَرْمُ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا ، وَقُتِلَ الْغَلامُ ! فَاجْتَبَوَا الْخَمْرَ ، فَإِنَّهَا وَاللهِ لَا يَجْتَمِعُ الإِيمَانُ وَإِدْمَانُ الْخَمْرِ إِلَّا وَيُوشِكُ أَنْ يَخْرُجَ أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ^(١) !

٨- من خطب عثمان في المجتمع ومن حكمه :

أ- خطبة في الاستعداد ل يوم المعاذ :

يقول الحسن البصري - رحمه الله - : خطب عثمان بن عفان ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ! اتقوا الله ، فإنَّ تقوَى اللهُ غُنْمٌ ، وإنَّ أَكْيَسَ النَّاسَ مِنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَأَكْتَسَبَ مِنْ نُورِ اللهِ نُورًا لِظُلْمَةِ الْقَبْرِ ، وَلِيَخْشَى عَبْدٌ أَنْ يَحْشُرَهُ اللهُ أَعْمَى ، وَقَدْ كَانَ بَصِيرًا ، وَقَدْ يَكْفِيُ الْحَكِيمُ جَوَامِعَ الْكَلَامِ ، وَالْأَصْصُمُ يَنَادِي مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، وَاعْلَمُوا : أَنَّ مَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ لَمْ يَخْفِ شَيْئًا ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ ؟ فَمَنْ يَرْجُو بَعْدَهُ^(٢) ؟ !

وعن عثمان رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ الْجَمَاءَ لَتُقصَّ مِنَ الْقُرْنَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٣).

ب- التَّذَكِيرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ :

قال عثمان رضي الله عنه: إِنَّا وَاللهِ صَحْبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي السَّفَرِ ، وَالْحَاضِرِ ، فَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانًا ، وَيَشْيَعُ جَنَائزَنَا ، وَيَغْزُو مَعَنَا ، وَيَوَاسِيْنَا بِالْقَلِيلِ ، وَالْكَثِيرِ ، وَإِنَّ نَاسًا يَعْلَمُونِي بِهِ ، عَسَى أَلَا يَكُونُ أَحَدُهُمْ رَآهُ قَطُّ^(٤) .

ج- من حكمه التي سارت بين الناس :

* قال رضي الله عنه: لو طهرت قلوبنا ، ما شبعتم من كلام ربكم^(٥) .

(١) سنن النسائي ، كتاب الأشربة ، موسوعة فقه عثمان ، ص (٥٢) .

(٢) صحيح التوثيق في سيرة وحياة ذي الثورين ، ص (١٠٧) .

(٣) الموسوعة الحديثية في مستند أَحْمَدَ ، رقم (٥٢٠) .

(٤) صحيح التوثيق في سيرة وحياة ذي الثورين ، ص (١٠٧) .

(٥) جامع العلوم والحكم ، ص (٣٦٣) .

- * وقال رضي الله عنه : مأسراً أحذ سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه^(١) .
- * إنَّ اللَّهَ لِيَزُغُّ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَنْعَزُ بِالْقُرْآنِ^(٢) .
- * وكان رضي الله عنه لا يقيم للدنيا وزناً ، فقال فيها : (هُمُ الدُّنْيَا ظُلْمَةٌ فِي الْقَلْبِ ، وَهُمُ الْآخِرَةُ نُورٌ فِي الْقَلْبِ)^(٣) .
- * ومن حكمه البالغة : يكفيك من الحاسد أَنْ يَعْتَمِّ وَقْتُ سُرُورِكَ^(٤) .
- * وقال رضي الله عنه في أيام الفتنة : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنْ كُنْتُ ظَلِمْتُ ، وَقَدْ عَفَوْتُ إِنْ كُنْتُ ظَلِمْتُ^(٥) .
- * ومن حكمه ، ومواعظه رضي الله عنه : إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ آفَةً ، وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ عَاهَةً ، وَإِنَّ آفَةَ هَذَا الدِّينِ ، وَعَاهَةَ هَذِهِ النِّعْمَةِ عِيَابُونَ صَغَانُونَ ، يُرِونَكُمْ مَا تَحْبُّونَ ، وَيُسِّرُّونَ مَا تَكْرُهُونَ ، طَغَامٌ مُثْلِّلُونَ^(٦) .
- * ولما قدم عبد الله بن الزبير بفتح إفريقية ، أمره عثمان بن عفان رضي الله عنه فقام خطيباً ، فلما فرغ من كلامه ، قال عثمان : انحرعوا النساء على آبائهنَّ ، وإن خوتنهنَّ ، فإني لم أر في ولد أبي بكر الصديق أشبه به من هذا^(٧) ، وعبد الله بن الزبير أمه أسماء بنت أبي بكر ، ويريد أنَّ ابن الزبير كان شبهاً بجده في الشجاعة ، والإقدام ، والفصاحة^(٨) .
- * وقال رضي الله عنه : ما من عامل يعمل عملاً إلا كساه الله رداء عمله^(٩) .
- * وقال رضي الله عنه : إِنَّ الْمُؤْمِنَ فِي خَمْسَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْخَوْفِ : أَحْدَهَا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَأْخُذَهُ إِيمَانُهُ ، وَالثَّانِي مِنْ قَبْلِ الْحَفْظَةِ أَنْ يَكْتُبُوا عَلَيْهِ مَا يَفْتَضِّحُ بِهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَالثَّالِثُ مِنْ قَبْلِ الشَّيْطَانِ أَنْ يَبْطُلَ عَمَلَهُ ، وَالرَّابِعُ مِنْ قَبْلِ مَلْكِ الْمَوْتِ أَنْ يَأْخُذَهُ فِي غُفْلَةٍ بَعْتَهُ ، وَالخَامِسُ
-
- (١) فرائد الكلام للخلفاء الكرام ، ص (٢٦٩) .
- (٢) الكامل في اللغة والأدب (١٥٧/١) .
- (٣) الاستعداد ليوم المعاذ ، ص (٩) .
- (٤) مجمع الأمثال ، للميداني (٤٥٣/٢) .
- (٥) تاريخ خليفة بن خياط ، ص (١٧١) .
- (٦) مجمع الأمثال ، للميداني (٤٥٣/٢٠) .
- (٧) البيان والتبيين (٢/٩٥) .
- (٨) فرائد الكلام ، ص (٢٧١) .
- (٩) الرُّهْد ، للإمام أحمد ، ص (١٨٥) .

من قبل الدنيا أن يغترّ بها ، وتشغله عن الآخرة^(١) .

* وقال رضي الله عنه : وجدت حلاوة العبادة في أربعة أشياء : أولها في أداء فرائض الله ، والثاني في اجتناب محارم الله ، والثالث في الأمر بالمعروف ابتغاء ثواب الله ، والرابع في النهي عن المنكر اتقاء غضب الله^(٢) .

٩ - عثمان رضي الله عنه والشعر والشعراء :

لم تذكر لنا المصادر والمراجع سوى التّراث القليل عن علاقة عثمان رضي الله عنه مع الشعر ، والشعراء ، مع أنّ فترة خلافته كانت طويلة نسبياً ، ومن هذا القليل تبيّن لنا أنّه كان ملتزماً المنهج العام للعقيدة الإسلامية التي وضح معاليمها الرّسول ﷺ والتي سلك طريقها سلفه أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم ، ولا شكّ : أنّ لكلّ منهم شخصيّة الأدبية المميزة ، فقد اشتهر أبو بكر بمعرفة الأنساب ، وبعلمه الوافر ، وحسن مجالسته ، وبروايته للشعر ، واشتهر عمر بالحثّ على تعلم الشعر ، وأنّه لم تكن تعرض له قضيّة إلا تمثّل بيته شعر ، أضف إلى ذلك : أنّه كان شاعراً ، أمّا عثمان بن عفان - رضوان الله عليه - فلم يؤثّر عنه ذلك الانغماس الكبير في الشعر ، أو تلك العلاقة الحميمة مع الشعراء ، وإذا كنا نعرف : أنّ الشعراء كانوا يتّهافتون على أبواب الأمراء طمعاً برضاهem ، وبأعطائهم ، فإننا نرى : أنّ الشعراء أيام عثمان ، يتركون الحواضر ، ودار الخلافة ويؤثرون العودة إلى البداد^(٣) ، وقد ذكرت كتب الأدب ، والتّاريخ بعض الأبيات نسبتها إلى عثمان ، أو كان يتمثّل بها ، ومن هذه الأبيات ما يروى أنّه قال :

وَاعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَصُنْعِنِي صُنْعٌ وَلَا يَخْفَى عَلَيَّهِ مُلْحَدٌ
وكان كثيراً ما ينشد أبياتاً قالها ، ويطيل ذكرها ، لا تعرف لغيره :

تَفَنَّى الْلَّذَائِذُ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا مِنَ الْحَرَامِ وَيَبْقَى الإِثْمُ وَالْعَارُ
يَلْقَى عَوَاقِبَ سُوءِ مِنْ بَعْدِهَا نَارٌ^(٤)
قال يوم دخل عليه الشّاثرون في بيته ليقتلوه :

أَرَى الْمَوْتَ لَا يَئِقِي عَزِيزًا وَلَمْ يَدْعَ لِعَادَ مَلَادًا فِي الْبِلَادِ وَمَرْتَعًا^(٥)

(١) فرائد الكلام للخلفاء الكرام ، ص (٢٧٨) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (٢٧٨) .

(٣) أدب صدر الإسلام ، واضح الصّمد ، ص (٩٩) .

(٤) شعراء الخلفاء ، نبال تيسير الخماس ، ص (٢٧) .

(٥) البداية والنهاية (١٩٢/٧) .

وقال لما حاصر في داره :

بِيَبَيْتُ أَهْلَ الْحِضْنِ وَالْحِضْنُ مُعْلَقٌ
وَيَأْتِي الْجِبَالَ الْمَوْتُ شِمْرَاخَهَا الْعَلَا^(١)
ويروى له أيضاً :

غَنِيَ التَّقْسِ يُعْنِي النَّفْسَ حَتَّى يَكُفَّهَا
وَمَا عُسْرَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا إِنْ لَقِيَتَهَا
وَنَلَاحِظُ فِي الْبَيْتِ الْآخِيرِ ، أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى قُرْآنِيَاً : « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » [الشرح : ٦] وهذا
لِيُسْرًا غَرِيباً عَلَى الْخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِ ، الَّذِي نَشَأَ ، وَتَرَعَّرَ فِي أَحْضَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَهُوَ يَعْاقِبُ عَلَى
شِعْرِ الْهَجَاءِ الَّذِي يَتَعَارَضُ ، وَأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَيُشَنِّي عَلَى الشِّعْرِ الْحَسَنِ ، وَيَحْبُّ
الْاسْتِمَاعَ إِلَيْهِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ ضَمِنَ الْمَفَاهِيمِ الْإِسْلَامِيَّةِ^(٢) .

وَإِذَا كَانَ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ ثَالِثُ لَمْ يَهْتَمْ بِالشِّعْرِ ، وَلَمْ يَقْرَبْ إِلَيْهِ الشُّعْرَاءَ ، فَإِنَّ مَقْتَلَهُ مِنْ قَبْلِ
الْغَوَاغِءِ فَتَحَ الْبَابُ عَلَى مَصْرَاعِهِ لِازْدَهَارِ الشِّعْرِ السِّيَاسِيِّ الَّذِي أَصْبَحَ الْأَدَاءَ الصَّحَافِيَّةَ الْفَاعِلَةَ فِي
الْعَصُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُتَلَاحِقَةِ ، فَعِنْدَ مَقْتَلِهِ بَكَاهُ كَثِيرٌ مِنْ شُعْرَاءِ الصَّحَافَةِ^(٣) وَسِيَّاتِي بِيَانِ ذَلِكَ
بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

(١) المـصـدر السـائـيق نـفـسه .

(٢) أدـب صـدر إـسلام ، واـضح الصـمد ، ص (١٠٢) .

(٣) الأـدب إـسلامـي ، د . نـاـيف مـعـرـوف ، ص (١٩٠) .

المبحث الثالث

أهم صفاته

إنَّ شخصيَّةِ ذي التُّورين تعبَّرُ شخصيَّةَ قياديَّةً ، وقد أثْصَفَ رضي الله عنَّه بصفاتِ القائد الرَّبَّاني ، ونَجَّمَلَها في أمورٍ ، ونَرَكَّزَ على بعضِها بالتفصيل ، فَمِنْ أَهْمَّ هَذِه الصَّفَاتِ : إِيمَانَه العظيمَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ ، وَالْقُوَّةُ بِاللهِ ، وَالْقُدُوْسُ ، وَالصَّدَقَةُ ، وَالْكَفَاعَةُ ، وَالشَّجَاعَةُ ، وَالْمَرْوِعَةُ ، وَالرَّهْدُ ، وَحُبُّ التَّضْحِيَةِ ، وَالتَّوَاضُعُ ، وَقَبْوُلُ النَّصِيحَةِ ، وَالْحَلْمُ ، وَالصَّبَرُ ، وَعَلُوُّ الْهَمَّةِ ، وَالْحَزْمُ ، وَالْإِرَادَةُ الْقَوِيَّةُ ، وَالْعَدْلُ ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى حَلِّ الْمُشَكَّلَاتِ ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى التَّعْلِيمِ ، وَإِعْدَادِ الْقَادِّةِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الصَّفَاتِ ، وَيُسَبِّبُ مَا أُودِعُ اللهُ فِيهِ مِنْ صَفَاتِ الْقِيَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ اسْتِطَاعَ أَنْ يَحْفَظَ عَلَى الدُّولَةِ ، وَيَقْعُدَ الْتُورَاتُ الَّتِي حَدَثَتِ فِي الْأَرْضِيَّةِ الْمُفْتَوَّحةِ ، وَيَتَّقَلُ بِفَضْلِ اللهِ ، وَتَوْفِيقِهِ بِالْأَمَّةِ نَحْوَهَا الْمَرْسُومَةِ بِخُطُوطِ ثَابِتَةٍ ، وَمِنْ أَهْمَّ

تَلْكَ الصَّفَاتِ الَّتِي نَحَاوَلُ تَسْلِيْطَ الأَضْوَاءِ عَلَيْهَا فِي هَذَا الْمَبْحَثِ هِيَ :

أولاًً : الْعِلْمُ ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى التَّوَجِيهِ ، وَالْتَّعْلِيمِ :

يعتبر عثمان رضي الله عنه من كبار علماء الصحابة في القرآن الكريم ، والسنّة البوئية ، وسيأتي الحديث عن اجتهاداتِه الفقهية في المجال القضائي ، والمالي ، والجهادي بإذن الله تعالى ، وكان رضي الله عنه حريصاً على اتباع هدي النبي ﷺ وأبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما ، فعن عروة بن الزبير : أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَدَىَ بْنَ الْخَيَارِ أَخْبَرَهُ : أَنَّ الْمُسَوْرَ بْنَ مُخْرَمَةَ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْأَسْوَدِ بْنَ عَبْدِ يَغْوِثِ قَالَ لَهُ : مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَكَلَّمَ خَالَكَ ، يَكَلِّمُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ ، وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسَ فِيمَا فَعَلَ ؟ قَالَ : عُبَيْدُ اللَّهِ : فَاعْتَرَضَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ حِينَ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ ، فَقَلَّتْ لَهُ : إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً ، هِيَ نَصِيحةً . قَالَ : قَالَ : يَا أَيُّهَا الْمَرءُ ! إِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ ! قَالَ : فَانْصَرَفَتْ ، فَلَمَّا قَضَيْتِ الصَّلَاةَ جَلَستِ إِلَى الْمُسَوْرِ ، وَابْنِ عَبْدِ يَغْوِثِ ، فَحَدَّثَتَهُمَا بِالَّذِي قَلَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَالَ لِي ، فَقَالَا : قَدْ قَضَيْتِ الَّذِي عَلَيْكَ ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ مَعَهُمَا جَاءَنِي رَسُولُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ ، فَقَالَا لِي : قَدْ ابْتَلَاكَ اللَّهُ ، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى عُثْمَانَ ، فَقَالَ : مَا نَصِيحتُكَ الَّتِي ذَكَرْتَ لِي آنَفًا ؟ قَالَ : فَتَشَهَّدَتْ ، ثُمَّ قَلَتْ لَهُ : إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، فَكُنْتَ مَمِّنْ اسْتَجَابَ لِللهِ ، وَلِرَسُولِهِ ﷺ ، وَرَأَيْتَ هَدِيهِ ، وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي شَأنِ الْوَلِيدِ ، فَحَقٌّ عَلَيْكَ أَنْ تَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدَّ ، قَالَ : فَقَالَ لِي : أَبْنَ أَخْتِي ! أَدْرَكْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ؟ قَالَ : فَقَلَتْ : لَا ، وَلَكِنْ

خلص إلى من علمه واليقين ما يخلص إلى العذراء في سترها . قال : فتشهد ، ثم قال : أمّا بعد : فإن الله بعث محمداً بالحق ، فكنت ممن استجاب الله ، ولرسوله ، وأمن بما بعث محمد عليه ثم هاجرت الهجرتين ، كما قلت ، ونزلت صهر رسول الله عليه وبايعت رسول الله عليه فوالله ما عصيته ، ولا غشته ، حتى توفاه الله ! ثم استخلف بعده أبو بكر ، فبايعناه ، فوالله ما عصيته ، ولا غشته ؟ حتى توفاه الله ! ثم استخلف عمر ، فوالله ما عصيته ، ولا غشته ؟ حتى توفاه الله ! ثم استخلفني الله ؟ أليس لي عليكم مثل الذي كان لهم علي ؟ قال : فقلت : بلى ! قال : فما هذه الأحاديث التي تبلغني عنكم ؟ فأمّا ما ذكرت من شأن الوليد فستأخذ فيه إن شاء الله بالحق ، قال : فجلد الوليد أربعين سوطاً ، وأمر علياً بجلده ، فكان هو يجلده^(١) .

لقد لازم ذو التورين النبي عليه فاستفاد من علمه ، وهديه مما جعله من كبار علماء الصحابة رضي الله عنهم جميعاً ، وكان رضي الله عنه قادرًا على توجيهه رعيته توجيهًا مفيدًا ، وتعليمهم واجباتهم ، ونقل آرائه النابعة من علمه ، وخبرته ، وتجاربه ، وممارسته إليهم ؛ حتى يرتفعوا في مجال الدعوة ، والتربية ، والجهاد ، والتعليم ، والاستعداد للقاء الله - عز وجل - ، ومن توجيهات عثمان رضي الله عنه ما تضمنته خطبة خلافته التي قال فيها بعد أن حمد الله ، وأنني عليه ، وصلى على النبي عليه : إنكم في دار قلعة ، وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم ، صبحتم أو مسيتم ، لا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ، ولا تغفلوا ، أين أبناء الدنيا ، وإخوانها الذين أثاروها ، وعمروها ، ومؤتون بها طويلاً ، ألم تلفظهم ؟ ! ارموا الدنيا بالذى هو خير^(٢) ، فقال تعالى : «وَأَضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَّا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْنَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ فَاصْبَحَ هَشِيمًا نَذَرُوهُ الْيَتِيمَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا ﴿٦﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَيْقَيْنُ الصَّلِحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثُوابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا » [الكهف : ٤٥ - ٤٦] .

ولقد كان المعنى الذي يدور حوله توجيه الخليفة الثالث رضي الله عنه في هذه الخطبة هو الحضُّ على الإقبال على الله ، والرُّهُد في الدنيا ، وهذا هو المناسب لخطبته في ذلك الوقت الذي ألقى فيه الإسلام بجرانه في أقطار المعمورة ، وفتحت البلدان ، وأقبلت الدنيا بنعيمها ، وبدأ الناس في التنافس فيها ، وبخاصة غير أصحاب رسول الله عليه ، فكان المقال مناسباً للمقام^(٣) . وقد روى عثمان رضي الله عنه أحاديث عن رسول الله ، انتفع بها الأمة ، فهذا أبو عبد الرحمن السُّلْمَيْ يحدّثنا عن حديث سمعه من عثمان ، فعمل به ، فعن سعد ابن عبيدة عن

(١) فضائل الصحابة (١/٥٩٧) ، رقم (٧٩١) إسناده صحيح .

(٢) البداية والنهاية (٧/١٥٣) .

(٣) الكفاءة الإدارية في السياسة الشرعية ، للقادري ، ص (٩٣) .

أبي عبد الرحمن السُّلْمَيْ عن عثمان رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال : « خيركم من تعلم القرآن ، وعلمه »^(١) . قال : وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان حتَّى كان الحجاج ، قال : وذاك الذي أقعدني مقدعي هذا ، وفي رواية عن شعبة ، قال أبو عبد الرحمن : فذاك الذي أقعدني مقدعي هذا ، وكان يعلم القرآن^(٢) ، وكان عثمان رضي الله عنه يروي أحاديث رسول الله للمسلمين كلُّ في محله و المناسبته ، ومن هذه الأحاديث :

١- أهمية الموضوع :

توضأ عثمان على البلاط ، ثمَّ قال : لأحدُنَّكُمْ حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، لولا آيةٌ في كتاب الله ؛ ما حدثكموه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من توضأ ، فأحسن الوضوء ، ثمَّ دخل ، فصلَّى ؛ غفر له ما بينه وبين الصَّلاة الأخرى ؛ حتَّى يصلِّيها »^(٣) .

٢- اتباعه لرسول الله ﷺ في الموضوع :

عن حمران بن أبان عن عثمان بن عفَّان : أَنَّه دعا بما ، فتوَّضاً ، ومضمض ، واستنشق ، ثمَّ غسل وجهه ثلاثاً ، وذراعيه ثلاثاً ثلاثاً ، ومسح برأسه ، وظهر قدميه ، ثمَّ ضحك ، فقال لأصحابه : ألا تسألوني عمَّا أضحكني ؟ فقالوا : ممَّ ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيت رسول الله ﷺ دعا بما قريباً من هذه البقعة ، فتوَّضاً كما توضأ ، ثمَّ ضحك ، فقال : « ألا تسألوني ما أضحكني ؟ » فقالوا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَعَا بِوْضُوءٍ ، فغسل وجهه ؛ حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ خَطِيئَةٍ أَصَابَهَا بِوْجْهِهِ ، إِذَا غسل ذراعيه ؛ كَانَ كَذَلِكَ ، وَإِنْ مسح برأسه ؛ كَانَ كَذَلِكَ ، وَإِنْ طَهَرَ قدميه ؛ كَانَ كَذَلِكَ »^(٤) .

٣- كفارات الموضوع :

عن عثمان قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتمَ الوضوء كما أمره الله عزَّ وجلَّ ، فالصلوات المكتوبات كفاراتٌ لما بينهنَّ »^(٥) .

٤- الوضوء وصلة ركعتين وغفرة الذنوب :

دعا عثمان بما وهو على المقاعد ، فسكب على يمينه ، فغسلها ، ثمَّ أدخل يمينه في

(١) البخاريُّ ، رقم (٥٠٢٨) .

(٢) الخلافة الرَّاشدة ، د . يحيى اليحيى ، ص (٤٢٠ ، ٤٢١) .

(٣) الموسوعة الحديثية ، مسنَدُ أَحْمَدَ ، رقم (٤٠٠) إسناده صحيح .

(٤) الموسوعة الحديثية ، مسنَدُ أَحْمَدَ ، رقم (٤١٥) صحيحٌ لغيره .

(٥) المصدر السَّابِقُ نفسه ، رقم (٤٠٦) إسناده صحيح .

الإماء ، فغسل كفَّيه ثلثاً ، ثمَّ غسل وجهه ثلاث مراتٍ ، ثمَّ مسح برأسه ، ثمَّ غسل رجليه إلى الكعبين ثلاث مراتٍ ، ثمَّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من توضأنا هو وضوئي هذا ، ثمَّ صلَّى ركعتين ، لا يحدُث نفسه فيهما ؛ غفر الله له ما تقدم من ذنبه »^(١) .

٥- كلمة الإخلاص ، وكلمة التقوى :

قال عثمان رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلْمَةً لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ حَقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حُرِمَ عَلَى النَّارِ » . فقال له عمر بن الخطاب : أنا أحدثك ما هي ؟ هي كلمة الإخلاص ، التي أزمهها الله - تبارك وتعالى - مُحَمَّدًا ﷺ ، وأصحابه ، وهي كلمة التقوى ؛ التي ألاص^(٢) عليها نبِيُّ الله ﷺ عمَّه أبا طالبٍ عند الموت : شهادة أن لا إله إلا الله^(٣) .

٦- العلم بالله يدخل العبد الجنة :

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : من مات ؛ وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة^(٤) .

٧- الحسنات ، والباقيات :

عن الحارث مولى عثمان ، قال : جلس عثمان يوماً ، وجلسنا معه ، فجاءه المؤذن ، فدعا بماء في إناء ، أطْلُهُ سيسكون فيه مُدُّ ، فتوضاً ، ثمَّ قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ، ثمَّ قال : « ومن توضأ وضوئي هذا ، ثمَّ قام فصلَّى صلاة الظُّهر ؛ غفر له ما كان بينها وبين الصُّبْح ، ثمَّ صلَّى العصر ؛ غُفر له ما بينها وبين صلاة الظُّهر ، ثمَّ صلَّى المغرب ؛ غُفر له ما بينها وبين صلاة العصر ، ثمَّ صلَّى العشاء ؛ غفر له ما بينها وبين صلاة المغرب ؛ ثمَّ لعلَّه أن يبيت يتمرَّغ ليته ، ثمَّ إن قام ، فتوضاً ، وصلَّى الصُّبْح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهنَّ الحسنات يُذهبن السُّيُّونات ». قالوا : هذه الحسنات ، فما الباقيات يا عثمان ؟ قال : هنَّ : (لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ، ولا قوَّةٌ إِلَّا بالله)^(٥) .

٨- خطورة الكذب على رسول الله ﷺ :

عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعمَّدَ عَلَيَّ كَذِبًا ؛ فَلَيَتَبُوأْ بِيَتًا في النَّارِ »^(٦) .

(١) المصدر السابق نفسه ، رقم (٤١٨) إسناده صحيح .

(٢) ألاصَّ : أداره عليها ، وراوده فيها .

(٣) مسنَدُ أحمد ، رقم (٤٤٧) إسناده قويٌّ .

(٤) مسنَدُ أحمد ، رقم (٤٦٤) إسناده صحيح .

(٥) المصدر السابق نفسه ، رقم (٥١٣) إسناده حسنٌ .

(٦) المصدر السابق نفسه ، رقم (٥٠٧) إسناده صحيح .

هذه بعض الأحاديث التي رواها عثمان عن رسول الله ﷺ ، وتدل على علم عثمان وحرصه على الاستزادة من الهدى النبوى ، وفقه الشريعة الغراء .

ثانياً : الحلم :

إن الحلم ركنٌ من أركان الحكم ، وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم في عدّة مواضع من القرآن الكريم ، كقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلُّوْ مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَّقْوَىَ الْجَمِيعَانِ إِنَّمَا أَسْتَرَ لَهُمُ الْشَّيْطَانُ بِعَضُّ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٥] . وقد بلغ رضي الله عنه في حلمه ، وعفوه الغاية المثلثة ، وكان الخليفة الرشاد عثمان بن عفان شديد الاقتداء في أقواله ، وأفعاله ، وأحواله برسول الله ﷺ ، وكانت له مواقف كثيرة ، تدل على حلمه ، وضبطه لنفسه ، ومن أوضح المواقف التي تدل على حلمه قصته في حصار الثائرين عليه ، حيث أمر منْ عنده من المهاجرين ، والأنصار أن ينصرفوا إلى منازلهم ، ويذعنوه ، وكانوا قادرين على منعه ، وكان حلمه مبيناً على شوقه إلى لقاء ربّه ، وإرادته حقن دماء المسلمين ، ولو بقتله^(١) .

ثالثاً : السماحة :

عن عطاء بن فروخ مولى القرشيين : أن عثمان رضي الله عنه اشتري من رجل أرضاً ، فأبطا عليه ، فلقيه فقال : ما منعك من قبض مالك ؟ قال : إنك غبني ، فما ألقى من الناس أحداً إلا وهو يلومني ، فقال : أو ذلك يمنعك ؟ قال : نعم ، قال : فاختر بين أرضك ، ومالك ، ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « أدخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشرياً ، وبائعاً ، وقاضياً ، ومقتصياً »^(٢) . فهذا مثلٌ رفيعٌ في السماحة في البيع والشراء ، وهو يدل على ما جبل عليه عثمان رضي الله عنه من الكرم ، وعدم التعلق بالدنيا ، فهو يستعبد الدنيا لخدمة مكارم الأخلاق ؛ التي من أهمها : الإيثار ، ولا تستعبد الدنيا ، فتجعل منه أنايتها يؤثر مصالحه الخاصة ؛ وإن أضرَّ بالناس^(٣) .

رابعاً : الدين :

امتنَ الله تعالى على رسوله ﷺ بأن رزقه صفة اللّيْن رحمةً منه به ، وعباده ، قال تعالى : ﴿ فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِنَتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظَاعَلِيظَ الْقَلِيلِ لَأَنَّفَضُوا مِنْ حَوْلَكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

أفادت الآية الكريمة : أنَّ صفة اللّيْن رحمةً من الله يرزقها من شاء من عباده ، وأنَّ

(١) الكفاءة الإدارية ، ص (٦٥) .

(٢) مسنـدـ أـحمدـ ، رقم (٤١٠) حـسـنـ لـغـيـرـهـ .

(٣) التـارـيخـ الـإـسـلـامـيـ (١٧، ١٢٦/١٨) .

الرسول ﷺ قد رُزق هذه الصفة رحمةً من الله به ، وبعبادـه الذين بعثـه إليـهم ، ويفهمـ من الآية : أنَّ المـتصف بالـلـذين يـحبـونـ الناس ، ويـلـتـقـونـ حولـه ، ويـقـبـلـونـ منه ماـيـأـمـرـهـمـ به ، أوـيـنـهـاـمـ عنـهـ (١) ، فالـلـذـينـ منـ الصـفـاتـ الطـيـبـةـ الـتـيـ اـتـصـفـ بهاـ عـثـمـانـ ، رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ ، فـكـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ لـيـنـاـ عـلـىـ رـعـيـتـهـ ، عـطـوـفـاـ عـلـىـ أـمـتـهـ ، يـخـافـ أـنـ يـصـابـ أـحـدـ دـوـنـ عـلـمـهـ ، فـلـاـ يـمـكـنـ مـنـ تـلـيـةـ حاجـتـهـ ، وـكـانـ يـتـبـعـ أـخـبـارـ النـاسـ ، فـيـنـصـرـ الضـعـيفـ ، وـيـأـخـذـ الـحـقـ منـ القـوـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ .

خامساً : العفو :

عن عمران بن عبد الله بن طلحة : أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج لصلاة الغداة، فدخل من الباب الذي كان يدخل منه، فرجمـهـ الـبـابـ ، فـقـالـ : انـظـرـواـ ، فـنـظـرـوـاـ ، فـإـذـ رـجـلـ مـعـهـ خـنـجـرـ ، أوـ سـيـفـ ، فـقـالـ لـهـ عـثـمـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ : مـاـ هـذـاـ؟ قـالـ : أـرـدـتـ أـنـ أـقـتـلـكـ . قـالـ : سـبـحـانـ اللـهـ! وـيـحـكـ عـلـامـ تـقـتـلـنـيـ؟ قـالـ : ظـلـمـنـيـ عـامـلـكـ بـالـيمـنـ ، قـالـ : أـفـلـاـ رـفـعـتـ ظـلـامـتـكـ إـلـيـ ، فـإـنـ لـمـ أـنـصـفـكـ - أوـ أـعـدـيـكـ - عـلـىـ عـاـمـلـيـ؟ أـرـدـتـ ذـلـكـ مـنـيـ؟ فـقـالـ لـمـنـ حـولـهـ : مـاـ تـقـولـونـ؟ فـقـالـواـ : يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ ! عـدـوـ أـمـكـنـكـ اللـهـ مـنـهـ . فـقـالـ : عـبـدـهـ بـذـنـبـ ، فـكـفـهـ اللـهـ عـنـيـ ، اـتـنـيـ بـمـنـ يـكـفـلـ بـكـ ، لـاـ تـدـخـلـ الـمـدـيـنـةـ مـاـ وـلـيـتـ أـمـرـ الـمـسـلـمـينـ ، فـأـتـاهـ بـرـجـلـ مـنـ قـوـمـهـ ، فـكـفـلـ بـهـ ، فـخـلـىـ عـنـهـ (٢) .

فـهـذـاـ تـسـامـحـ كـبـيرـ مـنـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ عـثـمـانـ بنـ عـفـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ ، حـيـثـ عـفـاـ عـمـنـ أـرـادـ قـتـلـهـ ، وـعـفـوـ عـنـ الـمـقـدـرـةـ صـفـةـ مـنـ صـفـاتـ الـكـمـالـ فـيـ الرـجـالـ ، وـهـوـ دـلـيلـ عـلـىـ التـجـرـدـ مـنـ حـظـ الـتـفـسـ ، وـتـقـلـصـ الـأـنـانـيـ ، وـضـعـفـ الـاـرـتـبـاطـ بـالـدـنـيـاـ ، وـقـوـةـ الـاـرـتـبـاطـ بـالـآـخـرـةـ ، وـهـذـاـ الـخـلـقـ إـضـافـةـ إـلـىـ أـنـهـ عـمـلـ صـالـحـ يـرـفـعـ مـنـ درـجـاتـ صـاحـبـهـ فـيـ الـآـخـرـةـ ؛ فـإـنـهـ سـيـاسـةـ حـكـيـمـةـ فـيـ الـدـنـيـاـ ؛ إـذـ إـنـ هـذـاـ الرـجـلـ ؛ الـذـيـ أـرـادـ الـاعـتـدـاءـ لـوـ أـنـهـ قـتـلـ ، أـوـ عـوـقـبـ عـقـوبـةـ بـلـيـغـةـ لـرـبـمـاـ أـحـدـ ثـفـتـةـ بـإـيـغـارـ صـدـورـ أـفـرـادـ قـبـيلـتـهـ ، وـاستـعـادـهـمـ لـلـانتـقامـ إـذـ سـنـحتـ لـهـمـ الفـرـصـةـ ، لـكـنـ عـفـوـعـهـ يـجـعـلـ أـفـرـادـ قـبـيلـتـهـ ، وـأـبـنـاءـ بـلـدـهـ يـعـذـلـونـهـ ، وـيـعـنـفـونـهـ عـلـىـ مـاـ حـاـوـلـ إـلـقـادـمـ عـلـيـهـ ، وـبـذـلـكـ تـنـطـفـيـ الفتـنـةـ قـبـلـ تـصـاعـدـهـاـ ، وـيـكـسـبـ صـاحـبـ الـعـفـوـ قـلـوبـ النـاسـ ، وـوـلـاءـهـ (٣) .

سادساً : التـواـضـعـ :

قال تعالى : « وَعَبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُوَ أَوَّلَ مَنْ يَخْطُبُهُمُ الْجَنَّهُوْرُ قَالُواْ سَلَامًا » [الفرقان : ٦٣] .

جعلـ المـولـىـ - عـزـ وـجـلـ - صـفـةـ التـواـضـعـ أـوـلـ صـفـاتـ عـبـادـهـ الـمـؤـمـنـينـ ، وـلـقـدـ كانـ الـخـلـيفـةـ

(١) الكفاءة الإدارية ، ص(٦٩) .

(٢) التاريخ الإسلامي (١٧ ، ١٨ / ٢٢) نقلـاـ عنـ تاريخـ المدينةـ المنـورةـ ، صـ (١٠٢٧ ، ١٠٢٨) .

(٣) التاريخ الإسلامي (١٧ ، ١٨ / ٢٢) .

الرَّاشد عثمان متصفًا بهذه الصَّفة ، وكانت هذه الصَّفة تنبع من إخلاصه لله سبحانه وتعاليٰ ، فعن عبد الله الرُّومي ، قال : كان عثمان بن عفَّان يأخذ وضوءه لنفسه إذا قام من اللَّيل ، فقيل له : لو أمرت الخادم ؟ كفاك ! قال : لا ، اللَّيل لهم يستريحون فيه^(١) . فهذا مثلٌ من اتصاف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالرَّحمة ، فهو مع كبر سنه وعلو منزلته الاجتماعية يخدم نفسه في اللَّيل ، ولا يوقظ الخدم ، وإن وجود الخدم من تسخير الله تعالى للمخدومين ، وإنَّ ممَّا ينبغي للMuslim الذي سحر الله تعالى له من يخدمه أن يتذكَّر : أنَّ الخادم إنسانٌ مثله ، له طاقة محدودةٌ في العمل ، وله مشاعر ، وأحاسيس ، فينبغي له أن يراعي مشاعره ، وأن ييسر له الرَّاحة كاملةً في النَّوم ، وأن لا يشُقَّ عليه بعمل^(٢) ، وكان رضي الله عنه من تواضعه واحترامه لعمَّ النبي ﷺ إذا مرَّ به وهو راكب ؟ نزل حتَّى يزول العباس احتراماً ، وتقديرًا^(٣) .

سابعاً : الحياة ، والوفاة :

الحياة من أشهر أخلاق عثمان رضي الله عنه ، وما أحلاها تلك الصَّفة الثَّبالة التي زينَه الله بها ، فكانت فيه منبع الخير ، والبركة ، ومصدر العطف ، والرَّحمة ، فقد كان رضي الله عنه من أشد الناس حياء^(٤) ، فقد ذكر الحسن البصري - رحمه الله - عثمان بن عفَّان يوماً ، وشدة حياته ، فقال : إنَّه ليكون في البيت ، والباب عليه مغلق ، فما يضع عنه ثوبه ليفيض عليه الماء ، يمنعه الحياة أن يُقيِّم صلبه^(٥) ، ومن حيائه رضي الله عنه : ما روتَه بُنَانَة ، وهي جارية لأمرأته ، تقول : كان عثمان إذا اغتسل جئتَه بشابه ، فيقول لي : لا تنظري إلىَّه ، فإنه لا يحلُّ لك^(٦) . وقد وردت الأحاديث النَّبوية التي تحدثت عن حيائه ، وقد ذكرتها في موضعها ، وأمَّا عن عفتَه ، وبعده عن مساوى الأخلاق ؛ فحدث في ذلك بما شئت ، ولا حرج ، فإنَّه رضي الله عنه لم يعرف طريق الفحشاء في الجاهلية ، ولا في الإسلام ، يقول عثمان رضي الله عنه : ما تغَيَّبت ، ولا تمنَّيت^(٧) ، ولا مسست ذكري بيمني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ ، ولا شربت خمراً في جاهلية ، ولا في الإسلام ، ولا زنيت في جاهلية ولا في إسلام^(٨) .

(١) فضائل الصحابة ، رقم (٧٤٢) إسناده صحيح ، وهو روایة أخرى .

(٢) التاريخ الإسلامي (١٧ ، ٦٢ / ١٨) .

(٣) التبيين في أنساب القرشيين ، ص (١٥٣) .

(٤) عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص (٤٩ ، ٤٨) .

(٥) صحيح التوثيق في سيرة وحياة ذي الثورين ، ص (٤٣) .

(٦) طبقات ابن سعد (٣ / ٥٩) خبر لا يأس به .

(٧) تغَيَّبت : من الغناء . تمنَّيت : من التَّمني ، والكذب ، واختلاق الباطل .

(٨) صحيح التوثيق ، ص (٤٤) .

ثامناً : كرمه :

كان عثمان رضي الله عنه من أكرم الأمة ، وأسخاها ، وله في ذلك مواقف ، وما ثار لا تزال غرّة في جبين التاريخ الإسلامي ، فقد مرّ علينا ما قام به في غزوة تبوك ، وشراؤه لبئر رومة ، وتصدقه به على المسلمين ، وتوسيعه للمسجد النبوي في عهد النبي ﷺ ، وتصدقه بالقافلة المحملة بالخيرات في عصر الصديق رضي الله عنه ، وكان رضي الله عنه يعتقد كل جمعة رقبة في سبيل الله منذ أسلم ، فجميع ما أعتقد ألفان ، وأربعون رقبة تقريباً^(١) ، وقد رُوِيَ : أَنَّه كَانَ لَهُ عَلَى طَلْحَةَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ - وَكَانَ مِنْ أَجْوَدِ النَّاسِ - خَمْسُونَ أَلْفًا ، فَقَالَ لَهُ طَلْحَةُ يَوْمًا : قَدْ تَهَيَّأَ مَالُكُ ، فَاقْبَضَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَثْمَانَ : هُوَ لَكَ مَعْوِنَةٌ عَلَى مَرْوِئَتِكَ^(٢) .

لقد كان سخاء عثمان وجوده صفةً أصيلةً في شخصيته الفذّة ، رضي الله عنه ، فقد وظّف أمواله في خدمة دين الله ، فلم يدخل في تأسيس الدولة الإسلامية ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، وخدمة المجتمع ابتغاء رضوان الله تعالى .

تاسعاً : شجاعته :

يعدّ عثمان رضي الله عنه من الشجعان ، والدليل على ذلك :

١- خروجه للجهاد في سبيل الله ، وحضوره المشاهد كلّما مع رسول الله ﷺ ، وإذا انهم بتخلّفه في بدرٍ؛ فقد سبق أن قلنا: إِنَّ ذَلِكَ كَانَ بِأَمْرٍ مِّنْ رَسُولِ اللَّهِ ، ثُمَّ عَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الَّذِينَ شَهَدُوهَا ، وَأَعْطَاهُ شَهَادَتَهُ مِنْهَا ، وَنَالَ أَجْرَهُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - وَلِيُسَ بَعْدَ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ كَلَامٌ .

٢- سفارة رسول الله ﷺ إلى قريش في الحديبية :

امثل عثمان رضي الله عنه - كما مرّ علينا - طلب الرّسول ﷺ ، وذهب إلى قريش ، وهو يعرف ما أقدم عليه ، غير أنَّ رجولته ، وبطولته قد أبانت عليه إلا الامتثال ، والطاعة .

إِنَّ مَنْ يَقْبِلُ السَّفَارَةَ فِي مِثْلِ تَلْكَ الظُّرُوفِ لَشَجَاعٌ عَظِيمٌ ، وَبَطَلٌ مِّنَ الْأَبطَالِ التَّوَادِرِ ، صحيحٌ : أَنَّهَا أَمْرٌ مِّنْ رَسُولِ اللَّهِ ، وَلَكِنَّهَا فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ شَجَاعَةٌ ، لَا يَمْكُنُ أَنْ يَقْبِلَ بِهَا جَيْأً ، بَلْ رَجُلٌ عَادِيٌّ^(٣) .

٣- الفداء بالنفس :

عندما حاصر رضي الله عنه في داره ؛ طلب منه المارقون التنازل عن الخلافة لا خيار

(١) الصواعق المحرقة ، لابن حجر الهيثمي (٣٢٧/١) .

(٢) البداية والنهاية (٢٢٧/٧) .

(٣) الأمين ذو التورين ، ص (١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦) .

غيره ، أو القتل ، أو عزل ولاته ، وتسليم بعضهم ، فأصرَّ على موقفه ، مضحِّياً بنفسه من أن تصبِّع الخلافة بيد ثلَّةٍ تُزيح مَنْ ترغِب ، وتُعيَّن من تحبُّ ، أو تنتزع الخلافة من صاحبها الذي اختارته الأُمَّة ، ويصبح ذلك قاعدةً^(١) ، فأصرَّ على موقفه ، وهو يرى الموت في سيف المحاصرين ، وإنَّ الذي يقف هذا الموقف لَهُوَ الشجاع ، وإنَّه لصاحب حقٍّ ، ولن يقف هذا الموقف رجلٌ جبانٌ ، أو محبٌ للدُّنيا أبداً ، فالحياة عند هؤلاء الجبناء أفضل من المكانة ، ومن الدُّنيا كلَّها^(٢) ، ولكنَّ هذا الإصرار العجيب ، والعزيمة التافذة ، والشجاعة الفائقة من عثمان رضي الله عنه ثمرة إيمانٍ قويٍّ بالله - عزَّ وجلَّ - واليوم الآخر وقر في قلبه ، وجعله يستهين بكلِّ شيءٍ في هذه الحياة حتَّى بالحياة نفسها^(٣) .

٤- المال :

إنَّ الجهاد بالنَّفس اقتربن مع الجهاد بالمال ، وربما قدْم عليه ؛ قال تعالى : « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَيْنُ أُولَئِكَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَيِّلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضْلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةٌ وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْمُسْنَى وَفَضْلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » [النساء : ٩٥].

وهناك آيات كثيرة تقرن المال بالنَّفس ، وإنَّ الذي ينفق المال في سبيل الله بسخاء إنما هو مجاهدٌ شجاعٌ ، وقد أنفق عثمان رضي الله عنه الكثير حتَّى قال رسول الله ﷺ : « ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم » مرتَّتين^(٤) .

لقد كان عثمان رضي الله عنه شجاعاً ، لا يهاب الموت ، جريئاً يواجه الباطل في تحدي سافر ، حليماً لا يُجهَّله حمقُ الحمقى^(٥) .

عاشرأً : الحزم :

إنَّ صفة الحزم في شخصية ذي التُّورين أصيلةٌ ، ونجد الصَّدِيق رضي الله عنه عندما عرض عليه الإسلام قال له : « ويحك يا عثمان ! إنَّك رجلٌ حازمٌ ، ما يخفى عليك الحقُّ من الباطل ، ما هذه الأوَّثان التي يعبدُها قومنا^(٦) ! ».

وفي سنة ٢٦ هـ زاد عثمان في المسجد الحرام ، ووسَعَه ، وابتاع من قوم وأبى آخرون ،

(١) الأمين ذو التُّورين ص (١٩٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص (٣٠٤) .

(٤) سنن الترمذى رقم (٣٧٨٥) .

(٥) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص (٣٠٤) .

(٦) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص (٤٧) .

فهدم عليهم ، ووضع الأثمان في بيت المال ، فصيّحوا بعثمان ، فأمر بهم بالحبس ، وقال : أتدرؤن ما جرأكم على ؟ ما جرأكم على إلا حلمي ، قد فعل هذا بكم عمر ، فلم تصيّحوا به ، ثم كلّمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد ، فأخرجوا^(١) .

ومن المواقف التي تدلّ على حزمه ؛ حمايته لنظام الخلافة من الضياع ، فلم يجب الخارجين إلى خلع نفسه من الخلافة ، فكان بذلك يمثل الثبات ، واستمرار النظام ، لأنّه لو أجاب الخارجين إلى خلع نفسه ؛ لأصبح منصب الإمام العظمى العوبية في أيدي المفتونين الساعين في الأرض بالفساد ، ولسداد الفوضى ، واحتلال نظام البلاد ، ولكن ذلك تسليطاً للرّعاع ، والغوغاء على الولاية والحكام ، لقد كانت نظرة عثمان رضي الله عنه بعيدة الغور ، فلو أجابهم إلى ما يريدون لسنَ بذلك سنةً ، وهي كلّما كره قومٌ أميرهم ؛ خلعواه ، ولأنّقى بأس الأمة بينها ، وشغلها بنفسها عن أعدائها وذلك أقرب لضعفها ، وانهيارها ، على أنّه لم يجد سوى نفسه يفدي بها الأمة ، ويحفظ كيانها ، وبنائها من التصدع ، ويدعم بها الفداء نظامها الاجتماعي ، ويحمي سلطانها ؛ الذي تُساس به من أن تتمتدّ إليه يد العبث ، والفوضى .

وممّا لا شكّ فيه : أنَّ هذا الصُّنْع من عثمان كان أعظم ؛ وأقوى ما يستطيع أن يفعله رجلٌ ألقى إليه الأمة مقاليدها ؛ إذ لجأ إلى أهون الشرّين ، وأخفّ الضررين ؛ ليدعم بهذا الفداء نظام الخلافة ، وسلطانها^(٢) ، وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله .

الحادية عشرة : الصبر :

اتّصف عثمان رضي الله عنه بصفة الصّبر - ومن المواقف الدّالة على هذه الصّفة ثباته في الفتنة ؛ إذ كان موقفه إزاء تلك الأحداث التي ألمت به ، وبال المسلمين المثل الأعلى لما يمكن أن يقدمه الفرد من تضحية ، وفداء في سبيل حفظ كيان الجماعة ، وصون كرامة الأمة ، وحقن دماء المسلمين ، فقد كان بإمكانه أن يقي نفسه ، ويخلصها ، لو أنّه أراد نفسه ، ولم يرد حياة الأمة ، ولو كان ذاتياً ، ولم يكن من أهل الإيثار ؛ لدفع بمن هبّ للذود عنه من الصحابة ، وأبناء المهاجرين ، والأنصار إلى نحور الخارجين المنحرفين عن طاعته ، ولكنّه أراد جمع شمل الأمة ، ففداها بنفسه صابراً محتسباً ، وقد أعلن عثمان رضي الله عنه أنَّه سيواجه الفتنة العارمة بالصّبر الجميل^(٣) ، ممثلاً قوله سبحانه : «الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ أَنَّكُمْ قَدْ جَمَعْتُمُ الْكُفَّارَ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا وَقَاتَلُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَنَعَمَ الْوَكِيلُ» [آل عمران : ١٧٣] .

(١) تاريخ الطّبرى (٤٥٠ / ٥) .

(٢) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (١ / ٤٧٤) .

(٣) سير الشّهداء ، للسّخيباني ، ص (٥٧ ، ٥٨) .

إنَّ عثمان رضي الله عنه كان قويًّا الإيمان بالله ، كبير النَّفَاس ، نفاذ البصيرة ، نبيل الصَّبر ، حيث فدى الأمة بنفسه ، فكان ذلك من أعظم فضائله عند المسلمين^(١) .

قال ابن تيمية - رحمه الله - : ومن المعلوم بالتواتر : أنَّ عثمان كان من أكثَر النَّاس عن الدِّماء ، وأصبر النَّاس على مَنْ نال مِنْ عرضه ، وعلى مَنْ سعى في دمه ، فحاصروه ، وسعوا في قتله ، وقد عرف إرادتهم لقتله ، وقد جاءه المسلمون ينصرونه ، ويشيرون عليه بقتالهم ، وهو يأمر النَّاس بالكفُّ عن القتال ، ويأمر مَنْ يطيعه ألا يقاتلهم .. وقيل له : تذهب إلى مكَّة؟ فقال : لا أكون من أَلْحَد في الحرم ، فقيل له : تذهب إلى الشَّام؟ فقال : لا أفارق دار هجرتي ، فقيل له : فقاتلهم ، فقال : لا أكون أَوَّل من خلف محمداً في أمته بالسيف ، فكان صبر عثمان حتَّى قُتل من أعظم فضائله عند المسلمين^(٢) .

الثانية عشرة : العدل :

وأتصف عثمان رضي الله عنه بصفة العدل ، فعن عبد الله بن عديٍّ بن الخيار : أنه دخل على عثمان رضي الله عنه وهو محصور ، فقال له : إنَّك إمام العامة ، وقد نزل بك ما ترى ، وهوذا يصلِّي بنا إمام فتنَة - عبد الرَّحمن بن عُدَيْس البلوي - وأنا أخرج من الصَّلاة معه . فقال له عثمان : إنَّ الصَّلاة أحسن ما يعمل النَّاس ، فإذا أحسن النَّاس ؛ فأحسن معهم ، وإذا أساءوا ؛ فاجتنب إساءتهم^(٣) ، وروى ابن شبة بإسناده ؛ قال : دخل عثمان بن عفَّان على غلام له يعرف ناقة ؟ فرأى في علقها ما كره ، فأخذ بأذن الغلام فعركتها ، ثمَّ ندم ؛ فقال لغلامه : اقتض ، فأبى الغلام ، فلم يدعه ؛ حتَّى أخذ بأذنه ، فجعل يعركتها ، فقال له عثمان : شدَّ حتَّى ظنَّ : أنه قد بلغ منه مثل ما بلغ منه ، ثمَّ قال عثمان رضي الله عنه : واهأ لقصاص قبل قصاص الآخرة^(٤) .

الثالثة عشرة : عبادته :

كان عثمان رضي الله عنه من المجتهدين في العبادة ، وقد روي من غير وجه : أنَّه صلَّى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود ، أيام الحج ، وقد كان هذا من دأبه^(٥) ، ولهذا رويانا عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه قال في قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ إِنَّمَا لِلَّهِ سَاجِدًا﴾ .

(١) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (٤٧٢/١).

(٢) منهاج السنة (٣/٢٠٢-٢٠٣).

(٣) البخاري ، رقم (٦٩٥).

(٤) أخبار المدينة (٣/٢٣٦).

(٥) الطبقات الكبرى (٣/٧٦) . وتاريخ الإسلام في عهد الخلفاء ، الذهبي ، ص (٤٧٦).

وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴿٩﴾ [الزمر : ٩] قال : هو عثمان بن عفان^(١) . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : « هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ » [التَّحْلِيل : ٧٦] قال : هو عثمان^(٢) وكان رضي الله عنه يفتح القرآن ليلة الجمعة ، ويختتمه ليلة الخميس^(٣) ، وكان رضي الله عنه يصوم الدَّهْر ويقوم اللَّيْل إِلَّا هَجَّةً مِّنْ أَوَّلِهِ^(٤) .

الرابعة عشرة : خوفه من الله ، وبكاؤه ، ومحاسبته لنفسه :

فقد جاء في إحدى خطبه : أيها الناس ! اتقوا الله ، فإن تقوى الله غنم ، وإن أكياس الناس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، واكتسب من نور الله نوراً لقبره ، وليخش أن يحشره الله أعمى ، وقد كان بصيرا^(٥) . وقد روي عنه قوله : لو أني بين الجنة والنار ، لا أدرى إلى أيها يؤمِّر بي ؛ لتمَّنَّتْ أن أصير رماداً قبل أن أعلم إلى أيهما أصير . وكانت روحه ترتجف ، وعباراته تفيض عندما يذكر الآخرة ، وعندما يتخيل نفسه وقد انشق قبره ، ونزل من جدثه إلى العرض ، والحساب^(٦) ، فعن هاني مولى عثمان ، قال : كان عثمان إذا وقف على قبره ، بكى ؛ حتى تبتَّلَ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة ، والنار ، وتباكي من هذا ؟ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه ، فما بعده أشد منه » . قال : وقال رسول الله ﷺ : « والله ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه » قال : وكان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت ؛ وقف عليه ؛ ثم قال : « استغفروا للأحياء ، وسلوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسأل »^(٧) ، وهذا من فقه القدوم على الله الذي استوعبه عثمان رضي الله عنه ، وعاش به في حياته ، وما أحوجنا إلى هذا الفقه العظيم الذي به تحيا النُّفوس ، وتتفجر الطاقات .

الخامسة عشرة : زهده :

اشتهر أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بأنه من أهل الغنى ، والثروة ، ولكن مع هذه الشُّهْرة ؛ فإنه قدر ويت عنده أخبار تدل على أنه كان من الرَّاهدين في الدنيا ، فعن حميد بن نعيم :

(١) تفسير ابن كثير (٤٧/٤).

(٢) المصدر السابق نفسه (٥٧٩/٢).

(٣) علوُّ الهمة (٩٣/٣).

(٤) صفة الصَّفوة (٣٠٢/١).

(٥) صحيح التوثيق ، ص (١٠٧).

(٦) نظام الحكم في عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص (٢٠٥).

(٧) فضائل الصحابة ، رقم (٧٧٣) إسناده حسن .

أنَّ عمر ، وعثمان رضي الله عنهمَا دُعياً إلى طعام ، فلما خرجا ؛ قال عثمان لعمر : قد شهدنا طعاماً لو ددنا أنا نشهد ، قال : لم ؟ قال : إنِّي أخاف أن يكون صنْع مباهة^(١) .

فهذا فقه من عثمان رضي الله عنه بمحاجات السَّخاء الإسلامي ، فالسَّخاء في الإسلام لا يكون بالتفاخر بالكرم ، والتباهي بنوع الطَّعام ، أو كثرته ، وإنَّما يكون ببذل المال من غير إسرافٍ ، ولا خيلاء مع شكر المنعم - جلَّ وعلا - والتَّواضع للنَّاس ، وهذه النَّظرة من عثمان تعتبر من التَّزهيد بالجاه الديني ، وهذا يدلُّ على أنَّه كان من الزَّاهدين في ذلك^(٢) .

ومن زهد عثمان رضي الله عنه وتواضعه : ما أخرجه الإمام أحمد من حديث ميمون بن مهران ، قال : أخبرني الهمданى : أنَّ رأى عثمان بن عفَّان على بُغْلَةٍ وخلفه غلامه نائلٌ ؛ وهو خليفة^(٣) .

وكذلك ما أخرجه من حديث الهمدانى ، قال : رأيت عثمان نائماً في المسجد في ملحفة ليس حوله أحدٌ ؛ وهو أمير المؤمنين^(٤) ، كما أخرج من حديث شرحبيل ابن مسلم : أنَّ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه كان يطعم النَّاس طعام الإمارة ، ويدخل إلى بيته ، فيأكل الخل ، والرَّيت^(٥) .

فهذه أمثلةٌ جليلةٌ من زهد أمير المؤمنين عثمان ، رضي الله عنه ، وحينما يكون الزَّاهد متوسطاً في المعيشة ، فإنَّ زهده لا يلفت النَّظر كثيراً ، ولا يثير العجب ، ولكن حينما يكون غنياً ؛ فإنَّ زهده يكون مدهشاً للمتأملين ، وعبرةً للمعتبرين ، ذلك لأنَّ كثرة المال تغري بالانصراف نحو الملذات ، والتوسُّع في التَّفقات ، فلا بدَّ ليكون الغني زاهداً من استيعابه لفقه القدوم على الله ؛ حتى يكون مهيمناً على نفسه ، مذكراً لقلبه ، فتكبر الآخرة في عينه ، وتصغر الدنيا في نفسه ، وهكذا كان عثمان رضي الله عنه الذي كان من أعظم الأثرياء في الإسلام ، قد غلت قوَّة إيمانه شهوَتَه ، وهوَاه ، فكان من أعظم الزَّاهدين ، وضرب من نفسه مثلاً لجميع الأغنياء بإمكان الجمع بين الغنى والرُّهُد في الدنيا^(٦) .

السادسة عشرة : الشُّكْر :

كان عثمان رضي الله عنه كثير الشُّكْر لله تعالى باللسان ، والجنان ، والأركان ؛ دُعى ذات

(١) الرُّهُد للإمام أحمد ، ص (١٢٦).

(٢) التاريخ الإسلامي (١٧ ، ٤٨/١٨).

(٣) الرُّهُد ، ص (١٢٧).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص (١٢٩).

(٦) التاريخ الإسلامي (١٧ ، ٤٩/١٨).

يوم إلى قوم على ريبة ، فانطلق ليأخذهم ، فتفرقوا قبل أن يبلغهم ، فأعتق رقبة ؛ شكرًا لله لأن يكون جرى على يديه خزي مسلم^(١) .

السادسة عشرة : تفقد أحوال الناس :

كان رضي الله عنه ودوداً رؤوفاً يسأل عن أحوال المسلمين ، ويتعرف مشكلاتهم ، ويطمئن على غائبهم ، ويواسي قادتهم ، ويسأل عن مرضاهم ، فقد روى الإمام أحمد عن موسى بن طلحة ، قال :رأيت عثمان بن عفان وهو على المنبر ، وهو يستخبر الناس ، يسألهم عن أخبارهم ، وأسعارهم^(٢) .

وروى ابن سعيد في الطبقات عنه أيضاً قال :رأيت عثمان بن عفان يخرج يوم الجمعة عليه ثوبان أصفران ، فيجلس على المنبر ، فيؤذن المؤذن ، وهو يتحدى يسأل الناس عن أسفارهم ، وعن قادتهم ، وعن مرضاهم^(٣) ، وكان رضي الله عنه يهتم بشؤون الرعية ، ويصل ذوي الحاجة ، ويفرض العطاء للمواليد من بيت المال^(٤) ، فقد رُوِيَ عن عروة بن الزبير ، قال : أدركت زمان عثمان ، وما من نفسي مسلمة إلا ولها في مال الله حقٌّ - يعني : بيت المال^(٥) .

السادسة عشرة : تحديد الاختصاصات :

المراد بتحديد الاختصاص : تقسيم وظائف العمل على العاملين ، بحيث يكون كلُّ موظفٍ عالماً بالعمل الذي كُلفَه؛ ليقوم به دون تقصير فيه ، ولا يتعدّى عمل آخر مسند إلى سواه ، وتقسيم الوظائف سُنة كونية ربانية ، عمل بها الرَّسُول ﷺ ، والخلفاء الرَّاشدون من بعده ، وفي عهد عثمان رضي الله عنه وزرعت الوظائف ، والأعمال على المسلمين كلُّ في ميدانه ، كما سيأتي بيانه بإذن الله ، ففي مؤسسة القضاة ، والمالي ، والجيش ، وولاية الأمصار ظهرت الصفة القيادية في تحديد الاختصاصات عند الخليفة الرَّاشد عثمان رضي الله عنه . فقد تمَّ تقسيم الأعمال ، وحدّدت قواعد بين العاملين ، كانت من أهم عوامل النجاح في دولة الخلفاء الرَّاشدين ، وبذلك تعامل الخليفة الرَّاشد عثمان مع السنتين الكونية ، والشرعية في تحديد الاختصاصات^(٦) .

السادسة عشرة : الاستفادة من أهل الكفاءات :

إنَّ الإشادة بالأكفاء ، وإرشاد الأمة إلى احترامهم ، وتكريمهم ، ووضعهم في مواضعهم ،

(١) علو الهمة (٤٨١/٥).

(٢) فضائل الصحابة ، رقم (٨١٢) إسناده صحيح .

(٣) الطبقات (٥٩/٣).

(٤) تحقيق موقف الصحابة (٣٩٦/١).

(٥) المصنف في الحديث لابن أبي شيبة (١٠٢٣/٣).

(٦) الكفاءة الإدارية ، ص (١١٧) .

وعدم هضمهم حقوقهم ، والاستفادة من طاقاتهم ، واحتياصاتهم ؛ إن ذلك مما جعل أهل القرون المفضلة من سلف هذه الأمة ينالون العزّ ، والمجد ، والتمكين في هذه المعمورة^(١) وقد ظهرت هذه الصفة في شخصية عثمان رضي الله عنه عندما استفاد من كفاءات زيد بن ثابت واللجنة التي عينت معه في جمع القرآن على حرف واحد .

هذه بعض الصفات التي لاحظتها في شخصية عثمان رضي الله عنه ، وهي محل قدوة ، وأسوة لقادة المسلمين ، وعوامهم لمن يريد أن يتبع هدي النبي ﷺ والخلفاء الراشدين في هذه الحياة .

إن معرفة صفات الخلفاء الرشادين ، ومحاولة الاقتداء بهم خطوة صحيحة لمعرفة صفات القادة الرئائين ، الذين يستطيعون أن يقودوا الأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة ، فمن أسباب التمكين لهذا الدين العمل على إيجاد قادة رئائين ، جرى الإيمان في قلوبهم ، وعروقهم ، وانعكس ثماره على جوارحهم ، وتتجزّر صفات التقوى في أعمالهم ، وسكناتهم ، وأحوالهم ، فالقيادة الرئائية الحكيمة هي التي تسعى لتحكيم شرع الله ، وتفجير طاقات الأمة وتوجيهها وهي التي تحضن الإسلام ، وتنهجه قلباً وقالباً ، جوهراً ومنظراً ، وعقيدةً وشريعةً ، وديناً ودولةً ، وهي التي تصبح ، وتمسي ، وهُمها عقيدتها وأمّتها ، وهي التي تسعى بكلّ ما تملك لحل المشاكل التي تواجهها ، وتعمل بكلّ جهد ، وإخلاص للقضاء على عوائق التمكين الداخلية ، والخارجية .

* * *

الفصل الثالث

المؤسسة المالية والقضائية في عهد عثمان رضي الله عنه

المبحث الأول

المؤسسة المالية

لما تولى عثمان رضي الله عنه الخلافة لم يغيّر من سياسة عمر المالئمة ، وإن كان قد سمح للMuslimين باقتناء الثروات ، وتشييد القصور ، وامتلاك المساحات الشاسعة من الأراضي ، فقد زالت عن المسلمين شدة عمر ، والتي كانت ترهبهم ، وتخيفهم ، والتي كانت تحول دون الكثير مما يشتهون ، وكان عهده عهد رخاء على المسلمين^(١) .

أولاً : السياسة المالية التي أعلنتها عثمان عندما تولى الحكم :

ووجه عثمان رضي الله عنه كتاباً إلى الولاة ، وكتاباً آخر إلى عمّال الخارج ، وأذاع كتاباً على العامة ، وقد ذكرت نصوصها عند حديثي عن منهجه في الحكم ، وفي ضوء تلك التصوص تكون عناصر السياسة المالية العامة التي أعلنتها ثالث الخلفاء الراشدين قد قامت على الأسس العامة التالية :

* تطبيق سياسة مالية عامة إسلامية .

* عدم إخلال الجبائية بالرعاية .

*أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين .

* إعطاء المسلمين ما لهم من بيت مال المسلمين .

*أخذ ما على أهل الذمة لبيت مال المسلمين بالحق ، وإعطاؤهم ما لهم ، وعدم ظلمهم .

* تخلق عمّال الخارج بالأمانة والوفاء .

(١) مبادئ الاقتصاد الإسلامي ، لسعاد إبراهيم صالح ، ص (٢١٧) .

* تفادي أية انحرافات مالية يسفر عنها تكامل النعم لدى العامة^(١) .

ونفصل فيما يلي هذه الأسس :

١- نية عثمان بن عفان تطبيق سياسة مالية عامة :

مما لا شك فيه : أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان عزم على تطبيق سياسة مالية عامة إسلامية ، فقد بوضع رضي الله عنه على أساس تطبيق حكم الله ، وسنة رسوله ، وسياسة الخلفيتين قبله ، وقد طبق أبو بكر رضي الله عنه ما نزل به القرآن ، وما سنته رسول الله ﷺ فيما يتعلق بالسياسة المالية ، وغيرها من الأحكام ، وقام عمر بتطوير المؤسسة المالية ، ونظم قواعدها ، وأرسى مبادئها ، وزاد مواردها ، ورشد إنفاقها ، ونهج عثمان طريقهم ، واجتهد في بعض الأمور القابلة للاجتهاد ، فنفذ حكم الله في الأرض في قضايا الأموال ، وغيرها ، فأشرف على دفع الرزaka لبيت المال ، وتوزيعها على مستحقها ، وأهل الكتاب في دفهم الجزية لبيت مال الدولة الإسلامية يدخلون في ذمتها ، تحميهم وتتوفر لهم الأمان ، وتضفي عليهم سائر خدماتها العامة ، والمجاهدون يغنمون الأموال ويرسلون خمسها لبيت مال المسلمين ، ويقوم بيت المال بتوزيعها على اليتامي ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، وغيرها من وجوه الإنفاق طبقاً لقوله تعالى : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ هُمْ أَحَقُّ بِالْمُرْسَلِينَ وَالْمَسَكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلَ إِنْ كُثُرْتُمْ أَمْنَثْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ النَّقْيَ الْجَمِيعَانَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » [الأفال: ٤١] ، وغير ذلك من مصادر الدولة المعروفة .

وقد تميزت المالية العامة في عهد ذي الثورين ، والخلفاء الراشدين بأنها مرتبطة بالإسلام ، وتطبيق تعاليمه ، وتحمي إبراداته ، ويساند الإنفاق العام فيها على نشر راية الإسلام ، وخير المسلمين . وهي مرشدة للإنفاق ؛ لأن تعاليم الإسلام تمنع الإسراف ، وتحاربه ، والله لا يحب المسرفين ، وتمنع السفهاء من التحكم في الأموال . وهي مالية عامة خيرة ؛ لأن بعض مواردها العامة توجه للبنية الضعيفة من الرعية ، وهي نقية من الذنس ، ولا تتضمن موارد لها كسباً من حرام ؛ لأن الله لا يبارك الكسب الحرام .

٢- عدم إخلال الجبائية بالرعاية :

ينبئ عثمان بن عفان رضي الله عنه في كتابه للولاة : أن جبائية أموال بيت المال كانت تطغى على الواجب الأول للولاة ، وهو رعاية الرعية ، وذلك : أن الجبائية أحد واجبات الرعية المكلف بها رئيس الدولة الإسلامية فلا يصح أن تطغى على سائر الواجبات^(٢) ، وقد استنبط

(١) السياسة المالية لعثمان رضي الله عنه ، قطب إبراهيم ، ص (٦١) .

(٢) السياسة المالية لعثمان رضي الله عنه ، ص (٦٢) .

الفقهاء من الهدى النبوى ، والعهد الرئاشدى تكاليف الرعاية ؛ أي : واجبات الخليفة لتحقيق رعاية الأمة كما يلى :

قال الماوردي : والذى يلزم من الأمور العامة عشرة أشياء :

أحدها : حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة .

والثانى : تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بين المتنازعين ؛ حتى تعم الصفة ، فلا يتعدى ظالم ، ولا يضعف مظلوم .

والثالث : حماية البيضة ، والذب عن الحرمين ؛ ليتصرف الناس في المعاش ، وينتشروا في الأسفار آمنين من تغريب بنسٍ ، أو حالٍ .

والرابع : إقامة الحدود ؛ لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك ، وتحفظ حقوق عباده عن إتلاف ، واستهلاك .

والخامس : تحصين التغور بالعدة المانعة ، والقوءة الدافعة ، حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهيون فيها محراً ، أو يسفكون فيها لمسلم ، أو معاهد دماً .

والسادس : جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة إليه ، حتى يسلم ، أو يدخل الذمة ؛ ليقام بحق الله تعالى في إظهاره (الإسلام) على الدين كله .

والسابع : جباية الفيء ، والصدقات على ما أوجبه نصاً ، واجتهاداً من غير خوفٍ ، ولا عسف .

والثامن : تقدير العطايا وما يستحق من بيت المال من غير سرفٍ ولا تقديرٍ ، ودفعه في وقتٍ لا تقديم فيه ، ولا تأخير .

والحادي عشر : استكماء الأمانة ، وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال ، ويكله إليهم من الأموال ، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطةً ، والأموال بالأمانة محفوظةً .

والعاشر : أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور ، وتصفح الأحوال ، لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملأ ، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بذلةٍ ، أو عبادةٍ^(١) .

وبإيجاز فإن واجبات الخليفة تتفرع عن شرطٍ عقد البيعة ، وهما : حراسة الدين ، وسياسة الدنيا^(٢) ؛ اللذين هما مهمّة الرسول ﷺ ؛ الذي هو خليفته ، وإن كان الماوردي ، والفراء المتعاصران قد تطابقت تحدياتهما لواجبات الإمام ، فإنما ذلك اجتهاداً منهما حسب

(١) الأحكام السلطانية ، والولايات الدينية ، ص(١٦ ، ١٧) .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص(١٩١) .

حاجة الأمة في عصرهما ، ولا ينبغي أن تقتصر حقوق الأمة على ما عدده عالم من علمائها ، أو أكثر مهما بلغ من فضل ، وسعة علم ، ومهما كانت نظرته للموضوع شاملة ؛ هذا إن كان العالم معاصرًا ، فكيف إن كانت آراؤه ، واجتهاه قد سبقنا بقرون^(١) ، ولذا فينبغي أن تحدّد واجبات الإمام بناءً على الشرطين العاميين لصحة عقده ، وهما : حراسة الدين ، وسياسة الدنيا ، وينبغي أن تقوم لجان من علماء الأمة بتحديد ذلك لأهل زمانهم^(٢) .

هذه بعض تكاليف الرّعاية ، كما أوردها الفقهاء ، وهي قابلة للتطویر بما يلائم تطُور الأزمان ، والعصور ، وبحيث لا يخالف التطوير نصاً من نصوص القرآن ، أو حكمًا من أحكام الدين^(٣) .

٣-أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين :

عمال الخراج نواب عن الدولة في استئداء حقوق بيت المال ، فإذا أخذوا ما على المسلمين بالحق أدوا واجبهم المنوط بهم ، وإذا غالوا في جباية حقوق بيت المال ، ظلموا الممولين ، وألحقوا بهم الضرر وحملوهم فوق ما يطيقون ، والرسول ﷺ يحذر من المغالاة في استئداء حقوق بيت المال ، فقد نهى عن جباية كرائم الأموال في الرّكأة ، وأمر بالتحفيف في استئداء زكاة التمر^(٤) .

٤-إعطاء المسلمين ما لهم من بيت المال بالحق :

عطاء بيت المال للمسلمين إما أن يكون مباشرةً كصرف الزّكاة للمستحقين لها ، وما يقضي به نظام الأعطيات من توزيع فائض الأموال على المسلمين ، أو يكون العطاء العام غير مباشر يتمثل في الخدمات العامة التي تؤديها الدولة للرّعاية ، وهذه ينفق عليها من بيت مال المسلمين ، وفي كل العطاءين ينبغي أن يتسم العطاء بالحق ، فلا يجوز في العطاء المباشر أن تُخالف الأسس التي تحدّد لوضعه محاباةً لبعض الأفراد ، أو حرماناً أو نقصاناً للبعض الآخر دون مبرر ، ولا يجوز أن يتأخر العطاء عن موعده بسبب تعقد الإجراءات ، أو كثرة الحجب التي تحجب أرباب الظلamas عن الوصول لمن بيدهم أمر العطاء ؛ لبحث ظلامتهم من تأخير العطاء ، أو قلّته ، أو عدم وصوله إليهم ، ولا يجوز في الخدمات العامة التي تؤديها الدولة للشعب أن تكون المنفعة لفرد معين ، بل يجب أن يعود نفعها على الأمة جماعة^(٥) .

(١) الخلافة بين التطوير والتطبيق ، محمد المرداوي ، ص (٦٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (٦٧) .

(٣) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٦٣) .

(٤) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٦٤) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص (٦٦) .

٥- عدم ظلم أهل الذمة وأخذ ما عليهم لبيت المال بالحق ، وإعطاؤهم حقوقهم بالحق كذلك : لا يجوز ظلم أهل الكتاب عند أخذ الجزية منهم ؛ لأنَّ أهل الكتاب من الذميين الذين يقيمون في الدُّولة الإسلامية ، وهم في ذمتها ، ورعايتها ما داموا يؤذون الجزية ، وقد أوصى به رسول الله ﷺ ، فقد ولَّ عبد الله بن أرقم على جزية أهل الذمة ، فلما ولَّ من عنده ، ناداه ، فقال : « ألا من ظلم معاهداً ، أو كلفه فوق طاقته ، أو انتقصه ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيمة »^(١) . واستناداً لذلك ؛ فقد أوصى بهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين موته : أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً ، أن يوفي لهم بعهدهم ، وأن يقاتل منْ وراءهم وألا يكثروا فوق طاقتهم^(٢) .

فإذا آذى عَمَالَ الْجِزِيَّةِ الْذَّمِينَ ، أو كلفوهم فوق طاقتهم ، أو عذبوا لهم ، أو أخذوا الجزية من الشَّيخِ الْكَبِيرِ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ ، ولا يُسْتَطِعُ عَلَيْهِ مِنْ خَرَاجٍ لِبَيْتِ الْمُسْلِمِينَ ، هَذَا لَوْنًا مِنْ ألوان الظُّلْمِ الَّذِي تَبَهَّ الخَلِيفَةُ الْ ثَالِثُ فِي كِتَابِهِ عَمَالُ الْخَرَاجِ بَعْدَ ارْتِكَابِهِ مُسْتَنْدًا فِي ذَلِكَ لِتَعَالِيمِ الرَّسُولِ ﷺ^(٣) .

هذا وعلاوةً على الجزية يؤدّي أهل الذمة الذين يزرعون أرض الخراج - وهي التي آلت للدُّولَةِ الإِسْلَامِيَّةِ كغَنِيمَةٍ نَتِيجةً لِلْفَتْحِ الإِسْلَامِيِّ - ما يُسْتَحْقِقُ عَلَيْهِ مِنْ خَرَاجٍ لِبَيْتِ الْمُسْلِمِينَ ، ويجب أن يراعي عَمَالُ الْخَرَاجِ الْحَقَّ فِي تَحْدِيدِ قِيمَتِهِ الْمُسْتَحْقَقَةِ عَلَى الْأَرْضِيِّ الَّتِي يَزْرِعُهَا أَهْلُ الذَّمَةِ ، وَذَلِكَ بِمِرْاعَاةِ الْعِوَافِ الْتِي تَحْكُمُ تَحْدِيدَهُ ؛ لَأَنَّ إِغْفَالَهَا كُلُّهَا ، أَوْ بَعْضُهَا يُوقِعُ الظُّلْمَ بِأَهْلِ الذَّمَةِ ، الَّذِينَ يَزْرِعُونَهَا ، وَهَذِهِ الْعِوَافُ أَرْبَعُ :

* ما يختصُّ بِالْأَرْضِ مِنْ جُودَةِ ، يَزْكُوبُهَا زَرْعُهَا ، أَوْ رَدَاءِ يَقُلُّ بِهَا رِيعُهَا .

* ما يختصُّ بِالْأَرْزَعِ مِنْ اختلاف أنواعه من الحبوب ، والثمار ، فمنها ما يكثُر ثمنه ، ومنها ما يقلُّ ثمنه ، فيكون الخراج بحسبه .

* ما يختصُّ بِالسَّقِيِّ ، وَالشَّرْبِ ؛ لَأَنَّ مَا التَّزَمَ الْمَؤْوَنَةَ فِي سَقِيِّ النَّوَاضِحِ ، وَالدُّوَالِيِّ لَا يَحْتَمِلُ مِنَ الْخَرَاجِ مَا يَحْتَمِلُهُ سَقِيُّ السُّيُوحِ ، وَالْأَمَطَارِ .

* أَلَا يَسْتَقْضِي فِي وَضْعِ الْخَرَاجِ غَایَةً مَا تَحْمِلُهُ لِيَجْعَلَ فِيهَا لِأَرْبَابِ الْأَرْضِ بَقِيَّةً يَجْبَرُونَ بِهَا فِي النَّوَائِبِ ، وَالْجَوَائِحِ^(٤) .

(١) المُنتَخَبُ مِنَ الْسُّنَّةِ ، ص (٢٦١) .

(٢) السُّيُوهُ الْمَالِيَّةُ لِعُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ص (٦٧) .

(٣) السُّيُوهُ الْمَالِيَّةُ لِعُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ص (٦٧) .

(٤) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ نَفْسُهُ .

هذا ، وإذا كانت الدولة الإسلامية ، قد أبرمت عهداً ، أو عقدت صلحاً مع أهل الكتاب ، فواجب الدولة الإسلامية ، وعمال خراجها أن يتزموا بما ورد بها من شروط ، ومنها الشروط التي تحدد قيمة ما يدفعونه من جزية ، أو خراج ، لأن المسلمين إذا أبرموا عقداً ، أو عهدوا عهداً ، التزموا بالوفاء بالعقود ، والمهود^(١) .

٦- عدم ظلم اليتيم :

لليتيم حق في المال العام بنصوص القرآن الكريم، فهو من المستحقين لأموال الرّحمة إن كان فقيراً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَدِيلَيْنَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَةَ فُلُوْبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْأَغْرِمَنَ وَفِي سَبِيلِ فَرَضَةٍ مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِمُ حَكِيمٌ﴾ [التوبه : ٦٠].

ولليتيم نصيبٌ في خمس العنائِم تطبيقاً لقوله جلَّ وعلا : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا عِنْتَم مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ حُسْنَمْ وَلِرَسُولِهِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ إِن كُثُرْمَاءَ مَنْتَم بِاللَّهِ وَمَا أَرْزَانَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ النَّقْيَ الْجَمِيعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٤١] .

ولليتيم نصيبٌ في عطاء بيت المال ، فقد كان يفرض للأطفال عموماً ، ومنهم يتامى الأطفال ، وإذا كان اليتيم غنياً ، فيؤدي الزكاة المفروضة على أمواله إذا توفرت ، وواجب المُصدق أن يأخذ الزكاة بالحق ، والعدل ؛ حتى لا يذهب ظلمه بمال اليتيم ، أو جزء منه بغير وجه حق^(٢) .

٧- تخلق عمال الخراج بالأمانة والوفاء :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤْدُوا الْأَمْنَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُعْلِمِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

وقال تعالى : «**وَالَّذِينَ هُرُولَمَنْتُهُمْ وَعَهْدَهُمْ رَعُونَ**» [المؤمنون : ٨] .

طالب الخليفة الرّاشد عثمان بن عفّان رضي الله عنه عمّال الخراج أن يتخلّوا بالأمانة ، وهي صفة لازمة لجميع من يشتغلون بالأموال العامة ، وإذا لم تتوافر فيهم هذه الصّفة ؛ جاروا على حقوق بيت المال ، وجاروا على الممّولين ، وانتكست العلاقة بين بيت المال والممّولين .

والقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تنبئه ، وتحضن على التزام الأمانة ؛ وطالب الخليفة عثمان كذلك عمال الخراج بأن يتحلوا بالوفاء ، وقد ورد الوفاء مطلقاً في كتاب الخليفة ، فيشمل : الوفاء لبيت المال بمراعاة أخذ حقوقه كاملة من الرعية ، والوفاء للمماليك

(١) المصدر السّائق نفسه .

(٢) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٦٨) .

بعدم ظلمهم بالمعالاة في تحديد الفرائض المالية المطلوبة منهم ، والوفاء لأهل الذمة بالرفق ، وحسن المعاملة ، وتطبيق ما تضمنته شروط الصلح معهم من جزية ، وخارج دون زيادة^(١) .

٨- أثر تكامل النعم على مسار الأمة :

لم يرد عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يترك العامة دون تبصيرهم ، فحدّرهم من أن تجذبهم الدنيا إلى ملادها ، ومتاعها ، وخشي : أنَّ أمرَ الأمة صائرًا إلى الابداع بعد أن توفرت لهم ثلاثة ، وهي : تكامل النعم ، وبلغُ أولاد السبابيا ، وقراءة الأعاجم^(٢) ، فعثمان رضي الله عنه أدرك أنَّ تكامل النعم لدى البعض سيميل بأولي النعم عن المسار السليم ؛ لأنَّ تكامل النعم بزيادة الأموال لدى أفراد الرعية قد يفسدهم بسبب ما ينفقونه على الترف ، والفساد^(٣) ، قال تعالى : «وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهَلِّكَ قَرِيبًا أَمْنًا مُتَرَفِّهًا فَسَقَوْا فِيهَا حَقًّا عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدَمِيرًا» [الإسراء : ١٦] .

٩- المقارنة بين السياسة العمرانية والعثمانية :

هذه السياسة المالية التي أعلنتها ذو الثورين تكاد تتفق مع السياسة العامة المالية التي نفذها الفاروق حين ولّي أمر المسلمين ، فقد أعلن ، ونفذ : أنَّ المال العام لا يصلحه إلا خلال ثلاثة : أن يؤخذ بالحق ، ويعطى في الحق ، ويمنع في الباطل^(٤) فالسياسة العمرانية ، والعثمانية في المال تبعان من مشكاة واحدة ، وهي مشكاة الإسلام ، ومبادئه ، وأصوله ، وقواعده^(٥) .

ثانياً : توجيهات عثمانية توضح للناس قواعد زكاتهم :

قال عثمان رضي الله عنه : هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دينٌ فليؤدّه حتّى تخرجوا زكاة أموالكم ، ومن لم تكن عنده لم تطلب منه ؛ حتّى يأتي بها طوعاً ، ومن أخذ منه حتّى يأتي هذا الشهر من قابل . قال إبراهيم بن سعد : أراه يعني : شهر رمضان^(٦) ، وقال أبو عبيدة : وقد جاءنا في بعض الأمر : أن هذا الشهر الذي أراده عثمان هو المحرّم^(٧) . وبهذا القول أكّد عثمان رضي الله عنه المبادئ التالية :

(١) المصدر السابق نفسه ، ص (٦٩) .

(٢) تاريخ الطبرى (٢٤٥/٥) .

(٣) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٧٠) .

(٤) السياسة المالية لعمر بن الخطاب ، قطب إبراهيم محمد ، ص (٢٣) وما بعدها .

(٥) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٧٦) .

(٦) الأموال ، لأبي عبيدة ، ص (٥٣٤) .

(٧) المصدر السابق نفسه ، ص (٥٣٥) .

أ - مبدأ سنوية الزكاة ؛ إذ يشترط لأداء الزكوة ما عدا زكاة الرزق حول الحول ، ويظهر ذلك من قول عثمان : أنَّ من أخذ منه لا يؤدى زكاةً من أمواله حتَّى يأتي نفس الشَّهر في السنة التالية فلا تكرر عليه الزكوة في عامٍ واحدٍ .

ب - إذا أخذنا بقول أبي عبيد : أنَّ الشَّهر الذي قصده عثمان بن عفان هو شهر المحرَّم ، فكأنَّه أراد أن تكون السنة المالية الإسلامية مطابقةً للسنة الهجرية ، فعلى المسلمين بعد مرور سنة هجريةٍ كاملةٍ على ما لديهم من أموالٍ أن يسدِّدوا ما عليها من زكاةٍ في أول السنة الهجرية التالية وهو شهر المحرَّم ؛ إذا توفرت شروطها .

ج - ويدعو عثمان بن عفان رضي الله عنه الناس إلى حساب وعاء الزكوة ، فيطلب منهم أداء ما عليهم من ديون حتَّى تؤخذ الزكوة على الباقي^(١) ، ولعلَّ عثمان أراد أن يستحقَ الناس على أداء ما عليهم من ديونٍ وفاءً منهم للذَّائدين ، وتسهيلاً لحساب المال الخاضع للزكوة ، وحتَّى يقطع بحدِّية الدَّين ، وعدم تطرق الصُّورَيَّة إليه^(٢) .

د - يقول عثمان رضي الله عنه : ومن لم تكن عنده لم تُطلب منه حتَّى يأتي بها تطوعاً . وبذلك يفتح عثمان بن عفان الدَّعوة إلى التطوع ، فقد يرى بعض المسلمين : أنَّه لا يستحقُ عليهم زكوةً ومع ذلك يرون التطوع بأداء صدقاتٍ من أموالهم ، يؤذنونها لبيت المال ، فيقبلها منهم ، ويضمُّها إلى موارد الزكوة ، وتصرف الدولة منها على نفس مصارف الزكوة^(٣) .

وقد يكون قول عثمان رضي الله عنه : ومن أخذنا منه لم نأخذ منه حتَّى يأتي بها تطوعاً : أنَّه يقصد أن لا يجيء بيت المال صدقة الذهب ، والفضة إلا إذا أتى بها صاحبها لبيت المال ، وأما الصدقة التي يكره الناس عليها ويجهدون على منعها ؛ فهي صدقة الماشية ، والحرث ، والنَّخل ، وبذلك يكون عثمان قد ترك لأصحاب الأموال أداء الزكوة على ما يعرف بالأموال الباطنة ، وهي أموال الذهب ، والفضة ، والتجارة ، ولا يقبلها منهم إلا إذا أتى بها صاحبها تطوعاً^(٤) ، يقول في ذلك أبو عبيد : ألا ترى أنَّ رسول الله ﷺ قد كان يبعث مصدقيه إلى الماشية ، فيأخذونها من أربابها بالكره منهم والرضا ، وكذلك كانت الأئمة بعده ، وعلى مع صدقة الماشية قاتلهم أبو بكر ، ولم يأت عن النبي ﷺ ولا عن أحدٍ بعده : أنَّهم استكروا الناس

(١) السياسة المالية لعثمان رضي الله عنه ، ص (٧٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (٧٧) .

(٤) الأموال ، لأبي عبيد ، ص (٥٣٧) .

على صدقات الصّامت ، إلا أن يأتوا بها غير مكرهين ، وإنما هي أماناتهم ، يؤذونها ، فعليهم فيها أداء العين ، والدين ؛ لأنّها ملك أيمانهم ، وهم مؤتمنون عليها ؛ وأمّا الماشية فإنّها حكم يحكم بها عليهم ، وإنما تقع الأحكام فيما بين النّاس على الأموال الظاهرة وهي فيما بينهم وبين الله على الظّاهرة ، والباطنة جمِيعاً^(١) .

١-رأيه في زكاة دين الدّائن :

عن السائب بن يزيد : أنّ عثمان كان يقول : إن الصدقة تجب في الدين الذي لو شئت تقاضيته من صاحبه ، والذي هو مليء تدعه حياءً ، أو مصانعةً ، فيه الصدقة^(٢) .

وعن عثمان رضي الله عنه قال : زگ - يعني الدين - إذا كان عند الملا^(٣) .

فمن هذين القولين لعثمان بن عفان يبيّن : أن الصدقة واجبة على الدين للدائن على المدين مليء ، ويستطيع أن يحصل من المدين على دينه ، ولكن يستحب أن يذكر المدين به ، أو أن الدائن يدع دينه للمدين مصانعة له ، والمصانعة تعني : سكوت الدائن عن المطالبة بدينه نظير مفعمة يحصل عليها من المدين^(٤) .

٢-اقتراضه من مصرف الزّكاة ، وإنفاقه للمصالح العامة :

أخذ عثمان رضي الله عنه من أموال الزّكاة ، فأنفق منها في الحرب ، وفي غير الحرب على المرافق العامة ، فأنفق على الجهاد على أن يردد ذلك إذا أشاع المال لرده ، ومن حق الإمام أن يفترض من مصرف لمصرف لا يخالف بذلك الدين ، ولا يغير سنة موروثة ما دام مصمماً على أن يردد على أموال الصدقة ما أخذ منها^(٥) ، وتذهب بعض الآراء إلى أن أحد مصارف الزّكاة وهو مصرف في سبيل الله يعطى للغازي في سبيل الله من أموال الزّكاة ؛ لأن انقطاعه للجهاد أقدهه عن العمل ، والكسب ، وليس هذا من باب التشجيع على البطالة ، فهذا الصنف قد آثر مصلحة الإسلام على مصلحة نفسه ، وترك العمل لشخصه ، يعمل في مجال أرحب ، وأوسع وهو العمل لإعلاء كلمة الله ونشر دينه في المعمورة ، ويرى بعض العلماء جواز صرف الزّكاة في المنافع العامة ، وما تقتضيه حاجات الأمة^(٦) .

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المنتخب من السنة (٣٠١/٦).

(٤) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٧٩) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص (٨٠) .

(٦) المصدر السابق نفسه ، ص (٨١) .

٣- الإنفاق من الزكاة على الطعام للفقراء ، وأبناء السبيل :

سن عثمان رضي الله عنه سنة جديدة ، فكان يضع الطعام في المسجد في رمضان ، وقال : للمتعبّد الذي يتخلّف في المسجد ، وابن السبيل ، والمعترين^(١) . وال الخليفة عثمان رضي الله عنه بذلك يكرّم المسلمين من بيت المال ، وفي ذلك اقتداء بالرسول ﷺ الذي كان أجود الناس ، وأجود ما يكون في رمضان ، وهذه السنة التي استنّها عثمان ترغّب المسلمين في الاعتكاف في المساجد ، مادام أكلهم معداً ، وفي ذلك تشجيع على إحياء سنة الرسول الكريم ﷺ في الاعتكاف^(٢) .

٤- إنشاء منازل للضيافة من أموال الزكاة :

بلغ عثمان : أن أبي سمال الأسدية ومعه نفر من أهل الكوفة ينادي مناد لهم إذا قدم المعيار^(٣) : أن من كان من القبائل ليس لقومهم بالكوفة منزل ، فمنزله على أبي سمال ، فاتّخذ عثمان بعض الدور كمنازل للضيافة ، ينزل بها الغرباء ممّن ليس لهم منزل ، ومن هذه الدور منزل عبد الله بن مسعود في هذيل ، وكان الأضياف ينزلون داره في هذيل إذا ضاق عليهم ما حول المسجد^(٤) .

٥- العطاء من بيت المال لكل مملوكٍ :

مما زاد عثمان رضي الله عنه على يده أن ردّ على كل مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلاثة من كل شهر يتّسعون بها من غير أن ينقص موالיהם^(٥) ، والغالب على أن مصدر هذه الأموال التي وزّعها عثمان على كل مملوك هو أموال الزكاة ، باعتبار : أن لهم فيها نصيباً ؛ لأنهم أحد الثمانية مصارف ؛ التي حدّتها آية الزكاة وهي مصرف «وفي أرثاق»^(٦) .

ثالثاً : خمس الغنائم :

بدأ الجهاد في عهد الرسول ﷺ واستمرّ في عهد أبي بكر ، وعمر ، وكذلك في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وكانت نتيجة ذلك انتشار الإسلام ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وكانت فتوحات عهد عثمان كبيرة ، حَقِّقت غنائم كثيرة إلى بيت المال منها الخمس ، كما أنه آل إلى بيت المال جزية من آثر البقاء على دينه من أهل الكتاب ولم يحارب ، فهناك ارتباطاً إذاً بين بيت

(١) تاريخ الطبرى (٢٤٥/٥) . والمعتر : الفقير ، المعترض للمعروف بدون سؤال .

(٢) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٨٣ ، ٨٢) .

(٣) المعيار : جمع مائر ، وهو جالب الميرة ، والميرة : الطعام .

(٤) تاريخ الطبرى (٢٧٣/٥) .

(٥) المصدر السابق نفسه (٢٧٥/٥) .

(٦) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٨٤) .

المال ، والفتوات الإسلامية ، فقد قام بيت المال في عهد عثمان بتمويل هذه الفتوحات سواءً بما كان يدفعه للجنود من مرتباتٍ ، أو لشراء الأسلحة ، والعتاد بجانب التَّطْمُع بالأموال ، والأنفس ، وإذا تحقق النَّصْر ؛ فرضت الجزية على من لم يسلم من أهل الكتاب ، والخروج على الأرض التي أخذت عنوةً ، وإذا أسلم أهل البلاد ، سدَّدوا الزَّكَاة ؛ إذا بلغت أموالهم نصاباً ، وتوفرت شروطها باعتبارها من أركان الإسلام ، ولا يكمل إسلام المسلم إلا بأدائها ، وهذه كلُّها تساهم في زيادة الإيرادات العامة للدُّولَة الإسلامية ، وأحلَّ الله لل المسلمين غنائم الحرب ، ويوَزِّع أربعة خمساتها بين الفاتحين ، والخمس الباقِي يَؤُولُ لبيت مال المسلمين^(١) .

وفيما يلي بعض المسائل التي أسفَرَ عنها تطبيق السياسة العامة في عهد عثمان بن عفَانَ بشأن خمس غنائم الفتوحات :

١- لم يسهم للصَّبِيِّ من الغنائم في عهد عثمان بن عفَانَ :

عن تميم بن المهرىٰ ، قال : شهدت فتح الإسكندرية في المرَّة الثانية ، فلم يسهم لي حتَّى كاد أن يقع بين قومي وبين قريش منازعٌ . فقال بعض القوم : أرسلوا إلى بصرة العفارىٰ ، وعقبة بن عامر الجهنوىٰ ، فإنهما من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألوهما عن هذا ، فأرسلوا إليهما ، فسألوهما ، فقالا : انظروا فإنَّ كأنَّ أنتَ^(٢) ، فأسهموا له ، فنظر إلى بعض القوم ، فوجدوني قد أبْتُ ، فأسهموا لي^(٣) .

ومعنى ذلك أنَّه لا يسهم للصَّبِيِّ ، ولا للمرأة ، إنَّما يرضخ لهم ؛ أي : يعطون شيئاً قليلاً لمساعدتهم في غزوات المسلمين ، وهذا ما كان يطبق في عهد رسول الله ﷺ^(٤) .

٢- السَّلْبُ للقاتل في عهد عثمان كما كان في عهد رسول الله ﷺ :

السَّلْبُ : هو ما كان على القتيل في الحرب ، وما كان من سلاح ، وما كان تحته من فرسٍ ، وقد قضى رسول الله ﷺ بالسَّلْب للقاتل ، فعن أبي قتادة : أَنَّ رسول الله ﷺ قال يوم حنين : « من قتل قتيلاً له بَيْتَه فله سَلْبُه »^(٥) ومفاد هذا الحديث : أنه لا يستحقُ للقاتل في السَّلْب إلا بعد أن يقيم البينة على أنَّه هو الذي قتله ، حتَّى إذا تنازع اثنان ، كُلُّ منهما يدَعِي : أنه قتله ، فالسلب لمن يقيم البينة منهما^(٦) .

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٨٦ ، ٨٧) .

(٢) أبْتُ : أي نبات شعر العانة .

(٣) فتوح مصر ، وأخبارها ، ص (١٢١) .

(٤) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٩٣) .

(٥) البخاريٰ ، كتاب المعازي ، رقم (٤٣٢٢) .

(٦) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٩٣) .

وقد حدث بعد انتفاضة الإسكندرية ، وجاءت الروم عليهم من قبل الخصيُّ ، وأرسوا بالإسكندرية ، وتركهم عمرو حتى يسيروا إليه ، فيصيبون مَنْ مَرُوا به في البلاد ، فيخزي الله بعضهم ببعض ، فخرجوا من الإسكندرية ، ومعهم مَنْ نقض من أهل القرى ، فجعلوا ينزلون القرية ، فيشربون خمورهم ، ويأكلون أطعمتها ، ويتهبون ما مَرُوا به ، فلم يعرض عمرو حتى بلغوا نقيوس ، فلقوهن في البرِّ ، والبحر ، فحاربوا بالشَّاب ثمَّ خرجوا من البحر ، فاجتمعوا هم والذين في البرِّ ، واستمروا في حرب الشَّاب ، وبرز بطريق مَمَّ جاء من أرض الروم على فرسٍ له عليه سلاح مذهب فدعا إلى البراز ، فبرز له رجلٌ من زيد ، يقال له : (حومل) يكنى أبا مذحج ، فاقتلا طويلاً برمجين يتطاردان ، ثمَّ ألقى الطريق الرُّمح وأخذ السيف وألقى (حومل) رمحه ، وأخذ بسيفه ، وجعل عمرو يصيح : أبا مذحج ! فيجيئه : ليك ! والناس على شاطئ النيل في البرِّ على تعبيتهم ، وصفوفهم ، فتجاوزوا ساعةً بالسيفين ، ثمَّ حمل عليه الطريق فاحتمله ، ثمَّ أخذ (حومل) خنجرأً كان في منطقته أو في ذراعه فضرب به نحر عدوه ، فأوت قوته ، فأثبتته ، ووقع عليه فأخذ سلبه ، ثمَّ مات (حومل) بعد ذلك بأيام - رحمة الله عليه - ثمَّ شدَّ المسلمين حتى ألحقوهم بالإسكندرية ، ففتح الله عليهم ، وقتل من قبل الخصيُّ^(١) .

٣- قيمة الغنائم ونصيب بيت المال في أحد فتوحات عثمان :

من حديث عبد الملك بن مسلمة عن غيره ، قال : غزونا مع عبد الله بن سعد إفريقية ، فقسم بيننا الغنائم بعد إخراج الخمس ، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار : للفرس ألفاً دينار ، ولفارسه ألف دينار ، وللرَّاجل ألف دينار ، فقسم لرجل من الجيش توفي بذات الحمام ، فدفع لأهله بعد موته ألف دينار^(٢) .

ومن حديث لعثمان بن صالح ، وغيره ، قال : فكان جيش عبد الله بن سعد ذلك عشرين ألفاً . ومن المعروف : أنَّ يؤول الخامس لبيت المال استناداً إلى قول الله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ مُحْسِنٌ وَاللَّهُو أَكْبَرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَالْمُسْكِنُونَ وَابْنُ السَّبِيلِ إِنَّ كُثُرَهُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفَرْقَانِ يَوْمَ الْقَيْمَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٤١] .

وقد رفع نصيب الرَّسُول ﷺ وذي القرى في عهد أبي بكر رضي الله عنه بعد وفاة الرَّسُول ﷺ ووجه إلى السَّلاح ، والكُرْعَان ، وسايره عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه من بعده في التطبيق ، وكذا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والأربعة أخماس الباقي من الغنائم توزَّع على الفاتحين

(١) فتح مصر وأخبارها ، ص (١١٩ ، ١٢٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (١٢٥) .

بنسبة (٣) للفارس وفرسه ، و(١) للرَّاجل ، فمن الحديثين السابعين يمكن حساب قيمة الخمس الذي آل بيت المال ، وكذلك قيمة الغنائم كلُّها ، فبافتراض : أنَّ الفوارس عشر الجيش الذي بلغ عشرين ألفاً ، وأنَّ الباقي من الرَّاجلين يكون الحساب كالتالي :

$$٢٠٠٠ \text{ فارس} \times ٣٠٠٠ \text{ دينار} = ٦,٠٠٠,٠٠٠ \text{ دينار}$$

$$١٨٠٠٠ \text{ رجل} \times ١٠٠٠ \text{ دينار} = ١٨,٠٠٠ \text{ دينار} .$$

مجموع ما خصَّ المحاربين = ٢٤ مليون دينار ، وهو ما يمثل أربعة أخماس قيمة الغنائم ، ويكون نصيب بيت المال خمس الغنائم أي = ٦ مليون دينار ، ويكون مجموع ما غنم المسلمون = ٣٠ مليون دينار^(١) .

٤- الإنفاق العام من خمس الغنائم :

ينفق خمس الغنائم طبقاً لنصِّ الآية للرَّسول ﷺ ولذِي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السَّبيل بحقِّ الخمس لكلٍّ منهم ، وأنَّه بعد موت الرَّسول ﷺ آل نصيبيه ، ونصيب ذي القربى إلى بيت المال ؛ ليتفق منها على الكُرْاع ، والسَّلاح ، وقد استند الخليفة الرَّاشد عثمان رضي الله عنه نصيب رسول الله ﷺ وذِي القربى ؛ الذي آل إلى بيت المال على الإنفاق على الكُرْاع ، والسَّلاح لكثرة الفتوحات التي تمتَّ في عهده وما استلزمته من أسلحة ، وخيوط^(٢) .

٥- نجاح السياسة المالية في تمويل فتوحات الإسلام في عهد عثمان :

من ضمن التَّحدِّيات التي واجهها عثمان رضي الله عنه انتكاس بعض البلاد المفتوحة ، واستطاع عثمان رضي الله عنه إجبار البلاد التي نقضت العهد على الالتزام بعهودهم مع الدولة الإسلامية ، والانصياع لحكمها ، وفي ضوء ما تمَّ من فتوحاتٍ جديدة ، فإنَّه يمكن القول : إنَّ تنفيذ السياسة المالية فيما يتعلق بهذه الفتوح قد أسفر عن قيام المالية العامة في عهد عثمان بن عفَّان بالمطلوب منها ، سواءً من ناحية تمويلها لهذه الفتوح ، أو بما حقَّقته الانتصارات من غنائم كثيرة حصل بيت المال على نصيبيه منها ، أو من موارد أخرى ، وهي زكاة من أسلم من أهل الأمصار ، وجزية من أبي الإسلام من أهل الكتاب ، وخارج أراضيهم^(٣) .

رابعاً : الإيرادات العامة من الجزية في عهد عثمان رضي الله عنه :

١- استقرار المسائل الفنية للجزية في عهد عثمان رضي الله عنه :

استقرَّت أحکام الجزية ، وقواعدها ، ونظام تطبيقها ، وتحصيلها في عهد عمر بن

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٩٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (٩٧) .

(٣) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٩٩) .

الخطاب ، ولذلك كان دور بيت المال في عهد عثمان أن يتلقى ما يتهم تحصيله من جزية بعد الافتراق على قيمتها ، وأن تقر الدولة ما تم عقده من صلح في عهود سابقة ، أو إقرار صلح جديد ، وأن تتکفل الدولة لمن أدوا الجزية بالحقوق التي تترتب على هذا الأداء^(١) .

٢- نماذج ممّا آل لبيت المال من إيرادات الجزية :

أ- غزا الوليد بن عقبة في إمارته على الكوفة في عهد عثمان أذربيجان ، وصالح أهلها على ثمانمائة ألف درهم حبسوها عند وفاة عمر ، فوطئهم بالجيش ، وانقادوا له ، وقبض منهم المال^(٢) .

ب- لمّا وَجَهَ عُثْمَانَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدٍ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ ؛ كَانَ الَّذِي صَالَحَهُمْ عَلَيْهِ بِطَرِيقِ إِفْرِيقِيَّةَ جَرْ جِيرَ أَلْفِيَّ أَلْفِ دِينَارٍ وَخَمْسَمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَعِشْرِينَ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَكَانَ الَّذِي صَالَحَهُمْ عَلَيْهِ عَبْدَ اللَّهِ ثَلَاثَمِائَةَ قَنْطَارَ ذَهَبٍ (ولعل ذلك يعادل المبلغ الأول)^(٣) .

ج- صلح قبرص وقع على جزية سبعة آلاف دينار يؤذونها إلى المسلمين^(٤) .

د- صالح سعيد بن صالح أهل جرجان ، وكانوا يجبون أحياناً مئة ألف ، ويقولون هذا صلحنا ، وأحياناً مئتي ألف ، وأحياناً ثلاثة ألف^(٥) .

هـ- غالب عبد الله بن عامر على نيسابور ، وخرج إلى سرخس ، فأرسل إليه أهل مرو يطلبون الصّلح ، فبعث إليهم ابن حاتم الباهلي ، فصالح مربان مرو على ألفي ألف ، وقال آخر : صالحهم على ستين ألف درهم^(٦) .

و- سار الأحنف بن قيس إلى بلخ ، فحاصرهم ، فصالحة أهلها على أربعين مائة ألف ، فرضي منهم بذلك ، واستعمل ابن عمّه ، وهو أسيد بن المتشمس ؛ ليأخذ منهم ما صالحوه عليه^(٧) .

٣- عثمان بن عفان ينفذ كتاب الرّسول ﷺ لأهل نجران :

كان النّبِيُّ ﷺ قد أقرَّ أهل نجران على شروطِ اشتراطها عليهم ، واشترطوها هم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، يوضح هذه الشروط ، ومنها دفعهم الجزية ، ومقدارها ، ثمّ جاؤوا بعد الرّسول

(١) المصدر السابق نفسه ، ص (١٠٣) .

(٢) تاريخ الطبرى (٢٤٦ / ٥) .

(٣) المصدر السابق نفسه (٢٥٥ / ٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه (٢٦١ / ٥) .

(٥) المصدر السابق نفسه (٢٦١ / ٥) .

(٦) المصدر السابق نفسه (٣١٨ / ٥) .

(٧) المصدر السابق نفسه (٣٠٧ / ٥) .

فكتب لهم أبو بكر رضي الله عنه كتاباً بهذه الشروط ، ثم جاؤوا من بعد أن استخلف عمر رضي الله عنه إليه ، وكان عمر قد أجلهم عن نجران اليمن ، وأسكنهم بنجران العراق ؛ لأنَّه خافهم على المسلمين ، وكتب لهم كتاباً^(١) .

فلما قُبض عمر رضي الله عنه واستخلف عثمان بن عفان رضي الله عنه أتوه إلى المدينة ، فكتب لهم إلى الوليد بن عقبة وهو عامله الكتاب التالي : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عُثْمَانَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ الْأَسْقُفَ ، وَالْعَاقِبَ ، وَسَرَاةُ أَهْلِ نَجْرَانِ الَّذِينَ بِالْعَرَاقِ ، أَتُونِي ، فَشَكَوُا إِلَيَّ ، وَأَرَوْنِي شَرْطُ عُمْرِهِمْ ، وَقَدْ عَلِمْتُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنِّي قَدْ حَفِظْتُ عَنْهُمْ ثَلَاثَيْنِ حَلَةً مِنْ جَزِيَّهُمْ ، وَتَرَكْتُهَا لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى جَلَّ شَنَاؤُهُ ، وَإِنِّي وَفَيْتُ لَهُمْ بِكُلِّ أَرْضِهِمُ الَّتِي تَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ عَمَرٌ عَقْبَيْنِ مَكَانٍ أَرْضِهِمْ بِالْيَمَنِ ، فَاسْتَوْصِبُوهُمْ خَيْرًا . فَإِنَّهُمْ أَقْوَامٌ لَهُمْ ذَمَّةٌ ، وَكَانَ بَيْنِهِمْ مَعْرِفَةٌ ، وَانْظَرْ صَحِيفَةً كَانَ عُمَرُ كَتَبَهَا لَهُ ، فَأَوْفُهُمْ مَا فِيهَا ، وَإِذَا قَرَأْتُ صَحِيفَتَهُمْ فَارْدَدْهَا عَلَيْهِمْ وَالسَّلَامُ)^(٢) . وَكَانَ ذَلِكَ فِي النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ سَبْعِ وَعَشْرِينَ^(٣) .

وَمِمَّا سُبِقَ يَتَضَعُّ :

أ- أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْفَى بِعَهْدِ الرَّسُولِ^(٤) وَعَهْدِ صَاحِبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ يَنْبُغِي مِنْ مِبْدَأِ عَامٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ أَنَّ مِنْ عَقْدِ عَقْدًا ، أَوْ عَهْدِ عَهْدًا ، أَوْ وَعْدِ وَعْدًا ؛ أَوْفِيَ بِهِ .

ب- خفَفَ عُثْمَانَ عَنْهُمُ الْجُزِيَّةَ ، وَوَفَّى لَهُمْ بِكُلِّ أَرْضِهِمْ ، وَطَلَبَ مِنْ عَامِلِهِ الْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ أَنْ يَوْفِيَ لَهُمْ بِمَا وَرَدَ فِي كِتَابِ عُمَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنْ يَسْتَوْصِيَ بِهِمْ خَيْرًا ؛ لَأَنَّهُمْ أَقْوَامٌ لَهُمْ ذَمَّةٌ^(٤) .

٤- أَهْلُ الْكِتَابِ فِي ذَمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مَا دَامُوا يَؤْذُونَ الْجُزِيَّةَ :

بعد انتصار عمرو بن العاص في الإسكندرية ، وكان قد جمع من القرى أثناء الحرب ما أصاب أهل القرى ، فجاءه أهل تلك القرى ممَّنْ لم يكن نقض ، فقالوا : قد كنَّا عَلَى صَلْحَتِنَا ، وقد مَرَّ عَلَيْنَا هُؤُلَاءِ الْلُّصُوصِ (أي : الرُّؤُوم) وَأَخْذُوا مَاعِنَا ، وَدَوَابَّنَا ، وَهُوَ قَائِمٌ بَيْنِ يَدِيكَ ، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ عُمَرُ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ مَتَاعٍ عَرَفُوهُ ، وَأَقَامُوا عَلَيْهِ الْبَيِّنَةَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِعُمَرَ : مَا حَلَّ لَكَ مَا صنعتَ بِنَا ، كَانَ لَنَا أَنْ تَقَاتِلَنَا فِي ذَمَّتِكَ ؟ وَلَمْ نَنْقُضْ فَأَمَّا مِنْ نَقْضٍ ، فَأَبْعَدْهُ

(١) الخراج ، لأبي يوسف ، ص (٧٤) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١٠٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص (١٠٥) .

الله^(١) ! فانظر كيف كان نظام الجزية يرتب حقوقاً تمسّكوا بها ، وهي حمايتهم نظير ما يدفعون ، بالرغم من أنّهم لا يشترون في الدفاع عن البلاد مع المسلمين ، وإنّما يدفعونها نظير حقوقٍ يحصلون عليها من الدولة الإسلامية ، ومن هذه الحقوق حق الحماية ، وحق الرعاية ، وقد أقرّهم عمرو بن العاص على هذه الحقوق ، وردّ إليهم أموالهم^(٢) .

٥- مشاركة أهل الذمة في الأعباء العامة في عهد عثمان :

وممّا يذكر بشأن فتح الإسكندرية الثاني في خلافة عثمان بن عفان ممّا يتصل بالجزية : أنَّ صاحب إخنا ، وكان اسمه (طلما) قدم على عمرو بن العاص ، فقال : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية ، فيصبر لها ؟

فقال عمرو ، وهو يشير إلى ركن كنيسة : إنّما أنتم خزانة لنا إنْ كثرا علينا ، كثُرنا عليكم ، وإنْ خففْ عَنَّا خففنا عنكم ، فغضب صاحب إخنا ، فخرج إلى الرؤوم ، فقدم بهم ، فهزّهم الله وأسر ، فأتي به إلى عمرو ، فقال له الناس : اقتلها . فقال : لا ! وقيل : إنَّ عمراً لما أتى به سُورَه ، وتوجه ، وكسه برسن أرجوان ، وقال له : ائتنا بمثل هؤلاء . فرضي بأداء الجزية .

فقيل لطلما : لو أتيت ملك الرؤوم . فقال : لو أتيته لقتلني ، وقال : قتلت أصحابي^(٣) .

وعندما حلّ قول عمرو بن العاص : إنّما أنتم خزانة لنا ، إنْ كثرا علينا ؛ كثُرنا عليكم ، وإنْ خففْ عَنَّا ، خففنا عنكم ، نستنتج بعض المبادئ للسياسة المالية في عهد عثمان بالنسبة لغير المسلمين ، منها :

أ - أهل الذمة يساهمون في بيت مال المسلمين بما يؤدّونه من جزية ، فهم خزانة لبيت المال ، يحصل منها بيت المال على نصيبيه في أموالهم على هيئة جزية .

ب - أنَّ هذا النصيب في أموال أهل الذمة يتحدد في ظلّ الأعباء الملقة على الدولة ، فإنْ كبر هذا العبء ؛ ارتفعت قيمة الجزية ، وإنْ خفَّ هذا العبء ، خفت قيمة الجزية .

ج - هذا التحول في قيمة الجزية ارتفاعاً ، وانخفاضاً مع أعباء الحكم ينبع من مبدأ المشاركة المالية من مواطني الدولة في الأعباء ، بحيث يساهم كلُّ على قدر طاقته وبما يحقق العدالة في توزيع الأعباء ، وفي ظلّ الوصايا التي أوصى بها الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بحسن معاملة أهل الذمة عامة^(٤) .

(١) المصدر السابق نفسه ، ص (١٠٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (١٠٦) .

(٣) فتح مصر وأخبارها ، ص (١٠٢) .

(٤) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١٠٧) .

خامساً : الإيرادات العامة من الخراج والعشور في عهد عثمان :

١- الخراج :

امتدَّت فتوحات الإسلام في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ونتج عن هذه الفتوحات أن دخلت الأرض الزراعية للبلاد المفتوحة في حوزة الدولة الإسلامية ، وكان عمر رضي الله عنه قد اعتبرها فيئاً للمسلمين ، وأبقى عليها أهلها من أهل الكتاب الذين أثروا الإبقاء على دينهم ، يزرعونها ، ويؤذون عنها خراج الأرض لبيت مال المسلمين ، وقد ساهم خراج هذه الأراضي في زيادة إيرادات بيت المال في عهد عثمان رضي الله عنه بسبب امتداد الفتوحات الإسلامية في عصره^(١).

٢- عشرة التجارة :

استقر نظام العشور في عهد الفاروق على الأسس والقواعد التي وضعها عمر ، رضي الله عنه ، وفي عهد عثمان بن عفان يبدو بصفة عامةً : أن إيرادات بيت المال زادت من عشرة التجارة ؛ نتيجة لزيادة رقعة الدولة الإسلامية بسبب الفتوحات التي تمت في عهده ، ونتيجةً لزيادة الثروات لدى البعض ، مما زاد القوة الشرائية بصفة عامةً خصوصاً في السنوات الأولى في عهد عثمان بن عفان ؛ التي أسمت بالاستقرار ، وزيادة القوة الشرائية تزيد الطلب على السلع ، وزيادة الطلب على السلع تدعو إلى تنشيط استيرادها ، وخصوصاً عشور التجارة متى توفرت شروط الإخضاع ، ومن العوامل التي أدت إلى زيادة حصيلة عشور التجارة في عهد عثمان بن عفان ارتفاع الأسعار ، وارتفاع أسعار السلع يؤدي وبالتالي إلى زيادة حصيلة عشور التجارة منها ؛ لأنها ضريبة قيمة ، تؤخذ بنسبة معينة على قيمة السلعة ، وليس نوعية تؤخذ من نوع السلعة^(٢).

سادساً : سياسة عثمان بن عفان في إقطاع الأرض :

مضى أبو بكر رضي الله عنه في تطبيق السياسة النبوية في إقطاع الأراضي للناس طلباً لاستصلاحها ، فقد أقطع الرَّبِّير بن العوَّام أرضاً مواتاً ما بين الجرف ، وقناة^(٣) ، وأقطع مُجَاجَة بن مرارة الحنفيَّة الخضرمة (قرية كانت باليمامية)^(٤) ، وأراد إقطاع الرَّبِّير قان بن بدر ، ثمَّ عدل

(١) المصدر السابق نفسه ص (١١٣) .

(٢) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١٢٣) .

(٣) الطبقات الكبرى ، لابن سعد (١٠٤ / ٣) .

(٤) عصر الخلافة الرَّاشدة ، للعمري ، ص (٢٢٠) .

عن ذلك لاعتراض عمر رضي الله عنه ، كما أراد إقطاع عبيدة بن حصن الفزارى ، والأقرع بن حابس التميمي أرضاً سبخةً (ليس فيها كلاً ، ولا منفعةً) أراد استصلاحها ، ثمَّ عدل عن ذلك أخذناً برأي عمر رضي الله عنه في عدم الحاجة لتأليفهما على الإسلام : (إن رسول الله ﷺ كان يتألفُكُما ، والإسلام يومئذ ذليلٌ ، وإنَّ الله - عزَّ وجلَّ - قد أعزَّ الإسلام ، فاذهبا ، فاجهدا جهداً كما ، ومن الواضح : أنَّ اعتراض عمر ليس على مبدأ الإقطاع لاستصلاح الأراضي ، بل على أشخاصِ بعينهم ، لا يرى تأليفهم على الإسلام ، وقد توسع عمر رضي الله عنه في إقطاع الأرض لغرض استصلاحها جريأاً على السياسة النبوية فقد أعلن : (يا أيُّها الناس ! من أحيا أرضاً مضى أبو بكرٍ رضي الله عنه في تطبيق السياسة النبوية في إقطاع الأراضي للناس طلباً لاستصلاحها ، فقد أقطع الرَّبِير بن العوَام أرضاً مواتاً ما بين الجرف ، وقناة^(١) ، وأقطع مُجَاعة بن مرارة الحفيَّ الخضراء (قرية كانت باليمامه)^(٢) ، وأراداً إقطاع الرَّبِير قان بن بدر ، ثمَّ عدل عن ذلك لاعتراض عمر رضي الله عنه ، كما أراد إقطاع عبيدة بن حصن الفزارى ، والأقرع بن حابس التميمي أرضاً سبخةً (ليس فيها كلاً ، ولا منفعةً) أراد استصلاحها ، ثمَّ عدل عن ذلك أخذناً برأي عمر رضي الله عنه في عدم الحاجة لتأليفهما على الإسلام : (إن رسول الله ﷺ كان يتألفُكُما ، والإسلام يومئذ ذليلٌ ، وإنَّ الله - عزَّ وجلَّ - قد أعزَّ الإسلام ، فاذهبا ، فاجهدا جهداً كما ، ومن الواضح : أنَّ اعتراض عمر ليس على مبدأ الإقطاع لاستصلاح الأراضي ، بل على أشخاصِ بعينهم ، لا يرى تأليفهم على الإسلام ، وقد توسع عمر رضي الله عنه في إقطاع الأرض لغرض استصلاحها جريأاً على السياسة النبوية فقد أعلن : (يا أيُّها الناس ! من أحيا أرضاً ميتاً فهي له)^(٣) . وهناك آثارٌ ضعيفةٌ تؤكِّد انتزاع عمر رضي الله عنه ملكية الأرض المقطعة إذا لم يتمَّ استصلاحها^(٤) ، وتحدد روایةٌ ضعيفةٌ لذلك ثلث سنوات من تاريخ الإقطاع ، وقد ثبتت إقطاع عمر رضي الله عنه لخوات بن جبیر أرضاً مواتاً ، وللرَّبِير بن العوَام أرض العقیق جميعها ، ولعلیٰ بن أبي طالب أرض ينبع ، فتدفق فيها الماء الغزير ، فأوقفها علىٰ رضي الله عنه صدقةً علىٰ الفقراء^(٥) ، ولما تولَّ عثمان رضي الله عنه الخلافة ؛ توسع في الإقطاع ، وخاصةً في المناطق المفتوحة ، حيث ترك عددً من الملَك أراضيهم فارِين ، فصارت صوافي تقوم الدَّولة باستثمارها ، فأقطع عثمان رضي الله عنه منها خوفاً من بوارها^(٦) ، ولكن الإمام أحمد يرى : أنه

(١) الطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٣/١٠٤) .

(٢) عصر الخلافة الرَّاشدة ، للعمري ، ص (٢٢٠) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (٢٢١) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) عصر الخلافة الرَّاشدة ، للعمري ، ص (٢٢٢) .

(٦) المصدر السابق نفسه ، ص (٢٢٣) .

أقطع من السّواد أيضاً ، وممّا لا شكّ فيه : أنَّ الصَّوافي قد يقع كثيُّر منها في أرض السّواد . وعلى أيّة حال فإنَّ الإقطاع من الصَّوافي رفع غلْتها من تسعه آلاف درهم (٩٠٠٠ درهم) سنويًا في خلافة عمر رضي الله عنه إلى خمسين مليون درهم (٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم) في خلافة عثمان رضي الله عنه ، مما يدلُّ على نجاح سياسته في إدارة الصَّوافي .

وتذكر المصادر قائمةً بأسماء الّذين أقطعهم عثمان ، رضي الله عنه ، ومعظمهم ليسوا من قريشٍ ، ومعظم الرّوايات في إقطاع عثمان رضي الله عنه ضعيفةٌ ، وهي بالجملة تثبت توسيعه في الإقطاع ، ومن المفيد ذكر أسماء المقطعين ، وهم :

* عبد الله بن مسعود الهدليُّ (أرض بين نهري بيل وبين السّواد) .

* عمّار بن ياسر العنسيُّ (أستينيا) .

* خباب بن الأرت التّميميُّ (صعنبي - قرية بالسواد) .

* عديُّ بن حاتم الطائنيُّ (الرّوحاء - قرية من قرى بغداد على نهر عبس) .

* سعدُ بن أبي وقاص الرّهريُّ القرشيُّ (قرية هرمز بير فارس) .

* الرّبّير بن العوام .

* أسامة بن زيد الكلبي .

* سعيد بن زيد العدوئيُّ القرشيُّ .

* جرير بن عبد الله البجليُّ (أرض على شاطئ الفرات) .

* ابن هبار .

* طلحة بن عبد الله التّميمي القرشيُّ (النشاشيبح) ضيعة بالковفة .

* وائل بن حجر الحضرميُّ (أرض توالي قرية زراره بالkovفة) .

* خالد بن عرفطة القضاعيُّ (أرض عند حمّام أعين بالkovفة) .

* الأشعث بن قيس الكنديُّ (طيزناباذ - موضع بين الكوفة والقادسية) .

* أبو مرید الحنفيُّ (أرض بالأهواز على نهر تيري) .

* نافع بن الحارث بن كلدة الثّقفيُّ (قطيعة بشطٌّ عثمان بالبصرة) .

* أبو موسى الأشعريُّ (قطيعة بحمام عمرة) .

* عثمان بن أبي العاص الثّقفيُّ (شط عثمان بالبصرة) .

ويبدو أنَّ جلاء أهل هذه الأراضي عنها صيرّها مواناً ، وأقطعها عثمان رضي الله عنه

لإحياءها ، ويبدو أنَّ معاوية بن أبي سفيان أقطع قطاع في سواحل الشَّام ، لتعميرها ، وإعدادها لمواجهة هجمات الرُّوم ، وكذلك أقطع قطاعاً بأنطاكيَّة بأمر عثمان ، وأخرى بقاليقلا^(١) ، وأمَّا إقطاعه فدك لمروان بن الحكم فلم يُعرف من طريقه صحيحة ، وقيل : إنَّ الذي أقطع فدك لمروان هو معاوية بن أبي سفيان^(٢) .

إن سياسة عثمان في إقطاع الأراضي ساهم في زيادة موارد بيت مال المسلمين بما يؤكِّده الجميع من زكَاةٍ على أموالهم إذا توافرت شروطها ، وقد نجح مشروع عثمان في إقطاع الأرض ؛ بدليل زيادة إيراد الدولة من أملاكها الخاصة في العراق إذ بلغت خمسين ألف درهم بعد أن كانت ٩٠٠ درهم في عهد الفاروق^(٣) .

سابعاً : سياسة عثمان في حمى الأرض :

وهي أراضٍ خصَّصت لرعى الإبل ، والخيل التي تملِكها الدولة ، وقد استمرَّت حماية وادي النَّقْعَيْن في خلافة أبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما حيث كان النبي ﷺ قد حماه للخيل^(٤) ، وطوله ثمانون كيلو متراً ، ويبداً جنوب المدينة بـ ٤٠ كيلو متراً^(٥) ، وقد كثرت المناطق المحمية في خلافة عمر رضي الله عنه لكثره ما تملكه الدولة من الإبل ، والخيل المعدة للجهاد ، ومن ذلك حمى الرَّبَذَة لنعْم الرَّكَاء ، وعَيْنَ عليه مولاه هنيَّ ، وأوصاه بالسَّماح لأصحاب الإبل القليلة بالرَّاعي فيه دون الأغنياء ، وحمى أرضاً في دياربني ثعلبة رغم احتجاجهم على ذلك ، فقد أجابهم : **البلاد بلاد الله تحمي لنَعَم مال الله**^(٦) .

ونهج عثمان نهج من سبقه في الحمى بسبب اتساع الدولة ، وازدياد الفتوحات في عهده ، وقد اقتصر في الحمى على صدقات المسلمين لحمايتها ، وعلى هذا فإنَّ عثمان رضي الله عنه زاد في الحمى لما زادت الرَّعَيَّة ، وإذا جاز أصله للحاجة إليه؛ جازت الريادة لزيادة الحاجة^(٧) .

ولما كان أبو بكر وعمر قد حميا دون أن ينكر عليهم أحد ذلك ، فإنَّ عثمان وسَعَ الحمى لكتلة إبل الصَّدقة ، وماشيتها ، وكثرة الخصومات بين رعاة ماشية الصَّدقة ، فلا اعتراض ع

(١) المصدر السابق نفسه ، ص (٢٢٤) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (٢٢٥) .

(٣) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١١٨) .

(٤) صحيح سنن أبي داود للألباني (٥٩٥/٢) .

(٥) عصر الخلافة الرَّاشدة ، ص (٢٢٥، ٢٢٦) .

(٦) الطَّبقات (٣٢٦/٣) والأثر صحيح .

(٧) نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، د. مصطفى حلمي ، ص (٧٨) .

فعله^(١) ، بل ما فعله أبو بكر ، وعمر ، وعثمان في الحمى قد اشتهر بين الصحابة ، فلم ينكر عليهم منكر ، ويعتبر ذلك إجماعاً^(٢) ، وقد حكى الإجماع ابن قدامة^(٣) .

ثامناً : أنواع النفقات العامة في عهد عثمان :

١- نفقات الخليفة :

كان عثمان رضي الله عنه لا يأخذ من بيت مال المسلمين شيئاً ، فقد كان أكثر قريش مالاً وأجدهم في التجارة ، فكان ينفق على أهله ، ومن حوله من ماله الخاصّ .

٢- صرف مرتبات الولاية من بيت المال :

في عهد عثمان رضي الله عنه كانت الدولة الإسلامية مقسمة إلى ولايات ، وكان على كلّ ولاية وإلى يعيّنه الخليفة ، يأخذ مرتبة من بيت المال ، ويدير شؤون الولاية طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية ، وإذا لم يعين الخليفة ممثلاً له على بيت الولاية ، فإنه يدخل في اختصاص الوالي الإشراف على جباية موارد الولاية ، وهي : الجزية ، والخراج ، وعشور التجارة ، ينفق منها على شؤون الولاية ، والفائض يرسله إلى بيت مال المسلمين في المدينة ، أمّا الزكاة التي تحصل من أغنياء الولاية ، فكانت تصرف على فقراءهم^(٤) .

٣- الإنفاق من بيت المال على مرتبات الجندي :

كان بيت المال يدفع مرتبات للجندي علاوة على ما يحصلون عليه من نصيب في الغنائم ، وكان جند كل ولاية يحصلون على مرتباتهم من بيت مال الولاية ، فمثلاً بالنسبة لجند مصر كتب عثمان بن عفان إلى عبد الله بن سعد والي مصر الكتاب التالي لصرف مرتبات الجندي المرابطين في الإسكندرية : قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية وقد نقضت الروم مرتين ، فألزم الإسكندرية رابطتها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم في كل ستة أشهر^(٥) .

٤- الإنفاق العام على الحجّ من بيت المال :

كان الإنفاق العام على الحجّ في عهد عثمان رضي الله عنه من بيت المال ، وكانت كسوة الكعبة من القباطي وهي ثيابٌ من كتان من نسيج مصر^(٦) .

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) نظام الأراضي في صدر الدولة الإسلامية ، ص (١٦٩) .

(٣) المغني (٥٨١ / ٥) .

(٤) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١٣٠) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص (١٤٠) .

(٦) المصدر السابق نفسه ، ص (١٤١ ، ١٤٠) .

٥- تمويل إعادة بناء المسجد التبوي من بيت المال :

كَلَمُ النَّاسِ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ أَوَّلَ مَا تولى الخلافة أن يزيد في مسجد الرَّسُول ﷺ ؛ إذ كان يضيق بالناس في صلاة الجمعة بسبب امتداد الفتح ، وزيادة سُكَانَ المدينة زيادةً عظيمةً ، فاستشار عثمان أهل الرأي ، فأجمعوا على هدم المسجد ، وبنائه ، وتوسيعه ، فصلَّى عثمان الظُّهر بالنَّاسِ ، ثمَّ صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال : أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنِّي قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله ﷺ ، وأزيد فيه ، وأشهد أَنِّي سمعت رسول الله يقول : « مَنْ بَنَ مسجداً ، بَنَ اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ »^(١) وكان لي فيه سلفٌ ، وإمامٌ سبقني ، وتقدَّمني عمر بن الخطاب ، كان قد زاد فيه ، وبناه ، وقد شاورت أهل الرأي من أصحاب رسول الله ، فأجمعوا على هدمه ، وبنائه ، وتوسيعه ، فحسن الناس يومئذ ذلك ، ودعوا له ، فأصبح ، فدعا العمال ، وبasher ذلك بنفسه^(٢) .

٦- تمويل توسيعة المسجد الحرام من بيت المال :

كانت الكعبة أيام الرَّسُول ﷺ قائمة ، وليس حولها إلا فناء ضيقٌ يصلّى الناس فيه ، وظلَّ كذلك في خلافة أبي بكرٍ ، وفي عهد عمر وسَعَ المسجد ، فاشترى دوراً حول الكعبة ، وهدمها ، وأدخلها في بيت الله الحرام ، وأحاطها بجدار قصير ، وأدخل إنارة المسجد ليلاً ، وذلك لأنَّ المسجد كان قد ضاق بالحجاج الذين يأتون لأداء فريضة الحجَّ بعد أن امتدَّ فتوحات الإسلام ، ودخل الناس في دين الله أزواجاً ، فلما ضاق المسجد ثانيةً في عهد عثمان ؛ احتذى بمثل عمر ، وأضاف إلى الكعبة دوراً اشتراها ، وأحاطها بجدار قصير لا يرتفع إلى قامة الرجل كما فعل عمر من قبل^(٣) .

كما كان الولاية يبنون المساجد في ولايهم ، وينفقون عليها من بيت مال الولاية ، كما حدث عند بناء مسجد الرَّحْمَة بالإسكندرية ، ومسجد في إصطخر في فتوحات المشرق^(٤) .

٧- الإنفاق على إنشاء أول أسطول بحريٍّ :

ساهم بيت مال المسلمين في إنشاء أول أسطول بحريٍّ في الإسلام في عهد عثمان ، وسيأتي دور هذا الأسطول في الفتوحات الإسلامية بإذن الله تعالى عند حديثنا عن الفتوحات^(٥) .

(١) المستند رقم (٤٣٤) إسناده صحيحٌ .

(٢) البداية والنهاية (٦٠/٧) . وتاريخ الطبرى (٢٦٧/٥) .

(٣) تاريخ الطبرى (٢٥٠/٥) . وذو التورين ، محمَّدرضا ، ص (٢٥) .

(٤) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١٤٧ ، ١٤٨) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص (١٤٨) .

٨- الإنفاق على تحويل الساحل من الشعيبة إلى جدّة :

في سنة سُتٍّ وعشرين هجريةَ كُلُّ أهل مكَّةَ عثمان رضي الله عنه أن يحوِّل السَّاحل من الشعيبة ، وهي ساحل مكَّةَ قديماً في الجاهلية ، إلى ساحلهااليوم وهي جدّة لقربها من مكَّةَ ، فخرج عثمان إلى جدّة ، ورأى موضعها ، وأمر بتحويل السَّاحل إليها ، ودخل البحر ، واغتسل فيه ، وقال : إِنَّه مباركٌ ، وقال لمن معه : ادخلوا البحر للاغتسال ، ولا يدخل أحد إلا بمئزِّرٍ ، ثُمَّ خرج من جدّة من طريق عسفان إلى المدينة ، وترك النَّاس ساحل الشعيبة في ذلك الزَّمان ، واستمرَّت جدة بندرأً إلى الآن لمكَّةَ المشرفة^(١) .

٩- تمويل حفر الآبار من بيت مال المسلمين :

ومن الأعمال التي مؤلها بيت مال المسلمين في عهد عثمان حفر بئر للشرب بالمدينة ، وتسمى بئر أرييس ، وهي على ميلين من المدينة وكان ذلك في سنة ثلاثين هجرية ، وحدث أن قعد عثمان على رأس البئر ، وكان بأصبعه خاتم رسول الله فانسلَّ الخاتم من أصبعه ، فوقع في البئر ، فطلبوه في البئر ، ونزعوا ما فيها من الماء فلم يقدروا عليه ، فجعل فيه مالاً عظيماً لمن جاء به ، واغتمَّ لذلك غمّاً شديداً ، فلما يئس من العثور على الخاتم صنع خاتماً آخر مثله من فضةٍ على مثاله ، وشبّهه ونقش عليه (محمد رسول الله) فجعله في أصبعه حتى قتل ، فلما قتل ذهب الخاتم من يده ، فلم يذر من أخيه^(٢) .

١٠- الإنفاق على المؤذنين من بيت المال :

كان عثمان رضي الله عنه أول من رزق المؤذنين من بيت المال ، قال الإمام الشافعي : (قد أرزق المؤذنين إمام هدى عثمان بن عفَّان^(٣)) ، وقد جعل عثمان رضي الله عنه على الأذان جعالةً ، ولا يستأجر استئجاراً^(٤) .

١١- تمويل أهداف الإسلام العليا :

يتضح من دراسة النَّفقات العامة السابقة من بيت المال : أنَّها ساهمت في تمويل الأهداف العليا للدُّولة الإسلامية ، فضلاً عن الإنفاق العام على إدارة الدُّولة ، ومصالح الرَّعية ، ثم الإنفاق على نشر الإسلام كي تكون كلمة الله هي العليا . وتمَّ تمويل إنشاء أول أسطولٍ بحريٍ للدولة الإسلامية ، كما تمَّ تعمير بيوت الله بالإنفاق على إقامة المساجد ، وتجديدها ، ورزق

(١) ذو التُّورين عثمان بن عفَّان ، محمد رضا ، ص (٢٦) .

(٢) البداية والنهاية (٧ / ١٦١) . و تاريخ الطبرى (٥ / ٢٨٤) .

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص (١٤) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

المؤذنين ، والولاة ، والقضاة ، والجند ، وعُمَالَ الدُّوَلَة ، كما تمَّ الصرف على رحلات الحجَّ إلى بيت الله الحرام ، وكسوة الكعبة ، وهي قبلة الإسلام والمسلمين ، كما أنَّ بيت مال المسلمين قدَّم أمواله لحفر الآبار ؛ ليشرب منها الغادي ، والرَّائِح من مواطني الدُّوَلَة الإسلامية .

ومن مصادر الدُّوَلَة كالزَّكَاة ، وخمس الغنائم ، تمَّ تمويل شرائح المجتمع الضعيفة في الدُّوَلَة الإسلامية ، وهم الفقراء ، والمساكين ، واليتمى ، ومساندة الغرباء ، وأبناء السَّبَيل ، وفك الرِّقاب^(١) .

تاسعاً : استمرار نظام الأعطيات في عهد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه :

استمرَّ نظام الأعطيات في عهد عثمان رضي الله عنه كما كان في عهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، فقد اعتمد السَّابقة في الدِّين أساساً للعطاء ، وكتب بذلك لواليه على الكوفة بقوله : أمَّا بعد : ففضل أهل السَّابقة ، والقدمة ممَّن فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببيهم تبعاً لهم ، إلا أن يكُونوا تناقلوا عن الحقِّ ، وتركوا القيام به ، وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته ، وأعطِهم جميعاً بحسبِهم من الحقِّ ، فإنَّ المعرفة بالثَّاسِ بها يصاب العدل^(٢) .

وحين أَسَعَت الفتوحات الإسلامية في عهده ، كثُرت موارد الدُّوَلَة المالية مما أدى بال الخليفة عثمان رضي الله عنه أن يَشَدَّد له الخزائن^(٣) ، فانعكس ذلك بدوره على العطاء ، فزاد في أرزاق الجندي بمقدار مئة درهم لكلِّ منهم ، فهو أول خليفة زاد الثَّاسِ في العطاء ، واستنَّ به الخلفاء من بعده في الريادة^(٤) .

قال الحسن : وشهدت منادي عثمان ينادي : يا أئمَّة الناس ! اغدوا على كسوتكم ، فياخذون الحلل ، واغدوا على السَّمن والعسل ، قال الحسن : أرزاق دارَّة ، وخيرٌ كثيرٌ ، وذاتٌ بين حسنة ، ما على الأرض مؤمنٌ يخاف مؤمناً إلا يودُه ، وينصره ، ويألفه^(٥) .

واهتمَ الخليفة عثمان بأمر الشغور والمرابطة فيها فكان يأمر قادته بإجراء الأرزاق ، والعطاء ، ومضااعفته للجند المرابطين^(٦) .

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، ص (١٥٠) .

(٢) تاريخ الطبرى (٢٨٠/٥) .

(٣) الإدارَة العسكرية في الدُّوَلَة الإسلامية (٦٨ - ٣٦/٢) . والتجوم الزَّاهِرة (١/٨٧) .

(٤) تاريخ الطبرى (٥٤٥/٥) .

(٥) مجمع الزوائد (٩/٩٣ ، ٩٤) . وفصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص (٥٢) .

(٦) فتوح مصر ، ص (١٩٢) . وفتح البلدان للبلاذري (١/١٥٢ ، ١٥٧) .

عاشرًا : تدفق الأموال على الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية :

في عهد عثمان كثُر الخراج ، وأتاه المال من كُلّ وجه ، فاتَّخذ له الخزائن ، وأتَر ذلك بدوره في الأثر الاقتصادي ، والاجتماعي ، فعن أبي إسحاق ، أَنَّ جَدَه مَرَّ عَلَى عُثْمَانَ ، فَقَالَ لَهُ : كَمْ مَعَكَ مِنْ عِيَالِكَ يَا شِيخَ ؟ قَالَ : مَعِي كَذَا ، قَالَ : قَدْ فَرَضْنَا لَكَ فِي خَمْسِ عَشَرَةً - يَعْنِي : أَلْفًا وَخَمْسِمِائَةً - وَفَرَضْنَا لِعِيَالِكَ مِائَةً ، مِائَةً^(١) ، وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ هَلَالِ الْمَدِينِيِّ ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي : أَنَّهَا كَانَتْ تَدْخُلُ عَلَى عُثْمَانَ ، فَافْتَقَدَهَا يَوْمًا ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ : مَا لِي لَا أَرَى فَلَاتَةً ؟ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! وَلَدَتِ الْلَّيْلَةِ غَلَامًا ، فَقَالَتْ : فَأَرْسِلْ إِلَيَّ بِخَمْسِينِ درَهْمًا ، وَشَقِيقَةَ سِبْلَانِيَّةً ، ثُمَّ قَالَ : هَذَا عَطَاءُ ابْنِكَ ، وَهَذِهِ كَسْوَتُهُ ، فَإِذَا مَرَّتْ بِهِ سَنَةٌ ، رَفَعْنَا إِلَى مِائَةٍ^(٢) ، كَمَا وَسَعَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى عِيَالِ أَهْلِ الْعَوَالِيِّ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ فِي الْقُوَّتِ ، وَالْكَسْوَةِ^(٣) ، وَحِينَ قَامَ الْقَائِدُ قَطْنُ بْنُ عُمَرَ وَالْهَلَالِيُّ بِإِعْطَاءِ الْجَيْشِ الَّذِي بِرْفَقَتْهُ وَعَدْهُ أَرْبَعَةَ آلَافَ جَنْدِيًّا أَرْبَعَةَ آلَافَ درَهْمٍ كَتْشُجِعُ لَهُمْ ، اسْتَكْثَرَ ذَلِكَ وَالِيَّ الْبَصَرَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرَ ، وَكَتَبَ بِالْخُبُرِ إِلَى الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَجَازَهَا ، وَقَالَ : مَا كَانَ مَعْوَنَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَجَائَهُ . فَصَارَتِ الْجَائِزَةُ اسْمًا لِلْعَطَيَّةِ^(٤) .

وَقَامَ عُثْمَانَ بِتَوْرِيثِ عَطَاءِ الْجَنْدِيِّ الْإِسْلَامِيِّ لِوَرَثَتِهِ مِنْ بَنَاهُ ، وَزَوْجَاهُ ، فَقَدْ قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ الْعَوَامَ لِلْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ بَعْدَ مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنَ مُسَعُودَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَعْطِنِي عَطَاءَ عَبْدِ اللَّهِ ، فَعَيَالُ عَبْدِ اللَّهِ أَحَقُّ بِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، فَأَعْطَاهُ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا^(٥) .

هَذَا وَنَشَطَتِ الْحَرْكَةُ الرِّزْرَاعِيَّةُ ، وَالصَّنَاعِيَّةُ ، وَالْجَارِيَّةُ فِي عَهْدِ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ، وَبِسَبِيلِ مَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ فَتوْحٍ ؛ أَصْبَحَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ خَاصَّةً ، وَالْمُسْلِمُونَ عَامَّةً فِي نِعْمَةِ ، وَيُسَارِ ، وَكَانَ يَقْتَرَنُ بِهِذَا الثَّرَاءِ ضَرُوبٌ وَاسْعَةٌ مِنَ الْحَضَارَةِ لَمْ تَعْرِفْهَا الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَبْلَ الْفَتوْحَاتِ الْكَبِيرَاتِ ، لَقَدْ اطَّلَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَا عَنِ الْأَمْمِ الْأَجْنبِيَّةِ ، وَاقْتَبَسُوا مِنْهُمْ ، وَبِدَأَ هَذَا الْاقْتِبَاسُ يَتَسَعُ فِي خَلَافَةِ عُثْمَانَ ، فَبَنَى بَعْضُ الصَّحَابَةِ الدُّلُورَ ، وَالْمَنَازِلِ الْكَبِيرَةِ ، وَسَاهَمَ الْأَجَانِبُ الَّذِينَ سُبُّوا فِي الْفَتوْحِ فِي تَطْوِيرِ الْحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْإِقْتَصَادِيَّةِ^(٦) .

(١) الإِدَارَةُ الْعَسْكَرِيَّةُ (٧٦٨/٢) .

(٢) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ نَفْسُهُ (٧٦٩/٢) .

(٣) الْطَّبَقَاتُ (٢٩٨/٣) .

(٤) الْأَوَّلَى ، لِلْعَسْكَرِيِّ (٢٦/٢ ، ٢٧) .

(٥) الإِدَارَةُ الْعَسْكَرِيَّةُ (٧٧٠/٢) .

(٦) الْحَضَارَةُ الْعَرَبِيَّةُ إِلَيْمَيَّةُ ، د . وَضَاحُ الصَّمَدُ ، ص (١١٤) .

الحادية عشرة : عثمان ، وأقاربه ، والعطاء من بيت المال :

إِنَّهُمْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ قَبْلِ الْغُوغَاءِ ، وَالْخُوَارِجِ بِإِسْرَافِهِ فِي بَيْتِ الْمَالِ ، وَإِعْطَائِهِ أَكْثَرَهُ لِأَقْارَبِهِ ، وَقَدْ سَانَدَ هَذَا الْإِتَّهَامُ حَمْلَةً دَعَائِيَّةً بَاطِلَّةً قَادَهَا أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ ضَدَّهُ ، وَتَسَرَّبَتْ فِي كِتَابَ التَّارِيخِ ، وَتَعْمَلُ مَعَهَا بَعْضُ الْمُفَكِّرِينَ ، وَالْمُؤْرِخُونَ عَلَى كَوْنِهَا حَقَّاَقَ ، وَهِيَ بَاطِلَّةُ ، لَمْ تُثْبِتْ ؛ لَأَنَّهَا مُخْتَلِقَةٌ ، وَالَّذِي ثُبِّتَ مِنْ إِعْطَائِهِ أَقْارَبَهُ أَمْوَارُ تَعْدُّ مِنْ مَنَاقِبِهِ ، لَا مِنْ الْمَثَالِبِ فِيهِ :

١- إِنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ ذَا ثَرْوَةً عَظِيمَةً ، وَكَانَ وَصْوَلًا لِلرَّحْمَمِ^(١) يَصْلَهُمْ بِصَلَاتٍ وَفِيرَةً ، فَنَقَمَ عَلَيْهِ أُولَئِكَ الْأَشْرَارُ ، وَقَالُوا بِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَصْلَهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، وَعُثْمَانَ قَدْ أَجَابَ عَنْ مَوْقِفِهِ هَذَا بِقَوْلِهِ : وَقَالُوا : إِنِّي أَحُبُّ أَهْلَ بَيْتِي ، وَأَعْطِيهِمْ . . . فَإِنِّي أَحُبُّهُ لَهُمْ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَمْلِ مَعْهُمْ إِلَى جُورِ ، بَلْ أَحْمَلَ الْحَقْوَقَ عَلَيْهِمْ . . . وَأَمَّا إِعْطَاوَهُمْ ؛ فَإِنِّي إِنَّمَا أَعْطَاهُمْ مِنْ مَالِي ، وَلَا أَسْتَحْلُ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ لِنَفْسِي ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْطِيَ الْعَطَيَّةَ الْكَبِيرَةَ الرَّعِيَّةَ مِنْ صَلْبِ مَالِي أَزْمَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ، وَأَنَا يَوْمَنِ شَحِيقٍ حَرِيصٌ ، أَفْحِنَ أَتَيْتُ عَلَى أَسْنَانِ أَهْلِ بَيْتِي^(٢) ، وَفَنِيْ عَمْرِي ، وَوَدَّعْتُ الَّذِي لَيْ فِي أَهْلِي ؛ قَالَ الْمَلْحُودُونَ مَا قَالُوا ؟ !^(٣)

وَكَانَ عُثْمَانَ قَدْ قَسَمَ مَالَهُ ، وَأَرْضَهُ فِي بَنِي أُمَيَّةَ ، وَجَعَلَ وَلَدَهُ كَبْعَضَ مَنْ يَعْطِي ، فَبَدَا بَنِي أَبِي الْعَاصِ ، فَأَعْطَى آلَ الْحُكْمِ رِجَالَهُمْ عَشْرَةَ آلَافَ ، فَأَنْجَذَوْا مَائَةَ أَلْفَ ، وَأَعْطَى بَنِي عُثْمَانَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَقَسَمَ فِي بَنِي الْعَاصِ ، وَفِي بَنِي الْعِصَ ، وَفِي بَنِي حَرْبٍ^(٤) ، فَهَذِهِ التُّصُوصُ ، وَغَيْرُهَا مَمَّا اشْتَهَرَ عَنْهُ ، وَمَا صَحَّ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي فَضَائِلِهِ الْجَمَّةِ تَدْلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا قَيلَ فِيهِ مِنْ إِسْرَافٍ فِي بَيْتِ الْمَالِ ، وَإِنْفَاقٍ أَكْثَرَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَأَقْارَبِهِ ، وَقَصْوَرِهِ حَكَابَاتٌ بَدْوَنَ زَمامٍ ، وَلَا خَطَامٍ . وَمَعَ بِرَاءَةِ عُثْمَانَ مَمَّا نُسِّبَ إِلَيْهِ ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءَ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ سَهْمَ ذُوِّي الْقَرْبَى هُوَ لِقِرَابَةِ الْإِمَامِ^(٥) .

قَالَ تَقْيُي الدِّينِ بْنُ تَمِيمَةَ : إِنَّ سَهْمَ ذُوِّي الْقَرْبَى ذَهَبَ بَعْضُ الْفَقِهَاءِ إِلَى أَنَّهُ لِقِرَابَةِ الْإِمَامِ ، كَمَا قَالَ الْحَسْنُ ، وَأَبُو ثُورَ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعْطِي أَقْارَبَهُ بِحُكْمِ الْوَلَايَةِ ، فَذُوِّي الْقَرْبَى فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ذُوِّي قَرْبَاهُ ، وَبَعْدَ مَوْتِهِ هُمْ ذُوِّي قَرْبَى مَنْ يَتَولَّ الْأَمْرَ بَعْدِهِ ، وَذَلِكَ لَأَنَّ نَصْرَ وَلِيٌّ

(١) فَصْلُ الْخَطَابِ فِي مَوَاقِفِ الْأَصْحَابِ ، ص (٨٢) .

(٢) جَاؤَتْ أَعْمَارَهُمْ .

(٣) تَارِيخُ الطَّبرِيِّ (٣٥٦ / ٥) .

(٤) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ نَفْسُهُ .

(٥) فَصْلُ الْخَطَابِ فِي مَوَاقِفِ الْأَصْحَابِ ، ص (٨٣) .

الأمر ، والذبّ عنه متعين ، وأقاربه ينتصرونه ، ويذبّون عنه ما لا يفعله غيرهم ، وقال : وبالجملة ؛ فعامةً من تولى الأمر بعد عمر كان يخصُّ بعض أقاربه إماً بالولاية ، أو بمالٍ^(١) .

وقال : إنَّ ما فعله عثمان في المال له ثلاثة مأخذ : أحدها : أنَّه عاملٌ عليه ، والعامل يستحقُّ مع الغنى ، والثاني : أنَّ ذوي القربى هم ذوو قربى الإمام ، والثالث : أنَّ قرابة عثمان كانوا قبيلة كبيرةً كثيرةً ليسوا مثل قبيلة أبي بكرٍ ، وعمر ، فكان يحتاج إلى إعطائهم ، وولايتهم أكثر من حاجة أبي بكرٍ ، وعمر إلى تولية أقاربهما ، وإعطائهم . . . وهذا مما نقل عن عثمان بن عفان رضي الله عنه الاحتجاج به^(٢) .

٢- جاء في تاريخ الطبرى : أنَّ عثمان لما أمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالرَّحْف من مصر على تونس لفتحها ؛ قال له : إن فتح الله عليك بإفريقية ؛ فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخامس من الغنيمة نفلاً ، فخرج بجيشه حتَّى قطعوا أرض مصر ، وأوغلو في أرض إفريقية ، وفتحوها ، وسهلها ، وجبالها ، وقسم عبد الله على الجندي ما أفاء الله عليهم ، وأخذ خمس الخامس ، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان مع ابن وثيمه النَّضري ، فشكوا وفدهُ ممن كان معه إلى عثمان ما أخذه عبد الله ، فقال لهم عثمان : إنَّما أمرت له بذلك ، فإن سخطتم ؛ فهو رُدُّ . قالوا : إنَّا نسخطه . فأمر عثمان عبد الله أن يردَّه ، فرَدَه^(٣) . وقد ثبت في السنة تنفيل أهل الغناء ، والباس في الجهاد^(٤) .

٣- وكان قد بقي من الأخماس والحيوان - في فتح إفريقية - ما يشقُّ حمله إلى المدينة ، فاشتراه مروان بمائة ألف درهم ، ونقد أكثرها ، وبقيت منه بقية ، وسبق إلى عثمان مبشرًا بالفتح ، وكانت قلوب المسلمين في غاية القلق خائفةً من أن يصيب المسلمين نكبةً من أمر إفريقية ، فوهب له عثمان ما بقي جزاء بشارته ، وللإمام أن يعطي البشير ما يراه لائقًا بتعبه ، وخطر بشارته ، هذا هو الثابت في عطية عثمان لمروان ، وما ذكروه من إعطائه خمس إفريقية ، فكذب^(٥) ، لقد كان عثمان رضي الله عنه شديد الحبّ لأقاربه ، ولكن ذلك لم يمل به إلى غشيان محَرَّم ، أو إساءة السيرة ، والسياسة في أمور المال ، أو غيرها ، وإنَّما دُسَّت في كتب التاريخ أكاذيب باطلة ، كان خلفها الدعاية السُّبَّية والشيعية الإمامية الظالمة ضدَّ عثمان ، رضي الله عنه .

(١) منهاج السنة (١٨٧/٣ ، ١٨٨) .

(٢) منهاج السنة (٢٣٧/٣) . والدولة الأموية ، لحمدي شاهين ، ص (١٦٣) .

(٣) تاريخ الطبرى (٢٥٣/٥) .

(٤) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص (٨٤) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

إنَّ سيرة عثمان رضي الله عنه في أقاربه تمثل جانباً من جوانب الإسلام الكريمة الرَّحيمه ؛
لقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عَبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَاَسْلَمُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا مَوَدَّةً فِي الْقَرِئِنَ وَمَنْ يَعْرِفُ حَسَنَةً نَزِدُ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى : ٢٣] ، قوله جلَّ ثناؤه :
﴿وَمَاءَتْ ذَا الْقَرِئِنَ حَقَّهُمُ الْأَمْسِكَيْنَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَدِّرْ تَبَدِّيرًا﴾ [الإسراء : ٢٦] .

كما أنَّها تمثل جانباً عملياً من سيرة المصطفى ﷺ فقد رأى من رسول الله ﷺ وعلم من حاله ما لم ير ، أو يعلم غيره من منتقديه ، وعقل من الفقه ما لم يعقله مثله من جمهرة الناس ، وكان مما رأى شدة حبِّ رسول الله ﷺ لأقاربه وبره بهم ، وإحسانه إليهم ، وقد أعطى عمَّه العباس ما لم يعط أحداً عندما ورد عليه مال البحرين^(١) ، وولَّى علياً ، وهو ابن عمِّه ، وصهره ، ولعثمان ، وسائر المؤمنين في رسول الله ﷺ أعظم القدوة^(٢) .

يقول ابن كثير - رحمه الله - : وقد كان عثمان رضي الله عنه كريماً الأخلاق ذا حباء كثيرٍ ، وكرم غزير ، يؤثر أهله ، وأقاربه في الله ، تأليفاً لقلوبهم من متاع الدنيا الفاني لعله يرغبهم في إيثار ما يبقى على ما يفني ، كما كان النبي ﷺ يعطي أقواماً ، ويدع آخرين إلى ما جعل في قلوبهم من الهدى ، والإيمان ، وقد تعمَّت عليه بسبب هذه الخصلة أقوامٌ كما تعمَّت بعض الخوارج على رسول الله ﷺ في الإيثار^(٣) ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : بينما رسول الله ﷺ يقسم غنيمة بالجرانة^(٤) ؛ إذ قال له رجلٌ : اعدل . قال : « شقيت إن لم أعدل »^(٥) .

ويتحجج عثمان رضي الله عنه لبره أهل بيته ، وقرباته مخاطباً مجلس الشورى بقوله : أنا أخبركم عنِّي وعنَّا وليت ، إنَّ صاحبيَ الْلَّذِينَ كَانُوا قَبْلِي ظلِّمَاهُمَا ، ومنْ كَانَ مِنْهُمَا سَبِيلٌ احتساباً ، وإنَّ رسول الله ﷺ كَانَ يَعْطِي قَرَابَتَهُ ، وَأَنَا فِي رَهْطِ أَهْلِ عِيلَةٍ وَقَلَّةٍ مَعَاشٍ ، فَبَسْطَتْ يَدِي فِي شَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ لَمَّا أَقْوَمْ بِهِ فِيهِ ، فَإِنْ رَأَيْتَ ذَلِكَ خَطَّأً ، فَرُدُّوهُ^(٦) .

وقد ردَّ ابن تيمية - رحمه الله - على من أنَّهم عثمان بتفضيله أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال ، فقال : وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال حتى إنَّه دفع إلى أربعة نفر من قريش زوجهم بناته أربعين ألف دينار ، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار - مليون دينار - فالجواب يقال : أين النَّقْل الثابت بهذا ؟

(١) البخاريُّ ، كتاب الجزية .

(٢) البداية والنهاية (٧/٢٠١) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) ماءُ بين الطائف ومكة . وهي إلى مكة أقرب .

(٥) البخاريُّ ، كتاب فرض الخمس .

(٦) الطبقات الكبرى (٣/١٩٠) .

نعم كان يعطي أقاربه ، ويعطي غير أقاربه أيضاً ، وكان يحسن إلى جميع المسلمين ، وأماماً هذا القدر الكبير فيحتاج إلى نقل ثابتٍ ، ثم يقال ثانياً : هذا من الكذب البَيْن ، فإنه لا عثمان ، ولا غيره من الخلفاء الرَّاشدين أعطوا أحداً ما يقارب هذا المبلغ^(١) .

* * *

(١) منهاج السنة (٣/١٩٠).

المبحث الثاني

المؤسسة القضائية وبعض الاجتهادات الفقهية

يعتبر عهد ذي الثورين امتداداً للعهد الرّاشدي الذي تجلّى أهميّته بصلته بالعهد النبويّ ، وقربه منه ، فكان العهد الرّاشدي عامّةً ، والجانب القضائي فيه خاصّة امتداداً للقضاء في العهد النبويّ ، مع المحافظة الكاملة ، والتّامة على جميع ما ثبت في العهد النبويّ ، وتطبيقه بحذايره ، وتنفيذها بنصّه ومعناه ، وتظهر أهميّة العهد الرّاشدي في القضاء بأمررين أساسين :

- * المحافظة على نصوص العهد النبويّ في القضاء ، والتّقييد بما جاء فيه ، والسير في ركابه ، والاستمرار في الالتزام به .

* وضع التنظيمات القضائية الجديدة لترسيخ دعائم الدّولة الإسلاميّة الواسعة ، ومواجهة المستجدّات المتنوّعة^(١) .

استطاع الفاروق ب توفيق الله ، ثمّ عبقريته الفذّة أن يطّور مؤسسة القضاء للدّولة الإسلاميّة ، وأصبحت لها قواعد ، ونظم ، استفاد منها الخليفة الرّاشد عثمان رضي الله عنه في تعين القضاة ، وأرزاهم ، واحتياصهم القضائيّ ، ومعرفة صفات القاضي ، وما يجب عليه ، ومصادر الأحكام القضائية ، والأدلة التي يعتمد عليها القضاة ، كما أنه أصبحت هناك سوابق قضائية من الصّدّيق ، والفاروق استفاد منها القضاة في عهد عثمان رضي الله عنه .

عندما تولّى عثمان رضي الله عنه الخلافة كان على قضاة المدينة يومئذٍ : عليٌّ ابن أبي طالبٍ ، وزيد بن ثابتٍ ، والسائل بن يزيد ، رضي الله عنهم . ويذكر بعض الباحثين : أنَّ عثمان لم يترك لأحدٍ من هؤلاء القضاة الاستقلال بالفصل في قضيّة من القضايا ، كما كان الحال في عهد عمر ، رضي الله عنه ، بل كان ينظر في الخصومات بنفسه ، ويستشير هؤلاء ، وغيرهم من الصّحابة فيما يحكم به ، فإن وافق رأيهم رأيه ؛ أمضاه ، وإن لم يواافق رأيهم رأيه ؛ نظر في الأمر بعد ذلك ، وهذا يعني : أن عثمان رضي الله عنه قد ألغى القضاة الثلاثة في المدينة من ولاية القضاة ، وأبقاهم مستشارين له في كل شجاري يرفع إليه مع استشارة آخرين . ويرى بعضهم : أنَّه لم يثبت نصٌّ صريح يفيد الإلاغة ، وغاية ما ورد في ذلك يدلُّ على أنَّ عثمان

(١) تاريخ القضاء في الإسلام ، للزّحيلي ، ص(٨٣ ، ٨٤) .

رضي الله عنه قد أقرَّ قضاة عمر بالمدينة ، ولكنَّه تحملَ عنهم النظر في كثير من القضايا الكبيرة مع استشارتهم فيها . ومنشأ هذا الخلاف تعارض الروايات الواردة في ذلك :

* روى البيهقيُّ في سنته ، ووكيعُ في أخبار القضاة - واللفظ له - عن عبد الرحمن بن سعيد ، قال : أخبرني جدِّي ، قال : رأيت عثمان بن عفانَ في المسجد إذا جاءه الخصمان ؛ قال لهذا : اذهب فادع علياً ، وللآخر : اذهب فادع طلحة بن عبيد الله ، والرَّبِّير ، وعبد الرحمن ، فجاؤوا ، فجلسوا ، فقال لهم : تكلما ، ثمَّ يقبل عليهم ، فيقول : أشير وأعليَّ ، فإنْ قالوا ما يوافق رأيه ؛ أمضاه عليهما ، وإلا نظر ، فيقومون مسلمين ، ولا يعلم : أنَّ عثمان بن عفان استعمل قاضياً بالمدينة ، إلى أن قتل ، رضي الله عنه .

* جاء في تاريخ الطبرى عند الحديث على أعمال عثمان : وكان على قضاء عثمان يومئذٍ زيد بن ثابت ، وهذا يشعر بأنَّ عثمان أبقى زيداً على ولایة القضاء ، ويستلزم الإذن له بالفصل في الخصومات . وما دام الجمع بين النَّصيin ممكناً؛ فإنَّ الأخذ به أولى من الأخذ بأحد النَّصيin في غير المرجح ، ويجمع بين النَّصيin بأنَّ عثمان أبقى قضاة المدينة للفصل في بعض الخصومات ، ولكن بعضها الآخر من معضلات القضايا جعله خاصاً به ، مع استشارة أصحابه فيها ، ومنهم قضاة^(١) .

وكان عثمان رضي الله عنه يعيّن القضاة على الأقاليم حيناً ، مثل تعينه كعب بن سور على قضاء البصرة ، ويترك القضاة للوالى حيناً آخر مثل طلبه من واليه على البصرة أن يقوم بالقضاء بين النَّاس إضافةً إلى عمل الولاية ، وذلك بعد عزل كعب ابن سور ، وكذلك كان يعلى بن أمية والياً وقاضياً على صنعاء^(٢) ، ويلاحظ : أنَّ بعض الولاة كانوا يختارون قضاة بلدانهم بأنفسهم ، ويكونون مسؤولين أمامهم ، مما يشير إلى ازدياد نفوذ الولاية في خلافته من القضاة^(٣) .

والمتأثر عن عثمان كتبه ورسائله إلى أمراء الأمصار ، وإلى أمراء الأجناد بالغور ، وإلى عامة المسلمين ، وهذا يدعو إلى غلبة الظنِّ بأنَّه جعل القضاة من اختصاص الولاية ، يتولونه بأنفسهم ، أو يعيّنون له من يستطيع القيام به^(٤) ، وفي الوقت الذي نجد فيه مراسلاتٌ كثيرة بين عمر وقضاة الأمصار ، نجد ندرةً في المراسلات في عهد عثمان بينه وبين أولئك القضاة^(٥) .

● ابن عمر يعتذر عن القضاء :

قال عثمان لابن عمر : أقضى بين النَّاس . فقال : لا أقضي بين اثنين ، ولا أؤمِّ رجلين ، أما

(١) النظم الإسلامية (٣٧٨/١) وقائع ندوة أبو ظبي (١٤٠٥) هـ .

(٢) عصر الخلافة الرَّاشدة ، ص (١٤٣) .

(٣) النظم الإسلامية (٣٧٨/١) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) الولاية على البلدان (٩٢/٢) .

سمعت النبي ﷺ يقول : « من عاذ بالله ، فقد عاذ بمعاذ ؟ » قال عثمان : بلى ! قال : فإنّي أعوذ بالله أن تستعملني ! فأغفاه ، وقال : لا تخبر بهذا أحداً^(١) .

● دار القضاء :

تذكر بعض كتب التاريخ : أنَّ من مَاثِرِ ذِي الْثُورَيْنِ اتَّخَادُهُ داراً لِلْقَضَاءِ ، كما يظهر ذلك من رواية رواها ابن عساكر عن أبي صالح مولى العباس ، قال : أرسلني العباس إلى عثمان أدعوه ، فأتىته في دار القضاء . . . إلى آخر الحديث ، فإذا صَحَّ ؛ فيكون عثمان هو أول من اتَّخذَ في الإسلام داراً للقضاء ، وقد كان الخليفتان قبله يجلسان للقضاء في المسجد ، كما هو مشهور^(٢) .

● أشهر القضاة في خلافة عثمان :

١- زيد بن ثابت (المدينة) .

٢- أبو الدرداء (دمشق) .

٣- كعب بن سور (البصرة) .

٤- أبو موسى الأشعريُّ (البصرة بالإضافة إلى ولايته) .

٥- شريح (الكوفة) .

٦- يعلى بن أمية (اليمن) .

٧- ثمامة (صنعاء) .

٨- عثمان بن قيس بن أبي العاص (مصر)^(٣) .

هذا وقد ترك الخليفة الرَّاشِدُ أحكاماً فقهيةً في مجال القصاص ، والجنايات ، والحدود ، والتعزير ، والمعاملات ، كان لها الأثر الواضح في المدارس الفقهية الإسلامية ، وهذه بعض الأحكام التي أصدرها عثمان ، أو أفتى بها :

أولاًً : فيما يتعلق بالقصاص ، والحدود ، والتعزير :

١- أول قضية واجهت عثمان رضي الله عنه قضية قتلٍ :

أول قضية حكم فيها عثمان رضي الله عنه قضية عبيد الله بن عمر ، وذلك أنه غدا على ابنة أبي لؤلؤة قاتل عمر ، فقتلها ، وضرب رجلاً نصراً يقال له : جفينه بالسيف ، فقتله ، وضرب

(١) مسند الإمام أحمد ، رقم (٤٧٥) حسن لغيره .

(٢) أشهر مشاهير الإسلام (٤ / ٧٤٠) .

(٣) عصر الخلافة الرَّاشِدة ، ص (١٦٠ ، ١٥٩) .

الهرمزان الذي كان صاحب تستر ، فقتله ، وكان قد قيل : إنَّهَا مالاً أبا لؤلؤة على قتل عمر ، فالله أعلم^(١) ، وكان عمر قد أمر بسجنه ليحكم فيه الخليفة من بعده ، فلما ولَّ عثمان ، وجلس للناس كان أول ما تحكم إليه في شأن عبيد الله ، فقال عليه^(٢) : ما من العدل تركه ، وأمر بقتله ، وقال بعض المهاجرين : أيقتل أبوه بالأمس ، ويقتل هو اليوم ؟ ! فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين ! قد برأك الله من ذلك ، قضية لم تكن في أيامك ، فدعها عنك ! فودي^(٣) عثمان رضي الله عنه أولئك القتلى من ماله ؛ لأنَّ أمرهم إليه ؛ إذ لا وارث لهم إلا بيت المال ، والإمام يرى الأصلح في ذلك ، وخلَّ سبيلاً عبيداً الله^(٤) .

وقد جاءت رواية في الطَّبرِيْ تفيد بأنَّ القمادبَان بن الهرمزان قد عفا عن عبيد الله ، فعن أبي منصور^(٥) ، قال : سمعت القمادبَان يحدُّث عن قتل أبيه ، قال : كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعضٍ ، فمرَّ فيروز بأبيه ، ومعه خنجر له رأسان ، فتناوله منه ، وقال : ما تصنع بهذا في هذه البلاد ؟ فقال : آنس به ، فرأه رجلٌ ، فلما أصيب عمر ، قال :رأيت هذا مع الهرمزان ، دفعه إلى فيروز ، فأقبل عبيد الله ، فقتله ، فلما ولَّ عثمان دعاني ، فامكنتني منه ، ثمَّ قال : يا بني ! هذا قاتل أبيك ، وأنت أولى به مَنْ ، فادهبه ، فاقتله ، فخرجت به ، وما في الأرض أحدٌ إلا معي ، إلا أنَّهم يطلبون إلَيَّ فيه . فقلت لهم : ألي قتله ؟ قالوا : نعم ! وسبُّوا عبيداً الله . فقلت : أفلَكم أن تمنعوه ؟ قالوا : لا ! وسبُّوه . فتركته الله ، ولهم . فاحتملوني ، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال ، وأكْفَهُم^(٦) .

ولا يوجد تعارض بين هذه الرِّواية والرِّواية الأخرى التي تذكر : أنَّ الخليفة عثمان عفا عن عبيداً الله بن عمر وتحمَّل هو الدِّيَة الشرعية لوراثة الهرمزان ؛ لأنَّه يوجد في فهم جميع الصحابة حقًّ لابن الهرمزان في القصاص ، وقد استحباب لرجائهم له في العفو على التَّحْوَ السَّالِف ذكره ، كما أنَّ عفو الخليفة يرجع إلى سلطة التَّحقيق في الجريمة ، والحكم فيها هو للخليفة ، وليس لابن المقتول ، فيكون عبيداً الله قد اعتدى على حقَّ الخليفة ، ومن ثمَّ فرواية العفو منه تصرف إلى العفو بسبب هذا الحقَّ ، وهذه المخالفة من عبيداً الله ، حيث أضاع على الدولة أمراً مهمًا هو معرفة الخلايا التي تتَّصل بالجريمة من الجناء ، والأشخاص ، والجهات التي كانت خلف هذه المؤامرة ، كما ينصرف العفو من الخليفة إلى مَنْ ليس لهم ولَيٌ ، وهم جفينة ، وابنة المجوسيِّ القاتل ، ولا يوجد خلاف في الرِّوايات ، والمصادر التاريخية على أنَّ الخنجر الذي قتل به عمر

(١) البداية والنهاية (٧/١٥٤) .

(٢) ودى : دفع دية القتلى .

(٣) البداية والنهاية (٧/١٥٤) .

(٤) تاريخ الطبرِيْ (٥/٢٤٣) إسناده لا يصحُّ .

ابن الخطّاب كان بيد الهرمزان ، وجفينة قبل الحادث ، وقد شاهد ذلك اثنان من الصحابة وهما عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، ورواية عبد الرحمن بن أبي بكر تفيد : أنَّ القاتل أبا لؤلؤة كان مع هذين الشريكيين يتناجون ثلاثة ، فلما باغتهم ؛ سقط الخنجر من بينهم ، وبعد قتل عمر وجدوا : أنَّ نفس الخنجر الذي وصفه الشاهدان^(١) ، وبالتالي فالهرمزان ، وجفينة يستحقان القتل ، أمَّا ابنة أبي لؤلؤة الذي قتل نفسه ؛ ليخفى المشتركون معه ، فهذه قلت خطأ ، ولا يقتل فيها أحدٌ ، وقد رأى عبيد الله : أنَّها من المشاركين في القتل حيث كانت تحفي السلاح لأبيها^(٢) .

٢- قتل اللصوص :

إنَّ شباباً من شباب أهل الكوفة - في ولاية الوليد بن عقبة - نقبوا على ابن الحيسِمان الخزاعيِّ ، وكاثروه ، فنذر بهم ، فخرج عليهم بالسيف ، فلمَّا رأى كثراً منهم ؛ استصرخ ، قالوا له : اسكت ! فإنَّما هي ضربةٌ حتى نريحك من روعة هذه الليلة - وأبو شريح الخزاعي مشرف عليهم - فصاح بهم ، وضربوه ، فقتلوا ، وأحاط الناس بهم فأخذوهم ، وفيهم زهير بن جندب الأزديُّ ، ومورع بن أبي الأسدِيُّ ، وشُبييل بن أبي الأزديُّ في عدَّة ، فشهد عليهم أبو شريح ، وابنه : أنَّهم دخلوا عليه ، فمنع بعضهم بعضاً من الناس ، فقتله بعضهم ، فكتب فيهم إلى عثمان ، فكتب إليه في قتلهم ، فقتلهم على باب القصر في الرَّحْبة . وقال في ذلك عمر بن عاصم التميميُّ :

لَا تَأْكُلُوا أَبْدًا جَيْرَانَكُمْ سَرَفَا
أَهْلَ الزَّعَارَةِ فِي مُلْكِ ابْنِ عَفَانِ
وقال أيضاً :

إِنَّ ابْنَ عَفَانَ الَّذِي جَرَبْتُمْ
مَا زَالَ يَعْمَلُ بِالْكِتَابِ مُهَيْمِنًا

٣- رجل قتل تاجر الماله :

كان ذلك في خلافة عثمان ، وكانت العقوبة : القتل قصاصاً^(٤) .

٤- عقوبة الساحر :

حدث في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه أنَّ جارية لحفصة سحرتها ، فاعترفت الجارية

(١) الطبقات الكبرى (٣/٣٥٥_٣٥٠) .

(٢) الخلافة والخلفاء الراشدون ، ص (٢١٨، ٢١٩) .

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٢٧٢) .

(٤) عصر الخلافة الراشدة ، ص (١٥٣) .

بذلك ، فأمرت حفصة بها عبد الرحمن بن زيد فقتلها ، فأنكر ذلك عليها عثمان ، فقال ابن عمر : ما تذكر على أم المؤمنين من امرأة سحرتها ، واعترفت ؟ فسكت عثمان ، وعثمان لم ينكر على حفصة القتل ، ولكنه أنكر عليها الافتئات على حق الإمام في إقامة الحدود ، فإنَّ أمَّا الحدود إلى الإمام ، وهذا ما يدلُّ عليه قول ابن عمر : ما تذكر على أم المؤمنين من امرأة سحرتها ، واعترفت ؟ يعني : أن القضاء فيها واضح ، وأنَّ استحقاقها القتل لا تدفعه شبهة^(١) .

٥- جنائية الأعمى :

الأعمى قائدِه كالآلة ، يتحرَّك بأمره ، وهو مع مُجالسه غفلٌ ، يتحرَّك وهو قد يتربَّى في حركته ، أو يتضرَّر ، فلا يتوقع : أنَّه يتحاشى إضرار غيره بحركته ، وهو لا يراه ، ولذلك فإنَّه إذا ما جنى على قائدِه ، أو من جالسه دون قصدٍ ، فجنايته هدرٌ ، قال عثمان بن عفَّان : أَيْمَار جل جالس أعمى ، فأصابه الأعمى بشيءٍ ؛ فهو هدرٌ^(٢) .

٦- جنائية المقتليين على بعضهما :

قد يقع شجار بين الأشخاص ، فيجيئ كُلُّ واحدٍ من المشاجرين على صاحبه ، فإنَّ حصل شيءٌ من هذا ؛ فالواجب القصاص ؛ لأنَّ هذه الجنائية عمديٌ ؛ إذ الظاهر : أنَّ كُلَّ واحدٍ منهم حريصٌ على أن ينال من صاحبه . قال عثمان بن عفَّان رضي الله عنه : إذا اقتل المقتلان ، فما كان بينهما من جراحٍ ، فهو قصاصٌ^(٣) .

٧- الجنائية على الحيوان :

إذا وقعت الجنائية على الحيوان ؛ فالواجب بها الضمان بالقيمة ، فعن عقبة بن عامر ، قال : قتل رجلٌ في خلافة عثمان بن عفَّان كلباً لصيده لا يعرف مثله في الكلاب ، فقوم بثمانمائة درهم ، فألزم عثمان تلك القيمة ، وأغرم رجلاً ثمن كلبٍ قتله عشرين بعيراً^(٤) .

٨- الجنائية على الصيائل :

إذا صال شخصٌ على مال شخصٍ آخر ، أو على نفسه ، أو على عرضه ، فقتله المصوَّل عليه أثناء اعتدائِه ، فدمه هدرٌ ، فقد روى ابن حزم في المحلَّ : أنَّ رجلاً رأى مع امرأته رجلاً ، فقتله ، فارتفعوا إلى عثمان ، فأبطل دمه^(٥) .

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص (١٦٩ ، ١٧٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (٩٩) .

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص (١٠٠) .

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص (١٠٢) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص (١٠٣) .

٩- استتابة المرتد وحده :

لا يقام الحدُّ على المرتد حتى يستتاب ثلاثة ، فإن أصرَّ على رَدِّه ؛ قُتِل ، وحدث أنْ أخذ عبد الله بن مسعود بالكوفة رجالاً ارتدوا عن الإسلام ، وأخذوا يعيشون حديث مسيلة الكذاب ، فكتب فيهم إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فكتب عثمان إليه: أن اعرض عليهم دين الحق ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله، فمن قبلها وبرئ من مسيلة ؛ فلا تقتله ، ومن لزم دين مسيلة ، فاقتله ، فقبله رجال منهم ، فتركوا ، ولزم دين مسيلة رجال ، فقتلوا^(١).

١٠- إني قتلت ، فهل لي من توبة ؟ :

قال رجل لعثمان : يا أمير المؤمنين ! إني قتلت ، فهل لي من توبة ؟ فقرأ عليه عثمان من أول سورة غافر : « حَمٌ تَنْزِيلُ الْكِتَبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرَ اللَّدُّيْنَ وَقَابِلَ التَّوْبَ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الْأَطْوَلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمُصِيرُ » [غافر : ٢ - ١] ، ثم قال له : اعمل ، ولا تيأس^(٢) . والجدير بالذكر ، أن التوبة من الآثام إذا ارتكبت في حق العباد لا بد فيها من أداء الحقوق لأصحابها ، أو تنازلهم عنها^(٣) .

١١- حد الخمر :

المعروف : أنَّ رسول الله ﷺ قد عاقب الحرَّ إذا شرب الخمر بأربعين جلدًا ، ضربه القوم بالتعال ، وأطراف الثياب امتهاناً له ، وكذلك أبو بكر ، وكذلك عمر في أول خلافته ، ثم لم يلبث أن زاد العقوبة بمشورة من الصحابة إلى ثمانين جلدًا ، لـما رأى الناس يتحاقرن هذه العقوبة ، ولا يرتدعون بها ، أمَّا عثمان بن عفان فقد ثبت عنه : أنَّ جلد الحرَّ أربعين جلدًا ، وثبت عنه : أنَّ جلده ثمانين جلدًا ، ولم يكن ذلك منه عن تشهُّد ، أو هوى ، ولكنَّه فرق بين الشاربين ، فلم يعاقب من كان شربه زلةً منه عقوبة مـنْ أدمـنـ شـربـها ، فجعل عقوبة من كان شربه لها أول مرأة ، وكانت منه زلةً أربعين جلدًا ، وجعل عقوبة من اعتاد شربها ، ومن أدمـنـ عليها ثمانين جلدًا ، وكأنَّه كان يجعل الأربعين الأولى حـدـاً ، والأربعين الثانية تعزيراً^(٤) .

١٢- إقامة الحد على أخيه من أمِّه : الوليد بن عقبة :

عن حصين بن المنذر ، قال : شهدت عثمان بن عفان ، وأتى بالوليد ، فشهد عليه رجلان ، أحدهما حمران : أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنَّه رأه يتقيأ ، فقال عثمان : إنَّه لم

(١) المصدر السابق نفسه ، ص (١٥٠) .

(٢) سنن البيهقي (١٧/٨) .

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (٩٣) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

يتقيأ حتى شربها ، فقال : يا علي ! قُمْ فاجلده ، فقال علي : قم يا حسن ! فاجلده ، فقال الحسن : ول حارّها من تولى قارّها^(١) ، فكأنه وجد عليه ، فقال : يا عبد الله بن جعفر ! قم فاجلده ، فجلده ، وعلى يعذ ، حتى بلغ أربعين ، قال : أمسك ، ثم قال : جلد النبي ﷺ أربعين ، وأبو بكر أربعين ، وعمر ثمانين ، وكل ستة ، وهذا أحب إلى^(٢) . ويؤخذ من هذا الحديث بأن سلف عثمان رضي الله عنه نفذوا هذا الحد ، وبأن للمتفق أو المأمور أن ينبع عنه غيره ، ويؤخذ منه - أيضاً - قوّة عثمان في الحق ، وأنه لا تأخذ في الله لومة لائم ، فالوليد بن عقبة ابن أبي معيط أحوه لأمه^(٣) ، وتنفيذ الأحكام الشرعية هو أحب أعمال الشرطة^(٤) .

١٣- سرقة الغلام :

لا يقام حد السرقة إلا إذا كان السارق بالغاً ، عاقلاً ، مختاراً ، عالماً بالتحريم ، وقد أتى عثمان بغلام سرق ، فقال : انظروا إلى مؤترره ، فنظروا ، فلم يجدوه أنتبه ، فلم يقطعه^(٥) .

١٤- الحبس تعزيراً :

استعار ضابي بن الحارث البرجمي في زمان الوليد بن عقبة من قوم من الأنصار كلباً يدعى قرحان ، يصيد الطيور ، فحبسه عنهم ، فناقره الأنصاريون ، واستغاثوا عليه بقومه ، فكاثروه ، فانتزعوه منه ، وردوه على الأنصار ، فهاجمهم ، وقال في ذلك :

تَجَشَّسْ دُونِي وَفُدُّ قِرْحَانْ خَطَّةَ
فَبَاشُوا شِبَاعاً نَاعِمِينَ كَائِنَا
فَكَلْبُكُمْ لَا تَشْرُكُوا فَهُوَ أَمْكُمْ

فاستعدوا عليه عثمان ، فأرسل إليه ، فعزّره ، وحبسه كما كان يصنع بال المسلمين ، فاستقل ذلك ، فمازال في الحبس حتى مات فيه^(٦) .

١٥- حد القذف بالتعريض :

كان عثمان رضي الله عنه يقيم حد القذف بالتعريض به ، فقد قال رجلٌ لآخر : « يا بن شامة

(١) أي : ول شدتها ، وأوساخها من تولى هنيئها ، ولذاتها .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ، كتاب الحدود (٢١٦/١١) .

(٣) ولاية الشرطة في الإسلام ، د . نمر الحميداني ، ص (١٠٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص (١٠٤) .

(٥) صحيح التوثيق ، ص (٧٧) . وموسوعة فقه عثمان ، ص (١٧١) .

(٦) تاريخ الطبرى (٤٢٠/٥) .

الوَدْر» - يعرض له بنى أمّه - فاستعدى عليه عثمان بن عفان ، فقال الرَّجُل : إِنَّمَا عَنِتْ كَذَا ، وَكَذَا ، فَأَمْرَ بِهِ عُثْمَانُ فِي جَلْدِ الْحَدَّ - أَيْ : حَدَّ الْقَذْفِ - وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى تَفْسِيرِ مَرَادِهِ مَمَّا قَالَ^(١) .

١٦ - عقوبة الرَّزْنِي :

إِذَا ثَبَتَ الرَّزْنِيُّ عَلَى رَجُلٍ ، أَوْ امْرَأَةٍ ، وَكَانَ حَرَّاً مَحْصَنًا ؛ فَإِنَّهُ يَعْاقِبُ بِالرَّجْمِ بِالْحَجَارَةِ حَتَّى الْمَوْتِ ، وَقَدْ زَنَتْ امْرَأَةً مَحْصَنَةً فِي عَهْدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ ، فَقُضِيَ عُثْمَانُ بِرِجْمِهَا ، وَلَمْ يَحْضُرْ رِجْمَهَا^(٢) .

١٧ - التَّعْزِيزُ بِالنَّفَيِّ ، وَالظَّرْدُ :

بلغ عثمان: أَنَّ ابْنَ الْحَبَّةِ الْهَدَيَّ يَعْالِجُ نِيرَنْجًا - قال مُحَمَّدُ بْنُ سَلْمَةَ : إِنَّمَا هُوَ يَنْرِجُ ، أَخْدُ كَالْسَّحْرِ وَلَيْسُ بِهِ - فَأَرْسَلَ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ لِيُسَأَّلَهُ عَنِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ أَقْرَبَهُ ، فَأَوْجِعْهُ ، فَدَعَا بِهِ ، فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ : إِنَّمَا هُوَ رَفْقٌ ، وَأَمْرٌ يَعْجِبُ مِنْهُ ، فَأَمْرَ بِهِ ، فَعَزَّزَ ، وَأَخْبَرَ النَّاسَ خَبْرَهُ ، وَقَرَا عَلَيْهِمْ كِتَابُ عُثْمَانَ : إِنَّهُ قَدْ جَدَّ بِكُمْ ، فَعَلَيْكُمْ بِالْجَدَّ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْهَمَّازُ ، فَكَانَ النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَتَعَجَّبُوا مِنْ وَقْفِ عُثْمَانَ عَلَى مِثْلِ خَبْرِهِ ، فَغَضِبَ ، فَنَفَرَ فِي الدِّينِ نَفَرُوا ، فَضُرِبُ مَعْهُمْ ، فَكُتِبَ إِلَى عُثْمَانَ فِيهِ ، فَلَمَّا سَيَّرَ إِلَى الشَّامِ مَنْ سَيَّرَ ، سَيَّرَ كَعْبَ بْنَ ذِي الْحَبَّةِ ، وَمَالِكَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ - وَكَانَ دِينَهُ عَلَى دِينِهِ - إِلَى دُنْبَاوَنَدَ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ كَعْبَ بْنَ ذِي الْحَبَّةِ لِلْوَلِيدَ :

طَمِغْتَ بِهَا مِنْ سَقْطَتِي لَسِينِيلُ
إِلَى الْحَقِّ دَهْرًا غَالَ ذَلِكَ غُنُولُ
وَشَتْمِي فِي ذَاتِ الإِلَهِ قَلِيلُ
عَلَيْكَ بِدُبْتَبَا وَنِدِكُمْ لَطَوِينُلُ^(٣)

لَعْمَرِي لَئِنْ طَرَدْتَنِي مَا إِلَى الَّتِي
رَجَوْتُ رُجُونِي يَا بَنَ أَرْوَى وَرَجَعْتَنِي
وَإِنَّ اغْتِرَابِي فِي الْبِلَادِ وَجَفْوَتَنِي
وَإِنَّ دُعَائِي كُلَّ يَوْمٍ وَلِيلَةٍ

١٨ - دفع الناس عن جنازة العباس :

عن عبد الرحمن بن يزيد: أَنَّهُ قَالَ : لَمَّا أَتَى بِجَنَازَةِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ إِلَى مَوْضِعِ الْجَنَائزِ تَضَايِقَ النَّاسُ ، فَتَقَدَّمُوا بِهِ إِلَى الْبَقِيعِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتَنَا يَوْمَ صَلَّيْنَا عَلَيْهِ بِالْبَقِيعِ ، وَمَا رَأَيْتَ مِثْلَ ذَلِكَ الْخروجَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ قَطُّ ، وَمَا يُسْتَطِعُ أَحَدٌ أَنْ يَدْنُو مِنْ سرِيرِهِ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ بَنُو هاشم ، فَلَمَّا انتَهَوْا إِلَى الْلَّهُدْ - ازدحَمُوا عَلَيْهِ ، فَأَرَى عُثْمَانَ اعْتَزَلَ ، وَبَعْثَ الشُّرْطَةَ يَضْرِبُونَ النَّاسَ عَنْ بَنِي هاشم ، حَتَّى خَلَصَ بَنُو هاشم ، فَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ نَزَلُوا فِي حَفْرَتِهِ ، وَدَلَّوْهُ فِي

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (٢٤٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (١٦٤) .

(٣) تاريخ الطبرى (٤١٩ / ٥) .

اللَّحد^(١) ، وهذا يدلُّ على كثرة رجال الشرطة آنذاك ، ويعتبر عثمان رضي الله عنه لدى بعض المؤرخين^(٢) ، أول من اتَّخذ صاحب شُرُطَةٍ من الخلفاء ، وقد أسنَد هذه المهمة في المدينة إلى الصحابي الجليل المهاجر بن قنفذ بن عمير القرشي^(٣) .

وهذا يدلُّ على عنایته بها ، وأنَّ صيتها قد ذاع في عهده ، وفي الكوفة كان عبد الرَّحمن الأُسدي على شرطة سعيد بن العاص (واليها لعثمان) ، كما كان نصير بن عبد الرَّحمن على شرطة معاوية بن أبي سفيان (والى عثمان على الشَّام)^(٤) .

وفي الحقيقة لا يعلم خليفة في الإسلام بعد أبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما يقيم الحدود على القريب ، والبعيد ، والشَّريف ، والوضيع ، والغني ، والفقير ، ولا يبالي ، ويعطي كلَّ ما يُطلُب منه من إصلاح ، أو حقوق كعثمان رضي الله عنه ، وكفاه فخرًا أن ينتمي لحكم الخليفة الرَّاشدة^(٥) .

ثانياً : في العبادات والمعاملات :

١- إتمام عثمان الصَّلاة بمنى ، وعرفات :

في حجَّ عام ٢٩ هـ ، صَلَّى عثمان رضي الله عنه بالنَّاسِ بمنى أربعًا ، فأتى آتِ عبد الرَّحمن بن عوف ، فقال : هل لك في أخيك : قد صَلَّى بالنَّاسِ أربعًا ، فصَلَّى عبد الرَّحمن بأصحابه ركعتين ، ثمَّ خرج حتَّى دخل على عثمان ، فقال له : ألم تصل في هذا المكان مع رسول الله ﷺ ركعتين ؟ قال : بلَى ! قال : أفلَم تصل مع أبي بكر ركعتين ؟ قال : بلَى ! قال : أفلَم تصل مع عمر ركعتين ؟ قال : بلَى ! قال : ألم تصل صدراً من خلافتك ركعتين ؟ قال : بلَى ! قال : فاسمع مِنِي يا أبا محمد^(٦) ! إني أُخْبِرُكَ : أَنَّ بعْضَ مَنْ حَجَّ مِنْ أَهْلِ الْيَمِنِ ، وَجَفَّةِ النَّاسِ قَدْ قَالُوا فِي عَامِنَا الْمَاضِي : إِنَّ الصَّلَاةَ لِلْمُقِيمِ رَكْعَتَانِ ، هَذَا إِمَامُكُمْ عَثْمَانٌ يَصْلِي رَكْعَتَيْنِ ، وَقَدْ اتَّخَذَتْ بِمَكَّةَ أَهْلًا ، فَرَأَيْتَ أَنَّ أَصْلِي أَرْبَعًا لِخَوْفِ مَا أَخَافُ عَلَى النَّاسِ ، وَآخَرِي قَدْ اتَّخَذَتْ بِهَا زَوْجَةً ، وَلِي بِالظَّائِفِ مَالٌ ، فَرَبِّيَا اطْلَعْتَهُ ، فَأَقْمَتْ فِيهِ بَعْدَ الصَّدَرِ ، فَقَالَ عبد الرَّحمن بن عوف : مَا مِنْ هَذَا شَيْءٌ لَكَ فِيهِ عَذْرٌ .

(١) الطَّبقات (٤/٣٢) .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ، ص (١٧٩) .

(٣) ولادة الشرطة في الإسلام ، ص (١٠٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص (١٠٦) .

(٥) تحقيق موافق الصحابة في الفتنة (١/٤٠٩) .

(٦) أبو محمد : كنية عبد الرحمن بن عوف ، ص (٢٦٨) .

أما قولك : أَتَخْذَتْ أَهْلًا ، فزوجتك بالمدينة تخرج بها إذا شئت ، وتقديم بها إذا شئت ، إنما تسكن بسكناك ، وأما قولك : ولِي مالٌ بالطائف ، فإن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاثة ليال ، وأنت لست من أهل الطائف .

وأما قولك : يرجع من حجَّ من أهل اليمن ، وغيرهم فيقولون : هذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين وهو مقيم ، فقد كان رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي والناس يومئذ الإسلام فيهم قليل ، ثم أبو بكر مثل ذلك ، ثُمَّ عمر ، فضرب الإسلام بجرانه ، فصلَّى لهم عمر حتَّى مات ركعتين . فقال عثمان : هذا رأيُ رأيُه .

فخرج عبد الرَّحْمَن ، فلقي ابن مسعود ، فقال : أبا محمد ، غير ما يعلم ؟ قال : لا ، قال : فما أصنع ؟ قال : أعمل أنت بما تعلم ، فقال ابن مسعود : الخلاف شرٌّ ، قد بلغني : أَنَّه صلَّى أربعاء ، فصلَّيت بأصحابي أربعاء ، فقال عبد الرَّحْمَن بن عوفٍ ، قد بلغني : أَنَّه صلَّى أربعاء ، فصلَّيت بأصحابي ركعتين ، وأما الآن فسوف يكون الذي تقول ؟ يعني : نصلِّي معه أربعاء^(١) .

إنَّ عثمان صنع ما صنع من إتمام الصَّلاة في مني ، وعرفات ، شفقةً على ضعفاء المسلمين أن يفتنا في دينهم ، فقد أبدى لفعله سبباً معمولاً حينما سأله عبد الرَّحْمَن ابن عوف -رضي الله عنه- عنه وعما دعاه إليه ، فلمَّا أطلاعه عثمان رضي الله عنه على وجهه نظره ، أخذ عبد الرحمن بقوله وأتمَ الصَّلاة بأصحابه ، وكذلك صنع عبد الله ابن مسعود ، وغيره من جمهور الصحابة ، فتابعوه ، ولم يخالفوه ؛ لأنَّه إمامٌ راشدٌ تجب متابعته فيما لم يخرج عن حدود الشَّريعة المطهَّرة ، ولو كان فيما جاء به عثمان أدنى شبهة لمخالفة نصٌّ شرعيٌّ ما أمكن مطلقاً جمهور الصحابة أن يتبعوه^(٢) ، والذي أبداه عثمان في تحاوره مع عبد الرَّحْمَن بن عوف ، واحتج به لرأيه معقول المعنى ، ولو تأمل فيه نظار في أسرار الدين ، وحكم الشريعة ؛ لرأي : أنَّ إتمام الصَّلاة الذي انتهى إليه رأي عثمان أرجح حينئذٍ من قصرها ، وقد حدث من الأمور ما لم يكن على عهد النبي ﷺ ، وأبي بكر ، وعمر ، فخاف عثمان أن يفتتن الناس في صلاتهم ، ولا سيما جفاة الأعراب في مضاربهم ، ومن بعدت بلادهم في أطراف الأرض ، وقد لا يتصل بهم من أهل العلم من يعلِّمهم ، ويرشدهم ، فأراد عثمان بما صنع حسم هذا الشرُّ المخوف على كثيرٍ من ضعفاء المسلمين .

وقد بالغ عثمان رضي الله عنه في إبعاد الشُّبهة عن نفسه ، فقال : إِنَّه أَتَخْذَ بِمَكَّةَ أَهْلًا ، وله بالطَّائف مالٌ ربما نظر إليه ، وأقام فيه بعد انتهاء الموسم ، فيكون حينئذٍ مقيماً ، ففرضه

(١) تاريخ الطبرى (٥/٢٦٨) .

(٢) عثمان بن عفان ، لصادق عرجون ، ص (١٩٢) .

الإتمام ، وذلك منه رضي الله عنه من دقيق النّظر في الدّين ، وفهم أسراره ، وحكمه^(١) .

وقد رأى جماعةٌ من الصّحابة إتمام الصّلاة في السّفر منهم : عائشة ، وعثمان ، وسلمان ، وأربعة عشر من أصحاب رسول الله ﷺ^(٢) ، فعثمان رضي الله عنه لم يوجب القصر في السّفر ، وإنما كان يتّجه كما رأه فقهاء المدينة ، ومالك ، والشّافعي ، وغيرهما . ثم إنها مسألة اجتهادية ، ولذلك اختلف فيها العلماء ، فقوله فيها لا يوجب تكفيراً ، ولا نفيقاً^(٣) . وأمّا قول ابن مسعود رضي الله عنه : الخلاف شر^(٤) ، وفي رواية : إنّي أكره الخلاف^(٥) ، ففيه ترشيد لنا ، وتذكير على استحباب الخروج من الخلاف في مسائل الاجتہاد ، ويحسن بالمسلم أن يستحضرها ، ويحاول أن يقلل الخوض ، والجدال في الفروع المختلفة فيها^(٦) ؛ إذ الظروف المحيطة بنا . لا تساعدننا على إضاعة مزيد من الوقت الثمين في الجدل والخلاف عمّا يجب أن نفعله لمواجهة التحدّيات الخطيرة^(٧) ، كما أنّ في فعل ابن مسعود ، وابن عوف رضي الله عنهم من الصّلاة خلف عثمان بياناً لحرص الصّحابة على الاجتماع والوحدة ، وهذا خلقٌ عظيمٌ من أخلاق جيل التّصر .

٢- زاد الأذان الثاني يوم الجمعة :

قال رسول الله ﷺ : « عليكم بستني ، وسنة الخلفاء الرّاشدين من بعدي »^(٨) ، وهذه الرّيادة من سنة الخلفاء الرّاشدين ، ولا شكّ : أنّ عثمان من الخلفاء الرّاشدين ورأى مصلحة أن يزاد هذا الأذان ؛ لتتنبه الناس عن قرب وقت صلاة الجمعة بعد أن اتسعت رقعة المدينة ، فاجتهد في هذا ، ووافقه جميع الصّحابة ، واستمرّ العمل به لم يخالفه أحدٌ حتّى في زمان عليٍ ، وزمن معاوية ، وزمنيبني أميّة وبني العباس إلى يومنا هذا ، فهي سنة بإجماع المسلمين^(٩) .

ثمَّ هو له أصلٌ في الشّرع ؛ وهو الأذان الأول في الفجر ، فилас عثمان هذا الأذان عليه^(١٠) . لقد سنَّ عثمان ذلك أخذًا من سنة الرّسول ﷺ وأذانه الذي شرعه في الفجر قبل دخول

(١) المصدر السابق نفسه ، (١٩٤) .

(٢) كتاب الإمام والرّد على الرّافضة للأصبهاني ، ص (٣١٢) .

(٣) الرّياض النّضرة ، ص (٥٦٦) .

(٤) تاريخ الطّبرى (٢٦٨/٥) .

(٥) القواعد الفقهية للنّدوى ، ص (٣٣٦) .

(٦) فقه الأولويات ، لمحمد الوكيلي ، ص (١٦٩) .

(٧) الفكر الإسلامي بين المثالى والتطبيق ، كامل الشريف ، ص (٢٩) .

(٨) سنن أبي داود ، كتاب السنة رقم (٤٦٠٧) . وسنن الترمذى ، كتاب العلم ، رقم (٢٦٧٦) .

(٩) حقيقة من التّاريخ ، عثمان الخميس ، ص (٨٨) .

(١٠) المصدر السابق نفسه ، ص (٨٩) .

الوقت لينبئه النائم ، ويستعدّ اليقظان ، ومريد الصيام ، فهو مستنٌ بسنة الرَّسُول ﷺ وأخذ من طريقه ، وقد اختلف أهل العلم : هل أوقعه قبيل دخول الوقت كما هو الحال في الأذان الأول من الفجر أم أوقعه في الوقت ؟ ويميل الحافظ إلى أنّ وقوعه كان إعلاماً بالوقت ، قال في فتح الباري : وتبين : أنّ عثمان أحدثه لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة قياساً على بقية الصلوات ، فألحق الجمعة بها ، وأبقى خصوصيتها بالأذان بين يدي الخطيب .

وفيه استنباط معنى من الأصل لا يبطله ، وأمّا ما أحدث الناس قبل وقت الجمعة من الدعاء إليها ، والذكر والصلة على النبي ﷺ فهو في بعض البلاد دون بعض ، واتّباع السلف الصالح أولى^(١) .

وأمّا الذين قالوا : إنّه أحدث قبيل دخول الوقت ، قالوا : لأنّ الغرض منه الإعلام بالجمعة ، والسعى إليها على غرار الأذان الأول في الفجر ، فلو كان بعد دخول الوقت لمّا أدى المعنى المطلوب إلا بتأخير الجمعة بعض الشيء ، وهو خلاف السنة . وبه يُستغنى عمّا أحدثه الناس في التذكير ، والذكر ، وغيرهما مما أشار إليه الحافظ ، ولم ينكّره إلا بقوله : « واتّباع السلف الصالح أولى »^(٢) .

٣- اغتساله كلّ يوم منذ أسلم :

كان عثمان بن عفان يغتسل كلّ يوم منذ أسلم^(٣) ، وقد صلّى ذات يوم الصبح بالناس وهو جنب دون أن يدرى ، فلما أصبح رأى في ثوبه احتلاماً ، فقال : كبرت والله ! إنّي لأراني أجنبي ، ولا أعلم ، ثمّ أعاد الصلاة^(٤) ، ولم يُعد مُنصلي خلفه^(٥) .

٤- سجود التلاؤة :

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يرى : أنّ سجود التلاؤة يجب على المكلّف التالي للقرآن ، وعلى الجالس لسماع القرآن ، أمّا من سمعه من غير قصد ، فليس عليه سجود التلاؤة ، فقد مرّ رضي الله عنه بقاصٍ ، فقرأ القاص سجدةً ليسجد معه عثمان ، فقال عثمان : إنّما السجود على من استمع ، ثمّ مضى ، ولم يسجد^(٦) ، وقوله : على من استمع ؛ يعني : على من قصد

(١) فتح الباري (٤/ ٣٤٥) .

(٢) السنة والبدعة ، عبد الله باعلوي الحضرمي ، ص (١٣٣ ، ١٣٢) .

(٣) فضائل الصحابة ، رقم (٧٥٦) إسناده حسن .

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (١٩٠) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، (١٩٢) .

(٦) الخلافة الرّاشدة والدّولة الأمويّة ، د . يحيى اليحيى ، ص (٤٤٤) .

السماع ، وقال رضي الله عنه : إنما السجدة على من جلس لها^(١) ، وروي عن عثمان : أنّ الحائض إذا استمعت السجدة تومئ بها إيماء ، ولا ترتكها ، ولا تسجد لها سجود الصلاة^(٢) .

٥- صلاة الجمعة في السواحل :

قال الليث بن سعد : كل مدينة ، أو قرية فيها جماعة أمروا بالجمعة ، فإنّ أهل مصر ، وسواحلها كانوا يجتمعون الجمعة على عهد عمر ، وعثمان بأمرهما ، وفيهما رجالي من الصحابة^(٣) .

٦- استراحة عثمان في الخطبة :

عن قتادة : أن النبي ﷺ وأبا بكر ، وعمر ، وعثمان كانوا يخطبون يوم الجمعة ، حتى شقَّ القيام على عثمان ، فكان يخطب قائما ثم يجلس ، فلما كان معاوية خطب الأولى جالسا ، والأخرى قائما^(٤) .

٧- جعل القنوت قبل الركوع :

قال أنس : إنّ أول من جعل القنوت قبل الركوع - أي : دائمًا - عثمان ؛ لكي يدرك الناس الركعة^(٥) .

٨- أعلم الناس بأحكام الحج :

يقول محمد بن سيرين : كانوا يرون : أن أعلم الناس بالمناسبات عثمان بن عفان ، ثم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما^(٦) .

٩- النهي عن الإحرام قبل الميقات :

لمّا فتح عبد الله بن عامر خراسان ؛ قال : إن هذا نصرٌ من الله لا بدّ لي من أنأشكره عليه ، ولأجعلَ شكري لله أن أخرج من موضعه هذا - خراسان - محرماً ، فأحرم من نيسابور ، وخلف على خراسان الأخفف بن قيس ، فلما قضى عمرته ؛ أتى عثمان بن عفان ، وذلك في السنة التي قُتل فيها ، فقال له عثمان : لقد غررت بعمرتك حين أحرمت من نيسابور^(٧) .

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (١٦٨) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) فتح الباري (٤٤١/٢) .

(٤) الخلافة الراشدة ، ليحيى اليحيى ، ص (٤٤٤) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، وفتح الباري (٥٦٩/٢) .

(٦) موسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (١١٢) .

(٧) سنن البهقي (٣١/٥) . وموسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (١٧) .

١٠- سفر المعتدة للحجّ ، وال عمرة :

المعروف : أنَّ المعتدة لا تبيت إلَّا في بيتها ، ولا تاسفِر إلَّا بعد انتهاء عدَّتها ؛ لأنَّ سفرها يقتضي مبيتها في غير بيتها ، والحجُّ لا يخلو من سفرٍ ، ولذلك فإنَّ عثمان كان يرى : أنَّ المعتدة لا يلزمها الحجُّ ما دامت في العدة ، وكان رضي الله عنه يُرجِع المعتدة حاجَةً ، أو معتمرًا من الجحفة ، وذى الحليفة^(١) .

١١- النهي عن متعة الحجّ :

نهى عثمان رضي الله عنه عن المتعة ، أو الجمع بينهما ليعمل بالأفضل ، لا ليُبِطَّل المتعة . ولا يخفى على عثمان ومن دونه : أنَّ من أراد الإحرام ، فهو مخير بين الإفراد ، والقرآن ، والشَّمْع ، ولكنَّه رضي الله عنه رأى الإفراد أفضل من الاثنين ، فعن مروان بن الحكم ، قال : شهدت عثمان ، وعلى رضي الله عنهما وعثمان ينهى عن المتعة ، وأنَّ يُجمع بينهما ، فلمَّا رأى عليٌّ ذلك ؛ أهلَّ بهما : ليك بعمرَة ، وحجَّة ، وقال : ما كُنْتُ لأدع سَنَةَ النَّبِيِّ ﷺ لقول أحدٍ^(٢) ؛ ولم يذكر عثمان على عليٍّ ذلك منه ؛ لأنَّ علياً رضي الله عنه كان يخشى أن يحمل غيره النهي على الإبطال ، والتحريم ، وإنما قال : ما كنت لأدع سَنَةَ رسول الله ﷺ لقول أحدٍ ؛ ليظهر جواز ذلك ، وأنَّها سَنَةٌ ماضية ، وكلاهما مجتهدٌ مأجورٌ^(٣) .

وفي الحديث من الفوائد الظاهرة : مناظرة العلماء ولاة الأمر بقصد إشاعة العلم ، ومناصحة المسلمين ، وسعة صدر الولاية ، لاجتهد العلماء في المسائل التي يتسع معها الاجتهد ، وأنَّ المجتهد لا يجرِ مجتهداً آخر بابِاعله لسكوت عثمان عن عليٍّ ، وفيه : أنَّ العلم يسبق القول ، والعمل^(٤) .

١٢- أكل لحم الصَّيد :

لا يجوز للمحرم أن يأكل من الصَّيد الذي صاده هو ، أو صاده له غيره من الحلال^(٥) ، فمن عبد الرحمن بن حاطب : أنَّه اعتمر مع عثمان بن عفَّان في ركبٍ ، فلمَّا كان بالرَّوْحَاء ؛ قدم لهم لحم طير - يعقوب - فقال عثمان : كلوا ، وكروه أن يأكل منه ، فقال عمرو بن العاص : أنا أكل مما لست منه آكلاً ؟ ! قال عثمان : لست في ذلك مثلكم ، إنَّما صيدت لي ، وأميته باسمي ،

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(١١٢) .

(٢) البخاريُّ ، كتاب الحجَّ ، رقم (١٥٦٣) .

(٣) شهيد الدار عثمان بن عفَّان ، ص(٨٦) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(٢٠) .

أو قال : من أجيلى^(١) . وقد تكرر ذلك من عثمان مرات أخرى ، كما روى عبد الله بن عامر بن ربيعة ، قال : رأيت عثمان بن عفان بالعرج ، وهو محروم في يوم صائف قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان ، ثم أتى بلحم صيد ، فقال لأصحابه : كلوا ، فقالوا : ألا تأكل أنت ؟ قال : إني لست كهيئتكم ؛ إنما صيد من أجيلى^(٢) .

١٣- كراهة الجمع بين القرابة في الزواج :

أخرج الخلال من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن أبي بكر ، وعمر ، وعثمان : أنَّهم كانوا يكرهون الجمع بين القرابة مخافة الضيائين^(٣) .

١٤- في الرضاعة :

روى عبد الرزاق عن ابن جريج عن ابن شهاب ، قال : فرق عثمان بين ناس تناكحوا بقول امرأة سوداء أرضعتهم^(٤) .

١٥- في الخلع :

عن الربيع بنت معوذ ، قالت : كان بيني وبين ابن عمِّي كلام ، وكان زوجها ، قالت : فقلت له : لك كل شيء وفارقني . قال : قد فعلت . فأخذ والله كل شيء حتى فراشي ، فجئت عثمان وهو محصور ، فقال : الشرط أملك ، خذ كل شيء حتى عقاص رأسها^(٥) ، وفي رواية : اختلعت من زوجي بما دون عقاص رأسى ، فأجاز ذلك عثمان^(٦) .

١٦- يحب الإحداد على المعتدة لوفاة زوجها :

ومن الإحداد ترك الزينة ، وترك المبيت في غير البيت الذي توفي فيه زوجها إلا لضرورة ، ويجوز لها أن تخرج نهاراً للقضاء حاجتها ، ولكنها لا تبكي في المساء إلا في بيتها^(٧) ، فمن فرية بنت مالك بن سنان أخت أبي سعيد الخدري أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ ، فأخبرته : أنَّ زوجها خرج في طلب أعمده له ، فقتلوه بطرف القديوم ، فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي ، فإنَّ

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) سنن البيهقي (١٩١/٥) . وموسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (٢٠) .

(٣) الخلافة الراشدة ، د . يحيى اليحيى ، ص (٤٤٩) .

(٤) الفتح (١٨/٥) .

(٥) الطبقات (٤٤٨/٨) .

(٦) الخلافة الراشدة ، د . يحيى اليحيى ، ص (٤٤٩) .

(٧) موسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (٢٤٤) .

زوجي لم يتركتني في مسكنٍ يملكه ، ولا نفقه ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : « نعم ! » قالت : فانصرفت ، حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ، أو أمر بي ، فنوديت ، فقال : « كيف قلت ؟ فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي ، فقال : امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتابُ أجله ، قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر ، وعشراً ، قالت : فلما كان عثمان بن عفان أرسل إليَّ ، فسألني عن ذلك ؟ فأخبرته ، فاتبعه ، وقضى به^(١) ، ولذلك كان عثمان يتشدد في أمر مبيت المرأة المعتدة خارج بيتها ، فقد حدث : أنَّ امرأةً توفى عنها زوجها زارت أهلها في عدتها ، فضربها الطلاق ، فأتوا عثمان ، فسألوه ، فقال : احملوها إلى بيتها ، وهي تطلق^(٢) .

١٧- لا تنكحها إلا نكاح رغبة :

جاء رجلٌ إلى عثمان في خلافه وقد ركب ، فسألَه ، فقال : إنَّ لي إليك حاجةً يا أمير المؤمنين ! فقال له عثمان : إنَّي الآن مستعجلٌ ، فإنْ أردت أن تركب خلفي حتى تقضي حاجتك ، فركب خلفه ، فقال : إنَّ لي جاراً طلق امرأته في غضبه ، ولقي شدَّةً ، فأردت أن أحتسِب بنفسي ، وما لي ، فأتزوجها ثمَّ أبْتني بها ، ثمَّ أطلقها ، فترجع إلى زوجها الأول ، فقال له عثمان : لا تنكحها إلا نكاح رغبة^(٣) .

١٨- طلاق السَّكران :

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يرى : أنَّ كلَّ ما يتكلَّم به السَّكران فهو هدرٌ ، فلا تصحُّ عقوده ، ولا فسوخه ، ولا إقراره ، ولا يقع طلاقه ؛ لأنَّه لا يعي ما يقول ، ولا يريد ما يقول ، ولا إلزم لغير إرادته^(٤) ، قال عثمان رضي الله عنه : ليس لسکران ، ولا مجنون طلاق^(٥) .

١٩- هبة الوالد لولده :

إذا نحل الأب ولده نحلة ؛ كان عليه أن يُشهد على هذه الهبة ، فإذا أشهد عليها ؛ اعتبر هذا الإشهاد قبضاً لها ، وصحَّ أن تبقى بعد ذلك في يد الأب ، فقد ورد عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قوله : من نحل ولدًا له صغيراً لم يبلغ أن يجوز نحلة ، فأعلن ذلك ، وأشهد عليه ؛ فهي جائزَةٌ وإن ولَّها أبوه^(٦) . وأمَّا إذا لم يشهد ، ولم يسلِّمها للولد ؛ فهي هبة غير لازمة ، قال عثمان رضي الله عنه : ما بال أقوام يعطي أحدهم ولده العطية ، فإنْ مات ولده ، قال : مالي ،

(١) المصدر السابق نفسه ، (٢٢٤) ، والموطأ (٥٩١/٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (٢٢٥) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (٨١) .

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (٥٣) . والفتاوي (١٤/٧٢) .

(٥) الفتاوي (٣٣/٦١) . وموسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (٥٣) .

(٦) سنن البيهقي (٦/١٧٠) . وموسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (٢٨٨) .

وفي يدي ، وإن مات هو قال : وهبة ، لا يثبت من الهبة إلا ما حازه الولد من مال أبيه^(١) .

٢٠- الحجر على السفهية :

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يرى الحجر على السفهية ، فقد حدث أن اشتري عبد الله بن جعفر أرضاً بمبلغ ستين ألف دينار ، فبلغ ذلك علي بن أبي طالب ، فقرر علي: أن الأرض لا تساوي هذا المبلغ من المال ، وأن عبد الله بن جعفر قد غُبن فيها غبناً فاحشاً ، بل إنه قد تصرف تصريفاً آخر ، وأعرب: أنه سيتوجه نحو أمير المؤمنين عثمان بن عفان ليطلب منه الحجر على عبد الله بن جعفر لسفهه ، وإساءته التصرف في ماله ، فأسرع عبد الله بن جعفر إلى الرَّبِّير - وكان تاجراً حاذقاً - وقال له: إني ابتعت بيعاً بكم ، وكذا ، وإن عليناً يريد أن يأتي عثمان ، فيسألة أن يحجر علي ، فقال له الرَّبِّير: فأنا شريكك في البيع ، وأنت على عثمان بن عفان ، فقال له: إنَّ ابن أخي اشتري سبخة بستين ألفاً ما يسرني: أنها لي بنعلى ، فاحجر عليه! وقال الرَّبِّير لعثمان: أنا شريكه في هذا البيع ، فقال عثمان ابن عفان لعلي بن أبي طالب: كيف أحجر على رجلٍ في بيعٍ شريكه فيه الرَّبِّير^(٢)? يعني: أننا لا نستطيع أن نحكم على جعفر على سفهه لتصرفه تصريفه شريكه فيه الرَّبِّير ؛ لأنَّ الرَّبِّير لا يمكن أن يشارك في تصريف تجاريٍّ آخر لحذقه بالتجارة^(٣) .

٢١- الحجر على المفلس :

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يرى الحجر على المفلس ، وإذا حُجر على مفلس اقتسم الدائون ماله بنسبة ديونهم ، لكن إن وجد بعض دائنه سلعته التي باعه إياها بعينها عنده؛ جاز له أن يفسخ البيع ، ويأخذ سلعته^(٤) ، فهو أحق بها من غيره^(٥) .

٢٢- تحريم الاحتكار :

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يمنع الاحتكار ، وينهى عنه^(٦) ، ويظهر: أنَّ عثمان بن عفان كان كسلفه عمر بن الخطاب لا يفرق في تحريم الاحتكار بين الطعام ، وغيره ، لأنَّ نهيه عن الاحتكار كان عاماً ، خاصةً: أنَّ ما ورد عن رسول الله في تحريم الاحتكار منه ما هو مطلقاً

(١) الفتوى (٣١/١٥٤) .

(٢) سنن البيهقي (٦/٦٦١) . وموسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (١١٩) .

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (١١٩) .

(٤) سنن البيهقي (٦/٤٦) .

(٥) موسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (١١٩) .

(٦) موطأ مالك (٢/٦٥١) .

في كل شيء ، ومنه ما هو مقيد - عند الجمهور - لعدم التعارض بينهما ؛ بل يبقى المطلق على إطلاقه^(١) .

٢٣- ضوال الإبل :

روى مالك : أنَّه سمع ابن شهاب يقول : كانت ضوال الإبل في زمان عمر بن الخطاب إبلاً مرسلةً تناجر لا يمسها أحدُ ، حتَّى إذا كان زمان عثمان بن عفَّان أمر بتعريفها ، ثمَّ تباع ، فإذا جاء صاحبها أعطي ثمنها^(٢) ، وقد كان فعل عمر تبعاً لحديث الصَّحِيحَيْن عن زيد بن خالد الجهنمي رضي الله عنه قال : جاء أعرابيٌّ إلى النَّبِيِّ ﷺ ، فسألَه عما يلتقطه ، فقال : « اعرف عفاصها ، ووكاءها^(٣) ، ثمَّ عرَّنها سنةً ، فإنْ جاء صاحبها ، وإلا ؛ فشأنك بها » قال : فضالة الغنم يا رسول الله ؟ قال : « هي لك ، أو لأخيك ، أو للذئب » قال : فضالة الإبل ؟ قال : « مالك ولها ، معها سقاوها ، وحذاوها ترد الماء ، وتأكل الشَّجَر حتَّى يلقاها ربها »^(٤) .

وقد رأى الأستاذ الحجوبي : أنَّ هذا الاجتهد من عثمان بن عفَّان رضي الله عنه مبنيٌّ على المصلحة المرسلة ؛ لأنَّه رأى الناس مُثُواً أيديهم إلى ضوال الإبل ، فجعل راعياً يجمعها ، ثمَّ تباع قياماً بالمصلحة العامة^(٥) . غير أنَّ الأستاذ عبد السلام السليماني ردَّ على هذا القول بقوله : غير أنَّه من الصَّعب التسليم بمقالة الأستاذ الحجوبي على إطلاقها ؛ لأنَّ المصلحة المرسلة هي التي لم ينصَّ الشَّارع لا على اعتبارها ، ولا على إلغائها ، في حين : أنَّ النَّبِيِّ ﷺ قد نصَّ على حكم ضوال الإبل في الحديث المذكور أعلاه ، فهي إذاً مصلحةٌ معتبرةٌ نصَّ عليها النَّبِيُّ بن نفسه ، فلا يصحُّ أن يقال : إنَّ ما فعله عثمان من بيع ضوال الإبل يعدُّ مصلحةً مرسلةً ، فالមصلحة المرسلة لا تكون في مقابلة النَّصَّ .

والذي يظهر لنا : أنَّ اجتهد عثمان في هذه القضية بُني على المصلحة العامة ، فعلاً ، لكنَّها ليست مصلحةً مرسلةً ، وأنَّ هذه القضية من القضايا القابلة للاجتهد ، والتي يمكن أن يتغير حكمها بتغيير الأزمنة ، والأحوال ، وبالنظر إلى ما يتحقق مصلحة أصحاب ضوال الإبل ؛ لأنَّ علة الحكم فيها - على ما يظهر - هي المحافظة على هذه الإبل إمَّا بأعيانها ، أو في شكل ثمنها ، وكلا الأمرين مصلحةٌ ، ولا شكَّ : أنَّ سيدنا عثمان بصنعيه هذا كان هدفه تحقيق المصلحة

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص (١٥) .

(٢) موطأ مالك ، ص (٦٤٨ - ٦٤٩) طبعة دار الآفاق الجديدة .

(٣) العفاص : الوعاء الذي تحفظ فيه التَّقْفَة . والوكاء : الخط الذي يربط به .

(٤) البخاريُّ ، كتاب اللقطة رقم (٢٤٢٧ ، ٢٤٢٨ ، ٢٤٢٩) .

(٥) الفكر السامي (١/٢٤٥) .

العامة ؛ لأنَّه رأى : أنَّ ترك الإبل على حالها ، كما كان الأمر في عهد النَّبِيِّ ﷺ وإلى زمان عمر ، يعرضها للضياع بعد أن تغيرت أخلاق الناس ، وأصبحوا يمدوون أيديهم لضوايل الإبل ، فرأى أن يقطع الطريق عليهم بما فعل ، وهو اجتهاد سليم ، وحكم (سديد) بلا ريب^(١).

٤- توريث المرأة المطلقة في مرض الموت :

طلق عبد الرحمن بن عوف زوجته وهو مريض ، فورُثَها عثمان منه بعد انقضاء مدة عدتها ، وقد روی : أنَّ شريحًا كتب إلى عمر بن الخطاب في رجل طلق امرأته ثلاثة ، وهو مريض ، فأجاب عمر : أنَّ ورثها ما دامت في عدتها ، فإن انقضت عدتها فلا ميراث لها ، وبعد أن اتفقا على أنَّ طلاق المريض مرض الموت لا يزيل الزوجية كسببٍ موجب للإرث ، جعل عمر حداً لذلك وهو العدة ، بينما لم يجعل عثمان حداً لذلك ، وقال : ترث مطلقتها سواءً مات في العدة أو بعدها ، وليس في المسألة نصٌّ يرجع إليه ، والباعث على الحكم هو معاملة الزوج بنقضه قصده ؛ لأنَّ الزوج بطلاقه في مرض الموت يعتبر فاراً من توريث زوجته^(٢).

٥- توريث المطلقة مالم تنقض عدتها :

قال عثمان بن عفان : إذا مات أحد الزوجين قبل الحيسنة الثالثة للمطلقة ؛ ورث الحيسنة منهما الميت^(٣) ، ولا يمنع التوارث بينهما طول فترة العدة كما إذا حاضت المعتدة حيسنة ، أو حيسنتين ثمَّ ارتفعت حيسناتها ، فقد طلق حبَّان بن منقذ امرأته وهو صحيح ، وهي ترضع ابنته ، فمكثت سبعة عشر شهراً لا تحيسن ، يمنعها الرَّضاع أن تحيسن ، ثمَّ مرض حبَّان بعد أن طلقها سبعة أشهر ، أو ثمانية ، فقيل له : إن امرأتك ترث ، فقال : أحملوني إلى عثمان ، فحملوه إليه ، فذكر له شأن امرأته ، وعنه علیٌّ بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، فقال لهمما عثمان : ما تريان ؟ فقالا : نرى أنَّها ترثة إن مات ، ويرثها إن ماتت ، فإنَّها ليست من القواعد من النساء الالئي ينسن من المحيض ، وليس من الأبكار اللاتي لم يحضن ، ثمَّ هي على علة حيسنها ما كان من قليل أو كثير ، فرجع حبَّان إلى أهله ، فأخذ ابنته ، فلما فقدت الرَّضاع حاضت حيسنة ، ثمَّ حاضت أخرى ، ثمَّ توفي حبَّان قبل أن تحيسن الثالثة ، فاعتُدَّت عدَّة الوفاة ، وورثت زوجها حبَّان بن منقذ^(٤).

(١) الاجتهاد في الفقه الإسلامي ، ص (١٤٣ ، ١٤٤).

(٢) تاريخ التشريع الإسلامي ، للخضري ، ص (١١٨). ونشأة الفقه الاجتهادي ، محمد السادس ، ص (٢٧). والاجتهاد في الفقه الإسلامي ، ص (١٤٢).

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (٢٨).

(٤) سنن البيهقي (٤١٩/٧). وموسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص (٢٩).

٢٦- توريث الحميل :

إذا سببت امرأة من الكفار ومعها طفل تحمله مدعيةً : أنَّه ولدها - وهو ما يسمى بـ(الحميل) - فإنَّا لا تصدق بدعواها ، ولا يجري التوارث بينها وبينه إلا إذا أقامت البينة على أنَّه ابنها ، وقد استشار عثمان في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، فأبدى كُلُّ منهم رأيه ، وقال عثمان آنئذ : مانرى أن نورث مال الله إلا بالبيئات . وقال : لا يُورث الحميل إلا ببيئه^(١) .

هذه بعض اجتهادات ذي التُّورين أثَرَت في المؤسسة القضائية في مجال القصاص والحدود ، والجنائيات ، والتعزير ، كما أنَّه ساهم في تطوير المدارس الفقهية الإسلامية باجتهاداته الدَّالة على سعة اطْلاعه ، وغزاره علمه ، وعمق فهمه ، واستيعابه لمقاصد الشَّريعة الغراء ، فهو خليفةٌ راشدٌ ، أعماله تسترشد بها الأمة في مسيرتها الطَّويلة لنصرة دين الله تعالى ، وإعزازه .

* * *

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان ، ص(٢٨) .

الفصل الرابع

الفتوحات في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه

● تمهيد :

شَجَعَ خبر مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعداء الإسلام ، وخصوصاً في بلاد الفرس ، والرُّوم على الطَّمْع في استرداد ملكهم ، فبدأ يزدجرد ملك الفرس يخطط في العاصمة التي يقيم فيها وهي مدينة (فرغنة) عاصمة سمرقند ، وأماماً زعماء الرُّوم ؛ فقد تركوا بلاد الشام وانتقلوا إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية ، وبدؤوا في عهد عثمان في البحث عن الوسائل التي تمكّنهم من استرداد ملكهم ، وكانت بقايا جيوش الرُّوم في مصر قد تحصّنوا بالإسكندرية في عهد عمر بن الخطاب ، فطلب عمرو بن العاص منه أن يأذن بفتحها ، وكانت معززة بتحصيناتٍ كثيرة ، وكانت المجانق فوق أسوارها ، وكان هرقل قد عزم أن يباشر القتال بنفسه ولا يتخلّف أحدٌ من الرُّوم ؛ لأن الإسكندرية هي معقلهم الأخير^(١) .

وفي عصر عثمان تجمّع الرُّوم في الإسكندرية وبدؤوا يبحثون عن وسيلة لاسترداد ملكهم فيها ، حتّى وصل بهم الأمر إلى نقض الصلح ، واستعنوا بقوّة الرُّوم البحريّة^(٢) ، فأمدوهم بثلاثة سفينـة بحريـة تحمل الرـجال ، والسـلاح ، ولقد واجه عثمان ذلك كله بسياسة تَسـمـ بالجسم ، والعزم ، وتمـلـلت في الخطـة الآتـية :

- ١- إخضاع المتمردين من الفرس ، والرُّوم ، وإعادة سلطان الإسلام إلى هذه البلاد .
- ٢- استمرار الجهاد والفتـوحـات فيما وراء هذهـ الـبـلـادـ لـقطـعـ المـدـدـ عنـهـمـ .
- ٣- إقامة قواعد ثابتـةـ يـرـابـطـ فيهاـ الـمـسـلـمـونـ لـحـمـاـيـةـ الـبـلـادـ الـإـسـلـامـيـةـ .
- ٤- إنشـاءـ قـوـةـ بـحـرـيـةـ عـسـكـرـيـةـ لـافتـقـارـ الجـيـشـ الـإـسـلـامـيـ إلىـ ذـلـكـ^(٣) .

كانت معسكـراتـ الـإـسـلـامـ وـمـسـالـحـهـ فيـ عـهـدـ عـثـمـانـ هـيـ عـوـاصـمـ أـقـطـارـهـ الـكـبـرـىـ ؛ـ فـمـعـسـكـرـ

(١) الخلافة والخلفاء الرآشدون ، ص (٢٢١) .

(٢) جولةٌ تاريخيةٌ في عصر الخلفاء الرآشدين ، ص (٣٢٤) .

(٣) الخلافة والخلفاء الرآشدون ، ص (٢٢٢) .

العراق : الكوفة ، والبصرة ، ومعسكر الشَّام في دمشق بعد أن خلص الشَّام كُلُّه لمعاوية بن أبي سفيان ، ومعسكر مصر كان مركزه الفسطاط ، وكانت هذه المعسكرات تقوم بحماية دولة الإسلام ، ومواصلة الفتوحات ، ونشر الإسلام^(١) .

* * *

(١) عثمان بن عفان ، لصادق عرجون ، ص (٢٠٠ ، ١٩٩) .

المبحث الأول

فتوات عثمان في المشرق

أولاً : فتوحات أهل الكوفة : أذربيجان ٢٤ هـ :

كانت مغازي أهل الكوفة الرئيسي ، وأذربيجان ، وكان يرابط بهما عشرة آلاف مقاتل : ستة آلاف بأذربيجان ، وأربعة آلاف بالرئيسي ، وكان جيش الكوفة العامل أربعين ألف مقاتل ، يغزو كل عام منهم عشرة آلاف ، فيصيب الرجل غزوة كل أربعة أعوام ، ولما أخلص عثمان رضي الله عنه الكوفة للوليد بن عقبة انتفض أهل أذربيجان ، فمنعوا ما كانوا قد صالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيام عمر ، وثاروا على واليهم عقبة بن فرقاد ، فأمر عثمان الوليد أن يغزوهم ، فجهّز لهم قائد سلمان بن ربيعة الباهلي ، وبعثه مقدمةً أمامه في طائفة من الجندي ، ثم سار الوليد بعده في جماعةٍ من الناس ، فأسرع إليه أهل أذربيجان طالبين الصلح على ما كانوا صالحوا عليه حذيفة ، فأجابهم الوليد ، وأخذ طاعتهم ، وبث فيمن حولهم السرايا وشن عليهم الغارات ، فبعث عبد الله بن سُبيل الأحمسي في أربعة آلاف إلى أهل موكان ، والببر ، والطيسان ، فأصاب من أموالهم ، وغنم ، وسبى ، ولكنهم تحرجوا منه ، فلم يفل حذفهم ، ثم جهز سلمان الباهلي في اثنى عشر ألفاً إلى أرمينية ، فأنضوها ، وعاد منها مليء اليدين بالغنائم ، وانصرف الوليد بعد ذلك عائداً إلى الكوفة^(١).

ولكنَّ أهل أذربيجان تمردوا أكثر من مرّة ، فكتب الأشعث بن قيس والي أذربيجان إلى الوليد بن عقبة ، فأمدَّه بجيشٍ من أهل الكوفة وتبع الأشعث التأثرين ، وهزمهم هزيمةً منكرة ، فطلبوها الصلح فصالحهم على صلحهم الأول ، وخاف الأشعث أن يعودوا الكرَّة ، فوضع حامية من العرب ، وجعل لهم عطايا وسجلهم في الدِّيوان ، وأمرهم بدعاوة الناس إلى الإسلام ، ولما تولَّ أمرها سعيد بن العاص عاد أهل أذربيجان وتمردوا على الوالي الجديد ، فبعث إليهم جرير ابن عبد الله البجلي ، فهزمه ، وقتل رئيسهم ، ثم استقرَّت الأمور بعد أن أسلم أكثر شعبها ، وتعلَّموا القرآن الكريم ، وأمَّا الرئيسي ، فقد صدر أمر الخليفة عثمان إلى أبي موسى الأشعري في

(١) تاريخ الطّبرى (٢٤٦/٥).

وقت ولايته على الكوفة ، وأمره بتوجيه جيشٍ إليها لتمردّها ، فأرسل إليها قريظة بن كعب الأنصاريَّ ، فأعاد فتحها^(١) .

ثانياً : مشاركة أهل الكوفة في إحباط تحرُّكات الرُّوم :

عندما انتهى الوليد بن عقبة من مهمته في أذربيجان وعاد إلى الموصل ، جاءه أمر من الخليفة عثمان نصْه : « أمّا بعد : فإنَّ معاوية بن أبي سفيان كتب إليَّ يخبرني : أنَّ الرُّوم قد أجلبت^(٢) على المسلمين بجموع عظيمة ، وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فابعث رجلاً ممَّن ترضي نجده ، وبأسه ، وشجاعته ، وإسلامه في ثمانية آلاف ، أو تسعة آلاف ، أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي^(٣) ، والسلام » فقام الوليد في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال : « أمّا بعد أيُّها الناس ، فإنَّ الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلا حسنة ، ورداً عليهم بladهم التي كفرت ، وفتح بلا دلالة لم تكن افتتحت ، وردهم سالمين غانمين مأجورين ، فالحمد لله رب العالمين ! وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين العشرة آلاف إلى الثمانية آلاف ، تمدُّون إخوانكم من أهل الشَّام ، فإنَّهم قد جاشت عليهم الرُّوم ، وفي ذلك الأجر العظيم ، والفضل المبين ، فانتدبوا - رحمكم الله - مع سلمان بن ربيعة الباهليِّ !

فانتدب الناس ، فلم يمض ثلاثةٌ حتَّى خرج ثمانية آلاف رجلٍ من أهل الكوفة ، فمضوا ؛ حتى دخلوا أهل الشَّام إلى أرض الرُّوم ، وعلى جند أهل الشَّام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهريُّ ، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهليُّ ، فشُوّا الغارات على أرض الرُّوم ، فأصاب الناس ما شاؤوا من سبي ، وملؤوا أيديهم من المغنِّم ، وافتتحوا بها حصوناً كثيرةً^(٤) .

وفي جهاد الوليد ، وغزوه يقول بعض الرُّواة : رأيت الشَّعبيَّ جلس إلى محمد ابن عمرو بن الوليد بن عقبة ، فذكر محمد غزوة مسلمة بن عبد الملك ، فقال الشَّعبيَّ : كيف لو أدركتم الوليد ، وغزووه ، وإمارته ، إنْ كان ليغزو ، فينتهي إلى كذا ، وكذا ، ما قصر ولا انقض على أحدٍ حتَّى عزل من عمله^(٥) .

ثالثاً : غزا سعيد بن العاص طبرستان : ٣٠ هـ :

غرا سعيد بن العاص من الكوفة سنة ثلاثين يريد خراسان ، ومعه حذيفة بن اليمان ، وناسٌ

(١) الخلافة والخلفاء الرَّاشدون ، ص (٢٢٤) .

(٢) أجلبت : تجمَّعت للحرب .

(٣) تاريخ الطَّبرِي (٤٧/٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) عثمان بن عفان ، لصادق عرجون ، ص (٢٠١) .

من أصحاب رسول الله ﷺ ، ومعه الحسن ، والحسين ، وعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وخرج عبد الله بن عامر من البصرة يريد خراسان ، فسبق سعيداً ، ونزل أبرشهر ، وبلغ نزوله أبرشهر سعيداً ، فنزل سعيد قوميس ، وهي صلحٌ صالحهم حذيفة بعد نهاوند ، فأتى جرجان ، فصالحوه على مئتي ألفٍ ؟ ثم أتى طميسة ، وهي كلها من طبرستان جرجان ، وهي مدينة على ساحل البحر ، وهي في تخوم جرجان ، فقاتلته أهلها حتى صلى صلاة الخوف ، فقال لحذيفة : كيف صلى رسول الله ﷺ ؟ فأخبره ، فصلّى بها سعيد صلاة الخوف ، وهم يقتلون ، وضرب يومئذ سعيد رجلاً من المشركين على جبل عاتقه ، فخرج السيف من تحت مرفقه ، وحاصرهم ، فسألوا الأمان ، فأعطاهم على لا يقتل منهم رجلاً واحداً ، ففتحوا الحصن ، فقتلهم جميعاً إلا رجلاً واحداً ، وحوى ما كان في الحصن ، فأصاب رجلٌ منبني نهد سفطاً عليه قفلٌ ، فظنَّ فيه جواهر ، وبلغ سعيداً ، فبعث إلى النَّهَدِيَّ ، فأتاها بالسُّقْطَةِ ، فكسروا قفله ، فوجدوا فيه سفطاً ، ففتحوه ، فإذا فيه خرقٌ صفراء ، وفيها أيران : كُميٌّ ، ووردٌ^(١) ، وعندما قفل سعيد إلى الكوفة ، مدحه كعب بن جعيل ، فقال :

فِنْعَمَ الْفَتَى إِذْ جَالَ جِيلَانَ دُونَهُ
تَعْلَمْ سَعِيدَ الْخَيْرِ أَنَّ مَطَيَّتِي
كَائِنَكَ يَوْمَ الشُّغْبِ لَيْسُ خَفِيَّةَ
تَسُؤْسُ الَّذِي مَا سَاسَ قَبْلَكَ وَاحِدٌ
وَإِذْ هَبَطُوا مِنْ دَسْتَبَى ثُمَّ أَبْهَرَا

إِذَا هَبَطْتَ أَشْفَقْتُ مِنْ أَنْ تُعَقَّرَا
تَحَرَّدَ مِنْ لَيْثِ الْعَرِينِ وَأَصْحَرَا
ثَمَانِيَنَ أَلْفًا دَارِعِينَ وَحُسَّرَا^(٢)

رابعاً : هروب ملك الفرس (يزدجرد) إلى خراسان :

قدم ابن عامر البصرة ، ثم خرج إلى فارس ، فافتتحها ، وهرب يزدجرد من وجوز - وهي أردشير خُرَّة - في سنة ثلاثين ، فوجه ابن عامر في أثره مجاشع بن مسعود السُّلْمَيِّ ، فاتبعه إلى كِرْمان ، فنزل مجاشع السَّيْر جان بالعسكر ، وهرب يزدجرد إلى خراسان^(٣) .

خامساً : مقتل (يزدجرد) ملك الفرس ٣١ هـ :

اختلف في سبب ذكر قتله كيف كان ، قال ابن إسحاق : هرب يزدجرد من كِرْمان في جماعة يسيرة إلى مرو ، فسأل من بعض أهلها مالاً ، فمنعوه ، وخافوه على أنفسهم ، فبعثوا إلى الترك

(١) تاريخ الطبرى (٤٧٠/٥) .

(٢) تاريخ الطبرى (٤٧١/٥) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، (٤٨٨/٥) .

يستفرونهم عليه ، فأتوه فقتلوا أصحابه ، وهرب هو حتى أتى منزل رجل ينقر الأرحاء^(١) ، على شط المزغاب^(٢) ، فأوى إليه ليلًا ، فلما نام قتله^(٣) ، وجاء في روایة عند الطبری : . . . بل سار يزدجرد من كرمان قبل ورود العرب إليها ، فأخذ على طريق الطبسين وقہمستان ، حتى شارف مرو في زهاء أربعة آلاف رجل ، ليجمع من أهل خراسان جموعاً ، ويكر إلى العرب ، وبقتلهم ، فتلقاء قائدان متباغضان متحاسدان كانا بمره ، يقال لأحدهما : براز ، والآخر : سنجان ، ومنحاه الطاعة ، وأقام بمره ، وخص براز ، فحسده على ذلك سنجان ، وجعل براز يبغى سنجان الغوائل ، ويوجل صدر يزدجرد عليه ، وسعى سنجان حتى عزم على قتله ، وأفشي ما كان عزم عليه من ذلك إلى امرأة من نسائه كان براز واطأها ، فأرسلت إلى براز بنسوة زعمت بإجماع يزدجرد على قتل سنجان ، وفتشا ما كان عزم عليه يزدجرد من ذلك ، فنذر^(٤) سنجان ، وأخذ حذره ، وجمع جمعاً كثيرو أصحاب براز ، ومن كان مع يزدجرد من الجندي ، وتوجه نحو القصر الذي كان يزدجرد نازله ، وبلغ ذلك براز ، فنكص عن سنجان لكثره جموعه ورعب جمع سنجان يزدجرد ، وأخافه ، فخرج من قصره متذمراً ، ومضى على وجهه راجلاً لينجو بنفسه ، فمشي نحوه من فرسخين حتى وقع إلى رحأ ، فدخل بيت الرحأ ، فجلس فيه كالاً^(٥) لغبأ^(٦) ، فرأه صاحب الرحأ ذا هيئة ، وطراة وبزة كريمة ، ففرش له ، فجلس ، وأتاه بطعام ، فطعم ، ومكث عنده يوماً وليلة ، فسأله صاحب الرحأ أن يأمر له بشيء ، فبذل له منطقةً مكلاةً بجوره كانت عليه ، فأبى صاحب الرحأ أن يقبلها ، وقال : إنما كان يرضيني من هذه المنطقة أربعة دراهم كنت أطعم بها ، وأشارب ، فأخبره أنه لا ورق معه ، فتملقه صاحب الرحأ ، حتى إذا أغاها قام إليه بفأس له ، فضرب بها هامته ، فقتله ، واحتز رأسه ، وأخذ ما كان عليه من ثياب ، ومنطقة ، وألقى جيفته في النهر الذي كان تدور بهمائه رحأ ، وبقر بطنه ، وأدخل فيه أصولاً من أصول طرفاء^(٧) ، كانت نابتة في ذلك النهر لتجسس جثته في الموضع الذي ألقاه فيه ، فلا يسفل ، فيعرف ، ويطلب قاتله ، وما أخذ من سليمه ، وهرب على وجهه^(٨) ، وجاء في روایة : . . . وجاءت الترك في طلبه فوجدو قد قتله ، وأخذ حاصله ، فقتلوا ذلك الرجل وأهل بيته ،

(١) الأرحاء : جمع رحا ، وهي الطاحون .

(٢) المزغاب : نهر بمره .

(٣) تاريخ الطبری (٥/٢٩٥) .

(٤) نذر : علم .

(٥) كالاً : متعباً .

(٦) لغبأ : متعباً أشدَّ التعب .

(٧) طرفاء : شجر .

(٨) خلافة عثمان ، للسلامي ، ص(٥٧) .

وأخذوا ما كان مع كسرى ، ووضعوا كسرى في تابوتٍ ، وحملوه إلى إصطخر^(١) .

وقد ذكر الطّبرى حديثين مطولةً ، وأحدهما أطول من الآخر يتضمن ضرورةً من الأضطرابات تقلب فيها ، وأنواعاً من الدّوائر دارت عليه حتّى كانت منتهٰ آخرها^(٢) ، وقد قال يزدجرد لمن أراد قتله في بعض الروايات : ألا يقتلوه ، وقال لهم : ويحكم ! إنّا نجد في كتابنا : أنّ من اجترأ على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق في الدنيا ، مع ما هو قادم عليه ، فلا تقتلوني وائتوا بي إلى الدهقان ، أو سرّحوني إلى العرب ، فإنّهم يستحبون مثلّي من الملوك^(٣) .

وكان ملك يزدجرد عشرين سنة ، منها أربع سنين في دعّة ، وبقي ذلك هارباً من بلده إلى آخر ، خوفاً من الإسلام ، وأهله ، وهو آخر ملوك الفرس في الدنيا على الإطلاق^(٤) ، فسبحان ذي العظمة والملائكة ، الملك الحقُّ الحَيُّ الدَّائم الذي لا يموت ، لا إله إلا هو ، كلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون^(٥) .

وقد قال رسول الله ﷺ في ملوك الفرس ، والروم : «إذا هلك قيصر ؛ فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى ؛ فلا كسرى بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقنَ كنوزُهما في سبيل الله»^(٦) .

سادساً : تعاطف النّصارى مع (يزدجرد) بعد مقتله :

بلغ قتل يزدجرد رجالاً من أهل الأهواز كان مطراناً على مرو ، يقال له : إيليا ، فجمع مَنْ كان قبله من النّصارى ، وقال لهم : إنَّ ملك الفرس قد قُتل ، وهو ابن شهريار بن كسرى ، وإنما شهريار ولد شيرين المؤمنة التي قد عرفتم حقّها ، وإحسانها إلى أهل ملتَها من غير وجهٍ ، ولهذا الملك عنصرٌ في النّصرانية مع ما نال النّصارى في ملك جده كسرى من الشرف ، وقبل ذلك في مملكة ملوك من أسلافه من الخير ، حتّى بني لهم بعض البيع ، وسدّد لهم بعض ملتَهم ، فينبغي لنا أن نحزن لقتل هذا الملك من كرامته بقدر إحسان أسلافه ، وجده شيرين إلى النّصارى ، وقد رأيت أن أبني له ناووساً^(٧) ، وأحمل جسنه في كرامّة ؛ حتّى أواريه فيها . فقال النّصارى : أمرنا لأمرك أيّها المطران تبع ، ونحن لك على رأيك هذا مواطنون . فأمر المطران فبني في جوف بستان المطرانة بمرو ناووساً ، ومضى بنفسه ومعه نصارى مرو حتّى استخرج جثة يزدجرد من

(١) تاريخ الطّبرى (٥/٢٩٧) .

(٢) الاكتفاء ، للكلاغي (٤/٤١٧) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، د . محمد السّلّمي ، ص (٣٠٢/٥) . وتاريخ الطّبرى (٤/٤١٨) .

(٤) خلافة عثمان ، د . محمد السّلّمي ، ص (٥٧) .

(٥) الاكتفاء للكلاغي (٤/٤١٩) .

(٦) مسلم في الفتنة ، رقم (٢٩١٩-٢٩١٨) .

(٧) التّاؤوس : حجرٌ منقوصٌ يجعل فيه جثة الميت .

اللهُر ، وكفَّنها ، وجعلها في تابوتٍ ، وحمله من كان معه من النَّصارى على عواتقهم حتَّى أتوا به النَّاؤوس الذي أمر ببنائه له ، وواروه فيه ، وردموا بابه^(١) .

سابعاً : فتوحات عبد الله بن عامر ٣١ هـ :

في هذه السنة ٣١ هـ شخص عبد الله بن عامر إلى خراسان ، ففتح أبرشهر ، وطوس ، وببيورد ، ونسا ؛ حتَّى بلغ سَرخَس ، وصالح فيها أهل مرو ، وقد جاء في رواية عن السَّكِن بن قتادة العُرَيْنِي قال : فتح ابن عامر فارس ، ورجع إلى البصرة ، واستعمل على إصطخر شريك بن الأعور الحارثي ، فبني شريك مسجد إصطخر ، فدخل على ابن عامر رجلٌ من بني تميم كنا نقول : إِنَّهُ الْأَحْنَفُ - ويقال : أوس بن جابر الجُبْشِيُّ جُسْمٌ تميم - فقال له : إِنَّ عَدُوكَ مِنْكَ هاربٌ ، وهو لك هائبٌ ، والبلاد واسعة ، فسر ؟ فلَمَّا أَتَاهُ اللَّهُ ناصِرَكَ ، وَمَعْزُ دِينِهِ ، فتجهزَ ابن عامر ، وأمرَ النَّاسَ بالجهاز لِلمسير ، واستخلف على البصرة زياداً ، وسار إلى كرمان ، ثمَّ أخذ إلى خراسان ، فقومٌ يقولون : أخذ طريق أصبهان ، ثمَّ سار إلى خراسان ، واستعمل على كرمان مجاشع بن مسعود السُّلَيْمَيِّ ، وأخذ ابن عامر على مفازة وابر ، وهي ثمانون فرسخاً ، ثمَّ سار إلى الطَّبَسَيْن يريد أبرشهر ، وهي مدينة نيسابور ، وعلى مقدمة الأحنف بن قيس ، فأخذ إلى قُهُستَان ، وخرج إلى أبرشهر ، فلقيه الهباطلة ، وهم أهل هَرَاء ، فقاتلهم الأحنف ، فهزمهُمْ ، ثمَّ أتى ابن عامر نيسابور^(٢) .

وجاء في رواية : نزل ابن عامر على أبرشهر ، فغلب على نصفها عَنْوَةً ، وكان التَّصف الآخر في يد كناري ، ونصف نسا ، وطوس ، فلم يقدر ابن عامر أن يجوز إلى مرو ، فصالح كناري ، فأعطاه ابنه أبا الصَّلت بن كناري ، وابن أخيه سليمان رهناً ، ووجه عبد الله بن خازم إلى هراء ، وحاتم بن الثَّعْمَان إلى مرو ، وأخذ ابن عامر ابني كناري ، فصار إلى النَّعْمَان بن الأفقم النصري ، فأعتقهما^(٣) ، وفتح ابن عامر ما حول مدينة أبرشهر ، كطوس ، وببيورد ، ونسا ، وحمران ، حتَّى انتهى إلى سَرخَس ، وسرَّح ابن عامر الأسود بن كلثوم العدويَّ - عديَ الرَّبَاب - إلى بَيْهِق ، وهو من أبرشهر ، بينهما وبين أبرشهر ستة عشر فرسخاً ، ففتحها وقتل الأسود بن كلثوم ؟ وكان فاضلاً في دينه ، وكان من أصحاب عبد الله بن عامر العنبريَّ ، وكان ابن عامر يقول بعدما أخرج من البصرة : ما آسى من العراق على شيء إلا على ظمآن الهواجر ، وتجاوب المؤذنين ، وإنَّ خوان مثل الأسود بن كلثوم^(٤) .

(١) تاريخ الطَّبرِي (٥/٣٠٤) .

(٢) المصدر السَّابِق نفسه (٥/٣٠٥) .

(٣) تاريخ الطَّبرِي (٥/٣٠٦) .

(٤) المصدر السَّابِق نفسه ، (٥/٣٠٧) .

واستطاع ابن عامر أن يتغلب على نيسابور ، وخرج إلى سرخس ، فأرسل إليه أهل مرو يطلبون الصلح ، فبعث إليهم ابن عامر حاتم بن التعمان الباهلي ، فصالح براز مرزبان مرو على ألفي ألفٍ ومئتي ألفٍ^(١) .

ثامناً : غزو الباب وبلنجر سنة اثنين وثلاثين :

كتب عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى سعيد بن العاص : أن أغزِ سلمان الباب ، وكتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب : إن الرَّعية قد أبطر كثيراً منهم البطنة ، فقصّر ، ولا تقتصر بالمسلمين ، فإني خاší أن يُبتلوا ، فلم يزجر ذلك عبد الرَّحمن عن غaitه ، وكان لا يقصّر عن بلنجر ، فغزا سنة تسع من إمارة عثمان حتّى إذا بلغ بلنجر ، حصرواها ، ونصبوا عليها المجانيق ، والعرادات^(٢) ، فجعل لا يدنو منه أحد إلا اعتوه ، أو قتلوه ، فأسرعوا في النساء^(٣) .

ثم إن الترك اتّعدوا يوماً ، فخرج أهل بلنجر ، وتواترت إليهم الترك ، فاقتتلوا ، فأصيب عبد الرَّحمن بن ربيعة - وكان يقال له : ذو الثُّور - وانهزم المسلمون ، فتفرقوا ، فأمام من أخذ طريق سلمان بن ربيعة ، فحملوا حتى خرج من الباب ، وأمام من أخذ طريق الخزر ، وببلادها ، فإنه خرج على جيلان ، وجُرجان ، وفيهم سلمان الفارسي ، وأبو هريرة ، وأنخذ القوم جسد عبد الرَّحمن فجعلوه في سَفَط ، فبقي في أيديهم ، فهم يستسقون به إلى اليوم ، ويستنصرون به^(٤) .

١- مقتل يزيد بن معاوية :

غزا أهل الكوفة بلنجر سنين من إمارة عثمان لم تئم^(٥) فيهنَّ امرأة ، ولم يتم فيهنَّ صبيٌّ من قتل ، حتّى كان سنة تسع - من خلافة عثمان - قبل المزاحفة بيومين رأى يزيد بن معاوية : أنَّ غزالاً جيء به إلى خيائه ، لم ير غزالاً أحسن منه ، حتّى لُفَّ في ملحفته ، ثمَّ أتى به قبرٌ عليه أربعة نفِرٍ ، لم ير قبراً أشدَّ استواءً منه ، ولا أحسن منه حتّى دُفن فيه ، فلما تفادي الناس على الترك ، رمي يزيد بحجرٍ ، فهشم رأسه ، فكأنما زين ثوبه بالدماء زينةً ، وليس بتلطخ ، فكان ذلك الغزال الذي رأى^(٦) ، وكان يزيد رقيقاً جميلاً - رحمه الله - ، وبلغ ذلك عثمان ، فقال : إنَّ الله

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) العَرَادَة : آلة حربية كالمنجنيق ترمي بالحجارة المرمى بعيداً لدك الحصون .

(٣) تاريخ الطّبرى (٣٠٨ / ٥) .

(٤) تاريخ الطّبرى (٣٠٩ / ٥) .

(٥) لم تئم امرأة : لم تفقد زوجها .

(٦) تاريخ الطّبرى (٣١٠ / ٥) أي : في نومه .

ولنا إلـيـه راجـعـون ! اـنـتـكـثـ أـهـلـ الـكـوـفـةـ ، اللـهـمـ تـبـ عـلـيـهـمـ ، وـأـقـبـلـ بـهـمـ^(١) !

٢- ما أحسن حمرة الدّماء في بياضك !

كان عمرو بن عتبة يقول لقباء عليه أبيض : ما أحسن حمرة الدّماء في بياضك ! فأصيب عند الالتحام مع العدو بجراحٍ ، فرأى قباءه كما اشتهى ، وقتل^(٢) .

٣- ما أحسن لمع الدّماء على الثياب !

كان القرشَ يقول : ما أحسن لمع الدّماء على الثياب ! فلما كان يوم المزاحفة ؛ قاتل القرشَ حتى خُرِق بالحراب ، فكأنما كان قباؤه ثوباً أرضه بيضاء ، ووشيه أحمر ، وما زال الناس ثبوتاً حتى أصيَّب ، وكانت هزيمة الناس مع مقتله^(٣) .

٤- إنَّ هؤلاء يموتون كما تموتون :

كان الترك - في تلك المعركة - قد اختفوا في الغياض^(٤) ، وكانوا قد خافوا المسلمين ، واعتقدوا أنَّ السلاح لا يعمل فيهم ! واتفق : أنَّ تركياً اختفى في غيضة ، ورشق مسلماً بهم فقتله ، فنادى في قومه : إنَّ هؤلاء يموتون كما تموتون ، فلِمَ تخافوهم ؟ فاجترأ الترك على المسلمين ، وخرجوا عليهم من مكانتهم ، وأوقعوا بهم ، واشتَدَّ القتال ، فثبت عبد الرحمن حتى استشهد^(٥) .

٥- صبر آل سلمان !

جاء في رواية أخرى : حين استشهد عبد الرحمن ؛ أخذ الرَّاية أخيه سلمان بن ربيعة الباهليُّ ، وقتل بها ، ونادى منادٍ : (صبر آل سلمان !) فقال سلمان : أوتري جَزَعاً ! وخرج سلمان ، ومعه أبو هريرة الدَّوسيُّ على جيلان^(٦) ، فقطعوها إلى جُرجان^(٧) منسحجاً من معركة خاسرة^(٨) ،

(١) المصدر السابق نفسه ، (٣١١/٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (٣١٠/٥) .

(٣) تاريخ الطبرى (٣١٠/٥) .

(٤) الغياض : جمع غيضة ، وهي الموضع التي يكثر فيها الشجر ، ويلتُّ .

(٥) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، محمود شيت خطاب ، ص (١٥١) .

(٦) جيلان : اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان .

(٧) جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان ، وخراسان .

(٨) تاريخ الطبرى (٣٠٩/٥) . وقادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص (١٥١) .

بعد أن دفن أخاه عبد الرحمن بنواحي بلنجر^(١) ، وبهذا الانسحاب أنقذ سلمان بقيةً باقيةً من جيش أخيه^(٢) .

وقد رجح هذه الرواية محمود شيت خطاب ، وقال : إنَّ الانسحاب أشبه بقتال المسلمين يومئذ ، وذلك في حالة اشتداد الضغط عليهم من العدو ، وتكبدهم خسائر فادحة بالأرواح ، والانسحاب هو من أجل الانحياز إلى فئة من المسلمين ، ليعيدوا الكرَّة ثانيةً ، على عدوهم ، وقد جاء سلمان بن ربيعة مددًا لعبد الرحمن بأمر عثمان بن عفان ، فليس من المعقول أن يبقى ومدده في (الباب) ، وليس من المعقول أن يتركه أخوه عبد الرحمن هناك ، وهو يخوض معركة قاسية شرسةً ، يكون فيها القائد بأمس الحاجة إلى الجندي الواحد ، فكيف يتترك عبد الرحمن جيشًا كاملاً على رأسه أخوه دون أن يستفيد منه في المعركة ؟

إنَّ المؤرِّخين القدامى كانوا يستعملون تعبير : (الهزيمة) وهم يريدون بها تعبير الانسحاب ؛ ذلك لأنَّ أكثرهم مدئون لا يفرقون بين هذين التَّعبيرين : (الهزيمة) ترك ساحة القتال بدون نظام ، ولا قيادة ، فهي كارثة ، (الانسحاب) ترك ساحة القتال وفق خطٍّ مرسومٍ بقيادة واحدة ، فهو - أي : الانسحاب - صفحةٌ من صفحات القتال ، الهدف منه إعادة الكرَّة على العدو بعد إكمال متطلبات المعركة عدداً ، وعدداً ، وعسى لا يقع المؤرخون المحدثون في مثل هذا الخطأ في التَّعبير ، فلا يفرقون بين (الهزيمة) و(الانسحاب) ؛ لأنَّ الفرق بين التَّعبيرين شاسعٌ بعيد^(٣) .

تاسعاً : أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة ، وأهل الشام ٣٢ هـ :

لما قتل عبد الرحمن بن ربيعة ، استعمل سعيد بن العاص على ذلك الفرع سلمان بن ربيعة ، وأمدَّهم عثمان بأهل الشَّام : عليهم حبيب بن مسلمة ، فتنازع حبيب وسلمان على الإمارة ، وقال أهل الشَّام : لقد همنا بضرب سلمان ، فقال في ذلك النَّاس : إذاً والله نضرب حبيباً ، ونحبسه ، وإنْ أبيتم ؛ كثرت القتلى فيكم ، وفيينا ، حتى قال في ذلك رجلٌ من أهل الكوفة ، وهو أوس بن مغرا :

<p>وَإِنْ تَرْحَلُوا نَحْوَ أَبْنِ عَفَانَ نَرْحَلُ وَهَذَا أَمِيرٌ فِي الْكَتَائِبِ مُقْبِلٌ</p>	<p>إِنْ تَضْرِبُوا سَلْمَانَ نَضْرِبْ حَبِيبُكُمْ وَإِنْ تُقْسِطُوا فَالثَّغْرُ ثَغْرٌ أَمِيرَنَا</p>
---	---

(١) معجم البلدان (٢/٢٧٨) .

(٢) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص (١٥١) .

(٣) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص (١٥٢، ١٥٣) .

وَنَخْنُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُنَّا حُمَّاتُهُ لِيَالِي نَرْزِمِي كُلَّ ثَغْرٍ وَتِنْكِلُ^(١)

وتغلب المسلمون على الفتنة ب توفيق الله ، ثم بوجود أمثال حذيفة بن اليمان ؛ الذي كان على الغزو بأهل الكوفة ، فقد غزا ذلك التّغّرِ ثلاثَ غزوّاتٍ ، فقتل عثمان رضي الله عنه في الثالثة^(٢) .

عاشرًا : فتوحات ابن عامرٍ سنة اثنين وثلاثين :

وفيها فتح ابن عامر مرو الروذ ، والطّالقان ، والفاريا ب ، والجُوزجان ، وطخارستان ، فقد بعث ابن عامر الأحنف بن قيس إلى مرو روذ ، فحصر أهلها ، فخرجوا إليهم ، فقاتلوهم ، فهزّهم المسلمون حتّى اضطرواهم إلى حصنهم ، فأشرفوا عليه ، وقالوا : يا عشر العرب ! ما كتم عندنا كما نرى ، ولو علمتنا أنّكم لكانوا كما نرى ، ولكم حالٌ غير هذه ، فأهلونا نظر يومنا ، وارجعوا إلى عسكركم ، فرجع الأحنف ، فلما أصبح غاداهم ، وقد أعدوا له الحرب ، فخرج رجلٌ من العجم معه كتاب من المدينة ، فقال : إني رسول فامّوني ! فامّنوه ، فإذا رسول من مرزبان مرو ابن أخيه ، وترجمانه ، وإذا كتاب المرزبان إلى الأحنف ، فقرأ الكتاب ، قال : فإذا هو إلى أمير الجيش ، إنّا نحمد الله الذي بيده الدّول ، يغيّر ما شاء من الملك ، ويرفع من شاء بعد الذّلة ، وبضع من شاء بعد الرّفعة : إنّه دعاني إلى مصالحتك ، وموادعتك ما كان من إسلام جديّ ، وما كان رأي من صاحبكم من الكرامة ، والمنزلة ، فمرحباً بكم ، وأبشروا ، وأنا أدعوك إلى الصلح فيما بينكم ، وبيننا ، على أن أوّدّي إليكم خراجاً سنتين ألف درهم ، وأن تُقْرِّروا بيدي ما كان ملك الملوك كسرى أقطع جدّ أبي حيث قتل الحياة التي أكلت الناس ، وقطعت السّبيل من الأرضين والقرى بما فيها من الرجال ، ولا تأخذوا من أحدٍ من أهل بيتي شيئاً من الخراج ، ولا تخرج المرزبة^(٣) من أهل بيتي إلى غيركم ، فإن جعلت ذلك لي ؛ خرجت إليك ، وقد بعثت إليك ابن أخي ماهك ؛ ليسوّق منك . فكتب إليه الأحنف :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من صخر بن قيس أمير الجيش إلى باذان مرزبان مرو روذ ومن معه من الأسورة ، والأعاجم . سلامٌ على من آتى الهدى ، وآمن ، واتّقى . أما بعد : فإنّ ابن أخيك ماهك قدم عليّ ، فنصح لك جهده ، وأبلغ عنك ، وقد عرضت ذلك على من معك من المسلمين ، وأنا وهم فيما عليك سواه ، وقد أجبناك إلى مسألتك ، وعرضت على أن تؤدي عن

(١) تاريخ الطّبرى (٥/٣١١) . والبداية والنهاية (٧/١٦٦) .

(٢) تاريخ الطّبرى (٥/٣١١) .

(٣) المرزبة : الرئاسة عند العجم . والمرزبان : الرئيس المقدّم فيهم .

أكرتك^(١) ، وفلاحيك ، والأرضين التي ذكرت : أن كسرى الظالم لنفسه أقطع جدًّا أبيك لما كان من قتلـه الحـيـة ؛ التي أفسـدت الأرض ، وقطـعت السـبـيل ، والأـرـضـ لـهـ ولـرسـولـهـ يـورـثـهـاـ من يـشـاءـ مـنـ عـبـادـهـ ، وإنـ عـلـيـكـ نـصـرـ الـمـسـلـمـينـ ، وـقـتـالـ عـدـوـهـ بـمـنـ مـعـكـ مـنـ الـأـسـاوـرـةـ ، إنـ أحـبـ الـمـسـلـمـونـ ذـلـكـ ، وأـرـادـهـ ، وإنـ لـكـ عـلـىـ ذـلـكـ نـصـرـ الـمـسـلـمـينـ عـلـىـ مـنـ يـقـاتـلـ مـنـ وـرـاءـكـ مـنـ أـهـلـ مـلـتـكـ ، جـارـ لـكـ بـذـلـكـ مـنـيـ كـتـابـ يـكـوـنـ لـكـ بـعـدـيـ ، وـلـأـخـرـاجـ عـلـيـكـ ، وـلـأـعـلـىـ أحـدـ مـنـ أـهـلـ بـيـتـكـ مـنـ ذـوـيـ الـأـرـحـامـ ، وإنـ أـنـتـ أـسـلـمـتـ ، وـاتـبـعـتـ الرـسـوـلـ ؟ـ كـانـ لـكـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ الـعـطـاءـ ، وـالـمـنـزـلـةـ ، وـالـرـزـقـ ، وـأـنـتـ أـخـوـهـ ، وـلـكـ بـذـلـكـ ذـمـتـيـ ، وـذـمـةـ أـبـيـ ، وـذـمـمـ الـمـسـلـمـينـ وـذـمـمـ آـبـائـهـمـ .

شهد على ما في هذا الكتاب جَزْءُ بن معاوية - أو معاوية بن جَزْءِ السَّعْدِيِّ - وحمزة بن الهرناس ، وحُمَيْدَ بْنُ الْخَيَارِ الْمَازِنِيَّانِ ، وعياض بن ورقاء الأسيدي . وكتبه كيسان مولي بني ثعلبة يوم الأحد من شهر المحرم ، وختم أمير الجيش الأحنف بن قيس ، ونقش خاتم الأحنف : نعبد الله^(٢) .

الحادية عشرة: القتال بين جيش الأحنف وأهل طخارستان والجوزجان، والطالقان، والفاريان: صالح ابن عامر أهل مرو ، وبعث الأحنف في أربعة آلاف إلى طخارستان ، فأقبل ؛ حتى نزل موضع قصر الأحنف من مرو روز ، وجمع له أهل طخارستان ، وأهل الجوزجان ، والطالقان ، والفاريان ، فكانوا ثلاثة زحوفي ثلاثة ألفاً ، وأتى الأحنف خبرهم ، وما جمعوا له ، فاستشار الناس ، فاختلقو ، وبين قائل : نرجع إلى مرو ، وسائل : نرجع إلى أبreshهر ، وسائل : تقىم نستمد ، وسائل : نلقاهم فنناجزهم ؛ فلما أمسى الأحنف ؛ خرج يمشي في العسكرية ، ويستمع حدث الناس ، فمرأة أهل خباء ، ورجل يوقد تحت خزيرة^(٣) ، أو يعجن ، وهم يتحدثون ، ويدركون العدو ، فقال بعضهم : الرأي للأمير أن يسير إذا أصبح ، حتى يلقى القوم حيث لقيهم - فإنه أربع لهم - فیناجزهم . فقال صاحب الخزيرة ، أو العجين : إن فعل ذلك ؛ فقد أخطأتم ، وأنخطأتم ؛ أتأمرونه أن يلقي حدَّ العدو مصحرًا في بلادهم ، فيلقى جماعاً كثيراً بعد قليل ، فإن جالوا جولةً اصطلمونا^(٤) ؛ ولكنَّ الرأي له أن ينزل بين المرغاب ، والجبل ، فيجعل المرغاب عن يمينه ، والجبل عن يساره ، فلا يلقاه من عدوه وإن كثروا إلا عدد أصحابه .

(١) الأكرة : جمع أكَار : الحراث .

(٢) تاريخ الطبرى (٣١٦/٥) .

(٣) الخزيرة : الحسأء من الدسم ، والدقيق .

(٤) اصطلم : اقتلـهـ منـ أـصـلـهـ .

فرجع الأحنف وقد اعتقد ما قال ، فضرب عسکره ، وأقام فأرسل إليه أهل مرو يعرضون عليه أن يقاتلوا معه ، فقال : إني أكره أن أستنصر بالمرشكيين ، فأقيموا على ما أعطيناكم ، وجعلنا بيننا ، وبينكم ، فإن ظفرنا ؛ فنحن على ما جعلنا لكم ، وإن ظفروا بنا ، وقاتلوكم ، فقاتلوا عن أنفسكم ؛ فوافق المسلمين صلاة العصر ، فعاجلهم المرشكون فناهضوهم ، فقاتلواهم وصبر الفريقان حتى أمسوا ، والأحنف يتمثل بـ*شعر ابن جويبة الأعرجي* :

أَحَقُّ مَنْ لَمْ يَكُرِّهِ الْمَيَّةَ حَزَّرَوْ^(١) لَيْسَ لَهُ ذُرَيْةً
 وجاء في رواية : . . . فقاتلهم حتى ذهب عامة الليل ، ثم هزمهم الله ، فقتلهم المسلمون حتى انتهوا إلى رَسْكَن - وهي على اثني عشر فرسخاً من قصر الأحنف - وكان مرزبان مرو روز قد تربص بحمل ما كانوا صالحوه عليه ، لينظر ما يكون من أمرهم ، فلما ظفر الأحنف ؛ سرَّح رجلين إلى المرزبان ، وأمرهما لا يكلمه حتى يقتضاه ، ففعلا ؛ فعلم أنهما لم يصنعوا ذاك به إلا وقد ظفروا ، فحمل ما كان عليه^(٢) ، وبعث الأحنف الأقرع بن حابس في جريدة خيل^(٣) ، إلى الجوزجان حيث بقيَّةُ كانت بقيت من الرُّحْوفَ الَّذِين هزمهم الأحنف ، فقاتلهم ، فجال المسلمون جولةً ، فُقْتُلَ فرسانٌ من فرسانهم ، ثم أظفر الله المسلمين بهم ، فهزموهم ، وقتلواهم ، فقال كثير النَّهشلي^(٤) :

**سَقَى مُرْزُنُ السَّحَابِ إِذَا اسْتَهَلَّتْ^(٥) مَصَارَعَ فِتْيَةِ بِالْجُوزَجَانِ
 إِلَى الْقَصْرَيْنِ مِنْ رُسْتَاقِ خُوطِ أَقَادُهُمْ هُنَاكَ الْأَقْرَعَانِ^(٦)**

الثانية عشرة : صلح الأحنف مع أهل بلخ ٣٢ هـ :

سار الأحنف من مرو الرُّؤوذ إلى بلخ ، فحاصرهم ، فصالحة أهلها على أربعين ألف ، فرضي منهم بذلك ، واستعمل ابن عمّه ، وهو أسد بن المتشمّس ؛ ليأخذ منهم ما صالحوه عليه ، ومضى إلى خوارزم ، فأقام حتى هجم عليه الشتاء ، فقال لأصحابه : ما تشاوون ؟ فقالوا : قد قال عمرو بن معد يكرب :

(١) *الحزَّرَوْ* : الغلام القوي .

(٢) تاريخ الطَّبَرِي (٥/٣١٧) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) جريدة الخيل : كتبة الخيل ؛ التي لا رجاله فيها .

(٥) استهلت السَّحَابَةُ : أمطرت ، واشتَدَّ مطرها .

(٦) تاريخ الطَّبَرِي (٥/٣١٨) .

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَمْرًا فَدَعْهُ وَجَاءَوْزٌ إِلَيْهِ مَا تَسْتَطِعْ
 فأمر الأحنف بالرَّحِيل ، ثمَّ انصرف إلى بلخ ، وقد قبض ابن عمِّه ما صالحهم عليه ، وكان
 وافق وهو يجيئهم المهرجان ، فأهدوا إليه هدايا من آنية الْذَّهَب ، والفضة ، ودنانير ،
 ودراديم ، ومتاع ، وثياب ، فقال ابن عمِّ الأحنف : هذا ما صالحناكم عليه ؟ قالوا : لا ،
 ولكن هذا شيءٌ نصنعه في هذا اليوم بمن ولينا ، نستعطفه به ، قال : وما هذا اليوم ؟ قالوا :
 المهرجان ، قال : ما أدرى ما هذا ؟ وإنِّي لأكره أن أرده ، ولعلَّه من حَقِّي ، ولكن أقبضه ،
 وأعزله حتَّى أنظر فيه ، فقبضه ، وقدم الأحنف ، فأخبره ، فسألهم عنه ، فقالوا له مثل ما قالوا
 لابن عمِّه ، فقال : آتني به الأمير ، فحمله إلى ابن عامر ، فأخبره عنه ، فقال : أقبضه يا أبا
 بحر ! فهو لك . قال : لا حاجة لي فيه ، فقال ابن عامر : ضمه إليك يا مسمار ! فضمَّه
 القرشىُّ ، وكان مضمماً^(١) .

الثالثة عشرة: لأجعلَ شكري لله على ذلك أن أخرج مُحرِّماً معتمراً من موقفي هذا :
 لما راجع الأحنف إلى ابن عامر^٢ ؛ قال النَّاسُ لابن عامر : ما فُتح على أحدٍ ما قد فُتح عليك :
 فارس ، وكرمان ، وسجستان ، وعامة خراسان ! قال : لا جرم ، لأجعلَ شكري لله على ذلك
 أن أخرج مُحرِّماً معتمراً من موقفي هذا ! فأحرم بعمره من نيسبور ، فلما قدم على عثمان لامه
 على إحرامه من خراسان ، وقال : ليتك تضبط ذلك من الوقت الذي يحرم منه النَّاسُ^(٣) !

الرابعة عشرة: هزيمة (قارن) في خراسان :
 لما راجع ابن عامر من الغزو ؛ استختلف قيس بن الهيثم على خراسان ، فأقبل قارن في جمع
 من الشُّرك أربعين ألفاً ، فالتقاهم عبد الله بن خازم السُّلْمَيُّ في أربعة آلاف ، وجعل له مقدمةً ستَّمائة
 رجلٍ ، وأمر كُلَّاً منهم أن يجعل رأس رمحه ناراً ، وأقبلوا إليهم في وسط اللَّيل فبيتواهم ، فثاروا
 إليهم ، فناوشتهم المقدمة ، فاشتغلوا بهم ، وأقبل عبد الله بن خازم بمن معه من المسلمين ،
 فأحاطوا بهم ، فولَّ المشركون مدبرين ، واتَّبعهم المسلمون يقتلون من شاؤوا ، وقتلَ قارن
 فيما قُتل ، وغنموا سبياً كثيراً ، وأموالاً جزيلةً ، ثمَّ بعث عبد الله بن خازم بالفتح إلى ابن عامر ،
 فرضي عنه ، وأقرَّه على خراسان ، وذلك : أَنَّه كان قد احتال على الوالي السابق قيس بن الهيثم
 السُّلْمَيُّ حتَّى أخرجه من خراسان ، ثمَّ توَّلَّ حرب قارن ، فلما هزمه ، وغنم عسكره ؛ رضي
 عليه ابن عامر ، وأقرَّه على ولاية خراسان^(٤) .

(١) المصدر السابق نفسه (٣١٩/٥).

(٢) البداية والنهاية (١٦٧/٧) . وتاريخ الطَّبرى (٣١٩/٥) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، (١٦٧/٧) .

وهكذا تصدّى الخليفة الرَّاشد عثمان لحركات التمرُّد في المشرق وواصل فتوحاته ، ولم تفت تلك الثُّورات في عضد المسلمين ، ولم تزل من عزم الخليفة الذي كان كفؤاً لها ، حيث واجهها بالعزم ، والرَّأي ، والسرعة في تصريف الأمور ، وتسهيل التجاذبات ، وإسناد كل عملٍ إلى من يحسنـه ، كما يظهر من تتبع الأحداث في تاريخ الطَّبرـي ، وابن كثـير ، والكلاغـي ، بما لا يدع شكـاً في أنَّ اختيار عثمان للقادة الذين قاموا بهذه الانتصارات ، وتطويق هذه القلاقل كان اختياراً موفقاً ، مع العلم بأنَّ أعباء الجهـاد كانت أشـقَّ ، وأكـبر ، وأحـوج إلى التَّوجـيه النَّاجـز ، لامتداد خطوط القتـال ، وتعـدد الفتـن ، وتبـاعد المسافـات بين البلـدان ، إنَّ علاج تلك المعضـلات التي فاجـأت عثمان رضـي الله عنه بعد ولـايته ، وتصـدـى لها بالعـزم ، والسدـاد ، والسرـعة ، والحيـطة ، والأناـة لـدليل على قـوـة شخصـيـته ، ونـفـاذ بصـيرـته ، وـكان له بـعد ذـلـك أـكـبر الفـضل - بعد الله - في تـبـيـت مـهـابـة الدـوـلـة بـعـدـما أـصـابـها مـنـ الوـهـن ، والتـخلـخل عـنـدـ مـقـتـلـ عمر رضـي الله عنه ، وـكانـت ثـمـراتـ تلكـ الـوقـفاتـ الرـائـعةـ :

أـ إـخـضـاعـ المـتـمـرـدـينـ ، وـإـعادـةـ سـلـطـةـ الـمـسـلـمـينـ عـلـيـهـمـ .

بـ اـزـيـادـ الـفـتوـحـاتـ الـإـسـلامـيـةـ إـلـىـ ماـ وـرـاءـ الـبـلـادـ الـمـتـمـرـدـةـ ؛ـ مـنـعـاـ لـارـتـادـ الـهـارـبـينـ إـلـيـهاـ ، وـانـبـاعـ الـفـتـنـ ، وـالـدـسـائـسـ مـنـ قـبـلـهـاـ .

جـ اـتـخـاذـ الـمـسـلـمـينـ قـوـاعـدـ ثـابـتـةـ يـرـابـطـ بـهـاـ الـمـسـلـمـونـ لـحـمـاـيـةـ الـبـلـادـ ؛ـ الـتـيـ خـضـعـتـ لـلـمـسـلـمـينـ .

فهل كانت تلك الفتوحات العظيمة ، والسياسة الحكيمـة ، والضبط للأقاليم يمكن أن تتحققـ لو كان عثمان رضـي الله عنه ضعيفـاً ، غير قادر على اـتـخـاذـ القرـارـ ؟ !^(١) كما يزعمـ منـ وقعـ ، وتوـرـطـ في روـاـيـاتـ الإـمامـيـةـ ، وـالـشـيـعـ ، وـالـاسـتـشـرـاقـ ، وـمـنـ سـارـ عـلـىـ نـهـجـهـمـ السـقـيمـ .

الخامسة عشرة : من قادة فتح بلاد المشرق في عهد عثمان : الأحنف بن قيس :

كانت الفتوحات في عهد عثمان رضـي الله عنه عظـيمـةـ ، فرأـيـتـ منـ المـنـاسـبـ أنـ نـسـلـطـ الـأـضـوـاءـ عـلـىـ بـعـضـ قـادـةـ الـفـتوـحـ فـيـ عـهـدـ عـمـاـنـ ، وـبـمـاـ أـنـيـ تـحـدـثـتـ عـنـ فـتوـحـ الـمـشـرـقـ ، فـلـاـ بدـ إـذـنـ مـنـ إـعـطـاءـ صـورـةـ مـشـرـقـةـ عـنـ أـحـدـ قـادـةـ تـلـكـ الـفـتوـحـ ، فـاخـترتـ :

الأـحنـفـ بـنـ قـيـسـ :

١ـ نـسـبـهـ وـأـهـلـهـ :

هو أبو بـرـ الأـحنـفـ بـنـ قـيـسـ بـنـ مـعـاوـيـةـ بـنـ حـصـيـنـ بـنـ حـفـصـ بـنـ عـبـادـةـ التـمـيـميـ^(٢) ، وـاسـمـهـ :

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٤٠٨ / ٤٠٩) .

(٢) جمهرة أنساب العرب ، ص (٢١٧) . وطبقات ابن سعد (٩٥ / ٧) .

الضحاك . وقيل : صخر^(١) ، وأمه : حبة بنت عمرو بن قرط الباهلية^(٢) ، كان أخوها الأخطل بن قرط من الشجعان ، وقد قال الأحنف مفاخرًا بحاله هذا : ومن له حال مثل خالي ؟ !^(٣) .

٢- حياته :

كان من سادات التابعين ، وأكابرهم ، وسيدًا مطاعاً في قومه^(٤) ، وسيد أهل البصرة^(٥) ، وكان موضع ثقة الناس جميعاً بمختلف طبقاتهم ، وأهواهم ، وميلهم ، وكان أحد الحكماء الدهاة العقلاة^(٦) ، ذا دين ، وذكاء ، وفصاحة^(٧) ، وكان سيد قومه موصوفاً بالعقل ، والدّهاء ، والعلم ، والحلم ، يضرب بحلمه المثل ، وقد قال فيه الشاعر :

إذا الأباء أبصروا ابنَ قيسِ ظلَّنَ مَهَابَةً مِنْهُ خُسُوعاً^(٨)

وقال عنه خالد بن صفوان : كان الأحنف يفر من الشرف ، والشرف يتبعه^(٩) ، وإليك بعض صفاته التي أثرت فيمن حوله :

أ- حلمه :

كان الأحنف حليماً ، يضرب بحلمه المثل ، سئل عن الحلم : ما هو ؟ فقال : الذل مع الصبر . وكان يقول إذا عجب الناس من حلمه : إني لأجد ما تجدون ، ولكتني صبور ، ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المتنكري^(١٠) ، لأنّه قتل ابن أخي له بعض بنيه ، فأتى القاتل مكتوفاً يقاد إليه ، فقال : ذعرتم الفتى ! ثم أقبل على الفتى ، فقال : بنس ما فعلت ! نقصت عدوك ، وأوهنت عضدك ، وأشمت عدوك ، وأأسأت لقومك . خلوا سبيله ، واحملوا إلى أمّ المقتول ديته ، فإنّها غريبة ! ثم انصرف القاتل وما حلّ قيس حبوته ، ولا تغيّر وجهه^(١١) . وقال

(١) قادة فتح السند ، وأفغانستان ، محمود خطاب ، ص (٢٨٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) جمهرة أنساب العرب ، ص (٢١٢) .

(٤) قادة فتح السند ، وأفغانستان ، ص (٣٠٤) .

(٥) الإصابة (١٠٣/١) . وأسد الغابة (١/٥٥) .

(٦) قادة فتح السند ، وأنغستان ، ص (٣٠٤) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

(٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) تهذيب ابن عساكر (١٣/٧) .

(١٠) الاستيعاب (٣/١٢٩٤) .

(١١) وفيات الأعيان (٢/١٨٨) .

رجل لالأحنف : علّمني الحلم يا أبا بحر ! فقال : هو الْدُّلُّ يا بن أخي ! أفتصر عليه ؟ ! وقال : لست حليماً ، ولكنني أتحالم^(١) .

ومن أخبار حلمه : أنَّ رجلاً شتمه ، فسكت عنه ، وأعاد الرجل ، فسكت عنه ، وأعاد ، فسكت عنه ، فقال الرجل : والهفاه ! ما يمنعه من أن يرذ على إلا هونى عنده^(٢) .

وكان يقول : من لم يصبر على كلمة سمع كلماتِ ، وربَّ غيظٍ قد تجرَّعته مخافة ما هو أشدُّ منه^(٣) .

ولكن حلمه كان حلم القويِّ القدير ، لا حلم العاجز الضعيف ، فقد قاتل في بعض المواطن قتالاً شديداً ، فقال له رجل : يا أبا بحر ! أين الحلم ؟ فقال : عند الحجي^(٤) .

ب - عقله :

كان الأحنف عاقلاً راجح العقل ، قال مرأةً : من كان فيه أربع خصال ساد قوله غير مدافعٍ من كان له دينٌ يحجزه ، وحسبٌ يصونه ، وعقلٌ يرشده ، وحياةً يمنعه^(٥) .

وقال : العقل خير قرین ، والأدب خير ميراثٍ ، والتوفيق خير رفيق^(٦) .

وقال : ما ذكرت أحداً بسوء بعد أن يقوم من عندي ، وكان يقول إذا ذكر عنده رجلٌ : دعوه يأكل رزقه ، ويأتي عليه أجله^(٧) .

وشكا ابن أخيه وجع الضرس ، فقال : ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة ما ذكرتها لأحد^(٨) .

وقال : ما نازعني أحدٌ فوقي إلا عرفت له قدره ، ولا كان دوني إلا رفعت قدرني عنه ، ولا كان مثلي إلا تفضّلت عليه^(٩) .

ج - علمه :

كان عالماً ثقةً مأموناً قليل الحديث ، وقد روى عن عمر بن الخطاب ، وعثمان ابن عفان ،

(١) قادة فتح السند ، وأفغانستان ، ص (٣٠٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) قادة فتح السند ، وأفغانستان ، ص (٣٠٦) يعني بها : تركته في الدار .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) تهذيب ابن عساكر (١٩/٧) .

(٧) المصدر السابق نفسه ، (٢١/٧) .

(٨) المصدر السابق نفسه ، (١٦/٧) .

(٩) قادة فتح السند ، وأفغانستان ، ص (٣٠٧) .

وعليٍّ بن أبي طالب ، وأبي ذر الغفاري^(١) ، وروى عنه الحسن البصري ، وعروة بن الربيير ، وغيرهما^(٢) ، وقد كان من الفقهاء البارزين أيام معاوية .

د- حكمته :

كان حكيمًا ينطق بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، سئل عن المروءة ، فقال : الثقى ، والاحتمال ، ثم أطرق ساعةً ، وقال :

إِنَّمَا جَمِيلُ الْوَجْهِ لَمْ يَأْتِ بِالْجَمِيلِ فَمَا جَمَالُهُ ؟ !
مَا أَخْيَرُ أَخْلَاقِ الْفَتَنِ إِلَّا تُقَاءِهِ وَاحْتِمَالُهُ
وسئل عن المروءة ، فقال : العفة في الدين ، والصبر على النوائب ، وبذل الوالدين ، والحلم عند الغضب ، والعفو عند المقدرة^(٣) .

وقال : رأس الأدب آلة المنطق ، ولا خير في قول إلا بفعل ، ولا منظر إلا بمخبر ، ولا في مال إلا بجود ، ولا في صديق إلا بوفاء ، ولا في فقه إلا بورع ، ولا في صدقة إلا بنيته^(٤) .

وقال : أحيى المعروف بإماماته ذكره^(٥) ، وقال : كثرة الضشك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئاً عرف به^(٦) ، وقال : جبوا مجلسنا الطعام ، والنساء ، فإني لأبغض الرجل يكون وصافاً لفرجه ، وبطنه ، وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه^(٧) .

وقال : السؤدد مع السواد . يريد : من لم يطرز له اسم على السنة العامة بالسؤدد ؟ لم ينفعه ما طار له في الخاصة^(٨) .

هـ- بлагته :

كان فصيحاً مفوهاً^(٩) . خطب مرأةً ، فقال : بعد حمد الله والثناء عليه : يا معشر الأزد ،

(١) طبقات ابن سعد (٩٣/٧) .

(٢) قادة فتح السنّد ، وأفغانستان ، ص (٣٠٨) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) تهذيب ابن عساكر (٢٠-١٩/٧) .

(٥) البداية والنهاية (٢٣١/٧) .

(٦) وفيات الأعيان (١٨٧/٢) .

(٧) المصدر السابق نفسه ، (١٨٨/٢) .

(٨) قادة فتح السنّد ، وأفغانستان ، ص (٣٠٩) .

(٩) المصدر السابق نفسه .

وربيعة ! أنت إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الصّهر ، وأشقاءُنا في النّسب ، وجيراننا في الدّار ، ويدنا على العدو ، والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة ، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشّام ، فإن استشرف شنان حسد صدوركم ؛ ففي أحلامنا ، وأموالنا سَعَةٌ لنا ولكم^(١).

لقد كان حاضر البديهة ، قويَّ الحجَّة ، منطقياً . جاء الأحنف إلى قومٍ يتكلّمون في دم ، فقال : احكموا ! فقالوا : نحكم بدميْتِين ! فقال : ذلك لكم . فلما سكتوا ؛ قال : أنا أعطيكم ما سألتم ، غير أني قائلٌ لكم شيئاً : إن الله - عزَّ وجلَّ - قضى بديهية واحدة ، وإن النبي ﷺ قضى بديهية واحدة ، وأنتم اليوم طالبون ، وأخشى أن تكونوا أغداً مطلوبين ، فلا يرضي الناس منكم إلا بمثل ما سنتم لأنفسكم ! ، فقالوا : نرَدُّها ديةً واحدة^(٢) .

وسمع الأحنف رجلاً يقول : ما أبالي : أمدحت ، أم ذُمت ، فقال له : لقد استرحت من حيث تعب الكرام^(٣) .

و- إيهاره :

كان الأحنف يحبُّ لغيره ما يحبُّ لنفسه ، بل كان يؤثُّ غيره على نفسه بالخير ، والمعروف ، ويرضي نفسه الرّاضية المطمئنة إلى ما أصاب غيره بجهده من خير ، فعندما جاء الأحنف إلى عمر في المدينة ، عرض أمير المؤمنين عليه جائزةً ، فقال : يا أمير المؤمنين ! والله ما قطعنا الفلوات ، ودأبنا الرّوحات ، والعشيّات للجوائز ، وما حاجتي إلا حاجة من خلفي ، فزاده ذلك عنده عمر خيراً^(٤) .

ز-أمانته :

كان الأحنف أميناً غاية الأمانة ، وقد مرّ بنا عندما استعمل ابن عمّه على أهل بلخ ، وقد قبض ابن عمّه ما صالحوه عليه من آنية الذهب ، والفضة ، ودنانير ، ودراهم ، ومتاع ، وثياب ، فقال ابن عمّه لهم : هذا ما صالحناكم عليه ؟ فقالوا : لا ! ولكن هذا شيءٌ نضعه في هذا اليوم بمن ولينا نستعطف به ، قال : وما هذا اليوم ؟ فقالوا : المهرجان^(٥) ، فقال : ما أدرى ما هذا ! وإنّي لأكره أن أرده ، ولعله من حقي ، ولكن أقضمه ، وأعزله حتى أنظر ، فقبضه ، وقدم الأحنف ، فأخبره ، فسألهم عنه ، فقالوا مثل ما قالوا لابن عمّه ، فقال : آتني به الأمير ، فحمله

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) وفيات الأعيان (٢/١٨٨) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/١٢) .

(٥) المهرجان : أحد أعياد الفرس .

إلى عبد الله بن عامر، فأخبره عنه، فقال: أقبضه يا أبا بحر! فهو لك، فقال الأحنف: لا حاجة لي فيه^(١). لقد كان يتحرّج من الهدايا، وكان يكتفي بسهمه من الغنائم^(٢).

ح-أنانة :

كان الأحنف شديد الأنأة، لا يقدم على عملٍ إلا بعد أن يحسب له ألف حساب. قيل له: يا أبا بحر! إنَّ فيك أناة شديدة! فقال: قد عرفت من نفسي عجلةً في أمورٍ ثلاثة: في صلاتي إذا حضرت حتَّى أصلِّيها، وجنائزتي إذا حضرت حتَّى أغيبُها في حفتها، وابنتي إذا خطبها كفيتها حتَّى أزوُّجه^(٣).

ط-ورعه :

كان الأحنف مؤمناً ورعاً قويَّ الإيمان، فقد سارع إلى اعتناق الإسلام أول ما بلغته الدَّعوة الإسلامية، وأسلم قومه بإشارته^(٤)، وبسط حمايته القوية الأمينة على الدُّعاة الأوَّلين^(٥)، وثبت على عقيدته عندما ارتدَّ أكثر قومه، وأكثر العرب بعد وفاة النبي ﷺ، وجاهد للدفاع عنها، ونشرها حقَّ الجهاد، وأبلَى في ذلك أعظم البلاء. قال الحسن البصريُّ عنه: ما رأيت شريف قوم أفضل منه^(٦).

قال الأحنف: حبسني عمر بن الخطَّاب عنده بالمدينة سنةً، يأتيني كلَّ يومٍ وليلةٍ، فلا يأتيه عني إلا ما يحبُّ^(٧)، فكتب عمر بعد نجاح الأحنف في الاختبار العمري - وما أصعبه، وأدَّقه من اختبار! - معه كتاباً إلى الأمير على البصرة يقول: الأحنف سيد أهل البصرة^(٨).

وكتب إلى أبي موسى الأشعريِّ أن يشاور الأحنف، ويسمع منه^(٩).

وقال له عمر بعد أن حبسه حولاً عنده: يا أحنف! قد بلوتك، وخبرتك، فلم أر إلا خيراً،

(١) تاريخ الطَّبرِي (٣١٩/٥).

(٢) قادة فتح السَّند، وأفغانستان، ص (٣١٣).

(٣) طبقات ابن سعد (٩٦/٧).

(٤) شذرات الْذَّهَب (٧٨/١).

(٥) قادة فتح السَّند، وأفغانستان، ص (٣١٤).

(٦) البداية والنهاية (٣٣١/٧).

(٧) قادة فتح السَّند، وأفغانستان، ص (٣١٤).

(٨) المصدر السابق نفسه.

(٩) تهذيب ابن عساكر (١٢/٧).

ورأيت علانيتك حسنةً ، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك^(١) .

لقد كان الأحنف رجلاً صالحًا كثير الصلاة بالليل ، وكان يسرح المصباح ، ويصلّى ، ويبكي حتى الصّباح ، وكان يضع أصبعه في المصباح ويقول لنفسه : إذا لم تصبر على المصباح ، فكيف تصبر على النّار الكبيرة^(٢) . وقيل له : إنك تكثر الصّصوم ، وإن ذلك يرق المعدة . فقال : إني أعدّ لسفر طويل^(٣) . واستعمل الأحنف على (خراسان) ، فلماً أتى فارس ؛ أصابته جنابة في ليلة باردة ، فلم يوقظ أحداً من غلمانه ، ولا جنده ، وانطلق يطلب الماء ، فأتى على شوك ، وشجر حتى سالت قدماه دمًا ، فوجد الثلوج ، فكسره ، واغتسل^(٤) ، وكان قلًّا مالحا إلا دعا بالمصحف ، وكان النّظر في المصاحف خلقاً في الأُولين^(٥) .

وكان من دعائه : اللهم إن تغفر لي ؟ فأنت أهل ذاك ! وإن تعذّبني ؟ فأنت أهل ذاك^(٦) .

ومن دعائه : اللهم هب لي يقيناً تهون به عليّ مصيّبات الدّنيا^(٧) ! ومررت به جنازة ، فقال : رحم الله من أجهد نفسه لمثل هذا اليوم^(٨) .

وكان يقول : عجبت لمن يجري في مجرى البول مرّتين كيف يتكبر^(٩) ؟ !

هذه بعض صفات شخصيّة الأحنف ، استحوذ بها على ثقة النّاس به ، وحبّهم ، وتقديرهم له ، وهذه الصّفات تجعل من يتحلّى بها شخصيّة قوية ، نافذة ، يندر وجودها بين النّاس في كل زمان ، ومكان ، وقلّما يوجد بها الدهر إلا نادراً^(١٠) . لقد كان الأحنف من قادة الفتوحات في عهد عثمان رضي الله عنه وقد تميّز في قيادته لجيوش الفتح لبلاد المشرق بقدرته على إعداد الخطط الصّحيحة التّاجحة ، وإعطاء القرارات السّريعة الصّائبة ، كما كان لشجاعته الشّخصية ، وإقدامه أثراً كبيراً في وضع تلك الخطط ، والقرارات في حيّر التّنفيذ ، لقد كان يبذل قصارى

(١) طبقات ابن سعد (٩٤/٧) .

(٢) البداية والنهاية (٣٣١/٧) .

(٣) طبقات ابن سعد (٩٤/٧) . وقاده فتح السند ، وأفغانستان ، ص (٣١٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، (٩٤/٧) .

(٥) طبقات ابن سعد (٩٥/٧) .

(٦) قادة فتح السند ، وأفغانستان ، ص (٣١٥) ترجمة الأحنف لخُصتها من هذا الكتاب القييم مع الرّجوع لبعض المصادر .

(٧) تهذيب ابن عساكر (١٦/٧) .

(٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) البداية والنهاية (٣٣١/٧) .

(١٠) قادة فتح السند ، وأفغانستان ، ص (٣١٦) .

جهده في إعداد خططه العسكرية ، وإعطاء ذوي الرأي ، بل يتوجّل سرًا في الليل بين عامة رجاله يتسمّ أحديهم ، فإذا وجد رأياً سديداً يبدونه فيما بينهم ؛ سارع إلى العمل به ، لا يهمه أن يأخذ الحكمة من أيّ وعاء .

وقد كان هذا القائد الميداني في عهد عثمان يقاتل عدوه بسيفه ، وعقله معاً ، فقد كان على جانبٍ عظيمٍ من الشجاعة ، والإقدام ، حتى إنَّه كان يستأثر بالخطر دون رجاله ، ويؤثرهم بالراحة ، والأمن ؛ كما كان على جانبٍ عظيمٍ من الذهاء ، فيوفر بدهائه على قواته كثيراً من الجهد والمشقات^(١) .

لقد كان الأخفف رجلاً في أمّة ، وأمة في رجلٍ . . . إنَّه سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه ، كما كان يقول عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٢) .

* * *

(١) قادة فتح السند ، وأفغانستان ، ص (٣٢٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٣٢٢) .

المبحث الثاني

الفتوحات في الشَّام

أولاً : فتوحات حبيب بن مسلمة الفهري :

مرَّ بنا : أنَّ الرُّوم أجلبت على المسلمين بالشَّام بجموع عظيمة أَوْل خلافة عثمان ، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة بالكوفة أن يمد إخوانه بالشَّام ، فأمدهم بثمانية آلاف ، عليهم سلمان بن ربيعة الباهلي ، ظفر المسلمون بعدهم بعد أن غزوه في أرض الرُّوم ، فأسرروا منهم ، وغنموا ، وكان تحالف الرُّوم والتركم قد تجمع لملاقاة المسلمين الذين غزوا أرمينية من الشَّام ، وكان على المسلمين حبيب ابن مسلمة ، وكان صاحب كيد لعدوه ، فأجمع أن يُيَسِّر قائدتهم الموريان - أي : يباغته ليلاً - فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلية يذكر ذلك ، فقالت : فأين موعدك؟ قال : سرادق الموريان أو الجنة . . . ثم بيَّن لهم ، فغلبهم ، وأتى سرادق الموريان ، فوجد امرأته قد سبقته إليه^(١) ، وواصل حبيب جهاده ، وانتصاراته المتواتلة في أراضي أرمينية ، وأذربيجان ، ففتحها إماً صلحاً ، أو عنة^(٢) .

لقد كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز القادة الذين حاربوا في أرمينية البيزنطية ، فقد أباد جيوشاً بأكملها للعدُو ، وفتح حصوناً ، ومدنًا كثيرة^(٣) ، كما غزا ما يلي ثغور الجزيرة العراقية من أرض الرُّوم فافتتح عدَّة حصونٍ هناك ، مثل شمشاط ، وملطية ، وغيرها ، وفي سنة ٢٥ هـ غزا معاوية الرُّوم فبلغ عمُوريا ، فوجد الحصون التي بين أنطاكية ، وطرسوس حاليةً فجعل عندها جماعةً كثيرةً من أهل الشَّام ، والجزيرة ، وواصل قادته قيس بن الحارث العبيسي الغزو في الصيف التالي ، ولما فرغ هدم بعض الحصون القرية من أنطاكية كي لا يفيد منها الرُّوم^(٤) .

ثانياً : أَوْل من أجاز الغزو البحري : عثمان بن عفان :

كان معاوية بن أبي سفيان - وهو أمير الشَّام - يلْجُّ على عمر بن الخطاب في غزو البحر ،

(١) تاريخ الطَّبرِي (٤٨٥ / ٤) .

(٢) الدَّولَةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي عَصْرِ الْخَلْفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، لِحَمْدِيِّ شَاهِينَ ، ص (٢٥٢) .

(٣) حروب الإسلام في الشَّام في عهود الخلفاء الرَّاشِدِينَ ، ص (٥٧٧) .

(٤) الدَّولَةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي عَصْرِ الْخَلْفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، ص (٢٥٣) .

ويصف له قرب الرؤوم من حمص ، ويقول : إن قريةً من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم ، وصياح دجاجهم ، حتى كان ذلك يأخذ بقلب عمر ، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص : صرف لي البحر ، وراكبه ، فإنّ نفسي تنازعني إليه ، فكتب إليه عمرو : إنّي رأيت خلقاً كثيراً يركب خلقةً صغيراً ، إنّ ركناً خرّق القلب ، وإن تحرّك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلةً ، والشكُّ كثرةً ، هم كدود على عودٍ ؛ إن مالٌ غرق ، وإن نجا ؛ برق . فلما قرأ عمر بن الخطاب كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية : أن لا ، والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ، وتالله لمسلم أحبت إلى ممّا حوت الرؤوم ، فإياك أن تعرض لي ، وقد تقدّمت إليك ، وقد علمت ما تقي العلاء مني ، ولم أنقدّ إليه في ذلك^(١) ، ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية ، وقد رأى في الرؤوم ما رأى ، فطمع في بلادهم ، وفي فتحها ، فلما تولى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث ، وألحَّ به على عثمان ، فرداً عليه عثمان رضي الله عنه قائلاً : (أن قد شهدت ما رداً عليك عمر - رحمه الله - حين استأذنته في غزو البحر) ثمَّ كتب إليه معاوية مرئاً أخرى يهون عليه ركوب البحر إلى قبرص ، فكتب إليه : (إن ركبت معك امرأتك فاركبه ماذوناً ، وإنلا ، فلا)^(٢) .

كما اشترط عليه الخليفة عثمان رضي الله عنه أيضاً بقوله : (لا تنتخب الناس ، ولا تروع بينهم ، خيراً لهم ، فمن اختار الغزو طائعاً ؛ فاحمله ، وأعنده)^(٣) ، فلما قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى قبرص ، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب ، وتقريبها إلى ساحل حصن عكا ، فقد رمَّه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص^(٤) .

ثالثاً : غزوة قبرص :

أعدَّ معاوية المراكب الالزمة لحمل الجيش الغازي ، واتخذ ميناء عكا مكاناً للإقلاع ، وكانت المراكب كثيرةً ، وحمل معه زوجه فاختة بنت قرظة ، كذلك حمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان معه في تلك الغزوة^(٥) .

وأم حرام هذه هي صاحبة القصة المشهورة : عن أنسٍ بن مالكٍ رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ كان يدخل على أمِّ حرام بنت ملحان ، فتطعمه ، وكانت أمِّ حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً ، فأطعمنته ، ثمَّ جلست تفلي من رأسه ، فنام

(١) تاريخ الطّبرى (٢٥٨/٥) .

(٢) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٥٣٨/٢) .

(٣) تاريخ الطّبرى (٥/٥) .

(٤) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٥٣٨/٢) .

(٥) البداية والنهاية (١٥٩/٧) .

رسول الله ﷺ ، ثُمَّ استيقظ وهو يضحك . فقلت : ما يضحكك يا رسول الله ؟ !

قال : « ناسٌ من أمتي عرضوا عليَّ غزاءً في سبيل الله ، يركبون ثجَّ هذا البحر ملوكاً على الأسرة ، أو مثل الملوك على الأسرة » قالت : فقلت : يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلني منهم ! فدعا لها ، ثُمَّ وضع رأسه فنام ، ثُمَّ استيقظ ؛ وهو يضحك ، قالت : فقلت : ما يضحكك يا رسول الله ؟ !

قال : « ناسٌ من أمتي عرضوا عليَّ في سبيل الله . . . » - كما قال في الرواية الأولى - .

قال : أنت من الأوَّلين . فركبت أمَّ حرام بنت ملحان البحر في زمان معاوية ، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر ، فهلكت^(١) .

ورغم أنَّ معاوية رضي الله عنه لم يجرِ النَّاس على الخروج ، فقد خرج معه جيشٌ عظيمٌ من المسلمين^(٢) ، مما يدلُّ على أنَّ المسلمين قد هانت في أعينهم الدُّنيا بما فيها ، فأصبحوا لا يبعُون بها بالرَّغم من أنَّها قد فتحت عليهم أبوابها ، فصاروا يرفلون في نعيمها .

إنَّ المسلمين قد تربُّوا على أنَّ ما عند الله خيرٌ ، وأبقى ، وأنَّ الله اصطفاهم لنصرة دينه ، وإقامة العدل ، ونشر الفضيلة ، والعمل على إظهار دين الله على كلِّ ما عداه ، وهم يعتقدون : أنَّ هذه المهمَّة هي رسالتهم الحقيقة ، وأنَّ الجهاد في سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاه في الله ، فإنَّهم قصرُوا في مهمَّتهم ، وقعدوا عن أداء واجبهم ؛ فسيمسك الله عنهم نصره في الدُّنيا ، ويحرِّمُهم مرضاته في الآخرة ، وذلك هو الخسran المبين ، من أجل هذا هُرعوا مع معاوية ، وتسابقوا إلى السُّفن يركبونها ، ولعلَّ حديث أمَّ حرام قد ألمَّ بخواطِرهم ، فدفعهم إلى الخروج للغزو في سبيل الله تصدِيقاً لحديث رسول الله ﷺ ، وكان ذلك بعد انتهاء فصل الشَّتاء في سنة ثمانٍ وعشرين من الهجرة^(٣) .

وسار المسلمون من الشَّام وركبوا من ميناء عَكَ متوجَّهين إلى قبرص ، ونزل المسلمون إلى السَّاحل ، وتقدَّمت أمَّ حرام لترك دابتها ، فنفرت الذَّابة ، وألقت أمَّ حرام على الأرض ، فاندقت عنقها ، فماتت^(٤) ، وترك المسلمون أمَّ حرام بعد دفنهما في أرض الجزيرة عنواناً على مدى التَّضحيات التي قدمها المسلمون في سبيل نشر دينهم ، وعرف قبرها هناك بـ قبر المرأة الصالحة^(٥) .

(١) البخاريُّ ، رقم (٢٨٧٧) .

(٢) جولةٌ تاريخيةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص (٣٥٦) .

(٣) جولةٌ تاريخيةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص (٣٥٦) .

(٤) البداية والنهاية (١٥٩/٧) .

(٥) جولةٌ تاريخيةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص (٣٥٧) .

واجتمع معاوية بأصحابه ، وكان فيهم : أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاريُّ ، وأبو الدرداء ، وأبو ذئر الغفاريُّ ، وعبادة بن الصامت ، ووائلة بن الأسعق ، وعبد الله بن بشر المازنيُّ ، وشداد بن أوس بن ثابت ، والمقداد بن الأسود ، وكعب الحبر بن ماتع ، وجibrir بن نفير الحضرميُّ^(١) .

وتشاوروا فيما بينهم ، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم : أنَّهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم^(٢) ، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله ، ثمَّ تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام ، وذلك لأنَّ البيزنطيين كانوا يستخدمو من قبرص محطةً يستريحون فيها ؛ إذا غزوا ، ويتمونون منها ، إذا قلَّ زادهم ، وهي بهذه المثابة تهَدَّد بلاد الشَّام الواقعة تحت رحمتها ، فإذا لم يطمئنَ المسلمين على مسالمة هذه الجزيرة لهم ، وخضوعها لإرادتهم ، فإنَّ وجودها كذلك سيظلُّ شوكةً في ظهورهم ، وسهماً مسداً في صدورهم ، ولكنَّ سكَان الجزيرة لم يستسلموا للغزاة ، ولم يفتحوا لهم بلادهم ، بل تحصَّنوا في العاصمة ، ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين ، وكان أهل الجزيرة يتظرون تقدُّم الروم للدفاع عنهم ، وصدُّ هجوم المسلمين عليها^(٣) .

رابعاً : الاستسلام ، وطلب الصلح :

تقدُّم المسلمين إلى عاصمة قبرص (قسطنطينا) وحاصروها وما هي إلا ساعات حتَّى طلب الناس الصلح ، وأجابهم المسلمين إلى الصلح ، وقدَّمو للMuslimين شروطاً ، واشترط عليهم المسلمين شروطاً ، وأمَّا شرط أهل قبرص ؛ فكان في طلبهم ألا يشترط عليهم المسلمين شروطاً تورِّطهم مع الروم ؛ لأنَّهم لا قبل لهم بهم ، ولا قدرة لهم على قتالهم ، وأمَّا شروط المسلمين ؛ فهي :

- ١- ألا يدافعوا المسلمين عن الجزيرة ؛ إذا هاجم سكانها محاربون .
- ٢- أن يدلَّ سكان الجزيرة المسلمين على تحركات عدوِّهم من الروم .
- ٣- أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومئتي دينار في كلِّ عام .
- ٤- أن يكون طريق المسلمين إلى عدوِّهم عليهم .
- ٥- ألا يساعدوا الروم إذا حاولوا اغزو بلاد المسلمين ، ولا يُطلعونهم على أسرارهم^(٤) .

وعاد المسلمين إلى بلاد الشَّام ، وأثبتت هذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحريَّة بجدارةٍ ، وأعطت المسلمين فرصة المران على الدُّخول في معارك من هذا النوع

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) جولةٌ تاريخيةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٥٧) .

(٤) تاريخ الطَّبرى (٢٦١/٥) .

مع العدُو المتربيص بهم سواءً بالهجوم على بلاد الشّام ، أو على الإسكندرية^(١) .

خامساً : عبد الله بن قيس قائداً لـ الأسطول الإسلامي في الشّام :

استعمل معاوية بن أبي سفيان على البحر عبد الله بن قيس الجاسي حليف بني فزاره ، فغزا خمسين غرّة ما بين شاثية ، وصانفه في البحر ، ولم يغرق فيه أحدٌ ، ولم ينكب ، وكان يدعوه الله أن يرزقه العافية في جنده ، وألا يتليه بمصاب أحدٍ منهم ، ففعل ، حتّى إذا أراد أن يصيبه وحده ، خرج في قاربه طليعة ، فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم ، وعليه سؤال يعتربون^(٢) بذلك المكان ، فتصدق عليهم ، فرجعت امرأة من السؤال إلى قريتها ، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس ؟ قالوا : وأين هو ؟ قالت : في المرفأ ، قالوا: أي عدوة الله ، ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس ؟ فوبَّخْتُهم ، وقالت : أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحدٍ ! فساروا إليه ، فهجموا عليه ، فقاتلوه ، وقاتلهم ، فأصيب وحده ، وأفلت الملاح حتّى أتى أصحابه ، فجاؤوا حتّى أرقوا ، وال الخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدي ، فخرج فقاتلهم ، فضجر وجعل يبعث بأصحابه ، ويشتمهم ، فقالت جارية عبد الله : واعبد الله ! ما هكذا كان يقول حين يقاتل ! فقال سفيان : وكيف كان يقول ؟ قالت : الغمرات ثمَّ ينجلينا ، فترك ما كان يقول ، ولزم : الغمرات ثمَّ ينجلينا .

وأصيب في المسلمين يومئذٍ ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسي^(٣) . وقيل لتلك المرأة التي استشارت الروم على عبد الله بن قيس : كيف عرفته ؟ قالت : كان كالثاجر ، فلما سأله : أعطاني كالملك ، فعرفت أنه عبد الله بن قيس^(٤) .

وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمكِّن بالشهادة على هذا القائد العظيم أتيحت له وهو في وضع لا يضرُّ بسمعة المسلمين البحريّة ، حيث كان وحده يتطلّع ، ويراقب الأعداء ، فكانت تلك الكائنات الغريبة التي أصرت غورها تلك المرأة الذكّيّة من نساء تلك البلاد ، حيث رأت ذلك الرجل يظهر في مظاهره الخارجيّة بمظاهر التجار العاديين ، ولكنَّه يعطي عطاء الملوك ، فلقد رأت فيه أمارات السيادة مع بساطة مظاهره ، فعرفت : أنه قائد المسلمين ، الذي دفع المحاربين في تلك البلاد ، وهكذا كانت سماحة ذلك القائد وسخاوه البارز حتّى مع غير المسلمين سبباً في كشف أمره ، ومعرفة مركزه ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، فيتم بذلك الهجوم عليه ، وظفره

(١) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الرشادين ، ص (٣٥٨ ، ٣٥٩) .

(٢) يعتربون : يتعرضون للناس دون أن يسألوهم .

(٣) تاريخ الطّبرى (٢٦٠ / ٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

بالشهادة ، وهكذا يضرب قادة المسلمين المُثُل العليا بأنفسهم ، لتتم الإنجازات الكبرى على أيديهم ، وليكونوا قد وَّلا صالحة لمن يخلفهم ، فقد قام هذا القائد عليهم بمهمة الاستطلاع بنفسه ، ولم يكن الأمر إلى جنوده ، وفي انفراده بهذه المهمة مظنة للتورُّط مع الأعداء ، والهلاك على أيديهم ، ولكنَّه مع ذلك يغامر بنفسه ، فيتوَّل هذه المهمة ، ثمَّ نجده يتخلقُ بأخلاق الإسلام العليا حتَّى مع نساء الأعداء ، وضَعَّفتهم فيمُدُّ إليهم يد الحنان ، والعطف ، ويُسخِّن لهم بالمال الذي هو من أعزِّ ما يملك النَّاس ، ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقاً صبوراً ، لا معنفاً ، ولا مستكيراً ، وإذا ادْلَمَت الخطوب ، تفأله بانكشاف الغمة ، ولم يلْجأ إلى لوم أصحابه ، وتعنيفهم ، ولم يهين عليه الارتباك الذي يفسد العمل ، ويعجل بالخلل ، والفووضى ، وأمَّا خليفته سفيان الأزدي ، فلعلَّه وقع فيما وقع فيه من الارتباك ، والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة ، ولكن ممَّا يُحفظ له : أنَّه لما تَبَهَّته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذي كان أميره ينتهجه في القيادة سارع في التأسي به في ذلك ، ولم يحمله التكثير على عدم سماع كلمة الحق ، وإن صدرت من جارية مغمورة .

وهذا مثلٌ من أمثلة التَّجَرُّد من هوئ النَّفس ، هذا الخلق العظيم الذي كان غالباً في الجيل الأول ، وبه تم إنجاز الفتوحات العظيمة ، ونجاح الولاية ، والقيادة في إدارة أمور الأمة ، فَلَلَّهِ دُرُّ أبناء ذلك الجيل : ما أبلغ ذكرهم ! وما أبعد غورهم ! وما أعظم وطأتهم في الأرض على الجبارين ! وما أعدب لمساتهم في الأرض على المستضعفين ، والمساكين^(١) !

سادساً : القبارصة ينقضون الصلح :

في سنة اثنين وثلاثين هجرية ، وقع سكان قبرص تحت ضغط روميٍّ عنيفٍ أجبرهم على إمداد جيش الروم بالسفن ، ليغزوا بها بلاد المسلمين ، وبذلك يكون القبرصيون قد أخلوا بشروط الصلح ، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص ، فعزم على الاستيلاء على الجزيرة ، ووضعها تحت سلطان المسلمين ، فقد هاجم المسلمون الجزيرة هجوماً عنيفاً ، فقتلوا ، وأسرموا ، وسلبوا ، هجم عليها جيش معاوية من جهة ، وعبد الله بن سعد من الجانب الآخر ، فقتلوا خلقاً كثيراً ، وسبوا سبياً كثيراً ، وغنموا مالاً جزيلاً^(٢) ، وتحت ضغط القوات الإسلامية اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاتحين ويلتمس منهم الصلح ، فأقرُّهم معاوية على صلحهم الأول^(٣) ، وخشي معاوية أن يتركهم هذه المرأة بغير جيشٍ يرابط في الجزيرة ، فيحميها من

(١) التاريخ الإسلامي (٤٠٢/١٢) .

(٢) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص (٣٥٩ ، ٣٦٠) .

(٣) البلاذري ، ص (١٥٨) .

غارات الأعداء ، ويضيّط الأمان فيها حتّى لا تتمرّد على المسلمين ؛ فبعث إليهم اثنين عشر ألفاً من الجنود ، ونقل إليهم جماعةً من بعلبك ، وبنى هناك مدينة ، وأقام فيها مسجداً ، وأجرى معاویة على الجنود أرزاقهم ، وظلّ الحال على ذلك ، الجزيرة هادئة ، والمسلمون آمنون من هجمات الرُّوم المفاجئة ، ولا حظ المسلمين : أنَّ أهل قبرص ليس فيهم قدراتٌ عسكرية ، وهم مستضعفون أمام من يغزوهم ، وأحسنَ المسلمين : أنَّ الرُّوم يغلبونهم على أمرهم ، ويستخرونهم لمصالحهم فرأوا أنَّ من حقّهم عليهم أن يحموهم من ظلم الرُّوم ، وأن يمنعوهم من سلطُّ البيزنطيين .

وقال إسماعيل بن عيَّاش : أهل قبرص أذلاء مقهورون يغلبهم الرُّوم على أنفسهم ، ونسائهم ، فقد يحقُّ علينا أن نمنعهم ، ونحميهم^(١) .

سابعاً : ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه :

وقد جاء في سياق هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدَّرداء رضي الله عنه حينما نظر إلى سبي الأعداء ، فبكى ، ثمَّ قال : ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه ، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم ، فلما تركوا أمر الله - عَزَّ وجلَّ - وعصوه؛ صاروا إلى ماترى^(٢) .

وجاء في روایة : فقال له جبیر بن نفير : أتبكي وهذا يوم أعزَّ الله فيه الإسلام ، وأهله ؟ فقال : ويبحك ! إنَّ هذه كانت أمةً قاهرةً لهم مُلْكٌ ، فلما ضيَّعوا أمر الله ، صيرُهم إلى ماترى ، سلطُ الله عليهم السَّبَي ، وإذا سلط على قوم السَّبَي ، فليس الله فيهم حاجة ، وقال : ما أهون العباد على الله تعالى ؟ فإذا تركوا أمره^(٣) .

إنَّ ما تقوَّه به أبو الدَّرداء ، يعتبر مثلاً لل بصيرة النافذة ، والفقه في أمر الله تعالى ، فهذا الصحابيُّ الجليل يبكي حسرةً على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم ، فلم ينقادوا للدعوة الحقّ ، فباءوا بهذا المصير المؤلم ، حيث تحولوا من الملك ، والعزة إلى الاستسلام والذلة ؛ لإصرارهم على لزوم الباطل ، والتکبر على الخضوع للدعوة الحقّ ، ولو أنَّهم عقلوا ، وتدبروا لكان في دخولهم في الإسلام بقاء ملكهم ، وعمران ديارهم ، والظفر بحماية دولة الإسلام ، وإنَّ هذا التفكير العميق من أبي الدَّرداء مظہرٌ من مظاهر الرَّحمة ، والطف، تفتحت عنده نفسه الرَّكبة ، فتشكلَ ذلك في الظَّاهر على هيئة دموع تتحدرُ من عيني هذا الرَّجل العظيم ، ليعبر عمما يجول في نفسه من نظرات الحنان ، والرَّحمة ، والأسى على مصير تلك الأمة التي اجتمع لها

(١) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ، ص (٣٦١) .

(٢) التاريخ الإسلامي (٣٩٦/١٢) .

(٣) البداية والنهاية (١٥٩/٧) .

البقاء على الضلال ، والمال السيئ بزوال الملك ، والوقوع في الذلة والهوان ، وإنَّه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس في الإسلام ، فإنَّه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون في ضلال مع إدراكه ما يتضررُّون من العذاب الأليم المؤبد في الآخرة ، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم في الأسر ، والتشريد ، وتعرضهم للقتل في الحياة الدنيا^(١) ؟

ثامناً : عبادة بن الصامت يقسم غنائم قبرص :

قال عبادة بن الصامت لمعاوية رضي الله عنهما : شهدت رسول الله ﷺ في غزوة حنين والناس يكلمونه في الغنائم ، فأخذ وبرة من بعير ، وقال : « ما لي مما أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ». فاتَّق الله يا معاوية ! واقسم الغنائم على وجهها ، ولا تعط منها أحداً أكثر من حقه ! فقال له معاوية : قد وليتك قسمة الغنائم ، ليس أحد بالشَّام أفضل منك ، ولا أعلم ، فاقسمها بين أهلها ، واتَّق الله فيها ! فقسمها عبادة بين أهلها ، وأعانه أبو الدرداء ، وأبو أمامة^(٢) .

* * *

(١) التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ (١٢ / ٣٩٧) .

(٢) الرِّيَاضُ النَّصَّرَةُ ، ص (٥٦١) .

المبحث الثالث

فتوات الجبهة المصرية

أولاً : ردع المتمرّدين في الإسكندرية :

كُبر على الرؤوم خروج الإسكندرية من أيديهم ، وظلوا يتحيّنون الفرص لإعادتها إلى حوزتهم ، فراحوا يحرّضون مَنْ بالإسكندرية من الرؤوم على التمرُّد ، والخروج على سلطان المسلمين ، ذلك لأنَّ الرؤوم كانوا يعتقدون : أنَّهم لا يستطيعون الاستقرار في بلادهم بعد خروج الإسكندرية من ملکهم^(١) ، وصادف تحرِيس الرؤوم لأهل الإسكندرية هوَيَ في نفوس سُكَانها ، فاستجابوا للدُّعوة ، وكتبوا إلى قسطنطين بن هرقل يخبرونه بقلة عدد المسلمين ، ويصفون له ما يعيش فيه الرؤوم بالإسكندرية من الدُّلُّ والهوان^(٢) ، وكان عثمان رضي الله عنه قد عزل عمرو بن العاص رضي الله عنه عن مصر ، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح ، وفي أثناء ذلك وصل منوبل الخصيُّ قائد قوات الرؤوم إلى الإسكندرية لإعادتها ، وتخلصها من يد المسلمين ، ومعه قوَّاتٌ هائلةٌ يحملُهم في ثلاثة مركبٍ مشحونةٍ بكلٍّ ما يلزم هذه القوَّات من السلاح ، والعتاد^(٣) .

علم أهل مصر بأنَّ قوات الرؤوم قد وصلت إلى الإسكندرية ، فكتبوا إلى عثمان يلتمسون إعادة عمرو بن العاص ليواجه القوَّات الغازية ، فإنه أعرف بحربيهم ، وله هيبةٌ في نفوسهم ، فاستجاب الخليفة لطلب المصريين ، وأبقى ابن العاص أميراً على مصر^(٤) ، ونهب منوبل وجيشه الإسكندرية ، وغادرواها بعد أن تركوها قاعاً صفصفاً ليعشوا فيما حولها من القرى ظلماً وفساداً ، وأمهلهم عمرو بن العاص ليعذّبوا في الإفساد ، وليسعر المصريون بالفرق الهائل بين حُكَّامهم من المسلمين ، وحُكَّامهم من الرؤوم ، ولتمتلئ قلوب المصريين على الرؤوم حقداً ، وغضباً ، فلا يكون لهم من حبّهم والعطاف عليهم أدنى حظًّ ، وخرج منوبل بجيشه من

(١) الكامل لابن الأثير .

(٢) جولةٌ تاريخيةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص (٣٣٥) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه .

الإسكندرية ، يقصد مصر السُّفلی دون أن يخرج إليهم عمرو أو يقاومهم أحدٌ ، وتخوف بعض أصحابه ، وعمرو كان له رأی آخر ، فقد كان يرى أن يتركهم يقصدونه ، ولا شكَ أنَّهم سيذهبون أموال المصريين ، وسيرتكبون من الحماقات في حقِّهم ما يملاً قلوبهم حقداً عليهم ، وغضباً منهم ، فإذا نهض المسلمون لمواجتهم عاونهم المصريون على التخلص منهم ، وحدَّ عمرو سياسته هذه بقوله : دعهم يسيروا إلىَّ ، فإنَّهم يصيبون مَنْ مُرُوا به ، فَيُخزي بعضهم ببعضٍ^(١) .

وقد صدق حدس عمرو ، وأمعن الروم في إفسادهم ، ونبههم وسلبهم ، وضيَّع المصريون من فعلهم ، وأخذوا يتطلعون إلىَّ مَنْ يخلصهم من شرٍّ هؤلاء الغزاة المفسدين^(٢) .

وصل منويل إلى نقيوس ، واستعدَ عمرو للقاء ، وعبأ جنده ، وسار بهم نحو عدوه الشرس ، وتقابل الجيشان عند حصن نقيوس على شاطئ نهر النيل ، واستبسِل الفريقان أياماً استبسالٍ ، وصبر كلُّ فريق صبراً أمام خصميه مما زاد الحرب ضراوةً ، واشتعلَّاً ، ودفع بالقائد عمرو إلىَّ أن يمعن في صفوف العدو ، ويقدم فرسه بين فرسانهم ، ويشهر سيفه بين سيفهم ، ويقطع به هامات الرجال ، وأعناق الأبطال ، وأصاب فرسه سهمٌ فقتله ، فترجَّل عمرو ، وانضم إلىَّ صفوف المشاة ، ورأى المسلمين فأقبلوا على الحرب بقلوبٍ كقلوب الأسود ، لا يهابون ، ولا يخافون قعقة السيف^(٣) ، وأمام ضربات المسلمين وهنت عزائم الروم وخارت قواهم ، فانهزموا أمام الأبطال الذين يريدون إحدى الحسينين ، وقصد الروم في فرارهم الإسكندرية لعلَّهم يجدون في حصونها المنيعة وأسوارها الشاهقة ما يواري عنهم شبح الموت الذي يلاحقهم^(٤) .

وخرج المصريون بعد أن رأوا هزيمة الروم يصلحون للمسلمين ما أفسده العدو الهارب من الطُّرق ، ويقيمون لهم ما دمره من الجسور ، وأظهر المصريون فرحتهم بانتصار المسلمين على العدو الذي انتهك حرماتهم ، واعتدى على أموالهم ، وممتلكاتهم ، وقدموا للمسلمين ما ينقصهم من السلاح والمؤونة^(٥) .

ولما وصل عمرو إلى الإسكندرية ضرب عليها الحصار ، ونصب عليها المجانيق وظلَّ يضرب أسوار الإسكندرية حتى أوهنها ، وألحَّ عليها بالضرب ، حتى ضعف أهلها ، وتصدَّعَت

(١) جولةٌ تاريخيةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٣٦) . وعثمان بن عفان ، هيكل ، ص(٦٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٣٣٦) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص(٣٣٨) .

(٤) البلاذري ، ص(٦٩) .

(٥) جولةٌ تاريخيةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٣٨) .

أسوارها ، وفتحت المدينة الحصينة أبوابها ، ودخل المسلمين الإسكندرية ، وأعملوا سيفهم في الرؤوم يقتلون المقاتلين ، ويأسرون النساء والذريّة ، وهرب من نجا من الموت لاجئين إلى السُّفن ليقرُّوا بها عائدين من حيث أتوا ، وكان متوجّل في عداد القتلى ، ولم يكفَ المسلمين عن القتل ، والسببي حتّى أمر عمرو بذلك لما توسّط المسلمين المدينة ، ولمَّا لم يكن هناك من يقاوم أو يتصدّى لهم^(١) ، ولمَّا فرغ المسلمون أمر عمرو ببناء مسجدٍ في المكان الذي أوقف فيه القتال ، وسمّاه مسجد الرّحمة^(٢) ، وعادت إلى العاصمة العتيدة طمأنيتها ، وعادت السّكينة إلى قلوب المصريّين فيها ، فرجع إليها من كان قد فرَّ منها أمام الزَّحف الرّوّمي الرّهيب ، وعاد بنiamين بطريق القبط إلى الإسكندرية بعد أن فرَّ مع الفارّين ، وأخذ يرجو عمراً لا يسيء معاملة القبط ؛ لأنَّهم لم ينقضوا عهدهم ، ولم يتخلّوا عن واجبهم ، ورجاه كذلك لأنَّه يعقد صلحًا مع الرّؤوم ، وأنَّ يدفنه إذا مات في كنيسة يحسن^(٣) .

وجاء المصريون من كلّ حدبٍ وصوبٍ ، إلى عمرو يشكرونـه على تخلصـهم من ظلم الرّؤوم ، ويطلبون منه إعادة ما نهبوـا من أموالـهم ، ودوايـبـهم معلـنين ولاعـهم ، وطاعـتهم ، فقالـوا : إنَّ الروم قد أخذـوا دوابـنا ، وأموـالـنا ، ولمـ نخـالـفـ نحنـ عـلـيـكـمـ ، وكـانـ علىـ الطـاغـةـ ، فطلبـ منـهـ عمـروـ أنـ يـقـيمـواـ الـبـيـنةـ عـلـىـ ماـ اـدـعـواـ ، وـمـنـ أـقـامـ بـيـنةـ ، وـعـرـفـ مـالـهـ بـعـينـهـ ؛ رـدـهـ^(٤) عـلـيـهـ ، وـهـدـمـ عمـروـ سورـ الإـسـكـنـدـرـيـةـ وـكـانـ ذـلـكـ سـنـةـ ٢٥ـ هـ ، وأـصـبـحـتـ الإـسـكـنـدـرـيـةـ آـمـنـةـ مـنـ جـهـاتـهـ كـلـهـ رـغـمـ هـدـمـ سورـهـ ، فـقـدـ كـانـ شـرـقـيـهـ فـيـ قـبـضـةـ الـمـسـلـمـيـنـ ، وـكـذـلـكـ جـنـوـبـهـ ، وـأـمـاـ غـرـبـيـهـ فـقـدـ أـمـنـهـ عمـروـ بـفـتحـ بـرـقةـ ، وـزـوـيلـةـ ، وـطـرـابـلـسـ الغـرـبـ وـصـالـحـ أـهـلـ هـذـهـ الـبـلـادـ عـلـىـ الـجـزـيـةـ ، فـكـانـواـ يـدـفـعـونـهـ طـائـعـينـ ، وـأـمـاـ شـمـالـهـ فـكـانـ فـيـ قـبـضـةـ الرـؤـومـ ، وـقـدـ تـلـقـنـواـ درـساـ عـلـىـ يـدـ الـمـسـلـمـيـنـ لـمـ يـتـرـكـ لـهـمـ فـرـصـةـ لـلـتـفـكـيرـ فـيـ الـعـودـةـ ، وـحـتـىـ لـوـ فـكـرـوـاـ فـيـ الـعـودـةـ ، فـهـيـهـاتـ أـنـ يـدـخـلـوـهـاـ وـلـيـسـ لـهـمـ فـيـهـاـ نـصـيـرـ ، وـلـاـ مـعـيـنـ !ـ وـقـوـاتـ الـمـسـلـمـيـنـ تـرـاقـبـ الـبـحـرـ بـكـلـ يـقـظـةـ ، وـاهـتـمـامـ^(٥) .

ثانياً : فتح بلاد التّوبة :

كان عمرو بن العاص قد شرع في فتح بلاد التّوبة بإذن من الخليفة عمر ، فوجد حرباً لم

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (٣٤٠) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص (٣٤٠) .

(٥) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الرّاشدين ، ص (٣٤١) .

يتذَرَّب عليها المسلمين ، وهي الرَّمِيم بالنَّبَال في أعين المُحَارِّبين ، حتَّى فَقَدُوا مائةً وَّخمْسِينَ عِيناً في أول معركة ، ولهذا قبل الجيش الصلح ، ولكن عمرو بن العاص رفض ذلك للوصول إلى شروطِ أَفْضَل^(١) ، وعندما تولَّ ابن سعد ولاية مصر غزا التُّوبَة في عام إحدى وثلاثين هجرية ، فقاتله الأسود من أهل التُّوبَة قتالاً شديداً ، فأصْبَيْت يومئذ عيونَ كثيرةً من المسلمين ، فقال شاعرهم :

لَمْ تَرَ عَيْنَ مِثْلَ يَوْمِ دُمْقَلَةِ وَالْخَيْلُ تَعْدُو بِالدُّرُوعِ مُثْقَلَةِ^(٢)

فَسَأَلَ أَهْلَ التُّوبَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ الْمَهَادِنَةَ ، فَهَادَنَهُمُ الْهَدَنَةَ ، وَبَقِيَتْ إِلَى سَتَةِ قَرْوَنِ^(٣) ، وَعَقَدَ لَهُمْ عَقْداً يَضْمِنُ لَهُمْ اسْتِقْلَالَ بِلَادِهِمْ وَيَحْقِّقُ لِلْمُسْلِمِينَ الْأَطْمَئْنَانَ إِلَى حَدُودِهِمُ الْجُنُوبِيَّةَ ، وَيَفْتَحُ التُّوبَةَ لِلتِّجَارَةِ وَالْحَصُولَ عَلَى عَدْدٍ مِّنَ الرَّقِيقِ فِي خَدْمَةِ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، وَقَدْ اخْتَلَطَ الْمُسْلِمُونَ بِالْتُّوبَةِ ، وَالْبَجَةِ ، وَاعْتَقَنَ كَثِيرٌ مِّنْهُمُ الْإِسْلَامَ^(٤) .

ثالثاً : فتح إفريقية :

كان من مقاصد عمرو بن العاص رضي الله عنه لبرقة ، وطرابلس ، وبقيَّة مناطق ليبيا ، فتحَ البلاد ، وإزالة الطاغوت الروماني عن قلوب العباد ، حتَّى تَنَضَّحَ لَهُمُ السُّبْلُ ، وَتَفَرَّقَ لَهُمُ الْطُّرقُ ، وَتَصْبِحُ حرية الاختيار في متناول تلك الشُّعُوب ، وبعد تلك الحملة المباركة التي كانت سبباً في دخول ذلك الثور إلى تلك المناطق المظلمة بعبادة الأصنام ، والتقرُّب إليها بالقرابين ، واتخاذ الأنداد ، والأرباب من البشر من دونه سبحانه وتعالى ، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد . وعن حملة عبد الله بن سعد على إفريقية^(٥) ، يقول الدكتور صالح مصطفى : «في سنة ٢٦٦هـ / ٦٤٦م عُزل عمرو بن العاص رضي الله عنه عن ولاية مصر ، واستعمل عليها عبد الله ابن سعد رضي الله عنه وكان عبد الله بن سعد يبعث جرائد الخيل كما كانوا يفعلون أيام عمرو بن العاص ، فيصيّبون من أطراف إفريقية ، ويغنمون»^(٦) ، وكانت جرائد الخيل تقصد إفريقية - تونس - تمهيداً لفتحها ، ومعرفة وضعها ، فكان حال هذه الجرائد أشبه ما يكون بكتائب الاستطلاع التي تعتبر مقدمة الجيش ، وعيونه .

(١) الخلافة والخلفاء الرَّاشِدُونَ ، ص (٢٢٩) .

(٢) قادة الفتح لبلاد المغرب (٦١، ٦٢، ٦٣) .

(٣) الخلافة والخلفاء الرَّاشِدُونَ ، ص (٢٢٩) .

(٤) قادة الفتح لبلاد المغرب (٦١، ٦٢، ٦٣) .

(٥) الشُّرُفُ وَالشَّامِي بِحَرْكَةِ الفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ ، لِلصَّلَابِيِّ ، ص (١٨٩) .

(٦) ليبيا من الفتح العربي حتَّى انتقال الخلافة الفاطمية ، ص (٤٩) .

فلماً اجتمعت عند عبد الله بن سعيد معلوماتٌ كافيةٌ عن إفريقية من ناحية مداخلها ، ومحارجها ، وقوتها ، وعتادها ، وموقعها الجغرافي الاستراتيجي ؛ كتب حينئذ إلى الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفان يخبره بهذه المعلومات المهمة عن إفريقية ، يستأذن بناء على تلك المعلومات بفتحها ، فكان له ما طلب .

يقول الدكتور صالح مصطفى : « ولما استأذن عبد الله بن سعيد الخليفة عثمان بن عفان في غزو إفريقية ؛ جمع الصحابة ، واستشارهم في ذلك ، فأشاروا عليه بفتحها ؛ إلا أنها الأعور سعيد بن زيد ، الذي خالفه متمسّكاً برأي عمر بن الخطاب في ألا يغزو إفريقية أحدٌ من المسلمين ، ولمّا أجمع الصحابة على ذلك ؛ دعا عثمان للجهاد ، واستعدّت المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية لجمع المتظوعين ، وتجهيزهم ، وترحيلهم إلى مصر ، لغزو إفريقية تحت قيادة عبد الله بن سعيد ، وقد ظهر الاهتمام بأمر تلك الغزوة جلياً ، فهذا يتضح من الذين خرجموا إليها من كبار الصحابة ، ومن خيار شباب آل البيت ، وأبناء المهاجرين الأوائل ، وكذلك الأنصار ، فقد خرج في تلك الغزوة : الحسن ، والحسين ، وابن عباس ، وابن جعفر ، وغيرهم .

هذا وقد خرج من قبيلة مهرة وحدها في غزوة عبد الله بن سعيد سُمّئة رجل ، ومنْ غنت سبعمائة رجل ، ومن ميدعوان سبعمائة رجل ، وعندما بات الاستعداد تاماً ؛ خطب عثمان فيهم ، ورَبَّهم في الجهاد ، وقال لهم : لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعيد ، فيكون الأمر إليه ، وأستودعكم الله .

ويقال : إن عثمان رضي الله عنه قد أعاد في هذه الغزوة بآلف بعير يحمل عليها ضفافه الناس ، وعندما وصل هذا الجيش إلى مصر ، انضمَّ إلى جيش عبد الله بن سعيد ، وتقدَّم من الفسطاط تحت قيادة عبد الله ذلك الجيش الذي يقدِّر بعشرين ألفاً ، يخترق الحدود المصرية الـليبية ، وعندما وصلوا إلى برقة ، انضمَّ إليهم عقبة ابن نافع الفهري ، ومن معه من المسلمين ، ولم يواجه الجيش الإسلامي أية صعوبة أثناء سيرهم في برقة ، وذلك لأنَّها ظلت وقيةً لما عاهدت المسلمين عليه من الشروط زمن عمرو بن العاص ، حتَّى إنَّه لم يكن يدخلها جابي الخارج ، وإنَّما كانت تبعث بخراجها إلى مصر في الوقت المناسب ، وممَّا يؤكِّد بقاء برقة على عهدها لعمرو بن العاص ما ذكر : أنَّه سمع يقول : قعدت مقعدي هذا ، وما لأحدٍ من قبط مصر علىَّ عهدٍ إلا أهل أنطابلس^(١) ، فإنَّ لهم عهداً يوفِّي لهم به ، كما أنَّ عبد الله بن عمرو بن العاص كان يقول : ولو لا مالي بالحجاج ؛ لنزلت برقة ، فما أعلم متزاً أسلم ، ولا أعزل منها^(٢) .

(١) أنطابلس : برقة .

(٢) ليبيما من الفتح العربي حتَّى انتقال الخلافة الفاطمية ، ص (٣٩) .

وهكذا انطلقت هذه الحملة المباركة نحو إفريقية ، وكان ذلك بعد انضمام قوات عقبة بن نافع إليها ، إلا أنَّ عبد الله بن سعيد قائد الحملة ما فتئ يرسل الطلائع ، والعيون في جميع الاتجاهات لاستكشاف الطرق ، وتأمينها ، ورصد تحركات العدو وضبطها ، تحسباً لأي كمين ، أو مباغة تطأ على حين غفلة ، فكان من نتائج تلك الطلائع الاستطلاعية أن تم رصد مجموعات من السفن الحربية تابعة للإمبراطورية الرومانية ، حيث كانت هذه السفن الحربية قد رست في ساحل ليبيا البحري بالقرب من مدينة طرابلس ، فما هي إلا برهةٌ من الزَّمن حتى كان ما تحمله هذه السفن غنيمةً للمسلمين ، وقد أسروا أكثر من مئة من أصحابها ، وتعتبر هذه أول غينية ذات قيمة أصابها المسلمين في طريقهم لفتح إفريقية^(١) . وواصل عبد الله ابن سعيد السير إلى إفريقية ، وبث طلائعه ، وعيونه في كل ناحية ، حتى وصل جيشه إلى مدينة سبيطة بأمان ، وهناك التقى الجمuan ، جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعيد ، وجيش جرجير حاكم إفريقية ، وكان تعداد جيشه يبلغ حوالي مئة وعشرين ألفاً .

وكان بين القائدين اتصالاتٌ مستمرةٌ ، ورسائل متداولةٌ ، فحوها عرض الدَّعوة الإسلامية على جرجير ، ودعوه للدخول في الإسلام ، ويستسلم لأمر الله سبحانه، أو أن يدفع الجزية، ويبقى على دينه خاضعاً لسيادة الإسلام ، ولكنَّ كلَّ تلك العروض رفضها ، وأصرَّ ، واستكبر هو وجنوده؛ وضاق الأمر بالمسلمين فثبت المعركة بين الجماعين ، وحمي الوطيس بينهما لعدة أيام ، حتى وصل مدد بقيادة عبد الله بن الرُّبَّير ، وكانت نهاية هذا المستكبر الطاغي جرجير على يديه^(٢) .

ولمَّا رأى الرُّوم الذين بالسَّاحل ما حل بجرجير ، وأهل سبيطة ؛ غارت أنفسهم ، وتجمعوا ، وكاتب بعضهم بعضاً في حرب عبد الله بن سعيد إياهم ، فخافوه ، وراسلوه ، وجعلوا له جعلاً على أن يرتحل بجيشه ، وألا يعتضده بشيء ، ووجهوا إليه ثلاثة قنطارات من الذهب في بعض الرِّوايات ، وفي البعض الآخر مئة قنطرة ، جزية في كل سنة على أن يكتفَ عنهم ، ويخرج من بلادهم ، فقبل ذلك منهم ، وقبض المال ، وكان في شرط صلحهم أنَّ ما أصاب المسلمين قبل الصَّلح فهو لهم ، وما أصابوه بعد الصَّلح ردَّ عليهم ، وانصرف راجعاً إلى مصر بعد أن أقام بإفريقية سنة وثلاثة أشهر ، أو سنة وشهرًا في رواية أخرى^(٣) .

وعندما وصل عبد الله بن سعيد إلى طرابلس ؛ وافت المراكب ، فحمل فيها أثقال جيشه ، وقصد هو وأصحابه مصر سالمين ، ووجه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه الأموال التي معه من

(١) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي ، ص (١٩١) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (١٩٣) ، البداية والنتهاية (٧/١٥٨) .

(٣) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي ، ص (١٩٤) .

الخمس وغيره ، ومن المرجح أن تكون السفن التي وافته في طرابلس من السفن التي غنمها المسلمون في سورية ، والإسكندرية ، إذ يذكر إرشيبالد : أنه قد سهل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصناعة البيزنطية في الإسكندرية وسورية سليمة أن تكون لديهم سفن حربية ، إما حاضرة ، وإنما سهلة الإنشاء^(١) ، بيد أن هناك روايات تنص على عودة عبد الله بن سعيد لإفريقية بعد وصوله إلى مصر ، وذلك حين نقض أهلها العهد ، وكان ذلك في سنة ثلاثة وثلاثين ، فانتصر عليهم وقام بتشييت دعائم النظام الإسلامي هناك ، وأقر أهلها على الإسلام ، أو الجزية^(٢) .

رابعاً : بطولة عبد الله بن الربيير في فتح إفريقية :

انقطع خبر المسلمين في إفريقية عن عثمان رضي الله عنه فسيرة إليهم عبد الله بن الربيير في جماعة ليأتيه بأخبارهم ، فسار مجدداً ، ووصل إليهم ، وأقام معهم ، ولما وصل ؛ كثُر الصياح ، والتَّكبير في المسلمين ، فسأل جرجير عن الخبر ، فقيل : قد أتاهم عسكراً ، ففتَ ذلك في عصده ، ورأى عبد الله بن الربيير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر فإذا أدن بالظهر عاد كلُّ فريق إلى خيامه ، وشهد القتال من الغد فلم يَر ابن سعد معهم ، فسأل عنه فقال : إنَّه سمع منادي جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعيد ، فله مئة ألف دينار ، وأزوجه ابنتي ! وهو يخاف ، فحضر عنده ، وقال له : تأمر منادي ينادي : من أتاني برأس جرجير ؟ نفلته مئة ألف ، وزوجته ابنته ، واستعملته على بلاده ! ففعل ذلك ، فصار جرجير يخاف أشدَّ من عبد الله^(٣) .

ثم إن عبد الله بن الربيير قال لعبد الله بن سعيد : إنَّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلاً ، وبلاط هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين ، وببلادهم ، وقد رأيت أن ترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متاهين ، ونقاتل نحن الروم في باطن العسكر إلى أن يضجروا ويملأوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ؛ ركب من كان في الخيام من المسلمين ، ولم يشهدوا القتال ، وهم مستريحون ، ونقتضهم على غرة فلعلَ الله ينصرنا عليهم ! فأحضر جماعة من أعيان الصحابة ، واستشارهم ، فوافقوه على ذلك ، فلما كان الغد ؛ فعل عبد الله ما اتفقا عليه ، وأقام جميع شُجعان المسلمين في خيامهم ، وخيم لهم عندهم مُسَرِّجة ، مضى الباقون ، فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً ، فلما أدن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة ، فلم يمكنهم ابن الربيير ، وألح عليهم بالقتال ، حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم ، والمسلمون ، فكلُّ الطائفتين ألقى سلاحه ، ووقع تعباً ، فعند ذلك أخذ عبد الله بن

(١) ليسا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية ، ص (٤٦) .

(٢) الشرف والشسامي بحركة الفتح الإسلامي ، ص (١٩٤) .

(٣) التاريخ الإسلامي (٣٨٨/١٢) .

الرَّبِيرُ مِنْ كَانَ مُسْتَرِيحًا مِنْ شَجَعَانَ الْمُسْلِمِينَ وَقَصْدَ الرُّومَ فَلَمْ يَشْعُرُوا بِهِمْ حَتَّى خَالَطُوهُمْ ، وَحَمَلُوا حَمْلَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَكَبَرُوا ، فَلَمْ يَتَمَكَّنُ الرُّومُ مِنْ لِبسِ سَلَاحِهِمْ حَتَّى غَشَّاهُمُ الْمُسْلِمُونَ ، وَقُتِلَ جَرْجِيرُ قَتْلَهُ ابْنُ الرَّبِيرِ ، وَانْهَزَمَ الرُّومُ ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ مَقْتُلَةً عَظِيمَةً ، وَأَخْذَتْ ابْنَةَ الْمَلْكِ جَرْجِيرَ سَبِيلًا ، وَنَزَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ الْمَدِينَةَ ، وَحَاصِرَهَا حَتَّى فَتَحَهَا ، وَرَأَى فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي غَيْرِهَا ، فَكَانَ سَهْمُ الْفَارَسِ ثَلَاثَةَ آلَافِ دِينَارٍ ، وَسَهْمُ الرَّاجِلِ أَلْفَ دِينَارٍ .

وَلَمَّا فَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ مَدِينَةَ سَبِيلَةَ ، بَثَّ جَيْوَشَهُ فِي الْبَلَادِ ، فَبَلَغَتْ قَصْدَةُ ، فَسَبَوا ، وَغَنَمُوا وَسَيَرَ عَسْكَرًا إِلَى حَصْنِ الْأَجْمِ ، وَقَدْ احْتَمَى بِهِ أَهْلُ تَلْكَ الْبَلَادِ ، فَحَصَرَهُ ، وَفَتَحَهُ بِالْأَمَانِ ، فَصَالَحَهُ أَهْلُ إِفْرِيقِيَّةَ - كَمَا مَرَّ مَعْنَا - وَنَفَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبِيرِ ابْنَةَ الْمَلْكِ ، وَأَرْسَلَهُ بْنَ سَعْدٍ إِلَى عَثْمَانَ بِالْبَشَارَةِ بِفَتْحِ إِفْرِيقِيَّةِ^(١) .

هَذَا وَلَقَدْ كَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الرَّبِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَوْقِفٌ عَظِيمٌ فِي الْبَطْوَلَةِ ، وَالشَّجَاعَةِ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ ، حَيْثُ قَالَ : لَمَّا قَصَدَ الْمُسْلِمُونَ وَهُمْ عَشْرُونَ أَلْفًا إِفْرِيقِيَّةَ ، وَعَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ بْنُ أَبِي سَرْحٍ ، وَفِي جَيْشِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبِيرِ ؛ صَمَدَ إِلَيْهِمْ مَلْكُ الْبَرِبرِ جَرْجِيرُ فِي عَشْرِينَ وَمِئَةَ أَلْفٍ ، وَقَيْلٌ : فِي مَئِيْتِي أَلْفٍ ، فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ ، أَمْرَ جَيْشِهِ ، فَأَحَاطُوا بِالْمُسْلِمِينَ هَالَةً ، فَوَرَقَ الْمُسْلِمُونَ فِي مَوْقِفٍ لَمْ يُرَأْ شَنْعَنْ مِنْهُ ، وَلَا أَخْوَفَ عَلَيْهِمْ مِنْهُ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبِيرِ : نَظَرْتُ إِلَى الْمَلْكِ جَرْجِيرَ مِنْ وَرَاءِ الصُّفُوفِ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى بَرْذُونَ ، وَجَارِيَتَانِ تَظَلَّلَاهُ بِرِيشِ الطَّوَاوِيسِ ، فَذَهَبَتْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ بْنِ أَبِي سَرْحٍ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يَبْعَثَ مَعِي مِنْ يَحْمِي ظَهْرِيِّ ، وَأَقْصِدَ الْمَلْكَ ، فَجَهَّزَ مَعِي جَمَاعَةً مِنَ الشَّجَاعَانِ ، فَأَمْرَ بِهِمْ فَحَمَّوْا ظَهْرِيِّ ، وَذَهَبَتْ حَتَّى خَرَقَتِ الصُّفُوفَ إِلَيْهِ ، وَهُمْ يَظْهُونَ أَنَّى فِي رِسَالَةِ إِلَى الْمَلْكِ ، فَلَمَّا اقْرَبَتْ مِنْهُ أَحْسَنَ مِنْيَ الشَّرَّ ، فَفَرَّ عَلَى بَرْذُونَهُ فَلَحَقَتْهُ ، فَصَفَعَتْهُ بِرِمْحِيِّ ، وَذَفَقَتْ - يَعْنِي : أَجْهَزَتْ - عَلَيْهِ بِسَيْفِيِّ ، وَأَخْذَتْ رَأْسَهُ فَنَصَبَتْهُ عَلَى رَأْسِ الرُّمْحِ ، وَكَبَرَتْ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْبَرِبرَ ، فَرِقُوا ، وَفَرِقُوا كَفَرَارَ الْقَطَا ، وَاتَّبَعُوهُمُ الْمُسْلِمُونَ يَقْتَلُونَ ، وَيَأْسُرُونَ ، فَغَمَّوْا غَنَائِمَ جَمَّةً ، وَأَمْوَالًا عَظِيمَةً ، وَسَبِيلًا عَظِيمًا ، وَذَلِكَ بِبَلْدِي قَالَ لَهُ : (سَبِيلَة) عَلَى يَوْمَيْنِ مِنَ الْقِيرَوانِ .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : فَكَانَ هَذَا أَوَّلُ مَوْقِفٍ اشْتَهَرَ فِيهِ أَمْرُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الرَّبِيرِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ ، وَأَصْحَابِهِمَا أَجْمَعِينَ^(٢) .

إِنَّ مَا قَامَ بِهِ ابْنُ الرَّبِيرِ نَوْعٌ مِنَ الطُّمُوحِ نَحْوَ الْمَعَالِيِّ الْمَحْفُوفَةِ بِالْأَهْوَالِ ، بِدُونِ تَدْرِجٍ سَابِقٍ ، لَقَدْ كَانَ عُمْرَهُ آنذاكَ سِبْعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً ، وَلَمْ يُذْكُرْ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَوْاقِفٌ بِطُولِيَّةٍ مِنْ نَوْعٍ

(١) الكامل لابن الأثير (٤٥/٣ - ٤٦) .

(٢) البداية والنهاية (١٥٨/٧) .

المغامرات ، فكيف أقدم على هذه المغامرة الهائلة التي يغلب على الظن ، أو يكاد يقرب من اليقين في عرف الناس العاديين أنَّ فيها الهلاك ؟ !

إنَّ الاحتمالات التي يمكن أن ترد في مثل هذه المغامرة أن يدور في خَلَد المغامر أمران :

١- أن ينجح في هجومه فيقضي على ملك البربر ، ويتفرق جنده ، كما هي عادة الكفار ، وفي ذلك نصرٌ مؤزرٌ للمسلمين ، وكفاية لهم عن خوض معركة شرسة ، قد تخوف منها المسلمون .

٢- أن يتقبله الله شهيداً ، وفي ذلك الوصول إلى أسمى الأماني ، وأبلغ الدرجات التي يطمح إليها الصالحون ويتنافسون على بلوغها ، كما أنَّ في ذلك من إرهاب الكفار ، وإثارة الرُّعب فيهم الشيءُ الكثير ، حيث سيتوقع الكفار : أنَّ المسلمين الذين سيقاتلونهم كلُّهم من هذا النوع الجريء الفتاك ؛ إذ إنَّه يكفي المغامر شجاعةً أن يقذف بنفسه في أتون المعركة الملتهب ، إنَّه لا يُقدم على هذه الوثبة العالية إلا العظماء الذين يتصورون الجنة من وراء تلك الوثبة ويشتاقون للعيش فيها ، ولقد كان ابن الرَّبِير عندما وثب تلك الوثبة متجرداً من علاقتِ الدنيا ، وأنقلها المثبتة ، طامحاً إلى ما أعدَه الله تعالى للم المجاهدين في سبيله على قدر طاقتِهم سواءً انتصروا على أعدائهم ، أو نالوا الشهادة^(١) .

وقد جاء في هذا الخبر : أنَّ البربر بعدما قُتل ملوكهم فرُوا من جيش المسلمين كفراً القطا ، وأنَّ المسلمين بعوهم يقتلون ، ويأسرون منهم من غير مقاومة ، وإنَّ هذا الخبر دليلٌ على أنَّ الله تعالى مع أوليائه المؤمنين ، وأنَّه يقيض لهم إذا صدقوا ما يخلصهم من الشَّدائِد ، وينقضهم من المآزق ، فإنَّ المسلمين قد وقعوا في معضلةٍ كبرى ، حيث أحاط بهم أعداؤهم الذين يفوقونهم سُتَّ مرات في العدد ، أو أكثر ، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم من كل جانبٍ ، وهو أمر عسيرٌ على جيش صغيرٍ بالنسبة لكثره عدوه ، كما جاء في قول الرَّاوي : فوقف المسلمون في موقفٍ لم يُرَأْ شنعاً منه ، ولا أخوف عليهم منه ، فقيض الله لهم هذا البطل المغوار الذي أقدم على مغامرة نادرة المثال ، فأنْقذ الله به ذلك الجيش الإسلاميَّ من عسراً كان يعاني منها^(٢) .

ولا ننسى موقف الأبطال الذين كانوا مع عبد الله بن الرَّبِير يحمون ظهره ، فإنَّهم قد شاركوه في تلك المخاطرة ، ولوئن لم يذكر التاريخ أسماءهم ، فإنَّ عملهم الفدائيَّ قد بقي مخلداً في

(١) التاريخ الإسلاميُّ (١٢ / ٣٩٠).

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (١٢ / ٣٩٠).

الدُّنْيَا برفع ذكر هذه الأُمَّة حينما تفاخر بآبطالها ، وفي الآخرة بما ينتظرون من وعد الله للمجاهدين الصادقين^(١) .

هذا وقد قدَّمَ المسلمين الغالي ، والرَّخيص في فتوحات إفريقيَّة ، واستشهد منهم الكثير ، وممَّن توفي منهم غازياً بإفريقيَّة في خلافة عثمان أبو دُؤوب الْهُذَلِيُّ ، وكان شاعراً مشهوراً ، وهو الذي قال :

وَإِذَا الْمَيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا الْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِيَّنَ أَرِيَهُمْ أَنِّي لِرَبِّ الدَّهْرِ لَا أَنْصَعَضُ^(٢)

خامساً : معركة ذات الصواري :

أُصِيبَ الرُّومُ بضربة حاسمة في إفريقيَّة ، وتعَرَّضَتْ سواحلهم للخطر بعد سيطرة الأسطول الإسلامي على سواحل المتوسط من رودس حتَّى برقة ، فجمع قسطنطين بن هرقل أسطولاً بناه الرُّومُ من قبل ، فخرج بألف سفينة ، لضرب المسلمين ضربة يثأر بها لخسارته المتواتلة في البر ، فأذن عثمان رضي الله عنه لصد العدون ، فأرسل معاوية مراكب الشَّام بقيادة بُسر بن أرطاة ، واجتمع مع عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح في مراكب مصر ، وكانت كلُّها تحت إمرته ، ومجموعها مئتا سفينة فقط ، وسار هذا الجيش الإسلامي ، وفيه أشجع المجاهدين المسلمين ممَّن أبلوا في المعارك السابقة ، فقد انتصر هؤلاء على الرُّوم من قبل في معارك عديدة ، فشوكة عدوهم في أنفسهم محطمة ، لا يخشونه ، ولا يهابونه ، على الرَّغم من قلة عدد سفنهم إذا قيست بعد سفن عدوهم ، خرج المسلمين إلى البحر ، وفي أذهانهم وقلوبهم إعزاز الدين الله ، وكسر شوكة الرُّوم ، ولقد كان لهذه المعركة التَّارِيخية أسباب ، منها :

- ١- الضربات القوية التي وجهها المسلمون إلى الرُّوم في إفريقيَّة .
- ٢- إصابة الرُّوم في سواحلهم الشرقيَّة ، والجنوبية بعد أن سيطر المسلمون بأسطولهم عليها .
- ٣- خشية الرُّوم أن يقوى أسطول المسلمين ، فيفكروا في غزو القسطنطينية .
- ٤- أراد قسطنطين بن هرقل استرداد هيبة ملكه بعد الخسائر المتتالية بِرًا ، وعلى شواطئه في بلاد الشَّام ، ومصر ، وساحل برقة .
- ٥- كما أراد الرُّوم خوض معركة ظُنُوا : أنها مضمونة النَّتائج ، كي تبقى لهم السيطرة في

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) تاريخ الإسلام للذهببي ، عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص (٣٥٩) .

المتوسط ، فيحافظوا على جزره ، فينطلقوا منها للإغارة على شواطئ بلاد العرب .

٦- محاولة استرجاع الإسكندرية بسبب مكانتها عند الروم ، وقد ثبت تاريخياً مكانتها سكانها لقسطنطين بن هرقل ملك الروم .

هذه بعض أسباب معركة ذات الصواري^(١) .

● أين وقعت هذه المعركة ؟

وهذا السؤال لم يجد المؤرخون جواباً موحداً ، فالមراجع العربية لم تحدد مكانها ، باستثناء مرجع واحد - على ما نعلم - صرّح بالمكان بدقة ، وأخر قال : اتجه الروم إليه .

* في (فتح مصر وأخبارها)^(٢) ، ذكر الكتاب خطبة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وقال : قد بلغني : أنَّ هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب ... ولم يحدد مكان المعركة .

* (الطبرى)^(٣) ، في أخبار سنة ٣١ هـ ، ربط حدوث ذات الصواري بما أصاب المسلمين من الروم في إفريقية ، وقال : فخرجوا في جمعٍ لم يجتمع للروم مثله قطُّ .

* ولم يذكر (الكامل في التاريخ)^(٤) ، مكان الموقعة أيضاً ، ولكنَّ ربط سبب وقوعها بما أحرزه المسلمون من نصرٍ في إفريقية بالذات .

* وفي (البداية والنهاية)^(٥) ؛ فلما أصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح من أصاب من الفرنج ، والبربر ببلاد إفريقية ، حميت الروم ، واجتمعت على قسطنطين ابن هرقل ، وساروا إلى المسلمين في جمع لهم لم يُر مثله منذ كان الإسلام ، خرجوا في خمسة مركبٍ وقصدوا عبد الله بن سعد بن أبي سرح في أصحابه من المسلمين ببلاد المغرب .

* (تاريخ الأمم الإسلامية)^(٦) ، لم يذكر مكان الموقعة أيضاً^(٧) ، ورجح الدكتور شوقي أبو خليل : أنَّ المعركة كانت على شواطئ الإسكندرية ، وذلك للأسباب التالية :

(١) ذات الصواري ، شوقي أبو خليل ، ص(٦٠ ، ٦١) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٦١) .

(٣) تاريخ الطبرى (٥٩٠/٥) .

(٤) الكامل في التاريخ (٣/٥٨) طبعة البابي الحلبي القاهرة) .

(٥) البداية والنهاية (٧/١٦٣) .

(٦) تاريخ الأمم الإسلامية (٢/٢٩) ، للشيخ الخضرى .

(٧) ذات الصواري ، ص(٦٢) .

- كتاب (النجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة) يذكر صراحةً : غزوة ذات الصّواري في البحر من ناحية الإسكندرية^(١).

- تاريخ ابن خلدون يذكر^(٢) : ثمَّ بعث - ابن أبي سرح - السَّرَايَا ، ودُوَخَ الْبَلَاد ، فأطاعوا ،
وعاد إلى مصر ، ولمَّا أصاب ابن أبي السَّرَح من إفريقيَّة ما أصاب ، ورجع إلى مصر خرج
قسطنطين بن هرقل غازياً إلى الإسكندرية في ستَّمائة مركب .

- ربطت المراجع العربية التي لم تحدد موقع المعركة بين حدوث المعركة ، وبين ما خسره الروم في شمال إفريقيا بالذات .

- الأسطول الرُّومي صاحب ماضٍ عريقٍ ، فهو سيد المتوسط قبل ذات الصواري ، فهو أجرأ على مهاجمة السواحل الإسلامية ، ولذلك رجع الدكتور شوقي أبو خليل معجِّي الأسطول الرُّومي إلى شواطئ الإسكندرية ؛ لاستعادتها بسبب مكانتها عند الرُّوم ومكانته أهلها لملوكهم السابق ، وهو بذلك يقضي أيضاً على الأسطول الفتى في مهده ، الذي شرع العرب في بنائه بمصر ، فتبقى للرُّوم السيطرة والسلطة في مياه المتوسط ، وجزره .

-المراجع الأجنبية تعرّف ذات الصّواري بموقعة (فونيكة) ، وفونيكة : هو ثغر يقع غرب مدينة الإسكندرية ، بالقرب من مدينة مرسى مطروح ، فهى تحديد الموقع تماماً^(٣) .

● أحداث المعركة :

قال مالك بن أوس بن الحدثان : كنت معهم - في ذات الصّواري - فالتقينا في البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قطُّ ، وكانت الرِّيح علينا - أي : لصالح مراكب الروم - فأرسينا ساعَةً ، وأرسوا قريباً متَّا ، وسكتت الرِّيح عنا ، قلنا للرُّوم : الأمْن بيَننا وبينكم . قالوا : ذلك لكم ، ولنا منكم ^(٤) ، كما طلب المسلمين من الرُّوم : إنْ أحببتم ننزل إلى السَّاحل فنقتتل ، حتى يكتب لأحدنا النَّصر ، وإن شئتم فالبحر . قال مالك بن أوس : فخرجوا نخرةً واحدةً ، وقالوا : بل الماء ، الماء ، الماء ! وهذا يظهر لنا ثقة الرُّوم بخبرتهم البحريَّة ، وأملهم في النَّصر لممارستهم أحواله ، وفنونه ، وقد مروا علينا ، فأحكموا الدِّرایة بثقافته ، وأنوائه ، فطعموا بالنَّصر فيه ، خصوصاً وأنَّهم يعلمون حداثة عهد المسلمين به ^(٥) .

(١) النُّجُوم الزَّاهِرَةُ (٨٠ / ١).

(٢) تاریخ این خلدون (٤٦٨/٢).

(٣) ذات الصواري ، ص (٦٤) .

(٤) تاريخ الطبيعة (٢٩٢/٥)

(٥) ذات الصواري ، ص (٦٦) .

بات الفريقان تلك الليلة في عرض البحر ، و موقف المسلمين حرجٌ ، فقال القائد المسلم لصحابه : أشيروا عليَّ ؟ فقالوا : انتظر الليلة بنا لنرتُب أمرنا ، و نختبر عدُونا ، فبات المسلمون يصلُون ، و يدعون الله - عز وجل - و يذكرون ، و يتهدجون ، فكان لهم دويٌّ كدويِّ التَّحل ، على نغمات تلاطم الأمواج بالمراكب ، أمَّا الرُّؤوم ؛ فباتوا يضربون النَّوافيس في سفنهم ، وأصبح القوم ، وأراد قسطنطين أن يسرع في القتال ، ولكنَّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح لمَّا فرغ من صلاته إماماً بالمسلمين للصُّبْح ، استشار رجال الرأي ، والمشورة عنده ، فاتفق معهم على خطبة رائعة : فقد اتفقوا على أن يجعلوا المعركة برية على الرَّغم من أنَّهم في عرض البحر ، فكيف تمَّ لل المسلمين ذلك ؟ أمر عبد الله جنده أن يقتربوا من سفن أعدائهم فاقتربوا حتى لامست سفنهم سفن العدو ، فنزل الفدائيون ، أو - رجال الصَّفَادع البشريَّة في عرفة الحالي - إلى الماء ، وربطوا السُّفن الإسلاميَّة بسفن الرُّؤوم ، ربطوها بحبال متينة ، فصار (١٢٠٠) سفينه في عرض البحر ، كلُّ عشرة أو عشرين منها متصلةٌ مع بعضها ، فكأنها قطعة أرض ستجري عليها المعركة ، و صَفَّ عبد الله بن سعيد المسلمين على نواحي السُّفن يعظهم ، و يأمرهم بتلاوة القرآن الكريم ، خصوصاً سورة الأنفال ، لما فيها من معاني الوحدة ، والثبات ، والصَّبر (١) .

وببدأ الرُّؤوم القتال ، فهم في رأيهم قد ضمنوا النَّصر عندما قالوا : بل الماء ، الماء ، الماء ! و انقضوا على سفن المسلمين بدافع الأمل بالتصَر ، مستهدفين توجيه ضربة أولى حاسمة يحطِّمون بها شوك الأسطول الإسلاميَّ ، فنقض الرُّؤوم صفوف المسلمين المحاذية لسفنهما ، وصار القتال كيماً اتفق وكان قاسياً على الطرفين ، وسالت الدَّماء غزيرة ، فاصطبيت بها صفحة الماء ، فصار أحمر . وترامت الجثث في الماء وتساقطت فيه ، وضررت الأمواج السُّفن حتى ألجأتها إلى السَّاحل ، وقتل من المسلمين الكثير ، وقتل من الرُّؤوم ما لا يحصى ، حتى وصف المؤرخ البيزنطي (ثيوفانس) هذه المعركة بأنَّها كانت يرموها ثانيةً على الرُّؤوم (٢) ، ووصفها الطَّبريُّ بقوله : إنَّ الدَّم كان غالباً على الماء في هذه المعركة (٣) . حاول الرُّؤوم أن يغرقوا سفينته القائد المسلم عبد الله بن أبي سرح ؛ كي يبقى جند المسلمين دون قائد ، فتقدَّمت من سفينته سفينة رومية ، ألتَّ إلى سفينته عبد الله السَّلاسل لتسحبها ، وتنفرد بها ، ولكنَّ علقة بن يزيد الغطيفي أنقذ السَّفينتين ، والقائد ، بأنَّ ألقى بنفسه على السَّلاسل وقطعها بسيفه (٤) .

(١) ذات الصَّواري ، ص (٦٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/٢٩٣) .

(٤) ذات الصَّواري ، ص (٦٨) .

وصد المُسلمون رغم كل شيء ، وصبروا كعادتهم في معارضهم ، فكتب الله - عز وجل - لهم النّصر بما صبروا ، واندحر ما تبقى من الأسطول الژولي ، وكاد الأمير قسطنطين أن يقع أسيراً في أيدي المسلمين ، كما ذكر ابن عبد الحكم ، لكنه تمكّن من الفرار لِمَارأى قوته تنهار ، وحيث جنده على سطح الماء تلقى بها الأمواج إلى الساحل ، لقد رأى أسطوله - الذي تأمل فيه خيراً ، ونصراً ، وإعادة كرامة - يغرق قطعة بعد قطعة ، ففر مدبراً ، والجراحات في جسمه ، والحسنة تأكل فؤاده ، يجرّ خيبة ، وفشلًا ، فوصل جزيرة صقلية^(١) ... وألقت الريح هناك ، فسألها أهلها عن أمره ، فأخبرهم ، فقالوا : شمت النّصريّة ، وأفنيت رجالها ، لو دخل المُسلمون لم نجد من يردهم^(٢) فقتلوه ، وخلوا من كان معه في المراكب^(٣) .

● نتائج ذات الصواري :

- ١- كانت ذات الصواري أول معركة حاسمة في البحر خاضها المُسلمون ، أظهر فيها الأسطول الفتى الصّابر ، والإيمان ، والجلد ، والفكر السليم ، بما تفتّق عنه الذهن الإسلامي من خطّة جعلت المعركة صعبة على أعدائهم ، فاستحال عليهم اختراق صفوف المسلمين بسهولة ، كما استخدم المُسلمون خطاطيف طويلة يجرّون بها صواري ، وشرع الأعداء ، الأمر الذي انتهى بكارثة بالنسبة للروم .
- ٢- كانت ذات الصواري حدّاً فاصلاً في سياسة الرؤوم إزاء المسلمين ، فأدركوا فشل خططهم في استرداد هويتهم ، أو استرجاع مصر ، أو الشّام ، وانطلق المُسلمون في عرض هذا البحر ، الذي كان بحيرة رومية ، وانتهى اسم (بحر الرؤوم) إلى الأبد ، واستطاع المُسلمون فتح قبرص ، وكريت ، وكورسيكا ، وسردينيا ، وصقلية ، وجزر البليار ، ووصلوا إلى جنوة ، ومرسيليا .
- ٣- قُتل قسطنطين ، فتولى ابن قسطنطين الرابع من بعده ، وكان حدثاً صغير السنّ ، مما جعل الظروف مواتية لقيام حملة بحرية ، وبريّة إسلاميّة تستهدف روما (القسطنطينية) فيما بعد .
- ٤- الإعداد الروحي قبل المعركة ، أو ما يسمى بالتجييه المعنوي في أيامنا هذه ، له قيمته في تحقيق النّصر ، حيث تتجه القلوب إلى الله بصدق ، فهذا المؤمن الذي بات ليله في تهجد ، وذكر ، يستمد العون من الله ، من عظمته ، وعزّته ، بعد أن هيأ الأسباب ، يلقى الأعداء بروح

(١) تاريخ ابن خلدون (٤٦٨/٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) ذات الصواري ، ص (٦٨) .

عالية لا يهاب الموت ، فالله أكبر من كل شيء ، وهذه المعارك التي تصف أحداثها التاريخية ، هي وصفة طيبة نعرضها للتطبيق ، والنهج ، لنتستفيد منها في حياتنا ، فحياة الصحابة ما هي إلا للقدوة ، وسيرة للاطّاب^(١) .

٥- أصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية ، وصار الأسطول الإسلامي سيد مياه البحر المتوسط ، وهذا الأسطول ليس للتسلط ، والقرصنة ، بل للدعوة إلى الله ، وكسر شوكة المشركين ، ونشر الحضارة المنتقة عن كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ .

٦- عكف المسلمون على دراسة علوم البحريّة ، وصناعة السفن ، وكيفية تسليحها ، وأسلوب القتال من فوقيها ، وعلوم الفلك المتصلة بتسييرها في البحار ومعرفة مواقعهم على المصوّرات البحريّة المختلفة - فيما بعد - فعرفوا الأسطولاب (البوصلة الفلكيّة) وطورواها إلى المدى الذي استفاد منه بعد ذلك البحار الغربيون أمثال : كرستوف كولومبس ، وأمريكيو فيسبوشي في اكتشافاتهم^(٢) .

٧- لقد كانت هذه المعركة مظهراً من مظاهر تفوق العقيدة الصحيحة الصلبة على الخبرة العسكريّة ، والتفوق في العدد ، والعُدُّ ، فلقد كان الرؤوم هم أهل البحر منذ القدم ، وقد مروا بتجارب طويلة في الحروب البحريّة ، بينما كان المسلمون حديثي عهدين بركوب البحر ، والقتال البحريّ ، ولكن الله - تعالى - أعلى المسلمين عليهم برغم التفوق المذكور ؛ لأنَّه سبحانه قد سحر أولئك المؤمنين لنشر دينه ، وإعلاء كلمته في الأرض ، وإنَّ ممَّا يُشاد به في هذه المعركة قوة قائلها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ورباطه جأشه ، ومقدرته الجيِّدة على إدارة الحروب ، وهي بعد ذلك لوْنٌ من ألوان رسالة المسلمين ، واستقائهم في الحروب في سبيل إعزاز دينهم ، ورفع شأن دولتهم^(٣) .

سادساً : أهم الدُّرُّوس ، وال عبر ، والفوائد في فتوحات عثمان رضي الله عنه :

١- تحقيق وعد الله للمؤمنين :

قال ابن كثير في حديثه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : . . . ففتح الله على يديه كثيراً من الأقاليم ، والأمصار ، وتوسّعت المملكة الإسلامية ، وامتدت الدولة المحمدية ، وبلغت الرسالة المصطفوية في مشارق الأرض وغاربها ، وظهر للناس مصدق قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ

(١) ذات الصواري ، ص (٧٢ ، ٧١) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (٧٦) .

(٣) التاريخ الإسلامي (٤٠٧/١٢) .

الَّذِينَ أَمْنَوْا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي أَرْضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَتَنِيقُونَ» [النور: ٥٥]. قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُلُّهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» [التوبه: ٣٣]. قوله عليه السلام: «إذا هلك قيسر فلا قيسير بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذي نفسي بيده ! لِتُنْفَقَنَ كُنُوزُهُما في سبيل الله»^(١).

وهذا كله تحقق وقوعه ، وتأكد وتوطد في زمان عثمان رضي الله عنه^(٢).

٢- التطور في فنون الحرب والسياسة :

كانت الحروب تنشأ بين الشعوب من أجل قطعة من الأرض ، يراد تملّكها ، أو بسبب اعتداء يقع على بلد ، أو قبيلة ، ولكنها في عهد النبوة والعهد الرّاشدي أصبحت بسبب المبادئ ، فال المسلمين يريدون أن تكون عقيدتهم هي السائدة والمهيمنة في الأرض ، فاصطدمت بعقائد فاسدة ، ومنحرفة ، كعوائد المشركين ، والمجوس ، على أن هذا لم يكن كل شيء في التطور الحربي ، بل نجد لوناً جديداً آخر ، وهو ما كان يعرضه المجاهدون المسلمين على أعدائهم من : الإسلام ، أو الجزية ، أو المناجزة ، ونتج عن تلك الفتوح سياسة فذة أرضت جميع الشعوب ، إلا من كان في قلبه حقد على العدل ، والمساواة ممّن كانت تحذّفهم نفوسهم بالفتن ، والعصيان ، وهؤلاء اضطربوا المسلمين أحياناً إلى الشدة معهم ، والتنكيل بهم^(٣).

٣- بدء التجنيد الإلزامي في عهد عمر رضي الله عنه ، واستمراره في عهد عثمان رضي الله عنه :

كانت معركة القادسية من أسباب اتخاذ الفاروق لقرار التجنيد الإلزامي ، فقد أمر عمّاله على الأقاليم بإحضار كل فارسٍ ذي نجدة ، أو رأي ، أو فرسٍ ، أو سلاح ، فإن جاء طائعاً ، وإن حشروه حشراً ، وقادوه مقادراً ، واستعجلهم في ذلك بحزمه المشهور قائلاً : لا تدعوا أحداً إلا وجهتموه إليّ ، والعجل ، العجل^(٤) ! وكان عمر يفكّر في التجنيد الإلزامي الموقوف للجهاد ، فلما دوّن الديوان ، ورتب للمسلمين أرزاقهم السنوية ؛ خرجت فكرته إلى حيز الوجود ،

(١) مسلم ، كتاب الفتنة ، رقم (٢٩١٨ - ٢٩١٩).

(٢) البداية والنهاية (٢١٦/٧).

(٣) عصر الخلفاء الرّاشدين ، د . عبد الحميد بخيت ، ص (٢١٦).

(٤) إتمام الوفاء ، ص (٧٠).

واقترن نشأة الديوان بنشأة التجنيد النظامي الرسمي ، وحدّدت للجنود النظاميين عطاياهم ، ورواتبهم من بيت مال المسلمين ، وعندما أذن عثمان لمعاوية بالغزو بحراً ؛ أمره أن يخّير الناس ، ولا يكرههم ، حتّى لا يذهب أحد إلى هذا الضرب من الغزو إلا طائعاً مختاراً ، أمّا التجنيد برأي إتمام حركة الفتوح فقد ظل في عهده إلزامياً على أصحاب الرؤائب ، والأرزاق من الجنود النظاميين^(١) .

٤- اهتمام عثمان بحدود الدولة الإسلامية :

ترتّب على توسيع الدولة الإسلامية في عهد عثمان رضي الله عنه الاستمرار في سياسة تحصين الثغور لحفظ حدود الدولة الإسلامية من مهاجمة الأعداء سواءً كان ذلك بشحنها بالجند المرابطين ، أو بناء الحاميات الدّفاعية المختلفة بها ، فكان أول كتاب كتبه عثمان بن عفان رضي الله عنه في خلافته لأمراء الأجناد في الثغور لحماية حدود الدولة الإسلامية قوله : أمّا بعد : فإنكم حماة المسلمين ، وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنّا ، بل كان على ملاً منّا ، ولا يبلغني عن أحدٍ منكم تغيير ، ولا تبدل فيغير الله ما بكم ، ويبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فإليّ أنظر فيما أكرمني الله النّظر فيه ، والقيام عليه^(٢) .

وتسهيلاً ، وتيسيراً للعملية الإدارية جمع الخليفة عثمان رضي الله عنه لمعاوية ابن أبي سفيان الشّام ، والجزيرة ، وولاية ثغورهما في إدارة موحّدة ، وكلّه بغزو ثغر شمشاط بنفسه ، أو أن يولّي ذلك من يرتضيه من كبار قواه من أصحاب الخبرة ، والشّجاعة الرّاغبين في الجهاد ، وال الحرب مع الروم^(٣) ، كما كتب أيضاً لمعاوية بن أبي سفيان أن يلزم ثغر أنطاكية قوماً ، وأن يقطعهم القطاع به ، ففعل ذلك^(٤) .

وكان رضي الله عنه يهتمُ بأمر الثغور ، ويعيث مَنْ يستعلم له عن بعضها^(٥) ، وعندما غزا معاوية بن أبي سفيان عموريّة ، وجد الحصون التي فيها بين ثغر أنطاكية ، وثغر طرسوس خالية من مقاتلة الروم ، فجعل بها جماعة من جند الشّام ، والجزيرة ، وقنسرين ، وأمرهم بالوقوف عندها لتحمي ظهره أثناء انسحابه وانصرافه من غزواته ، ثم أغزى بعد ذلك بستة ، أو ستين يزيد بن الحّر العبيسي^(٦) الصّائف ، وأمره بفعل الشيء نفسه ، وكانت ولادة الصّوائف ، والشّوائي إذا

(١) النّظم الإسلامية ، لصحي الصالح ، ص (٤٨٩) .

(٢) تاريخ الطّبرى (٥ / ٢٤٤) .

(٣) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٢ / ٤٦٦) .

(٤) فتوح البلدان (١ / ١٧٥) .

(٥) الخراج لابن قدامة ، ص (٤١٣) .

(٦) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٢ / ٤٦٧) .

دخلوا بلاد الروم ، فعلوا ذلك حيث يختلفون بها جنداً كثيفاً إلى خروجهم من أرض العدو^(١) ، وقد أبلى معاوية بن أبي سفيان في أثناء إدارته للسواحل الشامية ، وفي تحصينها بلاً حسناً^(٢) .

وكتب عثمان رضي الله عنه لعبد الله بن سعد بن أبي السرح يأمره بالحفظ على ثغر الإسكندرية بإلزام الجندي المرابط به ، وأن يجري عليهم أرزاقهم ، وأن يعقب بين المرابطين من أجل : أنه لا يضرُّ بهم التجمير ، فقال له : قد علمت كيف كان همُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالإسكندرية ، وقد نقضت الروم مرأتين ، فألزم الإسكندرية مرابطتها ، ثمَّ أجر عليهم أرزاقهم ، وأعقب بينهم في كلٍّ ستة أشهر^(٣) .

وكان من عادة قادة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا تقدّموا في الفتح ، واستولوا على حصون العدو ؛ قاموا بترميمها كمن سبقهم من القادة ، ثمَّ إسكانها جند المسلمين من المرابطين بالإضافة إلى استحداثهم لتحقسيناتٍ دفاعيةٍ جديدةٍ ، فمن تلك الحصون التي قام بترميمها معاوية بن أبي سفيان حصن الفرات ، وهي : سميساط^(٤) ، وملطية^(٥) ، وشمساط ، وكمخ^(٦) ، وقاليقلا^(٧) ، وهي حصنٌ استولى عليها المسلمون عند فتحهم لأرمينية في عهد عثمان رضي الله عنه وقاموا بترميمها ، وإسكانها الجند^(٨) .

ففي قاليقلا قام القائد حبيب بن مسلمة الفهري^(٩) بإسكان ألفيِّي رجل ، وأقطعهم بها القطائع ، وجعلهم مرابطين بها^(١٠) ، وقد كلف الخليفة عثمان رضي الله عنه القائد حبيب بن مسلمة بأن يقيم بثغور الشَّام ، والجزيرة لإدارتها ، وحمايتها^(١١) ، وعندما فتح البراء بن عازب رضي الله عنه ثغر قزوين ؛ رَبَّ فيهم خمسةٌ مائةٌ رجلٌ من جند المسلمين ، وعيّن عليهم قائداً ، وأقطعهم أرضاً ، وضياعاً لاحقاً فيها لأحد ، فعمروا ، وأجروا أنهارها ، وحرقوا آبارها^(١٢) ،

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) فتح مصر ، ص (١٩٢) .

(٤) سميساط : مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربى الفرات .

(٥) ملطية : من بلاد الروم مشهورة مذكورة تناخم الشَّام ، وهي للمسلمين .

(٦) كمخ : مدينة بالروم بينها وبين أرزنجان يوم واحد . معجم البلدان (٤/٤٧٩) .

(٧) قاليقلا : بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ، ثمَّ من نواحي مازجود .

(٨) من تاريخ التحسينات ، لمحمد عبد الهادي ، ص (٤٣٤) .

(٩) فتح البلدان (١/٢٣٤) .

(١٠) المصدر السابق نفسه ، ص (١/٢٤١) .

(١١) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٢/٤٦٩) .

وحيث فتح سعيد بن العاص طميسة^(١)؛ جعل بها مراقبةً من ألفي رجلٍ ، وعيّن عليهم قائداً^(٢) ، إلى غير ذلك من التّحصينات التي أنشئت بالغور في إدارة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه والتي كانت تشحن بالجند لحماية حدود الدولة الإسلامية^(٣) .

وعني الخليفة عثمان رضي الله عنه في إدارته بأمر الصّوائف ، والشّواتي ، حيث عمل على تسخيرها ، وتسهيل أمرها في كلّ عام ، وكان يتولاها كبار قادته ، وولاته ، أمثال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه الذي بنى جسراً بمنجع^(٤) ، لمرور الصّوائف عليه ، فلم يكن قبل إذ . وقد فوض عثمان رضي الله عنه واليه معاوية في غزو الروم ، وتولّي قيادة الصّائفة من يختاره ، فولّى معاوية سفيان بن عوف الذي لم يزل على الصّوائف في عهد عثمان رضي الله عنه . ولم تقتصر حملات الصّوائف ، والشّواتي على الحدود البرية ، بل شملت كذلك البحر في عهد عثمان رضي الله عنه^(٥) .

٥- قسمة الغنائم بين أهل الشّام وال伊拉克 :

استطاع حبيب بن مسلمة أن يهزم الروم في أرمينية قبل وصول مدد الوليد بن عقبة من الكوفة ، وغنم أهل الشّام غنائم كثيرةً ، وبعد وصول مدد أهل الكوفة اختلفوا في أمر الغنائم مما جعل حبيباً يكتب بذلك إلى معاوية ، فكتب معاوية إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه يخبره بذلك ، فحكم عثمان بن عفان رضي الله عنه على أهل الشّام أن يقاسموا أهل العراق ما غنموا من تلك الغنائم ، فلماً ورد كتاب الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه على حبيب بن مسلمة قرأه على جند أهل الشّام ، فقالوا: السّمع ، والطّاعة لأمير المؤمنين ، ثم إنّهم قاسموا أهل العراق ، وغنموا^(٦) .

٦- الحرص على وحدة الكلمة في مواجهة العدو :

في عهد عثمان رضي الله عنه استخلف عبد الله بن عامر على خراسان قيس بن الهيثم السُّلْميَّ ، حيث خرج منها فجمع (قارن) جمعاً كثيراً من ناحية الطبسين ، وأهل بادغيس ، وهراء ، وقهستان ، فأقبل في أربعين ألفاً ، فاستشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم قائلاً له : ما

(١) طميسة : بلدة من سهول طبرستان .

(٢) الإداره العسكريه في الدولة الإسلامية (٤٦٩/٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه (٤٧٠/٢) .

(٤) منجع : بلد قديم .

(٥) الإداره العسكريه في الدولة الإسلامية (٤٧٠/٢) .

(٦) الفتوح ، ابن أثيم (٣٤١/١ ، ٣٤٢) .

ترى ؟ قال : أرى أن تخلي البلاد ، فإنّي أميرها ، ومعي عهد من ابن عامر : إذا كانت حرب بخراسان ؛ فأنا أميرها - وأخرج كتاباً قد افتעהه عمداً - فكره قيس مشاغبته ، وخلاله والبلاد^(١) . أحبّ قيس بن الهيثم بفعله هذا أن يجمع الكلمة بدلاً من تفرقها حتى لا يحدث الفشل ، والوهن للجنود ، ف تكون الهزيمة ، وقد تم النّصر للمسلمين على الأعداء بحمد الله^(٢) .

٧- شرط ما يحتاج إليه الجنود في بنود الصلح :

في عهد عثمان رضي الله عنه زادت الفتوحات الإسلامية اتساعاً ممّا جعل قادته يشتّرون في بعض عهودهم للصلح بأن تكون من الموارثي ، والطّعام ، والشراب لإعداد ما يحتاج إليه الجيش من زاد ، وتموين ، وميرة حتى تساعدهم في فتوحاتهم ، فلا يتتكلّفون عناء حمل الميرة من القيادة المركزية ، ويستغون عن طلبها ؛ ليكونوا على الحرب أوفر ، وعلى منازلة العدو أقدر^(٣) .

٨- جمع المعلومات عن الأعداء :

استمرّت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكان رضي الله عنه يهتمُ بالأخبار ، ويتقصّاها بنفسه^(٤) ، وسار قادته على منوال من سبقهم من القادة بالاعتناء بأمر العيون ، وتقصيّي أخبار العدو^(٥) ، كما أئّهم جعلوها شرطاً من شروط المعاهدات بينهم وبين المعاهدين ، حيث طلبوا منهم بأن ينصحوا ، وينذروا المسلمين بسير عدوّهم إليهم ، وتعاونتهم بأن يكونوا عليهم جواسيس ، وإبلاغ المسلمين بتحرّكاتهم^(٦) .

٩- عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي من قادة الفتوح في عهد عثمان :

كان عبد الرحمن قائداً عَقدِيَاً من الطّراز الرَّفيع ، وكان لِتمسّكه الشّديد بعقيدته موضع ثقة رؤسائه ومرؤوسيه على حد سواء ، بالإضافة إلى شجاعته ، وإقدامه ، وعلمه بأمور الدين ؛ لذلك بقي قائداً لمنطقة (باب الأبواب) ووالياً عليها منذ وفاة سُراقة بن عمرو حتى استشهد ، ولم يعزل من منصبه على الرّغم من تبدل الخلفاء ، وتغيير الولاية ، والقاده في الكوفة مرجع عبد الرحمن المباشر ، وكان عبد الرحمن يؤمّن بوسائل حرب الفرسية الشريفة ، فلا يخون ، ولا

(١) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (١٨٩/١) نقلًا عن تاريخ الطّبرى .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) تاريخ اليعقوبي (١٦٦، ١٦٧/٢) .

(٤) الطّبقات (٣/٥٩) .

(٥) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٤٠٣/١) .

(٦) المصدر السابق نفسه .

يغدر ، ولا يضرب من الخلف^(١) ، وكان لسيرته الحسنة في منطقة (باب الأبواب) وجنوب بحر الخزر ، وغريه أثُرٌ أثُرٌ في استقرار الأمور ، واستتاب الأمان ، والنظام في تلك الربوع ، فأصبحت تلك المناطق قاعدةً أماميةً لنشر الإسلام ، والفتح شمالاً ، فثبت الإسلام في تلك الأصقاع النائية في وجه مختلف المحن ، والتيارات منذ أربعة عشر قرناً حتى اليوم^(٢) .

ومن مواقفه الخالدة التي سطّرها على صفحات التاريخ ، عندما خرج بالناس حتى قطع (الباب) فقال له الملك شهريار : ماذا ت يريد أن تصنع ؟ قال : أريد (بلنجر) والترك . قال : إنّا لنرضى منهم أن يدعونا من دون (الباب) ، قال عبد الرحمن : لكنّا لا نرضى منهم ذلك حتى نأتيهم في ديارهم . وتالله إِنَّ معاً لأقواماً لو يأذن أميرنا في الإمعان ؛ لبلغت فيهم (الرّدم)^(٣) ، قال الملك : وما هو ؟ فأجابه عبد الرحمن : أقوامٌ صحبوا رسول الله ﷺ ، ودخلوا في هذا الأمر بنية ، كانوا أصحاب حياء ، وتكريم في الجاهلية ، فزاداد حياؤهم ، وتكريمهم ، فلا يزال هذا الأمر دائمًا لهم ، ولا يزال النّصر معهم حتى يغبّرهم منْ يغلبهم ، وحتى يلتفتوا عن حاليهم^(٤) ، وقد غزا عبد الرحمن (بلنجر) غزاةً في زمن عمر بن الخطاب ، فقال الترك : ما اجترأ علينا إلا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت ، فهرب منه الترك ، وتحصنوا ، فرجع بالعنيمة ، والظفر ، بعد أن بلغ بخيله (البيضاء) على رأس مئتي فرسخٍ من (بلنجر) ، وعادوا ولم يقتل منهم أحد^(٥) .

ومن الواضح : أنَّ معنيّيات المسلمين كانت عاليةً جداً ، لتابع انتصارهم ، ولمسكهم بدينهن ، كما أنَّ معنيّيات الأمم التي حاربواها كانت منهاًرة ؛ لأنَّ المسلمين غلبوا الأمم التي قاتلواها ، لذلك هرب الأتراك من المسلمين ، وتحصنوا ، فلم يحدث قتالٌ فعلٌ في هذه الغزو ، فلم يسقط من المسلمين شهيد^(٦) ، لقد كان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي على جانب عظيمٍ من التّقوى ، والخلق الكريم ، وكان تصرُّفه مع المغلوبين له الأثر في استتاب الأمان ، واستقرار النّظام ، وانتشار الإسلام ، فقد كان وفيًاٌ غایة الوفاء ، أمنياً غایة الأمانة ، فقد أرسل ملك (الباب) رسولاً إلى ملك (الصّين) مع هدايا - وذلك قبل أن يفتح المسلمون بلاده - فعاد رسوله من رحلته بعد فتح المسلمين لتلك البلاد ، وكان مع الرّسول العائد هدايا من ملك الصّين ، بينها ياقوتةٌ حمراء ثمينةٌ ، وكان ملك (الباب) حين عودة رسوله في مجلس عبد

(١) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص (١٥٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (١٥٦) .

(٣) الرّدم : قيل : سد الصّين .

(٤) الكامل لابن الأثير (٣٠-٢٩/٣) . وتاريخ الطّبرى (١٤٦/٥) .

(٥) تاريخ الطّبرى (١٤٦/٥) .

(٦) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص (١٥٠) .

الرَّحْمَن ، فتناول الملك من رسوله تلك الياقوتة ثُمَّ ناولها عبد الرَّحْمَن ، ولكن عبد الرَّحْمَن رَدَّها فوراً إلى الملك بعد أن نظر إليها ، فهتف الملك متأثراً ، وقال : « لهذه - يعني الياقوتة - خيرٌ من هذا البلد - أي باب الأبواب - وایم الله ! لأنتم أحبُّ إِلَيَّ حَكَاماً من آل كسرى ، فلو كنتُ في سلطانهم ، ثُمَّ بلغهم خبرها ، لانتزعنها مِنِّي ! وایم الله ! لا يقوم لكم شيء ما وفيتم ، وَوَفَى ملَكُكُمُ الْأَكْبَرِ »^(١) .

كان من حق ملك مدينة (الباب) وما حولها أن يعجب أشدَّ العجب ، ويدشن أشدَّ الدهشة بأمانة القائد المسلم ، ووفاته ، فقد عاش هذا الملك عمره كله في دَوَامَةٍ عنيفةٍ من الخيانة ، وفي جوٍّ مشحون بالغدر ، فلما رأى أمانة المسلمين المثلثة ، ووفاءهم المطلق ، لم يتمالك نفسه أن نسي ملكه المضاع ، وملوكيه الغابرين ، فعبرَ عن شعوره بكلماتٍ خارجةٌ من أعماق قلبه إعجاباً بما يرى ، ويسمع من أمانة ، ووفاء^(٢) .

كان عبد الرَّحْمَن يعلم : أنَّ الاستيلاء على الياقوتة التي لا تقدر بثمنٍ ليس من حقه شخصياً ولا من حق بيت مال المسلمين ، فكانت تلك الياقوتة والثُّراب عنده سِيَانٌ ؛ فقد كان عبد الرَّحْمَن كريماً ، ماضياً ، شهماً ، غيوراً ، ورعاً ، تقيناً ، متافقاً في الدين ؛ لا يملك شيئاً من حطام الدنيا على الرغم من أنه قضى أكثر عمره غازياً ، ووالياً ، وقد استشهد في عام اثنين وثلاثين للهجرة في منطقة (بنجر)^(٣) ، ويعتبر عبد الرَّحْمَن بن ربيعة الباهلي من قادة الفتح في عهد عثمان رضي الله عنه وقد كانت له صحبةٌ وقد أسلم متأخراً .

١٠- سلمان بن ربيعة الباهلي من قادة الفتوح في عهد عثمان :

كان هذا الصَّحابي الجليل أول من قضى بالكوفة ، فقد بعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضياً بالكوفة قبل شُرُيع ، فلما ولَّي سعد بن أبي وقاص الكوفة الولاية الثانية في أيام عثمان بن عفان ؛ استقضى سلمان أيضاً ، وقد شهد القادسية ، فقضى بها ، ثم قضى بـ(المدائن) ، وليس كُلُّ إنسان يصلح للقضاء خاصةً أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أو يصلح لأهل الكوفة التي كانت حينذاك تعجُّ برجالات العرب ، وكبار الصحابة من جهة ، وبأخلالٍ شَتَّى من أمم ، وأقوام ، وقبائل مختلفةٍ من جهة أخرى ، وهذا دليلٌ على غزارة علم سلمان بالدين الحنيف ، واستقامته ، وعدله ، وتدينه ، وتمتعه بعقليةٍ راجحةٍ متّزنةٍ ، وشخصيةٍ قويةٍ نافذةٍ ، مما جعله موضع ثقة الناس جميعاً ، كما أنه تولَّ المقاسم في فتح (المدائن) وفي غزوة (الباب) أيضاً ،

(١) تاريخ الطَّبرِي (١٤٨/٥) .

(٢) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص (١٥٤) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

مما يدل على تمتعه بالنزاهة المطلقة ، كان رجلاً صالحًا ، يحج كل سنة ، روى عنه بعض كبار التابعين ، وكان مثالاً نادراً للخلق القويم : كريماً ، مضيافاً ، شهماً ، غوراً ، وقتاً صادقاً ، محباً للخير ، يحب الناس ما يحبه لنفسه ، ولم يترك حين استشهاده ديناراً ، ولا داراً ، بعد أن عاش كل حياته مجاهداً ، وقاضياً ، وأميراً .

وكان متفوقاً على زملائه في الصفات القيادية ، فعندما بعث عثمان بن عفان رضي الله عنه كتاباً إلى الوليد بن عقبة عامله على الكوفة ، يأمره به أن يرسل نجدة من أهل الكوفة إلى أهل الشام بقيادة رجلٍ من ترضي نجده ، وبأسه ، وشجاعته ، وإسلامه ، لم يتربّد الوليد لحظةً في اختيار سلمان لهذا الواجب البالغ الخطورة ، فاختاره من بين عددٍ كبيرٍ من القادة أصحاب الفتوح ، والأئم الذين كانوا معه ، أو كانوا في الكوفة ، ذلك لأنَّ سلمان كان حقاً مثالاً رائعاً من أمثلة النجدة ، والباس ، والشجاعة بالإضافة إلى ورعه وتقواه ، لقد كان شجاعاً مقداماً سريعاً إلى النجدة ، خبيراً بفنون الحرب ؛ لمارسته الطويلة لها ، وله تجارب طويلة في قيادة الرجال ، وكان أبصر بالمضارب من الجازر بمقابل العجوز^(١) ، مما يدل على أنه كان من الرؤساء الماهرين ، وكان ماهراً في الفروسية ، خبيراً بالخيل ، وكان يلي الخيل لعمراً ابن الخطاب رضي الله عنه ، وكان عمر قد أعد في كل مصر من أمراء المسلمين خيلاً كثيرةً معدةً للجهاد ، وكان في الكوفة أربعة آلاف فرس ، فإذا داهم العدو التغور الإسلامية ؛ ركبها المسلمون المجاهدون ، وساروا مجددين لقتاله^(٢) ، وكان سلمان يتولى الخيل بالكوفة^(٣) .

وكان شجاعاً في فروسية ، قال سلمان : « قلت بسيفي هذا مئة مستئمٍ^(٤) ، كلُّهم يعبد غير الله ، ما قلت رجالاً منهم صبراً » .

إنه لا يقتل حتى عدوه الكافر بالله - الذي يعبد غير الله - لا يقتله في ساحة القتال صبراً ، بل يذدره ، ثم يصاوله مصاولة الأنداد ، ويقتله عندما يجد فرصة لقتله ، فلا يكون هذا القتل غدرًا ، ولا يكون صبراً^(٥) ، لقد كان مثالاً للمجاهد الصادق ، المحتبس ؛ الذي يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا ، لا يبالي على أيِّ جنب كان في الله مصرعه ، وأخيراً سقط مصرجاً بدمائه ولم

(١) تهذيب ابن عساكر (٦/٢١٠) . وتاريخ الطبرى (٥/٣٠٩) .

(٢) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص (١٦٩) .

(٣) أسد الغابة (٢/٣٢٧) .

(٤) المستئم : الجندي الذي ليس عدته وأصبح جاهزاً للقتال .

(٥) الاستيعاب (٢/٦٣٣) .

يسقط السيف من يده ، إنَّه قدوة حسنة لكل جندي ، ولكل قائد في ماضيه المشرف المجيد ، وفي أعماله الفذة الخالدة^(١) .

هذا ؛ وقد استشهد سنة اثنين وثلاثين هجرية ، أو سنة ثلاثة وثلاثين هجرية^(٢) ، « الفقيه المحدث ، القاضي العادل ، الأمين النزيه ، الإداري الحازم ، الفارس المغوار ، البطل الشهيد ، القائد الفاتح سلمان بن ربيعة الباهلي »^(٣) .

١١- حبيب بن مسلمة الفهرئي من قادة الفتوح في عهد عثمان :

كان حبيب على صغر سنه يتنقل من ساحة عملياتٍ أخرى ، فاتحاً مرّةً ومدداً مرّةً أخرى ، وكان النّصر حليفه في كلّ معركة خاضها ، قدم على البَيْتَ الْكَاظِمِ وهو بالمدينة غازياً ، وكان يومئذ صغيراً ، وشهد غزوة تبوك تحت لواء الرّسول - عليه أفضض الصّلاة والسلام - وبهذه الغزوة بدأ جهاده ، وهو يناهز العشرين من عمره القصير^(٤) ، وحين رأه عمر بن الخطاب صلب العود ، وقوىّ البدن ، جرّبه تجربةً عمليةً ليرى أيّ نوع من الرجال هو ، فعرض عليه خزائن المال ، وخزائن السلاح ، فاختار السلاح ، وعفّ عن المال ، وتفضيل السلاح على المال من مزايا القائد الذي يتغلغل حبُّ الجندي في أعماق نفسه ، وقد توّلى قيادة كردوس في معركة (اليرموك) الحاسمة وهو ابن أربع وعشرين سنةً ، مما يدلُّ على ظهور سماته القيادية مبكراً ، وهو في ريعان الشباب ، وولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عجم (الجزيرة) إدارياً ، وقادها ، وليس من السهل أن يولي عمر كلّ إنسان مثل هذا المنصب الرفيع ؛ لأنّ عمر كان يتلزم بصفاتٍ معينةٍ في القائد قلّ أن تتوفر في الرجال ، وأخيراً ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أرمينية) و(أذريجان) ، وهي مناطق شاسعةٌ ، وقيادة مهمةٌ للغاية ؛ نظراً لشدة شكيمية أهلها ، ولبعدها عن قواعد المسلمين الرئيسية ، والمتقدمة^(٥) ، ومارس القيادة والإدارة في عهد عثمان رضي الله عنه ، ولقد كان شجاعاً غاية الشجاعة ، مقداماً غاية الإقدام : لمّا توجه لقتال (الموريان) كان في ستة آلاف ، وكان (الموريان) في سبعين ألفاً ، فقال حبيب لمن معه : إن يصبروا ، وتصبروا فأنتم أولى بالله منهم ، وإن يصبروا وتجزعوا فإنَّ الله مع

(١) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص (١٧٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (١٧١) .

(٣) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص (١٧٢) .

(٤) كان عمره يوم تولى منصب قيادة منطقة الجزيرة وإدارتها (٢٨) سنة .

(٥) تولى (أرمينية) و(أذريجان) وعمره ثلاثة وثلاثون سنة .

الصَّابِرِينَ ، وَلِقِيْهِمْ لِيَلًا ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ جَلَّ لَنَا قُمْرَهَا ، وَاحْبِسْ عَنَّا مَطْرَهَا ، وَاحْقِنْ دَمَاءَ أَصْحَابِي ، وَاکْتَبْهُمْ شَهِدَاءَ ! فَفَتْحُ اللَّهِ لَهُ^(١) .

فكان من أسباب انتصاره على عدوه بالإضافة إلى عامل الإيمان هو الهجوم الليلي ؛ الذي باعثت به العدو ، وجعل معنوياته تنهار ، ثم يولي الأدبار^(٢) ، وكان مثالاً شخصياً حيال رجاله من الشجاعة ، والإقدام ، فقد كان يقود رجاله من الأمام . يقول لهم : اتبعوني ، ولا يبقى في الخطوط الخلفية مؤثراً للسلامة ، والعاافية ، وحين عزم أن يُبيت (الموريان) سمعته أمرأته يذكر ذلك ، فقالت له : وأين الموعد ؟ فقال : سرادق موريان ، أو الجنة . وَبَيْتُ حَبِيبِ عَدُوِّهِ ، وقتل من صادفه في طريقه ؛ فلما أتى السُّرَادِقَ ؛ وجد امرأته قد سبقته إليها^(٣) ، فلم يكن وحده بطلاً يضرب لرجاله بأعماله البطولية أروع الأمثال ، بل كانت امرأته بطلاً يقتفي الأبطال آثارها في التضحية ، والفاء^(٤) .

وكان يستشير رجاله ، ويتقابل مشورتهم ، وكان لا يستأثر بالرأي دونهم ، بل كان يتنصل ، ليتلقي آراء رجاله ، ويطبق ما رأه حسناً ، وينفذ ما يجده صواباً ، بالإضافة إلى عقد مؤتمرات السُّورِي قبل المعارك ، وفي أثنائها ، وبعدها ، فقد سمع يوماً أحد رجاله يقول : لو كنت ممَّن يسمع حبيب مشورته ؛ لأشرت عليه بأمرٍ يجعل الله فيه لنا ، ولو نصراً ، وفرجاً إن شاء الله ، واستمع حبيب لقوله ، فقال أصحابه : وما مشورتك ؟ فقال : أشير عليه أن ينادي بالخيول ، فيقدمها ، ثم يرتحل بعسكره فيتبع خيله ، وتوافيه الخيل في جوف الليل وينشب القتال ، ويأتיהם حبيب بسواد عسكره مع الفجر ، فيظلون أنَّ المدد قد جاءهم ، فيوعيهم الله ، فيهزهم بالرعب^(٥) ، ونادي حبيب بالخيول ، فوجهاً بليلة مقرمة مطيرة ، ثم ارتحل وراء خيوله ، ولكنَّه عاد إلى عدوه في السحر ، فحمل ، وحمل أصحابه ، فانهزم العدو ، وأصابوا أنائم كثيرة^(٦) .

كان حبيب صاحب كيد ، يفكّر ، ويقدّر ، ثم يستشير رجاله ، ويستطلع ساحة القتال ، ويحصل على المعلومات المستفيضة عن العدو ، ثم يبني بعد ذلك خطَّه العسكريَّة على هدى وبصيرة . إنَّ أعمال حبيب الجهادية خططٌ مدبرةٌ ، ولم تكن خططاً ارتجالية ، لذلك رافق النصرُ أعلامه في أخطر ساحات القتال في الفتح ، وبالإضافة إلى تلك المزايا ، أو قبلها كان حبيب

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٧) .

(٢) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص (١٨٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٧) .

(٦) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص (١٩٠) .

مؤمناً صادق بالإيمان ، وكان إذا لقي عدواً ، أو ناهض حصناً يحب أن يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١) .

لقد كان حبيب قائداً فذاً ، جمع مزايا القائد الفذ : الطبع الموهب ، والعلم المكتسب ، والتجربة العملية^(٢) ، والثقة بالله القوي العزيز .

إنَّ حبيب بن مسلمة أسدى للفتح الإسلاميِّ خدماتٍ لا تُنسى ، فهو بدون شكٍّ من ألمع قادة الفتوح في عهد عثمان رضي الله عنه وقد توفي هذا القائد الفذ سنة اثنين وأربعين هجرية ، فكان عمره يوم توفي أربعاً وخمسين سنة قمريةً ، وكانت حياته قليلة في تعداد السنّوات ، كثيرةً في تعداد جلائل الأعمال ، قصيرةً في عمر الرَّمَن ، باقيةً آثارها على مرِّ الدهور وتولى السُّنين والقرون ، رضي الله عن الصَّحابيِّ الجليل ، الإداريِّ الحازم ، السياسيِّ ، المحنك القائد الفاتح حبيب بن مسلمة الفيوري^(٣) .

* * *

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٧) .

(٢) قادة الفتح الإسلاميِّ في أرمينية ، ص (١٩٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (١٨٧) .

المبحث الرابع

أعظم مفاحر عثمان جمع الأمة على مصحف واحدٍ

أولاًً : المراحل التي مرَّت بها كتابة القرآن الكريم :

١- المرحلة الأولى : في العهد النبوي :

ثبت بالدليل القاطع : أنَّ رسول الله ﷺ كان يأمر بكتابته القرآن ؛ الذي ينزل عليه ، وثبت : أنَّه كان له كاتبٌ ، أو كُتابٌ يكتبون الوحي ، حتى شُهر زيد بن ثابتٍ بلقب (كاتب النبي ﷺ) لاختصاصه بكتابة الوحي) . ويُوبَ الْبَخَارِيُّ في كتاب (فضائل القرآن) (باب كَتَابَ النَّبِيِّ ﷺ) وذكر فيه حديثين :

الأول : أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه قال لزيد : إِنَّكَ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ^(١) .

والثاني : عن البراء ، قال : لَمَّا نَزَّلَتِ الْأَيْسَرَى الْقَتَدِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [النساء : ٩٥] قال النبي ﷺ : « ادْعُ لِي زِيدًا ، وليجيءُ بِاللَّوْحِ ، وَالدَّوَّاهَ ، وَالكَّتْفَ ، أَوَ الْكَتْفَ ، وَالدَّوَّاهَ »^(٢) وكان النبي ﷺ يكتب القرآن في مكة أيضاً قبل الهجرة ، وممَّن كتب له عبد الله بن سعد بن أبي السَّرْح ، ثُمَّ ارتَدَّ ، ثُمَّ أسلم عام الفتح ، وله في ذلك قصَّة مشهورةٌ - قد ذكرتها - والمعروف أنَّ الخلفاء الرَّاشِدِينَ الأربعة كانوا يكتبون القرآن في مكة ، وممَّا يدلُّ على أنَّ القرآن كان مكتوباً في مكة قصَّة إسلام عمر بن الخطَّاب ، ودخوله على أخيه ، وبiederها صحيفَة فيها سورة طه ، وقد أعلم الله تعالى في القرآن الكريم بأنه - أي : القرآن - مجموع في الصحف في قوله تعالى : « رَسُولُ مِنَ اللَّهِ يَنْلُو أَحْمَافًا مُطَهَّرَةً » [البينة : ٢] .

وقد توفَّى رسول الله ﷺ ، والقرآن كُلُّه مكتوبٌ ، لكنَّه غير مجموع في موضعٍ واحدٍ . وكان مكتوباً على العُسب ، واللَّخَاف ، ومحفوظاً في صدور الرِّجال ، ومع حفظه في الصُّحف ، وفي الصُّدور كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ كلَّ عامٍ مَرَّةً ، فعرض عليه مرتين في العام الذي قُبض فيه^(٣) . ويحتمل : أنَّ النبي ﷺ لم يجمع القرآن في مصحفٍ ؛ لما كان يتربَّه من

(١) الْبَخَارِيُّ ، كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ ، رَقْمُ (٤٩٨٦) .

(٢) الْمُصْدَرُ السَّابِقُ نَفْسُهُ ، كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ ، رَقْمُ (٤٥٩٣) .

(٣) الْمُصْدَرُ السَّابِقُ نَفْسُهُ ، كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ ، رَقْمُ (٤٩٩٨) .

ورود ناسخ لبعض أحكامه ، أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ ؛ ألمم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاءً لوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة المحمدية^(١) .

٢- المرحلة الثانية : في عهد أبي بكر رضي الله عنه :

كان من ضمن شهداء المسلمين في حرب اليمامة كثيرٌ من حفظة القرآن ، وقد نتج عن ذلك أن قام أبو بكر رضي الله عنه بمشورة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجمع القرآن ؛ حيث جمع من الرّقّاع ، والّعظام ، والسعف ، ومن صدور الرّجال^(٢) ، وأسند الصديق هذا العمل العظيم إلى الصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ، يروي زيد بن ثابتٍ رضي الله عنه فيقول : بعث إلى أبي بكر رضي الله عنه لمقتل أهل اليمامة^(٣) ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إنَّ عمر أتاني ، فقال : إنَّ القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنِّي أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن^(٤) كلُّها ، فيذهب كثيرٌ من القرآن ، وإنِّي أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ ! فقال عمر : هذا والله خير ! فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لِلذِّي شرح له صدر عمر ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : وإنَّك رجلٌ شابٌ عاقلٌ ، ولا نَهَمْك^(٧) ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتبَّعَ القرآن ، فاجتمعه^(٨) .

قال زيد : فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان يأثقل عليَّ مما كلفني به من جمع القرآن ! فتبَّعَت القرآن من العُسُب^(٩) ، واللُّخاف^(١٠) ، وصدر الرّجال ، والرّقّاع ، والأكتاف^(١١) . قال : حتى وجدت آخر سورة التّوينة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحدٍ غيره . «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

(١) المدينة النبوية فجر الإسلام ، والعرض الرشادي ، ص (٢٤٠) نقاً عن فتح الباري (٩/١٢) .

(٢) حروب الرّدة وبناء الدولة الإسلامية ، لأحمد سعيد ، ص (١٤٥) .

(٣) يعني : وقعة يوم اليمامة ضد مسلمة الكذاب ، وأعوانه .

(٤) استحرَّ : كثراً وشتدَّ .

(٥) أي : في الأماكن التي يقع فيها القتال مع الكفار .

(٦) يحتمل أن يكون إنَّما لم يجمع القرآن في المصحف .

(٧) هذه الصفات التي جعلت زيداً يتقدَّم على غيره في هذا العمل .

(٨) أي : من الأشياء التي عندك ، وعند غيرك .

(٩) العُسُب : هو جريد التّخلي .

(١٠) اللُّخاف : جمع لخفة ، وهي صفات الحجارة .

(١١) الرّقّاع : جمع رقعة ، وهي قطع الجلد ، الأكتاف : جمع كتف ، وهو العظم الذي للبعير ، أو الشَّاة .

بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّجِيمٌ [التوبه : ١٢٨] حتى خاتمة براءة ، وكانت الصحف عند أبي بكر في حياته حتى توفاه الله ، ثم عمر في حياته حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر ، رضي الله عنهم^(١) .

● ونستخلص من المرحلة الثانية في جمع القرآن بعض النتائج :

- أن جمع القرآن الكريم جاء نتيجة الخوف على ضياعه ؟ نظراً لموت العديد من القراء في حروب الردّة ، وهذا يدل على أن القراء ، والعلماء كانوا وقتئذ أسرع الناس إلى العمل ، والجهاد لرفع شأن الإسلام ، وال المسلمين بأفكارهم ، وسلوكهم ، وسيوفهم ، فكانوا خير أمة أخرى جرت للناس ينبغي الاقتداء بهم لكل من جاء بعدهم .

- أن جمع القرآن تم بناء على المصلحة المرسلة ، ولا أدل على ذلك من قول عمر لأبي بكر حين سأله : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ إله خير ، وفي بعض الروايات : أنه قال له : إله والله خير ، ومصلحة للمسلمين ، وهو نفس ما أجاب به أبو بكر زيد بن ثابت حين سأله نفس السؤال . وسواء صحت الرواية التي جاء فيها لفظ المصلحة ، أو لم تصح ، فإن التعبير بكلمة « خير » يفيد نفس المعنى ، وهو مصلحة المسلمين في جمع القرآن ، مبنياً على المصلحة المرسلة أول الأمر ، ثم انعقد الإجماع على ذلك بعد أن وافق الجميع بالإقرار الصريح ، أو الضمني ، وهذا يدل على أن المصلحة المرسلة يصح أن تكون سندًا للإجماع بالنسبة إلى من يقول بحجيتها كما هو مقرر في كتب أصول الفقه .

- وقد أوضح لنا من هذه الواقعة كذلك كيف كان الصحابة يجتهدون في جو من الهدوء يسوده الود ، والاحترام ، هدفهم الوصول إلى ما يحقق الصالح العام لجماعة المسلمين ، وأنهم كانوا ينقدون إلى الرأي الصحيح ، وتنشرح قلوبهم له بعد الإقناع ، والاقتناع ، فإذا اقتنعوا بالرأي دافعوا عنه كما لو كان رأيهم منذ البداية ، وبهذه الروح أمكن انعقاد إجماعهم حول العديد من الأحكام الاجتهادية^(٢) .

● ما المقومات الأساسية لزيد بن ثابت للقيام بهذه المهمة ؟

اختار أبو بكر رضي الله عنه زيد بن ثابت لهذه المهمة العظيمة ، وذلك لأنّه رأى فيه المقومات الأساسية للقيام بها ، وهي :

أ- كونه شاباً ، حيث كان عمره ٢١ سنة ، فيكون أنشط ، لما يطلب منه .

ب- كونه أكثر تأهيلًا ، فيكون أوعى له ؛ إذ من وحبه الله عقلًا راجحاً ، فقد يسر له سبيل الخير .

(١) البخاري ، رقم (٤٩٨٦) .

(٢) الاجتهد في الفقه الإسلامي ، عبد السلام السليماني ، ص (١٢٧) .

ج - كونه ثقةً ، فليس هو موضعًا للتهمة ، فيكون عمله مقبولاً ، وتركته إليه النفس ، ويطمئن إلى القلب .

د - كونه كاتباً للوحي ، فهو بذلك ذو خبرة سابقة في هذا الأمر ، وممارسة عملية له ، فليس غريباً عن هذا العمل ، ولا دخيلاً عليه^(١) .

ه - ويضاف لذلك أنه أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ ، فعن قتادة ، قال : سألت أنس بن مالك رضي الله عنه : من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ ؟ قال : أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبوزيد^(٢) ، وأمام الطريقة التي اتبّعها زيد في جمع القرآن ، فكان لا يُثبّت شيئاً من القرآن إلا إذا كان مكتوباً بين يدي النبي ﷺ ، ومحفوظاً من الصحابة ، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة ، خشية أن يكون في الحفظ خطأً ، أو وهم ، وأيضاً لم يقبل من أحدٍ شيئاً جاء به إلا إذا أتى معه شاهدان يشهدان : أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ ، وأنه من الوجوه التي نزل بها القرآن^(٣) ، وعلى هذا المنهج استمر زيد رضي الله عنه في جمع القرآن حذراً ، متثبتاً ، مبالغًا في الدقة والتحرّي^(٤) .

● الفرق بين المكتوب في العهد النبوي ، وعهد الصديق :

الفرق بين المكتوب في العهد النبوي ، وما كتب في عهد أبي بكر : أن القرآن كان مكتوباً في العهد النبوي ، مفرقاً في الصحف ، والألواح ، والعُسْب ، والكرانيف ، والقصب ، وأدوات أخرى ، ولم تكن مجموعة سوره في خيط واحد . . وأمام الذي تم في أيام أبي بكر ، فهو كتابة القرآن في صحف ، كل سورة ، أو سوري في صحيفه مرتبة آياته على ما حفظوه عن رسول الله ﷺ ، وكانت مهمة زيد بن ثابت ، أن يكتب ما كان مكتوباً في العهد النبوي في صحف ، كل سورة في صحيفه مرتبة فيها الآيات ترتيباً توقيفياً^(٥) .

٣- المرحلة الثالثة في جمع القرآن : في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه :

● الباعث على جمع القرآن في عهد عثمان :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضي الله عنه وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية ، وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في

(١) التفوق والنّجاعة على نهج الصحابة ، حمد العجمي ، ص (٧٣) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٤٣١/٢) .

(٣) التفوق والنّجاعة على نهج الصحابة ، حمد العجمي ، ص (٧٤) .

(٤) الانصراف ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق ، ص (٣٠٦) .

(٥) المدينة فجر الإسلام والعاصر الراشدي (٢٤١/٢) .

القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنّصارى ! فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصّحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الرّبّير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنهم فنسخوها في المصاحف .

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصّحف في المصاحف ؛ رد عثمان رضي الله عنه الصّحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كلّ أقى بمصحفٍ مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحفة ، أو مصحف أن يُحرق^(١) .

ويؤخذ من هذا الحديث الصحيح أمور منها :

أ- أنَّ السَّبَبَ الحَامِلَ لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى جَمْعِ الْقُرْآنِ مَعَ أَنَّهُ كَانَ مَجْمُوعًا ، مَرْتَبًا في صحف أبي بكر الصديق ، إنما هو اختلاف قراء المسلمين في القراءة اختلافاً أو شك أن يؤدي بهم إلى أخطر فتنٍ في كتاب الله تعالى ، وهو أصل الشريعة ، ودعاة الدين ، وأساس بناء الأمة الاجتماعي ، والسياسي ، والأخلاقي ، حتى إن بعضهم كان يقول لبعضٍ : إن قراءتي خيراً من قراءتك ، فأفرز ذلك حذيفة ، ففرز فيه إلى خليفة المسلمين ، وإمامهم ، وطلب إليه أن يدرك الأمة قبل أن تختلف ، فيستشيري بينهم الاختلاف ، ويتفاهم أمره ، ويعظم خطبه ، فيمسّ نص القرآن ، وتُحرَّف عن مواضعها كلماته ، وأياته ، كالذي وقع بين اليهود ، والنّصارى من اختلاف كلّ أمة على نفسها في كتابها .

ب- أنَّ هذا الحديث الصحيح قاطعٌ بأنَّ القرآن الكريم كان مجموعاً في صحفٍ ومضموماً في خطيب ، وقد اتفقت كلمة الأمة اتفاقاً تاماً على أنَّ ما في تلك الصّحف هو القرآن كما تلقته عن النبي ﷺ في آخر عرضٍ على أمين الوحي جبريل عليه السلام ؛ وأنَّ تلك الصّحف ظلت في رعاية الخليفة الأول أبي بكر الصديق ، ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، ثم لما عرف عمر حضور أجله ولم يولّ عهده أحداً معيناً في خلافة المسلمين ، وإنما جعل الأمر شورى في الرهط المصطفين بالرضا من رسول الله ﷺ ؛ أوصى بحفظ الصّحف عند ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وأنَّ عثمان اعتمد في جمعه على تلك الصّحف ، وعنها نقل مصحفه (الرّسمي) وأنَّه أمر أربعةً من أشهر قراء الصحابة إتقاناً لحفظ القرآن ، ووعياً لحروفه ، وأداء

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، رقم (٤٩٨٧) .

لقراءاته ، وفهمها لغيره ولغته : ثلاثة قرشيين ، واحداً أنصارياً ، وهو زيد بن ثابت صاحب الجمع الأول في عهد الصديق بإشارة الفاروق .

وفي بعض الروايات : أنَّ الَّذِينَ أَمْرُوهُمْ عُثْمَانَ أَنْ يَكْتُبُوا مِنَ الْصُّحْفِ اثْنَا عَشْرَ رَجُلًا ، فِيهِمْ أَبْيَّ بْنَ كَعْبٍ ، وَآخَرُونَ مِنْ قَرِيشٍ ، وَالْأَنْصَارِ^(١) .

ج - ونأخذ من هذا : أنَّ الفتوحات في عهد عثمان كانت بإذنِ ، وأمر من الخليفة ، وأنَّ القرار العسكري يصدر من المدينة ، وأنَّ الولايات الإسلامية كلَّها كانت خاضعةً لأمر الخليفة عثمان في عهده ، بل يدلُّ على أنَّ هناك إجماعاً من الصحابة ، والتابعين في جميع الأقاليم على خلافة عثمان ، وقدوم حذيفة بن اليمان إلى المدينة ، لرفع اختلاف الناس في قراءة القرآن ، يدلُّ على : أنَّ القضايا الشرعية الكبرى كان يُستشار فيها الخليفة في المدينة ، وأنَّ المدينة ما زالت دارَ السنة ، ومجمع فقهاء الصحابة^(٢) .

ثانياً : استشارة جمهور الصحابة في جمع عثمان :

جمع عثمان رضي الله عنه المهاجرين ، والأنصار ، وشاورهم في الأمر ، وفيهم أعيان الأمة ، وأعلام الأئمة ، وعلماء الصحابة ، وفي طليعتهم عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، وعرض عثمان رضي الله عنه هذه المعضلة على صفوَة الأمة ، وقادتها الهدادين المهددين ، ودارسهم أمرها ، ودارسوه ، وناقشهم فيها ، وناقشوه ، حتَّى عرف رأيهم ، وعرفوا رأيه ؛ فأجابوه إلى رأيه في صراحة لا تجعل للرَّيب إلى قلوب المؤمنين سبيلاً ، وظهر للناس في أرجاء الأرض ما انعقد عليه إجماعهم ، فلم يُعرَف قطُّ يومئذ لهم مخالفٌ ، ولا عرف عند أحدٍ نكيرٌ ، وليس شأن القرآن الذي يخفى على أحد الأمة فضلاً عن علمائها ، وأئمتها البارزين^(٣) .

إنَّ عثمان رضي الله عنه لم يبتدع في جمعه المصحف ، بل سبقه إلى ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، كما أنَّه لم يصنع ذلك من قبل نفسه ، إنَّما فعله عن مشورة للصحابه رضي الله عنهم ، وأعجبهم هذا الفعل ، وقالوا : نعمَّ ما رأيت ! وقالوا : أيضاً : قد أحسن - أي : في فعله في المصاحف^(٤) .

وقد أدرك مصعب بن سعيدٍ صحابة النبي ﷺ حين مشق^(٥) عثمان رضي الله عنه المصاحف ،

(١) عثمان بن عفان لصادق عرجون ، ص (١٧١) .

(٢) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي (٢/٢٤٤) .

(٣) عثمان بن عفان ، لصادق عرجون ، ص (١٧٥) .

(٤) فتنة مقتل عثمان بن عفان (١/٧٨) .

(٥) مشق : يقال : مشق في الكتابة ؛ أي : مدَّ حروفها ، وجوَّدتها ، فالخط مشق ، وممشوق .

فرآهم قد أعجبوا بهذا الفعل منه^(١) ، وكان عليٌّ رضي الله عنه ينهى من يعيّب على عثمان رضي الله عنه بذلك ، ويقول : يا أيها الناس ! لا تغلوا في عثمان ، ولا تقولوا له إلا خيراً - أو قولوا خيراً - فوالله ما فعل الذي فعل - أي في المصاحف - إلا عن ملأ منا جميعاً ؛ أي : الصحابة . . . والله لو وليت ؛ لفعلت مثل الذي فعل^(٢) .

وبعد اتفاق هذا الجمع الفاضل من خيرة الخلق على هذا الأمر المبارك ؛ يتبيّن لكلٍّ متجردٍ عن الهوى : أنَّ الواجب على المسلم الرِّضا بهذا الصَّنْع الذي صنعه عثمان رضي الله عنه وحفظ به القرآن الكريم^(٣) .

قال القرطبي في التفسير : وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار ، وجلة أهل الإسلام ، وشاورهم في ذلك ، فاتّفقوا على جمعه بما صحّ ، وثبت من القراءة المشهورة عن النبي ﷺ ، واطّرح مساواها ، واستصويبوا رأيه ، وكان رأياً سديداً موفقاً^(٤) .

ثالثاً : الفرق بين جمع الصديق ، وجمع عثمان رضي الله عنهما :

قال ابن التين : الفرق بين جمع أبي بكر ، وجمع عثمان : أنَّ جمع أبي بكر كان لخشته أن يذهب شيءٌ من القرآن بذهاب حملته ؛ لأنَّه لم يكن مجموعاً في موضع واحدٍ ، فجمعته في صحائف مرتبًا لآيات سوره على ما وفهم عليه النبي ﷺ ، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة ، حتَّى قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدَّى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض ، فخشى من تفاقم الأمر في ذلك ، فنسخ تلك الصحف في مصحفٍ واحدٍ مرتبًا لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتاجاً بأنَّه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسَع في قراءته بلغة غيرهم دفعاً للحرج والمشكفة في ابتداء الأمر ، فرأى : أنَّ الحاجة قد انتهت ، فاقتصر على لغة واحدة .

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني : لم يقصد أبو بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين ، إنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ ، وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحفٍ لا تقديم فيه ، ولا تأخير ، ولا تأويلٍ أثبَتَ مع تنزيلٍ ، ولا منسوخ تلاوته كُتب مع مُثبِّتٍ لِرَسْمِه ومفروضٍ قراءته ، وحفظه ؛ خشية دخول الفساد والتشبهة على من يأتي بعده .

وقال الحارث المحاسبي : المشهور عند الناس : أن جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك

(١) التَّارِيخ الصَّغِير للبخاري (٩٤/١) إسناده حسنٌ لغيره .

(٢) فتح الباري (١٨/٩) إسناده صحيح .

(٣) فتنَة مقتل عثمان بن عفان (٧٨/١) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨٨/١) .

إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجهه واحد على اختياره وقع بينه وبين من شهد من المهاجرين ، والأنصار ؛ لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق ، والشام في حروف القراءات ، فأماماً قبل ذلك ، فقد كانت المصاحف بوجوه القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن ، فأماماً السالب إلى جمع الجملة ، فهو الصديق ، وقد قال عليٌّ رضي الله عنه : لو وليت ؛ لعملت بالمصاحف التي عمل بها عثمان^(١) .

وقال القرطبي : فإن قيل : مما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك ، وفرغ منه ؟ قيل له : إن عثمان رضي الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة : أن أرسل إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ؟ وإنما فعل ذلك عثمان ، لأن الناس اختلفوا في القراءة ، لتفرق الصحابة في البلدان ، واشتد الأمر في ذلك ، وعظم اختلافهم ، وتشبّههم ، وقع بين أهل الشام ، والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه^(٢) .

رابعاً : هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة ؟

ذهب الشيخ المحقق صادق عرجون - رحمه الله - إلى أنَّ : صحف الصديق التي كانت أصلاً للمصحف الإمام ياجماع المسلمين لم تكن جامعة للأحرف السبعة ؛ التي وردت صحاح الأحاديث بإنزال القرآن عليها، بل كانت على حرفٍ منها؛ هو الذي وقعت به العرضة الأخيرة، واستقرَّ عليها الأمر في آخر حياة رسول الله ﷺ ، وإنما كانت الأحرف السبعة أولاً من باب التيسير على الأمة ، ثمَّ ارتفع حكمها لمَّا استفاض القرآن ، وتمازج الناس ، وتوحدت لغاتهم ، قال الإمام الطحاويُّ : إنما كانت السَّعَة للناس في الحروف؛ لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم؛ لأنَّهم كانوا أميين، لا يكتب إلا القليل منهم، فلما كان يشقُّ على كل ذي لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة - وُسِّع لهم في اختلاف الألفاظ ؛ إذا كان المعنى متفقاً، فكانوا كذلك حتَّى كثُر منهم مَنْ يكتب، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ ، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه ، فلم يسعهم حينئذ أن يقرؤوا بخلافها . قال ابن عبد البرُّ : فبان بهذا : أن تلك السَّبعة الأحرف إنما كانت في وقتٍ خاصٍ لضرورة دعت إلى ذلك ، ثمَّ ارتفعت تلك الضرورة ، فارتفع حكم هذه السَّبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرفٍ واحد^(٣) .

وقال الطبرىُّ : إن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة ، وإنما كان جائزًا

(١) عثمان بن عفان لصادق عرجون ، ص (١٧٨) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/٨٧) .

(٣) عثمان بن عفان لصادق عرجون ، ص (١٨٠) .

لهم ، ومرئيًّا لهم فيه ، فلما رأى الصحابة : أنَّ الأمة تفترق ، وتختلف إذا لم يجتمعوا على حرفٍ واحدٍ - أجمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً ، وهم معصومون من الضلاله^(١) .

وهذا الحرف الذي كتبت به صحف الإجماع القاطع ، ونقل عنها المصحف الإمام - جامع القراءات القراء الستة ، وغيرها ، مما يقرأ به الناس ، ونُقل متواتراً عن رسول الله ﷺ ، لأنَّ الأحرف الواردة في الحديث غير هذه القراءات^(٢) .

قال القرطبي : قال كثير من علمائنا كالداودي ، وابن أبي صفرة ، وغيرهما : هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها ، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذي جمع عليه المصحف^(٣) ، وأقرب الآراء إلى الفهم - عند ظننا - في معنى الأحرف إنما هو الرأي القائل بأنها هي أفعى لغات العرب ، وأشهرها ، وهي مشوهة في القرآن كله ، وإليه ذهب القاسم بن سلام ، وابن عطيه في جماعة من الأجلاء ، وإليه يرجع نحو سبعة أقوال مما ذكره السيوطي في الإنقان في معنى الأحرف^(٤) .

خامساً : عدد المصاحف التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار :

لما فرغ عثمان رضي الله عنه من جمع المصاحف ، أرسل إلى كلٍّ أفقِ بمصحفٍ ، وأمرهم أن يحرقوا كلَّ مصحف يخالف المصحف الذي أرسله إلى الأفاق ، وقد اختلفوا في عدد المصاحف التي فرقها في الأمصار ، فقيل : إنَّها أربعة؛ وهو الذي اتفق عليه أكثر العلماء ، وقيل : إنَّها خمسة ، وقيل : إنَّها ستة ، وقيل : إنَّها سبعة ، وقيل : ثمانية ، أما كونها أربعة ؛ فقيل : إنَّه أبقى مصحفاً بالمدينة ، وأرسل مصحفاً إلى الشام ، ومصحفاً إلى الكوفة ، ومصحفاً إلى البصرة ، وأمَّا كونها خمسة؛ فالأربعة المتقدم ذكرها ومصحفاً لأهل مكة ، وأمَّا كونها ستة فالخمسة المتقدمة ، والستادس اختلف فيه ، فقيل : جعله خاصاً لنفسه ، وقيل : أرسله إلى البحرين .

وأمَّا كونها سبعة؛ فالستة المتقدم ذكرها ، والسابع أرسله إلى اليمن ، وأمَّا كونها ثمانية؛ فالسبعة المتقدم ذكرها ، والثامن كان لعثمان يقرأ فيه ، وهو الذي قتل ، وهو بين يديه^(٥) ، وبعث رضي الله عنه مع كلِّ مصحفٍ من يرشد النَّاس إلى قراءته بما يحمله رسمه من القراءات مما صح ، وتواتر ، فكان عبد الله بن السائب مع المصحف المكي ، والمغيرة بن شهاب مع

(١) عثمان بن عفان لصادق عرجون ، ص(١٨٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧٩ / ١) .

(٤) الإنقان للسيوطى (١٤٤ / ١) إلى (١٤٨) .

(٥) أضواء البيان في تاريخ القرآن ، ص (٧٧) .

المصحف الشامي ، وأبو عبد الرحمن السلمي مع المصحف الكوفيّ ، وعامر بن قيس مع المصحف البصريّ ، وأمر زيد بن ثابت أن يقرئ الناس بالمدنيّ^(١) .

سادساً : موقف عبد الله بن مسعود من مصحف عثمان :

لم يثبت أنَّ ابن مسعود رضي الله عنه خالف عثمان في ذلك ، وكلُّ ما روي في ذلك ضعيف الإسناد ، كما أنَّ هذه الروايات الضَّعيفة التي تتضمَّن ذلك ثبتت : أنَّ ابن مسعود رضي الله عنه رجع إلى ما اتفق عليه الصَّحابة في جمع القرآن ، وأنَّه قام في النَّاس ، وأعلن ذلك ، وأمرهم بالرجوع إلى جماعة المسلمين في ذلك^(٢) . وقال : إِنَّ اللَّهَ لَا ينزعَ الْعِلْمَ اِنْزَاعًا ، ولكن ينتزعُه بذهاب العلماء ، وإنَّ اللَّهَ لَا يجمعُ أُمَّةً مُحَمَّدٌ عَلَى ضَلَالٍ ، فجامعوهم على ما اجتمعوا عليه ، فإنَّ الْحَقَّ فِيمَا اجتمعوا عَلَيْهِ . . وكتب بذلك إلى عثمان^(٣) ، وقد ورد عن ابن كثير رجوع ابن مسعود إلى الوفاق^(٤) ، وأكَّدَ الْدَّهْبَيُّ ذلك ، فقال : وقد ورد أنَّ ابن مسعود رضي وتابع عثمان ، والله الحمد^(٥) .

ولا يلتفت إلى ما كتبه طه حسين في قضية المصحف ، وعلاقة عثمان مع ابن مسعود ، وما ساقه بأسلوب مسوم ، فيه أفكارٌ أخذها من أساتذته المستشرين^(٦) والذين اعتمدوا على رواياتٍ ضعيفةٍ ، وإماميةٍ في تشويه علاقة الصَّحابة ببعضهم ، رضي الله عنهم جميعاً .

إنَّ ابن مسعود رضي الله عنه الذي ترك صلاة القصر في منى خشيةً من الخلاف ، والفتنة ، ومتابعةً للخليفة ، هل يتوقع منه أن يصعد المنبر ، ويحرّض الناس على الخلاف ، وهو القائل : إنَّ الخلاف شرٌ^(٧) .

إنَّ مؤرِّخي إمامية زوروا روايات ، ونسبوها لابن مسعود ، وموقفه من عثمان ، رضي الله عنهم ، وأظهروا - في تلك الأكاذيب - الصَّحابة قوماً متنازعين ، متباغضين ، متعنتين ، متفاحسين في القول ، وهي رواياتٌ ساقطةٌ لا تثبت أمام النَّقد الهادئ الموضوعيّ ، ويرفضها

(١) المصدر السابق نفسه ، ص (٧٨) .

(٢) فتنة مقتل عثمان بن عفان (٧٨/١) .

(٣) المصدر السابق نفسه (٧٩/١) .

(٤) البداية والنهاية (٢٢٨/٧) .

(٥) سير أعلام البلاء (٣٤٩/١) .

(٦) الفتنة الكبرى (١٥٩/١) .

(٧) فتنة مقتل عثمان بن عفان (٨٠/١) .

الذوق المؤمن ، والعقل الفطن^(١) ، وقد زعم بعضهم كذباً ، وزوراً ؛ بأنَّ ابن مسعودٍ كان يطعن على عثمان ، ويُكفرُه ، ولما حكم عثمان ، ضربه حتَّى مات ، وهذا كذبٌ بَيْنَ على ابن مسعودٍ ، فإنَّ علماء النقل يعلمون أنَّ ابن مسعود ما كان يُكفرُ عثمان ، بل لما بُويع عثمان بالخلافة سار عبد الله بن مسعود من المدينة إلى الكوفة ، ولمَّا وصل إليها ؛ حمد الله ، وأثنى عليه ثمَّ قال : أمَّا بعد فإنَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب مات - فلم نر يوماً أكثر نشيجاً من يومئذ - وإنَّا اجتمعنا أصحابَ محمد ، فلم نأْلُ عن خيرنا ذي فُوقٍ ، فباعينا أمير المؤمنين عثمان ، فباعوه^(٢) .

وهذه الكلمات الواضحات أكبر دليل على تلك المكانة الرَّفيعة لعثمان بن عفَّان في قلب ابن مسعودٍ ، وعند جميع الصحابة ، أولئك الذين مدحهم الله تعالى ، ورضي عنهم ، وهم خَيْرُ مَنْ فِيهِ قُوله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا أَنْقَلُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب : ٧٠] .

فقول عبد الله بن مسعود صدقٌ لا يعدو الحقيقة ، كما أَنَّه نابع عن قناعته ، وصادِرٌ عن محض إرادته ، ما قاله خوفاً ، ولا خشيةً ، ولم يقتد به هكذا رخيصاً للاستهلاك ، والتغريب ، أو ليحوز مكانةً ، ومنصباً من الخلافة الجديدة ، وإذاً فمن بدويات الأمور ، وأولئك أنها أن ليس ثمة حقدٌ ، أو بغضاء في قلب أحدهما على الآخر ، وإذا حدث شيءٌ فإِنَّما هو من أجل الحق ، وصالح المسلمين^(٣) ، ويندرج تحت فقه النَّصيحة ، وآدابها وتأديب الخليفة لرعيَّته ، وأمَّا ما زعم الإمامية ، ومن سار على نهجهم من أنَّ عثمان ضرب ابن مسعود حتَّى مات ، فهذا كذبٌ باتفاق أهل العلم ، قال أبو بكر بن العربي : وأمَّا ضربه لابن مسعود ، ومنعه عطاءه ؛ فزور^(٤) . فلا وجه للرافضة بالطَّعن على عثمان بقصة ابن مسعود هذه ، فإنه لم يضربه عثمان ، ولم يمنعه عطاءه ، وإنَّما كان يعرف له قدره ، ومكانته ، كما كان ابن مسعود شديد الالتزام بطاعة إمامه ؛ الَّذِي بايع له ، وهو يعتقد : أَنَّه خير المسلمين وقت البيعة^(٥) .

سابعاً : فَهُمُ الصَّحَابَةُ لِآيَاتِ النَّهْيِ عَنِ الْخَلْفَافِ :

قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّهُوْ وَلَا تَنِعُوا السَّبِيلَ فَنَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَدَّكُمْ بِهِ لَكُلَّكُمْ تَنَقُّونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] فالصِّراط المستقيم هو : القرآن ، والإسلام ،

(١) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عبد السنَّار الشَّيخ ، ص (٣٣٥) .

(٢) طبقات ابن سعد (٦٣/٣) .

(٣) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عبد السنَّار الشَّيخ ، ص (٣٢٤) .

(٤) العاصم من القواصم ، ص (٦٣) .

(٥) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام (١٠٦٦/٣) .

والنقطة التي فطر الله الناس عليها ، والسبيل هي : الأهواء ، والفرق ، والبدع ، والمحاذيات ، قال مجاهد : «**وَلَا تَبِعُوا أَسْبِيلَ**» ، يعني : البدع ، والشبهات ، والضلالات^(١) .

ونهى الله - سبحانه وتعالى - هذه الأمة عمّا وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف ، والتفرق من بعد ما جاءتهم البينات ، وأنزل الله إليهم الكتب ، فقال سبحانه : «**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَرُوا وَأَخْتَلُفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**» [آل عمران : ١٠٥] .

ونهى الأمة أن تكون من المشركيين ، الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيئاً ، فقال عز من قائل : «**فَأَفَمْ وَجَهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفًا فَطَرَ اللَّهُ أَلَّى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي
الْفَقِيرُ وَلَذِكْرُ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**» [٦٧] مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَأَنْقُوهُ وَأَقْمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ [٦٨] مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا يُشَيِّعُونَ كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدِيهِمْ فَرِحُونَ» [الروم : ٣٢-٣٠] .

وأخبر سبحانه وتعالى : أنَّ الرَّسُول ﷺ بريءٌ من الذين يفرقون دينهم ، ويكونون شيئاً ، وأحزاباً^(٢) ، قال تعالى : «**إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا يُشَيِّعُونَ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ
يُنَتَّهُمُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**» [الأنعام : ١٥٩] .

ويظهر من قصة جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه مدى فهم الصحابة رضي الله عنهم لآيات الله عن الاختلاف ، حيث إنَّ الله نهى عن الاختلاف وحدَّ منه ، فلعمق فهمهم لهذه الآيات ارتعد حذيفة رضي الله عنه عندما سمع بوادر الاختلاف في قراءة القرآن ، فرحل فوراً إلى المدينة النبوية ، وأخبر عثمان رضي الله عنه بما رأى ، وبما سمع ، فسرعان ما قام عثمان بخطب الناس ؛ يحدّرهم من مغبة هذا الخلاف ، ويشاور الصحابة رضي الله عنهم في الحلّ لهذه المحتنة التي بدأت بالظهور ، وفي مدةٍ قصيرةٍ يجسم الأمر ، ويعغل بباب الخلاف الذي كاد أن ينفتح بجمع الصحف ، ونسخها في مصحفٍ واحدٍ من المصادر الموثوقة جداً ، ويعاغل بباب الفتنة هذا فرج المسلمين ، بينما اغتاظ المنافقون الذين كانوا قد استبشروا ببودر الخلاف التي كانوا يتظرونها بفارغ الصبر ، ويسعون إلى تحقيقها ، ولما حسم الخلاف ، ولم يجد أولئك طريقةً إلى استنهاضه ، ازداد حقدهم على عثمان رضي الله عنه ، وسعوا في التشنيع عليه وتصوير حسته هذه سيئةً ، وتلمّسوا في سبيل إثبات ذلك خيوط العنكبوت الواهية ؛ ليطعنوا فيه ويسوّغوا خروجهم عليه بها ، مظهرين للناس : أنَّ هذه الحسنة سيئةً ، تستوجب الخروج عليه^(٣) .

إن الصحابة رضي الله عنهم لم يتركوا كل قارئ على قراءته الصحيحة ، بل جمعوهم على

(١) تفسير مجاهد ، ص (٢٢٧) .

(٢) دراسات في الأهواء والفرق والبدع ، ناصر العقل ، ص (٤٩) .

(٣) فتنة مقتل عثمان بن عفان (٨٢/١) .

قراءة واحدة ، فاجتمع شملهم وتوحد صفهم ، وهذا درس عظيم نستلهمه من دراستنا للتاريخ عهد الخلفاء الراشدين ، العاشر بالعبر والدروس ومواطن القدوة^(١) .

قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يُرْضِي لَكُمْ ثُلَاثًا : أَنْ تَعْبُدُوهُ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحِبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تُنْفِرُّ قَوْمًا ، وَأَنْ تَنَاصِحُوا مِنْ وَلَاهُ اللَّهُ أَمْرُكُمْ »^(٢) .

إِنَّ طَرِيقَ الاعتصام بِحِبْلِ اللَّهِ أَنْ نَلْتَزِمَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسَنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ ، وَهَذَا الْأَصْلُ مِنْ أَكْدَى الْأَصْوَلِ فِي هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ ، يَقُولُ ابْنُ تِيمِيَّةَ - رَحْمَةُ اللَّهِ - : وَهَذَا الْأَصْلُ الْعَظِيمُ : وَهُوَ الْإِسْلَامُ مَمَّا عَظَمَتْ وَصَيَّبَهُ تَعَالَى بِهِ فِي كِتَابِهِ ، وَمَمَّا عَظَمَ ذُمَّهُ لِمَنْ تَرَكَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَغَيْرِهِمْ ، وَمَمَّا عَظَمَتْ بِهِ وَصَيَّبَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَوَاطِنِ عَامَّةٍ ، وَخَاصَّةً^(٣) .

ولذلك أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ بِكُلِّ مَا يَحْفَظُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ جَمَاعَتَهُمْ ، وَأَفْتَهُمْ ، وَنَهِيَا عَنْ كُلِّ مَا يَعْكِرُ صَفَوْهُ هَذَا الْأَمْرُ الْعَظِيمُ .

إِنَّ مَا حَصَلَ مِنْ فِرْقَةٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَدَابِيرٍ ، وَتَقَاطِعٍ ، وَتَنَاهِرٍ ، بِسَبَبِ عَدَمِ مَرَاعَاةِ هَذَا الْأَصْلِ وَضَوَابطِهِ ، مَمَّا تَرَبَّى عَلَيْهِ تَفْرُقٌ فِي الصُّنُوفِ ، وَضَعْفٌ فِي الْإِتَّهَادِ ، وَأَصْبَحُوا شَيْعَاءَ ، وَأَحْزَابًا ، كُلُّ حَزْبٍ بِمَا لَدِيهِمْ فَرَحُونَ^(٤) .

إِنَّ وَحدَةَ الْمُسْلِمِينَ ، وَاجْتِمَاعُهُمْ مَطْلُوبٌ شَرِعيٌّ ، وَمَقْصُدٌ عَظِيمٌ مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ ؟ بِلِّ منْ أَهْمَّ أَسْبَابِ التَّمْكِينِ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَنَحْنُ مَأْمُورُونَ بِالْتَّوَاصِي بِالْحَقِّ ، وَالتَّوَاصِي بِالصَّبَرِ ، فَلَا بَدَّ مِنْ تَضَافُرِ الْجَهُودِ بَيْنَ الدُّعَاءِ ، وَقَادَةِ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَبَيْنَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَطَلَبَةِ الْعِلْمِ لِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ إِصْلَاحًا حَقِيقِيًّا لَا تَلْفِيقِيًّا ، لَأَنَّ أَنْصَافَ الْحَلُولِ تَنْسَدُ أَكْثَرُ مَمَّا تَصْلُحُ . قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ - رَحْمَةُ اللَّهِ - : جَهَادُ نَوْعَانَ : جَهَادُ يَقْصِدُ بِهِ صَلَاحَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِصْلَاحُهُمْ فِي عَقَائِدِهِمْ ، وَأَخْلَاقِهِمْ ، وَآدَابِهِمْ ، وَجَمِيعِ شَؤُونِهِمُ الدِّينِيَّةِ ، وَالْدُّنْيَوِيَّةِ ، وَفِي تَرِيَتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ ، وَهَذَا النَّوْعُ هُوَ الْجَهَادُ ، وَقَوْمَهُ ، وَعَلَيْهِ يَتَأْسَسُ النَّوْعُ الثَّانِي ، وَهُوَ جَهَادٌ يَقْصِدُ بِهِ دُفْعَ الْمُعْتَدِينَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ : مِنَ الْكُفَّارِ ، وَالْمُنَافِقِينَ ، وَالْمُلْحِدِينَ ، وَجَمِيعِ أَعْدَاءِ الدِّينِ ، وَمَقَاوِمَهُمْ . وَهَذَا نَوْعُانَ : جَهَادٌ بِالْحَجَّةِ ، وَالْبَرَهَانِ ، وَاللُّسُانِ ، وَجَهَادٌ بِالسَّلاحِ الْمُنَاسِبِ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَزَمَانٍ^(٥) .

(١) المصدر السابق نفسه ، ص (١/٨٣) .

(٢) مستند أَحْمَد (١/٢٦ ، ٢/٢٦) .

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/٣٥٩) .

(٤) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتَّمْكِين ، للصلابي ، ص (٣٠٧) .

(٥) وجوب التعاون بين المسلمين ، ص (٥) .

ثمًّا أفرد فصلاً بعنوان : الجهاد المتعلّق بال المسلمين بقيام الألفة ، واتفاق الكلمة^(١) . وبعد أن ذكر الآيات ، والأحاديث الدالة على وجوب تعاون المسلمين ، ووحدتهم قال : فإنَّ من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين ، واجتماعهم على دينهم ، ومصالحهم الدينية ، والدنيوية^(٢) .

ولذلك نرى : أنَّ الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين ، وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد ؛ لأنَّ هذه الخطوة مهمة جدًا في إعزاز المسلمين ، وإقامة دولتهم ، وتحكيم شرع ربِّهم ، وهذا من فقه الخلفاء الراشدين ، ويتجلّ في أبيه صورة في جمع عثمان رضي الله عنه للأمة على مصحفٍ واحدٍ .

* * *

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر السابق نفسه .

الفصل الخامس

مؤسسة الولاية في عهد عثمان رضي الله عنه

المبحث الأول

أقاليم الدولة في عهد عثمان وسياسته مع الولاية

أولاً : مكة المكرمة :

توفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه وواليه على مكة خالد بن العاص بن هشام ابن المغيرة المخزومي^(١) ، وقد أبقاء عثمان رضي الله عنه فترةً من الوقت يصعب تحديدها ، ثم قام بعزله ، ولم ترد أخبار عن سبب ذلك إضافةً إلى صعوبة تحديد أهم أعماله ، وقد قام عثمان رضي الله عنه بعد عزله بتولية علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد ذلك بتولية مجموعه من الأمراء على مكة يصعب تحديد فترات ولايتهم ، منهم عبد الله بن عمرو الحضرمي ، الذي كان أحد عمال عثمان على مكة ، كما أنَّ التصوص ثبت : أنَّ عثمان رضي الله عنه قد أعاد خالد بن العاص على مكة مرة أخرى ، وتؤكِّد بعض المصادر أنَّ عثمان توفي وخالد على مكة ، فقام علي رضي الله عنه بعزله ، وتولية غيره^(٢) .

وهذه الرواية على ما يبدو أثبتت من الروايات التي تذكر : أنَّ عبد الله بن الحضرمي هو الوالي على مكة حين قتل عثمان^(٣) .

وقد تميَّزت مكة في عهد عثمان بالهدوء المستمر رغم ما وقع في بعض الأمصار من فتن في أواخر عهد عثمان^(٤) .

(١) تجريد أسماء الصحابة ، ص (١٥١) .

(٢) الولاية على البلدان (١٦٦/١) .

(٣) نهاية الأربع للتويري (٢٧/٢) .

(٤) الولاية على البلدان (١٦٧/١) .

ثانياً : المدينة البَّوَيَّة :

تعدُّ المدينة المنورة من أهم المدن الإسلامية في عهد عثمان ، وبها مركز الخلافة ، وإليها تفد الوفود من مختلف الأمصار ، والأجناد الإسلامية ، ويقيم بها كثيرٌ من شيوخ الصحابة من المهاجرين ، والأنصار ، وبذلك تكتسب أهمية خاصةً ، وقد كان عثمان بحكم خلافته مقيماً بها ، ويتقدّم أحوالها حتى إنَّه كان يسأل عن أسعار المواد الغذائية ، وعن أخبار الناس^(١) ، وكان عثمان رضي الله عنه إذا سافر إلى الحجَّ يستخلف أحد الصحابة على المدينة حتَّى يرجع ، وكثيراً ما كان يستخلف زيد بن ثابت رضي الله عنه^(٢) .

وكان في المدينة بيت مالٍ ، وديوانٌ للأعطيات كغيرها من الأمصار ، وتعتبر المدينة من أكثر الأمصار الإسلامية هدوءاً خلال عصر عثمان سوى ما حديث في أيامه الأخيرة من اضطراب الأحوال فيها بعد وصول جيوش الفتنة ، وحصار عثمان ، وخروج بعض كبار الصحابة منها^(٣) .

ثالثاً : البحرين ، واليمامة^(٤) :

توفي عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وعلى البحرين عثمان بن أبي العاص التَّقْفِي ، فأقرَّه عثمان عليها فترةً من الوقت ، وتدلُّ الروايات على أنَّ عثمان بن أبي العاص كان على ولاية البحرين بعد مبايعة عثمان بثلاث سنين ؛ أي : سنة ٢٧ هـ بدليل مشاركته بجيشه مع جيش البصرة في بعض الفتوح^(٥) ، ويبدو : أنَّ التعاون الذي بدأ بين ولاية البحرين وولاية البصرة في عهد عمر أخذ يشتَّتُ ، ويقوى في عهد عثمان ، خصوصاً بعد تولية (عبد الله بن عامر بن كريز)^(٦) على البصرة ، حيث أصبح عامل البحرين أحد القواد التَّابعين لعبد الله بن عامر والي البصرة ، كما أنَّ التَّصوّص التَّارِيخيَّة تفيد تبعية ولاية البحرين للبصرة - إلى حدٍ ما - واندماجها معها بحيث أصبح ابن عامر يعيَّن العَمَال عليها من قبله^(٧) .

ويؤكِّد أحد الباحثين هذا التَّعاون في قوله : وفي زمن الخليفة عثمان بن عفَّان ألحقت

(١) تاريخ المدينة (٩٦١ / ٣ ، ٩٦٢) .

(٢) الولاية على البلدان (١٦٨ ، ١٦٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) البحرين : كانت تطلق على المناطق التي تشمل إمارات الخليج العربي ، والجزء الشرقي من المملكة العربية السعودية عدا الكويت . أمَّا اليمامة ، فكانت في بلاد نجد .

(٥) تاريخ خليفة بن خيَّاط ، ص (١٥٩) . والولاية على البلدان (١٦٩ / ١) .

(٦) الطَّبقات لابن سعد (٤٤ / ٥) .

(٧) الولاية على البلدان (١٦٩ / ١) .

البحرين بالبصرة عندما أصبحت الأخيرة قاعدةً لفتح فارس ، وجنوب إيران ، فصار ولاتها تابعين لأمير البصرة ، وقد عَزَّ هذا صلة البصرة بالبحرين ، ووثقها^(١) ، وقد ذُكر من ولادة عثمان على البحرين : مروان بن الحكم ، وعبد الله بن سوار العبدية ، وقد توفى عثمان وعبد الله على البحرين^(٢) ، وقد كان للبحرين في أيام عثمان دورٌ كبيرٌ في بعث الأجناد لفتح شرق فارس ، كما كان لواليهما عثمان بن أبي العاص دورٌ كبيرٌ في تلك الفتوح^(٣) .

وقد كانت الأوضاع داخل البحرين مستقرةً حتَّى وفاة عثمان ، وأمَّا الإمامة فقد كانت في عهد عمر رضي الله عنه تابعةً لولاية البحرين ، وعمان إلى حدٍ كبير ، بل إنَّ والي البحرين هو الذي كان يبعث عليها الأمراء أحياناً ، أمَّا في عهد عثمان رضي الله عنه فالذي يبدو أنَّ الإمامة كان عليها والي من قبل عثمان مباشرةً ، وقد ورد ذكره في أحداث الفتنة بعد مقتل عثمان مباشرة ؛ إذ وصلته بعض الكتب في تلك الفترة ممن غضبو المقتل عثمان^(٤) .

رابعاً : اليمن ، وحضرموت :

توفي عمر رضي الله عنه وعامله على اليمن (يعلى بن مُنْيَة) وكان في طريقه إلى المدينة بناءً على طلب عمر ؛ إذ جاءه كتاب من عثمان يخبره بوفاة عمر ، وبيعة النَّاس لعثمان ، واستعماله من قِبَل عثمان على صنعاء ، فاستمرَّ على صنعاء إلى وفاة عثمان ، رضي الله عنه^(٥) ، وكان على مدينة الجندي عبد الله بن ربيعة الذي استمرَّ والياً عليها طيلة عهد عثمان رضي الله عنه^(٦) .

ويبدو أنَّ هناك ولاة آخرين كانوا على بقية مدن اليمن ، ولكنَّ المصادر الرئيسية ركزت على هذين الواليين في الغالب ، كما أنَّ المصادر لم تفصل القول في أحداث اليمن خلال عصر عثمان ، كما يقلُّ إيرادها للمراسلات بين عثمان وولاته في اليمن سوى ما ذكره من أوامر عامة مرسلةٍ لكافة الولاة^(٧) ، وقد اشتهر عن أهل اليمن خلال عصر عثمان طاعتهم ، وانقيادهم لولاتهم ؛ يدلُّ على ذلك ما روي من أنَّ عثمان رضي الله عنه بعث رجالاً ثقفيَاً إلى اليمن ، فلما عاد سأله عثمان عن أهلها ، فقال : رأيت قوماً ما سئلوا أعطوا حقاً كان ، أو باطلًا^(٨) ، ومن

(١) البحرين في صدر الإسلام ، عبد الرحمن بن التَّاجِم ، ص (١٤١) .

(٢) الولاية على البلدان (١٧٠/١) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) تاريخ الطَّبرِي (٤٤٢/٥) .

(٦) تاريخ خليفة بن خيَّاط ، ص (١٧٩) .

(٧) الولاية على البلدان (١٧١/١) .

(٨) تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي ، لحسن سليمان ، ص (٧٩) .

المعروف : أنَّ العديد من القبائل اليمنية هاجرت خلال الفتوح في أيام عمر بن الخطاب إلى الأمصار الإسلامية الجديدة سواءً في العراق ، أو مصر ، أو الشام ، وبالتالي فإنَّ صلات اليمن ، وأهلها بهذه الأمصار كانت مستمرة ، كما أنَّ الهجرات - ولو بشكل فرديٍّ من اليمن إلى بقية الأمصار - لم تتوقف طيلة عهد عثمان ، حيث نجد لأناسٍ من يهود اليمن دوراً خطيراً في أحداث الفتنة التي قامت أواخر عهد عثمان ، واستشهد فيها عثمان رضي الله عنه ، وعلى رأس هؤلاء الوالغين في الفتنة (عبد الله بن سباء) ، وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه ترك اليمن عددٌ من ولاتها ، وقدموا إلى الحجاز للمشاركة فيما يجري من أحداث ، ومنهم يعلى بن مُعْنَى ، وعبد الله بن ربيعة^(١) .

خامساً : ولاية الشَّام :

حينما جاء عثمان إلى الخلافة كان معاوية رضي الله عنه والياً على معظم الشَّام ، فأقرَّه عثمان عليها^(٢) ، كما أقرَّ بعض الولاية الآخرين على ولاياتهم ، كاليمن ، والبحرين ، ومصر ، وغيرها من الولايات ، وقد تطورت الأحداث ، وضُمِّنت إلى معاوية بعض المناطق الأخرى حتَّى أصبح معاوية هو الوالي المطلق لبلاد الشَّام ، بل أصبح أقوى ولاة عثمان ، وأشدَّهم نفوذاً ، وقد كان في بداية خلافة عثمان ولاة آخرون ؛ منهم : عمير بن سعد الأنصاريُّ ، وكان على حمص ، وينافس معاوية بن أبي سفيان في المكانة لدى عثمان رضي الله عنه إلا أنَّ عميراً مرض مرضًاً أعياه عن القيام بأعباء الولاية ، فطلب من الخليفة عثمان أن يعيشه ، فأعفاه ، وضم ولاته إلى معاوية بن أبي سفيان ، وبذلك زاد نفوذ معاوية ، فامتدَّ إلى حمص التيولي عليها من قبله عبد الرحمن بن خالد بن الوليد^(٣) ، كما توفي علقة بن محرز ، وكان على فلسطين ، فضمَّ عثمان ولاته إلى ولاية معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، فاجتمعت الشَّام لمعاوية بعد سنتين من خلافة عثمان رضي الله عنه ، وأصبح الوالي المطلق فيها طيلة السنوات الباقية من خلافة عثمان حتَّى توفي عثمان وهو عليها كما هو معروف^(٤) .

وقد كانت فترة ولاية معاوية على الشَّام مليئةً بالأحداث ، كانت الشَّام من أهم مناطق الجهاد ، ومع أنَّ الشَّام في داخلها قد استقرَّت أوضاعها ، وسادها الإسلام ، وقلَّت محاولات الرُّوم إثارة القلاقل فيها ، إلا أنَّ الشَّام كانت متاخمةً لأرض الرُّوم ، وبالتالي كان المجال مفتوحاً أمام معاوية للجهاد في تلك التَّواحي ، وقد تحدَّثنا عنها فيما مضى .

(١) تاريخ الطَّبرِي (٤٤٢/٥) .

(٢) تاريخ خليفة بن خيَّاط ، ص (١٥٥) .

(٣) تاريخ الطَّبرِي (٤٤٢/٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه (٤٤٣/٥) .

وقد كان لمعاوية ثقله السياسي في الدولة الإسلامية أواخر خلافة عثمان ، رضي الله عنه ؛ إذ كان ضمن الولاة الذين جمعهم عثمان ليستشيرهم ، حين بدأت ملامح الفتنة تلوح في الأفق ، كما ظهرت له آراء خاصة في هذا الاجتماع ، وجّهها إلى عثمان^(١) ، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى .

سادساً : أرمينية :

بدأت الجيوش الإسلامية بالتوجه إلى أرمينية لأول مرة في عهد عثمان ، رضي الله عنه ، حيث توجه أول جيش إسلامي إلى تلك المنطقة من بلاد الشام - وهي من أقرب الولايات إليها - يقوده حبيب بن مسلمة الفهري ، وقوامه حوالي ثمانية آلاف مقاتل ، واستطاع هذا الجيش أن يفتح العديد من المواقع في أرمينية ، إلا أنه أحسن بالخطر نتيجة تجمّع حشود من الروم لمساعدة الأرمن في حروبهم ضد المسلمين ، فطلب المساعدة من الخليفة الذي أمر بتسخير جيش من الكوفة قوامه ستة آلاف رجل تقريباً ، ويقوده سلمان بن ربيعة الباهلي^(٢) ، وقد حدث نزاع بعد ذلك بين حبيب بن مسلمة ، وسلمان بن ربيعة ، وقف الخليفة عثمان عليه ، فقام بالكتابة إلى القوم ، وحلَّ المشكلة التي بينهما^(٣) ، ويبدو : أنَّ سلمان بن ربيعة تولَّ قيادة الجيوش الإسلامية حيث كتب إليه عثمان يأمره على أرمينية^(٤) ، ثمَّ توغل سلمان بن ربيعة في أرمينية ثمَّ بلاد (الخزر)^(٥) فاتحاً ، ومنتصرًا ، حتَّى وقعت معركة حاميةٌ بين جيشه ، وقوامه عشرة آلاف رجل ، وجيش ملك الخزر ، وقوامه ثلاثة ألف رجل - كما تقول الروايات - فقتل سلمان ، وجميع جنوده .

وقد كتب عثمان رضي الله عنه إلى حبيب بن مسلمة أن يسير مراة أخرى إلى بلاد أرمينية فاتَّجه بجيشه ، وقام بفتح المواقع مراة بعد أخرى ، وثبتَ أعدام المسلمين فيها ، وعقد بعض المعاهدات مع أهل البلاد^(٦) ، ثمَّ رأى عثمان رضي الله عنه أن يوجّهه إلى ثغور الجزيرة ؛ لخبرته بها ، وقدرته عليها ، وعيَّن مكانه على أرمينية حذيفة بن اليمان بالإضافة لولايته على أذربيجان ، حيث قام بعدَّة غزوات نحو بلاد الخزر من أرمينية^(٧) ، وبعدما يقرب من سنة عزله

(١) الولاية على البلدان (١٧٦/١) .

(٢) الطبقات (١٣١/٦) .

(٣) الخراج وصناعة الكتابة ، قدامة بن جعفر ، ص (٣٢٦) .

(٤) الفتح ، ابن أثيم (١١٢/٢) .

(٥) الخزر : بلاد الترك في آسيا الوسطى ، وهي الآن في جنوب روسية .

(٦) الولاية على البلدان (١٧٧/١) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

عثمان، وولى على أرمينية المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، حتى توفي عثمان وهو عليها، وعلى أذربيجان في الوقت نفسه^(١)، وتعد هذه الولاية إضافةً جديدةً أضافها عثمان إلى الدولة الإسلامية، ولم تكن فتحت قبله، وقد لقي المسلمين عناءً شديداً في فتحها، وتنظيمها، وضبط أمورها^(٢).

سابعاً : ولاية مصر :

كان والي مصر في خلافة عمر بن الخطاب هو عمرو بن العاص الذي حكمها ما يقرب من أربع سنوات^(٣) ، وتوفي عمر وهو والي عليها ، وقد أقره عثمان بن عفان في بداية خلافته لفترة من الوقت ، وكان يساعدته في عمله في بعض نواحي مصر عبد الله بن أبي السرح^(٤) ، الذي كان مصاحباً لعمرو بن العاص منذ أيام فتوحه في فلسطين حيث كان من ضمن قواده ، واشترك معه في فتوح مصر^(٥) ، وقد عينه عمر على بعض صعيد مصر بعد فتحها^(٦) ، ويبدو : أنَّ عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي السرح حدث بينهما خلافٌ في وجهات النَّظر ، فوفد عمرو بن العاص على عثمان بعد مبaitته بالخلافة ، وطلب منه عزل عبد الله بن سعد عن ولاية الصَّعيد ، فرفض عثمان ذلك ، وذكر له : أنَّ عمر هو الذي ولَّ ابن أبي السرح ، وأنه لم يأت بما يوجب العزل ، فأصرَّ عمرو على عزله ، وأصرَّ عثمان على عدم موافقته ، ونتيجة لإصرار كلٍّ من الطرفين على رأيه - رأى عثمان أنَّ من الأصلح عزل عمرو عن مصر وتولية عبد الله بن أبي السرح مكانه ، وهذا ما حدث بالفعل^(٧) ، وفي هذه الظروف قام الروم بالإغارة على الإسكندرية ، والاستيلاء عليها ، وقتلوا جميع من فيها من المسلمين ، فرأى أمير المؤمنين تعين عمرو على جيوش مصر لفتح الإسكندرية من جديد ، والقضاء على جيش الروم ، وتمَّ ذلك فعلاً^(٨) وقد فضَّلت أحدهما في حديثي عن الفتوحات .

ثمَّ إن عثمان أراد أن يعيَّد عمراً على ولاية أجناد مصر ، وحربها ، وأن يجعل عبد الله بن سعد على الخراج ، إلا أنَّ عمراً رفض ذلك ، وتکاد الأخبار تندر عن ولاية عمرو في مصر خلال

(١) تاريخ اليعقوبي (١٦٨/٢) . والولاية على البلدان (١/١٧٧) .

(٢) الولاية على البلدان (١/١٧٧) .

(٣) التُّجُوم الزَّاهِرة (١/٧٧) .

(٤) سير أعلام النبلاء (١/٣٣) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) ولاية مصر للكندي ، ص (٣٣) . وفتح مصر وأخبارها ، ص (١٧٣) .

(٧) الولاية على البلدان (١/١٧٨) .

(٨) المصدر السابق نفسه ، ص (١/١٧٩ ، ١٧٨) .

عهد عثمان رضي الله عنه سوى ما ورد من دوره في الجهاد ، سواءً في رَدِّ الرُّؤوم ، وطردهم عن الإسكندرية وتثبيت الأمان في أنحاء مصر ، أو في قضايا الخراج التي دارت فيها بين عثمان وبين عمرو خلافاتٌ في الرأي^(١) ، وبعد عزل عمرو بن العاص عن مصر مرةً أخرى ، أو عن ولاية الإسكندرية على أرجح الآراء ، وبعد رفضه ما اقترحه عثمان رضي الله عنه من ولايته على الأجناد وولاية ابن أبي السَّرْح على الخراج ، أقرَّ عثمان عبد الله بن أبي السَّرْح مرةً أخرى على مصر ، وأصبح هو الوالي الرَّسمي لمصر ، والمدير الفعلي لولاية مصر بأجنادها ، وخارجها ، ومختلف شؤونها^(٢) .

وقد كانت ولاية مصر في أول أمرها هادئةً مستقرةً ، إلى أن تمكَّن مثيرو الفتنة من أمثال عبد الله بن سبأ من الوصول إليها ، وإثارة النَّاس فيها ، فكان لهم وللمتأثرين بهم دورٌ كبيرٌ في مقتل عثمان رضي الله عنه^(٣) ، وسيأتي بإذن الله تعالى تفصيل ذلك .

ثامناً : ولاية البصرة :

استشهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وواليه على البصرة أبو موسى الأشعري ، وكان المجتمع البصري في تلك الفترة قد بدأ يشهد تغيرات أساسية في بنائه السُّكَّانية والاجتماعية ، حيث أصبحت البصرة من أكبر المعسكرات الإسلامية ، إذ هاجر إليها العديد من القبائل ، وقام جندها بفتح الكثير من المواقع ، وبالتالي اكتسبت أهميةً خاصةً في بداية عهد عثمان^(٤) ، وقد انشغل النَّاس بأمورهم الخاصة إضافةً إلى الأمور العامة من جهادٍ ، وغيره ، وبالتالي فإنَّ الولاية على مثل هذه المنطقة ، وكذلك ما يتبعها من أقاليم أخرى تعتبر مهمَّة ليست باليسيرة ، وتتطلب درايةً خاصةً بإدارة أحوال تلك الولاية ، ولعلَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه كان يحسنُ بمقدرة أبي موسى الخاصة على إدارة تلك الولاية ، حيث أوصى الخليفة بعده أن يترك أباً موسى في الولاية من بعده أربع سنوات بعد وفاته^(٥) .

وقد كانت فترة ولاية أبي موسى للبصرة فترة جهادٍ ، وكفاحٍ بربتها دور أهل البصرة ، كما برز فيها أبو موسى رضي الله عنه بفتح العديد من المواقع في بلاد فارس ، إضافة إلى تثبيته لأقدام المسلمين في المواقع المفتوحة سابقاً ، والتي حاول أهلها الانتقاض بعد وفاة عمر بن الخطَّاب

(١) الولاية على البلدان (١٧٩/١) . وفتح البلدان ، ص (٢١٧) .

(٢) الولاية على البلدان (١٧٩/١) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (١٨٦/١) .

(٤) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، صالح العلي ، ص (١٤١) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٢/٣٩١) . والولاية على البلدان (١٨٦) .

رضي الله عنه ، فقام أبو موسى بغزوهم ، وتبنيت الإسلام في تلك الربوع^(١) ، وبالإضافة إلى دور أبي موسى في الفتوح فإنه قام بدور مهم في تنظيم الرئيسي ، وحرق القنوات ، والأنهار في البصرة أثناء ولادته زمن الخليفة عثمان ، وقد قام بحرق قناة لجلب مياه الشرب إلى البصرة اعتمد عليها الناس بعد ذلك في شربهم ، كما بدأ في مشاريع لحرق قنوات أخرى ، إلا أنَّ عزله عن الولاية حال دون إتمامها^(٢) ، فقام خليفته عبد الله بن عامر بإتمامها^(٣) ، ولم تستمر ولاية أبي موسى على البصرة طويلاً ، إذ قام عثمان بعزله سنة ٢٩ هـ - كما ترجح معظم الروايات - وعيَّن مكانه عبد الله بن عامر بن كريز^(٤) .

ويورد المؤرخون عدَّة روايات حول عزل أبي موسى ، نستخلص منها : أنَّ هناك مشكلةً قامت بين أبي موسى وبين جند البصرة ، اختلف في سببها ، وقد قدِّمت مجموعةً من أهل البصرة إلى عثمان تحرِّضه على عزل أبي موسى قائلين له : ما كل ما نعلم نحْن بُلْغَةً أنَّ تَسْأَلَنَا عَنْهُ فَأَبْدَلْنَا سُوَاهَ ، قال عثمان : من تَحْبِّبُونَ ؟ فقالوا في كُلِّ أَحدِ عَوْضٍ عَنْهُ ، وطلب قومٌ من عثمان أن يولي عليهم قرشياً^(٥) ، فعزل عثمان أباً موسى ، وولَّ مكانته عبد الله بن عامر ، وهنا تجلَّى لنا حكمَة أبي موسى ، وسعة صدره ، وطاعته لأمر الخليفة ، وأنَّه لم يكن يحرص على الولاية كما يظنُ البعض ، فحينما بلغه عزله ، وتولية عبد الله بن عامر مكانته ، صعد المنبر ، وأثنى على عبد الله بن عامر - وكان شاباً صغيراً عمره ٢٥ سنة - وكان ممَّا مدحه به أبو موسى قوله : قد جاءكم غلامٌ كريمٌ العَمَّاتُ ، والخالاتُ ، والجَدَّاتُ في قريشٍ ، يفيض عليكم المال فيضاً^(٦) .

لقد استطاع عثمان رضي الله عنه في تلك الظروف الصعبة التي تمَّ بها ولاية البصرة أن يعيَّن قائداً جديداً يستجيب له الأجناد ، وبالتالي توحَّدت صفوفهم أمام الأعداء ، فضلاً عن أنَّ هذا العزل تكريماً لأبي موسى من أن يهان من قبل بعض العوامِ ممَّن تأثروا بالغوغاء ، وأفكار المتمرِّدين المنحرفة ممَّن حملوا في نفوسهم كراهيته ، والتشهير به ، والتَّفُّعُ عليه^(٧) ، وقد كانت ولاية البصرة تمَّ بظروفٍ صعبةٍ حينما تولَّ ابن عامر ، مما دفع عثمان رضي الله عنه إلى إجراء تغيير أساسيٍّ في إدارة الولاية ؛ إذ إنَّه ضمَّ أجناد البحرين وعمان إلى ابن عامر في البصرة

(١) الولاية على البلدان (١/١٨٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) تاريخ الطَّبرِي (٥/٢٦٤) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق نفسه ، ص (٥/٢٦٦) . وسير أعلام النَّبَلَاء (٣/١٩) .

(٧) الولاية على البلدان (١/١٨٩) .

حتى يعطيه سلطةً أقوى للوقوف أمام التحديات التي تواجهه في تلك الفترة .

وقد كان لهذا الدمج أثره الكبير على قوّة ابن عامر ، ونفوذه ، كما أثّر من ناحية أخرى على البصرة نفسها ، حيث أصبحت إحدى العواصم الإسلامية المستقرة ، وزادت هجرة القبائل إليها أكثر من ذي قبل^(١) ، وبالتالي زادت أعباء الولاية سواءً في الدرّاهم ، أو في تنظيم مختلف شؤون الولاية : الإدارية ، والمالية ، والأمنية ، وغيرها .

وقد كانت لولاية البصرة ، وأجنادها ، ولابن عامر نفسه فتوحٌ عظيمةً بدأت بعد ولادته مباشرةً ، وانتهت قبيل مقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه^(٢) . وقد تمَّ بيانها عند حديثنا عن فتوحات عثمان رضي الله عنه ، وقد اكتسبت البصرة أيام ابن عامر مكانةً خاصةً بين الولايات الإسلامية لفت نظر الخليفة عثمان رضي الله عنه نتيجةً فتوحها ، وتوسعتها في مختلف المجالات ، فأصبحت مركزاً إدارياً مرموقاً^(٣) ، وتدار منها العديد من المناطق الإسلامية ، وكان ابن عامر مسؤولاً عن توزيع الأمراء في مختلف المناطق التابعة لولايته باتفاقٍ مسبقٍ مع الخليفة عثمان ، رضي الله عنه ، وبالتالي كانت مسؤولياته عظيمةً ، وقد قام ابن عامر بتوزيع الأمراء على المناطق التابعة له بمجرد أن تولى الإمارة حيث اختار بعض القوّاد ، والأمراء ، وعيّنهم على تلك المناطق ، ومن أهمّها : عُمان ، والبحرين ، وسجستان ، وخراسان ، وفارس ، والأهواز ، بما في هذه المناطق من مدنٍ مختلفةً ، ومناطق شاسعة^(٤) ، وكان يُجري تنقلاتٍ بين هؤلاء الأمراء ، والعامل من وقتٍ لآخر تبعاً للمصلحة في ذلك ، كما اشتهرت البصرة في أيامه ببيت مالها ؛ الذي زاد دخله في أيامه ، وكثرت مصروفاته ، وكان المسؤول عن بيت المال في أيام عمر زياد بن أبي سفيان ، وقد كان يلي بعض المشاريع من حفر للأنهار ، وغيرها نيابةً عن ابن عامر^(٥) ، وفي ولاية ابن عامر ضربت الدرّاهم في أنحاء فارس التابعة لولايته ، وعليها ألفاظ عربيةٌ في الفترة من سنة ٣٠ هـ حتى ٣٥ هـ^(٦) .

وقد كان ابن عامر محوباً لأهل البصرة عموماً منذ قدومه إليها ، ورغم ما أثير حوله من أنَّ

(١) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، ص (١٤١) .

(٢) الولاية على البلدان (١٨٩/١) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (١٩٣/١) .

(٤) نهاية الأربع (٤٣٣/١٩) .

(٥) الولاية على البلدان (١٩٤/١) .

(٦) الدرّاهم الإسلامية ، وداد على الفرز ، ص (١٤) .

عثمان ولاه ، لأنَّه قرِيبٌ له ، إلَّا أَنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةَ تَمَسَّكُوا بِهِ^(١) .

ومن خلال هذا العرض تبيَّن : أنَّ ولاية البصرة في عهد عثمان انحصرت بين رجلين هما أبو موسى الأشعريُّ ، وعبد الله بن عامر ، ولقد كان لكلا الواليين دوره الرئيسيُّ في ضبط أمور البصرة ، وما يتعلَّق بها^(٢) .

تاسعاً : ولاية الكوفة :

كان على ولاية الكوفة حين بُويع عثمان بالخلافة المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، وكان قد تولَّ في أواخر عهد عمر رضي الله عنه^(٣) ، وقد قام عثمان رضي الله عنه بعزل المغيرة عن الكوفة وتعيين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مكانه ، وقد ذكر في سبب العزل : أَنَّه كَانَ بِوَصِيَّةِ مِنْ عَمِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، حِيثُ أَوْصَى الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ سَعْدًا ؛ نَظَرًا لِأَنَّ عَمَرَ عَزَّلَهُ عَنِ الْكَوْفَةِ فِي أَوَاخِرِ خَلْفَتِهِ ، وَقَالَ : إِنِّي لَمْ أَعْزِلَهُ عَنْ سُوءِ ، وَلَا خِيَانَةِ ، وَأَوْصَى الْخَلِيفَةَ بَعْدِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ^(٤) ، تولَّ سعد بن أبي وقاص على الكوفة ، وكان قرار التعيين مشتركاً بين سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، سعدٌ على الصلاة والجند ، وابن مسعود على بيت المال^(٥) ، وقد كان سعد بن أبي وقاص صاحب خبرة في ولاية الكوفة ، وله معرفةٌ تامةٌ بأمورها وسكانها ، وشغورها ، وأجنادها ؛ نظراً لأنَّه كان مؤسِّسها في عهد عمر ، كما أَنَّه ولديها عدَّة سنوات ، فكان أَخْبَرَ النَّاسَ بِهَا ، وَأَعْلَمَهُمْ بِأَحْوَالِهَا^(٦) .

ومن الأفعال التي قام بها سعدُ أثناء ولايته في عهد عثمان على الكوفة قيامه بزيارة بعض التُّغُور التَّابِعة للكوفة ، ومنها (الرَّئيْس) وترتيب أمورها ، وضبطها سنة ٢٥ هـ^(٧) ، وكذلك قيامه بتعيين بعض الأمراء ، والعَمَال الجدد في (همدان) وما حولها ، ولم تطل فترة ولاية سعد بن أبي وقاص على الكوفة ؛ إذ حدث بينه وبين عبد الله بن مسعود خلافٌ ، وكان ابن مسعود على بيت المال ، فاقترض منه سعد شيئاً من الأموال إلى أجلٍ ، فجاء الأجل ، ولم يكن عند سعدٍ ما يسدُّ به ذلك القرض ، فجاءه ابن مسعود يطالبه بتتسديد ذلك القرض ، فاشتَدَّا في الكلام ،

(١) الولاية على البلدان (١٩٤/١) .

(٢) المصدر السابق نفسه (١٩٥/١) .

(٣) تاريخ الطَّبرِي (٥/٢٣٩) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) تاريخ الطَّبرِي (٥/٢٥٠) . والولاية على البلدان (١٩٦/١) .

(٦) عثمان بن عفَّان لصادق عرجون ، ص (١٠٥) . والولاية على البلدان (١٩٦/١) .

(٧) الولاية على البلدان (١٩٧/١) .

وأجتمع حولهما الناس ، فقرر عثمان عزل سعد ، وإبقاء ابن مسعود ، فكانت عقوبة سعد العزل ، وعقوبة ابن مسعود الإقرار في العمل كما يقول الطبرى^(١) .

وهذه القصة تدلنا على توڑع كلا الصَّحابيين ، وتدلُّ على حاجة سعيد إلى المال ، وعدم وجود ما يكفيه ، وأنه - لذلك - اضطر إلى الاقتراض من بيت المال ، كما تدلُّ على اجتهاد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في حفظ أموال المسلمين ، وإصراره على استرداد القرض من سعيد والي الكوفة ، وحاكمها ، وكانت ولاية سعيد على الكوفة سنةً ، وشهراً^(٢) ، وبعد عزل سعد ولَّ عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي كان قبل تعيينه على الكوفة قد عمل قائداً لجيش من جيوش أبي بكر في الأردن ، ثمَّ عمل لعمراً على عرب الجزيرة^(٣) .

وفي أواخر خلافة عمر ، وأوائل خلافة عثمان كان الوليد أحد قوَاد أجناد الكوفة ، وقام بالجهاد في العديد من المواقع قائداً لتلك الأجناد^(٤) ، فكان قبل تعيينه على ولاية الكوفة صاحب خبرة بالكوفة ، وأجنادها ، ونفورها ومختلف شؤونها ، وكعادة الخلفاء الراشدين في تفضيل أصحاب الخبرة في المنطقة على غيرهم عند الحاجة إلى تعيين ولايةٍ جدد ، فقد وقع اختيار عثمان رضي الله عنه على الوليد بن عقبة لولاية الكوفة ، وكثيرٌ ممَّن كتبوا عن تعيين عثمان رضي الله عنه للوليد سواءً من المتقدِّمين ، أو من المتأخِّرين حاولوا اتهام عثمان في هذا التعيين ، فهم يقولون : إنَّ عثمان استعمل على الكوفة أخاه لأمِّه الوليد بن عقبة^(٥) ، وهذا فيه غمزٌ مباشرٌ لعثمان رضي الله عنه^(٦) ، وفي بداية ولاية الوليد كان يشتراك معه عبد الله ابن مسعود ، حيث كان والياً على بيت المال ؛ إلا أنَّ خلافاً حدث بين الوليد ، وعبد الله بن مسعود ، على أمرٍ يتعلق بأموال الدولة ، ورفع النزاع إلى عثمان ليفصل فيما يراه ، فرأى عثمان رضي الله عنه أنَّ من المصلحة توحيد الولاية ، وبيت المال في يد الوليد ، وعزل عبد الله بن مسعود ، وقد اعتقاد : أنَّ المصلحة العامة تقتضي ذلك الضَّمَّ^(٧) .

وقد بقي الوليد بن عقبة في الكوفة محبوأً من أهلها ، ليس على داره باب^(٨) ، يستقبل

(١) تاريخ الطَّبرِي (٢٥١/٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٢٥٠/٥) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (٢٥١/٥) .

(٤) الولاية على البلدان (١٩٨/١) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) انظر الاتهامات التي ألقاها طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى (٩٤/١) .

(٧) عثمان بن عفان ، لصادق عرجون ، ص (١٠٨) .

(٨) تاريخ الطَّبرِي (٢٥١/٥) .

الناس في مختلف الأوقات ؛ ليحل مشكلاتهم ، ويقوم بالواجبات الملقاة عليه ، إلى أن وقعت بعض الحوادث في الكوفة أوجدت بعض الحاقدين عليه بسبب موقفه الحازم في قضية ابن الحيسمان الخزاعي ؛ الذي قتله مجموعة من شباب الكوفة ، فأقام الوليد بن عقبة بأمر من عثمان رضي الله عنه حد القصاص على هؤلاء الشباب المعذين ، ومنذ تلك الحادثة :أخذ أولياء هؤلاء المجرمين ، وأقاربهم يرثجون الشائعات على الوليد بن عقبة ، ويحاولون جاهدين أن يتصدوا أخطاء الوليد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، واستطاع أولئك الموتورون تلقيق قضية ضد الوليد ، وهي دعوى شربه الخمر ، التي سببت إقامة الحد عليه ، وعزله عن ولاية الكوفة ، وهذا ما أراده المتآمرون^(١) ، وسيأتي تفصيل قضية شرب الوليد بن عقبة للخمر عند حديثنا عن ولاة عثمان رضي الله عنه بإذن الله تعالى .

وبعد عزل الوليد أرسل عثمان إلى أهل الكوفة كتاباً جاء فيه : من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، سلام ، أمّا بعد : فإنّي استعملت عليكم الوليد بن عقبة حتّى تولت منعه ، واستقامت طريقته ، وكان من صالحـي أهلهـ، وأوصـيـتـهـ بـكـمـ ، ولـمـ أـوصـكـمـ بـهـ ، فـلـمـ بـدـاـ لكمـ خـيـرـهـ ، وكـفـ عـنـكـمـ شـرـهـ ، وـغـلـبـتـكـمـ عـلـانـيـتـهـ ؛ طـعـتـمـ بـهـ فـيـ سـرـيرـتـهـ ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ بـكـمـ ، وـبـهـ ، وقد بعثت عليكم سعيد بن العاص أميراً^(٢) .

وكانت شكایة أهل الكوفة للوليد وعزله حلقةً في سلسلة طويلة من الشكايات ، والعزل من قبل بعض أهل الكوفة لأمرائهم^(٣) ، وقد غضب الكثير من أهل الكوفة لعزل الوليد ، وبعد عزل عثمان رضي الله عنه للوليد عن ولاية الكوفة عين بعده سعيد بن العاص سنة ٣٠ هـ الذي كان مقیماً في المدينة ، فاتّجه إلى الكوفة ، ورافقه وفدٌ من أهل الكوفة الذين قدموها على عثمان في شکایة الوليد ، وكان فيهم الأشتر التّخعي ، وغيره^(٤) ، فلما وصل سعيد الكوفة ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : والله لقد بعثت إليكم ، وإنّي لكاره ! ولكنّي لم أجد بُدّاً ؛ إذ أمرت أن أتمّر ، لأنّ الفتنة قد أطلعت خطمها ، وعينيها ، والله لا أضرّن وجهها حتّى أقمعها ، أو تعيني ، وإنّي الرّائد نفسي اليوم . ثمَّ نزل عن المنبر^(٥) .

ومن خلال هذه الخطبة يتبيّن لنا معرفة سعيد ببدايات الفتنة ، وإرهاصاتها التي بدأت تظهر

(١) الولاية على البلدان (٢٠١/١) .

(٢) تاريخ الطّبرى (٥/٢٨٠) .

(٣) الولاية على البلدان (١/٢٠٦) .

(٤) تاريخ الطّبرى (٥/٢٨٠) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص (٥/٢٨٠) .

في الكوفة قبل ولاته ، وتهديده لأصحاب الفتنة ، وعزمها على القضاء على الفتنة التي استشعر بدايتها في الكوفة^(١) ، واستطاع سعيد بن العاص أن ينظم أمور ولاته ، ويعيّن الأمراء ، والولاة في مختلف التّغور التابعة للكوفة ويضبط أمورها^(٢) ، وقام بغزوات ناجحة تم ذكرها عند حديثنا عن الفتوحات في عهد عثمان ، ثم بدأ الفتنة تطلّ برأسها في الكوفة سنة ٣٣ هـ ، وسيأتي الحديث عنها - بإذن الله تعالى - بالتفصيل ، ودبّر الأشتر النّخعى مؤامرة ضدّ سعيد بن العاص ، وانخدع بها بعض عوام الكوفة ، فقاموا مع الأشتر في رفض ولاية سعيد ، والطلب من عثمان إيداله بغيره ، ولم يكن سعيد سوى والٍ من الولاة الذين سبق لأهل الكوفة أن اعتضوا عليهم ، وطلبوا عزلهم قبل ذلك كسعد بن أبي وقاص ، والوليد بن عقبة ، وغيرهم ، وكان طلب خلعه مقرّوناً بشورة حمل الغوغاء فيها السلاح ، وهي سابقة خطيرة في تاريخ الكوفة ، بل وفي تاريخ الدولة الإسلامية كلّها ، وليس فيها سببٌ حقيقي ، وإنما السبب الحقيقي هو تطور الأوضاع ، والعنصر الذي طرأ على نفوس الناس بتأثير دعاة الفتنة ، والخروج على عثمان ، وقد أصدر الخليفة عثمان رضي الله عنه أمراً بتوقيبة أبي موسى الأشعري على الكوفة ، وعزل سعيد بن العاص بناءً على طلب بعض أهل الكوفة ، وقد استهلّ أبو موسى ولاته بخطبة أمام أهل الكوفة ، قال فيها: أيها الناس ! لا تنفروا في مثل هذا ، ولا تعودوا لمثله ، الزموا جماعتكم ، والطاعة ، وإياكم والعجلة ! اصبروا ، فكأنكم^(٣) بأمير . قالوا : فَصَلَّ بنا . قال : لا إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان ، قالوا : على السمع ، والطاعة لعثمان^(٤) .

وقد كتب عثمان إلى أهل الكوفة : بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم ، وأغفیتكم من سعید ، ووالله لأفرضنکم عرضي ، ولأبذلن لكم صبري ، ولأستصلحنکم بجهدي ! فلا تدعوا شيئاً أحبيتموه ، لا يعصي الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه ، لا يعصي الله فيه إلا استعفیتم منه ، أنزل فيه عندما أحببتم ؛ حتى لا يكون لكم عليّ حجّة^(٥) .

وقد استمرّ أبو موسى رضي الله عنه ولائياً على الكوفة حتى قتل عثمان رضي الله عنه^(٦) ، وهكذا نجد أنّ ولاية الكوفة في خلافة عثمان رضي الله عنه قد تولّ عليها خمسةٌ ولاةٌ ابتداءً

(١) الولاية على البلدان (٢٠٧/١) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٢٠٨/١) .

(٣) المراد : اصبروا فإنّ معكم أميراً الآن إن سمعتم ، وأطعتم .

(٤) تاريخ الطبرى (٣٣٩/٥) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص (٣٤٣/٥) .

(٦) المصدر السابق نفسه .

بالمغيرة بن شعبة ، وانتهاءً بأبي موسى الأشعريّ ، وقد حفلت فترة الولاية لكلٍّ من هؤلاء الخمسة بالعديد من الحوادث التي بربرت على ساحة الأحداث ، وكان لها تأثيرٌ مباشرٌ على مسيرة الدولة الإسلامية ، وقد نمت الفتنة في الكوفة ، واشتهر عن أهلها تسلطهم على ولاتهم ، ورفضهم لهم في كثير من الأحيان مهما استرضوه ، فقد شكوا سعد بن أبي وقاص ، وشكوا الوليد بن عقبة ، وطردوا سعيد بن العاص ، ولعلنا نتذكّر هنا : أنَّهم أتبعوا عمر قبل عثمان ؛ حتَّى قال فيهم : من عذيري من أهل الكوفة ؟ !

وقد كان لبعض أهل الكوفة دورٌ مباشرٌ ، ورئيسٌ في مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه . وجديرٌ بالذكر : أنَّه كانت هناك بعض الولايات المترفة من ولاية الكوفة كطبرستان ، وأذربيجان ، وبعض المناطق الأخرى شمال بلاد فارس^(١) ، وممَّا يؤثِّر ارتباطها بالكوفة : أنَّ ولاة الكوفة ، ومنهم سعيد بن العاص هم الذين كانوا يتولُّون الفتوح في نواحيها ، كما كانوا يؤدِّبون أهلها في حال عصيانهم ، وقد لعبت هذه الولايات الفرعية دوراً مرتبطاً بدور الكوفة أيضاً إلى حدٍ كبير^(٢) .

ومن خلال العرض السَّابق للولايات الإسلامية في عهد عثمان يتبيَّن لنا أنَّ هناك ولاياتٍ تمَّت بالاستقرار طيلة عهد عثمان رضي الله عنه ، ومنها الولايات الواقعة في بلاد العرب ، كالبحرين ، واليمن ، ومكَّة ، والطائف ، وغيرها ، كما تمَّت الشَّام بالاستقرار أيضاً طيلة خلافة عثمان رضي الله عنه ، وأمَّا البصرة فقد شغل أهلها بالفتح مع واليهم عبد الله بن عامر ، وأمَّا مصر ، والكوفة فقد حدث فيما الاضطراب في أواخر خلافة عثمان وبالتالي ولدت فيما الفتنة ، وأقدم أناسٌ من أهلها على غزو المدينة ، وعلى قتل الخليفة عثمان رضي الله عنه بدلاً من غزو أعداء الإسلام^(٣) .

* * *

(١) الولاية على البلدان (٢١٣/١) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) المصدر السَّابق نفسه (٢١٤/١) .

المبحث الثاني

سياسة عثمان مع الولاية وحقوقهم وواجباتهم

أولاً : سياسة عثمان مع الولاية :

تولى عثمان رضي الله عنه الخلافة في بداية سنة ٢٤ هـ ، وكان ولاة عمر رضي الله عنه ، ينتشرون في الأمصار الإسلامية ، وقد أقرّهم عثمان في ولاياتهم عاماً كاملاً ، ثمَّ باشر بعد ذلك العزل ، والتَّعيين في هذه الأمصار بمقتضى سلطته ، وحسب ما يراه في مصلحة المسلمين ، ولعلَّ عثمان في ذلك قد اتَّبع وصيَّة عمر رضي الله عنه التي أوصى فيها : ألا يُقرَّ لي عاملٌ أكثر من سنة ، وأقْرُوا الأشعريَّ أربع سنين^(١) .

وكان عثمان رضي الله عنه في سياسته مع الولاية يعتمد على مشورة الصحابة في كثير من تصريحاته ، كما أنه قام بضم بعض الولايات إلى بعضها ؛ لما يراه في مصلحة المسلمين ، ولذلك قد حدد الولاية إلى حد ما في بعض المناطق ، فقد ضمَّ البحرين إلى البصرة ، كما ضمَّ بعض الولايات الشَّام إلى بعضها الآخر نتيجةً لوفاة بعض الولاية ، أو طلبهم الإعفاء من العمل ، وقد كان عثمان رضي الله عنه دائم النَّصح لولاته بالعدل ، والرَّحمة بين الناس ، فكان أول كتبه إلى ولاته بعد مبايعته خليفة للمسلمين : أمَّا بعد : فإنَّ الله أمرَ الأئمَّةَ أن يكونوا رعاةً ، ولم يتقدَّم إليهم أن يكونوا جبَّاءً ، وإنَّ صدر هذه الأئمَّةَ حُلُقوا رعاةً ، ولم يُخلِّقوا جبَّاءً ، ولو يوشكُنَّ أئمتكم أن يصيروا جبَّاءً ، ولا يكونوا رعاةً ، فإذا عادوا كذلك ؛ انقطع الحياة ، والأمانة ، والوفاء ، إلا وإنَّ أعدل السَّيرة أن تنظروا في أمور المسلمين ، وفيما عليهم ، فتعطوهם ما لهم ، وتأخذوههم بما عليهم ، ثمَّ تثنُوا بالدَّمَّةِ فتعطوهُم الذي لهم ، وتأخذوا بالذِّي عليهم ، ثمَّ العدوُّ الذي تتابون ، فاستفتحوا بالوفاء^(٢) .

ونحن نرى من هذا : أنَّ عثمان حَدَّ لولاته معالِمَ السِّيَاسَةِ ، التي يجب أن يسيراً عليها ، من إعطاء الحقوق للمسلمين ، ومطالبتهم بما عليهم من واجباتٍ ، وإعطاء أهل الذِّمة حقوقهم ، ومطالبتهم بما عليهم من واجباتٍ ، وبالوفاء حتَّى مع الأعداء ، وبالعدل في ذلك

(١) سير أعلام النبلاء (٣٩١/٢).

(٢) تاريخ الطَّبرِي (٢٤٤/٥).

كله ، وألا يكون همّهم جبایة المال^(١) ، كما كان عثمان رضي الله عنه يكتب إلى عمّاله ببعض التعليمات الخاصة في الأمور المستجدة ؛ التي تتعلق بإداراتهم للولايات ، إضافةً إلى كتبه العامة والتي كان يصدر فيها تعليمات محددة يلتزم بها الجميع ، ومن ذلك إلزامه النّاس في الولايات بالمساواة التي كُتبت في المدينة على ملأ من الصحابة ، حيث أرسل مصاحف إلى كلّ من الكوفة ، والبصرة ، ومكّة ، ومصر ، والشّام ، والبحرين ، واليمن ، والجزيرة - بالإضافة - إلى مصحف المدينة^(٢) ، وقد أمر عثمان بجمع المصاحف الأخرى ، وإحراقها ، وذلك بموافقة الصحابة في المدينة ، كما ورد ذلك عن عليٍّ رضي الله عنه^(٣) ، كما كان عثمان رضي الله عنه حريصاً على أن يتنافس الأّمراء فيما بينهم في الجهاد ، وفتح بلدانٍ جديدة ، فقد كتب إلى عبد الله بن عامر في البصرة ، وإلى سعيد بن العاص في الكوفة يقول : أيّنما سبق إلى خراسان فهو أميرٌ عليها ، مما دفع ابن عامر إلى فتح خراسان ، وسعيد بن العاص إلى فتح طبرستان^(٤) .

وقد كان عثمان يشترط بعض الشروط على الولاية أحياناً لضمان أن يكون تصرّفهم في صالح المسلمين ، ومثال ذلك : أنَّ معاوية بن أبي سفيان كتب إلى عثمان يهون عليه ركوب البحر إلى قبرص ، فكتب إليه عثمان : فإن ركب البحر ، ومعك امرأتك ، فاركبه ماذونا لك ، وإنَّا فلا . فركب البحر ، وحمل امرأته^(٥) .

ثانياً: أساليب عثمان رضي الله عنه لمراقبة عمّاله ، والاطلاع على أخبارهم :

اتّبع عثمان رضي الله عنه عدّة أساليب لمراقبة عمّاله ، والاطلاع على أخبارهم؛ من ذلك :

١- حضوره لموسم الحجّ :

كان عثمان يحرص على الحجّ بنفسه ، ويلتقي بالحجّاج ، ويسمع شكاياتهم ، وظلمهم من ولائهم ، كما أنه طلب من العمّال أن يوافوه في كلّ موسم ، وكتب إلى الأمصار أن يوافي العمال في كلّ موسم ومن يشكوه^(٦) ، وكان ذلك استمراراً لما كان عليه الحال أيام عمر من لقاء سنويٍّ بين الخليفة ، والولاية ، والرّعية^(٧) .

(١) الولاية على البلدان (٢١٥/١) .

(٢) تاريخ المدينة (٩٩٧/٣) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (٩٩٥/٣ ، ٩٩٦) .

(٤) تاريخ اليعقوبي (١٦٦/٢) .

(٥) الولاية على البلدان (٢١٦/١) . والخارج وصناعة الكتابة ، ص (٣٠٦) .

(٦) الولاية على البلدان (٢١٦/١) نقلًا عن تاريخ الطّبرى .

(٧) المصدر السابق نفسه .

٢- سؤال القادمين من الأمصار والولايات :

وتعتبر هذه الطريقة من أيسر الطرق حيث إنها لا تكلف الخلفاء كثيراً ، كما أنها تأتي في كثير من الأحيان دون ترتيب مسبق ، وقد اشتهر عن الخلفاء الراشدين الأربع عملهم بهذه الطريقة ، وكان وجود الخليفة في المدينة المنورة خلال عصور الخلفاء الثلاثة الأولى ممّا يساعد الخليفة نظراً للكثرة الوافدين إلى المدينة للزيارة ، وخصوصاً أثناء موسم الحجّ^(١) .

٣- وجود أناس من أهل البلاد يكتبون إلى الخليفة :

فقد استقبل عثمان رضي الله عنه الكتب التي أرسلها بعض الرعية من الأمصار إلى المدينة بما فيها من شكاوى ، فقد استقبل كتاباً أرسله أهل الكوفة إليه ، وكذلك كتاباً أرسله أهل مصر إليه ، كما استقبل كتاباً آخر أرسلها أناسٌ من الشام ، وقد اطلع عثمان على ما في هذه الكتب ، وعالج ما فيها^(٢) .

٤- إرسال المفتّشين إلى الولايات :

بعث عثمان رضي الله عنه العديد من المفتشين إلى بعض الولايات للاطّلاع على أحوالها ، ومعرفة ما يشاع عن ولاته من ظلمٍ للرّعية ، وقد جاء أولئك المفتشون بتقارير وافية عن أحوال أولئك الولايات^(٣) ، فقد أرسل عمّار بن ياسر إلى مصر ، ومحمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، بالإضافة إلى إرساله رجالاً آخرين إلى أماكن أخرى^(٤) .

٥- السفر إلى الولايات والاطلاع على أحوالها مباشرةً :

كان عثمان رضي الله عنه يزور مكانة في موسم الحجّ ، ويطلع على أحوالها ، ويقابل الولاية بها ، وحجّاج الأمصار ، ويسأل عن أخبارهم ، وأحوالهم .

٦- طلب الموفدين من الولايات لسؤالهم عن أمرائهم ، وولاتهم :

كان الخلفاء الراشدون في كثير من الأحيان يطلبون من الولاية أن يبعثوا إليهم بآناسي من أهل البلاد ؛ ليسألوهم ، وقد تكرر ذلك من عمر ، وعثمان ، وعليٌّ ، رضي الله عنهم ، أمّا أبو بكرٍ فكان مشغولاً بأمورٍ جهاديةٍ منعته من ذلك ، كما كان لقصر مدة خلافته دورٌ في قلة هذه الحوادث^(٥) .

(١) المصدر السابق نفسه (١٢٢/٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٢١٧/١) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه (١٢٢/٢) .

٧- استقدام الولاية وسؤالهم عن أحوال بلادهم :

وقد اشتهرت هذه الطريقة خلال عصر الخلفاء الراشدين الأربعة ، وقد كانت الاتصالات المستمرة قائمة بين الخليفة عثمان ، وبين ولاته لبحث مختلف شؤون الدولة ، ومن أهم هذه الاتصالات الاجتماع الذي عقده عثمان مع ولاته في المدينة ، حيث دعا ولاة البصرة ، والكوفة ، والشام ، ومصر ، وغيرهم ، ودعا كبار الصحابة ، وعقد معهم اجتماعاً بحث فيه بوادر الفتنة التي بدأت تظهر ، وتعرّف على آراء أولئك الولاية في الفتنة ، وكيفية علاجها ؛ فقد أدلّى كلُّ ولٰي من هؤلاء برأيه في علاج تلك الظاهرة^(١) .

٨- المراسلة مع الولاية :

وطلب التقارير منهم عن أحوال رعيتهم ، وأحوال بلادهم ، وقد اشتهرت هذه الطريقة خلال عصور الخلفاء الراشدين الأربعة ، وكانت بالأحرى أهم الطرق خلال عصر أبي بكر الصديق ، وعليٌّ بن أبي طالب ، رضي الله عنهم^(٢) .

هذه أهم الأساليب التي اتبعها عثمان في متابعة ، ومراقبة ولاته ، وقد كان رضي الله عنه حريصاً على قيام الولاية بواجباتهم ، وفي حالة وقوع أي مخالفتهم ، فإنه يؤذبهم على ذلك الخطأ إذا وصل إلى علمه ، وإذا ثبت عليه ارتكابه ؛ شرع في عقوبته دون النّظر إلى حسن ظنه في العامل ، ومن ذلك جلده للوليد بن عقبة حدّ الخمر بعد اكتمال شروطه ، وبغض النظر عن صدق الشهود من عدمه^(٣) ، وقام بعد جلده بعزله عن ولاية الكوفة^(٤) ، وقد درج عثمان رضي الله عنه أن يكتب إلى أهل الأمصار عن تعيين ولٰي جديدٍ عليهم ، ليوصيهم به ، كما أوصاه بهم ، وكذلك كان يكتب في كثير من الأحيان إلى العامة في الأمصار ناصحاً ، حتى يساعدوا الولاية في تسيير أمور الرّعية ، ومن ذلك الكتاب الذي أرسله عثمان إلى الأمصار ، يقول فيه : أمّا بعد : فإنّي أخذ العمال بموافاتي في كلّ موسم ، وقد سلطت الأمة منذ ولّيت على الأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، فلا يرفع عليَّ شيءٌ ، ولا على أحدٍ من عمالِي إلا أعطيته ، وليس لي ، ولا لعيالي حقٌّ قبلَ الرّعية إلا متراكّ لهم ، فيما من ضربَ سرّاً ، وشُتم سرّاً . . . من ادعى شيئاً من ذلك ؛ فليواجهِ الموسم ، فيأخذ بحقّه حيث كان مني ، أو من عمالِي . . . أو تصدّقوا فإنَّ الله يجزي المتصدقين . فلمّا قرئ في الأمصار أبكى النّاس ، ودعوا العثمان^(٥) .

(١) المصدر السابق نفسه (١٢٣/٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه (١٢٢/٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه (١٢٦/٢) .

(٤) المصدر السابق نفسه (٢١٧/١) .

(٥) تاريخ الطّبرى (٣٤٩/٥) .

ثالثاً : حقوق الولاية :

استقرَّ في عهد الخلفاء الرَّاشدين بأنَّ للولاية حقوقاً مختلفةً ، يَتَصلُّ بعضها بالرَّعية ، وبعضها بال الخليفة ، بالإضافة إلى حقوقٍ أخرى متعلقةٌ ببيت المال ، وكلُّ هذه الحقوق الأدبية ، أو المادِيَّة تهدف بالدرجة الأولى إلى إعانته الولاية على القيام بواجباتهم ، وخدمة المصلحة العامة ، ومن أهمَّ هذه الحقوق :

١- الطَّاعة في غير معصية الله :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَ اللَّهِ وَأُولَئِكُمْ هُنَّ الْمُنْكَرُ فَإِنْ تَنْزَعُمُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحَسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

قال القرطبيُّ : لما تقدَّمَ إلى الولاية في الآية المتقدمة ، وبدأ بهم ، فأمرهم بأداء الأمانات ، وأن يحكموا بين الناس بالعدل ، تقدَّمَ في هذه الآية ، فأمر الرَّعية بطاعته جلَّ وعلا أولاً وهي امثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ثمَّ بطاعة رسوله ثانياً فيما أمر به ، ونهى عنه ، ثمَّ بطاعة الأمراء ثالثاً على قول الجمهور ، وأبي هريرة ، وابن عباسٍ ، وغيرهم^(١) ، وفي العهد الرَّاشدي خصوصاً ، والمجتمع الإسلامي عموماً الشَّريعة فوق الجميع ، يخضع لها الحاكم ، والمحكوم ، ولهذا فإنَّ طاعة الحكام مقيدةً دائمًا بطاعة الله ، ورسوله ، كما قال رسول الله ﷺ : « لا طاعة في المعصية ، إنما الطَّاعة في المعروف »^(٢) .

٢- بذل التَّصْيِحَة لِلْوَلَاة :

من منطلق الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهو الأساس الذي تقره الأمة بأكملها ، والذي وردت الأوامر به من خلال الآيات القرآنية والأحاديث التَّبَوَّيَّة التي تحدثت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه العموم ، ومنها ما خصَّ الولاية به ، حيث أمرت الأحاديث التَّبَوَّيَّة ببذل التَّصْيِحَة لهم ، وقد دأب الخلفاء الرَّاشدون الأربع على الكتابة لولاتهم باستمرارٍ يبذلون لهم التَّصْيِحَة ، والخصوص الواردَة في هذه كثيرةٌ ، يصعب حصرها^(٣) .

٣- يجب على الرَّعية لِلْوَالِي إِيصال الْأَخْبَار الصَّحِيحَة إِلَيْهِ :

والصدق في ذلك سواءً ما يخصُّ أحوال العامة ، أو ما يخصُّ أخبار الأعداء ، أو ما كان متعلقاً بعمال الوالي ، وموظفيه ، والعجلة في ذلك قدر المستطاع خصوصاً ما كان متعلقاً

(١) تفسير القرطبي (٢٥٩/٥) .

(٢) البخاريُّ ، كتاب الأحكام رقم (٧١٤٥) .

(٣) الولاية على البلدان (٥٦/٢) .

بالأمور الحربية ، وأخبار الأعداء ، وما يتعلّق بخيانت العمال ، وغير ذلك ، من منطلق الاشتراك في المسؤولية مع الوالي في مراعاة المصلحة العامة للأمة^(١) .

٤- مؤازرة الوالي في موقفه :

وعندما اندلعت الفتنة ، وطالب أصحابها من عثمان عزل بعض ولاته ؛ رفض عثمان ذلك ، وكان هذا التّعضيد يخدم الهدف العام للدّولة الإسلامية ، ويمنع الاضطراب ، ولا يعني ذلك عدم الالتفات إلى الشّكاوى ، ومؤازرة الولاية بدون تحقّق ، بل إنّ هذا التّعضيد من الخلفاء إنّما يأتي بعد تحقّق وثبتت من تلك الشّكايات ، وبعد محاسبة دقيقة قد تتطلّب إرسال لجان خاصة من بعض الصحابة للتّحقيق في تلك القضايا ، وكما أنّ المؤازرة للوالي واجبة من قبل الخليفة ، فهي كذلك واجبة من قبل الرّعية ، وأنّ على الناس احترامهم ، وتقديرهم^(٢) . وإن كان عثمان رضي الله عنه قد عزل بعض الولاية ، فذلك لم يأبه في مصلحة الرّعية .

٥- احترامهم بعد عزلهم :

ومن ذلك ما فعله عثمان مع أبي موسى الأشعريّ ، وعمرو بن العاص رضي الله عنهمما بل نلاحظ : أنّ عثمان استشار عمرو بن العاص في مسائل الدّولة الكبرى بعد عزله ، وهذا احترامٌ فائقٌ من عثمان رضي الله عنه لمن عزلهم من الولاية .

٦- مرتبات الولاية :

ومن حقوق الولاية مرتباتهم ، التي يعيشون عليها ، ومبدأ الأرزاق ، والرواتب للعمال متّفق عليه بين الخلفاء الرّاشدين اقتداءً بما فعله الرّسول ﷺ ، ولئن كانت الروايات قد اقتصرت على ذكر مرتبات بعض العمال فقط ، فإنّ المفهوم : أنّ جميع العمال كانت لهم مرتبات خالل عصور الرّاشدين ، ومعظم الروايات التي وردت في هذا الموضوع كانت ترتكز بالدرجة الأولى على عصر عمر بن الخطّاب ، حيث ورد ذكر مقدار أرزاق بعض الولاية في عصره ، وقد مضى عثمان وعلى رضي الله عنهمما على سيرة من سبقهما من الخلفاء في فرض الأرزاق للعمال ، والولاية ، إلا أن عصر عثمان رضي الله عنه على ما يبدو أكثر توسيعاً في بذل الأعطيات للناس عموماً ، ومن ضمنهم الولاية ، نظراً لزيادة الدّخل في بيت المال نتيجة الفتوح الواسعة التي قام بها ولاة عثمان في المشرق وفي أرمينية ، وإفريقيا ، وغيرها ، بل إنّ عثمان رضي الله عنه كان يعطي مكافآتٍ مقطوعةً للعمال خاصةً ، وبإربزةً ، فقد أعطى عبد الله بن سعد بن أبي السّرح خمس الخمس من الغنيمة جزاء فتوحه في شمال إفريقيا ، حيث قال له : إن فتح الله عليك غداً

(١) المصدر السابق نفسه (٥٧/٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٥٨/٢) .

إفريقية ؛ فلكل ما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلاً^(١) . وعلى كل حال فإن إعطاء الأرزاق للعمال ، وإغناههم عن الناس كان مبدأ إسلامياً فرضه رسول الله ﷺ ، وسار عليه الخلفاء الراشدون من بعده ، حتى أغناوا العمال عن أموال الناس ، وفرغوهם للعمل ، ولمصلحة الدولة^(٢) .

رابعاً : واجبات الولاية :

١- إقامة أمور الدين ، ومن أبرز تلك الواجبات :

أ- نشر الدين الإسلامي بين الناس :

حيث اختص ذلك العصر بفتحاتٍ عظيمةٍ، اقتضت من الولاية العمل على نشر الدين في البلاد المفتوحة مستعينين بمن معهم من الصحابة، وقد كان الولاية يقومون بهذه المهمة مع وجود من يساعدهم في بداية الفتوح في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ثم بدأت الأمصار تعتمد على معلمين، وفقهاء قدموا لهذه المهمة بعد التوسيع ، وبناء الأمصار في عهد عمر ، وقد تأكّد وجود المعلمين بعد ذلك خلال الفترة الأخيرة من خلافة عمر ، وخلال فترة خلافة عثمان ، وعلى^٣ ، وذلك لكثره السُّكَان في الأمصار وكثرة طلاب العلم وانشغال الولاية بأمورٍ مختلفةٍ ، وتوسيع الولايات حيث كانت تتبع الولاية الواحدة العديد من الأمصار التي كان الناس فيها بحاجة إلى فقهاء ، ومعلمين^(٣) .

ب- إقامة الصلاة :

كان الخليفة نفسه طيلة عصر الخلفاء الراشدين الأربع هو الذي يقيم صلاة الجمعة ، والجماعة ، والأعياد في البلد الذي يقيم فيه ، ويخطب في الناس الجمعة ، والأعياد ، والمناسبات الأخرى ، وكذلك نوابه يقومون بهذه المهمة في أمصارهم ، وطيلة عهد الخلفاء الراشدين كان الولاية يخطبون في الناس بأنفسهم ، ويؤمنونهم في الصلاة^(٤) .

ج- حفظ الدين وأصوله :

كان الخلفاء الراشدون بعد وفاة الرسول ﷺ يشعرون بعظم الواجب الملقي عليهم في حفظ الدين على أصوله الصحيحة التي نزلت على رسول الله ﷺ ، وكانوا يعملون جاهدين في إحياء سنة الرسول ، والقضاء على البدع ، والعمل على احترام دين الله ، واحترام رسوله ﷺ ، ورد

(١) تاريخ الطبرى (٢٥٢/٥) .

(٢) الولاية على البلدان (٦٤/٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (٦٦/٢) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص (٦٧/٢) .

كيد من يحاولون الدّسّ على هذا الدين ، وقد عمل عثمان رضي الله عنه على كتابة المصحف الشريف وإرسال نسخ منه إلى الأمصار ، وأمر ولاته بإحراق ما لدى الناس من مصاحف أخرى من قبيل المحافظة على أهمّ أصول الدين ، وهو القرآن الكريم^(١) ، وقد بذل ولادة عثمان جهوداً كبيرةً في محاربة السّيّئة ؛ الذين جاءوا بأراء غريبة على الإسلام ، وضيقوا عليهم ، وطاردوهم^(٢) . وعلى العموم فإنّ المحافظة على الدين ، واحترامه كان من أهمّ الواجبات الموكلة إلى الولاة^(٣) .

د- تخطيط وبناء المساجد :

حينما وصل الرّسول ﷺ إلى قباء ؛ قام ببناء أول المساجد في الإسلام ، وبعد وصوله إلى المدينة بدأ الرّسول بناء مسجده فيها ، وحينما كان الرّسول يبعث بالولاة إلى البلدان كان هؤلاء الولاة يقومون ببناء المساجد فيها ، واستمرّ الخلفاء الرّاشدون بعد ذلك في بناء المساجد في البلدان ، والأمصار التي فتحها المسلمون ، وإن كان الولاة لم يقوموا بتأسيس جميع هذه المساجد ، فإنّ لهم دوراً في إنشاء المساجد الرّئيسيّة في معظم البلدان التابعة لولاياتهم ، وخصوصاً الجوامع منها^(٤) .

هـ- تيسير أمور الحجّ :

كان الولاة على البلدان في صدر الإسلام مسؤولين عن تيسير أمور الحجّ في ولاياتهم ، وتأمين سلامة الحجاج منها ، فقد كان الولاة يعيّنون الأمراء على قوافل الحجّ ، ويحدّدون لهم أوقات السّفر ، حيث لا يغادر الحجاج بلدانهم إلا بإذن الوالي ، ولم يكتف بعض الأمراء بأمور التّرتيب بل نجد منهم من عمل على تأمين المياه في الأماكن التي يسلكها الحجاج من ولايته ، فهذا عبد الله بن عامر بن كريز أجرى المياه في طريق حجاج البصرة حينما كان عاملاً عليها لعثمان بن عفان ، حيث أوجد المياه في الطريق من البصرة إلى مكة^(٥) ، وأكّد الفقهاء بعد ذلك أن تيسير الحجاج عملٌ من مهام الوالي من بلده . يقول الماوردي : أمّا تيسير الحجيج ؛ فداخلة في أحکام إمارته ؛ لأنّه من جملة المعونات التي تنسب إليه^(٦) .

(١) تاريخ المدينة (٩٩٦/٣ - ٩٩٩) .

(٢) عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة ، ص (٢١٤) .

(٣) الولاية على البلدان (٦٩/٢) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه (١٩٢/١) .

(٦) الأحكام السلطانية ، ص (٣٣) .

و - إقامة الحدود الشرعية :

إنَّ إقامة الحدود على المخالفين لأوامر الله ، وسَنَّة رسوله ﷺ واجبُ دينيٌّ ملقى على الولاية ، وهو من أهم الأمور الموكلة إليهم ، سواءً منها الحدود المتعلقة بمن يتعرَّض لمنافع المسلمين العامة ، أو من يتعرَّض بالضرر لأقوام معينين^(١) ، وقد قام عثمان وولاته بإقامة الحدود الشرعية في عهده ، رضي الله عنه .

٢ - تأمين الناس في بلادهم :

المحافظة على الأمن في الولاية من أعظم الأمور الموكلة إلى الوالي ، وفي سبيل تحقيق ذلك فإنَّه يقوم بالعديد من الأمور ، أهمُّها : إقامة الحدود على العصاة ، والفساق^(٢) ، مما يحدُّ من الجرائم التي تهدِّد حياة الناس ، وممتلكاتهم ، وبالتالي تقلُّ الحوادث الأمنية من القتل ، أو السرقة ، أو قطع الطريق ، وما إلى ذلك ، بل الأمر أيضاً يشمل ما يلقى الناس من أقوالٍ ضد بعضهم البعض من قذفٍ ، وغيره ، فإنَّ إقامة الحدود فيها يمنع من الاعتداء الأدبي على الناس في أغراضهم ، ومحاربهم ، ولم يقتصر الأمر على تأمين الناس بعضهم من بعضٍ ، بل إنَّ العمال وبأمِّ من الخلفاء يعملون على تأمين رعاياهم من الحشرات ، والهوام ، كالعقارب ، وغيرها ، يقول البلاذرُي : كتب عامل نصيبين إلى معاوية ؟ وهو عامل عثمان على الشام ، والجزيرة يشكو إليه : أنَّ جماعةً من المسلمين ممَّن معه أصيروا بالعقارب ، فكتب إليه يأمره أنْ يوظف على أهل كلِّ حيٍّ من المدينة عدَّةً من العقارب مسمَّاةً في كلِّ ليلة ، ففعل ، وكانوا يأتونه بها ، فيأمر بقتلها^(٣) .

٣- الجهاد في سبيل الله :

إنَّ السُّنة العامة لعهد الخلفاء الرَّاشدين : أنَّ الولاية هم قادة الجهاد في تلك البلدان ، كما أنَّ الولاية في عهد عثمان رضي الله عنه كان لهم دورٌ كبيرٌ في الفتوح ، ومنهم عبد الله بن عامر بن كريز ، والمغيرة بن شعبة ، وأبو موسى الأشعري ، الذين واصلوا الفتوح في المشرق ، ومثل عبد الله بن سعد بن أبي السرّاح الذي واصل الفتوح في شمال إفريقيا ، ومعاوية بن أبي سفيان الذي واصل الفتوح في نواحي أرمينية ، وببلاد الروم .

وهكذا فإنَّنا نرى : أنَّ الأمراء في عهد الخلفاء الرَّاشدين كانوا مع إدارتهم لبلادهم مجاهدين لنواحي العدو ، ولم يمنعهم ذلك من القيام بأعمالهم الموكلة إليهم ، ولا شكَّ : أنَّ الجهاد كان

(١) السياسة الشرعية ، لابن تيمية ، ص (٦٦) .

(٢) الولاية على البلدان (٢/٧١) .

(٣) فتوح البلدان ، ص (١٨٣) .

مصحوباً بعمليات معينة ، تخدم المسؤولون العامة له ، وقد تحدثت المصادر التاريخية عن أهم هذه الأعمال التي جرت من قبل الأمراء ، منها :

أ- إرسال المتطوعين إلى الجهاد :

فقد كان ولاة اليمن ، والبحرين ، ومكة ، وعمان يبعثون بالمجاهدين خلال عهد أبي بكر ، وعمر ، وعثمان رضي الله عنهم^(١) .

ب- الدفاع عن الولاية ضد الأعداء :

كان ولاة الشام يدافعون الرؤوم طيلة عهد الخلفاء الراشدين ، وكذلك الحال عند ولاة العراق ؛ الذين دافعوا الفرس حتى تمكّنوا من قتل آخر ملوكهم في عصر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

ج- تحصين البلاد :

كان عثمان رضي الله عنه يأمر بتحصين السواحل ، وشحنتها ، وإقطاع القطائع لمن ينزلها من المسلمين للمساعدة في شحنها بالرجال^(٢) .

د- تتبع أخبار الأعداء :

فقد قام الولاية بتتبع أخبار الأعداء وتوجيه الضربات الموجعة إليهم ، واستطاعوا أن يخترقوا صفوفهم ، ويزرعوا عيوناً تابعة لهم .

هـ- إمداد الأمصار بالخيل :

كانت الخيل ذات أهمية خاصة في الجهاد ، وقد اهتمَّ المسلمون بتزويتها منذ أيام الرسول ﷺ واعتنوا بها عناية خاصة ، وقد وضع عمر سياسةً عامةً في الدولة لتوفير الخيل الازمة للجهاد في الأمصار الإسلامية حسب حاجتها^(٣) ، وسار عثمان رضي الله عنه على نفس السياسة العمرية في اهتمامه بالخيل ، فقد كانت هذه الخيول مجهزةً للدفاع الفوري عن الدولة الإسلامية .

و- تعليم الغلمان ، وإعدادهم للجهاد :

اهتمامُ الخليفة الراشدون بتربية الأولاد ، وتعليمهم ما يفيدهم في حياتهم الجهادية مستقبلاً .

ز- متابعة دواوين الجند :

سار عثمان رضي الله عنه على نهج السياسة العمرية في اهتمامه بدواوين الجند ، وقد اهتمَ

(١) الولاية على البلدان (٢/٧٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه (٢/٧٤) .

رضي الله عنه اهتماماً خاصاً بدواوين الأنصار؛ لاعتقاده بأنَّ أهل الأنصار أحوج الناس للضبط، خصوصاً القرية من الأعداء، وهي الأنصار التي تحتاج إلى الجنود باستمرار، وقد كان الولاية على البلدان مسؤولين مباشرة عن دواوين الجند رغم وجود بعض الموظفين الآخرين؛ الذين يتولون مهامها، ولكن باعتبار أنَّ هؤلاء الولاية هم أمراء الحرب؛ فقد كانت مسؤوليتهم عن الدُّواوين في بلدانهم كمسؤولية الخليفة باعتبارهم نواباً^(١).

٤- تنفيذ المعاهدات :

إنَّ الفتوح الإسلامية في عهد الخلفاء الرَّاشدين صاحبتها مراسلاتٌ مع الأعداء، ومعاهداتٌ، ومصالحاتٌ كثيرةٌ بين المسلمين وأهل البلاد المفتوحة، وقد كان الأمراء على البلدان بصفتهم قادة الجندي مسؤولين مباشرةً عن عقد مثل هذه المصالحات، وعن تنفيذها^(٢).

٤- بذل الجهد في تأمين الأرزاق للناس :

اتَّبع الخلفاء الرَّاشدون منذ عصر أبي بكر الصَّدِيق رضي الله عنه طريقةً جديدةً لتوزيع الأعطيات على المسلمين من موارد بيت المال المختلفة، وقد كانت في البداية غير محدودةٍ بأوقاتٍ معينةٍ، ولكن في عهد عمر رضي الله عنه تغيَّرت بعد وضعه للدُّواوين في الأنصار المختلفة، حيث بدأ توزيع الأعطيات يأخذ شكلاً دورياً متتظماً، سار عليه عثمان رضي الله عنه، ولم يكتفُ الخليفة وولاته في العهد الرَّاشدي بتأمين الطعام، ومراقبة الأسواق فقط، بل إنَّ السُّكَن، وتوزيعه كان من المهام الموكلة لأمراء البلدان، كما كان الأمراء يشرفون على تقسيم البيوت في المدن المفتوحة^(٣).

٥- تعيين العمال والموظفين :

كان تعيين العمال، والموظفين في الوظائف التابعة للولاية في كثير من الأحيان من مهام الوالي؛ حيث إنَّ الولاية في الغالب تتكون من بلد رئيسيٍ إضافة إلى بلدان، وأقاليم أخرى تابعةً للولاية، وهي بحاجة إلى تنظيم أمورها، فكان الولاية يعينون من قبلهم عملاً وموظفيًّا في تلك المناطق، وفي عصر عثمان رضي الله عنه أصبح هؤلاء العمال التابعون للولاية يحكمون مناطق كبيرة، نظراً لتوسيع الولايات نتيجة الفتوح، وانضمام أقاليم كبيرة بأكملها إلى ولاياتٍ كانت

(١) المصدر السابق نفسه (٧٥/٢).

(٢) المصدر السابق نفسه (٧٧/٢).

(٣) المصدر السابق نفسه (٧٩/٢).

محددةً في السابق ، كالبصرة ، والكوفة ، والشام ، وغيرها ، وبالتالي فإنَّ توزُّع العمال ، وإداراتهم ، وتنظيمهم كان مهمَّةً كبيرةً ، من المهامُ التي يقوم بها ولاة البلدان .

٦- رعاية أهل الذمة :

كانت رعاية أهل الذمة ، واحترام عهودهم ، والقيام بحقوقهم الشرعية ، ومطالبتهم بما عليهم للMuslimين من واجباتٍ ، وتنشئ أحوالهم ، وأخذ حقوقهم ممَّن يظلمهم انطلاقاً من الأوامر الشرعية في هذا الجانب من واجبات الوالي^(١) .

٧- مشاوراة أهل الرأي في ولاته :

سار الخلفاء على نهج الرَّسُول ﷺ في مشاوراة أهل الرأي من الصحابة ؛ حيث كانوا يعقدون مجالس لكتاب الصحابة ، يستشرونهم في مختلف الأمور^(٢) ، كما كانوا يأمرون ولاتهم باستشارة أهل الرأي في بلادهم ، وكان الولاية يطبقون ذلك ويعقدون مجالس للناس لأخذ آرائهم^(٣) .

٨- النظر في حاجة الولاية العمرانية :

اشتهر عن الخلفاء الرَّاشدين وولاتهم عنائهم بحاجة السُّكَان في التَّواحي العمرانية والرَّراعية ، وفي عهد عثمان رضي الله عنه قام عبد الله بن عامر واليه على البصرة بحفر الآبار ، والعيون ليس في ولاية البصرة فحسب ، بل في أماكن أخرى عديدة^(٤) .

٩- مراعاة الأحوال الاجتماعية لسكان الولاية :

كان الولاية من منطلق تعاليم الإسلام الشاملة يراعون هذا الجانب بكلِّ ما فيه من تعليمات ، إلا أنَّ ولاة ذلك العصر ، وبتوجيهِ من الخلفاء الرَّاشدين ، قاموا بعض الأعمال الاجتماعية التي يصعب أن يقوم بها مَنْ هُمْ في مثل منصبهم ، كما حرص الخلفاء على أن ينزلوا النَّاس على منازلهم ، وأن يحترم الولاية أهل الشرف ، والسابقة في الإسلام ، ومن ذلك ، أنَّ عامل عثمان على الكوفة كتب إليه يشكو من غلبة الأعراب ، والروادف على أهل الشرف ، والبلاء ، والسابقة في الإسلام^(٥) ، فكتب إليه عثمان : أمَّا بعد : ففضل أهل السابقة ، والقدمة ممَّن فتح الله عليه تلك البلاد ، ول يكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم ، إلا أن يكونوا اثقلوا عن الحق ، وتركوا

(١) المصدر السابق نفسه (٢/٨٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه (٢/٨٢) . وتاريخ الطبرى (٥/٢٨٠) .

القيام به ، وقام به هؤلاء ، واحفظ لكلٌ منزلته ، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحقّ ، فإنَّ المعرفة بالنَّاس بها يصاب العدل^(١) .

١٠- أوقات عمل الوالي :

اشتهر عن الوليد بن عقبة والي عثمان على الكوفة : أنَّه لم يكن لداره بابٌ ، وأنَّه كان يستقبل النَّاس في جميع الأوقات ، وهذا يدلُّ على تمعُّن النَّاس بحرَّية مراجعة الأمير من غير حرج متى ما أرادوا ذلك لحاجة^(٢) ، فقد كان للوالي قسمٌ تابعٌ لبيته مفتوحٌ للناس متى أرادوا المجيء إليه ، مفصولٌ عن أهله ، وأولاده .

* * *

(١) الولاية على البلدان (٢/٨٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

المبحث الثالث

حقيقة ولادة عثمان رضي الله عنه

يكثُر المؤرخون من الحديث عن محاابة عثمان أقاربه ، وسيطربتهم على أزمة الحكم في عهده ، حتَّى أثاروا عليه نفقة كثيرٍ من النَّاس ، فثاروا ناقمين عليه إطلاقه يد ذوي قرباه في شؤون الدَّولة^(١) ، وأقارب عثمان الذين لا هم رضي الله عنه أوَّلهم معاوية ، والثاني عبد الله بن أبي السرح ، والثالث الوليد بن عقبة ، والرابع سعيد بن العاص ، والخامس عبد الله بن عامر ، هؤلاء خمسة ولا هم عثمان ، وهم من أقاربه ، وهذا في زعمهم مطعنٌ عليه ، فلنتظر أوَّلًا من هم ولادة عثمان رضي الله عنه ، هم : أبو موسى الأشعريُّ ، والقعقاع بن عمرو ، وجابر المزنيُّ ، وحبيب بن مسلمة ، وعبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد ، وأبو الأعور السُّلْمَانِيُّ ، وحكيم بن سلامة ، والأشعث بن قيس ، وجرير بن عبد الله البجلي ، وعيينة بن النَّهاس ، ومالك بن حبيب ، والسبير العجلي ، والسائل بن الأقرع ، وسعيد بن قيس ، وسلمان بن ربعة ، وخنيس بن حبيش ، والأحنف بن قيس ، وعبد الرَّحمن بن ربعة ، ويعلى بن مُتْيَة ، وعبد الله بن عمرو الحضرمي ، وعليٌّ بن ربعة بن عبد العزَّى ، هؤلاء هم ولادة عثمان رضي الله عنه .

فلو أخذنا إحصائية لوجدنا : أنَّ عدد الولاية ستة وعشرون ولياً ، لا يصح أن يكون خمسة من بني أميَّة يستحقُون الولاية وبخاصة إذا علمنا : أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يولي بني أميَّة أكثر من غيرهم ؟ ثمَّ يقال بعد ذلك : إنَّ هؤلاء الولاية لم يكونوا كُلُّهم في وقتٍ واحدٍ ، بل كان عثمان رضي الله عنه قد ولَّ الوليد بن عقبة ، ثمَّ عزله ، فولَّ مكانه سعيد بن العاص ، فلم يكونوا خمسة في وقتٍ واحدٍ ، وأيضاً لم ينوفَ عثمان إلا وقد عزل أيضًا سعيد بن العاص ، فعندما توفي عثمان لم يكن من بني أميَّة من الولاية إلا ثلاثة وهم : معاوية ، وعبد الله بن سعد بن أبي السَّرح ، وعبد الله بن عامر بن كريز فقط ، عزل عثمان الوليد بن عقبة ، وسعيد بن العاص ، ولكنَّه عزلهما من أين ؟ من الكوفة التي عزل منها عمر سعد بن أبي وقاص ، الكوفة التي لم ترض بواли أبداً ، إذاً عزل عثمان رضي الله عنه لأولئك الولاية لا يعتبر مطعناً فيهم ؛ بل مطعن في المدينة التي وُلِّا عليها^(٢) .

(١) الدَّولَةُ الْأُمُوَّةُ الْمُقْتَرِيُّ عَلَيْهَا ، ص (١٥٩) .

(٢) حَبَّةٌ مِّنَ التَّارِيخِ ، ص (٧٥) .

إنَّ بُنَيَّ أُمِّيَّةٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي حَيَاةِهِ ، وَاسْتَعْمَلُهُمْ بَعْدَهُ مَنْ لَا يَئِمُّهُ بِقِرَابَةِ فِيهِمْ : أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرٌ ، رضي الله عنهم ، وَلَا نَعْرِفُ قَبِيلَةً مِنْ قَبَائِلِ قَرِيشٍ فِيهَا عَمَالٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْثَرُ مِنْ بُنَيَّ أَبَدِ شَمْسٍ ؛ لَأَنَّهُمْ كَانُوا كَثِيرِينَ ، وَكَانُوا فِيهِمْ شَرْفٌ وَسُؤُدٌ ، فَاسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَتَابَ بْنَ أَسِيدَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ عَلَى مَكَّةَ ، وَأَبَا سَفِيَّانَ بْنَ حَرْبٍ عَلَى نَجْرَانَ ، وَخَالِدَ بْنَ سَعِيدَ عَلَى صِدْقَاتِ بُنَيَّ مَذْجُحٍ ، وَأَبْيَانَ بْنَ سَعِيدَ عَلَى بَعْضِ السَّرَايَا ثُمَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ ، فَعَثَمَانَ رضي الله عنه لم يستعمل إلا من استعمله النبي ﷺ ، وَمِنْ جَنْسِهِمْ ، وَقَبِيلَتِهِمْ ، وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرَ بَعْدَهُ ، فَقَدْ وَلَى أَبُو بَكْرَ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سَفِيَّانَ فِي فَتوْحِ الشَّامِ ، وَأَفْرَاهُ عَمَرٌ ، ثُمَّ وَلَى عَمَرَ بَعْدَهُ أَخَاهُ مَعَاوِيَةَ^(١) .

وَسُؤَالُ الَّذِي يَطْرُحُ نَفْسَهُ أَثْبَتْ هُؤُلَاءِ كَفَاءَتِهِمْ أَمْ لَا ؟ وَسْتَأْتِي شَهَادَاتُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي أُولَئِكَ الْوَلَادَاتِ الَّذِينَ وَلَاهُمْ عَثَمَانَ رضي الله عنه بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى .

إِنَّ عَثَمَانَ خَلِيفَةً رَاشِدًا ، يُقْتَدِيُ بِهِ ، وَأَفْعَالُهُ تُشَكَّلُ سَوَابِقُ دُسْتُورِيَّةً فِي هَذِهِ الْأَمَّةِ فَكَمَا أَنَّ عَمَرَ سَنَّ لَمَنْ بَعْدَهُ التَّحْرُجَ عَنْ تَقْرِيبِ الْأَقْرَبَيْنِ ، فَإِنَّ عَثَمَانَ سَنَّ لَمَنْ بَعْدَهُ تَقْرِيبَ الْأَقْرَبَيْنِ إِذَا كَانُوا أَهْلَ كَفَاءَةٍ ، وَمِنْ تَبْيَعِ سِيرَةِ عَثَمَانَ لَا يُشَكُُّ فِي كَفَاءَتِهِمُ الْإِدَارِيَّةِ ، وَكُلُّ مَا أَنْكَرَ عَلَى عَثَمَانَ لَا يَخْرُجُ عَنْ دَائِرَةِ الْمَبَاحِ^(٢) .

إِنَّ الْوَلَادَاتِ الَّذِينَ وَلَاهُمْ عَثَمَانَ رضي الله عنه مِنْ أَفَارِبِهِ قَدْ أَثْبَتُوا الْكَفَاءَةَ وَالْمَقْدِرَةَ فِي إِدَارَةِ شَؤُونِ وَلَيَاتِهِمْ ، وَفَتْحِ اللَّهِ عَلَى أَيْدِيهِمُ الْكَثِيرُ مِنَ الْبَلْدَانِ ، وَسَارُوا فِي الرَّعْيَةِ سِيرَةِ الْعَدْلِ ، وَالْإِحْسَانِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَقْلَدَ مَهَامَ الْوَلَايَةِ قَبْلَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ الصَّدِيقِ وَالْفَارُوقِ رضي الله عنهُمَا^(٣) ، وَلِنَنْظُرْ إِلَى أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي أُولَئِكَ الْوَلَادَاتِ :

أَوْلًاً : مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفِيَّانَ بْنِ حَرْبِ الْأَمْوَيِّ :

ذَكَرَ الْمُتَرَجِّمُونَ لِهَذَا الصَّحَابِيِّ الْكَرِيمِ فَضَالِّلَ جَمَّةً ، وَإِلَيْكَ شَيْئًا مِنْهَا :

١- مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

اَشْتَرَكَ مَعَاوِيَةَ رضي الله عنه في غزوَةِ حَنْينِ، قَالَ تَعَالَى : « ثُمَّ اَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ حُنُودًا تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الظَّالِمِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكُفَّارِ » [التوبَة : ٢٦].

(١) منهاج السنة (٣/١٧٥ ، ١٧٦) .

(٢) الأسس في السنة (٤/١٦٧٥) .

(٣) تحقيق موافق الصحابة من الفتنة (١/٤١٧) .

ومعاوية رضي الله عنه من الذين شهدوا غزوة حنين ، وكان من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبي ﷺ^(١) .

٢- من الشّتّة :

دعا الرّسول ﷺ لمعاوية رضي الله عنه ، ومن ذلك قوله ﷺ : « اللّهُمَّ اجعله هادياً^(٢) مهدياً^(٣) ، واهد به»^(٤) . وقوله ﷺ : « اللّهُمَّ علِّمْ معاوية الكتاب ، والحساب ، وقه العذاب»^(٥) . وقال رسول الله ﷺ : « أَوَّل جيشٍ مِّنْ أُمّتي يغزوون الْبَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا»^(٦) . قالت أم حرام : قلت : يا رسول الله ! أنا فيهم ؟ قال : « أَنْتَ فِيهِمْ » . ثُمَّ قال النّبِيُّ ﷺ : « أَوَّل جيشٍ مِّنْ أُمّتي يغزوون مدِينةَ قِيسَرٍ»^(٧) مغفور لهم ». فقلت - أي أم حرام - أنت فيهم يا رسول الله ؟ قال : « لا»^(٨) . قال المهلب^(٩) : « في هذا الحديث منقبة لمعاوية ؛ لأنَّه أَوَّل من غزا الْبَحْرَ»^(١٠) .

٣- ثناء أهل العلم على معاوية رضي الله عنه :

أ- ثناء عبد الله بن عباس رضي الله عنهمَا عليه :

قيل لابن عباس رضي الله عنهمَا : هل لك في أمير المؤمنين معاوية ، فإنه ما أوتر إلا بواحدة ، قال : إِنَّهُ فقيه^(١١) . وممَّا يناسب المقام ذكر بعض المسائل الفقهية التي أثرت عن معاوية رضي الله عنه ، ومن تلك المسائل ما يلي :

- أثر عنه رضي الله عنه أنه أوتر برکعة .

(١) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبرى ، خالد الغيث ، ص (٢٣) .

(٢) هادياً : للناس ، أو دالاً على الخير .

(٣) مهدياً : أي مهدياً في نفسه .

(٤) صحيح سنن الترمذى للألبانى (٢٣٦ / ٣) .

(٥) موارد الظمان (٢٤٩ / ٧) إسناده حسن .

(٦) أوجبوا : أي : فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنَّة . فتح الباري (١٢١ / ٦) .

(٧) مدينة قيسر : يعني القسطنطينية .

(٨) البخاري ، رقم (٢٩٢٤) .

(٩) المهلب بن أحمد الأندلسى ، مصنف شرح صحيح البخاري توفي ٤٣٥ هـ .

(١٠) فتح الباري (١٢٠ / ٦) .

(١١) المصدر السابق نفسه (١٣٠ / ٧) .

- أثر عنه رضي الله عنه الاستسقاء بمن ظهر صلاحه^(١) .

- آلة يجزئ إخراج نصف صاع من البر في زكاة الفطر^(٢) .

- استحباب تطيب البدن لمن أراد الإحرام^(٣) .

).

- جواز بيع وشراء دور مكة^(٤) .

- التفريق بين الزوجين بسبب^(٥) العنة^(٦) .

- وقوع طلاق السّكران .

- عدم قتل المسلم بالكافر قصاصاً .

- حبس القاتل حتى يبلغ ابن القتيل^(٧) .

بـ- ثناء عبد الله بن المبارك على معاوية رضي الله عنه :

قال عبد الله بن المبارك : معاوية عندنا محنٌة ، فمن رأيناها ينظر إليه شزاراً ؛ اتهمناه على القوم ، يعني : الصّحابة^(٨) .

جـ- ثناء أحمد بن حنبل :

سئل الإمام أحمد - رحمه الله - : ما تقول رحمك الله فيمن قال : لا أقول : إن معاوية كاتب الوحي ، ولا أقول : إله خال المؤمنين ، فإنه أخذها بالسيف غصباً؟^(٩) قال أبو عبد الله : هذا قول سوء رديء ، تجانبون هؤلاء القوم ، ولا يجالسون ، ونبيئ أمرهم للناس^(١٠) .

دـ- ثناء القاضي ابن العربي على معاوية رضي الله عنه :

تحدث ابن العربي عن الخصال التي اجتمعت في معاوية رضي الله عنه ، فذكر منها :

(١) المغني لابن قادمة (٣٤٦/٣) .

(٢) زاد المعاد (١٩/٢) .

(٣) المغني (٧٧/٥) .

(٤) المصدر السابق السابق (٣٦٦/٦) .

(٥) العنة : هي عجز الرجل عن إتيان زوجته ، القاموس المحيط (١٥٧٠) .

(٦) مرويات خلافة معاوية ، ص (٢٨) .

(٧) المصدر السابق نفسه ، ص (٢٩) .

(٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) مرويات خلافة معاوية ، ص (٢٨) .

(١٠) السنة للخلال ، تحقيق عطية الزهراني (٤٣٤/٢) .

قيامه بحماية البيضة ، وسدّ التّغور ، وإصلاح الجند ، والظهور على العدو ، وسياسة الخلق^(١) . وقد علق محب الدين الخطيب على هذا النصّ بقوله : وقد بلغ من همته - يعني : معاوية - وعظيم عنایته بذلك أن أرسل يهـدـ ملك الرـوـم وهو في معمعة القتال مع عليـ في صفين ، وقد بلغه : أنـ مـلـكـ الرـوـمـ اقتـرـبـ منـ الحـدـودـ فيـ جـنـوـدـ عـظـيمـةـ^(٢) ، وفي ذلك يقول ابن كثير : وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاها ، وأذله ، وقهر جنده ، ودحاهـ ، فـلـمـاـ رـأـيـ مـلـكـ الرـوـمـ اشـتـغـالـ مـعـاوـيـةـ بـحـربـ عـلـيـ تـدـانـىـ إـلـىـ بـعـضـ الـبـلـادـ فيـ جـنـوـدـ عـظـيمـةـ ، وـطـمـعـ فـيـ ، فـكـتـبـ مـعـاوـيـةـ إـلـيـهـ : وـالـلـهـ لـئـنـ لـمـ تـنـتـهـ ، وـتـرـجـعـ إـلـىـ بـلـادـكـ يـاـ لـعـيـنـ !ـ لـأـصـطـلـحـنـ أـنـاـ وـابـنـ عـمـيـ عـلـيـ ، وـلـأـخـرـجـنـكـ مـنـ جـمـيـعـ بـلـادـكـ ، وـلـأـضـيـقـنـ عـلـيـ الـأـرـضـ بـمـاـ رـحـبـتـ !ـ فـعـنـدـ ذـلـكـ خـافـ مـلـكـ الرـوـمـ ، وـبـعـثـ يـطـلـبـ الـهـدـنـةـ^(٣) .

هـ- ثناء ابن تيمية على معاوية رضي الله عنه :

قال عنه ابن تيمية : . . . فإنـ مـعـاوـيـةـ ثـبـتـ عـنـهـ بـالـتـوـاتـرـ :ـ أـنـهـ أـمـرـهـ الـبـيـبـلـلـهــ ،ـ كـمـاـ أـمـرـ غـيـرـهـ ،ـ وـجـاهـدـ مـعـهـ ،ـ وـكـانـ أـمـيـنـاـ يـكـتـبـ لـهـ الـوـحـيـ ،ـ وـمـاـ أـتـهـمـهـ الـبـيـبـلـلـهــ فـيـ كـتـابـةـ الـوـحـيـ ،ـ وـوـلـاـهـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ ،ـ الـذـيـ كـانـ مـنـ أـخـبـرـ النـاسـ بـالـرـجـالـ ،ـ وـقـدـ ضـرـبـ الـلـهـ الـحـقـ عـلـىـ لـسـانـهـ ،ـ وـقـلـبـهـ ،ـ وـلـمـ يـتـهـمـهـ فـيـ وـلـايـتـهـ^(٤) .

وـ- ثناء ابن كثير عليه :

قال عنه ابن كثير : وأجمعـتـ الرـعـاعـاـيـاـ عـلـىـ بـيـعـتـهـ فـيـ سـنـةـ إـحـدـىـ وـأـرـبـعـينـ . . . فـلـمـ يـزـلـ مـسـتـقـلاـ بـالـأـمـرـ فـيـ هـذـهـ الـمـدـدـةـ إـلـىـ هـذـهـ السـنـةـ الـتـيـ كـانـتـ فـيـهـاـ وـفـاتـهـ ،ـ وـالـجـهـادـ فـيـ بـلـادـ الـعـدـوـ قـائـمـ ،ـ وـكـلـمـةـ الـلـهـ عـالـيـةـ ،ـ وـالـغـنـائـمـ تـرـدـ إـلـيـهـ مـنـ أـطـرـافـ الـأـرـضـ ،ـ وـالـمـسـلـمـونـ مـعـهـ فـيـ رـاحـةـ ،ـ وـعـدـلـ ،ـ وـصـفـحـ ،ـ وـعـفـوـ ،ـ وـقـالـ أـيـضاـ :ـ كـانـ حـلـيـماـ^(٥) ،ـ وـقـوـراـ،ـ رـئـيـساـ،ـ سـيـدـاـ فـيـ النـاسـ ،ـ كـرـيـماـ،ـ عـادـلـاـ،ـ شـهـماـ^(٦)ـ .ـ وـقـالـ عـنـهـ أـيـضاـ :ـ كـانـ جـيـدـ السـيـرـةـ ،ـ حـسـنـ الـتـجـاـوزـ ،ـ جـمـيلـ الـعـفـوـ ،ـ كـثـيرـ السـتـرـ ،ـ رـحـمـهـ اللـهـ تـعـالـىـ^(٧)ـ .ـ

(١) العواصم من القواسم ، ص (٢١٠ ، ٢١١) .

(٢) مرويات خلافة معاوية ، ص (٣١) .

(٣) البداية والنهاية (٨/١١٩) .

(٤) الفتاوى (٤/٤٧٢). والبداية والنهاية (٨/١٢٢) . وسير أعلام الثلبة (٣/١٢٩) .

(٥) أفرد ابن أبي الدنيا ، وأبو بكر بن أبي عاصم تصنيفـاـ فيـ حـلـمـ مـعـاوـيـةـ .

(٦) البداية والنهاية (٨/١١٨) .

(٧) المصدر السابق نفسه (٨/١٢٦) .

٤- روایته للحدیث :

يعدُّ معاوية رضي الله عنه من الذين نالوا شرف الرِّواية عن رسول الله ﷺ ، ومرد ذلك إلى ملازمته لرسول الله ﷺ بعد فتح مكة ، لكونه صهره ، وكاتبه ، رضي الله عنه ، هذا وقد روى معاوية رضي الله عنه مئة وثلاثة وستين حديثاً عن رسول الله ﷺ ، اتفق له البخاريُّ ، ومسلمُ على أربعة أحاديث ، وانفرد البخاريُّ بأربعة ، ومسلمُ بخمسة^(١) . وكانت سيرة معاوية رضي الله عنه مع الرَّعية في ولايته من خير سير الولاية مما جعل الناس يحبونه ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ قال : « خيار أئمتكم - حكامكم - الذين تحبُّونهم ، ويحبُّونكم ، وتصلُّون عليهم - تدعون لهم - وتصلُّون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ، ويبغضونكم ، وتلعنونهم ، ويلعنونكم »^(٢) . وأختتم حديثي عن معاوية رضي الله عنه بما قاله القاضي أبو بكر ابن العربي : فعمرو لاه ، وجمع له الشَّامات كلها ، وأقرَّه عثمان ، بل إثما لاه أبو بكر الصَّدِيق ؛ لأنَّه ولَى أخيه يزيد ، واستخلفه يزيد ، فأقرَّه عمر ، لتعلُّقه بولاية أبي بكر لأجل استخلاف واليه له ، فتعلَّق عثمان بعمر وأقرَّه ، فانظر إلى هذه السَّلسلة ما أوثق عرها^(٣) ! ثبت : أنَّ رسول الله ﷺ استكتبه . . . فيكون سند ولايته الأعمال في الدولة الإسلامية لم يكن لأحد قبله ، ولم يكن لأحدٍ بعده ، حيث اجتمع على توليته : رسول الله ﷺ ، ومن بعده خلفاؤه الثلاثة ، ثمَّ صالحه وأقرَّ له بالخلافة الحسن بن عليٍّ سبط رسول الله ﷺ^(٤) .

ثانياً : عبد الله بن عامر بن كريز :

هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشى العبشمى^(٥).

ولد في عهد رسول الله ﷺ وذلك في السنة الرابعة للهجرة^(٦) ، وعندما اعمر الرسول الكريم رضي الله عنه في السنة السابعة للهجرة عمرة القضاء ، ودخل مكة ؛ حمل إلينه عبد الله بن عامر ، قال ابن حجر : . . . فلتمظ ، وتناءب ، فتغل رسول الله في فيه ، وقال : « هذا ابن الشلمية ؟ » : قالوا : نعم ، فقال : « هذا أشبهنا » ، وجعل يتغل في فيه ، ويعوده فجعل يبتلع

(١) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبرى ، ص (٣٣) .

(٢) مسلم ، كتاب الإمارة ، رقم (٦٥) .

(٣) العواصم من القواسم ، ص (٨٢) .

(٤) المدينة المنورة ، فجر الإسلام والعصر الرّاشدي (٢١٦/٢) .

(٥) البداية والنهاية (٩١/٨).

٦) تهذيب التهذيب (٢٧٢/٥).

ريق النبي ﷺ ، فقال : « إِنَّهُ لِمَسْقِيٌّ » ، فكان لا يعالج أرضاً إلا ظهر له الماء^(١) .

لم يتول عبد الله بن عامر منصباً إدارياً ، أو عسكرياً إلى أن أصبح والياً على البصرة سنة ٢٩ هـ / ٦٤٩ م ، وهو ابن خال الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ لأن أم عثمان هي أروى بنت كريز بن ربيعة ، وكانت أم عبد الله بن عامر من بنى سليم^(٢) .

ولما عين لولاية البصرة ؛ كان عمره أربعاً ، أو خمساً وعشرين^(٣) ، وظلّ والياً على البصرة حتى مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه عندما تجهّز بجيش كبير ، وحمل ما عنده من الأموال ، فسار إلى مكة حيث وافى الرّبّير ، ورجع منها إلى البصرة ، فشهد موقعة الجمل ، ولم يحضر موقعة صفين ، على الرّغم من أن القلقشند ذكر : أنه كان في التحكيم مع معاوية بصفين^(٤) ، وفي خلافة معاوية تولى إمارة البصرة لمدة ثلاثة سنوات ، ثم عزله عنها ، فأقام بالمدينة ، ومات بها سنة سبع وخمسين للهجرة^(٥) ، وفي رواية ابن قتيبة : أنه توفى بمكة ، ودفن بعرفات عام تسع وخمسين^(٦) . وأشاد ابن سعد به قائلاً : كان عبد الله شريفاً ، سخيناً ، كريماً ، كثير المال ، والولد ، محباً للعمران^(٧) ، وقال عنه ابن حجر : كان جواداً ، كريماً ، ميموناً . . . جريئاً ، شجاعاً^(٨) ، وكان يعتبر من أجود أهل البصرة^(٩) . ومن أجود أهل الإسلام^(١٠) .

وكان لعبد الله بن عامر أثر حميد في الفتوحات ، فقد تمكّن من القضاء على آمال الفرس بشكلٍ تام عندما قضى على آخر رقمٍ من الأمل الفارسي القديم ، وذلك بقضاءه على آخر ملوكهم يزجerd ابن شهريار بن كسرى ، وخرزاد مهر أخي رستم اللذين تزعّماً المعارضة الفارسية ضد المسلمين .

(١) سير أعلام النبلاء (٣/١٩)، تهذيب التهذيب (٥/٢٧٣)، وأسد الغابة (٣/٢٩٣) رقم (٣٠٣١).

(٢) الطبقات (٥/٣١). وتهذيب التهذيب (٥/٢٧٢).

(٣) البداية والنهاية (٨/٩١).

(٤) مجلة المؤرخ العربي ، رقم (٢١)، ص (١٢٨).

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/٢١).

(٦) المعارف ، ص (٣٢١).

(٧) مجلة المؤرخ العربي ، رقم (٢١)، ص (١٢٩).

(٨) تهذيب التهذيب (٥/٢٧٢).

(٩) العقد الفريد (١/٢٩٣ - ٢٩٤).

(١٠) صبح الأعشى (١/٤٥١ - ٤٥٠).

وإضافة إلى براعة عبد الله بن عامر في الشؤون الإدارية ، والعسكرية ، فإنَّه كان مهتماً بالمعارف الإسلامية ، ويروى : أنه روى حديثاً عن النبي ﷺ ، وقال ابن قتيبة : لم يرو عن رسول الله إلا حديثاً واحداً^(١) ، غير أنه لم يكن له رواية في الكتب السنتة^(٢) ، أمَّا الحديث النبوي ، الذي رواه ، فقد أورد ابن قانع ، وابن منه عن طريق مصعب الرئيري : حدثني أبي عن جدي مصعب بن ثابت ، عن حنظلة بن قيس ، عن عبد الله بن الرئيري ، وعبد الله بن عامر : أن رسول الله ﷺ قال : « من قُتل دون ماله فهو شهيد »^(٣) .

إصلاحاته الاقتصادية في البصرة :

يفترن باسم عبد الله بن عامر عدد من الإصلاحات في البصرة ، لا تقل أهميةً عن إنجازاته العسكرية الفذة المتمثلة في انتصاراته العديدة على المجروس ، وتبعه لفلولهم المنهزمة ، وقضاءه على آمال يزدجرد ، فقد كانت إصلاحاته الاقتصادية مماثلةً في عنايته بسوق البصرة ، فقد اشتري هذا السوق من ماله ، ووهبه لأهله^(٤) ، وكان السوق يتوسط البصرة ، وهذا اختيار جيد؛ خليفة بن خيَّاط من أَنَّ السوق قائمٌ على ضفاف النَّهْرِ الذي يتَوَسَّطُ البصرة ، وهذا اختيار جيد؛ لأنَّه يجعل السوق مركزاً مهماً في وسط المدينة ، ولعلَّ من أبرز أعماله الإصلاحية في البصرة في ميدان الرَّى ، وقد اهتمَ ابن عامر بهذه المسألة اهتماماً كبيراً ، وذكر ابن قتيبة : أَنَّ ابن عامر احتفر بالبصرة نهرين أحدهما في الشَّرق ، والآخر يعرف بأَمْ عبد الله ، وهو منسوب إلى أمَ عبد الله بن عامر^(٥) ، وأمر عبد الله بن عامر زيد بن أبي سفيان بحفر الأَبْلَة ، وكان زيد والياً على الديوان ، وبيت المال من قِبَل عبد الله بن عامر ، وكان يستخلفه في مكانه عند توجُّهه للفتح^(٦) ، وذكر خليفة بن خيَّاط : أَنَّ زيداً احتفر نهر الأَبْلَة حتَّى انتهى إلى موضع الجبل ، والذي تولَّ حفره لزيد عبد الرحمن بن أبي بكرة^(٧) ، فلما فتح عبد الرحمن الماء جعل يركض فرسه ، والماء يكاد يسبقه^(٨) .

(١) المعارف ، ص (٣٢١) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) الحاكم في المستدرك (٦٣٩/٣) إسناده ضعيف وله ما يقويه في الباب .

(٤) الطبقات الكبرى (٥/٧٣) . ومجلة المؤرخ العربي هي العمدة في ترجمتي لعبد الله بن عامر ، حيث استندت من الأستاذ محمد حمادي جزاه الله خيراً .

(٥) مجلة المؤرخ العربي رقم (٢١) ، محمد حمادي ، ص (١٣٤) .

(٦) فتوح البلدان للبلاذري ، ص (٣٥١) .

(٧) تاريخ خليفة بن خيَّاط (١/١٤٢) .

(٨) فتوح البلدان ، ص (٣٥١) .

وحرر عبد الله بن عامر حوضاً نسب إلى أمّه ، وهو حوض أمّ عبد الله بن عامر بالبصرة منسوب إليها^(١) ، وذكر البلاذري : أنَّ عبد الله بن عامر حفر نهرأً ، تولَّ أمر حفره له نافذ مولاه ، فغلب عليه ، فقيل نهر نافذ^(٢) ، وهناك نهر مُرَّة لابن عامر تولَّ حفره له مَرَّة مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فغلب على ذكره^(٣) ، وهناك نهر الأساورة الذي حفره لهم عبد الله بن عامر^(٤) .

ويذكر البلاذري قنطرة قرة بالبصرة ، فيقول : قنطرة قرة نسبة إلى قرة بن حيان الباهلي ، وكان عندها نهر قديم ثمَّ اشتراه أمُّ عبد الله بن عامر ، فتصدَّقت به مغيثاً لأهل البصرة^(٥) .

ممَّا تقدَّم ، يتبيَّن لنا : أنَّ عبد الله بن عامر كان مهتماً بحفر الأنهر من أجل ازدهار الزراعة ؛ التي هي عماد الحياة الاقتصادية ، إضافةً إلى موقع البصرة الاستراتيجي بالنسبة إلى طرق التجارة ، وأهميتها العسكرية كقاعدة للفتوحات الإسلامية في المشرق ، ويمكن أن نلاحظ مدى رغبة عبد الله بن عمر في الإصلاح من خلال قوله : لو تركت ؟ لخرجت المرأة في حاجتها على دايتها ، ترد كلَّ يوم على ماء ، وسوقِ ، حتَّى توافي مكَّة^(٦) .

وفي الحقيقة : أنَّ إصلاحاته هذه لا تقلُّ أهميَّة عن الفتوحات في المشرق التي قام بها ، فقد كانت البصرة هي القاعدة العسكرية للخلافة في فتوحاتها ببلاد المشرق ، وأشار الدكتور صالح العلي إلى : أنَّ الفتوح الواسعة أدَّت إلى ازدياد دخُل البصرة وانتشار الرَّخاء الاقتصادي فيها ، مما شجع التجار ، ورجال الأعمال على التَّقاطر إليها ، وبذلك بدأت الحياة المدنية تنمو سريعاً في البصرة^(٧) ، لقد كانت الحالة المالية لإماراة البصرة جيدةً جدًا ، نتيجةً للفتوح الواسعة في المشرق ، والنشاط الاقتصادي التجاري للبصرة ، واستقرار الأمن فيها ، وكان عبد الله بن عامر رجلاً متواضعاً ، فاتحاً بابه لجميع النَّاس حتَّى إنَّه عاقب الحاجب ، وأمره لا يغلق بابه ليلاً ، ولا نهاراً^(٨) ، وفي الحقيقة أصبح ابن عامر ذا شهرة واسعة بالبصرة ، قال ابن سعد : كان النَّاس

(١) مجلة المؤرخ العربي رقم (٢١) ، عبد الله بن عامر ، ص (١٣٤) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (١٣٥) . وفتح البلدان ، ص (٣٥٤) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (١٣٦) . وفتح البلدان ، ص (٣٥٤) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص (١٣٦) .

(٥) فتح البلدان ، ص (٣٥٣ - ٣٥٤) .

(٦) المعارف لابن قتيبة ، ص (٣٢١) .

(٧) التنظيمات الاجتماعية ، والاقتصادية ، ص (٣٠ - ٣١) .

(٨) مجلة المؤرخ العربي العدد (٢١) عبد الله بن عامر ، محمد حمادي ، ص (١٣٨) .

يقولون : قال ابن عامر ، وفعل ابن عامر^(١) ، ونتيجة لأعماله الإصلاحية ، وسيرته الحميدة ، فقد أزدأ حب الأمة له^(٢) .

وظلَّ ابن عامرٍ عليها إلى أن قتل الخليفة عثمان رضي الله عنه^(٣) .

فهذا عبد الله بن عامر أحد ولادة عثمان ، فهو الذي شقَّ نهر البصرة ، وأول من اتَّخذ الحياض بعرفات ، وأجرى إليها العين^(٤) ، وهو الرَّجل الذي له من الحسنات ، والمحبة في قلوب الناس ما لا يُنكر ، كما يقول ابن تيمية^(٥) . وقال فيه الذهبي : وكان من كبار أمراء العرب ، وشجاعتهم ، وأجوادهم ، وكان فيه رفقٌ ، وحلم^(٦) .

ثالثاً : الوليد بن عقبة :

هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، الأمير أبو وهب الأموي ، له صحبة قليلة^(٧) ، وهو أخو عثمان لأمه .

كان الوليد بن عقبة من رجال الدُّولة الإسلامية على عهد أبي بكرٍ ، وعمر اللذين كانا يتخِّرُان للأعمال ذوي الكفاءة ، والأمانة من الرجال ، وكان ذلك من أعظم أسباب ذلك الانتشار السريع على أوسع نطاقٍ للإسلام على عهدهما ؛ وأنَّه كان محلَّ ثقة ، واعتماد الخليفتين ، وممَّن وسَدَ إليه الأمور المهمة ؛ لما كانوا يريان فيه من الكفاءة ، وصدق الإيمان^(٨) ، وأول عملٍ له في خلافة الصَّدِيق : أنَّه كان موضع السُّرُّ في الرسائل الحربية التي دارت بين الخليفة ، وقائده خالد بن الوليد في وقعة المدار مع الفرس ١٢ هـ^(٩) ، ثمَّ وجَّهه مددًا إلى قائدِه عياض بن غنم الفهري^(١٠) ، وفي سنة ١٣ هـ كان الوليد يلي لأبي بكرٍ صدقات قضاعة ، ثمَّ لَمَّا عزم الصَّدِيق على فتح الشَّام كان الوليد عنده بمنزلة عمرو بن العاص في

(١) الطَّبقات (٥/٣٣) .

(٢) مجلة المؤرخ العربي ، عبد الله بن عامر ، العدد (٢١) ، محمد جاسم حمادي ، ص (١٣٨) .
البداية والنهاية (٨/٩١) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) منهاج السنة (٣/١٨٩ ، ١٩٠) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/٢١) .

(٦) المصدر السابق نفسه ، (٣/٤١٢ ، ٤١٣) .

(٧) فضل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص (٧٨) .

(٨) تاريخ الطبرى (٤/١٦٨) .

(٩) المصادر السابق نفسه ، ص (٤/١٩٤) .

(١٠) المصادر السابق نفسه ، ص (٤/١٩٤) .

الحرمة ، والثقة ، والكرامة ، فكتب إلى عمرو بن العاص ، وإلى الوليد بن عقبة يدعوهما لقيادة فيلق الجهاد ، فسار ابن العاص بلواء الإسلام نحو فلسطين ، وسار الوليد بن عقبة قائداً إلى شرق الأردن^(١) ، ثمَّ رأينا الوليد في سنة ١٥ هـ على عهد عمر أميراً على بلادبني تغلب ، وعرب الجزيرة^(٢) .

وكان في ولايته هذه يحمي ظهور المجاهدين في بلاد الشَّام ؛ لئلا يؤتوا من خلفهم ، وانتهز الوليد فرصة ولايته على هذه الجهة التي كانت لا تزال مليئة بالنصارى ، فكان من جهاده الحربيّ ، وعمله الإداري داعياً إلى الله ، يستعمل أساليب الحكم ، والموعظة الحسنة لحمل نصارى إيمان ، وتغلب على الدُّخول في الإسلام^(٣) .

وبهذا الماضي المجيد جاء الوليد في خلافة عثمان ، فتولى الكوفة له ، وكان من خير ولايتها عدلاً ، ورفقاً ، وإنحساناً ، وكانت جيشه مددًا ولايته على الكوفة تسير في آفاق الشرق فاتحة ظافرةً موقفةً ، كما شهد له بذلك بظهر الغيب قاضٍ من أعظم قضاء الإسلام في التاريخ علماً ، وفضلاً ، وإنصافاً وهو التابعى الجليل الإمام الشعبي^(٤) ، فقد أثنى على غزوه وإمارته بقوله حين ذُكر له غزو مسلمة بن عبد الملك^(٥) : كيف لو أدركتم الوليد ، وغزوه ، وإمارته ، إنَّه كان ليغزو ، فيتهي إلى كذا ، وكذا ، ما نقض ، ولا انتقض عليه أحدٌ حتَّى عُزل عن عمله .

وقد كان الوليد رضي الله عنه أحبَّ النَّاس إلى النَّاس وأرفقهم بهم ، وقد أمضى خمس سنين ، وليس في داره باب^(٦) ، وقد قال عثمان رضي الله عنه : ما وليت الوليد لأنَّه أخي ، وإنَّما وليته لأنَّه ابن أم حكيم البيضاء عمَّة رسول الله ﷺ ، وتوءمة أبيه . والولاية اجتهاود وقد عزل عمر سعد بن أبي وقاص وقدم أقلَّ منه درجة^(٧) .

والمستعرض لسيرة هذا الصحابي الجليل ، والبطل الإسلامي العظيم ؛ الذي كان محلَّ ثقة الخلفاء الرَّاشدين الثلاثة لا يرتباً ، فإنه أهلٌ للولاية ، وإنَّما تساوره الشُّكوك في ثبوت ما قيل

(١) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص (٧٨) .

(٢) تاريخ الطبرى (٢٩ / ٥ ، ٢٨) .

(٣) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص (٧٨) .

(٤) مسلمة بن عبد الملك بن مروان أحد القادة الفاتحين توفي (١٢٠ هـ) .

(٥) التَّهْمِيدُ وَالبَيَانُ ، ص (٤٠) .

(٦) تاريخ الطبرى (٢٥١ / ٥) .

(٧) العواصم من القواسم ، ص (٨٦) .

فيه من نزول الآية فيه ، وتسميتها فاسقاً ، وشربه للخمر ، والأمر يحتاج إلى تحقيق ، وإليك بحث هذين الأمرتين^(١) .

هل ثبت بأن الوليد نزلت فيه الآية ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيٌ﴾ [الحجرات : ٦] ؟

قال تعالى : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيٌ فَبَيِّنُوهُ أَن تُصِيبُوا فَوْمًا بِعَهْلَةٍ فَتُصِيبُوهُ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمَيْنَ» [الحجرات : ٦] .

يتناقل الرواة في ذلك قصّة تقول : إنَّ رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصططلق مصدقاً ، فأخبر عنهم أنَّهم ارتدوا ، وأبوا في أداء الصدقة ، وذلك أنَّهم خرجوا إليه ، فهابهم ، ولم يعرف ما عندهم ، فانصرف عنهم ، وأخبر بارتدادهم ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ، وأمره أن يتثبت فيهم ، فأخبروه : أنَّهم متمسكون بالإسلام ، ونزلت الآية^(٢) . وقد جاءت روایات عديدة ، وليس للقصة سندٌ موصولٌ صحيحٌ^(٣) ، وأقلُّ ما يوصف به سند القصة : أنَّه ضعيف ، وإذا قبلوا الأسانيد الضعيفة في فضائل الأعمال التي لا تحل حراماً ، ولا تحرّم حلالاً ، فإنَّنا لا نقبل السند الضعيف في قصة الوليد ؛ لأنَّه يحل حراماً ، وهو وصف رجلٍ صحب الرَّسُول ﷺ - ولو يوماً - بأنَّه فاسق .. وكيف قبل السند الضعيف والآية نفسها تحت على التثبت في قول الأخبار ، فهذه الآية وضعت أصل علم الرَّواية ..^(٤) .

إنَّ قصَّةَ الوليد بن عقبة ، فيما نسبوه إليه ، لا تُقبلُ فيها إلا الأخبار الصَّحيحة السَّند ، والمتمن ؛ لأنَّها تصفه بالفسق ، وهذا مطبعٌ لا يتناهى في قوله إذا وصف به رجلٌ من عرض النَّاس في العصر الحديث بعد خمسة عشر قرناً من عصر الدَّعوة ، فكيف يتناهى في نسبتها إلى رجلٍ عاش في العهد النَّبويّ ، وفي عهد الخلفاء الرَّاشدين ، وأوكلاهُمْ بأعمالاً ذات خطر ؟

والقصة تمثل جزءاً من تاريخ صدر الإسلام ، وتتصلُّ أجزاء القصّة ، وحوادثها بالعقيدة الإسلامية ، وأخبار هذا الجانب من التاريخ الإسلاميّ ، لا يتناهى في قبولها ، كما يتناهى في قبول الأخبار التي تتصل بالعمران المدنيّ ، ثم إنَّ الوليد بن عقبة من مسلمة الفتح ... وكثيراً ما تُوجه المطاعن إلى إسلام هذه الفتنة من النَّاس ، ويزعم بعض المؤرّخين : أنَّهم أسلموا مكرهين ، ولم يدخل الإيمان إلى قلوبهم ، وهو زعمٌ باطلٌ بلا ريب^(٥) ، وأخبار الوليد بن

(١) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب . ص (٧٩) .

(٢) المدينة النبوية فجر الإسلام (١٧٦/٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص (١٨٢/٢) .

(٥) المدينة المنورة فجر الإسلام (١٧٣/٢) .

عقبة ، ترید الرُّواة فيها ، ولعبت بها الأهواء المذهبية ، والسياسية ، ودخلها الوضع ، وكانت ميداناً لتسابق أهل القصة في اختبار القدرة على الوضع ، وإثبات عبقريةِهم الأدبية المُجنحة^(١) .

ومَمَا يعْكِرُ على روایة إرسال الوليد بن عقبة لجمع صدقات بني المصطلق ، ويعارضها حديثٌ موصولُ السَّند إلى رجالٍ ثقاتٍ : أنَّ الوليد بن عقبة كان يوم الفتح صغيراً ، ومن كان في سنِّه لا يرسله النَّبِيُّ ﷺ عاملاً ، فعن فَيَاض بن مُحَمَّد الرَّفِيِّ ، عن جعفر بن برقان ، عن ثابت بن الحجاج الكلابيِّ ، عن عبد الله الهمданىِّ (أبي موسى) عن الوليد بن عقبة ، قال : لَمَّا فتح رسول الله ﷺ مَكَّةَ ، جعل أهل مَكَّةَ يأتونه بصبيانهم ، فيمسح على رؤوسهم ، ويدعو لهم ، فجيء بي إليه ، وإنِّي مطَيَّبٌ بالخلوق ، ولم يمسح على رأسي ، ولم يمنعه من ذلك إلا أنَّ أمي خلقتني بالخلوق ، فلم يمسنِّي من أجل الخلوقي^(٢) .

إن القصة لعبت بها الأهواء المذهبية ، فالوليد أمويٌّ عثمانيٌّ ، والذى أقحم اسم الوليد في قصة سبب نزول الآية : شيعيٌّ رافضيٌّ (محمد بن السائب الكلبي) قال عنه ابن حجر : كان يُعدُّ من شيعة أهل الكوفة . وقال ابن حجر : كان بالكوفة كذاباً ، أحدهما : الكلبيُّ ، والآخر : السُّدِّيُّ^(٣) . واختاره لهذه القصة ؛ لأنها تتصل بجمع الصَّدقات ، والوليد عمل على صدقات قضاعة في عهد أبي بكر ، وعمل على صدقات تغلب في الجزيرة في زمن عمر ، وكتب الشِّيعة تعييب عثمان بن عفان بسبب قصَّة الوليد^(٤) ، ونحن لا ننكر أن تكون الآية نزلت في سياق قصة بني المصطلق ، ولكن الذي ننكره أن يكون الوليد هو الموصوف بالفاسق في الآية ، ذلك أنَّ مطْوِقَ الآية : «إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ» [الحجيات : ٦] بصيغة التَّنْكير ، يدلُّ على الشَّمول ، لأنَّ النَّكرة إذا وقعت في سياق الشرط ، عمَّت ، كما تعمُّ إذا وقعت في سياق النَّفي^(٥) .

حدُّ الوليد بن عقبة في الخمر :

وأمَّا حد الوليد في الخمر ، فقد ثبت في الصَّحِيحَيْنِ : أنَّ عثمان حدَّ بعد ما شهدت عليه الشُّهود ، فهو ليس مأخذًا على عثمان ، بل كان من مناقب عثمان رضي الله عنه أن أقام عليه الحدّ ، وعزله عن الكوفة ، حيث ذكر البخاريُّ هذه الحادثة في (باب مناقب عثمان)^(٦) ، وكان

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) مسنَدُ أَحْمَدَ (٤/٣٢) .

(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/١٧٩) .

(٤) المصدر السابق نفسه (٢/١٨٠) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) البخاريُّ ، كتاب مناقب عثمان .

عليٌّ رضي الله عنه يقول : إنكم وما تعيرون به عثمان كالطاعن نفسه ؛ ليقتل رداءه^(١) ، ما ذنب عثمان في رجلٍ قد ضربه بفعله ، وعزله عن عمله ، وما ذنب عثمان فيما صنع عن أمرنا^(٢) . ثم إن تلك الحادثة لم تطرد في عهد عثمان فحسب ، بل لها سابقة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث ذكر ، أن قدامة بن مظعون - له صحبة - شرب الخمر ، وهو أمير على البحرين من قبل عمر فحده ، وعزله^(٣) .

وقد ذكر بعض المؤرخين : أنه لم يثبت على الوليد شربه للخمر ، قال الحافظ في الإصابة : ويقال : إن بعض أهل الكوفة تعصباً عليه ، فشهادوا عليه بغير الحق^(٤) ، وقد أشار إلى هذا ابن خلدون ، فقال : وما زالت الشائعات - أي على عمّال عثمان من قبل المشاغبين - تنموا ، ورمي الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر ، وشهاد عليه جماعة منهم ، وحده عثمان ، وعزله^(٥) .

وما حكاه الطبرى بعض تفصيل : إن أبناء لأبي زينب ، وأبي مورع ، وجندب بن زهير نقبوا على ابن الحيسمان داره ، وقتلواه ، فشهاد عليهم بذلك أبو شريح الخزاعي الصحابي^(٦) ، وابنه - وكان جاراً لابن الحيسمان - فاقتصر منهم الوليد ، فأخذ الآباء على أنفسهم أن يكيدوا للوليد ، وأخذدوا يتربّون حر كاته ، فنزل به أبو زيد الشاعر ، وكان نصراً من أخواله بني تغلب ، وأسلم على يد الوليد ، وكان الضيف متّهماً بشرب الخمر ، فأخذ بعض السُّفهاء يتحدّثون بذلك في الوليد لملازمه أبو زيد ، ووجد أبو زينب ، وأبو مورع خير فرصة يغتنمونها ، فسافرا إلى المدينة ، وتقدماً إلى عثمان شاهدين على الوليد بشرب الخمر ، وأنهما وجداه يقيء الخمر . فقال عثمان : ما يقيء الخمر إلا شاربها . فجيء بالوليد من الكوفة ، فحلّ لعثمان ، وأخبره خبرهم ، فقال عثمان : نقيم حدود الله ، ويبوء شاهد الرُّؤور بالثار ، فاصبر يا أخي^(٧) !

قال محب الدين الخطيب : وأمّا الزيادة التي وردت في رواية مسلم من : أنه أتى بالوليد وقد صلّى الصبح ركعتين ، ثم قال : أزيدكم ، وفي بعض طرق أحمد : أنه صلّى أربعًا ، فلم تثبت في شيءٍ من شهادة الشهود ، فهي من كلام حضين الرّاوي للقصة ، ولم يكن حضين من

(١) الرداء : هو العون . تاريخ الطبرى (٢٧٨/٥) .

(٢) تحقيق موقف الصحابة في الفتنة (٤٢١/١) .

(٣) العاصم من القواصم ، ص (٩٣) .

(٤) الإصابة (٦٣٨/٣) .

(٥) تاريخ ابن خلدون (٤٧٣/٢) . وفصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص (٨١) .

(٦) تاريخ الطبرى (٢٧٧/٥) .

الشُّهُود ، ولم يرُوها عن شاهدٍ ، ولا عن إنسانٍ معروف ، ولا كان في الكوفة في وقت الحادث المزعوم ، فلا اعتداد بهذا الجزء من كلامه^(١) .

هذا هو والي عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة ، المجاهد الفاتح ، العادل المظلوم الذي كان منه لأمته كلُّ ما استطاعه من عملٍ طَيِّبٍ ، ثمَّ رأى بعينه كيف يبغى المبطلون على الصالحين ، وينفذ باطلهم فيهم ، فاعتزل النَّاس بعد مقتل عثمان في ضيقةٍ له منقطعةٍ عن صخب المجتمع ، وهي تبعد خمسة عشر ميلاً عن بلدة الرَّقَّة من أرض الجزيرة التي كان يجاهد فيها ، ويدعو النَّاس للإسلام في خلافة عمر^(٢) ، واعتزل جميع الحروب التي كانت أيام عليٍّ ، ومعاوية رضي الله عنهمَا إلى أن توفي بضياعته ، ودفن بها في عام ٦١ هـ ، وقيل : إنَّه توفي في أيام معاوية^(٣) .

رابعاً : سعيد بن العاص :

هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، القرشيُّ ، الأمويُّ^(٤) . وقال أبو حاتم : له صحبةٌ . ولِي الكوفة بعد الوليد بن عقبة ، كان من فصحاء قريش ؛ وللهذا ندبه عثمان فيما ندب لكتابة القرآن ، فعن أنس بن مالك قال : . . . فأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الرَّبَّير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرَّحْمَن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها (أي : الصحف) في المصايف ، وقال عثمان للرَّهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش^(٥) ، وقد أقيمت عربية القرآن على لسان سعيد بن العاص ؛ لأنَّه كان أشبههم لهجة رسول الله ﷺ ، أدرك من الحياة النَّبوية تسع سنين ، وقتل أبوه يوم بدرٍ مشركاً ، قتله عليٌّ بن أبي طالب^(٦) ، واقرأ معي هذا الخبر الذي يدلُّ على قوَّة إيمانه : حيث روي أنَّ عمر بن الخطَّاب قال لسعيد بن العاص : لم أقتل أباك ، وإنما قتلتُ خالي العاص بن هشام . فقال سعيد : لو قتلتَه لكنت على الحقّ ، وكان على الباطل ، فأعجب عمر بجوابه .

وفي أيام ولاته الكوفة غزا طبرستان ، ففتحها ، وغزا جرجان ، وكان في عسكره حذيفة

(١) العواصم من القواصم ، ص (٩٦ ، ٩٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (٩٤) .

(٣) البداية والنهاية (٢١٦/٨) .

(٤) المصدر السابق نفسه (٨٧/٨) .

(٥) البخاريُّ ، كتاب فضائل القرآن ، رقم (٤٩٨٧) .

(٦) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢١١/٢) .

وغيره من الصحابة^(١) ، وكان مشهوراً بالكر ، والبر ، حتى إذا سأله السائل ، وليس عنده ما يعطيه ؛ كتب له بما يريد أن يعطيه مسطوراً^(٢) ، وكان رحمة الله يحب جمع شمل المسلمين ، ويكره الفتنة ، ويفر منها ، ولاد عثمان الكوفة بعد الوليد بن عقبة ، ووفد إلى المدينة مرّة ، وعندهما عاد إلى الكوفة جنداً أهل الشغب جنودهم ، ومنعوه من دخولها ، فعاد ، ولزم المدينة .. وهؤلاء الذين منعوه من العودة إلى الإمارة كان منهم قتلة عثمان ، ومع ذلك اعزز الجمل ، وصفين ، وحثّ أهل الجمل على القعود عن الخروج^(٣) ، هذه هي سيرته : كرم ، وشجاعة ، وبر ، وجهاد ، وفضاحة أشبه ما تكون بفضحة النبي ﷺ ، وكان قد أملى على زيد ابن ثابت هذا المصحف الذي نقرره اليوم .

فتأمل هذه المناقب الثابتة له بالرواية الصحيحة ، وقارنها بما يذكرون من مثالبه التي لا سند لها ، وتأمل فيما أشاعها ، فتظن أنها ملفقة ؛ لأنها تجمع في الرجل النقاضين : الكرم والبخل ، والبر والتوكُّش ، والفهم والجهل ، والجهاد والنكوص ، وهذا لا يعقل اجتماعه في رجل سوي^(٤) . يزعم الرواية - لأنَّه عندما ولِي سعيد الكوفة بعد الوليد كان بعض الموالي يقول رجزاً :

يَا وَيْلَنَا قَدْ عُزِّلَ الْوَلِيدُ
وَجَاءَنَا مَجَوْعًا سَعِينَدُ
يُنْقَصُ فِي الصَّاعِ وَلَا يَزِيدُ^(٥)

وهذا رجز مصنوع ، وقصة موضوعة بلا شك^(٦) ؛ لأنَّ الموالي في سنة ٣٠ هـ - أي : العبيد ، من أسرى العروب - لم يكونوا يحسنون العربية ، بل قول الشعر ، ولأنَّ سعيد بن العاص المشهور بالكرم ، والبر لا يمكن أن يوصف بأنه (مجوّع) وإذا مدح الناس ، والشعراء الوليد لكرمه ، فإنَّ سعيداً ضرب المثل بكرمه^(٧) ، فكان يقال له : عَكَّة العسل ، وقال فيه الفرزدق يذكر كرمه :

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) الإصابة ، ترجمة رقم (٣٢٦٨) .

(٣) الطبقات (٣٤/٥) .

(٤) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢١٢/٢) .

(٥) تاريخ الطبرى (٥/٢٧٩) .

(٦) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢١٢/٢) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

تَرَى الْغُرَّاجِحَ مِنْ قُرَيْشٍ إِذَا مَا الْأَمْرُ فِي الْحِدَثَانِ عَالٌ
 قَيَامًا يَنْظُرُونَ إِلَى سَعْيِهِ كَائِنُهُمْ يَرَوْنَ بِهِ هَلَالًا^(١)

وإذا قال الموالي هذا الرجز في أول مجيء سعيد إلى الكوفة ، فكيف عرف الموالي سياسة سعيد ، وهل جاء مجوّعاً ، أم جاء مشيناً ؟ والغريب أنّ الرواية يسوقون هذا الخبر في سياق ينقض بعضه بعضاً ، حيث يقولون : فولى عثمان سعيد ابن العاص الكوفة ، فسار فيهم سيرة عادلة ، فكان بعض الموالي ، يقول الرجز^(٢) ، فكيف تكون السيرة عادلة ، ويوصف بأنه جوع الموالي ؟ فقد كان الخير كثيراً يسع الجميع ، وفيه سيرة العادلة تجعل الخير يعم^(٣) ، ورحم الله المؤرخين القدماء ، فقد كانوا حسني الظن بالقراء ، فجمعوا في كتبهم الروايات المتناقضة ، وحسبوا : أن القراء في جميع العصور يستطيعون تمييز الغث من السمين ، وعذرُهم بأنّهم كانوا يؤلفون لأهل عصرهم ، وما عرفاوا : أن القرون التالية ستتحلّ بمم يحتطلب بليل^(٤) ، فقد روى ابن سعد في ترجمة سعيد - بلا إسناد - يقول : قالوا : فلما قدم سعيد الكوفة - والياً - قدمها شاباً ، مترفاً ، ليست له سابقة ، فقال : لا أصعد المنبر حتى يطهر ، فأمر به فغسل .. وقال على المنبر : إنما هذا السواد بستان لاغيالمة من قريش . شكوه إلى عثمان^(٥) ! وهذا كلام لا يصح ؛ لأنّه غير مستد ، ولأنّ سعيد بن العاص الذي قاد جيوش الجهاد ، وفتح الفتوح لا يكون كما وصف القائلون .

ثم إنّ ابن سعيد يروي قوله سعيد هذه على لسان الأشتر مالك بن الحارث عندما منع سعيد بن العاص من دخول الكوفة ، بعد سنوات من ولايته حيث قال الأشتر : هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم : أن هذا السواد بستان لاغيالمة من قريش ، والسواد مساقط رؤوسكم ، ومراكز رماحكم ، وفيكم وفي آبائكم^(٦) .

ومالك بن الحارث الملقب بـ(الأشتر) صاحب فتنه ، كان من رؤساء الخوارج الذين حاصروا عثمان ، وقتلوه ، ولا يستغرب من هؤلاء أن يختلفوا الأقوال لإثارة كره الناس ... وإذا كانت هذه الجملة قد قيلت ؛ فإنّ الذين قالوها هم الخارجون على الخلافة ؛ لأنّهم فهموا

(١) البداية والنهاية (٨/٨٨) .

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٢٧٩) .

(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/٢١٣) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه (٢/٢١٣) . والطبقات (٥/٣٢) .

(٦) المصدر السابق نفسه ، ص (٢/٢١٤) .

هذا الفهم السَّقِيم بسبب تتابع الأمراء على العراق - وبخاصة الكوفة - من قريش ، ولأن العصبية القبلية واضحة في هذه المقوله^(١) ، وقد قال الإمام الذهبي فيه : وكان أميراً شريفاً ، جواداً ، ممدحاً ، حليماً ، وقوراً ، ذا حزم ، وعقل ، يصلح للخلافة - الولادة -^(٢) .

وأمام قول المخالفين ، والذين طعنوا في عثمان رضي الله عنه بأنه استعمل سعيد بن العاص على الكوفة ، وظهر منه ما أدى إلى أن أخرجه أهل الكوفة^(٣) ، فمجرد إخراج أهل الكوفة له لا يدل على ذنب يوجب ذلك ، فمن عرف الكوفة ، وسبر أحوالها ، عرف كثرة تشكي أهلها من ولاتهم بلا مبرر شرعي ، ولأنفه الأسباب ، حتى قال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أعياني ، وأفضل بي أهل الكوفة ، ما يرضون أحداً ، ولا يرضي بهم ، ولا يصلحون ، ولا يصلح عليهم^(٤) .

وفي رواية : أعياني أهل الكوفة ، فإن استعملت عليهم ليناً ؛ استضعفوه ، وإن استعملت عليهم شديداً ؛ شكوه^(٥) ، بل إنَّه دعا عليهم ، فقال : اللهم إنَّهم قد لبسو عليَّ ، فلبس عليهم^(٦) .

وقد كان سعيد بن العاص رجلاً حكيمًا ، فقد قال : لجيسي عليَّ ثلات : إذا دنا ؛ رحبت به ، وإذا جلس ؛ أوسعته له ، وإذا حدث ؛ أقبلت عليه . وقال لابنه : يا بني ! أجر الله المعروف إذا لم يكن ابتداء من غير مسألة ، فأمّا إذا أتاك الرَّجل تقاد ترى دمه في وجهه ، أو جاءك مخاطراً لا يدرى أتعطيه ، أم تمتنع ، فوالله لو خرجت له من جميع مالك ما كافأته ! وقال أيضاً : يا بني ! لا تمازح الشريف ، فيحقد عليك ، ولا الدَّنيءُ فهون عليه . ودخلت عليه ذات يوم امرأة من العابدات ، وهو أمير الكوفة ، فأكرمتها ، وأحسن إليها ، فقالت : لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة ! ولا زالت المتهَّة في أعناق الكرام ، وإذا أزال عن كريم نعمة جعلك سبباً لرذدها عليه .

ولما حضرت سعيداً الوفاة جمع بنيه ، وقال لهم : لا يفقدن أصحابي غير وجهي ، وصلوهم بما كنت أصلهم به ، وأجزروا عليهم ما كنت أجري عليهم ، واكتفواهم مؤنة الطلب ، فإنَّ الرَّجل إذا طلب الحاجة ؛ اضطربت أركانه ، وارتعدت فرائصه مخافة أن يردد ، فوالله لرجل

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢١٤/٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٤٤٧/٣) .

(٣) تاريخ الطبرى (٢٧٩/٥) .

(٤) المعرفة والتاريخ ، للفسوسي (٧٥٤/٢) .

(٥) تحقيق موافق الصحابة في الفتنة (٤٢٣/١) .

(٦) منهاج ، لابن تيمية (١٨٨/٣) .

يتململ على فراشه يراكم موضعًا ل حاجته أعظم منه عليكم مما تعطونه ! ثم أوصاهم بوصايا كثيرة ، وكانت وفاته ٥٨ هـ ، وقيل : ٥٧ هـ ، وقيل : ٥٩ هـ^(١) .

خامسًاً : عبد الله بن سعد بن أبي السرّاح :

درج المؤرخون - في الغالب - إذا ذكروا اسم عبد الله بن أبي السرّاح ، وتولية عثمان له على ولاية مصر على أن يقولوا : لقد ولّى عثمان على مصر عبد الله بن أبي السرّاح أخاه من الرّضاعة^(٢) ، وإيراد عبارة (أخاه من الرّضاعة) مقرونة بالتلويّة تعتبر إيحاءً من بعض المؤرخين باتّهام عثمان رضي الله عنه ، وأئمّة لهذه الأخوة من الرّضاعة ولاه على مصر . وهذا الذي برأه المؤرخ غير صحيح ، ولكن نردد على هؤلاء ، وعلى ما يغمزون به أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه نستعرض جهود فارسبني عامر بن لؤي^(٣) - عبد الله بن سعد^(٤) - فقد كان على خبرة ، ودرائية تامة بأحوال مصر ، ونواحيها نتيجة اشتراكه مع جيش عمرو في فتحها ، ونتيجة ولايته على بعض التّواحدي أثناء خلافة عمر ، فقد كان على صعيد مصر^(٤) ، وكذلك أول خلافة عثمان ، مما أهلّه لأن يصبح واليًا عاماً على مصر ، فكان أقوى المرشّحين لتلك الولاية بعد عمرو بن العاص نتيجة لتلك الخبرات ، ويبدو : أنَّ عبد الله بن سعد تمكّن من ضبط خراج مصر ؛ حتّى زاد ما كان يجمعه من الخراج على ما كان يجمعه عمرو بن العاص قبله ، ولعلَّ مرد ذلك إلى اتّباع عبد الله بن سعد لسياسة جديدة في المصروفات ، اختفت عن سياسة عمرو ، وبالتالي زادت أموال الخراج المتوفرة في مصر^(٥) .

وقد قام عبد الله بن سعد أثناء ولايته بالجهاد في عدّة مواقع ، فكانت له فتوحٌ مختلفة لها شأنٌ عظيم ، فكان من غزوته غزو إفريقيا سنة ٢٧ هـ وفتحه فيها ، وقتلها ملكها جرجير ، وكان يصاحب في تلك الغزوات مجموعةٌ من الصحابة ، منهم عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وغيرهم ، وانتهت الغزوة بصلح مع طريق إفريقيا على تأدية الجزية للمسلمين^(٦) ، وقد عاد ابن أبي السرّاح إلى إفريقيا مرّة أخرى ، ووطّد فيها الإسلام ،

(١) البداية والنهاية (٨/٩٠) .

(٢) انظر : الكامل ، لابن الأثير (٣/٨٨) .

(٣) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص (٧٧) .

(٤) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ، ص (٤١٨) .

(٥) الولاية على البلدان (١/١٨٠) .

(٦) فتوح مصر وأخبارها ، ص (١٨٣) . والولاية على البلدان (١/١٨٠) .

وذلك في سنة ٣٣ هـ^(١) ، كما كان من أهمّ أعمال عبد الله بن سعد بن أبي السّرح غزوه لبلاد التّوبّة ، وتسمى غزوة الأسود ، أو غزوة الحبشه عند بعض المؤرّخين ، وقد وقعت هذه الغزوة سنة إحدى وثلاثين للهجرة ، وقد دار قتال شديد بين أجناد المسلمين وجند التّوبّة ، وأصيب مجموعه من المسلمين نظراً لإجاده أهالي التّوبّة للرّمي ، وقد انتهت تلك الغزوة بصلح وقعه عبد الله بن سعد مع أهالي التّوبّة بوضع جزية محدّدة عليهم^(٢) .

ويعتبر عبد الله بن سعيد بحقّ أول قائد مسلم تمكّن من اقتحام التّوبّة ، وقاتل أهلها ، وفرض عليهم الجزية ، واستقرّت الحال على ذلك في أيامه بين أهل التّوبّة ، وال المسلمين ، كذلك من أهمّ أعمال عبد الله بن سعيد العسكرية غزوة ذات الصّواري وقد انتصر فيها المسلمين على الرّوم ، وقد كانت ولاية عبد الله بن سعيد على مصر محمودة على العموم لدى المصريين ، ولم يرووا منه ما يكرهون ، يقول عنه المقرizi : ومكث أميراً مدة ولاية عثمان رضي الله عنه كلّها محموداً في ولايته^(٣) .

وقال فيه الذّهبي : ولم يتعدّ ، ولا فعل ما ينقم عليه ، وكان أحد عقلاء الرجال ، وأجوادهم^(٤) .

وقد كانت ولاية مصر في أول أمرها هادئة مستقرّة إلى أن تمكّن مثيرو الفتنة من أمثال عبد الله بن سباء من الوصول إليها ، وإثارة الناس فيها ، فكان لهم وللمتأثّرين بهم دورٌ كبير في مقتل عثمان رضي الله عنه . كما أنّ الأحوال في مصر نفسها اضطربت نتيجة طرد الوالي الشّرعي لها ، واستيلاء أقوام آخرين على الأمور بطريقة غير شرعية ، وقد تمكّنوا خلال تلك الفترة من بثّ الكراهية في قلوب الناس لخلفتهم عثمان نتيجة مكايده قاموا بها ، وأكاذيب لفقوها ، ونشروها^(٥) ، سيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى .

ولما وقعت الفتنة بمقتل عثمان رضي الله عنه اعتزلها عبد الله بن سعيد وسكن عسقلان ، أو الرّملة في فلسطين . وروى البغوي بإسناد صحيح ، عن يزيد بن أبي حبيب ، قال : خرج ابن أبي السّرح إلى الرّملة - بفلسطين - فلما كان عند الصّبح قال : اللّهم اجعل آخر عملي الصّبح !

(١) التّجوم الزّاهرة (٨٠ / ١) .

(٢) الولاية على البلدان (١٨١ / ١) . وفتح مصر وأخبارها ، ص (١٨٨) .

(٣) الخطوط (٢٩٩ / ١) .

(٤) سير أعلام النّبلاء (٣٤ / ٣) .

(٥) الولاية على البلدان (١٨٦ / ١) .

فتوضّأ ، ثمَّ صَلَّى ، فسلم عن يمينه ، ثمَّ ذهب يسلم عن يساره ، فقبض الله روحه^(١) .

سادساً : مروان بن الحكم ، ووالده :

كان مروان بن الحكم من أخصّ أقرباء عثمان به ، وأوثقهم صلةً بمركز الخلافة ، والصفهم بالأحداث التي عصفت بالوحدة الإسلامية في عهد عثمان ، رضي الله عنه ، فكان منه بمنزلة كاتم سرّ الدولة ، أو حامل ختم الملك^(٢) ، ولم يكن مروان بالتأكيد المستشار الأوحد لل الخليفة الذي كان يستشير كبار الصحابة ، وصغارهم ، ولم يكن بمعزلٍ عن قادة الرأي في مجتمع الإسلام ، وكذلك لم يكن مروان الوزير الذي تجمّعت تحت يده سلطات الدولة ، إنما كان كاتباً لل الخليفة ، وهي وظيفةٌ تستمدُّ أهميتها من قرب صاحبها من أذن الخليفة ، وخاتمه ، أمّا ادعاء توريطه عثمان ، وإثارة الناس عليه لتنقل الخلافة بعد ذلك إلى بني أميّة ، فافتراضٌ لا دليل عليه ، ولم تنتقل الخلافة إلى بني أميّة إلا بعد أهوالٍ جسام لم يكن لمروان فيها دورٌ خطيرٌ ، ثم إنّ عثمان لم يكن ضعيف الشخصية حتى يتمكّن منه كاته إلى الحد الذي يتصرّه الرواية^(٣) ، ولا ذنب لمروان بن الحكم إن كان في حياة الرسول ﷺ لم يبلغ الحلم باتفاق أهل العلم ، بل غايته أن يكون له عشر سنين ، أو قريبٌ منها ، وكان مسلماً ، يقرأ القرآن ويتفقه في الدين ، ولم يكن قبل الفتنة معروفاً بشيءٍ يعاب فيه ، فلا ذنب لعثمان في استكتابه ، وأمّا الفتنة ، فأصابت من هو أفضل من مروان^(٤) ، بل إنّ خبر طرد النبي ﷺ لأبيه ضعيفٌ سندًا ومتناً ، وتعقبه شيخ الإسلام ابن تيمية ، فأوضح تهافته ، وضعفه^(٥) ، وعرف عن مروان بن الحكم العلم ، والفقه ، والعدل ، فقد كان سيداً من سادات شباب قريش لما علا نجمه أيام عثمان بن عفان ، وقد شهد له الإمام مالك بالفقه ، واحتاج بقضائه ، وفتواه في مواطن عديدةٍ من كتاب الموطأ ، كما وردت في غيره من كتب السنة المتدوّلة في أيدي الأئمة المسلمين يعملون بها^(٦) ، وكان الإمام أحمد يقول : يقال : كان عند مروان قضاء ، وكان يتبع قضايا عمر بن الخطّاب^(٧) ، وكان مروان من أقرأ الناس للقرآن ، كما كان له روايةٌ للحديث الشريف ، حيث روى عن بعض مشاهير

(١) الإصابة ، ترجمة (٤٧١١) . وسير أعلام البلاء (٣/٣٥) .

(٢) عثمان بن عفان ، لصادق عرجون ، ص (١١٧) .

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها ، لحمدي شاهين ، ص (١٦٠) .

(٤) منهاج السنة (٣/١٩٧) .

(٥) المصدر السابق نفسه (٣/١٩٥ ، ١٩٦) .

(٦) الدولة الأموية المفترى عليها ، ص (١٦٩) .

(٧) البداية والنهاية (٨/٢٦٠) .

الصحاباة ، وروى عنه بعضهم ، كما روى عنه بعض التابعين^(١) ، وكان حريصاً على تحرّي السنة ، والعمل بها .

روى الليث بن سعد - فقيه مصر - بسنده ، قال : شهد مروان جنازة ، فلما صلَّى عليها ؛ انصرف ، فقال أبو هريرة رضي الله عنه : أصاب قيراطاً ، وحرِم قيراطاً (أي : الأجر ، والثواب ، كما ورد في حديثٍ شريفٍ)^(٢) فأخبر بذلك مروان ، فأقبل يجري ؛ حتى بدت ركبته ، فقعد حتَّى أذن له^(٣) .

وجاء في مقدمة (فتح الباري) : مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ابن عم عثمان بن عفَّان ، يقال : له رؤية - يعني رؤية الرَّسُول ﷺ - فإن ثبتت ، فلا يرجع على من تكلَّم فيه^(٤) .

وكان يقول ابن كثير : وهو صحابيٌّ عند طائفٍ كثيرة ؛ لأنَّه ولد في حياة النَّبِي ﷺ ، وقد ولَي مروان المدينة لمعاوية بن أبي سفيان ، فكان شديداً على أهل الفسوق بها ، حرباً على مظاهر الشرف ، والتَّخْثُث^(٦) ، عادلاً مع رعيته ، حذراً من مجاملة ذوي قرباه ، أو من يحاول منهم استغلال نفوذه ، فقد لطم أخوه عبد الرَّحْمَن بن الحكم مولى لأهل المدينة يعمل حنَاطاً - أثناء فترة ولاية مروان على المدينة - فشكَّا الحنَاط إلى مروان ، فأتى أخيه عبد الرَّحْمَن ، وأجلسه بين يدي الحنَاط ، وقال له : الطمه ، فقال الحنَاط : والله ما أردت هذا ! وإنما أردت أن أعلمك ؛ لأنَّ فوقه سلطاناً ينصرني عليه ، وقد وهبها لك . فقال : لست أ قبلها منك ، فخذ حَقَّك ، فقال : والله لا أطمه ، ولكن أهبه لك ! ولست والله لاطمه ! فقال مروان : لست والله قابلها ! فإن وهبها ؛ فهوها لمن لطمه ، أو الله عزَّ وعلا ، قال : قد وهبها الله تعالى . فقال عبد الرَّحْمَن شعراً يهجو أخاه مروان لذلك^(٧) .

إنَّ هذه الصُّورة المشرقة عن علم مروان ، وعدله ، وفقهه ، وتدِيُّنه تكاد تختلف تماماً عن تلك الصُّورة الكريهة التي يقدمها عنه معظم المؤرِّخين والرُّواة ، الَّذِين اجتهدوا لتشويه حياة الرَّجل ، فلما حانت وفاته ، اجتهدوا أيضاً لتشويهها ، فزعموا أنَّ امرأته - أمَّ خالد بن يزيد بن

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر السابق نفسه (٨/٢٦٠) . والمسند ، رقم (٤٤٥٣ ، ٤٦٥٠) .

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها ، ص(٢٠٠) ، والبداية والنهاية (٨/٢٦٠) .

(٤) فتح الباري (٢/١٦٤) . وأباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، ص(٢٥٤) .

(٥) البداية والنهاية (٨/٢٥٩) .

(٦) الدولة الأموية المفترى عليها ، ص(٢٠٠) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

معاوية - خنقته بوسادتها ، أو دسَّت له السَّمَّ ، لمَّا سَبَّ ابْنَهَا - بزعمهم - أمَّام جماعةٍ من النَّاسِ ، وهذه الفَصَّة مع ما تحتويه من عناصر متناقضَة تبدو لأول وهلة وكأنَّها أسطورةٌ اختَرَّتُها مخيَّلات عجائزِ الْقَوْمِ ، ثُمَّ ردَّدَتُها الألسُنَ ، إِمَّا حَتَّى في الثَّرَثَرَةِ ، أو لتناولِ من سمعة هذه الأُسْرَة الرَّفِيعَة المكانة ؛ حسداً لِمَا وصلت إليه من مجدٍ^(١) ، فهل كان موته طبيعياً ، أم مات بإصابة الطَّاعون ، أم خنقته زوجته ؟ إنَّ تناقض الرِّوَايَات دليلٌ على أنَّ الحقيقة غير معروفة ، والرِّوَايَات التي تزعم : أنَّ زوجته هي التي اغتالته مباشرةً ، أو بالواسطة (عن طريق بعض حواريها) غير مقبولةٌ ، أو معقولَة ، فهذه الزَّوْجَة سَيِّدَةٌ شَرِيفَةٌ من بيت عبد شمس ، وزوجها قريباً ، وهو خليفةٌ ، وهي كانت زوجة خليفةٍ ، وأمُّ خليفةٍ (وهو معاوية بن يزيد بن معاوية) وهو عملٌ لا تُقدِّم النساء الشَّرِيفات عليه ، ثمَّ إنَّا لم نرَ أيَّ أثِيرَ لهذا الاغتيال ، فلم يحدث في الأُسْرَة أيُّ خلاف ، ولا مطالبة بالثار ، وظلَّ خالدٌ على مكانه عند عبد الملك ، كما أنَّ الدَّافع لا يكفي بحال لارتكاب جريمة القتل^(٢) ، وذكر عن بعض أهل العلم : أنه قال : كان آخر كلامٍ تكلَّم به مروان : وجبت الجنة لمن خاف النار ، وكان نقش خاتمه : العَرَّةُ لِلَّهِ ، وقيل : آمنت بالعزيز الرَّحِيم^(٣) ، وقال ابن القِيم : أحاديث ذمَّ الوليد ، وذمَّ مروان بن الحكم كذبٌ^(٤) .

سابعاً : هل جامل عثمان أحداً من أقاربه على حساب المسلمين ؟

لو كان عثمان رضي الله عنه أراد أن يجامِل أحداً من أقاربه على حساب المسلمين ، لكان ربِّيه محمد بن أبي حذيفة أولى النَّاس ب بهذه المجاملة ، ولكنَّ الخليفة أبي أن يولي شيئاً ليس كفواً له بقوله : يا بني ! لو كنت رضائِمَ سَأْلَتني العمل ؛ لاستعملتُك ، ولكن لست هناك^(٥) . ولم يكن ذلك كراهيَّةً له ، ولا نفوراً منه ، وإنما جهزَه من عنده ، وحمله ، وأعطاه حين استأذن في الخروج إلى مصر^(٦) .

وأمَّا استعمال الأحداث فكان لعثمان رضي الله عنه في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ ، فقد جهزَ جيشاً لغزو الرُّوم في آخر حياته واستعمل عليه أسامة بن زيد ، رضي الله عنهما^(٧) .

(١) عبد الملك بن مروان ، د . الرئيس ، ص(١١٢) .

(٢) الدُّولَةُ الْأُمُوَّرِيَّةُ المُفْتَرِيَّةُ عَلَيْهَا ، ص(٢٠١) .

(٣) البداية والنهاية(٨/٢٦٢) .

(٤) المنار المنيف ، ص(١١٧) . وفصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص(٧٧) .

(٥) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة(١/٢٤٧) .

(٦) المصدر السابق نفسه(١/٢٤٧) . وتاريخ الطبرى(٤١٦/٥) .

(٧) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة(١/٤٢٧) . وتاريخ الطبرى(٤١٦/٥) .

وعندما توفيَ الرَّسُول ﷺ تمَسَّكَ الصَّدِيقِ رضيَ اللهُ عنْهُ بإنفاذِ هذا الجيشِ ، لكنَّ بعضَ الصحابة رغبوا في تغييرِ أسماءِ بقائِدِ أحسنِ منهُ ، فكلَّمُوا عَمِرَ فِي ذلِكَ لِيَكُلُّمَ أباً بكرًا ، فغضَبَ أبو بكرَ لِمَا سمعَ هذهِ المقالةَ ، وقَالَ لعمرَ : يا عَمِر ! استعملْهُ رسولُ الله ﷺ ، وتأمِنْيَ أَنَّ أعزَلَهُ^(١) . ويجبُ عثمانَ بِنِهِ عَلَى هذِهِ الْمَاخِذِ أَمَامَ الْمَلَأَ مِنَ الصَّحَابَةِ بِقَوْلِهِ : وَلَمْ أَسْتَعْمِلْ إِلَّا مجتمعاً ، محتملاً ، مرضياً ، وهؤلاءِ أهْلِ عَمَلِهِ ، فَسُلُوهُمْ عَنْهُمْ ، وَهُؤُلَاءِ أهْلِ بَلْدِهِمْ وَقَدْ ولَى مِنْ قَبْلِي أَحَدُهُمْ ، وَقَيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ مَمَّا قَبِيلَ لِي فِي اسْتَعْمَالِ لِأَسَامِةَ ، أَكَذَّلَكَ ؟ قالوا : نَعَمْ يَعْبُونَ لِلنَّاسِ مَا لَا يَفْسِرُونَ^(٢) . ويقولُ عَلَيْهِ رضيَ اللهُ عنْهُ : وَلَمْ يَوْلِ - أَيِّ : عثمانَ - إِلَّا رَجُلًا سُوِيًّا ، عَدْلًا ، وَقَدْ ولَى رَسُولُ الله ﷺ عَتَّابَ بْنَ أَسِيدَ عَلَى مَكَّةَ وَهُوَ ابْنُ عَشْرِينَ سَنَةً^(٣) .

لم يكن ولادة الأنصار في عهد عثمان رضي الله عنه جاهلين بأمور الشرع ، ولم يكونوا من المفترطين في الدين ، وإذا كانت لهم ذنبٌ ، فلهم حسناتٌ كثيرةٌ ، ومع ذلك فإنَّ سيئاتَ وذنوبَ هؤلاء تعود عليهم ، ولم يكن لها تأثيرٌ في المجتمع المسلم ، وقد تتبعنا آثارَ هؤلاءِ الولادة أيام لا يطهُم ، ووجدناها عظيمة الفائدة للإسلام والمسلمين ، وقد اهتدى على يدي ولادة عثمان مئات الآلوف إلى الإسلام ، ويسبب فتوحاتهم انضمَّ إلى ديار الإسلام أقاليمٌ واسعةٌ ، ولو لم يكن عند هؤلاء من الشجاعة ، والذين ما يحثُّهم على الجهاد ، ما قادوا الجيوش إلى الجهاد ، وفيه مظنةُ الهلاك ، وفيه تركُ الرَّاحَة ، ومتاعُ الدُّنْيَا ، وقد تتبعنا سيرة هؤلاء الولادة ، فوجدنا لكلَّ واحدٍ منهم فتحاً ، أو فتوحاً في الجهاتِ التي تجاورَ ولايته ، مع مناقبِ ، وصفاتِ حسنةٍ تؤهّله للقيادة^(٤) .

إنَّ الَّذِي يرجعُ إِلَى الصَّحِيحِ المُمْحَصَّ من وقائعِ التَّارِيخِ ، ويتبَعُ سيرةَ الرِّجَالِ الَّذِينَ استعنَ بهمُ أميرُ الْمُؤْمِنِينَ ذُو الْتُّورَيْنِ - رضوانَ اللهُ عَلَيْهِمْ - وَمَا كَانَ لِجَهَادِهِمْ مِنْ جَمِيلِ الْأَثْرِ فِي تَارِيخِ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، بلْ مَا كَانَ لِحُسْنِ إِدَارَتِهِمْ مِنْ عَظِيمِ النَّتَائِجِ فِي هَنَاءِ الْأَمَّةِ ، وَسَعَادَتِهَا ، فَإِنَّهُ لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَمْنَعْ نَفْسَهُ مِنَ الْجَهَرِ بِالْإعْجَابِ ، وَالْفَخْرِ كَلِّمَا أَمَعَنَ فِي دراسةِ ذلك الدُّورِ مِنْ أَدْوَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ^(٥) .

(١) تاريخ الطبراني (٤٦٦/٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٣٥٥/٥) .

(٣) البداية والنهاية (١٧٨/٧) .

(٤) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢١١/٢) .

(٥) حاشية المتنقى من منهاج الاعتدال ، ص (٣٩٠) .

إنَّ عثمان وولاته انشغلوا ب الدفاع عن الأعداء ، وجهادهم ، وردهم ، ولم يمنعهم ذلك من توسيع رقعة الدولة الإسلامية ، ومد نفوذها في مناطق جديدة ، وقد كان للولاية تأثيرٌ مباشرٌ في أحداث الفتنة حيث كانت التهمة موجَّهةً إليهم ، وأنَّهم اعتدوا على النَّاس ، ولكنَّا لم نلمس حوادث معينةٍ يتَّضح فيها هذا الاعتداء المزعوم ، والمشاع ، كما أنَّهم عثمان بتولية أقاربه ، وقد دحضنا تلك الفرية ، وهكذا نرى : أنَّ عثمان لم يأل جهداً في نصرة الأمة ، وفي تولية من يراه أهلاً للولاية ، ومع هذا فلم يسلم عثمان ، وولاته من اتهامات وجُّهت إليهم من قبل أصحاب الفتنة في حينها .

كما أنَّ عثمان رضي الله عنه لم يسلم من كثيرٍ من الباحثين في كتاباتهم غير المنصفة ، وغير المحققة عن عهد عثمان وخصوصاً الباحثين المُحدِّثين الذين يطلقون أحكاماً لا تعتمد على التَّحقيق ، أو على وقائع محددة ، يعتمدون فيها على مصادر موثوقة ، فقد تورط الكثير منهم في الروايات الضعيفة ، والإمامية ، وبينوا أحكاماً باطلةً وجائرةً في حق الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفان ، مثل طه حسين في كتابه : الفتنة الكبرى ، وراضي عبد الرحيم في كتابه : النَّظام الإداري ، والحربي ، وصحي الصالح في كتابه : النَّظم الإسلامية ، ومولوي حسين في كتابه : الإدارة العربية ، وصحي محمصاني في كتابه : تراث الخلفاء الرَّاشدين في الفقه ، والقضاء ، وتوفيق اليوزبكي في كتابه : دراسات في النَّظم العربية والإسلامية ، ومحمد الملحم في كتابه : تاريخ البحرين في القرن الأول الهجري ، وبدوي عبد اللطيف في كتابه : الأحزاب السياسيَّة في فجر الإسلام ، وأنور الرفاعي في كتابه : النَّظم الإسلامية ، ومحمد الرئيس في كتابه : النَّظريات السياسيَّة ، وعلي حسني الخربوطي في كتابه : الإسلام والخلافة ، وأبي الأعلى المودودي في كتابه : الملك والخلافة ، وسيد قطب في كتابه : العدالة الاجتماعية ، وغيرهم .

لقد كان عثمان رضي الله عنه بحق الخليفة المظلوم الذي افترى عليه خصومه الأوَّلون ، ولم ينصفه المتأخرون^(١) .

* * *

المبحث الرابع

حقيقة العلاقة بين أبي ذرٌّ الغفاري وعثمان بن عفان رضي الله عنهما

أولاً : مجمل القصة :

إن مبغضي عثمان بن عفان رضي الله عنه كانوا يشنعون عليه أنه نفى أبو ذرٌّ رضي الله عنه إلى الرَّبَّذَة ، وزعم بعض المؤرِّخين : أنَّ ابن السُّوداء (عبد الله بن سبأ) لقي أبو ذرٌّ في الشَّام ، وأوحى إليه بمذهب القناعة ، والرُّهْد ، ومواساة الفقراء ، ووجوب إنفاق المال الزَّائد عن الحاجة ، وجعله يعيَّب معاوية ، فأخذته عبادة بن الصَّامت إلى معاوية ، وقال له : هذا والله الذي بعث إليك أبو ذرٌّ . فأنحرج معاوية أبو ذرٌّ من الشَّام^(١) ، وقد حاول أَحْمَد أمين أن يوجد شبهًا بين رأي أبي ذرٌّ ، ورأي مَرْدَك الفارسي ، وقال بأنَّ وجه الشَّبه جاء من أن ابن سبأ كان في اليمن وطَوَّفَ في العراق ، وكان الفرس في اليمن ، والعراق قبل الإسلام ، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقَّى هذه الفكرة من مزدكية العراق ، واعتنقها أبو ذرٌّ حسن التَّيَّة في اعتقادها^(٢) .

وكلَّ ما قيل في قصة أبي ذرٌّ ، مما يُشَعَّ به على عثمان بن عفان باطلٌ لا يُبني على رواية صحيحة ، وكلَّ ما قيل حول اتصال أبي ذرٌّ رضي الله عنه بابن السُّوداء باطلٌ لا محالة^(٣) .

والصَّحيح : أنَّ أبو ذرٌّ رضي الله عنه نزل في الرَّبَّذَة باختياره ، وأنَّ ذلك كان بسبب اجتهد أبو ذرٌّ في فهم آيَة خالف فيه الصَّحابة ، وأصرَّ على رأيه ، فلم يوافقه أحدٌ عليه ، فطلب أن ينزل بالرَّبَّذَة^(٤) التي كان يغدو إليها زَمْنَ النَّبِيِّ ﷺ ، ولم يكن نزوله بها نفيًا قسرياً ، أو إقامةً جبرية ، ولم يأمره الخليفة بالرجوع عن رأيه ؛ لأنَّ له وجهاً مقبولاً ، لكنَّه لا يجب على المسلمين الأخذ به^(٥) ، وأصحُّ ما روي في قصة أبي ذرٌّ رضي الله عنه ما رواه البخاريُّ في صحيحه عن زيد بن

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢١٦/٢) .

(٢) فجر الإسلام ، ص (١١٠) .

(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢١٧/٢) .

(٤) كانت متزاًًا في الطريق بين العراق ومكة .

(٥) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢١٧/٢) .

وذهب ، قال : مررت بالرَّبَّذَة ، فإذا أنا بأبي ذِرٍ رضي الله عنه فقلت له : ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال : كنت بالشَّام ، فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ أَمْنَوْا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْهَارِ وَالرُّهْبَانَ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُهُنَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبية : ٣٤] .

قال معاوية : نزلت في أهل الكتاب ، فقلت : نزلت فينا ، وفيهم ، فكان بيني وبينه في ذلك ، وكتب إلى عثمان يشكوني ، فكتب إليَّ عثمان أنَّ أقدم المدينة ، فقدمتها ، فكثر علىَّ الناس حَتَّى كَانُوكُمْ لم يروني قبل ذلك ، فذكرت ذلك لعثمان ، فقال لي : إن شئت فكنت قريباً . فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ، ولو أمرُوا عليَّ حشياً ؛ لسمعت ، وأطاعت^(١) . وقد أشار هذا الأثر إلى أمورٍ مهمَّةٍ منها :

١- سأله زيد بن وهب ، ليتحققَ ممَّا أشاعه مُبغضُو عثمان : هل نفاه عثمان ، أو اختار أبو ذِرٍ المكان ؟ فجاء سياق الكلام : أَنَّه خرج بعد أن كثَرَ النَّاسُ عَلَيْهِ يسألونه عن سبب خروجه من الشَّام ، وليس في نصِّ الحديث : أَنَّ عثمان أمره بالذهاب إلى الرَّبَّذَة ، بل اختارها بنفسه ، ويؤيِّدُ هذا ما ذكره ابن حجر عن عبد الله ابن الصَّامت قال : دخلت مع أبي ذِرٍ على عثمان ، فحسَرَ رأسه ، فقال : والله ما أنا منهم - يعني : الخوارج - فقال : إِنَّمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ لِتَجَاوِرُنَا بِالْمَدِينَةِ ، فقال : لا حاجةٌ لي في ذلك ، ائذن لي بالرَّبَّذَة . قال : نعم^(٢) .

٢- قوله : (كنت بالشَّام) : بَيْنَ السَّبَبِ فِي سُكُنَاه الشَّامِ مَا أَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَى عَنْ طَرِيقِ زِيدِ بنِ وهب : حَدَّثَنِي أَبُو ذِرٍّ ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إِذَا بَلَغَ الْبَنَاءَ - أَيُّ : الْمَدِينَةَ - سَلْعًا ، فَارْتَحِلْ إِلَى الشَّامِ » . فلَمَّا بَلَغَ الْبَنَاءَ سَلْعًا ؛ قَدِمَتِ الشَّامُ ، فَسُكِّنَتْ بِهَا^(٣) ، وفي روايَةٍ : قَالَتْ أُمُّ ذِرٍّ : وَاللَّهِ مَا سَيَّرَ عَثْمَانَ أَبَا ذِرٍّ - تَعْنِي : إِلَى الرَّبَّذَةِ - وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : إِذَا بَلَغَ الْبَنَاءَ سَلْعًا ، فَاخْرُجْ مِنْهَا^(٤) .

٣- إِنَّ قَصَّةَ أَبِي ذِرٍّ فِي الْمَالِ جَاءَ مِنْ اجْتِهادِهِ فِي فَهْمِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ أَمْنَوْا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْهَارِ وَالرُّهْبَانَ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُهُنَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٦١] يوم يُحْمَى

(١) البخاريُّ ، كتاب الزَّكَاة ، باب ما أُدِيَ زَكَاتُهُ فَلِيُّسْ بِكْتَر ، رقم (١٤٠٦) .

(٢) فتح الباري (٢٧٤ / ٣) .

(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢١٩ / ٢) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٧٢ / ٢) صحيح الإسناد .

عليها في نار جهنم فتكتوى بها جاههم وجوههم وظهورهم هنذا ما كنترتم لآفسكم فذوقوا ما كنتم تكتنرون [٣٤-٣٥] . وروى البخاري عن أبي ذر ما يدل على أنه فسر الوعيد « يوم يحمن عليها » الآية ، وكان يخوّف الناس به ، فعن الأحنف بن قيس ، قال : جلست إلى ملأ من قريش في مسجد المدينة ، فجاء رجل خشن الشعر ، والثياب ، والهيئة ، حتى قام عليهم ، فسلم ، ثم قال : بشـرـ الكاذـين بـرـضـفـ (١) يـحـمـيـ عـلـيـهـ فـيـ نـارـ جـهـنـمـ ، ثـمـ يـوـضـعـ عـلـىـ حـلـمـةـ ثـدـيـ أـحـدـهـ ، حـتـىـ يـخـرـجـ مـنـ نـعـضـيـ (٢) كـتـفـهـ ، وـيـوـضـعـ عـلـىـ نـعـضـ كـتـفـهـ حـتـىـ يـخـرـجـ مـنـ حـلـمـةـ ثـدـيـهـ ، يـتـزـلـلـ (٣) . ثـمـ وـلـىـ فـجـلـسـ إـلـىـ سـارـيـةـ ، وـتـبـعـتـهـ ، وـجـلـسـ إـلـىـهـ ، وـأـنـاـ لـأـدـرـيـ مـنـ هـوـ ، فـقـلـتـ لـهـ : لـأـرـىـ الـقـوـمـ إـلـاـ قـدـ كـرـهـوـ الـذـيـ قـلـتـ . قـالـ : إـنـهـ لـأـعـقـلـونـ شـيـئـاـ . وـاسـتـدـلـ أـبـوـ ذـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ بـقـوـلـ رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـ سـلـاـمـ : « مـاـ أـحـبـ أـنـ لـيـ مـثـلـ أـحـدـ ذـهـبـاـ ، أـنـفـقـهـ كـلـهـ ، إـلـاـ ثـلـاثـةـ دـنـانـيرـ (٤) . »

٤- وقد خالف جمهور الصحابة أبا ذر ، وحملوا الوعيد على مانعي الزكاة واستدلوا على ذلك بالحديث ، الذي رواه أبو سعيد الخدري ، قال : قال النبي ﷺ : « ليس فيما دون خمس أواق صدقة ، وليس فيما دون خمس ذود صدقة ، وليس فيما دون خمسة أو سق صدقة » (٥) . وقال الحافظ ابن حجر : ومفهوم الحديث : أنَّ ما زاد على الخمس فيه صدقة ، ومقتضاه : أنَّ كلَّ مال أخرجت منه الصدقة ، فلا وعيد على صاحبه ، فلا يسمى ما يفضل بعد إخراجه الصدقة كنزاً (٦) . وقال ابن رشد : فإنَّ ما دون الخمس لا تجب فيه الزكاة ، وقد عفي عن الحق فيه ، فليس بكنزة قطعاً ، والله قد أثني على فاعل الزكاة ، ومن أثني عليه في واجب حق المال لم يلحقه ذمٌ من جهة ما أثني عليه فيه ، وهو المال (٧) ، قال الحافظ : ويتحقق أن يقال : ما لم تجب فيه الصدقة لا يسمى كنزاً ؛ لأنَّه معفو عنه ، فليكن ما أخرجت منه الزكاة كذلك ؛ لأنَّه عفي عنه بإخراج ما وجب منه ، فلا يسمى كنزاً (٨) .

وقال ابن عبد البر : والجمهور على أنَّ الكنز المذموم ما لم تؤَدَ زكاته ، ويشهد له حديث

(١) الرَّضْفُ : الحجارة المحمَّاء ، واحدتها : رَضْفَةٌ .

(٢) نغض : العظم الدقيق الذي على طرف الكتف أو على أعلى الكتف .

(٣) يتزلزل : يضطرب ، ويتحرك .

(٤) البخاري ، كتاب الزكاة ، رقم (١٤٠٧) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، رقم (١٤٠٥) .

(٦) فتح الباري (٢٧٢/٣) .

(٧) فتنة مقتل عثمان - رضي الله عنه - (١٠٧/١) .

(٨) المصدر السابق نفسه .

أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا أذيت زكاة مالك ، فقد قضيت ما عليك ». ولم يخالف في ذلك إلا طائفه من أهل الرُّهْد كأبي ذرٍ^(١) .

٥ - ولعلَّ مما يفسر مذهب أبي ذرٍ في الإنفاق ، ما رواه الإمام أحمد عن شداد ابن أوسٍ ، قال : كان أبو ذرٍ يسمع الحديث من رسول الله ﷺ في الشدة ، ثمَّ يخرج إلى قومه ، يسلِّمُ لعله يشدُّد عليهم ، ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ يرَّخص فيه بعد ، فلم يسمعه أبو ذرٍ ، فيتعلق أبو ذرٍ بالأمر الشَّدِيد^(٢) .

٦ - قوله : إن شئت ؛ تتحجَّت ، فكنت قريباً ؛ يدلُّ على أنَّ عثمان طلب من أبي ذر أن يتَّخِّح عن المدينة ، برفقٍ ، ولم يأمره ، ولم يحدِّد له المكان الذي يخرج إليه ، ولو رفض أبو ذرٍ الخروج ما أجبره عثمان على ذلك ، ولكنَّ أبو ذر كان مطيناً للخلفية ؛ لأنَّه قال في نهاية الحديث : لو أمَّروا عليَّ حبشيَاً ؛ لسمعت ، وأطعْت^(٣) .

وممَّا يدلُّ على أنَّه يمقت الفتنة ، والخروج على الإمام المبایع ما رواه ابن سعید في أنَّ ناساً من أهل الكوفة قالوا لأبي ذرٍ وهو بالرَّبَّذَة : إنَّ هذا الرَّاجل فعل بك ، وفعل ، هل أنت ناصبٌ له رأيَّاً - يعني : مقاتلته - ؟ فقال : لا ! لو أنَّ عثمان سيرني من المشرق إلى المغرب ؛ لسمعت وأطعْت^(٤) .

٧ - والسبب في تنحِي أبي ذرٍ عن المدينة ، أو طلب عثمان منه ذلك : أنَّ الفتنة بدأت تطلُّ برأسها في الأقاليم ، وأشاع المبغضون الأقاويل الملفقة ، وأرادوا أن يستفيدوا من إنكار أبي ذرٍ متعلقاً برأيه ، ومذهبـه ، ولا يريد أن يفارقـه ، فرأى عثمان رضي الله عنه تقديم دفع المفسدة على جلب المصلحة ؛ لأنَّ فيبقاء أبي ذرٍ بالمدينة مصلحة كبيرة من بُثِّ علمـه في طلاب العلم ، ومع ذلك فرجـع عند عثمان دفعـ ما يتوقـع من المفسدة من الأخذ بمذهبـه الشَّدِيد في هذه المسألة .

٨ - قال أبو بكر بن العربي : كان أبو ذرٍ زاهداً ، ويرى النَّاس يَسْعُون في المراكب ، والملابس حين وجدوا ، فينكر ذلك عليهم ، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم ؛ وهو غير لازم ، فوقـع بين أبي ذرٍ وعاوـية كلامـ بالشَّام ، فخرـج إلى المدينة ، فاجتمعـ إليه النَّاس ، فجعلـ يسلـك تلك الطُّرق ، فقالـ له عثمان : لو اعتزلـت . معناه : أئـك على مذهبـ لا يصلـحـ لمخالـطة النَّاس .

(١) فتح الباري (٢٧٣ / ٣) .

(٢) المستند (١٢٥ / ٥) .

(٣) البخاري ، رقم (١٤٠٦) .

(٤) الطَّبقات (٢٢٧ / ٤) .

ومن كان على طريقة أبي ذرٍّ فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه ، أو يخالف الناس ، ويسلم لكلٌّ أحدي حاله مما ليس بحرام في الشريعة ، فخرج زاهداً فاضلاً ، وترك جلةً فضلاء ، وكلٌّ على خيرٍ ، وبركةٍ ، وفضلٍ ، وحال أبي ذرٍّ أفضل ، ولا تمكن لجميع الخلق ، فلو كانوا عليها ، لهلكوا ؟ فسبحان مرتب المنازل^(١) !

وقال ابن العربي : وقع بين أبي الدرداء ومعاوية كلامٌ ، وكان أبو الدرداء زاهداً ، فاضلاً ، قاضياً لهم (في الشام) ، فلما أشتدَّ في الحق ، وأخرج طريقة عمر بن الخطاب في قوم لم يحتملوها ؛ عزلوه ، فخرج إلى المدينة ، وهذه كلُّها مصالح لا تقدح في الدين ، ولا تؤثِّر في منزلة أحدٍ من المسلمين بحالٍ ، وأبو الدرداء ، وأبو ذرٍّ بريئان من كلٍّ عيبٍ ، وعثمان بريءٌ أعظم براءةٍ ، وأكثر نزاهةٍ ، فمن روى آنه نفى ، وروى سبباً فهو كله باطل^(٢) .

٩ - ولم يقل أحدٌ من الصحابة لأبي ذرٍّ : إنه أخطأ في رأيه ؛ لأنَّه مذهب محمودٌ لمن يقدر عليه ، ولم يأمر عثمان أبا ذرٍّ بالرجوع عن مذهبه ، وإنما طلب منه أن يكتفَ عن الإنكار على الناس ما هم فيه من المتع الحلال . . . ، ومن روى : أنَّ عثمان نهى أبا ذرٍّ عن الفتيا مطلقاً ، لم تصل روایته إلى درجة الخبر الصحيح^(٣) . والذي صحَّ عند البخاري : أنَّ أبا ذرٍّ قال : لو وضعتم الصِّمْصامَة على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظنتت أنِّي أنفذُ كلمةً سمعتها من النبي ﷺ قبل أن تجيزوا علىَّ ، لأنفذهَا^(٤) .

وفي البخاري : لم يرو : أنَّ عثمان نهى أبا ذرٍّ عن الفتيا ؛ لأنَّ نهي الصحابي عن الفتيا دون تحديد الموضوع أمرٌ ليس بالهين^(٥) .

١٠ - ولو كان عثمان نهَا عن الفتيا مطلقاً ؛ لاختار له مكاناً لا يرى فيه الناس أو جبسه في المدينة ، أو منعه دخول المدينة ، ولكن أذن له بالنزول في منزلٍ يكثر مرور الناس به ؛ لأنَّ الرَّبِّيَّة كانت متزلاً من منازل الحاج العراقي ، وكان أبو ذرٍّ يتعاهد المدينة ، يصلِّي في مسجد رسول الله ﷺ . وقال له عثمان : لو تتحمِّل فكنت قريباً .

والرَّبِّيَّة ليست بعيدةً عن المدينة ، وكان يجاورها حِمَى الرَّبِّيَّة ؛ الذي ترعى به إبل الصَّدقة ، ولذلك يروى : أنَّ عثمان أقطعه صرمةً من إبل الصَّدقة ، وأعطاه مملوكين ، وأجرى

(١) العواصم من القواسم ، ص(٧٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٧٩) .

(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢٢٣/٢) .

(٤) البخاري ، كتاب العلم ، باب العلم قبل القول والعمل (١١/٢٩) .

(٥) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢٢٤/٢) .

عليه رزقاً . وكانت الرَّبْذة أحسن المنازل في طريق مَكَّة^(١) .

وبعد أن ذكر الإمام الطَّبرِيُّ الأخبار التي تفيد اعتزال أبي ذرٍ من لقاء نفسه ، قال : وأمَّا الآخرون ؛ فإنَّهم رووا في سبب ذلك أشياء كثيرةً ، وأموراً شنيعةً ، كرهت ذكرها^(٢) .

إنَّ الحقيقة التَّارِيخِيَّةَ تقول : إنَّ عثمان رضي الله عنه لم ينف أبا ذرٍ رضي الله عنه ، إِنَّما استأذنه ، فأذن له ، ولكنَّ أعداء عثمان رضي الله عنه كانوا يشيعون عليه بائِه نفاه ، ولذلك لَمَّا سُأله غالب القَطَّان ، الحسن البصريَّ : عثمان أخرج أبا ذرٍ ؟ قال الحسن : لا ، معاذ الله^(٣) ! وكلُّ ما روي في أنَّ عثمان نفاه إلى الرَّبْذة فإنَّه ضعيفُ الإسناد ، لا يخلو من علَّةٍ قادحةٍ ، مع ما في متنه من نكارةٍ لمخالفته للمرجوةَات الصَّحِيحَةَ ، والحسنة ، التي تبيَّن أنَّ أبا ذرٍ استأذن للخروج إلى الرَّبْذة ، وأنَّ عثمان أذن له^(٤) ، بل إنَّ عثمان أرسل يطلبُه من الشَّام ، ليجاوره بالمدينة ، فقد قال له عندما قدم من الشَّام : إنا أرسلنا إليك لخِير ، لتجاوزرنا بالمدينة^(٥) . وقال له أيضاً : كنْ عندِي ، تغدو عليك ، وتروح اللِّقَاح^(٦) . أَفَمَنْ يقول ذلك له ينفيه^(٧) ؟ !

ولم تنصَّ على نفيه إلا روايةٌ رواها ابن سعد ، وفيها بريدة بن سفيان الأسلميُّ ، الذي قال عنه الحافظ ابن حجر : ليس بالقويٍّ ، وفيه رفضٌ . فهل تقبل رواية رافضيٍّ تتعارض مع الرَّوايات الصَّحِيحَةَ ، والحسنة ؟ !^(٨) ، واستغلَّ الإمامية هذه الحادثة أبشَّع استغلالاً ، فأشاروا : أنَّ عثمان رضي الله عنه نفى أبا ذرٍ إلى الرَّبْذة ، وأنَّ ذلك ممَّا عيب عليه من قبل الخارجين عليه ، أو أنَّهم سوَّغوا الخروج عليه^(٩) ، وعاب عثمان رضي الله عنه بذلك ابن المطهر الحلبي الإمامية المتوفى سنة ٧٢٦ هـ ، بل زاد : أنَّ عثمان رضي الله عنه ضرب أبا ذرٍ ضرباً وجيعاً^(١٠) ، ورَدَ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رداً جاماً قوياً^(١١) ، وكان سلف هذه الأُمَّةَ يعلمون هذه الحقيقة ،

(١) تاريخ الطَّبرِيٍّ (٢٨٦/٥) .

(٢) المصدر السَّابِقُ نفسه (٢٨٨/٥) .

(٣) تاريخ المدينة ، ابن شِبَّةَ ، ص(١٠٣٧) إسناده صحيحٌ .

(٤) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١١٠/١) .

(٥) تاريخ المدينة ، ص(١٠٣٦ - ١٠٣٧) إسناده حسنٌ .

(٦) الطَّبقَاتُ ، لابن سعد (٤/٢٢٦ - ٢٢٧) .

(٧) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١١١/١) .

(٨) المصدر السَّابِقُ نفسه .

(٩) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١١١/١) .

(١٠) منهاج السُّنَّةِ لابن تيمية (٦/١٨٣) .

(١١) المصدر السَّابِقُ نفسه (٦/٢٧١ ، ٣٥٥) .

فإنه لما قيل للحسن البصري : عثمان أخرج أبا ذر؟ قال : لا ، معاذ الله^(١) !

وكان ابن سيرين إذا ذُكر له : أنَّ عثمان رضي الله عنه سَيِّرَ أبا ذرًّا ؛ أخذه أَمْرٌ عظيم ، ويقول : هو خرج من نفسه ، ولم يسْيِّرْه عثمان^(٢) ، وكما تقدَّم في الرِّواية الصَّحِيحَةِ الإِسْنَادِ : أنَّ أبا ذرًّا رضي الله عنه لَمَّا رأى كثرة النَّاسِ عليه خشي الفتنة ، فذكر ذلك لعثمان كأنَّه يستأذنه في الخروج ، فقال له عثمان رضي الله عنه : إن شئت ؛ تنحيت ، فكنت قريباً^(٣) .

ثانياً : بطلان تأثير ابن سِبَا على أبي ذرٌّ رضي الله عنه :

كتب سعيد الأفغاني في كتابه : عائشة والسياسة ، فعظم دور ابن سِبَا في الفتنة ، ونسب إليه كلَّ المؤامرات ، والفتن والملامح الواقعة بين الصَّحابة ، ويرى : أنَّ هذه المؤامرة المحكمة سهر عليها أبناء خبرون ، وسدَّدوا خططاً ، وتعهدواها ، حتَّى آتت ثمارها في جميع الأقطار ، ولهذا كتب هذا العنوان (ابن سِبَا البطل الخفيُّ المخيف)^(٤) ، ويدوِّي التَّهويل من شأن ابن سِبَا عند الأفغاني حينما يصفه بأنه رجل على غايةِ من الذِّكاءِ وصدق الفراسة ، والنَّظر البعيد ، والحيلة الواسعة ، والنَّقاذ إلى نفسية الجماهير^(٥) ، ويقطع بأنه أحد أبطال جمعية تلمودية سَرِّيَّةٍ غايتها تقويض الدَّولةِ الإسلاميَّة^(٦) . ويؤكد يقرَّر بأنَّه يعمل لصالح دولة الرُّوم التي انتزع المسلمون منها لفترة قريبة قطرتين مهمَّتين هما : مصر ، والشَّام ، عدا ما سواهما من بلادٍ أخرى على البحر المتوسط ، ويستغرب نشاط ابن سِبَا إلى شَتَّى المجالات الدينيَّة ، والسياسيَّة ، والحربيَّة^(٧) .

وهو يرى : أنَّ ابن سِبَا كان موفقاً كلَّ التَّوفيق في لقائه مع أبي ذرًّا ، وفي تفصيل هذه المقالة التي ركبتها على مزاج أبي ذرًّا ، وأنَّ الذي ساعده على ذلك فهمه الجيد لأمزجة النَّاسِ ، واستخباراته الصَّادقة المنظمة^(٨) ، وهذا الزَّعم - أي : في تأثير ابن سِبَا على أبي ذرٌّ رضي الله عنه لا أساس له من الصَّحة من عدَّةٍ وجوهٍ :

(١) تاريخ المدينة (١٠٣٧) إسناده صحيح .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) البخاريُّ ، كتاب الزَّكَاة ، رقم (١٤٠٦) .

(٤) عائشة والسياسة ، ص(٦٠) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق نفسه .

(٧) المصدر السابق نفسه .

(٨) المصدر السابق نفسه .

أ - حينما أرسل معاوية إلى عثمان رضي الله عنه يشكوا إليه أمر أبي ذرٍ لم تكن منه إشارة إلى تأثير ابن سبأ عليه ، واكتفى أن قال : إنَّ أبا ذرٍ قد أضلَّ بي ، وقد كان من أمره كيت ، وكيت^(١) .

ب - ذكر ابن كثير الخلاف الواقع بين أبي ذرٍ ومعاوية بالشَّام في أكثر من موضعٍ في كتابه ، ولم يرد ابن سبأ في واحدٍ منها^(٢) .

ج - وفي صحيح البخاريٌ ورد الحديث الذي يشير إلى أصل الخلاف بين أبي ذرٍ ومعاوية ، وليس فيه الإشارة من قريب أو بعيد إلى ابن سبأ^(٣) .

د - وفي أشهر الكتب التي ترجمت للصَّحابة ترد محاورة معاوية لأبي ذرٍ ، ثمَّ نزوله الرَّبْذة ، ولكن شيئاً من تأثير ابن سبأ على أبي ذرٍ لا يذكر^(٤) .

ه - بل ورد الخبر في الطَّبرِيٌ هكذا : فاما العاذرون معاوية في ذلك - يعني : إشخاص معاوية أبا ذرٍ إلى المدينة - فذكروا في ذلك قصَّة ورود ابن السُّوداء الشَّام ولقياه أبا ذرٍ ... إلخ^(٥) . وهذا الخبر الذي أورده الطَّبرِيٌ ، ساقطٌ ، وكاذبٌ ، تكذبه وقائع التَّاريخ الزَّمنيَّة ، وإليك البيان :

* يذكرون أنَّ ابن سبأ أسلم في عهد عثمان ، وكان يهودياً من اليمن ، وبدأ نشاطه المخرب في الحجاز ، ولكنَّهم لم يذكروا أنَّه التقى أحداً ، أو التقاه أحدٌ في الحجاز .

* كان أول ظهوره في البصرة ، بعد أن تولَّ عبد الله بن عامر عليها بثلاث سنوات ، وعبد الله بن عامر جاء بعد أبي موسى الأشعريٌ سنة ٢٩ هـ وبهذا يكون ظهوره في البصرة ٣٢ هـ ، وقد طرده ابن عامر من البصرة يوم عرفة .

* قالوا : إنَّه توجَّه إلى الكوفة ، فباض ، وفرَّخ ، وحرَّض على معاوية ، ولا بدَّ : أَنَّه مكث زماناً في الشَّام ليتعرف على أحوال الرِّجال ، ويضع خططه لبيث دعوته فيهم ، ولنفترض جدلاً ، أَنَّه عرف أمره في الشَّام في أواخر سنة ٣٣ هـ ، فماذا تقول أيُّها القارئ إذا عرفت أنَّ الروايات الصَّحيحة تقول : إنَّ أبا ذرٍ كانت مناظرته لمعاوية سنة ٣٠ هـ ، وأَنَّه رجع إلى المدينة ، وتوفي بالرَّبْذة سنة ٣١ هـ ، أو سنة ٣٢ هـ ، ومعنى هذا أنَّ ابن سبأ ظهر في البصرة في

(١) تاريخ الطَّبرِيٌ (٤٢٨٥ / ٥) .

(٢) البداية والنهاية (٧ / ١٧٠ ، ١٨٠) .

(٣) البخاري ، رقم (١٤٠٦) .

(٤) عبد الله بن سبأ ، وأثره في أحداث الفتنة ، ص (٥١) .

(٥) تاريخ الطَّبرِيٌ (٥ / ٢٨٥) .

وقتٍ كان فيه أبو ذرٌّ ميتاً ، فكيف ، وأين التقاه ؟^(١) .

إنَّ أبا ذرٌّ رضي الله عنه لم يتأثِّر لا من قريبٍ ، ولا من بعيدٍ بآراء عبد الله بن سبأ اليهوديّ ، وقد أقام بالرَّبَّنِيَّةِ حتَّى توفَّيَ ، ولم يحضر شيئاً ممَّا وقع في الفتنة^(٢) ، ثُمَّ هو قد روى حديثاً من أحاديث النَّبِيِّ عن الدُّخُولِ في الفتنة^(٣) .

ثالثاً : وفاة أبي ذرٌّ رضي الله عنه وضم عثمان عياله إلى عياله :

في غزوة تبوك قيل لرسول الله ﷺ : قد تخلَّفَ أبو ذرٌّ ، وأبطأ به بعيده . فقال : دعوه ، فإنَّ يك فيه خيرٌ فسيلِّحْه الله بكم ، وإنَّ يك غير ذلك ، فقد أراحكم الله منه ، وتلَوَّمَ^(٤) أبو ذرٌّ على بعيده ، فلَمَّا أبطأ عليه ، أخذ متابعاً ، فحمله على ظهره ، ثمَّ خرج يَبْعَثُ أثرَ رسول الله ﷺ ماشياً ، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله ، فنظر ناظرٌ من المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذرٌّ^(٥) . فلَمَّا تأملَه القوم قالوا : يا رسول الله ! هو والله أبو ذرٌّ ! فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله أبا ذرٌّ ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبيعث وحده »^(٦) .

ومضي الزَّمان وجاء عهد عثمان ، وأقام أبو ذرٌّ في الرَّبَّنِيَّةِ ، فلَمَّا حضرته الوفاة أو صى امرأته ، وغلامه : إذا مُتْ ؟ فاغسلاني وكفناني ، ثمَّ احملاني فضعاني على قارعة الطريق ، فأولَ ركب يمرون بكم ، فقولوا : هذا أبو ذرٌّ . فلَمَّا مات ؛ فعلوا به كذلك ، فطلع ركبٌ مما علموا به حتَّى كادت ركائبهم تطأ سريره ، فإذا ابن مسعودٌ في رهطٍ من أهل الكوفة ، فقال : ما هذا ؟ فقيل : جنازة أبي ذرٌّ ، فاستهلَّ ابن مسعود يبكي ، فقال : صدق رسول الله ﷺ : « يرحم الله أبا ذرٌّ ! يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبيعث وحده »^(٧) . فغسلوه وكفنهو وصلوا عليه ، ودفنهو ، فلَمَّا أرادوا أن يرتحلوا قالوا لهم ابنته : إنَّ أبا ذر يقرأ عليكم السلام ، وأقسم ألا ترتكبوا حتى تأكلوا ، ففعلوا ، وحملوهم حتَّى أقدموهم إلى مكَّةَ ، ونحوه إلى عثمان رضي الله عنه ، فضم ابنته إلى عياله^(٨) .

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢٢٥/٢).

(٢) أحداث الفتنة الأولى بين الصحابة في ضوء قواعد الجرح والتعديل ، د . عبد العزيز دخان ، ص (١٧٤).

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) تلَوَّمَ على بعيده : تمَّهَّل .

(٥) كن أبا ذر : لفظ الأمر ، ومعناه : الدُّعاء : أرجو الله أن تكون أبا ذرًّ.

(٦) السيرة البوية ، لابن هشام (٤/١٧٨).

(٧) المصدر السابق نفسه (٤/٤٧٨).

(٨) التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان ، ص (٨٧ ، ٨٨) .

وجاء في رواية . . . فلما دفناه ؛ دعتنا إلى الطعام ، وأردنا احتمالها ، فقال ابن مسعود : أمير المؤمنين قریب ، نستأمره ، فقدمنا مكّة ، فأخبرناه الخبر ، فقال : يرحم الله أبا ذر ! ويففر له نزوله الرَّبَّذة ، ولمَّا صدر ؛ خرج ، فأخذ طريق الرَّبَّذة ، فضمَّ عياله إلى عياله ، وتوجه نحو المدينة ، وتوجهنا نحو العراق^(١) .

* * *

(١) تاريخ الطّبرى (٣١٤/٥).

الفصل السادس

أسباب فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه

المبحث الأول

أهمية دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان وما ترتب عليها من أحداث ، والحكمة من إخباره بِعِلَّةِ بُوقُوعِهِ

أولاً : أهمية دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ، وما ترتب عليها من أحداث في الجمل ، وصفين ، وغيرهما :

ورد عن كثيرٍ من السلف والعلماء الأئم بالتوقف عن الخوض في تفاصيل ما وقع بين الصحابة ، وإيكال أمرهم إلى الله الحكم العدل ، مع الترضي عنهم ، واعتقاد : أنهم مجتهدون ، مأجورون إن شاء الله ، والحذر من الطعن فيهم ، والوقوع في أعراضهم ، لما يجر ذلك من الطعن في الشريعة ؛ إذ هم حملتها ، وحملوها إلينا ، ومن ذلك ما روي عن عمر بن عبد العزيز : أنه سُئل عن أهل صفين ، فقال : تلك دماء طهر الله منها يدي ، فلا أحب أن أخضب لسانِي فيها^(١) ، وسئل أحدِهم عن ذلك ، فقال : متمثلاً قوله تعالى : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ١٣٤] .

وهذا التهـي معلـل ، علـته الخوف مـما ذكرناه من الطـعن فيـهم ، والـوقـوع فيـأعراضـهم ، وما يستوجـب ذلك من غـضـبـ الله ، وـمقـته ، فإذا انتـفتـ هذهـ العـلة ، فالـظـاهر : أنهـ لاـ حـرجـ منـ ذلكـ ؛ـ إذاـ كانـ الـكلـامـ والـبـحـثـ فيـ تـفـاصـيلـ ماـ وـقـعـ بـيـنـهـمـ لاـ يـؤـديـ إـلـىـ الطـعنـ فيـهـمـ مـطـلقـاـ ،ـ فـلـابـأسـ مـنـ درـاسـةـ ذـلـكـ ،ـ وـالـتـعمـقـ فيـ أـسـبـابـهـ ،ـ وـدـوـافـعـهـ ،ـ وـتـفـصـيـلاتـهـ الدـاقـيقـةـ ،ـ وـنـتـائـجـهـ وـتـدـاعـيـاتـهـ عـلـىـ مجـتمـعـ الصـحـابـةـ ،ـ ثـمـ عـلـىـ مـنـ بـعـدـهـ ،ـ وـقـدـ كـتـبـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ عـنـ الفتـنـةـ ،ـ أمـثالـ اـبـنـ كـثـيرـ ،ـ

(١) حلية الأولياء (٩/١١٤) ، وعون المعبود (١٢/٢٧٤).

والطّبّريٌ ، وغيرهم أحاديث تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام ، وفَصَلُوا ، وفَصَلُوا في قضايا كثيرة تتعلق بتلك الفتنة ، ومنهم من ذهب إلى حد تخطئة أحد الطرفين ، أو كلّيهما ، اعتماداً على روایاتٍ ، ونصوص كثيرة اختلط فيها الصَّحيح بغيره^(١) .

وهناك أسبابٌ تدعو علماء أهل السنة وطلاب العلم منهم للغوص في أعماق فتنة الهرج التي وقعت في صدر الإسلام ، والبحث عن تفاصيلها ، ومن هذه الأسباب :

١ - أنَّ المؤلفات المعاصرة التي تناولت أحاداث الفتنة بين الصحابة ، والتَّابعين انقسمت إلى ثلاثة أنواع :

أ - مصنفاتٌ ترَى أصحابها على موائد الفكر الغربيٌ ، العاقد على التَّاريخ الإسلاميٌ ، أو الجاهل بالتَّاريخ الإسلاميٌ ، فلم يروا فيه شيئاً جميلاً ، فراحوا يطعنون في الصحابة والتَّابعين بطريقةٍ تخدم أعداء الإسلام ، وخصوصه ؛ الذين قاموا لدراسة أحاداث تلك الفتنة وتفاصيلها ، وإعطائهما تفسيراتٍ تعطن في جموع الصحابة ، وتضرب الإسلام في أصوله ، وتجعل من هذه الأحداث صراغاً سياسياً ، على مناصب وكراس ، تخلي فيه الصحابة عن إيمانهم ، وتقواهم ، وصدقهم مع الله ، وانقلبوا إلى طلاب دنيا ، وعشاق زعامةٍ ، لا يهمُّهم أن تراق الدِّماء ، وتُزْهق الأرواح ، وتسلب الأموال ، وتستباح الحرمات إذا كان في ذلك ما يحقق لهم ما يريدون من الرِّئاسة والرِّزامة .

وممَّن تولَّى كبر هذه الفرية ، طه حسين في (الفتنة الكبرى)^(٢) الذي هو بحقٍ فتنةٌ كبرى على عقول التَّائشة من أبناء المسلمين ، فقد راح طه حسين يشَّعَ على الصحابة ، ويشكُّك في نياتهم ، ويتهَمُّهم باتهاماتٍ مغرضة خدمة لأعداء الإسلام ، والمسلمين^(٣) ، وقد تأثرَ الكثير بمنهجه ، ويبدو أنَّ أمثال هؤلاء اعتمدوا على الروايات التَّاريخية ؛ التي أوردها المؤرخون كالطّبّري ، وابن عساكر ، وغيرهما ، والتي اختلط فيها الغثُ بالسمين ، والكذب بالصدق ، وأخذوها دون مراعاةٍ لمنهج هؤلاء في مصنفاتهم ، وهذا خطأٌ كبير^(٤) ، وقد تأثرت هذه الكتابات بالفكر المنحرف ، والكتابات غير الصحيحة للتَّاريخ الإسلامي^(٥) ، فقد تعمَّدَ

(١) أحاديث وأحاديث فتنة الهرج ، د . عبد العزيز دخان ، ص(٧٩) .

(٢) انظر : الفتنة الكبرى (عثمان) ، عليٌ وبنوه .

(٣) أحاديث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٨٠) .

(٤) أحاديث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٨١) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

الأعداء الإساءة في كتاباتهم للتاريخ الإسلامي ، كما في روايات ، وأخبار الكلبي^(١) ، وأبي مخنف^(٢) ، ونصر بن مزاحم المنقري^(٣) ، والتي توجد حتى عند الطبرى في تاريخه ، لكن الطبرى يذكرها مستندة لهؤلاء ، فيعرف أهل العلم حالها^(٤) ، وكما في كتابات المسعودي في مروج الذهب ، واليعقوبى في تاريخه .

وقد أشار الأستاذ محب الدين الخطيب في حاشية (العواصم) إلى أنَّ التدوين التاريجي إنما بدأ بعد الدولة الأموية ، وكان للأصحاب المعاوحة ، والشُعوبية المتلقة برداء الضلال دورًا في طمس معالم الخير فيه ، وتسويد صفحاته التائصة^(٥) .

ويظهر هذا الكيد لمن تدبر كتاب العواصم من القواسم لابن العربي مع الحاشية الممتازة التي وضعها العلامة محب الدين الخطيب ، لقد سوَّد بعض الكتاب آلاف الصفحات بسبَّ أفضل قرن عرفته البشرية ، وصرفوا أوقاتهم ، وجهودهم لتشويه تاريخ المسلمين^(٦) ، وكانت هذه المادة التاريخية الكبيرة ، والتي تجدها في كتب التاريخ ، التي وضعها أولئك ، أو شاركوا في بعض أخبارها ، وترتها في كتب الحديث عندهم وهي كثيرة واسعة ، وفي ما كتبه شيوخهم في القديم من ضلالات ، وفي الحديث من تقول ؟ هذه المادة السوداء المظلمة الكريهة الشائهة هي المرجع لما كتبه أعداء المسلمين من المستشرقين ، وغيرهم ، وجاء ذلك الجيل المهزوم روحياً ، والذي يرى في الغرب قدوته ، وأمثاله من المستغربين فتلقي ما كتبته الأفلام الاستشرافية ، وجعلها مصدره ، ومنهله ، وتبني أفكارهم ، ونشر شباهتهم في ديار المسلمين ، وكان لذلك أثره الخطير في أفكار المسلمين وثقافتهم ، وكان العدول عن الحق هو الأصل في هذا الشر كلُّه ، وإنَّ دراسة آراء المستشرقين ، وصلتها بالانحراف لهي موضوع مهمٌ يستحق الدراسة ، والتتبع . لقد بدأت استفادة العدو الكافر من شباهات الأعداء ، وأكاذيبهم ،

(١) محمد بن السائب الكلبي ، قال ابن حبان : كان سبئياً من أولئك الذين يقولون : إنَّ علياً لم يمت ، وإنَّ راجعه إلى الدنيا . توفي سنة ١٤٦ هـ . ميزان الاعتدال (٣/٥٥٨) . وابن أبي حاتم ، الجرح والتعديل (٧/٢٧٠ - ٢٧١) .

(٢) لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي من أهل الكوفة ، قال ابن عدي : شيعيٌّ محترقٌ صاحب أخبارهم ، توفي سنة ١٥٧ هـ له تصانيف كثيرة منها الردة ، الجمل ، صفين ، وغيرها .

(٣) نصر بن مزاحم بن سيار المنقري الكوفي ، قال النهي : رافضيٌّ ، جلد ، وتركوه ، توفي سنة ٢١٢ هـ ، ومن كتبه : وقعة صفين ، وهو مطبوع ، والجمل ، ومقتل الحسين . ميزان الاعتدال (٤/٢٥٣) .

(٤) أصول مذهب الشيعة الإمامية ، لناصر القفارى (٣/١٤٥٧) .

(٥) المصدر السابق نفسه (٣/١٤٥٨) .

(٦) المصدر السابق نفسه (٣/١٤٥٩) .

ومفترياتهم على الإسلام والمسلمين منذ عهد الإمام ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) ^(١).

ب - مصنفات بعض علماء هذه الأمة من المعاصرين ، وهي مفيدة إجمالاً ، ولكن طريقة عرضهم للأحداث ، وتفسيرهم لموافق بعض الصحابة ، والتابعين فيها كثير من عدم الإنصاف ، مثل ما كتبه أبو الأعلى المودودي - رحمه الله - في كتابه : (الخلافة والملك) ، وما دوّنه الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله - في كتابيه : (تاريخ الأمم الإسلامية) و(الإمام زيد بن عليٍّ) فالكتابان مشحونان بكثيرٍ من التحامل على مقام بعض الصحابة ، والطعن على خلفاء بني أمية ، وتنقصهم ، وتجريدهم من أيّة خصلةٍ حميدةٍ ، أو عمل صالح ^(٢) ، ويبدو : أنَّ أمثال هؤلاء العلماء لم يحقّقوا في الرِّوايات التَّارِيخيَّة ، فتوَّطوا في الرِّوايات الإماميَّة الشِّيعيَّة وبينوا عليهما تحليلاتهم ، واستنتاجاتهم ، غفر الله لنا ، ولهم .

ج - مصنفاتٌ حاول أصحابها أن يسلكوا فيها منهج علماء الجرح والتعديل في نقد الروايات التاريχيَّة ، وعرضها على أصول منهج المحدثين من حيث السُّند ، والمتن ، من أجل تمييز صحيحة منها ، وسلامتها من عليها .

وفي هذه المؤلفات محاولةً جيئةً ، وجهدٌ مشكورٌ للوقوف في وجه هذا الزَّيف ، وتفسير الأحداث التَّفسير الصَّحيح الذي لا يتعارض مع فضل الصحابة ، وإيمانهم ، وجهادهم ^(٣) ، ومن هذه المؤلفات الجيئة ، ما كتبه الدكتور يوسف العش ، في تاريخ الدولة الأموية ، وما كتبه محب الدين الخطيب ، تعليقاً على كتاب : العواصم من القواسم لأبي بكر بن العربي ، وما كتبه صادق عرجون في كتابه : عثمان بن عفان ، وما سطره الدكتور سليمان بن حمد العودة في كتابه : عبد الله بن سبأ ، وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام ، وما كتبه محمد أمحزون في كتابه : تحقيق موافق الصحابة في الفتنة ، وما كتبه الدكتور أكرم العمري في كتابه : الخلافة الرَّاشدة ^(٤) ، وما كتبه عثمان الخميس في كتابه : حقبة من التاريχ ، وما كتبه الدكتور محمد حسن شرَّاب في كتابه : المدينة النبوية فجر الإسلام ، والعصر الرَّاشدي ، وما قام به محب الدين من تحقیقات نافعة ، وتعليقاتٍ صائبةٍ على كتاب العواصم من القواسم ، والمنتقى ، وغيرها من الكتب والبحوث والرسائل ؛ التي سارت على نفس المنهج ، فقد ظهر من هذا البيان شدَّة الحاجة إلى وجود مؤلفات ، ومصنفات تردُّ على هذه المزاعم ، والأخطاء .

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) أحداث وأحاديث فتنة المهرج ، ص(٨١) .

(٣) أحداث وأحاديث فتنة المهرج ، ص(٨١) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص(٨٢) .

ولا يتم الرد على هؤلاء المزيّفين للتاريخ الإسلامي ، ومقام الصحابة إلا بمحاولة دراسة تفاصيل تلك الأحداث ، وغربلة الأخبار والروايات الواردة بميزان الجرح ، والتعديل ، والتحقيق ، والتَّضييف^(١) ، وقد جاء عن ابن تيمية قوله: لكن إذا ظهر مبتدعٌ، يقدح فيهم بالباطل، فلا بد من الذبّ عنهم، وذكر ما يُبطل حجّته بعلمٍ، وعدل^(٢) . وقد ذهب الإمام الذهبي - رحمه الله - في هذا مذهبًا آخر، فهو يدعو إلى إحراق هذه الكتب التي فيها هذا الكذب ، والتشويه لمقام الصحابة ، قال رحمه الله: كما تقرَّر الكفُّ عن كثيرٍ مما وقع بين الصحابة ، وقتالهم - رضي الله عنهم أجمعين - وما زال يمُرُّ بنا ذلك في الدّوّاين ، والكتب ، والأجزاء ، ولكنَّ أكثر ذلك منقطعٌ ، وضعيفٌ ، وبعضه كذبٌ ، وهذا فيما بأيدينا ، وبين علمائنا ، فينبغي طيُّه ، وإخفاؤه ، بل بإعدامه لتصفو القلوب ، وتتوفر على حبِّ الصحابة ، والترضي عنهم^(٣) .

وقد أفادنا الذهبي في كلامه فائدةً كبيرةً ، وهو تصريحه بكون أكثر ما يُنقل من ذلك في الكتب والدوّاين كذبًا ، وزورًا ، وافتراءً على مقام الصحابة رضي الله عنهم إلا أن اقتراح الذهبي بحرق تلك المؤلفات لم يعد ممكناً ، فقد انتشرت هذه الكتب ، وتولّت طباعتها كثيرٌ من دور النَّشر ، وكثيرٌ من ذوي النِّيَّات السَّيِّئة ، فلم يبقَ إلا وضعها موضع الدراسة وبيان ما فيها من عوارٍ ، وخطأً ، وكذبٍ حفظاً لأجيال المسلمين من انحراف السلوك ، والعقيدة^(٤) .

٢ - تظهر أهمية دراسة فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ، وما ترتب عليها من أحداثٍ لمعرفة أسباب الفتنة الحقيقة ، سواءً كانت هذه الأسباب داخليةً ، أو خارجيةً ، ومعرفة نصيب كل سببٍ من هذه الأسباب فيما حدث ، وهل هناك أسبابٌ يمكن إدراجها في هذا السَّبيل؟

إنَّ الذي يقرأ طرفاً مما كتب عن هذه الفتنة يحسُّ : أنَّ مؤامرةً كبرى ، جرى التَّخطيط لها ، وتعاون ذوو الفكر المنحرف ، والمنافقون على تفيذها ، فقضية تأمر الأعداء ترافق الأمة الإسلامية في كلٍّ مراحل تاريخها الطَّويل^(٥) .

إلا أنَّ هذه المؤامرة ما كانت لتنجح لو لا وجود عوامل ضعفٍ داخليةٍ ساهمت في التَّمكين لنجاح هذه المؤامرة ، ألا تضحي دراسة عهد الصحابة - والحالة هذه - واجباً من الواجبات في سبيل معرفة أسباب ضعف الأمة الإسلامية ، وتحديد مكامن الدَّاء التي أُوتِيت منها ، والاستفادة

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(٨٣).

(٢) منهاج السنة (٣/١٩٢).

(٣) سير أعلام النبلاء ، (١٠/٩٢).

(٤) أحداث ، وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٨٤).

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص(٨٣).

من ذلك في إصلاح حاضر هذه الأمة ، وتجنيبها هذه المزالق في مستقبل حياتها ؟ أم كتب عليها أن تظلّ ترزاً تحت ثقل أدائها من الدّاخل ، وكيد أعدائها من الخارج^(١) ؟ !

إنَّ ما وقع من أحداثٍ جسامٍ في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ، وما ترتب عليها من أحداثٍ تحتاج لدراسةٍ عميقةٍ ، ومتأنيةٍ ، لكي نستخرج من تلك الحقبة التاريخية دروساً وعبرًا نستفيء بها في حاضرنا ولكي نسترشد بها في سعينا العجاذ لإعادة الخلافة الرّاشدة على منهاج النّبوة حتّى تسعد البشرية بدين الله ، وشرعه ، وتخرج من شقاوتها ، وتعاستها ، وضنكها بسبب بعدها عن شرع الله تعالى .

ثانياً : الحكمة من إخباره ﷺ بوقوعها :

لقد أخبر النبي ﷺ في كثيرٍ من أحاديثه بأنَّ هذه الأمة ستختلف ، وستتقاول ، وتعدّد الأحاديث التي تشير إلى ذلك بإجمالٍ ، أو بتفصيلٍ ، وتنوعت أساليب الإخبار عن ذلك من ذكر لأسباب الفتنة ، أو لنتائجها ، أو لبعض أحداثها ، ووقائعها ، أو لمن يشرونها ، وغير ذلك ، وكان كثيرٌ من هذا البيان والتوضيح منه ﷺ جواباً لأسئلة الصحابة الكرام ؛ الذين كانوا يطربونها عليه ، وهم يشاهدون ويتدوّلون النّعمة العظيمة التي أفاءها الله عليهم ، وهي نعمة الأخوة ووحدة الصفّ واجتماع الكلمة ، فراحوا يسألون فيما إذا كانت هذه النّعمة ستندوم ، أم تزول ، ولما كان رسول الله ﷺ يعلم بالوحى : أنَّها لن تدوم كما هي ؛ أحبَّ أن يريّهم على الاستعداد لهذه المحن ، والفتنة ؛ حتّى يحسنوا التصرُّف يوم يقدِّر الله لهذه الفتنة أن تقع ، فيسعوا إلى علاجها في وقتها ، ومن خلال النّظر في جملة الأحاديث الواردة في ذكر الفتنة نلمح الحكم التالية^(٢) :

١ - أنَّ النبي ﷺ وهو يذكر هذه الفتنة ، والواقع يريد أن يرى الأمة على الاستعداد لها ، حتّى تحسن التصرُّف يوم تقع هذه الفتنة ، فتسْعَى إلى علاجها في وقتها .

٢ - أنَّ في هذه الأحاديث إشاراتٍ إلى من يشرونها ، وأنَّها أحياناً تكون من قوم ظاهري الإيمان ، والتّشدد ، ولكن عقولهم منحرفةٌ ، وقلوبهم ملتويةٌ ، وهم في جملة حالهم غير مدركون ، ولا فاقهين^(٣) .

٣ - أنَّ هذه الفتنة تكشف المنافقين ، وتصقل قلوب المؤمنين ، فيزدادون إيماناً ،

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(٨٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٦٨) .

(٣) الوحدة الإسلامية ، محمد أبو زهرة ، ص(١٣٧) .

ويتحفّزون للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهو نوعٌ من الابتلاء ، تُ sclّل به النفوس ، وتنعد المواجهة ، وتعترف الخير ، فتأمر به ، والشّرّ ، فتنهى عنه^(١) .

٤ - أنَّ الإخبار عن هذه الفتنة يحمل في مضمونه تحذيرًا شديداً من الواقع فيها ، أو ملابسة شيءٍ منها ، ذلك : أنَّ المؤمنين من هذه الأمة - من الصَّحابة وغيرهم - حين يسمعون خبر النَّبيِّ ﷺ بأنَّ منهم من سيحدث منه القتل ، ومنهم من سيتعلّق بالدُّنيا ، ومنهم من سيترك الجهاد ، ومنهم ، ومنهم . . . تتحرّك في نفوسهم مشاعر المواجهة لهذه الفتنة ، ويقول كُلُّ واحدٍ منهم : لعلَّي أنجو ! ويصبح الموقف منها الخوف على الدَّوام أن يقع في تلك المهالك على غفلة ، والخوف - في هذا الباب - من أعظم سبل النَّجاة^(٢) .

قال ابن تيمية - رحمه الله - بعد أن أورد عدّة أحاديث مرفوعة في وقوع هذا الخلاف ، والاختلاف في هذه الأمة : وهذا المعنى محفوظٌ عن النَّبِيِّ ﷺ ، من غير وجهٍ ، يشير إلى أنَّ التَّفرقة ، والاختلاف لا بدَّ من وقوعها في الأمة ، وكان يحذر أمتَه ، لينجو من شاء الله له السَّلامَة^(٣) .

٥ - أنَّ الإخبار عن هذه الفتنة أدقُّ في تحديد سبل النَّجاة منها ، فإنَّ الإنسان مهما بالغَ في تحذيره من خطرٍ يهدّده - دون أن تحدّد له هذا الخطر ، أو تبيّن له كيفية الواقع فيه - قد لا يتصرّر الطَّريقة التي سيحدث بها ، ولا يستبين طبيعة المشكلة التي سيواجهها ، وقد يقع في المحذور دون أن يعرف أَنَّ المقصود بالتحذير^(٤) .

٦ - أنَّ الإخبار عن تلك الفتنة اقتربن في بعض الأحاديث بذكر أسبابها ، أو بيان نتائجها ، أو موقف المسلم منها ، وهذا ينفع المسلم - أو الأمة كلَّها - في نبذ أسباب الفتنة ، أو الحكم على وقائع معينة من خلال النَّظر في نتائجها ، أو اتخاذ الموقف السَّليم منها ابتداءً .

٧ - ثُمَّ إنَّ فيها دليلاً واضحاً على صدق رسالة محمد ﷺ ، ونبوته ، يزداد به إيمان الصَّحابة الذين سمعوا الحديث ، ثمَّ رأوا تأويله في مواقفهم بعد مدةٍ ، ويزداد به إيمان المؤمن - كلُّ مؤمنٍ - في كُلِّ عصْرٍ ، ومصْرٍ ، وهو يعيش وقائع الفتنة ، والاختلافات التي أخبر النَّبِيِّ ﷺ بوقوعها^(٥) .

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(١٣٦ - ١٣٧) .

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٦٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص(٧٠) . واقتضاء الصراط (١/١٢٧) .

(٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٧٠) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

وقد جمع الدكتور عبد العزيز صغير دخان أحاديث الفتنة ، وقام بدراستها ، وبيان صحيحتها من ضعيفها في كتابه : أحاديث ، وأحاديث فتنة الهرج ، ثم استخرج من الأحاديث الصحيحة معاني دلت عليها تلك الأحاديث ، منها :

- ١ - أن الفتنة سنة الله - عز وجل - في الأمم ، وفي هذه الأمة إلى قيام الساعة ، وهي فتن قطع الليل المظلم ، عمياً ، صماء ، بكماء ، من سعي فيها ؛ هلك في الدنيا ، والآخرة ، ومن كف يده ؛ أفلح ، لا يكاد يبصر فيها أحداً موقفه إلا من أحياه الله بالعلم ؛ وزوده بالتقوى ، وهداه إلى ما اختلف فيه من الحق بإذنه^(١) .
- ٢ - وفي هذه الأحاديث : أن فتنة القتال بين المسلمين أمرٌ واقعٌ لا محالة ، ولا سبيل لإنكاره واستغراقه بدءاً بما وقع بين الصحابة ، والتابعين ، ومروراً بالعصور الإسلامية إلى اليوم ، ولكن الواجب هو معرفة أسباب هذا القتال لتلافيها ، أو السعي في إطفاء نار الفتنة حينما تشب في ديار المسلمين ، وألا ينبغي أن يقف المسلم منها موقف المتفرج .
- ٣ - ومن رحمة الله بهذه الأمة أن يكفر عنها ذنبها في الدنيا ، وليس القتل ، والفتنة التي تنزل ساحتها ، والرّلّازل التي تصيبها إلا كفاراً لهذه الذنوب .
- ٤ - وفي بعض هذه الأحاديث إشارة واضحة ، وصرح به إلى أن منبت معظم هذه الفتن من قبل المشرق ، وكذلك كان الواقع ، فإن الفتنة الأولى بدأ تحريكتها في الكوفة ، والبصرة ، وفتنة الجمل كانت هناك .
- ٥ - وفي الفتنة يبيع قومٌ دينهم بعرضٍ من الدنيا يسير ، وتتحكم فيهم الشهوات ، والشهوات ، ويصير أهل الإسلام الصحيح غرباء في سلوكهم ، وتصرفاً منهم ، ويصبح المتمسك بيديه أشبه ما يكون بالذي يقبض على الجمر ، أو على الشوك ، صابراً محتسباً ما يصيبه من الألم ، والأذى في سبيل دينه ، وما يعتقد : أنه حنى .
- ٦ - وفي الفتنة ، يحفظ الله طائفه من الناس ، فلا تلتبس بالفتنة ، ولا تتلطخ أيديهم من دماء المسلمين ، يسعون في إصلاح ذات البين ، والدعوة إلى مبادئ الإسلام الصحيحة من رحمة ، وأخوة ، وسيكون موقفهم غريباً بدون شك وسط الجموع الهائجة ، والأهواء المستحکمة^(٢) .
- ٧ - وفي الفتنة يلعب اللسان دوراً أحطر من السيف ، بل إن اللسان يكون غالباً منشأ الفتنة والبلايا ، فرب كلمة شرّ مسمومة انطلقت ، فأشعلت النار في القلوب ، وهيّجت ما كان مستكناً

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(٣٤٥) .

(٢) أحاديث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨) .

في التفوس ، وشحذت العواطف ، وكانت سبباً في فتن ضاربة^(١) .

٨ - وفي الفتنة ينقص العلم ، إماً بموت العلماء ، أو بسكتهم ، واعتزالهم إيثاراً للسلامة ، أو لانصراف الناس عنهم لسبب من الأسباب ، ويسود عندها الجهل ، ويَتَّخِذُ النَّاسُ رؤساء جهالاً ، فيفتوا بغير علم ، فُيَضْلُّوا وَيَضْلُّوا ، ويسود الرُّوبيضة ، وهو التافه من الناس ، ويستعلي السُّفهاء منهم^(٢) .

٩ - وفي هذه الأحاديث : أنَّ الله - عَزَّ وَجَلَّ - ضمَنَ لِرَسُولِهِ ﷺ ألا يهلك هذه الأمة بالسَّنين ، والمجاعات ، وألا يسلط عليها عدوًّا ، فيتمكن منها دائمًا ، مهما كانت قوَّةُ هذا العدو ، وإمكاناته ، وجبروته ، ولكن الأمر الذي لم يضمِنَه الله لِرَسُولِهِ ﷺ هو ألا تختلف هذه الأمة ، وسيكون هذا هو الباب الذي يدخل منه العدُوُّ الخارجي ؛ إذ إنَّ الأمة إذا اختلفت فيما بينها ، وقتل بعضها بعضاً ؛ ضعفت عوامل القوَّةِ فيها ، وتمكَّنَ منها عدوُّها ، فبعث بخيراتها ، ومقدراتها ، ولن يرفع عنها حتَّى تعود إلى تحقيق القوَّةِ في نفسها بالوحدة ، وجمع الكلمة ، والاحتكام إلى شرع الله^(٣) .

١٠ - وفي الأحاديث : أنَّ وقوع الفتنة ، واستمرارها مظنة ظهور فرق المنحرفين عن هدي الإسلام ، وتمكَّنَ أهل الباطل ، وظهورهم .

١١ - وفي الفتنة تغيير أخلاق الناس ، وتبدل ، ويزهد الناس في العمل الصالح ، ومشاريع الخير ، ويلقى بين الناس العداوة ، والبغضاء ، والحدق ، ويختلط الأمر على الناس .

١٢ - وفي الأحاديث : أنَّ هذه الفتنة يسبقها أمنٌ ، واستقرارٌ ، وصلاح أحوال الناس المادِّية ، والأمنية ، حتَّى يسير الرَّاكِبُ بينَ الْعَرَاقِ ، وَمَكَّةَ لَا يخافُ إلَّا ضلالَ الطَّرِيقِ ، ويظهرُ هذا في عهد عثمان رضي الله عنه ، فقد كان عهد أمنٍ واستقرارٍ ، وتدقُّق الأموال ، والخيرات ، ثمَّ حدثت فتنة الهرج ، فقوَّض ذلك كُلُّهُ ، حتَّى تبدل الحال من الأمان إلى الخوف .

١٣ - وفي الفتنة يقتل خيار الناس وذوو العقول ، والرأي فيهم ، ويبقى رجراً من الناس لا تعرف معرفة ، ولا تنكر منكراً^(٤) . هذه بعض المعاني من أحاديث الفتنة .

* * *

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(٣٤٨) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص(٣٤٩ ، ٤٥٠) .

المبحث الثاني

أسباب فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه

قال الإمام الزهرى : ولِي عُثْمَانَ اثْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً أَمِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ، أَوْلَ سَنَةٍ مِنْهَا لَمْ يَنْقُمْ النَّاسُ عَلَيْهِ شَيْئاً ، وَإِنَّهُ لَأَحَبُّ إِلَى قَرِيشٍ مِنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ؛ لَأَنَّ عُمَرَ كَانَ شَدِيداً عَلَيْهِمْ ، أَمَّا عُثْمَانَ ؟ فَقَدْ لَأَنَّ لَهُمْ ، وَوَصَلَهُمْ ، ثُمَّ حَدَثَتِ الْفَتْنَةُ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَقَدْ سَمَّى الْمُؤْرِخُونَ الْمُسْلِمُونَ الْأَحْدَاثَ فِي النَّصْفِ الثَّانِي مِنْ وِلَايَةِ عُثْمَانَ ٣٥-٣٠ هـ (الْفَتْنَةُ) الَّتِي أَدَّتْ إِلَى اسْتِشَاهَادِ عُثْمَانَ رضي الله عنه^(١) . كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي خَلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ، وَصَدِرَ أَنْخَافَ عُثْمَانَ ، مُتَقَيْنِينَ ، لَا تَنَازَعَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ حَدَثَتِ فِي أَوَاخِرِ خَلَافَةِ عُثْمَانَ أُمُورٌ ، أَوْجَبَتْ نَوْعاً مِنَ التَّفَرْقُ ، وَقَامَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْفَتْنَةِ ، وَالظُّلْمِ ، فَقَتَلُوا عُثْمَانَ ، فَتَفَرَّقَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدِ مَوْلَى عُثْمَانَ^(٢) .

وقد كان المجتمع الإسلامي في خلافة الصديق ، والفاروق ، والنصف الأول من خلافة عثمان يتتصف بالسمات الآتية :

١ - أَنَّهُ - في عمومه - مجتمع مسلم^b بكامل معنى الإسلام ، عميق الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، مطبق تعاليم الإسلام بجدية واضحة ، والتزام ظاهر ، وبأقل قدر من المعاصي وقع في أي مجتمع في التاريخ ، فالدين بالنسبة إليه هو الحياة ، وليس شيئاً هاماً شائياً يفيء الناس إليه بين الحين ، والحين ، إنما هو حياة الناس ، وروحهم ، ليس فقط فيما يؤدونه من شعائر تعبدية ، يحرضون على أدائها على وجهها الصحيح ، وإنما من أخلاقياتهم ، وتصوراتهم ، واهتماماتهم ، وقيمهم ، وروابطهم الاجتماعية ، وعلاقات الأسرة ، وعلاقات الجوار ، والبيع ، والشراء ، والضرب في مناكب الأرض ، والسعى وراء الأرزاق ، وأمانة التعامل ، وكفالة القادرين لغير القادرين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والرقة على أعمال الحكام والولاة ، ولا يعني هذا بطبيعة الحال : أن كل أفراد المجتمع هم على هذا الوصف ، فهذا لا يتحقق في الحياة الدنيا ، ولا في أي مجتمع من البشر ، وقد كان في مجتمع الرسول ﷺ

(١) طبقات ابن سعد (١/٣٩ - ٤٧) . والبداية والنهاية (٧/١٤٤ - ١٤٩) . والخلفاء الراشدون للخلادي ، ص (١١٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٢٠) .

- كما ورد في كتاب الله - منافقون يتظاهرون بالإسلام ، وهم في دخيلة أنفسهم من الأعداء ، وكان فيه ضعاف الإيمان ، والمعوّقون ، والمتناقلون ، والمبطئون ، والخائنون ، ولكن هؤلاء جميعاً لم يكن لهم وزنٌ في ذلك المجتمع ، ولا قدرةٌ على تحويل مجراه ؛ لأنَّ الشَّيْر الدَّافِق هو تيار أولئك المؤمنين الصادقي الإيمان المجاهدين في سبيل الله بأموالهم ، وأنفسهم ، الملتزمين بتعاليم هذا الدين^(١) .

٢ - أَنَّهُ المجتمع الذي تحقق فيه أعلى مستوى للمعنى الحقيقى (لأَمَّة) ؛ فليست الأَمَّة مجرد مجموعة من البشر جمعتهم وحدة اللُّغَة ، ووحدة الأرض ، ووحدة المصالح ، فتلك هي الرَّوابط التي تربط البشر في الجاهلية ، فإن تكوَّنت منهم أَمَّة ، فهي أَمَّة جاهلية ، أَمَّا الأَمَّة بمعناها الرَّبَّانِي ؛ فهي الأَمَّة التي تربط بينها رابطة العقيدة ، بصرف النَّظر عن اللُّغَة ، والجنس ، واللُّون ، ومصالح الأرض القرية ، وهذه لم تتحقق في التَّارِيخ كما تحققَت في الأَمَّة الإسلامية ، فالأَمَّة الإسلامية هي أَمَّة لا تقوم على عصبية الأرض ، ولا الجنس ، ولا اللُّون ، ولا المصالح الأرضية ، إنَّما هو رباط العقيدة ، يربط بين العربي ، والحبشى ، والروماني ، والفارسي ، يربط بين أهل البلاد المفتوحة والأَمَّة الفاتحة على أساس الأخوة الكاملة في الدين . ولئن كان معنى الأَمَّة قد حقَّقت هذه الأَمَّة أطول فترة عرفتها الأرض ، فقد كانت فترة صدر الإسلام أَزهى فترة تحقَّقت فيها معاني الإسلام كلُّها ، بما فيها معنى الأَمَّة ، على نحو غير مسبوق^(٢) .

٣ - أَنَّهُ مجتمعٌ أَخْلَاقِيٌّ ، يقوم على قاعدة أَخْلَاقِيَّة واضحة مستمدَّة من أوامر الدِّين ، وتوجيهاته ، وهي قاعدة لا تشمل علاقات الجنسين وحدها ، وإن كانت هذه من أبرز سمات هذا المجتمع ، فهو خالٍ من التَّبُرُّج ، ومن فوضى الاختلاط ، وخالٍ من كُلٍّ ما يخدش الحياء من فعلٍ ، أو قولٍ ، أو إشارة ، وحالٍ من الفاحشة إلا القليل الذي لا يخلو منه مجتمعٌ على الإطلاق ، ولكن القاعدة الأخلاقية أوسع بكثيرٍ من علاقات الجنسين ، فهي تشمل السياسة ، والاقتصاد ، والمجتمع ، والفكر ، والتعبير ، فالحكم قائم على أَخْلَاقِيَّات الإسلام ، وعلاقات النَّاس في المجتمع قائمةٌ على الصِّدق ، والأمانة ، والإخلاص ، والتعاون ، والحبٌّ ، لاغمز ولا لمز ، ولا نيمية ، ولا قذف للأعراض^(٣) .

٤ - أَنَّهُ مجتمعٌ جاذِّب ، مشغولٌ بمعالي الأمور لا بسفافتها ، وليس الجدُّ بالضرورة عبوساً ،

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ، ص(١٠٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(١٠١) .

(٣) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ، ص(١٠٢) .

وصرامةً ، ولكنَّه روحٌ تبعث الهمَّة في النَّاس ، وتحثُّ على النَّشاط ، والعمل ، والحركة ، كما أنَّ اهتماماته أعلى ، وأبعد من واقع الحسَّ القريب ، وليس فيه سمات المجتمع الفارغة المترهلة ، التي تسُكَّع في البيوت ، وفي الطُّرقات ، تبحث عن وسيلة لقتل الوقت من شدة الفراغ^(١) .

٥ - آنَّه مجتمعٌ مجتَدٌ للعمل ، في كُلِّ اتجاهٍ تلمُس فيه روح الجنديَّة واضحةً لا في القتال في سبيل الله ، فحسب ، وإذا كان القتال في سبيل الله قد شغل حِيزاً كبيراً من حياة هذا المجتمع ، ولكن في جميع الاتجاهات ، فالكلُّ متأهِّبٌ للعمل في اللَّحظة التي يطلب منه فيها العمل ، ومن ثُمَّ لم يكن في حاجةٍ إلى تعبئةٍ عسكريَّة ، ولا مدنية ، فهو معَاباً من تلقاء نفسه بدافع العقيدة ، وبتأثير شحنته الدَّافعة لبذل النَّشاط في كُلِّ اتجاه^(٢) .

٦ - آنَّه مجتمعٌ متبعَدٌ ، تلمُس فيه روح العبادة واضحةً في تصريحاته ليس فقط في أداء الفرائض ، والتطوع بالتوافق ابتعاده مرضاه الله ، ولكن في أداء الأعمال جمِيعاً ، فالعمل في حسنه عبادة ، يؤدِّيه بروح العبادة ، الحاكم يسوس رعيته بروح العبادة ، والمعلم الذي يعلِّم القرآن ، ويفقه النَّاس في الدين يعلم بروح العبادة ، والناجر الذي يراعي الله في بيته ، وشرائه يفعل ذلك بروح العبادة ، والزَّوج يرعى بيته بروح العبادة والزَّوجة ترعى بيتها بروح العبادة ، تحقيقاً لتوجيه رسول الله ﷺ : « كُلُّكُمْ راعٍ ، وكلُّكُمْ مسؤولٌ عن رعيته »^(٣) .

هذه من أهم سمات عصر الصَّدِيق ، وعهد الخلفاء الرَّاشدين - بصفةٍ عامَّة - إلا أنَّ تلك السُّمات كانت أقوى كلَّما اقتربنا من عهد النُّبُوَّة ، وتضعف كلَّما ابتعدنا عن عصر النُّبُوَّة ، وهذه السُّمات جعلته مجتمعاً مسلماً في أعلى آفاته ، وهي التي جعلت هذه الفترة المثالية في تاريخ الإسلام ، كما أنها هي التي ساعدت في نشر هذا الدين بالسرعة العجيبة التي انتشر بها ، فحركة الفتح ذاتها من أسرع حركات الفتح في التاريخ كله ، بحيث شملت في أقل من خمسين عاماً أرضاً تمتدُّ من المحيط غرباً إلى الهند شرقاً ، وهي ظاهرةٌ في ذاتها تستحقُ التسجيل ، والإبراز ، وكذلك دخول النَّاس في الإسلام في البلاد المفتوحة بلا قهرٍ ، ولا ضغطٍ ، وقد كانت تلك السُّمات التي اشتغل عليها المجتمع المسلم هي الرَّاصد الحقيقى لهذه الظَّاهرة ، فقد أحَبَّ النَّاس الإسلام لِمَا رأوه مطابقاً على هذه الصُّورة العجيبة الوضاءة ، فأحبُّوا أن يكونوا من بين معتنقيه^(٤) .

إن دراسة هذه الفترة من التاريخ ينبغي أن تترك انطباعاً لا يمحى في نفس الدَّارس ، انطباعاً

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ، ص(١٠٢) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص(١٠٣) .

بأنَّ الإسلام دينٌ واقعٌ قابلٌ للتطبيق في عالم الواقع بكلِّ مثالياته ، فهي ليست مثاليات معلقةٌ في الفضاء لمجرد التأمل ، أو التمثيل ، ولكنها مثاليات واقعيةٌ ، في متناول التطبيق إذا حاولها الناس بالجديَّة الواجبة ، وأعطوها حقَّها من الجهد ، ثمَّ انتظاراً بأنَّ ما حدث مرَّةً يمكن أن يحدث مرَّةً أخرى ؛ لأنَّ البشر هم البشر ، وقد استطاع البشر دائماً أن يحاولوا الصُّعود مرَّةً أخرى ؛ وسيصعدون حين يعزمون ، وسينالون على ذلك النَّصر ، والتمكين^(١) .

قال تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ بِئْرَهُمْ أَرْضَنِي لَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ فِي شَيْءٍ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » [التور : ٥٥] .

ومن الأمور التي تساعد المسلمين على العودة إلى الخلافة الرَّاشدة : معرفة العوامل ، والأسباب التي أدت إلى زوالها ؛ لكي نعمل على اجتنابها ، والأخذ بالأسباب التي جعلها الله سبباً في إكراه الأمة بها ، ولذلك نريد أن نفصل في أسباب فتنة مقتل عثمان ؛ لأهميتها ، وإليك أهمَّ هذه الأسباب :

أولاً : الرَّحَاء وأثره في المجتمع :

كان رسول الله ﷺ يرى ما يعانيه أصحابه من شظف العيش ، وفقر الحال ، فكان يصبرُهم ، ثمَّ يخبرهم : أنَّ هذا الحال الذي هم عليه لن يدوم طويلاً ، حتَّى تفتح عليهم خزائن الدنيا ، وخيراتها ، وحدُّرُهم من الاستغلال بذلك عن العمل الصالح ، والجهاد في سبيل الله ، وما يمكن أن يجرؤُهم على التقاتل على الدنيا ومتاعها الرَّازِئل^(٢) ، وقد فقه عمر بن الخطَّاب هذا التَّحذير فكان من سياساته حماية المسلمين من غوايائل فتنة المال ، وزخارف الدنيا ، فاجتهد في منع المسلمين من التوسيع في بلاد العجم ، ولو لا ظهور مصلحةٍ أخرى راجحةٍ في توسيعهم ؛ لبقي المنع قائماً ، إلا أنَّ هذا التَّراجع من عمر لم يشمل كبار الصحابة ، والمهاجرين ، والأنصار الذين كانوا بالمدينة ؛ إذ بقي المنع في حَقِّهم^(٣) .

ولا شكَّ : أنَّ الذي فعله عمر كان يدلُّ على إحساسه ، وخوفه من انتشار المسلمين في أرضٍ تزخر بألوان الحيرات والأرزاق ؛ فتسولي الدنيا على قلوبهم ، وتفسد عليهم آخرتهم^(٤) ، فلما جاء عهد عثمان ، وتوسَّع الفتوات شرقاً ، وغرباً ، وبدأت الأموال

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(٣٠٤ ، ١٠٣) .

(٢) أحداث ، وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٥٥٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص(٥٦٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

تتقاطر على بيت المال من الغنائم ، والأسلاب ، وامتلأت أيدي الناس بالخيرات ، والأرزاق^(١) ، وغنى عن الإشارة : أن النعم ، والخيرات ، وتلك الواردات من الفتوح سيكون لها أثراًها على المجتمع ؛ إذ تجلب الرخاء وما يتربّى عليه من انشغال الناس بالدنيا ، والافتتان بها ، كما أنها مادة للتنافس ، والبغضاء ، خاصةً بين أولئك الذين لم يচقل الإيمان نفوسهم ، ولم تهدّبهم التقوى من أعراب البدية ، وجفاتها ، ومن مسلمة الفتوحات ، وأبناء الأمم المترفة الدخلاء في الإسلام الذين جروا شوطاً بعيداً في زخارف الدنيا ، وبهجهتها ، واتخذوها غايةً يتنافسون فيها ، وقد أدرك عثمان هذه الظاهرة ، وأنذر بما سيؤول إليه أمر الأمة من التبدل والتغيير في كتابه الموجه إلى الرعية : فإنَّ أمر هذه الأمة صائر إلى الابداع بعد اجتماع ثلاثة فيكم : تكامل النعم ، وبلغ أولادكم من السبابايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن^(٢) .

أمّا تكامل النعم فيتحدّث الحسن البصري - وهو شاهد عيان - عن حالة المجتمع ، ووفرة الخيرات ، وإدرار الأموال ، وما آل إليه أمر الناس من البطر وعدم الشُّكْر ، فيقول : أدركت عثمان على ما نقوموا عليه ، فلما يأتي على الناس يوم لا هم يقتسمون فيه خيراً ، يقال لهم : يا عشر المسلمين ! اغدوا على أعطياتكم ، فإذاخذونها وافرّة ، ثم يقال لهم : اغدوا على السمن ، والعسل ، فالاعطيات جارية ، والأرزاق دائرة ، والعدة متّقى ، وذات البين حسن ، والخير كثير ... والأخرى كان السيف محمداً على أهل الإسلام ، فسلوه على أنفسهم ، فوالله ما زال مسلولاً إلى يوم الناس هذا ! وايم الله إني لأراه سيفاً مسلولاً إلى يوم القيمة^(٣) .

وأمّا بلوغ أولاد المسلمين من السبابايا ؛ فيتمثل فيما آل إليه أمر هؤلاء من الدّعة ، والترف ، وكان أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا ، وانتهى وسع الناس طيران الحمام والرمي على الجلاهقات^(٤) فاستعمل عليها عثمان رجالاً من بنى ليث سنة ثمان^(٥) ، فقصّها ، وكسر الجلاهقات^(٦) ، وحدث بين الناس الشّشو بتناولهم التبّيز ، فأرسل عثمان رضي الله عنه رجالاً يطوف عليهم بالعصا ؛ ليمنعوا من ذلك ، وعندما اشتَدَ ذلك ، شكاهم عثمان رضي الله عنه إلى الناس ، فأجمعوا على أن يجلدوه في التبّيز ، فأخذ نفرٌ منهم ، فجُلدوا ، ثم جعل عثمان لا

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) تاريخ الطّبرى (٥ / ٢٤٥) .

(٣) البداية والنهاية (٧ / ٢٢٤) .

(٤) قوس البندق الذي يرمى به .

(٥) أي : في السنة الثامنة من حلافته .

(٦) تاريخ الطّبرى (٥ / ٤١٥) .

يأخذ أحداً على شرّ ، أو شهر سلاماً إلا نفاه من المدينة ، فضجَّ آباءُهم من ذلك^(١) .

وقام عثمان في المدينة ، فقال : إنَّ النَّاسَ تبلغني عنهم هناتُ ، وهناتُ ، وإنِّي لا أكون أول من فتح بابها ، ولا أدار راحتها (أي : الفتنة) ، ألا وإنِّي زامْ نفسي بزمام ، وملجمها بلجام ، فأقودها بزمامها ، وأكبُّها^(٢) بلجامها ، ومنا ولكم طرف الحبل ، فمن أتبَّعني ، حملته على الأمر الذي يعرف ، ومن لم يتَّبعني ؛ فمن خلفِ منه ، وعزاء منه ، ألا وإنَّ لكلَّ نفسِ يوم القيمة سائقاً ، وشهيداً ، سائقٌ يسوقها على أمر الله ، وشاهدٌ يشهد عليها بعملها ، فمن كان يريد الله بشيءٍ ؟ فليبشر ، ومن كان يريد الدنيا ؛ فقد خسر^(٣) .

وهكذا لمَّا قام عثمان الرَّجل التَّقِيُّ ، وال الخليفة الرَّاشد بواجبه ، وكانت إجراءاته تعزيرية تجاه أبناء الأغنياء الذين بدؤوا أنواعاً من حياة التَّرف ، وفساد الأخلاق ؛ انضمَّ أولئك المنحرفون إلى صفَّ النَّاقمين من الرُّعاع .

وبالنسبة لقراءة الأعراب ، والأعاجم القرآن ، فيظهر في شكلٍ واضحٍ في تكوين طبقةٍ في المجتمع المسلم تتعلم القرآن لا رغبةً في التَّواب ، وإنَّما رغبةٌ في الجُعل الذي جعله الخليفة تشجيعاً ، وتَأليفاً^(٤) ، ويجب أن نلاحظ : أنَّ هذا التغيير بدأ أثره يظهر أولاً على أطراف الدولة الإسلامية ، ثمَّ أخذ يزحف إلى عاصمة الخلافة ، مما دفع عثمان رضي الله عنه إلى تذكير المسلمين في خطبٍ بضرورة الحذر من التَّهالك على الدنيا ، وحطامها ، فكان مما قاله في إحدى خطبه :

إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَعْطَاكُمُ الدُّنْيَا ؛ لَتَطْلُبُوا بَهَا الْآخِرَةَ ، وَلَمْ يَعْطُكُمُوهَا ؛ لَتَرْكُنُوا إِلَيْهَا ، إِنَّ الدُّنْيَا تَفْنِي ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ تَبْقِي ، وَلَا تَبْطِرُنَّكُمُ الْفَانِيَةَ ، وَلَا تَشْغُلُنَّكُمْ عَنِ الْبَاقِيَةِ ، وَاحذروا من اللَّهِ الْغَيْرِ ، وَالَّذِمُوا جَماعَتَكُمْ ، لَا تَصِيرُوا أَحْزَاباً^(٥) ، ثُمَّ قرأتُ : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرُّوا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَافِ حُفْرَقٍ مِّنَ الْأَثَارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَيْتَمِّنُ لَعَلَّكُمْ تَهَذَّدُونَ ﴿٦﴾ وَلَكُنْ مَنْكُمْ أَمْمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٧﴾] آل عمران : ١٠٣ - ١٠٤] .

وفي مثل هذه الظروف ، والخيرات وافرةٌ ، فاضت الدنيا على المسلمين ، وتنزع الناس

(١) المصدر السابق نفسه (٤١٦ / ٥).

(٢) أي : من الكبُّ ، وهو المنع .

(٣) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٣٦١ / ١).

(٤) الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الرشيدة ، ص (٣٩٢) .

(٥) أحداث ، وأحاديث فتنة الهرج ، ص (٥٦٧) .

بعد أن فتحوا الأقاليم ، واطمأنوا ، فأخذوا ينقمون على خليفتهم^(١) .

ومن هنا يُعلم أثر الرَّحْباء في تحريك الفتنة، ومن هنا أيضاً يمكن فهم مقالة عثمان رضي الله عنه لعبد الرَّحْمن بن ربيعة - له صحبة^(٢) - وهو على الباب^(٣) : إن الرَّعية قد أبطر كثيراً منهم البطنة ، فقصّر بهم ، ولا تقتصر بال المسلمين ، فإني خاشع أن يبتلوا^(٤) . وفي آخر خطبة لعثمان رضي الله عنه وهو يعظ المسلمين بعد أن فتحت الدُّنيا عليهم ، قال : ألا لا تبطرونكم الفانية ، ولا تشغلينكم عن الباقيه واحذروا أحداث الدَّهر المغير ، والزموا جماعتكم ، ولا تنفرّقوا شيئاً ، وأحزاباً^(٥) .

ثانياً : طبيعة التَّحُول الاجتماعي في عهد عثمان رضي الله عنه :

حدثت تغييرات اجتماعية عميقه^(٦) ، ظلت تعمل في صمتٍ ، وقوءة لا يلحظها كثيرون من الناس ، حتى ظهرت على ذلك الشَّكل العنيف المتفجر بدءاً من النصف الثاني من خلافة عثمان ، وبلغت قمة فورانها في التمُّود الذي أدى إلى استشهاد عثمان رضي الله عنه^(٧) .

لما توسيَّعت الدُّولة الإسلاميَّة عبر حركة الفتوح ، حصل تغيير في تركيبة المجتمع ، والاختلالات في نسيجه؛ لأنَّ هذه الدُّولة بتوسيعها المكانيّ ، والبشريّ ، ورثت ما على هذه الرُّقعة الواسعة من أجناسٍ ، وألوانٍ ، ولغاتٍ ، وثقافاتٍ ، وعاداتٍ ، ونظمٍ ، وأفكارٍ ، ومعتقداتٍ ، وفنونٍ أدبيَّة ، وعمرانيَّة ، ومظاهر ، وظهرت على سطح هذا النَّسج ألوانٍ مضطربةٍ ، وخروقاتٍ غير منتظمة ، ورُقُعٌ غير منسجمةٌ مما صيَّرت المجتمع غير متجانسٍ في نسيجه التَّركيبيِّ ، وبالذَّات في الأمصار الكبيرة المؤثرة : البصرة ، والكوفة ، والشَّام ، ومصر ، والمدينة ، ومكة ، فقد كانت الأمصار الكبيرة - بمواعدها وأهميتها - تدفع بجيوش الفتوح ، وتستقبلها وهي عائدةً ، وقد نقص عددها بالموت والقتل ، وتستقبل بدلاً عنهم أو أكثر منهم أعداداً وفيرةً من أبناء المناطق المفتوحة ، فرسٌ ، وتركٌ ، ورومٌ ، وقبطٌ ، وكردٌ ، وبربرٌ ، وكان أكثرهم من الفرس ، أو من التَّصاريَّ العرب ، أو غيرهم ، أو من اليهود^(٨) ، وأكثر سكان هذه الأمصار الكبيرة هم ممَّن شاركوا في حركة الفتح الإسلاميَّ ، ثمَّ استقرُّوا في

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٣٦٢).

(٢) المقصود بالباب : منطقة في جهات أذربيجان تسمى الدر البند. معجم البلدان (١/٣٠٣).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٣٦٢).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها ، ص (١٦٦).

(٦) دراساتٌ في عهد النُّبوة ، والخلافة الرَّاشدة ، ص (٣٧٩).

هذه الأمصار ، وكان أغلب هؤلاء من القبائل العربية من جنوبها ، وشمالها ، وشرقيها ، والذين لم يكونوا - عادةً - من الصحابة ، وبمعنىً أدقًّا : ليسوا ممَّن تلقوا التَّرْبِيةُ الْكَافِيَّةُ على يد رسول الله ﷺ أو على أيدي الجيل الأوَّلِ من الصحابة ، إمَّا لانشغالهم بالفتح ، أو لقلة الصحابة ، وقد حصلت تغييراتٌ في نسيج المجتمع البشري المكوَّن من جيل السَّابقين ، وسكَانَ البلاد المفتوحة ، والأعراب ، ومن سبق لهم رَدَّهُ ، واليهود ، والنصارى ، وفي تكوين نسيج المجتمع الشَّعافيٍّ ، وفي بسطة عيش المجتمع ، وفي ظهور لونٍ جديدٍ من الانحرافات ، وفي قبول الشَّائعات^(١) .

١- المتغيرات في نسيج المجتمع البشري :

أ - لقد تكونَ هذا النَّسيج من قطاعاتٍ عدَّةٍ ، قطاع الأسبقين ممَّن بقي من الصحابة ، ومن الذين نالوا قسطًا وفيراً من رعاية الصحابة ، ولكنَّ هذا القطاع وذاك ظلَّ يتناقص إمَّا عن طريق الموت والقتل في ميادين الفتوح ، وإمَّا عن طريق تفَرُّقِهم في الأمصار ، مما جعلهم أقلَّ القطاعات حضورًا ، وكانوا موَزَّعين في البلدان المفتوحة والأمصار الكبيرة المستحدثة كالبصرة ، والكوفة ، والشَّام ، ومصر ، وبعضهم في الجزيرة العربية يخرجون منها ، ثمَّ يعودون إليها مَرَّةً أخرى^(٢) .

ب - سكان المناطق المفتوحة ، كانوا يشكلون الأكثريَّة بالنسبة للقادمين إليهم مع حركة الفتوح ، فقد ظلَّ القادمون قلةً ، وإنْ كان لهم حضور فعلٍ في إدارة البلد أو التأثير السُّلُوكِيِّ ، والأخلاقيِّ ، والفكريِّ ، واللغويِّ ، إلا أنَّهم رغم ذلك يعتربون قلةً وظلَّ هذا القطاع - قطاع سَكَانَ المناطق المفتوحة - مقتصرًا في استقراره - غالباً - على مناطقهم ، ومع هذا فقد تنقل بعضهم في المناطق الأخرى من بلدان الدُّولَةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، بل استقرَّ بعضهم في الأمصار الكبيرة ، وفي عاصمة الدُّولَةِ أيضًا ، إما على شكل ما عرف بالسيَّ، أي : يستقرُّون تابعين لمواليهم ، وإمَّا على شكل تنقلٍ تجاريٍّ ، ومحاريٍّ وإداريٍّ ، حيث لا يوجد قانون يمنعهم من ذلك ، إنْ لم يكونوا يلقون التشجيع ، والدعم^(٣) ، وقد كان الأعاجم الذين جاؤوا من البلاد المفتوحة من أسرع الناس إلى الفتنة ؛ ذلك لأنَّ أغلب الأعاجم من الأمم المغيرة ، والشعوب المقهورة ، فتكثُر مساراتهم للفتن لأسبابٍ كثيرةٍ ، منها :

* جهلهم ، وحداثة عهد أكثرهم بالكفر ، والمُلُك ، والعَزَّ الذي كانوا عليه ، ثمَّ سُلبوه .

(١) المصدر السابق نفسه ، ص (٣٨٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه .

* قلة فقههم في الدين ، بسبب العجمة ، وغيرها .

* العصبية ، وكراهية العرب .

* أن طوائف منهم دخلت الإسلام ظاهراً ، وخوفاً من السيف ، أو الجزية ، وأضمرروا للإسلام وال المسلمين الشر ، والكيد ، في سارعون إلى كل فتنة .

* طمع أهل الأهواء فيهم للأسباب المذكورة ، وتحريضهم لهم^(١) .

ج - أولئك الأعراب عرّفوا بأنّهم من سكان الbadia ، وهم مثل بقية النّاس منهم المسلم التّقى ، ومنهم الكافر ، والمنافق ؛ إلا أنّهم كما قال الله عنهم : « الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَقَبَّاقًا وَأَجَدَرُ الْأَلَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » [التوبه : ٩٧] . وذلك لأنّهم أقسى قلوباً ، وأغلظ طبعاً ، وأجفني قولًا ، ولصفاتهم هذه فهم جديرون ، وأخلق بهم ألا يعلموا حدود ما أنزل الله من الشرائع ، والأحكام ، والجهاد^(٢) ، فهم من أسرع النّاس في الفتنة ، ولمسارعتهم فيها له أسباب ، منها :

* قلة فقههم في الدين .

* سرعة اغترار الواحد منهم بما يتعلّمه من القرآن ، فيظنّ : أنه صار عالماً بقليل من العلم .

* جفاوهم للعلماء ، وترك التّلقى عنهم ، والاقتداء بهم .

* تمكّن العصبية القبلية من نفوسهم .

* تغريب أهل المطامع بهم ، واستغلال سذاجتهم ، وجهلهم .

* حدّة طباعهم ، ونفورهم من المدينة ، والخطة ، وإساءة الظن بالآخرين ممّن لا يعرفونهم ، وهذا من طباع الأعراب في كل زمان ، ومكان .

* تشددّهم في الدين ، وتنطّعهم بلا علم ، لذلك صار غالب الخوارج من هذا الصّنف^(٣) .

وخرج من هؤلاء الأعراب رجال عرّفوا (بالقراء) وقد اختلف مفهوم (القراء) هذا عن منطوقه ، فالمنطوق يقصد به جماعة ممّن تخصّصوا بقراءة القرآن ، إلا أنّ المفهوم ومن خلال الواقع أنتج دلالات أخرى ، فمنهم من كان - على طريقة الخوارج - يفهمون القرآن بطريقتهم الخاصة ، ومنهم من كان زاهداً لا يفقه حقيقة ما يقرأ ، ولم يستطع التأقلم مع واقع

(١) دراسات في الأهواء والفرق والبدع ، ناصر العقل ، ص(١٦١).

(٢) دراسات في عهد النّبوة والخلافة الرّاشدة ، ص(٣٨٠). نقلًا عن الشّوكاني فتح القدير (٢/٣٩٥-٣٩٧).

(٣) دراسات في الأهواء والفرق والبدع ، ص(١٦١).

المجتمع^(١) ، وهو لاء القراء الجهلة يسارعون للفتن وذلك لأسباب منها :

* الشدة في نزعة التدين عندهم مع قلة الفقه في الدين ، مما يورث غيرة على الدين بغير علم ، ولا بصيرة ؛ فتجرفهم الأهواء ، والعواطف باسم الغيرة على الدين ، دون نظر في العواقب ، ولا فقيه لقواعد الشرع ، كدرء المفاسد ، وجلب المصالح .

* الاغترار بما يحصله الواحد منهم من الآيات ، والأحاديث دون فقه ، ولا بصيرة ، فيتوهم : أنه صار من أهل العلم ، الذين يحلون ، ويعقدون في صالح المسلمين .

* تعاليهم على العلماء والأئمة ، وظنهم : أنهم وصلوا درجة الاستغناء عنهم ، وعن فقههم وعلمهم ، تحت شعار : هم رجال ، ونحن رجال .

* اتخاذهم رؤساء جهازاً من بينهم دون العلماء والأئمة .

* ولأنَّ أهل الأهواء ، ورؤوس البدع ، والفتن - غالباً من الدهاء - يفزعون إلى القراء ، فيغرونهم ، ويستدرجونهم ، ويستغلون نزعة التدين فيهم ، ويستثرون غيرتهم بلا بصيرة .

* جهلهم بقواعد الاستدلال ، وأحكام الفتن^(٢) .

د - وفصيل ، أو قطاع آخر في نسيج المجتمع الإسلامي ، وهو ممَّن سبقت لهم ردة ، وكانت حياتهم في الإسلام قصيرة ، وانتماؤهم إليه ضرورة ، ولا نفي أنَّ منهم من زكا ، وصلح ، وكان من الفضلاء إلا أنَّ منهم من لم يتذوق حلاوة الإسلام ، فظلَّ - رغم اتسابه للإسلام - يعيش بعقليته السابقة ، ونفسيته التي عاشها قبل الإسلام الفعلية القبلية ، تناوشة العصبيات ، وكأنَّ الإسلام لم يدخل فيهم ، أو أنَّهم ظلُّوا عدم التناقض بين ما يعرفونه من إسلام ، وما يتعاملون به في الواقع من دوافع قبلية^(٣) .

لقد شكلت طوائف من المرتدين عنصراً ساهم في تهيئة أجواء الفتنة ، والمرتدون كانوا على عهد أبي بكر ، وعمر ، رضي الله عنهم ، ولكنَّ الشيء الجديد هو اختلاف سياسة عثمان رضي الله عنه عن الخليفتين قبله تجاههم ، فأبو بكر رضي الله عنه يكتب إلى عمَّاله : ألا يستعينوا بمرتد في جهاد العدو ، ويؤكِّد على خالد بن الوليد ، وعياض بن غنم ألا يغزو معهم أحدٌ قد ارتدى حتى يرى رأيه فيهم ، فلم تشهد أيامه^(٤) مرتدًا ، ويقول الشعبي : كان أبو بكر رضي الله عنه لا

(١) دراسات في عهد النبوة والخلافة الرشيدة ، ص(٣٨١) .

(٢) دراسات في الأهواء والفرق والبدع ، ص(١٦٣) .

(٣) دراسات في عهد النبوة ، والخلافة الرشيدة ، ص(٣٨١) .

(٤) عبد الله بن سباء ، وأثره في أحداث الفتنة ، ص(١٥٥) .

يستعين في حروبه بأحدٍ من أهل الرّدّة ؛ حتّى مات^(١) ، ولذلك كان بعض من ارتدَّ ، وحسن إسلامهم بعد ذلك ، يستحبون من مواجهة أبي بكرٍ رضي الله عنه ، فطليحة بن خوبلد - مثلًا - يذهب إلى مكّةً معتمراً ، وما استطاع مقابلة أبي بكر حتّى مات^(٢) ، وفي خلافة عمر رضي الله عنه تخفُّ هذه السياسة ، تجاه المرتدين ، فيندب أهل الرّدّ ليرمي بهم الشّام ، والعراق^(٣) .

وقد كان في مسيرة جيش سعد بن أبي وقاص في القادسية قيس بن مكشوح المرادي ، وعمرو بن معد يكرب ، كان يحمس الناس ، ويحرّك مشاعرهم ، وهذا كله كان بعد أن أذن عمر لأهل الرّدّ في الغزو^(٤) ، ولكنَّ هذا التّجاوز عن سياسة أبي بكر عند عمر يصبحه نوعٌ من الحذر ، والحيطة ، ولا ينفكُ عن الضّوابط ، والشروط المقيدة ، فأهل الرّدّ لا يولون على مئةٍ ، ولهذا اضطرَّ سعد أن يبعث قيس ابن المكشوح في سبعين رجلاً فقط ، في أثر الأعاجم ثاروا بهم في ليلة الهرير^(٥) . ويأتي عثمان رضي الله عنه فيتجاوز سياسة التقيد التي فرضها الخليفتان قبله تجاه المرتدين ، ويرتئي: أنَّ عامل الرّمن - الذي مضى على عهد الرّدّ - كافٍ لأن يتخلص من كان قد ارتدَّ من روابتها ، ويجهد عثمان ، فيستعمل أهل الرّدّ استصلاحاً لهم ، فلم يصلحهم ذلك ، بل زادهم فساداً ، وجعل قائلهم يتمثّل قول القائل :

وَكُنْتُ وَعِمْرَا كَالْمُسَمِّنِ كَلْبَهُ فَخَدِشْهُ أَيْابُهُ وَأَطَافِرُهُ^(٦)

وكان من نتائج استعمال عثمان لأهل الرّدّ في الكوفة أن تبدل أهلها ، وأصيب قائهم عبد الرحمن بن ربيعة في غزوة للثُّرك ، وهو الذي كان يقاتلهم في عهد عمر فيفرقوه منه ، ويقولون : ما اجترأ علينا هذا الرّجل إلا ومعه ملائكةٌ تمنعه من الموت^(٧) ، وتظهر الآثار بشكل واضح في الفتنة التي انتهت بقتل عثمان ، وذلك حينما نجد في أسماء المتّهمين في دم عثمان رجالاً يتسبّبون إلى قبائل كانت في عداد المرتدين أمثل : سودان بن حمران السُّكُونيّ ، وقترة ابن فلان السُّكُونيّ ، وحكيم بن جبلة العبدّي^(٨) .

(١) البداية والنهاية (٦/٣٤٧).

(٢) التاريخ الإسلامي (٩/٥٩).

(٣) عبد الله بن سبأ ، وأثره في أحداث الفتنة ، ص (١٥٦).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) تاريخ الطّبرى (٤/٣٨٢).

(٦) عبد الله بن سبأ ، وأثره في أحداث الفتنة ، ص (١٥٧).

(٧) تاريخ الطّبرى (٥/١٤٦).

(٨) عبد الله بن سبأ ، وأثره في أحداث الفتنة ، ص (١٥٧).

هـ - اليهود ، والنصارى ، وكان بعضهم - وهم كثيرون - قد خرج ، أو أخرج من جزيرة العرب ، فاستقرُوا في الأمصار الكبيرة ، ومنها : الكوفة ، والبصرة ، وكان اليهود خاصةً - حسب طبعهم - ظلُوا في تلك الأمصار المطلة على ميادين الفتوح يمارسون مهنتهم المشهورة المزدوجة ، السيطرة المالية بوسائلهم المختلفة ، والتآمر على قطع اليد التي تمد لهم المساعدة^(١) . وسيأتي الحديث عن دور اليهود بإذن الله تعالى .

٢- تكوينات نسيج المجتمع الثقافي :

إلى جوار هذا الخليط البشري كان هناك خليط آخر لا يقلُّ خطراً - إن لم يفُقِّ الخليط البشري - ألا وهو الخليط الثقافي ، حيث تدققت الثقافات ، والأفكار ، والنظم ، والعقائد مع تلك الأعداد البشرية التي انضممت إلى محتويات المجتمع الإسلامي ، فصارت تشكل حملأً ضخماً على عاتقه ، وممَّا زاد الطين بلة : أنه بالرغم من اندماج المسلمين في نسيج البلدان المفتوحة ، حيث عاشوا في أوساطهم ، وتزوجوا منهم ، وتعلموا عاداتهم ، ولبسوا ملابسهم ، ومارسوا عاداتهم ، إلا : أنه بالرغم من ذلك ؛ فقد كان تأثيرهم في أهل البلد المفتوح محدوداً في هذه الفترة المبكرة^(٢) ، فلم ينل أهالي هذه البلاد المفتوحة حظاً وافراً من التربية ، ولم تتشَّع بروح الإسلام كما هو حال الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وكذلك القبائل العربية التي اختلطت بأهالي البلاد المفتوحة ، وإذا كان الإسلام قد تمكن من صهر هذه القبائل المختلفة في بوتقة لفترة معينة ، إلا أنه مما يجب أن يوضع في الحسبان : أنَّ عملية التعليم ، والتربية التي كانت تقودها القاعدة الصُّلبة من المهاجرين ، والأنصار لم تكن قادرة على استيعاب هذه الأفواج الكبيرة ، واحتواها ، فالموالي لم يتخلصوا من كلِّ الأفكار ، والعادات التي كانوا عليها في جاهليتهم ، ويرجع ذلك إلى عدم التَّوازن بين حركة التوسيع الأفقي في فتح البلدان ، وبين التوسيع الرَّأسي في تعليم الناس ، وتفقيههم من كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، على أنَّ حركة الجهاد لا بدَّ أن يصحبها ويتبعها الدُّعاة ، والمعلمون ليفقهوا الناس في دينهم ، حتى لا يختلط ميزان التربية ، وتحدث الخلخلة في الصُّف الإسلامي ، وتوسيع الفجوة بين الفاتحين ، وسكان الأرض المفتوحة ، مما يتسبب في حدوث ظواهر سلبية تؤثُّر في تماسك الصُّف الإسلامي ، ووحدته السياسية ، والفكرية^(٣) ، ولم يمكن تفادى هذا الجانب السلبي رغم وجود البذر ، والحماس في ميدان التعليم ، والتربية الإسلامية ، حيث كان التوسيع في الأرض سريعاً ، وواسعاً ، فقد فتحت العراق وما وراءها ، وببلاد الشَّام في سنوات قليلة معدودة ، فلم يكن في

(١) دراسات في عهد الثُّبوة ، والخلافة الرَّاشدة ، ص(٣٨١) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٣٥٨/١) .

قدرة الطاقة البشرية في ميدان التربية ، والتعليم استيعاب الأعداد الهائلة من سكان تلك المناطق ، وتعليمها^(١) .

ومن أسباب ذلك : أن الصحابة الذين كان من المفروض أن يقوموا بهذه الأمانة قد قتل معظمهم في ميادين الجهاد ، ولم يبق إلا أفراد قليلون متفرقون تجمع حولهم المسلمين الذين يحبون أن يتذمروا ، فظهرت طبقة الثابعين ، ولأن معظمهم مخلصون ؛ فقد كانوا في مقدمة ميادين الجهاد ، فقتل أيضاً منهم من قتل^(٢) ، كما لم يكن الرَّزَم كافياً لترسيخ التعاليم الإسلامية في نفوس كثيرٍ منهم ، مما ساعد ، مع غيره من العوامل - على وجود خلخلة فكرية ، وظواهر سلبية دخلية على الهُجُّ الإسلامي ، مما كان له الأثر في عدم استقرار الدولة ، وظهر ذلك جلياً في السنوات الأخيرة من عهد عثمان رضي الله عنه^(٣) .

٣- ظهور جيلٍ جديدٍ :

فقد حدث في المجتمع تغيير أكبر ، ذلك : أن جيلاً جديداً من الناس ظهر ، وأخذ يحتل مكانة في المجتمع ، وهو غير جيل الصحابة ، جيلٌ يعيش في عصر غير العصر الذي كانوا يعيشون فيه ، ويتصف بما لا يتتصفون به ، فهو جيل^(٤) يعتبر في مجموعه أقلَّ من الجيل الأول الذي حمل على كفيه عباء بناء الدولة ، وإقامتها ، فقد تميز الجيل الأول من المسلمين بقوَّة الإيمان ، والفهم السليم لجوهر العقيدة الإسلامية ، والاستعداد التام لإخضاع النفس لنظام الإسلام المتمثل في القرآن ، والسنَّة ، وكانت هذه الميزات أقلَّ ظهوراً في الجيل الجديد الذي وجد نتيجةً للفتوحات الواسعة ، وظهرت فيه المطامع الفردية ، وبُعثت فيه العصبية للأجناس ، والأقوام ، وبعضهم يحملون رواسب كثيرةً من رواسب الجاهلية التي كانوا عليها. ولم ينالوا من التربية الإسلامية على العقيدة الصحيحة السليمة مثل ما نال الرَّاعيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم على يد رسول الله ﷺ ، وذلك لكثريتهم ، وانشغال الفاتحين بالحروب ، والفتوات الجديدة^(٥) ، فالصحابة كانوا أقلَّ فتناً من سائر مَنْ بعدهم ، فإنه كلما تأخر العصر عن البوءة كثر التفرق ، والخلاف^(٦) .

كان الجيل الجديد لا يرضي بالواقع الذي كان يتسم به جيل الذين سبقوه ، فقد اعتاد على غير ما اعتادوا عليه ، فتكوَّنت عقليةٌ جديدةٌ ، ومفهومٌ جديدٌ للحياة ، وهو مفهومٌ قد ابتعد عن

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) اليمن في صدر الإسلام للشجاع ، ص(٣٤) .

(٣) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٣٥٩/١) .

(٤) الدولة الأموية ، يوسف العش ، ص(١٣٢) .

(٥) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٣٥٦/١) .

(٦) ذو التورين عثمان بن عفان ، مال الله ، ص(٩٩) .

العقلية التي كانت سائدة في عصر الرّاشدين الأوّلين ، فأصبح لا يفهم تلك العقلية ، ولا يستطيع تشربها ، ولا يسعه أن يذعن لحكمها^(١) ، ولذلك انضمَ المنحرفون من الجيل الجديد لدعامة الفتنة .

٤- استعداد المجتمع لقبول الشائعات :

وهكذا ندرك من خلال هذا الخليط غير المتجانس في نسيج المجتمع : أنه صار مهيئاً للهزّات ، مستعداً للاضطراب ، قابلاً لتلقي الإذاعات ، والأقاويل والشائعات^(٢) ، وهذا ما يعبر عنه بوضوح ابن تيمية قائلاً : ولهذا كان الناس في زمن أبي بكرٍ ، وعمر - اللذين أمر المسلمين بالاقتداء بهما ، كما قال رسول الله ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكرٍ ، وعمر » - أقرب عهداً بالرسالة ، وأعظم إيماناً ، وصلاحاً ، وأتمّتهم أقوم بالواجب ، وأثبتت في الطمأنينة لم تقع فتنة ، إذ كانوا في حكم القسط (أي : الفووس المطمئنة) .

ولما كان في آخر خلافة عثمان ، وخلافة عليٌّ ؟ كثُرَّ القسم الثالث (أهل النفس اللوامة التي تخلط عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً) فصار فيهم شهوةٌ ، وشبهةٌ مع الإيمان ، والدين ، وصار ذلك في بعض الولاة ، وبعض الرؤساء ، ثمَّ كثُرَّ هذا القسم ؛ (الذِّي خلط عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً) بعد ، فنشأت الفتنة التي سببها ما تقدَّم من عدم تمحيص التقوى ، والطاعة في الطرفين ، واختلاطهما بنوع من الهوى ، والمعصية في الطرفين ، وكلٌّ منهم متاؤلٌ ، وأنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وأنه مع الحق ، والعدل ، ومع هذا التأويل نوع من الهوى ، ففيه نوع من الظنّ ، وما تهوى الأنفس ، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى^(٣) ، ويوضح هذا الواقع بدقة أكثر ذلك الحوار الذي دار بين أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب ، وأحد أتباعه ، قال الرجل : ما بال المسلمين اختلفوا عليك ، ولم يختلفوا على أبي بكرٍ ، وعمر ؟ قال عليٌّ : لأنَّ أبي بكرٍ ، وعمر كانا واليين على مثلي ، وأنا اليوم والي على مثلك^(٤) . وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان مدركاً لما يدور في وسط المجتمع حيث قال في رسالته إلى الأمراء : أمّا بعد ، فإنَّ الرَّعية قد طعنت في الانتشار ، ونزعـت إلى الشّرـه ، وأعدـاها على ذلك ثلاث : دنيا مؤثـرة ، وأهـواء مسرـعة ، وضـغائن مـحملـة ، يوشـك أن تـنـفرـ ، فـتـغـيرـ^(٥) .

(١) الدولة الأموية ، يوسف العشن ، ص(١٣٣) .

(٢) دراسات في عهد الْبُشْرَة ، والخلافة الرّاشدة ، ص(٣٨٢) .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٨/١٤٩) .

(٤) مقدمة ابن خلدون ، ص(١٨٩) .

(٥) التمهيد والبيان ، ص(٦٤) .

ثالثاً : مجيء عثمان بعد عمر ، رضي الله عنهم :

كان مجيء عثمان رضي الله عنه مباشرةً بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه واختلاف الطبع بينهما مؤدياً إلى تغيير أسلوبهما في معاملة الرعية ، في بينما كان عمر قوي الشكيمة ، شديد المحاسبة لنفسه ، ولمن تحت يديه ، كان عثمان ألين طبعاً ، وأرق في المعاملة ، ولم يكن يأخذ نفسه ، أو يأخذ الناس بما يأخذهم به عمر حتى يقول عثمان لنفسه : يرحم الله عمر ! ومن يطيق ما كان عمر يطيق^(١) ؟ لكن الناس ، وإن رغوا في الشوط الأول من خلافته ؛ لأنَّه لان معهم ، وكان عمر رضي الله عنه شديداً عليهم حتى أصبحت محبتَّه مضرب المثل .

فقد أنكروا عليه بعد ذلك ، ويرجع هذا إلى نشأة عثمان في لطفه ، ولين عريكته ، ورقة طبعه ، ودماثة خلقه ، مما كان له بعض الأثر في مظاهر الفرق عند الأحداث بين عهده ، وعهد سلفه عمر بن الخطاب ، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوام سجنهم : أتدرون ما جرَّأكم علىَّ ؟ ما جرَّأكم علىَّ إلا حلمي^(٢) .

وحيث بدت نوايا الخارجين وقد ألمتهم عثمان الحجَّة في رده على المآخذ التي أخذوها عليه أئمَّاً من الصَّحابة والنَّاس ، أبي المسلمين إلا قتلهم ، وأبي عثمان إلا تركهم ؛ لحلمه ، ووداعته قائلاً : بل نعم ، ونقبل ، ولننصرهم بجهدهما ، ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً ، أو بيدي كفراً^(٣) .

رابعاً : خروج كبار الصَّحابة من المدينة :

كان عمر رضي الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن ، وأجل ، فشكوه ، فبلغه ، فقام ، فقال : ألا إني قد سنت الإسلام سَنَّ البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ثم ثبناً ، ثم رباعياً ، ثم سدسياً ، ثم بازاً^(٤) . ألا فهل يتضرر بالبازل إلا النقصان ، ألا فإنَّ الإسلام قد بَرَزَ ، ألا وإنَّ قريشاً ي يريدون أن يتَّخذوا مال الله معوناتٍ دون عباده ، ألا فاماً وابن الخطاب حيًّا فلا ، إني قائمٌ دون شعب الحرَّة ، آخذ بِحُلَاقِيم^(٥) قريش ، وحُجَّرُها أَنْ يتهاقتو في التار^(٦) .

لقد كان عمر يخاف على هؤلاء الصَّحابة من انتشارهم في البلاد المفتوحة ، وتوسيعهم في

(١) تاريخ الطبرى (٤١٨/٥) .

(٢) تاريخ الطبرى (٤٢٠/٥) .

(٣) تحقيق موافق الصَّحابة في الفتنة (٣٦٤/١) .

(٤) البازل : الذي اشترى نابه بدخوله في التاسعة .

(٥) الحلاقيم : جمع حلقوم .

(٦) تاريخ الطبرى (٤١٣/٥) .

القطاع والضياع ، فكان يأتيه الرّجل من المهاجرين ، وهو ممّن حبس في المدينة ، فيستأذنه في الخروج ، فيجيبه عمر : لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك ، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ، ولا تراك^(١) .

وأمّا عثمان فقد سمح لهم بالخروج ، ولأنّ معهم ، يقول الشّعبي : فلما ولي عثمان ، خلّى عنهم ، فاضطربوا في البلاد ، وانقطع إليهم النّاس ، فكان أحب إليهم من عمر^(٢) ، فكان من نتائج هذا التّوسيع أن تأخذ رجال من قريش أموالاً في الأ MCSars ، وانقطع إليهم النّاس^(٣) .

وفي رواية : فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذّي كان يأخذهم عمر ، فانساحوا في البلاد ، فلما رأوها ، ورأوا الدنيا ، ورآهم النّاس انقطع إليهم من لم يكن له طول ، ولا مزيلة في الإسلام ، فكان مغموماً (غموراً) في الناس ، وصاروا أوزاعاً إليهم ، وأمّلوا هم ، وتقدّموا في ذلك ، فقالوا : يملكون قد عرفناهم ، وتقدّمنا في التّقريب ، والانقطاع إليهم ، فكان ذلك أوّل وهن دخل في الإسلام ، وأوّل فتنة كانت في العامة ليس إلا ذلك^(٤) .

خامساً : العصبية الجاهليّة :

يقول ابن خلدون : لما استكمل الفتح ، واستكمل للملّة الملك ، ونزل العرب بالأ MCSars في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة ، والكوفة ، والشّام ، ومصر ، وكان المختصون بصحة الرّسول ﷺ والاقتداء بهديه ، وآدابه : المهاجرين ، والأنصار ، وقريش ، وأهل الحجاز ، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم ، وأمّا سائر العرب منبني بكر بن وائل ، وعبد القيس ، وسائر ربيعة ، والأزد ، وكندة ، وتميم ، وقضاء ، وغيرهم فلم يكونوا في تلك الصحابة بمكانٍ إلا قليل منهم . وكانت لهم في الفتوحات قدم ، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاً عنهم من تفضيل أهل السّابقة ، ومعرفة حقّهم ، وما كانوا فيه من الدهول ، والدهش لأمر الثّبوة ، وتردد الوحي ، وتزلّ الملائكة ، فلما انحصر ذلك العباب ، وتنوسي الحال بعض الشّيء ، وذل العدو ، واستفحّل الملك ؛ كانت عروق الجاهليّة تنبض ، ووجدوا الرّياضة عليهم من المهاجرين ، والأنصار ، وقريش ، وسوادهم ، فأنفت نفوسهم منه ، ووافق ذلك أيام عثمان ، فكانوا يُظهرون الطعن في ولاته بالأ MCSars ، والمؤاخذة لهم باللحظات ، والخطوات ، والاستباء عليهم بالطّاعات ، والتجّني بسؤال الاستبداد منهم ، والعزل ، ويفيضون في النّكير على عثمان ، وفشت المقالة في ذلك في أتباعهم ، وتناولوا بالظلم في

(١) تاريخ الطّبرى (٤١٤/٥) .

(٢) المصدر السّابق نفسه .

(٣) المصدر السّابق نفسه .

(٤) المصدر السّابق نفسه .

جهاتهم ، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة ، فارتباوا ، وأفاضوا في عزل عثمان ، وحمله على عزل أمرائه ، وبعث إلى الأنصار من يأتيه بالخبر . . . فرجعوا إليه فقالوا : ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكره أعيان المسلمين ، ولا عوامهم^(١) .

سادساً : توقيف الفتوحات :

حين توقيفت الفتوح في أواخر عهد عثمان أمام حواجز طبيعية ، أو بشرية لم تتجاوزها ، سواءً في جهات فارس ، وشمال بلاد الشام ، أو في جهة إفريقية ، توقيفت الغنائم على أثراها ، فتساءل الأعراب ، أين ذهبتم الغنائم القديمة ؟ أين ذهبت الأراضي المفتوحة التي يدعونها حقاً من حقوقهم^(٢) ، وانتشرت الشائعات الباطلة التي اتهمت عثمان رضي الله عنه بأنه تصرف في الأراضي الموقوفة على المسلمين وفق هواه ، وأنه أقطع منها لمن شاء من الناس ، وقد كان لها أثرٌ ، ووقع على الأعراب ، خاصةً وأنَّ معظمهم بقي بدون عملٍ يقضون شطراً من وقتهم في الطعام ، والنوم ، والشطر الآخر بالخصوص في سياسة الدولة ، والحديث عن تصريحات عثمان التي كانت تهولها السُّبْتَيَّة ، وقد أدرك أحد عمال عثمان هذا الأمر ، وهو عبد الله بن عامر ، فأشار على الخليفة حيث طلب من عماله - وهم وزراؤه ، ونصحاوئه - أن يجتهدوا في آرائهم ، ويشيروا عليه ، فأشار عليه أن يأمر الناس بالجهاد ، ويجمهرهم في المغازي حتى لا يتعدى هم أحدهم قمل فروة رأسه ، ودببة دابته^(٣) .

وفي ذلك الجو من الحديث ، والتفكير عند أفراد تعودوا الغزو ، ولم يفهوا من الدين شيئاً كثيراً يمكن أن يتحقق كلُّ سوءٍ ، ويكتفي أن يحرِّك هؤلاء الأعراب ، وأن يوجّهوا توجيهها ، فإذا هم يثورون ، ويحدثون القلاقل والفتن ، وهذا ما حدث بالفعل ، فإنَّ الأعراب - بسبب توقيف الفتوحات - ساهموا في بوادر الفتنة الأولى ، وكانوا سبباً من أسباب اندلاعها^(٤) .

سابعاً : المفهوم الخاطئ للورع :

الورع في الشَّريعة طَيِّبٌ ؛ وهو أن يترك ما لا يأس به ، مخافة مما فيه يأس ، وهو في الأصل ترُّفٌ عن المباحثات في الله ، والله ، والورع شيءٌ شخصيٌّ يصحُّ للإنسان أن يطالب به نفسه ، ولكن لا يصحُّ أن يطالب به الآخرين ، ومن أخطر أنواع الورع : الورع الجاهل الذي يجعل

(١) تاريخ ابن خلدون (٤٧٧ / ٢).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١ / ٣٤٤).

(٣) تاريخ الطَّبرِي (٣٤٠ / ٢).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ، ص (٣٥٣).

المباح حراماً ، أو مفروضاً ، وهذا الذي وقع فيه أصحاب الفتنة^(١) ، فقد استغلَّ أعداء الإسلام يومها مشاعرهم هذه ، ونفحوا فيها ، فرأوا فيما فعله عثمان من المباحثات ، أو المصالح خروجاً على الإسلام ، وتغييرًا لسنة من سبقه ، وعظمت هذه المسائل في أعين الجهلة ، فاستباحوا - أو أعنوا من استباح - دم الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، وفتحوا على المسلمين باب الفتنة إلى اليوم ، وهذا الورع الجاهل نلاحظه اليوم في تصرفات بعض المسلمين الذين يصرُّون على تكيف أحكام الإسلام وفق ما يشتهون ، أو يكرهون ، أو وفق عاداتهم ، وتقاليدهم^(٢) .

ثامناً : طموح الطَّامحين :

وُجِدَ في الحيل الثاني من أبناء الصَّحابة رضي الله عنهم من يعتبر نفسه جديراً بالحكم ، والإدارة ، وُوُجِدَ أمثال هؤلاء أنَّ الطريق أمامهم مغلقٌ ، وفي العادة أنَّه متى وُجِدَ الطَّامحون الذين لا يجدون لطموحهم متنفساً ، فإنَّهم يدخلون في كلَّ عملية تغيير ، ومعالجة أمر هؤلاء في غاية الأهمية^(٣) .

تاسعاً : تامر الحاقدين :

لقد دخل في الإسلام منافقون موتورون اجتمع لهم من الحقد ، والذَّهاء ، والذَّكاء ، ما استطاعوا به أن يدركون نقاط الضعف التي يستطيعون من خلالها أن يوجدو الفتنة ، ووُجِدوا من يستمع إليهم بأذان صاغية ، فكان من آثار ذلك ما كان^(٤) ، فقد عرفنا سابقاً وجود يهود ، ونصارى ، وفرس ، وهؤلاء جميعاً معروف باعث غيظهم ، وحقدتهم على الإسلام ، والدُّولَة الإسلامية .

ولكتنا هنا نصيف من وقع عليه حدُّ ، أو تعزيرٌ لأميرٍ ارتكبه في وسط الدُّولَة ، وعاقبه الخليفة ، أو ولاته في بعض الأمصار وبالذَّات البصرة ، والكوفة ، ومصر ، والمدينة ، فاستغلَّ أولئك الحاقدون من يهود ، ونصارى ، وفرس ، وأصحاب الجرائم مجموعاتٍ من الناس كان معظمهم من الأعراب ، ممَّن لا يفهون هذا الدين على حقيقته ، فتكوَّنت لهؤلاء جمِيعاً طائفةً ، وصفت من جميع من قابلهم بأنَّهم أصحاب شرٌّ ، فقد وُصفُوا : بالغوغاء من أهل الأمصار ، وزرَّاع القبائل ، وأهل المياه ، وعييد المدينة^(٥) ، وبأنَّهم ذؤبان العرب^(٦) ، وأنَّهم حثالة النَّاس

(١) الأساس في السنة (٤/١٦٧٦) .

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٥١٧) .

(٣) الأساس في السنة (٤/١٦٧٦) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) دراساتٌ في عهد النُّبُوَّة والخلافة الرَّاشدة ، ص(٣٩٢) .

(٦) المصدر السابق نفسه .

ومتفقون على الشَّرِّ^(١) ، وسفهاءً عديمو الفقه^(٢) ، وأراذل من أوباش القبائل^(٣) ، فهم أهل جفأة ، وهمج ، ورعاع من غوغاء القبائل ، وسفلة الأطراف الأراذل^(٤) ، وأنهم آلة الشَّيْطَان^(٥) ، وقد تردد في المصادر اسم عبد الله بن سبا الصناعي اليهوديٌّ ضمن هؤلاء المورثين الحاذقين ، وأنه كان من اليهود ، ثمَّ أسلم ، ولم يُنْقَب أحدٌ عن نوایاه ، فتنقل بين البلدان الإسلامية باعتباره أحد أفراد المسلمين^(٦) ، وسيأتي الحديث عنه في بحثٍ مستقلٍّ بإذن الله .

عاشرًا : التَّدَبِّيرُ الْمُحْكَمُ لِإِثَارَةِ الْمَاخْذُضَدِ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

كان المجتمع مهيئاً لقبول الأقوال ، والشائعات نتيجة عوامل وأسباب متداخلة ، وكانت الأرض مهيأة ، ونسيج المجتمع قابلاً لتلقي الخروقات ، وأصحاب الفتنة أجمعوا على الطعن في الأمراء بحجج الأمـر بالمعروف ، والنـهي عن المنـكر ، حتى استمالوا النـاس إلى صفوـفهم ، ووصل الطـعن إلى عثمان بن عفـان رضـي الله عنـه نفسه باعتباره قـائد الدـولة ، وإذا ما حـصـرـنا الدـعـاوـى الـتـي روـجـت ضدـ الـخـلـيفـة ، وطـعنـوهـ بها ، فيـمـكـنـناـ تـصـنـيفـهاـ إـلـىـ مـجـمـوعـاتـ خـمـسـ :

١- مواقف شخصية له قبل توليه الخلافة (تغيـيـرهـ عنـ بعضـ الغـزوـاتـ ، وـالمـوـاقـعـ) .

٢- سياسته المالية : الأعطيات ، الحـمـى .

٣- سياسته الإدارية التـافـدة : تـولـيـةـ أـقـرـبـائـهـ ، طـريقـتهـ فيـ التـولـيـةـ .

٤- اجتهادات خاصة به ، أو بمصلحة الأمة (إتمام الصـلاـةـ بـمـنـيـ ، جـمـعـ الـقـرـآنـ ، الرـيـادةـ فيـ المسـجـدـ) .

٥- معاملته لبعض الصحابة : عمـارـ ، أبي ذـرـ ، ابن مـسـعـودـ^(٧) .

وقد بيـنـتـ موقفـ عـثـمـانـ فيـ كـلـ ماـ وـجـهـ إـلـيـهـ فيـ مـوـضـعـهـ ، وـلـمـ يـبـقـ إـلـاـ عـمـارـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ وسيـأـتـيـ الحـدـيـثـ عـنـهـ بـإـذـنـ اللـهـ . وـقـدـ حدـثـ تـزـيدـ فيـ إـبـرـازـ المـطـاعـنـ عـلـىـ عـثـمـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ سـوـاءـ فـيـ عـهـدـهـ ، وـمـاـ وـاجـهـهـ بـهـ ، وـرـدـهـ عـلـيـهـ فـيـ حـيـنـهـ ، أوـ مـاـ تـقـوـلـ عـلـيـهـ فـيـمـاـ بـعـدـ عـنـدـ الرـوـاـةـ ،

(١) الطبقات (٧١/٣) هذا وصف ابن سعد .

(٢) دراسات في عهد النبوة والخلافة الرأشدة ، ص(٣٩٢) .

(٣) شذرات الذهب (٤٠/١) هذا وصف ابن العماد .

(٤) شرح صحيح مسلم (١٤٨/١٥ ، ١٤٩) .

(٥) تاريخ الطبرى (٣٢٧/٥) .

(٦) دراسات في عهد النبوة والخلافة الرأشدة ، ص(٣٩٤) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

والكتاب ، فإنها لم تصح ، ولم تصل إلى حد أن تكون سبباً في قتله^(١) . إن المأخذ السابق ذكرها والمدونة في تاريخ الطبرى ، وغيره من كتب التاريخ والمرؤية عن طريق المجاهيل ، والإخباريين الصعفاء - خاصة الإمامية - كانت وما زال بليةً عظمى على الحقائق في سير الخلفاء والأئمة ، خاصةً في مراحل الأضطرابات والفتن ، وقد كان مع الأسف لسيرة عثمان أمير المؤمنين رضي الله عنه من ذلك الحظ الوافر ، فرواية الحوادث ، ووضع الأباطيل على النهج الملتوى بعض ما نال تلك السيرة التّيّرة من تحريف المنحرفين ، وتشويه الغالين ؛ بغية التأليب عليه ، أو التشهير به وقد أدرك عثمان رضي الله عنه بنفسه ذلك عندما كتب إلى أمرائه : أمّا بعد ، فإن الرعية طاعت في الانتشار ، ونزعـت إلى الشّر ؛ أعداها على ذلك ثلاـث : دنيا مؤثـرة ، وأهـواءً متـسرـعة ، وضـغائن مـحمـولة^(٢) ، وقال ابن العـربـيـ عن تلك المـاخـذـ حـملـةً : قالـوا مـتـعـدـين مـتـعلـقـين بـرـوـاـيـةـ كـذـابـينـ جاءـ عـشـانـ فـيـ لـاـيـةـ بـمـظـالـمـ ، وـمـنـاكـيرـ . . . هـذـاـ كـلـهـ باـطـلـ سـنـداـ ، وـمـتـنـاـ^(٣) .

وقد يـبـيـنـ ابنـ تـيمـيـةـ بـأنـ عـشـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ لـيـسـ مـعـصـومـاـ ، فـقـالـ :ـ وـالـقـاعـدـةـ الـكـلـيـةـ فـيـ هـذـاـ أـلـاـ نـعـتـقـدـ أـنـ أـحـدـ مـعـصـومـ بـعـدـ النـبـيـ ﷺـ ،ـ بـلـ الـخـلـفـاءـ ،ـ وـغـيرـ الـخـلـفـاءـ يـجـوزـ عـلـيـهـمـ الـخـطاـ ،ـ وـالـذـنـوبـ الـتـيـ تـقـعـ مـنـهـمـ قـدـ يـتـبـوـنـ مـنـهـ ،ـ وـقـدـ تـكـفـرـ عـنـهـمـ بـحـسـنـاتـهـمـ الـكـثـيرـةـ ،ـ وـقـدـ يـتـلـوـنـ أـيـضاـ بـمـصـائـبـ يـكـفـرـ اللـهـ بـهـ ،ـ وـقـدـ يـكـفـرـ عـنـهـمـ بـغـيـرـ ذـلـكـ ،ـ فـكـلـ مـاـ يـنـقـلـ عـنـ عـشـانـ غـايـتـهـ أـنـ يـكـونـ ذـنـبـاـ ،ـ أـوـ خـطاـ ،ـ وـعـشـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـدـ حـصـلـتـ لـهـ أـسـبـابـ الـمـغـفـرـةـ مـنـ وـجـوهـ كـثـيرـةـ ،ـ مـنـهـاـ سـابـقـتـهـ ،ـ وـإـيمـانـهـ ،ـ وـجـهـادـهـ ،ـ وـغـيرـ ذـلـكـ مـنـ طـاعـتـهـ ،ـ وـقـدـ ثـبـتـ أـنـ النـبـيـ ﷺـ شـهـدـهـ ،ـ بـلـ بـشـرـهـ بـالـجـنـةـ عـلـىـ بـلـوـيـ تـصـيـبـهـ^(٤) ،ـ وـمـنـهـ :ـ أـنـهـ تـابـ مـنـ عـامـةـ مـاـ أـنـكـرـهـ عـلـيـهـ ،ـ وـأـنـهـ اـتـلـيـ بـبـلـاءـ عـظـيمـ ،ـ فـكـفـرـ اللـهـ بـهـ خـطاـيـاهـ ،ـ وـصـبـرـ حـتـىـ قـتـلـ شـهـيدـاـ مـظـلـومـاـ ،ـ وـهـذـاـ مـنـ أـعـظـمـ مـاـ يـكـفـرـ اللـهـ بـهـ الـخـطاـيـاـ^(٥) .

الحادي عشر : استخدام الأساليب والوسائل المهيّجة للناس :

وأهم هذه الأساليب : إشاعة الأرجيف ، حيث ترددت كلمة الإشاعة ، والإذاعة كثيراً ، والتحريض ، والمناظرة ، والمجادلة للخلفية أمام الناس ، والطعن على الولاة ، واستخدام تزوير الكتب ، واحتلاقوها على لسان الصحابة رضي الله عنهم عائشة ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، والإشاعة بأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأحق بالخلافة ، وأنه الوصي بعد رسول الله ﷺ ، وتنظيم فرق في كل من البصرة ، والكوفة ، ومصر ؛ أربع فرق من كل مصر ممّا

(١) دراسات في عهد النبي والخلافة الرّاشدة ، ص(٤٠٠) .

(٢) التمهيد والبيان ، ص(٦٤) .

(٣) العواصم من القواسم ، ص(٦١ - ٦٣) .

(٤) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة (٤ / ١٨٦٧ - ١٨٦٩) .

(٥) ذو الثورين عثمان بن عفان ، محمد مال الله ، ص(٦٣) .

يدلُّ على التَّدْبِيرِ الْمُسْبِقِ ، وأوهموا أهْلَ الْمَدِينَةَ : أَنَّهُمْ مَا جَاءُوا إِلَّا بِدُعَوَةِ الصَّحَابَةِ ، وَصَعَدُوا الْأَحْدَاثَ ، حَتَّى وَصَلَ الْأَمْرُ إِلَى الْقَتْلِ^(١) .

وَإِلَى جُوارِ هَذِهِ الْوَسَائِلِ اسْتَخْدَمُوا مَجْمُوعَةً مِن الشَّعَارَاتِ مِنْهَا : التَّكْبِيرُ ، وَمِنْهَا : أَنَّ جَهَادَهُمْ هَذَا ضَدَّ الْمَظَالِمِ ، وَمِنْهَا : أَنَّهُمْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهِيِّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَمِنْهَا : الْمَطَالِبُ بِاسْتِبْدَالِ الْوَلَاةِ ، وَعَزَّلُهُمْ ، ثُمَّ تَطَوَّرَتِ الْمَطَالِبُ إِلَى خَلْعِ عُثْمَانَ ، إِلَى أَنْ تَمَادُوا فِي جُرَأَتِهِمْ ، وَطَالُوبُوا ، بَلْ سَارُوكُوا إِلَى قَتْلِ الْخَلِيفَةِ ، وَخَاصَّةً حِينَمَا وَصَلَهُمُ الْخَبَرُ بِأَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ قَادُمُونَ لِنَصْرَةِ الْخَلِيفَةِ ، فَزَادُهُمْ حَمَاسُهُمُ الْمُمْحُومُ لِتَضِيقِ الْخَنَاقِ عَلَى الْخَلِيفَةِ ، وَالشَّوْقُ إِلَى قَتْلِهِ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ^(٢) .

الثاني عشر : أثر السُّبْئَيَّةِ فِي أَحْدَاثِ الْفَتَنَةِ :

١- السُّبْئَيَّةِ حَقِيقَةٌ ، أَمْ خِيَالٌ ؟

أَجْمَعَ الْقَدَمَاءُ عَلَى وَجُودِهِ بِلَا إِسْتِثْنَاءٍ - عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأَ - ، وَخَالِفُ فِي ذَلِكَ قَلَّةً مِنَ الْمُعَاصِرِيْنَ أَكْثَرُهُمْ مِن الشِّيَعَةِ ، وَحَجَّةً مِنْ أَنْكَرُهُ : أَنَّهُ مِنْ إِبْدَاعِ مُخَيْلَةِ سَيْفِ بْنِ عُمَرَ التَّمِيمِيِّ ، وَذَلِكَ لِأَنَّقَادَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الرِّجَالِ لَهُ فِي مَجَالِ رِوَايَةِ الْحَدِيثِ إِلَّا أَنَّ الْعُلَمَاءَ يَعْدُونَهُ حَجَّةً فِي الْأَخْبَارِ ، عَلَمًا بِأَنَّهُ وَرَدَتْ رِوَايَاتُ كَثِيرَةٌ عِنْ ابْنِ عَسَكِرٍ تَذَكَّرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأَ ، وَلَيْسَ (سَيْفُ بْنُ عُمَرَ) مِنَ الرِّوَاةِ ، وَقَدْ حُكِمَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ عَلَى بَعْضِهَا بِأَنَّهَا صَحِيحَةٌ مِنْ حِيثِ السَّنَدِ ، هَذَا غَيْرُ الرِّوَايَاتِ الْكَثِيرَةِ عَنْ ابْنِ سَبَأَ فِي كُتُبِ الشِّيَعَةِ سُوَا فِي كُتُبِ الْفَرَقِ ، أَوِ الرِّجَالِ ، أَوِ الْحَدِيثِ عَنْهُمْ ، وَلَيْسَ فِيهَا عُمَرٌ هَذَا لَا مِنْ قَرِيبٍ ، وَلَا مِنْ بَعِيدٍ .

وَقَدْ شَكَّكَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَأَ^(٣) ، وَقَالُوا بِأَنَّهُ شَخْصَيَّةٌ وَهُمَيَّةٌ وَأَنْكَرُوا وَجُودَهُ ، بَدْوَنَ حَجَّةٍ ، أَوْ بِرْهَانٍ ، وَأَضَافُ الَّذِينَ أَنْكَرُوا شَخْصَيَّةَ ابْنِ سَبَأَ ، وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ ، وَفَتَّةٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ الْعَرَبِ ، وَغَالِيَةُ الشِّيَعَةِ الْمُعَاصِرِيْنَ : أَنَّهُ شَخْصَيَّةٌ وَهُمَيَّةٌ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَجُودٌ ، فَأَيْنَ بَلْغَ هُؤُلَاءِ مِنْ قَلَّةِ الْحَيَاةِ ، وَالْجَهَلِ ، وَقَدْ مَلَأَتْ تَرْجُمَتِهِ كُتُبُ التَّارِيخِ ،

(١) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، ص(٤٠١). كتاب الإنقاذ من دعاوى الإنقاذ للتأريخ الإسلامي ، رد على حسن بن فرحان المالكي ، للدكتور سليمان بن حمد العودة ، وقد ذكر في رده الطرق التي عرضت على الألباني - رحمه الله - وحكم عليها.

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٤٠٢).

(٣) عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء ، يهوديٌّ من صناع ، أظهر إسلامه في زمن عثمان بن عفان ، ظهر له نشاط ملحوظٌ في الشام ، والعراق ، ومصر خاصةً ، يرسم خططاً ، ويدلي بأراء هدامة ، ليلف المسلمين عن دينهم ، وطاعة خليفتهم ، ويوقع بينهم الفرقـة ، والخلافـ . تحقيق موافق الصحابة في الفتنة (٢٨٤/١).

والفرق ، وتناقلت أفعاله الرُّواة ، وطبقت أخباره الآفاق ، لقد انفق المؤرخون ، والمحدثون ، وأصحاب كتب الفرق ، والملل والتَّحْلُل ، والطبقات ، والأدب ، والأنساب الذين تعرَّضوا للسَّبَيَّة على وجود شخصية عبد الله بن سبأ ؛ الذي ظهر في كتب أهل السنة ، كما ظهر في كتب الشِّيعة شخصيةً تاريخيةً حقيقةً ، ولهذا فإنَّ أخبار الفتنة ، ودور ابن سبأ فيها لم تكن قصراً على تاريخ الإمام الطَّبرِي ، واستناداً إلى روایات سيف بن عمر التَّمِيمِي فيه ، وإنما هي أخبار منتشرة في روایات المتقَدِّمين ، وفي ثنايا الكتب التي رصدت أحداث التاريخ الإسلامي ، وآراء الفرق ، والنَّحل في تلك الفترة ، إلا أنَّ ميزة تاريخ الإمام الطَّبرِي على غيره : أنه أغزرها مادةً ، وأكثرها تفصيلاً لا أكثر ، ولهذا فإنَّ التشكيك في هذه الأحداث بلا سند ، وبلا دليل إنما يعني الهدم لكل تلك الأخبار ، والتَّسفيه بأولئك المخبرين ، والعلماء ، وتزيف الحقائق التاريخية ، فمتى كانت المنهجية ضرباً من ضروب الاستنتاج العقلي المحسوب في مقابل التَّصوّص ، والروایات المتضارفة ؟ ! وهل تكون المنهجية في الضرب صحفاً والإعراض عن المصادر الكثيرة المتقَدِّمة ، والمتأخرة التي أثبتت لابن سبأ شخصيةً واقعيةً ؟ !^(١) ، وقد جاء ذكر ابن سبأ في كتب أهل السنة كثيراً ، منها :

- جاء ذكر السَّبَيَّة على لسان أعشى همدان^(٢) ، المتوفى عام ٨٣ هـ وقد هجا المختار بن أبي عبيد الثقيفي وأنصاره من أهل الكوفة بعد ما فرَّ مع أشراف قبائل الكوفة إلى البصرة بقوله :

شَهِدْتُ عَلَيْكُمْ أَنْكُمْ سَبَيَّةٌ وَأَنَّى يُكْسِمْ يَا شُرْطَةَ الْكُفْرِ عَارِفٌ^(٣)
وهناك رواية عن الشاعري المتوفى عام ١٠٣ هـ (٧٢١ م) تفيد : أنَّ أول من كذب عبد الله بن سبأ^(٤) . وتحدَّث ابن حبيب^(٥) المتوفى عام ٢٤٥ هـ (٨٦٠ م) عن ابن سبأ حينما اعتبره أحد أبناء الحبشيات^(٦) . كما روى أبو عاصم خُثْشِيش بن أصرم المتوفى سنة ٢٥٣ هـ خبر إحراق عليٍ

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٧٠).

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الهمданى : المعروف بأعشى همدان : شاعر فارسي ، أحد الفقهاء القراء ، لكنه قال الشعر ، وعرف به ، قال الذهبى : شاعر مفوء شهير ، كان متبعاً فاضلاً ، قتل عام ٨٣ هـ .

(٣) ديوان أعشى همدان ، ص (١٤٨) .

(٤) تاريخ دمشق ، لابن عساكر (٩/٣٣١) .

(٥) محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي عالم بالأنساب ، والأخبار ، واللغة ، والشعر توفي عام ٢٤٥ هـ ، تاريخ بغداد (٢/٢٧٧) .

(٦) المحتر ، لابن حبيب ، ص (٣٠٨) ، عبد الله بن سبأ ، العودة ، ص (٥٣) .

رضي الله عنه لجماعة من أصحاب ابن سبأ في كتابه الاستقامة^(١) ، ويعتبر الجاحظ^(٢) المتوفى سنة ٢٥٥ هـ من أوائل من أشار إلى عبد الله بن سبأ^(٣) ، ولكن روایته ليست أقدم روایة عن ابن سبأ ، كما يرى الدكتور جواد علي^(٤) .

وخبر إحراق عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه لطائفة من الرِّنادقة تكشف عنه الرِّوايات الصحيحة في كتب الصَّحاح ، والسنن ، والمسانيد^(٥) ، ولفظ الرِّنادقة ليس غريباً عن عبد الله بن سبأ ، وطائفته ، يقول ابن تيمية : إنَّ مبدأ الضلال إنما كان من الرِّناديق عبد الله بن سبأ^(٦) .

ويقول الذهبي : عبد الله بن سبأ من غلاة الرِّنادقة ، ضالٌّ مضلٌّ^(٧) . ويقول ابن حجر : عبد الله بن سبأ من غلاة الرِّنادقة . . . وله أتباعٌ يقال لهم : السَّبئيَّة معتقدون الإلهية في عليّ بن أبي طالبٍ ، وقد أحرقهم عليّ بالثار في خلافته^(٨) ، ويوجد لابن سبأ ذكرٌ في كتب الجرح ، والتعديل ، يقول ابن حبان المتوفى ٣٥٤ هـ . وكان الكلبي - محمد بن السائب الإخاري - سبئياً ، من أصحاب عبد الله بن سبأ ، من أولئك الذين يقولون : إنَّ علياً لم يمت ، وإنَّه راجع إلى الدنيا قبل قيام الساعة . . . وإنَّ رأوا سحابة ، قالوا : أمير المؤمنين فيها^(٩) . . . ، كما أنَّ كتب الأنساب هي الأخرى تؤكِّد نسبة (السَّبئيَّة) إلى عبد الله بن سبأ ، ومنها على سبيل المثال كتاب (الأنساب للسمعاني)^(١٠) المتوفى عام ٥٦٢ هـ^(١١) ، وعرف ابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ هـ ابن سبأ بقوله : عبد الله بن سبأ الذي تنسب إليه السَّبئيَّة ، وهم الغلاة من الرَّافضة ، أصله من اليمن ، كان يهودياً ، وأظهر الإسلام^(١٢) .

(١) هو خثييش بن أصرم بن الأسود السَّائي ، ترجم له الذهبي ، تذكرة الحفاظ (٥٥١ / ٢) . وشذرات الذهب (١٢٩ / ٢) .

(٢) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكثاني ، من أئمة الأدب ، والعلم توفي عام ٢٥٥ هـ . وفيات الأعيان (٤٧٠ / ٣) .

(٣) البيان والثبيين (٨١ / ٣) .

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (٢٩٠ / ١) . عبد الله بن سبأ ، للعوده ، ص (٥٣) .

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (٢٩٠ / ١) .

(٦) مجموع الفتاوى (٤٨٣ / ٢٨) .

(٧) ميزان الاعتدال للذهبي (٤٢٦ / ٢) .

(٨) لسان الميزان (٣ / ٢٩٠ - ٣٨٩) .

(٩) المجرحين (٢٥٣ / ٢) .

(١٠) عبد الكريم بن محمد السمعاني ، توفي عام ٥٦٢ هـ . وتذكرة الحفاظ (١٣١٦ / ٤) .

(١١) الأنساب (٧ / ٢٤) .

(١٢) تاريخ دمشق (٩ / ٣٢٨ - ٣٢٩) .

ولم يكن سيف بن عمر هو المصدر الوحيد لأخبار عبد الله بن سبأ ، إذ أورد ابن عساكر في تاريخه روايات لم يكن سيف فيها ، وهي تثبت ابن سبأ ، وتوكّد أخباره^(١) ، ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ : أنَّ أصل الرَّفض من المنافقين الزَّنادقة ، فإنَّه ابتداع ابن سبأ الرَّنديق ، وقد أظهر الغلوّ في عليٍّ ودعا لإمامته ، والتَّنصُّل عليها ، وأدَّعى العصمة له^(٢) .

ويشير الشاطئي^(٣) ، المتوفى عام ٧٩٠ هـ إلى أنَّ بدعة السَّبَّيَةَ من البدع الاعتقادية المتعلقة بوجود إله مع الله - تعالى الله - وهي بدعةٌ تختلف عن غيرها من المقالات^(٤) .

وفي خطط المقريري المتوفى عام ٨٤٥ هـ أنَّ عبد الله بن سبأ قام في زمان عليٍّ محدثاً القول بالوصيَّة ، والرَّجعة ، والثَّناسخ^(٥) .

وأمَّا المصادر الشِّيعيَّةُ التي ذكرت ابن سبأ : فقد روى الكشيُّ عن محمد بن قولوية ، قال : حدَّثني سعد بن عبد الله ، قال : حدَّثني يعقوب بن يزيد ، ومحمد بن عيمان ، عن عليٍّ بن مهزيار ، عن فضالة بن أبِي الأزديِّ ، عن أبا بن عثمان ، قال : سمعت أبا عبد الله يقول : لعن الله عبد الله بن سبأ ، إنَّه أدعى الرُّبوبيَّةَ في أمير المؤمنين ، وكان والله أمير المؤمنين عبداً طائعاً . الويل لمن كذب علينا ! وإنَّ قوماً يقولون فيما لا نقول في أنفسنا نبراً إلى الله منهم^(٦) والرواية من حيث السَّند صحيحة^(٧) .

وفي كتاب (الخصال) أورد القميُّ الخبر نفسه ، ولكن موصولاً بسندٍ آخر ، وأمَّا صاحب روضات الجنَّات ، فقد ذكر ابن سبأ عنده على لسان الصَّادق المصدوق الذي لعن ابن سبأ لاتهامه بالكذب ، والتروير ، وإذاعة الأسرار ، والتأويل^(٨) .

وقد ذكر الدكتور سليمان العودة في كتابه مجموعة من التصوص التي تزخر بها كتب الشِّيعة ، ومرورياً لهم عن عبد الله بن سبأ ، فهي أشبه ما تكون بوثائق مسجَّلة تدين من حاول إنكار

(١) تحقيق موافق الصحابة (١/٢٩٨).

(٢) مجموع فتاوى (٤/٤٣٥).

(٣) إبراهيم بن موسى ، محمد الغرناطي ، توفي عام ٧٩٠ هـ .

(٤) الاعتصام (٢/١٩٧).

(٥) المواعظ والاعتبار (٢/٢٥٦ - ٣٥٧).

(٦) رجال الكشي (١/٣٢٤).

(٧) عبد الله بن سبأ الحقيقة المجهول ، محمد علي المعلم ، ص (٣٠).

(٨) عبد الله بن سبأ ، العودة ، ص (٦٢).

ابن سباء ، أو التشكيك فيه من متاخرى الشيعة بحجّة قلة ، أو ضعف المصادر التي حكت أخباره^(١) .

إنّ شخصية ابن سباء حقيقةً تاريخيّة لا لبس فيها في المصادر الشيعيّة ، والشيعيّة المتقدّمة ، والمتاخرة على السواء ، وهي كذلك أيضاً عند غالبية المستشرقين أمثال : يوليوس فلهاوزن^(٢) ، وفان فولتن^(٣) ، وليفي ديلافيدا^(٤) ، وجولد تسهير^(٥) ، وريينولد نكلسن^(٦) ، ودوايت رونلدسن^(٧) . . . على حين يقى ابن سباء محلّ شك ، أو مجرد خرافّة عند فئة قليلة من المستشرقين ؛ أمثال : كيتاني ، وبرنارد لويس^(٨) ، وفريد لندر المتأرّجح^(٩) علماً بأنّنا لا نعتمد بهم في أحداث تاريخنا .

ومن استقرأ المصادر ، سواءً القديمة ، والمتاخرة ، عند السنة ، والشيعة ، يتّأكّد له بأنّ وجود ابن سباء كان وجوداً حقيقةً ، تؤكّده الرّوايات التّارِيخيّة ، وتفيض فيه كتب العقائد ، وذكره كتب الحديث ، والرّجال ، والأنساب ، والأدب ، واللغة ، وسار على هذا النّهج كثيرٌ من المحقّقين والباحثين المُحدثين ، ويبدو : أنّ أول من شكّك في وجود ابن سباء بعض المستشرقين ، ثمّ دعم هذا الطرح الغالبية من الشيعة المحدثين ، بل وأنكر بعضهم وجوده البطلة ، وبرز من الباحثين العرب المعاصرين منْ أُعجب بآراء المستشرقين ، ومن تأثر بكتابات الشيعة المُحدثين ، ولكنَّ هؤلاء جميعاً ليس لهم ما يدعمون به شكّهم ، وإنكارهم إلا الشكّ ذاته ، والاستناد إلى مجرد الظنون ، والفرضيات^(١٠) ، ومن أراد التوسيّع في معرفة المراجع والمصادر السنة ، والاسترشاقية والشيعيّة ، التي ذكرت ابن سباء ، فليراجع : تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة للدّكتور محمد أمحزون ، وعبد الله بن سباء ، وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام ، للدّكتور سليمان بن حمد العودة .

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) الخوارج والشيعة ، يوليوس فلهاوزن ، ص(١٧٠) .

(٣) السيادة العربيّة ، والشيعة ، والإسراطيليات ، ص(٨٠) فان فولتن .

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (٣١٢ / ١) .

(٥) العقيدة ، والشّريعة الإسلامية ، جولد تسهير ، ص(٢٢٩) .

(٦) تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية ، وصدر الإسلام ، ص(٢٣٥) .

(٧) عقيدة الشيعة ، ص(٥٨) .

(٨) أصول الإسماعيلية ، ص(٨٦) .

(٩) تحقيق مواقف الصحابة (٣١٢ / ١) .

(١٠) تحقيق مواقف الصحابة (٣١٢ / ١) .

٢- دور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة :

في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان رضي الله عنه بدت في الأفق سمات الاضطراب في المجتمع الإسلامي نتيجة عوامل التغيير التي ذكرناها ، وأخذ بعض اليهود يتحينون فرصة الظهور مستغلين عوامل الفتنة ، ومتظاهرين بالإسلام ، واستعمال التقىة ، ومن هؤلاء : عبد الله بن سبأ الملقب بابن السواداء ، وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التهويل من شأنه كما فعل بعض المغالين في تضخيم دوره في الفتنة^(١) ، فإنه كذلك لا يجوز التشكيك فيه ، أو الاستهانة بالدور الذي لعبه في أحداث الفتنة ، كعاملٍ من عواملها ، على أنه أبرزها ، وأخطرها ؛ إذ إنَّ هناك أجواءً للفتنة مهدَّت له ، وعوامل أخرى ساعدته ، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراءُ ، ومعتقداتُ ادعاهَا ، واحتزَّ بها من قبل نفسه ، وافتعلها من يهوديَّة الحاقدة ، وجعل يروجها لغاية ينشدها ، وغرضٍ يستهدفه ؛ وهو الدسُّ في المجتمع الإسلامي بغية النيل من وحدته ، وإذكاء نار الفتنة ، وغرس بذور الشقاق بين أفراده ، فكان ذلك من جملة العوامل التي أدَّت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وتفرق الأمة شيئاً ، وأحزاباً^(٢) ، وخلاصة ما جاء به أنَّ أتى بمقدِّماتٍ صادقةٍ ، وبنى عليها مبادئٍ فاسدةً راجت لدى السُّدُّج ، والغلاة ، وأصحاب الأهواء من الناس ، وقد سلك في ذلك مسالك ملتويةً لبس فيها على مَنْ حوله ، حتَّى اجتمعوا عليه ، فطرق باب القرآن بتأنُّه على زعمه الفاسد ، حيث قال : لعَجُبٌ مَمَّنْ يزعم أَنَّ عيسى يرجع ، ويُكَذِّبُ بأنَّ محمَّداً يرجع ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنَ لَرَازِكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص : ٨٥] فمحمَّد أحَقُ بالرجوع من عيسى^(٣) ، كما سلك طريق القياس الفاسد من ادعاء إثبات الوصيَّة لعليٍّ رضي الله عنه بقوله : إِنَّه كَانَ أَلْفَ نَبِيٍّ ، وَلَكُلُّ نَبِيٍّ وَصِيٌّ ، وَكَانَ عَلِيٌّ وَصِيٌّ محمَّدٌ ، ثمَّ قال : محمَّد خاتم الأنبياء ، وَعَلِيٌّ خاتم الْأوصياء^(٤) .

وحينما استقرَّ الأمر في نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم ، وهو خروج النَّاس على الخليفة عثمان رضي الله عنه فصادف ذلك هوَّي في نفوس بعض القوم ، حيث قال لهم : من أظلم مَمَّنْ لم يُحِرِّزْ وصيَّة رسول الله ﷺ ووَثَبَ على وصيٍّ رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة ! ثمَّ قال لهم بعد ذلك : إِنَّ عثمانَ أَخْذَهَا بغير حَقٍّ ، وهذا وصيٌّ رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر ، فحرَّكوه ، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن

(١) مثال سعيد الأفغاني في كتابه (عائشة والسياسة) .

(٢) تحقيق موافق الصحابة (١/٣٢٧) .

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٣٤٧) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

المنكر ؟ تستمبلوا النّاس ، وادعوهم إلى هذا الأمر^(١) ، وبئّ دعاته .

وكاتب من كان استفسد في الأ MCSars ، وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهما ، وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأ MCSars بكتاب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكتابتهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرأه أولئك في أ MCSars ، وهؤلاء في أ MCSars هم حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسيرون غير ما يبدون ، فيقول أهل مصر : إنّا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء ، إلا أهل المدينة فإنّهم جاءهم ذلك عن جميع الأ MCSars ، فقالوا : إنّا لفي عافية مما فيه النّاس^(٢) .

ويظهر من هذا النّص الأسلوب الذي تبعه ابن سباء ، فهو أراد أن يوقع في أعين النّاس بين اثنين من الصحابة ، حيث جعل أحدهما مهضوم الحق ، هو علي ، وجعل الثاني مغتصباً ، وهو عثمان ، ثم حاول بعد ذلك أن يحرّك النّاس - خاصة في الكوفة - على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فجعل هؤلاء يثورون لأصغر الحوادث على ولاتهم ، علماء بأنّه ركز في حملته هذه على الأعراب الذين وجد فيهم مادةً ملائمةً لتنفيذ خطّته ، فالقراء منهم استهواهم عن طريق الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأصحاب المطامع منهم هيئّ أنفسهم بالإشعارات المغرّبة المفترأة على عثمان ، مثل تحبيه لأقاربه ، وإغداد الأموال من بيت مال المسلمين عليهم ، وأنّه حمى الحمى لنفسه ، إلى غير ذلك من التّهم ، والمطاعن التي حرّك بها نفوس الغوغاء ضدّ عثمان رضي الله عنه ، ثم إنّه أخذ يحضر أتباعه على إرسال الكتب بأخبارٍ سيئةً مفجعةً عن مصرهم إلى بقية الأ MCSars .

وهكذا يتخيّل الناس في جميع الأ MCSars : أنّ الحال بلغ من السوء ما لا مزيد عليه ، والمستفيد من هذه الحال هم السّبّية ؛ لأنّ تصديق ذلك من النّاس يفیدهم في إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلامي^(٣) ، هذا وقد شعر عثمان رضي الله عنه بأنّ شيئاً ما يحاك في الأ MCSars ، وأنّ الأمة تمغض بشرّ ، فقال : والله إن رحى الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ، ولم يحرّكها^(٤) !

على أنّ المكان الذي رتع فيه ابن سباء هو في مصر ، وهناك أخذ ينظم حملته ضدّ عثمان

(١) المصدر السابق نفسه (٥/٣٤٨) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) الدولة الأموية ، يوسف العش ، ص(٦٨) . وتحقيق موافق الصحابة (١/٣٣٠) .

(٤) تاريخ الطّبرى (٥/٣٥٠) .

رضي الله عنه ، ويحث الناس على التوجّه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى : أنَّ عثمان أخذ الخلافة بغير حقٍّ ، ووَثَبَ على وصيِّ رسول الله ، يقصد علِيًّا^(١) ، وقد غشَّهم بكتابٍ ادعى أنها وردت من كبار الصحابة حتَّى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنورة واجتمعوا بالصحابة لم يجدوا منهم تشجيعاً ، حيث تبرأُوا مما نسب إليهم من رسائل تولُّ الناس على عثمان^(٢) ، ووَجَدُوا عثمان مقدراً للحقوق ، بل وناظرهم فيما نسبوا إليه ، ورَدَ عليهم افتراءهم ، وفسر لهم صدق أعماله ، حتَّى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك الأشتر التَّخْعِي : لعله مُكَرَّرَ به ، وبكم^(٣) ، ويعتبر الذهبي : أنَّ عبد الله بن سباء المهيِّج لفتنة بمصر ، وباذر بذور الشُّقاق والتَّنَمَّة على الولادة ثمَّ على الإمام - عثمان - فيها^(٤) ، ولم يكن ابن سباء وحده ، وإنما كان عمله ضمن شبكة من المتأمرين ، وأخطبوطاً من أساليب الخداع ، والاحتيال ، والمكر ، وتجنيد الأعراب ، والقراء ، وغيرهم ، ويروي ابن كثير : أنَّ من أسباب تأليب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سباء ، وذهابه إلى مصر ، وإذاعته بين الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه ، فافتتن به بشُّرُّ كثيِّرٍ من أهل مصر^(٥) .

إنَّ المشاهير من المؤرِّخين والعلماء من سلف الأئمَّة وخلفها يتفقون على أنَّ ابن سباء ظهر بين المسلمين بعقائد ، وأفكار ، وخططٍ سبئيةٍ ليُلْفِتَ المسلمين عن دينهم ، وطاعة إمامهم ، ويُوَقِّع بينهم الفرقة ، والخلاف ، فاجتمع إليه من غوغاء النَّاس ما تكونت به الطائفة السبئية المعروفة التي كانت عاملاً من عوامل الفتنة المُتَهِيَّة بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه والذي يظهر من خطط السبئية أنها كانت أكثر تنظيماً ؛ إذ كانت بارعة في توجيه دعایتها ، ونشر أفكارها ؛ لامتلاكها ناصية الدعَاية ، والتأثير بين الغوغاء والرُّعاع من النَّاس ، كما كانت نشيطة في تكوين فروع لها سواءً في البصرة ، أم الكوفة ، أم مصر ، مستغلة العصبية القبلية ، ومتسلكةً من إثارة مكامن الثَّدْمَر عند الأعراب ، والعبيد ، والموالي ، عارفةً بالمواقع الحسَّاسة في حياتهم ، وبِمَا يريدون^(٦) .

* * *

(١) تحقيق موافق الصحابة (١/٣٣٠). وتاريخ الطبرى (٥/٣٤٨).

(٢) تحقيق موافق الصحابة (١/٣٣٠). وتاريخ الطبرى (٥/٣٦٥).

(٣) تحقيق موافق الصحابة (١/٣٣١).

(٤) المصدر السابق نفسه (١/٣٣٨).

(٥) البداية والنهاية (٧/١٦٧، ١٦٨).

(٦) تحقيق موافق الصحابة في الفتنة ، ص (٣٣٩).

الفصل السابع

مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه

المبحث الأول

اشتعال الفتنة

نجح الموتورون الحاذدون الكاذبون في إزاحة الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة ، وعيّن عثمان رضي الله عنه سعيد بن العاص واليًا جديداً على الكوفة ، وعندما وصل سعيد إلى ولايته صعد المنبر ، وبعدما حمد الله ، وأثنى عليه ، قال : والله لقد بعثت إليكم ، وإنّي لكاره ، ولكني عندما أمرني عثمان ؛ لم أجد بدًا من التّنفيذ ، ألا وإنّ الفتنة قد أطلعت رأسها فيكم ، ووالله لأضربي وجهها ، حتّى أقمعها ، أو تغلبني وإني رائد نفسي اليوم^(١) .

واطّلع سعيد على أحوال الكوفة ، وعرف توجّهات النّاس فيها ، وأدرك تعمّق الفتنة فيها ، وضُلّوع مجموعةٍ من الخوارج ، والمotorين ، والحاقدين ، وأعداء الإسلام في التّامر ، والكيد ، والفتنة ، وسيطرة الرّاعع ، والغوغاء ، والأعراب على الرّأي فيها^(٢) ، وكتب سعيد رسالةً إلى أمير المؤمنين عثمان يخبره فيها بالأوضاع المتردّية في الكوفة ، وممّا قال فيها : إنّ أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وقد غالب فيها أهل الشرف ، والسابقة ، والمقدمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ردت ، وأعراب لحت ، حتى ما ينظر فيها إلى ذي شرف ، وبلاء .. ! فردّ عليه عثمان رضي الله عنه برسالةٍ ، طلب منه فيها إعادة ترتيب أوضاع أهلها ، وتصنيفهم على أساس السّبق ، والجهاد ، وتقديم أهل العلم ، والصدق ، والجهاد على غيرهم ، وممّا قال له فيها : فضل أهل السابقة والقدمة ، ممّن فتح الله على أيديهم تلك البلاد ، واجعل الذين نزلوا البلاد بعد فتحها من الأعراب تبعاً لأولئك السابقين المجاهدين ، إلا أن يكون السابقون تثاقلوا عن الجهاد ، والحقّ ، وتركوا القيام به ، وقام به مَنْ بعدهم ! واحفظ

(١) تاريخ الطّبرى (٣٨٠ / ٥).

(٢) الخلفاء الرّاشدون ، للخالدي ، ص (١٢٢) .

لكل إنسانٍ منهم منزلته ، وأعطتهم جميعاً قِسْطَهُم بالحقّ ، فإنَّ المعرفة بالنَّاس يتحقّق بها العدل بينهم^(١) ، وقام سعيد بتنفيذ توجيهات عثمان رضي الله عنه ، وأخبر الخليفة بما فعل ، وجمع عثمان أهل الحلّ والعقد في المدينة ، وأبلغهم بأوضاع الكوفة ، ورسوخ الفتنة فيها ، وإجراءات سعيد بن العاص لمواجهتها ، فقالوا : أصبت بما فعلت ، ولا تسعد أهل الفتنة بشيء ، ولا تقدّمهم على النَّاس ، ولا تطعمهم فيما ليسوا له بأهلي ، فإنه إذا تولَّ الأمور من ليس أهلاً لها ؛ لم يقم بها ، بل يفسدها . فقال عثمان لهم : يا أهل المدينة ! إنَّ النَّاس قد تحرَّكوا للفتنة ، فاستعدُوا لمواجهتها ، واستمسكوا بالحقّ ، وسوف أخبركم بأخبارها ، وأنقلها لكم أولاً بأول^(٢) .

أولاً : تأذى أصحاب الأهواء من الإصلاح :

تأدى الرُّعاع ، وأجلاف الأعراب من تقديم أصحاب السَّابقة ، والجهاد ، والبلاء ، والعلم ، والتَّقْوِي في المجالس والرَّئاسة ، والاستشارة ، وصاروا يعيبون على الولاة تقديم هؤلاء عليهم ، واستشارتهم دونهم ، ويعتبرونه تمييزاً ، وجفوةً ، وإقصاءً لهم ، واستغلُّ الحاقدون المُوتورون هذا الأمر في نفوسهم ، وغرسوا فيهم كُره الخليفة ، والدُّولة ، ورفضُ أعمال الوالي سعيد بن العاص ، ونشر الإشاعات ضده بين النَّاس .

(١) تاريخ الطّيّبى (٢٨٠ / ٥).

(٢) المصدر السابق نفسه (٥/٢٨١).

(٣) الخلفاء الرّاشدون ، للخالدي ، ص (١٢٤) .

بينهم^(١) ، وكانت أهم فروع جمعيتهم الخبيثة في : الكوفة ، والبصرة ، ومصر ، ولهم بعض العناصر في المدينة المنورة ، والشام^(٢) .

ثانياً : عبد الله بن سبأ اليهودي على رأس العصابة :

أوصى ابن سبأ أتباعه المجرمين في جمعيته السرية المنتشرين في بلاد المسلمين ، فقال لهم : انهضوا في هذا الأمر ، فحرّكوه ، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وولاتكم الذين يعيّنهم الخليفة ، وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لاستميلوا الناس إليكم ، وادعوهم إلى هذا الأمر^(٣) ، وبئ عبد الله بن سبأ دعاته في الأ MCSars ، وكاتب أتباعه الذين أفسدتهم في الأ MCSars ، وضمّهم إليه ، وكتابوه ، وتحرّك أتباعه في البلدان بدعوتهم ، ودعوا مؤيدّيهم في السر إلى ما هم عليه من الخروج على الولاة ، وال الخليفة ، والعمل على عزل عثمان عن الخلافة ، وكانوا في الظاهر يُظهرون الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ليؤثّروا في الناس ، ويستميلوهم ، ويخذلوكهم ، وصار أتباع ابن سبأ يؤلّفون الأكاذيب ، والافتراءات عن عيوب أمرائهم ، وولاتهم ، وينشرونها في كتب يرسلها بعضهم إلى بعض في الأ MCSars ، وصار أهل كل مصر منهم يكتبون كتاباً بهذه الأكاذيب إلى أهل مصر آخرين ، فيقرأ أهل كل مصر تلك الكتب المزورة على الناس عندهم ، فيسمع الناس عندهم عن عيوب ، وأخطاء الوالي في ذلك البلد ، فيقولون : إنّا لفي عافية ، مما ابْتَلَى به المسلمون في ذلك البلد ، ويصدقون ما يسمعون ! وبذلك أفسد السَّيِّدون في الأرض ، وأفسدوا المسلمين ، ومرّقوا كلمتهم ، وزعزعوا أخواتهم ، ووحدتهم ، وهيجوا الناس على الولاة ، والأمراء ، ونشروا الافتراءات ضد الخليفة عثمان نفسه ، وكانوا بهذه الجرائم المنظمة ، والمدروسة بمهارة يريدون غير ما يظهرون ، ويُسْرُّون غير ما يعلّون ، ويهدّون إلى عزل عثمان ، والقضاء على دولة الإسلام^(٤) .

توجه ابن سبأ إلى الشام ليفسد بعض أهلها ، ويؤثّر فيهم ، ولكنّه لم ينجح في هدفه الشيطاني ، فقد كان له معاوية رضي الله عنه بالمرصاد^(٥) ، ودخل البصرة ؛ ليجنّد الأتباع له من المارقين ، أو الحاذدين ، أو الرّاعي البلياء ، وكان والي البصرة عبد الله بن عامر بن كريز ،

(١) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٢٤) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) تاريخ الطّبرى (٣٤٨ / ٥) .

(٤) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٢٦) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

وكان حازماً عادلاً صالحاً ، ولما وصل ابن سباء البصرة ، نزل عند رجل خبيثٍ من أهلها كان لصاً فاتكاً ، هو حكيم بن جبلة^(١) .

وبلغ عبد الله بن عامر : أنَّ رجلاً غريباً نازلٌ على حكيم بن جبلة ، وكان حكيم بن جبلة رجلاً لصاً ، وعندما كانت تعود جيوش الجهاد إلى البصرة ، كان حكيم يتخلف عنها ، ليسعى في أرض فارس فساداً ، ويُغْيِّر على أرض أهل الذمة ، ويعتدي على أرض المسلمين ، ويأخذ منها ما يشاء ، فشكاه أهل الذمة ، والمسلمون إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر ، وقال له : احبس حكيم بن جبلة في البصرة ، ولا تتركه يخرج منها حتى تأنس منه رُشدًا ، فحبسه ابن عامر في بيته ، وكان لا يستطيع أن يخرج من البصرة ، وبينما كان اللصُّ ابن جبلة تحت الإقامة الجبرية في بيته ؛ نزل عليه اليهوديُّ عبد الله بن سباء ، واستغلَّ ابن سباء زعارة^(٢) ابن جبلة ، وانحرافه ، وحقده ، ولؤمه ، فجندَه لصالحه ، وصار ابن جبلة هو رجلُ ابن سباء في البصرة ، وصار ابن جبلة يقدِّم لابن سباء أمثاله من المنحرفين ، والموتورين ، فيغرس ابن سباء في نفوسهم أفكاره ، ويجندهم بجمعيته السُّرية . ولما علم ابن عامر بابن سباء ؛ استدعاه ، وقال له : ما أنت ؟ قال ابن سباء : أنا رجل من أهل الكتاب ، رغب في الإسلام ، فأسلم ، ورغب في جوارك ، فأقام عندك .

قال ابن عامر : ما هذا الكلام الذي يبلغني عنك ؟ ! اخرج عنِّي ، أخرجه ابن عامر من البصرة ، فغادرها ابن سباء ، بعد أن ترك فيها رجالاً ، وأتباعاً له ، وجعل فيها فرعاً لحزبه السُّبئيَّ اليهوديَّ ، ذهب ابن سباء إلى الكوفة ، فوجد فيها رجالاً من المنحرفين ، جاهزين لاستقباله ، فجندَهم لجماعته وحزبه ، ولمَّا علم به سعيد بن العاص أخرجه من الكوفة ، فتوجَّه إلى مصر ، فأقام فيها ، وعشَّشَ فيها ، وباض ، وفرَّخ فيها ، وأفسد ، واستمال أناساً هناك من الرُّعاع والبلهاء ، ومن العاقدين ، والموتورين ، ومن العصاة ، والمذنبين ، وكان ابن سباء يرتَّب الاتصالات السُّرية بين مصر وبلاده^(٣) ، واستمرَّت جهود ابن سباء وأعوانه حوالي ستَّ سنواتٍ ، حيث بدأوا أعمالهم الشَّيطانية سنة ثلاثين ، ونجحوا في آخر سنة خمس وثلاثين في قتل الخليفة عثمان ، واستمرَّ إفسادهم طيلة خلافة عليٍّ رضي الله عنه ، وقرَّرَ (السُّبئيون) أن تكون بداية الفتنة في الكوفة^(٤) .

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(١٢٨) .

(٢) الأزرع : سُيِّئَ الْخُلُقُ .

(٣) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٢٩) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص(١٣٠) .

ثالثاً : أهل الفتنة يفسدون في مجلس سعيد بن العاص :

في يوم من أيام سنة ثلث وثلاثين جلس سعيد بن العاص في مجلسه العام ، وحوله عامّة الناس ، وكانوا يتحدّثون ، ويتناقشون فيما بينهم ، فتسليّ هؤلاء الخوارج من السبّيّين إلى المجلس ، وعملوا على إفساده ، وعلى إشعال نار الفتنة .

جرى كلامٌ وحوار في المجلس بين سعيد بن العاص ، وبين أحد الحضور ، وهو (خُنيس بن حبيش الأَسديُّ) ، واختلفا على أمر ، وكان سبعةً من الخوارج ، أصحاب الفتنة جالسين ؛ منهم : جندب الأَزديُّ ، الذي قتل ابنه السارق بسبب تورطه في قضية قتلى ، ومنهم : الأشتر التَّنخعيُّ ، وابن الكوَاء ، وصعصعة بن صوحان ، فاستغلّ أصحاب الفتنة المناسبة ، وقاموا بضرب خُنيس الأَسديِّ في المجلس ، ولما قام أبوه يساعدته ، وينقذه ، ضربوه ، وحاول سعيد منعهم من الضرب ، فلم يتمتعوا ، وأغمي على الرجل وابنه من شدة الضرب ، وجاء بنو أسد للأخذ بثأر أبنائهم ، وكادت الحرب تقع بين الفريقين ، ولكنَّ سعيداً تمكّن من إصلاح الأمر^(١) ، ولما علم عثمان بالحادثة ؛ طلب من سعيد بن العاص أن يعالج الموضوع بحكمة ، وأن يضيق على الفتنة ما استطاع .

ذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم ، وصاروا ينشرون الإشاعات ، ويدّعون الافتراءات والأكاذيب ضدَّ سعيد ، ضدَّ عثمان ، ضدَّ أهل الكوفة ، ووجوهاً ، فاستاء أهل الكوفة منهم ، وطلبو من سعيد أن يعاقبهم ، فقال لهم سعيد : إنَّ عثمان قد نهاني عن ذلك ، فإذا أردتم ذلك ؛ فأخبروه ، وكتب أشراف أهل الكوفة ، وصلحاوْه إلى عثمان بشأن هؤلاء التَّفَرَ ، وطلبو منه إخراجهم من الكوفة ، ونفيهم عنها ، فهم مفسدون مخربون فيها ، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة ، و كانوا بسبعة عشر رجلاً ، وأرسلهم سعيد إلى معاوية في الشَّام بأمر عثمان ، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء ، فقال له : إنَّ أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة ، فرُغبُهم ، وأجحفُهم ، وأدبهم ، وأقم عليهم ، فإن آنست منهم رشدًا ، فاقبل منهم^(٢) . ومن الذين تمَّ نفيهم إلى الشام ، الأشتر التَّنخعيُّ ، وجندب الأَزديُّ ، وصعصعة بن صوحان ، وكميل بن زياد ، وعمير بن ضابئ ، وابن الكوَاء^(٣) .

رابعاً : أهل الفتنة منفيون عند معاوية :

لما قدموا على معاوية رَحِبَ بهم ، وأنزلهم كنيسةً تسمى مريم ، وأجرى عليهم بأمر عثمان

(١) تاريخ الطّبرى (٣٢٣/٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٣٢٤/٥) .

(٣) الخلفاء الرَّاشدون ، ص (١٣١) .

ما كان يُجرى عليهم بالعراق ، وجعل لا يزال يتغذى ، ويتعشى معهم . فقال لهم يوماً : إنكم قوم من العرب لكم أسنان ، وألسنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً ، وغلبتم الأمم ، وحويتم مراتبهم ، ومواريثهم ، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً ، وإن قريشاً لو لم تكن ؛ لعدتم أذلةً كما كنتم^(١) .

كان عثمان رضي الله عنه يدرك : أنَّ معاوية للمعضلة ، فله من فصاحته ، وبلاعته ، وله من حلمه ، وصبره ، وله من ذكائه ، ودهائه ما يواجه به الفتنة ، ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتَّى يرسلها لابن أبي سفيان كي يحلُّها ، وفعلاً بذل معاوية رضي الله عنه ما بوسعه من أجل إقناع هؤلاء النَّفَر : أكرمهم أولاً ، وخالفتهم ، وجالسهم ، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما تُقلَّ عنهم ، وبعد أن أزال الوحشة عنهم ، وأزال الكلفة بينه وبينهم ، لاحظ أنَّ النَّورة القبلية هي التي تحركهم ، وأنَّ شهوة الحكم والسلطة هي التي تشيرهم ، فكان لا بدَّ أن يلتج عليهم من زاويتين اثنتين :

الأولى : أثر الإسلام في عزة العرب .

الثانية : دور قريش في نشر الإسلام ، وتحمُّل أعبائه .

فإن كان للإسلام أثرٌ في تكوينهم ، فلا بدَّ أن يرعوا لهذا الحديث ، بعد هذا وضع أمامهم صورةً لوضع العرب ، وقد انقلبوا بالإسلام أمَّةً واحدةً تخضع لإمامٍ واحدٍ ، وودعوا حياة الفوضى ، وسفك الدماء ، والقبلية المتننة^(٢) .

وبتابع معاوية حديثه معهم ، فيقول : إنَّ أئمَّتكم لكم إلى اليوم جنة^(٣) فلا تشذوا عن جنتكم ، وإنَّ أئمَّتكم اليوم يصبرون لكم على الجبور ، ويحتملون منكم المؤونة ، والله لتنتهنَ أو ليتليكم الله بمن يسومكم ، ثمَّ لا يحمدكم على الصَّبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتكم على الرَّعية في حياتكم ، وبعد موتكم ، فقال رجل من القوم : أمَّا ما ذكرت من قريش ، فإنَّها لم تكن أكثر العرب ، ولا أمنعها في الجاهلية ، فتخوفنا ، وأما ما ذكرت من الجنة ، فإنَّ الجنة إذا اخترت خلص إلينا . فقال معاوية : عرفتكم الآن ، علمت : أنَّ الذي أغراكم على هذا قلة العقول ، وأنت خطيب القوم ، ولا أرى لك عقلاً . أعظمْ عليك أمر الإسلام ، وأذْكُرْ به ، وتذَكَّرْني الجاهلية ؟ وقد عظمتك وتزعم لما يُجتَنِّك : آنَّه يخترق ، ولا ينسب ما يخترق إلى الجنة ، أخزى الله أقواماً أعظموا أمركم ، ورفعوا إلى خليفتكم^(٤) .

(١) تاريخ الطبرى (٣٢٤ / ٥) .

(٢) معاوية بن أبي سفيان ، لمثير الغضبان ، ص (١٠١) .

(٣) جنة : وقاية .

(٤) تاريخ الطبرى (٣٢٤ / ٥) .

وُعِرَفَ معاوِيَةً أَنَّ الإِشَارَةَ الْعَابِرَةَ لِنَتَعْنِيهِمْ ، لَا بَدَّ مِنْ شَرِحٍ مُسَهِّبٍ لِوَاقِعِ قُرْيَاشٍ أَوْلَأً ، فَقَالَ : افْهَمُوهَا - وَلَا أَظْنُكُمْ تَفَهُّمُونَ - أَنَّ قَرِيشًا لَمْ تَعْزَّ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا فِي إِسْلَامٍ إِلَّا بِاللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ ؛ لَمْ تَكُنْ أَكْثَرُ الْعَرَبِ ، وَلَا أَشَدُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَكْرَمُهُمْ أَحْسَابًا ، وَأَمْحَضُهُمْ أَنْسَابًا ، وَأَعْظَمُهُمْ أَخْطَارًا ، وَأَكْمَلُهُمْ مَرْوَةً ، وَلَمْ يَمْتَنِعُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالنَّاسُ يَأْكُلُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا ، إِلَّا بِاللَّهِ الَّذِي لَا يُسْتَدِلُّ مَنْ أَعْزَّ ، وَلَا يَوْضُعُ مَنْ رَفَعَ ، هُلْ تَعْرَفُونَ عَرَبًا ، أَوْ عَجَمًا ، أَوْ سُودًا ، أَوْ حَمْرًا إِلَّا قَدْ أَصَابَهُ الدَّهَرُ فِي بَلْدَهُ ، وَحَرَمَتْهُ بَدْلَةً ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ قَرِيشٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَرِدُهُمْ أَحَدٌ بَكِيدٌ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ خَدْهُ الْأَسْفَلَ ، حَتَّى أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْقَذَ مِنْ أَكْرَمِ ، وَأَتَّبَعَ دِينَهُ مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا ، وَسُوءِ مَرْدَ الْآخِرَةِ ، فَارْتَضَى لِذَلِكَ خَيْرَ خَلْقِهِ ، ثُمَّ ارْتَضَى لَهُ أَصْحَابًا ، فَكَانَ خَيْرُهُمْ قَرِيشًا ، ثُمَّ بَنَى هَذَا الْمَلْكُ عَلَيْهِمْ ، وَجَعَلَ هَذِهِ الْخَلَافَةَ فِيهِمْ ، وَلَا يَصْلَحُ ذَلِكُ إِلَّا عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ اللَّهُ يَحْوِطُهُمْ وَهُمْ عَلَى دِينِهِ ، وَقَدْ حَاطَهُمُ اللَّهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا يَدِينُونَكُمْ . أَفَ لَكُمْ وَلَا أَصْحَابُكُمْ ! وَلَوْ أَنْ مَتَكَلِّمًا غَيْرَكُمْ تَكَلَّمَ ، وَلَكِنَّكُمْ أَبْتَدَأْتُمْ ، فَأَمَّا أَنْتُ يَا صَعْصَعَةً فَإِنَّ قَرِيشَكُمْ شَرُّ قَرِيشٍ عَرَبِيَّةً ، أَنْتُنَّهَا نَبِتًا ، وَأَعْمَقُهَا وَادِيًّا ، وَأَعْرَفُهَا بِالشَّرِّ ، وَأَلْأَمُهَا جَبِرَانًا ، لَمْ يَسْكُنْهَا شَرِيفٌ قَطُّ ، وَلَا وَضِيعٌ إِلَّا سُبَّ بَهَا ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ هُجْنَةً ، ثُمَّ كَانُوا أَقْبَحُ الْعَرَبِ أَلْقَابًا ، وَأَلْأَمَهُ أَصْهَارًا نَزَاعًا^(١) الْأَمْمَ ، وَأَنْتُمْ جَيْرَانُ الْخَطَّ ، وَفَعْلَةُ فَارَسٍ ، حَتَّى أَصْبَاتُكُمْ دُعَوَةَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَنَكْبَتُكُمْ دُعَوَتِهِ ، وَأَنْتُ نَزِيعُ شَطِيرٍ^(٢) فِي عُمَانَ ، لَمْ تَسْكُنْ الْبَحْرَيْنِ ، فَشَرَكُوهُمْ فِي دُعَوَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَأَنْتُ شَرُّ قَوْمٍ ، حَتَّى إِذَا أَبْرَزْتُ الْإِسْلَامَ ، وَخَلَطْتُكُمْ بِالنَّاسِ ، وَحَمَلْتُكُمْ عَلَى الْأَمْمِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْكُمْ ؟ أَقْبَلْتُ تَبْغِي دِينَ اللَّهِ عَوْجًا ، وَتَنْزَعُ إِلَى الْلَّاْمَةِ وَالْذَّلَّةِ ، وَلَا يَضُعُ ذَلِكَ قَرِيشًا ، وَلَنْ يَضُرَّهُمْ ، وَلَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ تَأْدِيَةِ مَا عَلَيْهِمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ عَنْكُمْ غَيْرَ غَافِلٍ ، قَدْ عَرَفْتُكُمْ بِالشَّرِّ مِنْ بَيْنِ أَمْتَكُمْ ، فَأَغْرَى بَكُمُ النَّاسَ ، وَهُوَ صَارِعُكُمْ ، لَقَدْ عَلِمْتُ : أَنَّهُ لَا يَسْتَطِعُ أَنْ يَرَدَّ بَكُمْ قَضَاءَ اللَّهِ ، وَلَا أَمْرًا أَرَادَهُ اللَّهُ ، وَلَا تَدْرُكُونَ بِالشَّرِّ أَمْرًا إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شَرًّا مِنْهُ ، وَأَخْزِيَ ، ثُمَّ قَامَ وَتَرَكُوهُمْ ، فَتَذَمَّرُوا ، فَتَقَاصَرُتُ إِلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ^(٣) .

وبذلك بذل معاوية كل طاقاته الفكرية ، والثقافية والسياسية لإقناعهم :

- عرض لهم أولاًً أمراً قريش في الجاهلية ، والإسلام .

(١) التزاع : جمع نزيع وهو الغريب .

(٢) الشّطير : الغريب .

(٣) تاريخ الطّبرى (٣٢٦/٥).

-تناول معاوية رضي الله عنه صعصعة بن صوحان خطيب القوم ، وكيف تلّكًا عن تلبية نداء الرسالة ، وقد دخل قومه بها ، ثمَّ عاد وانضمَّ إلى الإسلام ، ورفعه الإسلام ثانيةً بعد انحدارِ .

- كشف معاوية رضي الله عنه مخطّطات صعصعة ، وأصحابه ، وكيف يبغون الفتنة ، ويعيرون دين الله عوجاً .

وإنَّ الشَّيْطَانُ هوَ وَكَرُّ هَذِهِ الْفَتْنَةِ ، وَمُحرِّكُ هَذَا الشَّرِّ ، وَبِذَلِكَ رِبْطٌ تَارِيخِ الْأَمَّةِ بِاللهِ ، ثُمَّ بِالإِسْلَامِ ، وَالْعِقِيدَةِ ، ثُمَّ كَشْفٌ عَنْ زِيفِ هُؤُلَاءِ التَّفَرِّقِ ، وَفَضْحُهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ ، وَأَبَانُ عَنْ مُخْطَطَاهُمْ ، وَصَلَّتْهَا بِدُعَوِيِّ الْجَاهِلِيَّةِ^(١) .

- جلسة أخرى :

ثُمَّ أَتَاهُمُ الْقَابِلَةَ فَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ طَوِيلًا ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا الْقَوْمُ ! رُدُّوا عَلَيْيَ خَيْرًا ، أَوْ اسْكُنُوكُمْ ، وَتَفَكَّرُوكُمْ ، وَانظُرُوكُمْ فِيمَا يَنْفَعُوكُمْ ، وَيَنْفَعُ أَهْلِكُمْ ، وَيَنْفَعُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ ، فَاطْلُبُوهُ ؛ تَعِيشُوا ، وَنَعْشُ بِكُمْ .

قال صعصعة : لست بأهلي لذلك ، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله . فقال معاوية : أوليس ما ابتدأتم به أن أمرتكم بتقوى الله ، وطاعته ، وطاعة نبيه ﷺ ، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ، ولا تفرقوا ؟ قالوا : بل أمرت بالفرقة ، وخلاف ما جاء به النبي ﷺ ! قال : إني أمركم الآن ، إن كنت فعلت فأتوب إلى الله ، وأمركم بتقواه ، وطاعته ، وطاعة نبيه ﷺ ، ولزوم الجماعة ، وكراهة الفرقة ، وأن توقرروا أنتم ، وتذلّلوهم على كل حسن ما قدرتم ، وتعظوهم في لين ، ولطفٍ في شيء إن كان منهم . قال صعصعة : فإننا نأمرك أن تعتزل عملك فإنَّ من المسلمين من هو أحلى به منك . قال معاوية : من هو ؟ قالوا : من كان أبوه أحسن قدماً من أبيك ، وهو بنفسه أحسن قدماً منك في الإسلام . قال معاوية : والله إن لي في الإسلام قدماً ، ولغيري كان أحسن قدماً مني ، ولكنه ليس في زمانٍ أحد أقوى على ما أنا فيه مني ، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب ، فلو كان غيري أقوى مني ؟ لم يكن لي عند عمر هوادة ، ولا لغيري ، ولم أحدث من الحديث ما ينبغي لي أن أعتزل عملي ، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين ؛ لكتب بخط يده ، فاعتزلت عمله ، ولو قضى الله أن يفعل ذلك ؛ لرجوت أن لا يعزم له على ذلك إلا هو خير . فمهلاً فإنَّ في ذلك وأشباهه ما يتمنى الشيطان ، ويأمر ، ولعمري لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم ، وأمانِيكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلةً ، ولكنَّ الله يقضيها ، ويدبرها وهو بالغ أمره ، فعاودوا الخير ، وقولوه . قالوا : لست

(١) معاوية بن أبي سفيان ، للغضبان ، ص(١١١).

لذلك أهلاً . قال معاوية : أما والله إنَّ الله سطواتِ ، ونقماتِ ، وإنِّي لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاولة الشَّيْطَان حتَّى تُحلَّكم مطاولة الشَّيْطَان ، ومعصية الرَّحْمَن دار الهوان من نقم الله في عاجل الأمر ، والخزي الدائم في الآجل ، فوثبوا عليه ، فأخذوا بلحيته ، ورأسه ، فقال : مه ! إن هذه ليست بأرض الكوفة ، والله لو رأى أهل الشَّام ما صنعتم بي وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهام عنكم حتَّى يقتلوكم ؟ فلعمري إنَّ صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً ! ثم قام من عندهم ، فقال : والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت^(١) .

هذه المحاولة الأخيرة التي بذل فيها معاوية أمير الشَّام كلَّ جهده ، واستعمل حلمه ، وثقافته ، وأعصابه كي يثنينهم عن الفتنة ، إنَّه يدعوهم إلى تقوى الله ، وطاعته ، والاستمساك بالجماعة ، والابتعاد عن الفرقة ، وإذ بهم يرثون عقيرتهم قائلين : ليس لك أن تطاع في معصية الله^(٢) . وبحمله الكبير ، وصدره الواسع عاد ، فذَكَرُهُمْ بأنَّه لا يأمرهم إلا بطاعة الله ، وعلى حد زعمهم ، فهو يتوب من المعصية ؛ إن وقعت ، ثمَّ يعود لدعوتهم إلى الطاعة ، والجماعة ، والابتعاد عن تفرق كلمة الأمة ، ولو كان الوعظ يجدي معهم ؛ لأمكن أن تتأثر قلوبهم لهذه المعاملة ، وهذا اللطف ، وهذا الحلم ، لكنَّهم اعتبروا ذلك ضعفاً ، وتهاوناً منه ، خاصة وهو يوجّهم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهدئ في العضة ، واللَّيْن في النَّصْح ، فوجدوا المجال رحباً أن يكشفوا عن مكثون قلوبهم . فقالوا : فإنَّا نأمرك أن تعزل عملك ، فإنَّ في المسلمين من هو أحقُّ به منك ، وانتبه معاوية انتباهاً مفاجأةً إلى ما يكتُنون ، فأحَبَّ أن يتعرف جانباً غامضاً عليه ، لعلَّ في هذا التعرُّف ما يوصله إلى من يحرّكهم ، وبيَّنَ في ذهنهم الأراجيف المغرضة ، ولكنَّهم أخفوا ما يكتُنون ، واكتفوا بالإشارة إلى أنَّهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه ، ولمن أبوه أفضل من أبيه ، ثمَّ تحمل عليهم أكثر فأكثر ، رغم الأسلوب الفتح الذي سلكوه معه ، وهم يأمرونه بأن يعزل العمل . وهنا نجد لمعاوية جواباً مستفيضاً عن وجهة نظره في الحكم ، والإمارة ، والقيادة ، وقد لاحَصَ معاوية إجابته في سَتَّ نقاط أساسية ومهمة :

١ - هي أنَّ له قدماً ، وسابقة في الإسلام ، فهو حامي ثغر الشَّام منذ وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما .

٢ - أنَّ هناك في المسلمين من هو أفضل منه ، وأكرم ، وأحسن سابقةً ، وأكثر بلاءً ، وهو يرى أنَّه أقوى من يحمي هذا الثغر الإسلامي العظيم - الشَّام - فمنذ أن تولاه تمكَّن مِنْ ضبطه ، وسياسته ، وفهم نفسيات أهله حتَّى أحبوه .

(١) تاريخ الطَّبرِي (٥ / ٣٣٠ ، ٣٣١) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٥ / ٣٣٠) .

٣- إنَّ الميزان الحساس ، والمعيار الدقيق الذي يقيِّم الولاة هو عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، فلو وجد من معاوية شططاً ، أو انحرافاً ، أو ضعفاً ؛ لعزله ، ولما أبقي عليه يوماً واحداً ، فقد عمل له طيلة خلافته ، كما وله من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله ، واستخدمه كاتباً بين يديه ، وولاه أبو بكر الصدِّيق من بعده ، ولم يطعن في كفاءته أحدٌ .

٤- إنَّ اعتزال العمل يجب أن يستند لأسبابٍ موجبة للاعتزال ، فما هي الحجَّة التي يقدِّمها دعاة الفتنة ؟ ليتمَّ الاعتزال على أساسها ؟

٥- إنَّ الذي يقرُّ العزل عن العمل ، أو البقاء في الإمارة ليس هؤلاء الأدعية ، إنَّ ذلك من حق أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وهو الذي له الحقُّ في تعين الولاة ، وعزلهم .

٦- إنَّ أمير المؤمنين عثمان يوم يقرُّ عزل معاوية ، فهو واثقٌ ، أنَّ أمره خيرٌ كُلُّه ، ولا غضاضة في ذلك ، فهو أميرٌ مأمورٌ ، وهو أمر خليفة المسلمين^(١) .

كان ختام الجلسة مؤسفاً أشدَّ الأسف ، مؤلماً أشدَّ الألم ، لقد حذَّرهم نعمة الله ، وغضبه ، وحذَّرهم مهافي الشَّيطان ، ومتزلقاته ، وحذَّرهم فرقة الكلمة ، ومعصية الإمام وحذَّرهم الانقياد إلى أهوائهم ، وغروورهم ، فماذا كان منهم مقابل ذلك ؟ وثبوا عليه ، وأخذوا برأسه ولحيته ، وعندئِل زجرهم ، وقمعهم ، ووجه لهم كلاماً قاسياً مبطناً بالتهديد ، وعرف : أنَّ هؤلاء يستحيل أن ينصاعوا للحقُّ ، فلا بدَّ من إبلاغ أمرهم لأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وكشف هوبياتهم ، وخطرهم ، ليرى فيهم أمير المؤمنين رأياً آخر^(٢) .

كتاب معاوية إلى عثمان رضي الله عنهمَا بشأن أهل الفتنة من الكوفة :

كتب معاوية إلى عثمان رضي الله عنهمَا قائلاً : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإنك بعثت إلى أقواماً يتتكلمون بألسنة الشياطين وما يُعلمون عليهم ، ويأتون الناس - زعموا - من قبل القرآن فيشبهون على الناس ، وليس كل الناس يعلم ما يريدون ، وإنما يريدون فرقة ، ويقربون فتنة ، قد أثقلهم الإسلام وأنجرهم ، وتمكنـت رُقـى الشـيطـان من قلوبـهم ، فقد أفسـدوا كثـيراً من النـاسـ مـنـ كانواـ بينـ ظـهـارـيـهمـ منـ أـهـلـ الـكـوـفـةـ ، ولـستـ آـمـنـ إـنـ أـقـامـواـ وـسـطـ أـهـلـ الشـامـ أـنـ يـغـرـوـهـمـ بـسـحـرـهـمـ وـفـجـورـهـمـ فـارـدـهـمـ إـلـىـ مـصـرـهـمـ ، فـلتـكـنـ دـارـهـمـ فـيـ مـصـرـهـمـ الـذـيـ نـجـمـ فـيـ نـفـاقـهـمـ^(٣) .

(١) معاوية بن أبي سفيان ، صاحبٌ كبيرٌ ، وملكٌ مجاهدٌ ، ص(١١٤ إلى ١١٧) .

(٢) معاوية بن أبي سفيان ، للغضبان ، ص(١١٧ ، ١١٨) .

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣١) .

خامساً : رجوع أهل الفتنة إلى الكوفة ثم نفيهم إلى الجزيرة :

كتب عثمان إلى سعيد بن العاص بالكوفة ، فرَدُّهُم إليه ، فلم يكونوا إلا أطلقوا السنة منهم حين رجعوا ، وكتب سعيد إلى عثمان يصْبِحُ منهم ، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان أميراً على حمص^(١) ، فلما وصلوا إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، استدعاهم ، وكلَّمُهم كلاماً شديداً ، وكان مما قاله لهم : يا آلة الشيطان ! لا مرحاً بكم ، ولا أهلاً ! لقدر رجع الشَّيْطَان محسوراً خائباً ، وأنتم ما زلتُم نشيطين في الباطل ! خسَّرَ الله عبد الرحمن إن لم يؤذبكم ، ويُخزِّنكم ! يا معاشر من لا أدرى من أنتم ! أعرَبُ ، أم عجمُ ؟ لن تقولوا لي كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية ، أنا ابن خالد بن الوليد ، أنا ابن من قد عجمْته العاجمات ، أنا ابنُ فاقِي الرَّدَّة ، والله لأذلنكم ! وأقامهم عبد الرحمن بن خالد عنده شهراً كاملاً ، وعاملهم بمتنه الحزم ، والشدة ، ولم يلين معهم كما لان سعيد ، ومعاوية ، وكان إذا مشى مشوا معه ، وإذا ركب ركبوا معه ، وإذا غزا غزوا معه ، وكان لا يدع مناسبة إلا وينزلُهم فيها ، وكان إذا قابل زعيماً (صعصعة بن صوحان) يقول له : يا بن الخطيبة ! هل تعلم أنَّ من لم يصلحه الخير أصلحه الشَّرُّ ، وأنَّ من لم يصلحه اللَّيْن أصلحْتَه الشَّدَّة ؟ وكان يقول لهم : لماذا لا تردون عليَّ ، كما كنتم تردون على سعيد في الكوفة ، وعلى معاوية بالشَّام ؟ لماذا لا تخطابوني ، كما كنتم تخطابونهما ؟

ونفع معهم أسلوب عبد الرحمن بن خالد ، وأخرسهم حزمه ، وشدَّته ، وقوته ، وأظهر واله التَّوْبَة ، والتَّدَم . وقالوا له : نتوب إلى الله ، ونسْتغفِرُه ، أَقْلَنَا أقالك الله ! وسامحنا سامحك الله ! بقي القوم في الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد ، وأرسل عبد الرحمن أحد زعمائهم وهو الأشتَر التَّخْعِي إلى عثمان ليخبره بتوبتهم ، وصلاحهم ، وتراجعهم عمَّا كانوا عليه من الفتنة ، فقال عثمان للأشتَر : احلُّ أنت ومن معك حيث شئت ، فقد عفت عنكم . قال الأشتَر : نريد أن نقى عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وذكر من فضل عبد الرحمن ، وحزمه ، فأقاموا عند عبد الرحمن في الجزيرة مدةً ، أظهروا فيها التَّوْبَة ، والاستقامة ، والصَّلاح^(٢) ، وسكت أصحاب الفتنة في الكوفة إلى حين ، وكان هذا في شهور سنة ثلاثة وثلاثين ، بعدما تمَّ نفي رؤوس الفتنة إلى معاوية في الشَّام ، ثمَّ إلى عبد الرحمن بن خالد ، فرأى أصحاب الفتنة في الكوفة أنَّ المصلحة تقتضي أن يسكنوا إلى حين^(٣) .

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) تاريخ الطَّبَري (٣٢٧/٥) .

(٣) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص (١٣٤) .

١- أهل الفتنة بالبصرة يفترون على أشجع عبد القيس :

أمّا أهل الفتنة بالبصرة بزعامة حكيم بن جبلا ، فقد كانوا ضدّ أهل الفضل فيها ، وتأمروا ، وكذبوا عليهم ، وكان من أفضل ، وأتقى أهل البصرة (أشجع عبد القيس) واسمه عامر بن عبد القيس ، وكان زعيماً لقومه ، وقد وفد على رسول الله ﷺ ، وتعلم منه ، ومدحه رسول الله ﷺ بقوله : «إِنَّ فِيكُ خَصْلَتِينِ يَحْبُّهُمَا اللَّهُ ، وَرَسُولُهُ : الْحَلْمُ ، وَالْأَنَاءُ»^(١) . وكان عامر بن عبد القيس من قادة الجهاد في القادسية ، وغيرها ، وكان مقيناً في البصرة ، وكان على قسط كبير من الصلاح ، والتقوى ، فكذب الخارجون عليه ، واتهموه بالباطل ، فسيّره عثمان إلى معاوية بالشام ، ولما كلمه معاوية رضي الله عنه ، وعامله ، عرف براءته ، وصدقه ، وكذب بالخوارج ، وافتراهم عليه ، وكان الذي تولى الكذب على عامر ابن عبد القيس هو (حرمان بن أبيان) وهو رجل عاصي بدون دين ، حيث تزوج امرأة في أثناء عذّتها ! ولما علم عثمان بذلك ؛ فرق بينهما ، وضربه ، ونكل به لمعصيته ، ونفاه إلى البصرة ، وهناك التقى مع زعيم السّبئيين فيها ، اللّص حكيم ابن جبلا^(٢) .

٢- ابن سبا يحدّد سنة أربع وثلاثين للهجرة للتحرّك :

وفي سنة أربع وثلاثين - السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان - أحكم عبد الله بن سبا اليهودي خطّه ، ورسم مؤامراته ، ورتب مع جماعته السّبئيين الخروج على الخليفة ، وولاته ، فقد اتّصل ابن سبا اليهودي من وكر مؤامراته في مصر بالشّياطين من حزبه في البصرة ، والковفة ، والمدينة ، واتفق معهم على تفاصيل الخروج ، وكاتبهم ، وكاتبوه ، وراسلهم ، وراسلوه ، وكان ممّن كاتبهم ، وراسلهم السّبئيون في الكوفة ، وقد كانوا بسبعة عشر رجلاً منهم منفيين في الشّام ، ثمّ في الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وبعد نفي أولئك الخارجين ، كان زعيم السّبئيين الحاذدين في الكوفة يزيد بن قيس^(٣) ، وقد خلت الكوفة في سنة أربع وثلاثين من وجودها ، وأشرفها ؛ لأنّهم توجّهوا للجهاد في سبيل الله ، ولم يبق إلا الرّعاع ، والغوغاء ، الذين أثّر فيهم السّبئيون والمنحرفون ، وشحّنوه بأفكارهم الخبيثة ، وهيّجوهم ضدّ والي عثمان على الكوفة سعيد بن العاص رضي الله عنه^(٤) .

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، رقم (٢٥) . وقال التّوّوي في شرحه : أمّا الحلم ، فهو العقل ، وأمّا الأناء فهي الشّئت ، وترك العجلة .

(٢) تاريخ الطّبرى (٥/٣٣٣ ، ٣٣٤) .

(٣) الخلفاء الرّاشدون ، للخالدي ، ص (١٣٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

٣- أوضاع أهل الكوفة عند تحرُّك أهل الفتنة :

قال الطَّبرِيُّ عن أوضاع الكوفة سنة أربع وثلاثين : وفد سعيد بن العاص إلى عثمان في سنة إحدى عشرة من إمارة عثمان ، وقد بعث سعيد قبل خروجه الأشعث ابن قيس إلى أذربيجان ، وسعيد بن قيس إلى الرَّيِّ ، والشَّير العجلاني إلى همدان ، والشَّائب بن الأقرع إلى أصبهان ، ومالك بن حبيب إلى ماه ، وحكيم بن سلامة إلى الموصل ، وجرير بن عبد الله إلى قرقسيا ، وسلمان بن ربيعة إلى الباب ، وعُتيبة بن النَّهاس إلى حلوان ، وجعل على الحرب القعقاع بن عمرو التَّميميَّ ، وكان نائبه بعد خروجه عمرو بن حُريث ، وبذلك خلت الكوفة من الوجوه والرؤساء ، ولم يبق فيها إلا متزوع ، أو مفتون^(١) ، وفي هذا الجو خرج زعيم السَّبئيين في الكوفة (يزيد بن قيس) بعد اتفاق مع شيطانه ابن سباء في مصر ، وخرج معه أهل الفتنة الذين انضموا إلى جمعية ابن سباء السُّرية ، والغوغاء الذين تأثروا بها^(٢) .

٤- القعقاع بن عمرو التَّميميُّ يقضي على التَّحرُّك الأول :

خرج يزيد بن قيس في الكوفة ، وهو يريد خلع عثمان ، فدخل المسجد ، وجلس فيه ، وتجمَّع عليه في المسجد السَّبئيون ، الذين كان ابن السُّوداء يكاتبهم من مصر ، ولما تجمع الخارجون في المسجد ، علم بأمرهم القعقاع بن عمرو أمير الحرب ، فألقى القبض عليهم ، وأخذ زعيمهم يزيد بن قيس معه ، ولما رأى يزيد شدة القعقاع ، وبقيظته ، وبصيرته ؛ لم يجاهر بهدفهم ، وخطتهم في الخروج على الخليفة عثمان ، وخلعه ، وأظهر له أنَّ كل ما يريد هو وجماعته عزل الوالي سعيد ابن العاص ، والمطالبة بواли آخر مكانه ، فاستجيب لطلبه ، ولذلك أطلق القعقاع سراح الجماعة ؛ لما سمع كلام يزيد ، ثم قال ليزيد : لا تجلس لهذا الهدف في المسجد ، ولا يجتمع عليك أحد ، واجلس في بيتك ، واطلب ما تريد من الخليفة ، وسيتحقق لك ذلك^(٣) .

٥- يزيد بن قيس يكاتب أهل الفتنة عند عبد الرحمن بن خالد :

جلس يزيد بن قيس في بيته ، واضطُرَّ إلى تعديل خطته في الخروج ، والفتنة ، واستأجر هذا السَّبئيَّ (يزيد بن قيس) رجلاً ، وأعطاه دراهم ، وبغلاً ، وأمره أن يذهب بسرعة ، وكتماناً إلى السَّبئيين من أهل الكوفة الذين نفاهم عثمان بن عفان إلى الشَّام ، ثم إلى الجزيرة ، وهم

(١) تاريخ الطَّبرِيٍّ (٥/٣٣٧).

(٢) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص (١٣٦).

(٣) تاريخ الطَّبرِيٍّ (٥/٣٣٧).

مقيمون عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد هناك ، وقد أظهروا له التّورّة ، والثّندم ، وقال يزيد لإخوانه الشّياطين في كتابه : إذا وصلكم كتابي هذا فلا تضعوه من أيديكم ، حتى تأتوا إليّ ، فقد راسلنا إخواننا في مصر - وهم السَّبئيون هناك - واتفقنا معهم على الخروج ، ولما قرأ الأشتر كتاب يزيد خرج فوراً للكوفة ، ولحق به ، وإخوانه الخارجون ، وفقدتهم عبد الرحمن بن خالد ، فلم يجدتهم ، فأرسل جماعةً في طلبهم ، فلم يدركوهم ، واتّصل يزيد بن قيس بجماعته مرهّة ثانية ، واتّصل جماعته بالرّعاع ، والغوغاء في الكوفة ، وتجمّعوا في المسجد ، ودخل عليهم الأشتر التّخعي في المسجد ، وعمل على إثارتهم ، وتهييجهم ، ودفعهم للثّورة ، والخروج ، وكان مما قال لهم : لقد جئتكم من عند الخليفة عثمان ، وتركتم واليكم سعيد بن العاص عنده ، وقد اتفق عثمان ، وسعيد على إنفاس عطائكم ، وخفض أموالكم من مئتي درهم إلى مئة درهم ، وقد كذب الأشتر فيما قال ، ولم يتحدّث عثمان ، وسعيد بذلك ، ولكنّه كيد السَّبئيين في نشر الأكاذيب ، والافتراضات لتهييج العامة ، واستخفّ الأشتر بكلامه الناس في المسجد ، وأثر في الرّعاع ، والغوغاء ، وهيّجهم ، وكانت ضجة كبيرة في المسجد ، وصار يكلّمه علاء المسلمين من وجوههم ، وأشارفهم ، وصالحهم ، وأتقينهم ، كأبي موسى الأشعريّ ، وعبد الله بن مسعود ، والقعّاع بن عمرو ، فلم يسمع لهم ، ولم يستجب لهم^(١).

وصاح يزيد بن قيس في الغوغاء ، والرّعاع داخل المسجد وخارج ، وقال : إنّي خارج إلى طرق المدينة ، لأمنع سعيد بن العاص من دخول الكوفة ، ومن شاء أن يخرج معي لمنع سعيد من الدُّخول ، والمطالبة بواли مكانه ؛ فليفعل . فاستجاب لنداءه السَّبئيون والرّعاع ، وخرج معه حوالي ألف منهم^(٢).

٦- القعّاع بن عمرو يرى قتل قادة أهل الفتنة :

لما خرج السَّبئيون ، والغوغاء طلباً للفتنة ، والتمرد ، وإحداث القلاقل ، بقي في المسجد وجوه المسلمين ، وأشارفهم ، وحملواهم ، فصعد المنبر نائب الوالي عمرو بن حريث ، وطالب المسلمين بالأخوة ، والوحدة ، ونهاهم عن التّفرق ، والاختلاف ، والفتنة ، والخروج ، ودعاهم إلى عدم الاستجابة للخارجين ، والمتمرّدين^(٣) ، قال القعّاع بن عمرو : أتَرْدُ السَّيْل عن عبابه ، فاردد الفرات عن أدراجه ، هيهات ! لا والله لا تُسْكِن الغوغاء إلا

(١) تاريخ الطّبرى (٥/٣٣٨). والخلفاء الرّاشدون ، للخالدى ، ص(١٣٨).

(٢) المصدر السابق نفسه (٥/٣٣٨).

(٣) الخلفاء الرّاشدون ، للخالدى ، ص(١٣٩).

المشرفة^(١) ، ويوشك أن تُتَضَى ، ثم يَعْجُون عجيج العتدان^(٢) ، ويتمّون ما هم فيه ، فلا يرده عليهم أبداً ، فاصبر ، فقال : أصبر ، وتحول إلى منزله^(٣) .

٧- أهل الفتنة يمنعون سعيد بن العاص من دخول الكوفة :

سار يزيد بن قيس ومعه الأشتار التّنّعى بالآلف من الخارجين إلى مكان على طريق المدينة ، يسمى (الجرعة) ، وبينما كانوا معسكرين في الجرعة ، طلع عليهم سعيد بن العاص عائدًا من عند عثمان ، فقالوا له : عُد من حيث أتيت ، ولا حاجة لنا بك ، ونحن نمنعك من دخول الكوفة ، وأخبر عثمان : أَنَّا لَا نرِيدُ وَالِيَا عَلَيْنَا ، ونريد من عثمان أن يجعل أباً موسى الأشعريًّا واليًّا مكانك ، قال لهم سعيد : لماذا خرجمت أَفَالْقَوْلُوا لِي هَذَا الْكَلَامُ ؟ كان يكفيكم أن تبعثوا رجلاً إلى أمير المؤمنين بطلبكم ، وأن توقفوا لي رجلًا في الطريق ليخبرني بذلك ، وهل يخرج ألف رجلٍ لهم عقول لمواجهة رجلٍ واحدٍ^(٤) ؟

رأى سعيد بن العاص : أَنَّ من الحكمة عدم مواجهتهم ، وعدم تأجيجهم ، بل محاولة إخמדادها ، أو تأجيل اشتعالها على الأقلّ ، وهذا رأي أبي موسى الأشعريٌّ ، وعمرو بن حرث ، والقعاع بن عمرو في الكوفة^(٥) ، وعاد سعيد بن العاص إلى عثمان وأخبره خبر القوم الخارج . قال له عثمان : ماذا يريدون ؟ هل خلعوا يدًا من طاعة ؟ وهل خرجوا على الخليفة ؟ وأعلنوا عدم طاعتهم له ؟ قال له سعيد : لا ، لقد أظهروا أنَّهم لا يريدونني واليًّا عليهم ، ويريدون واليًّا آخر مكاني . قال له عثمان : من يريدون واليًّا ؟ قال سعيد بن العاص : يريدون أباً موسى الأشعريًّا . قال عثمان : قد عيَّنا ، وأتبَّتنا أباً موسى واليًّا عليهم ، ووالله لن يجعل لأحد عذرًا ، ولن نترك لأحد حجَّةً ، ولننصرنَّ عليهم كما هو مطلوب منَّا ، حتى نعرفحقيقة ما يريدون ، وكتب عثمان إلى أبي موسى بتعيينه واليًّا على الكوفة^(٦) .

و قبل وصول كتاب عثمان رضي الله عنه بتعيين أبي موسى واليًّا ، كان في مسجد الكوفة بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد حاولوا ضبط الأمور ، وتهيئة العامة ، ولكنهم لم يتمكّنوا من ذلك ؛ لأنَّ السَّبَئِيْنَ ، والحاقدِين سيطروا على الرُّعاع ، والغوغاء ، وهيَّجُوهُم ، فلم يعودوا يسمعون صوت عقلٍ ، أو منطقٍ ، وكان في مسجد الكوفة وقت التمرُّد والفتنة اثنان من

(١) نوع من السُّيُوف .

(٢) تُتَضَى : انتقضى السيف أي : أخرجه من غمده . العتود : الجدي الذي استكرش ، وقيل : الحولي من أولاد الماعز .

(٣) تاريخ الطَّبَري (٣٣٨ / ٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص (١٤٠) .

(٦) تاريخ الطَّبَري (٣٣٩ / ٥) .

أصحاب رسول الله ﷺ، هما حذيفة بن اليمان ، وأبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصاريُّ البدرئيُّ ، وكان أبو مسعود غاضباً لتمرد ، وثورة الرُّعاع ، وخروجهم إلى الجرعة ، وعزلهم الوالي سعيد ، وعصيانهم له ، وهي أول مرة تحصل ، بينما كان حذيفة بعيد النَّظر ، يتعامل مع الحدث بموضوعية ، وتفكيرٍ^(١) .

قال أبو مسعود لحذيفة : لن يعودوا من الجرعة سالمين ، وسيرسل الخليفة جيشاً لتأديبهم ، وستسفك فيها دماء كثيرة ، فرد عليه حذيفة قائلاً : والله سيعودون إلى الكوفة ، ولن يكون هناك اشتباك أو حرب ، ولن تسفك هناك دماء ، وما أعلم من هذه الفتنة اليوم شيئاً ، إلا وقد علمته من رسول الله ﷺ وهو حي ، حيث أخبرنا عن هذه الفتنة التي نراها اليوم قبل وفاته ، ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ: «أنَّ الرَّجُل يصبح على الإسلام ، ثمَّ يمسي ، وليس معه من الإسلام شيء ، ثمَّ يقاتل المسلمين ، فيرتُّدُّ ، وينكس قلبه ، ويقتله الله غداً» وسيكون هذا فيما بعد^(٢) .

لقد كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه متخصصاً في علم الفتن ، وتعامل مع فتن السَّبَّيْن في الكوفة ، وغيرها ، وفق ما سمعه ، وعلمه من رسول الله ﷺ ، واستحضر ما حفظه من تلك الأحاديث ، ففهم حقيقة ما يجري حوله ، ولم يستبعده ، ولم يستغربه ، وحاول الإصلاح ما أمكنه^(٣) .

٨- أبو موسى الأشعري يهدى الأمور ، وينهى عن العصيان :

قام أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه بتهيئة الأمور ، ونهى النَّاس عن العصيان . وقال لهم : أيها النَّاس ! لا تخرجوا في مثل هذه المخالفة ، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان ، الزموا جماعتكم ، والطَّاعة ، وإياكم والعجلة ، اصبروا ، فكأنَّكم بأمير^(٤) . فقالوا: فصلٌ بنا ، قال: لا ، إلا على السَّمْع ، والطَّاعة لعثمان بن عفَّان ، قالوا : على السَّمْع ، والطَّاعة لعثمان^(٥) .

وما كانوا صادقين في ذلك ، لكنَّهم كانوا يخفون أهدافهم الحقيقية عن الآخرين ، وكان أبو موسى يصلِّي بالنَّاس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه واليَا على الكوفة ، ولما هدأت الأمور في الكوفة إلى حين ، في سنة أربع وثلاثين ؛ عاد حذيفة بن اليمان إلى أذربيجان والباب يقود جيوش الجهاد هناك ، وعاد العمال ، والولاة إلى أعمالهم في مناطق فارس^(٦) .

(١) الخلفاء الرَّاشدون ، ص(١٤١) .

(٢) تاريخ الطَّبرى (٥/ ٣٤٢) .

(٣) حذيفة بن اليمان ، لإبراهيم العلي ، ص(٨٦) . والخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٤١) .

(٤) أي : يأتيكم من قبل أمير المؤمنين عثمان .

(٥) تاريخ الطَّبرى (٥/ ٣٣٩) .

(٦) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٤٢) .

٩- كتاب عثمان إلى الخارجين في الكوفة :

كتب عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكوفة كتاباً ، يبيّنُ فيه الحكمة من استجابته لطلبهم في عزل سعيد ، وتعيين أبي موسى بدلـه ، وهي رسالة ذات دلالات هامة ، وتبيّن طريقة عثمان في مواجهة هذه الفتـن ، ومحاولـته تأجـيل اشتعالـها ما استطاع ، مع علمـه اليقينـي : أنها قادمة ، وأنـه عاجـز عن مواجهتها ، فهـذا ما عـلمـه من رسول الله ﷺ . قال لهم عـثمان في رسـالته : أمـا بعد : فقد أـمـرـتـكمـ منـ اختـرتـمـ ، وأـعـفـيـتـكـمـ منـ سـعـيدـ ، وـاللهـ لـأـفـرـشـنـ لـكـمـ عـرـضـيـ ، وـلـأـبـذـلـنـ لـكـمـ صـبـرـيـ ، وـلـأـسـتـصـلـحـنـكـمـ بـجـهـدـيـ ، وـاسـأـلـونـيـ كـلـ ماـ أـحـبـتـمـ ، مـمـاـ لـأـيـعـصـيـ اللهـ فـيـهـ ، فـسـأـعـطـيـهـ لـكـمـ ، وـلـأـشـيـأـ كـرـهـتـمـوـهـ لـأـيـعـصـيـ اللهـ فـيـهـ إـلاـ استـعـفـيـتـمـ مـنـهـ ، أـنـزـلـ فـيـهـ عـنـ مـاـ أـحـبـتـمـ ، حـتـىـ لـأـيـكـونـ لـكـمـ عـلـيـ حـجـةـ . وـكـتـبـ بـمـثـلـ ذـلـكـ فـيـ الـأـمـصـارـ^(١) ، رـضـيـ اللهـ عـنـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ عـثمانـ ، مـاـ كـانـ أـصـلـحـهـ ! وـأـوـسـعـ صـدـرـهـ ! وـكـمـ ظـلـمـهـ السـبـئـيـونـ وـالـخـارـجـونـ الـحـاقـدـونـ ، وـكـذـبـواـ وـافـتـرـواـ عـلـيـهـ^(٢) !

* * *

(١) تاريخ الطبرى (٣٤٣/٥).

(٢) الخلفاء الرأشدون ، للخالدي ، ص(١٤٣).

المبحث الثاني

سياسة عثمان رضي الله عنه في التعامل مع الفتنة

من خلال التصوص التأريخية في العديد من المصادر يتضح : أنَّ عثمان رضي الله عنه قد واجه الفتنة بعدِ من الأُساليب ، وهي :

أولاً : رأي بعض الصَّحابة بأن يرسل عثمان لجان تفتيشٍ ، وتحقيقٍ :

اهتَرَّ محمد بن مسلمة ، وطلحة بن عبيد الله ، وغيرهما لما سمعوا من الإشاعات التي بثها عبد الله بن سبأ في الأمصار ، فدخلوا على أمير المؤمنين عثمان على عجل ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ! أياً تك عن النَّاسِ الَّذِي يأتينا ؟ قال : لا والله ! ما جاءني إلَّا السَّلَامَةَ . قالوا : فإنَّا قد أتانا ، وأخبروه بما تناهى لسمعهم عن الفتنة التي تمواج بها الأمصار الإسلامية ، وعن الهجوم الشَّرس على ولاته في كل صقع . وقال : أنتم شركائي ، وشهاد المؤمنين ؛ فأشارروا عليَّ ! قالوا : نشير عليك أن تبعث رجالاً ممَّن ثق بهم إلى الأمصار حتَّى يرجعوا إليك بخبرهم^(١) .

فقام عثمان بإجراء سديِّد عظيمٍ ، وتخيَّر نفراً من الصَّحابة ، لا يختلف اثنان في صدقهم ، وتقواهم ، وورعهم ، ونصحهم ، اختار محمد بن مسلمة الذي كان عمره يأنمه على محاسبة ولاته ، والتَّفتيش عليهم في الأقاليم ، وأسامه بن زيد حَبَّ رسول الله ﷺ ، وابن حَبَّه ، وأمير الجيش الذي أوصى النبي ﷺ بإنفاذه في آخر عهده بالدنيا ، فقال ﷺ : « أَنْفَذُوا بَعْثَ أَسَامَةَ » ، وعمَّار بن ياسر ، السَّبَّاقُ إلى الإسلام ، والمجاهد العظيم ، وعبد الله بن عمر ، التَّقِيُّ الفقيه الورع ، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامه إلى البصرة ، وعمَّاراً إلى مصر ، وابن عمر إلى الشَّام ، وكانوا على رأس جماعة ، فأرسلهم إلى تلك الأمصار الكبيرة ، فمضوا جميعاً إلى عملهم الشَّاقِ المضني الخطير العظيم ، ثمَّ عادوا جميعاً عدا عمَّار بن ياسر الذي استبطأ في مصر ، ثمَّ عاد ، وقدَّموا بين يدي أمير المؤمنين ما شاهدوه ، وسمعوا ، وسألوا النَّاسَ عنْه^(٢) ، وكان ما جاء به هؤلاء واحداً في كلِّ الأمصار ، وقالوا : أَيُّهَا النَّاسُ ! مَا أَنْكَرْنَا شَيْئاً ! ولا أنكر

(١) تاريخ الطَّبرِي (٣٤٨/٥).

(٢) عثمان بن عفَّان الخليفة الشَّاكِر الصَّابِر ، ص(٢١٠).

ال المسلمين إلا أنَّ أمراءهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم^(١) . وأمَّا ما روي من اتهام عمَّار بن ياسر رضي الله عنه - بالتأليب على عثمان رضي الله عنه فإنَّ أسانيد الرِّوايات التي تتضمَّن هذه الشُّهمة ضعيفة ، لا تخلو من علَّة ، كما أنَّ في متونها نكارة^(٢) .

رجع مفتشو الأمصار ، واتَّضح بأنه ليس هناك ما يوجب على الخليفة أن يعزل واحداً من ولاته ، والنَّاس في عافية ، وعدلي ، وخير ، ورحمة ، واطمئنان ، وأمير المؤمنين يعدل في القضية ، ويقسم بالسُّوَى ، ويرعى حقَّ الله وحقوق الرَّعية ، وما يثار هو شكوك ، وأراجيف ، وأكاذيب يبيِّها الحاقدون في الظُّلمات ؛ لكي لا يُعرف مصدرها ، ولكنَ الخليفة البارز الرَّاشد العظيم لم يكتف بهذا ، بل كتب إلى أهل الأمصار^(٣) .

ثانياً : كتب إلى أهل الأمصار كتاباً شاملًا بمثابة إعلان عامٍ لكلِّ المسلمين :

أمَّا بعد : فإِنَّى آخذ العمال بموافتي في كلِّ موسم ، وقد سلَطت الأُمَّة مذولتي على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فلا يُرفع على شيء ، ولا على أحدٍ من عمَّالي إلا أعطيته ، وليس لي ، ولعيالي حقٌّ قبل الرَّعية إلا متروك لهم ، وقد رفع إلى أهل المدينة: أنَّ أقواماً يُشتمون ، وأخرون يُضربون ، فيما من ضرب سراً، وشتم سراً، من أدعى شيئاً من ذلك ؟ فليوافِي الموسَم ، فليأخذ بحقه حيث كان ، مني ، أو من عمَّالي ، أو تصدقاً ، فإنَّ الله يجزي المتصدقين . فلما قرئ في الأمصار أبكي النَّاس ، ودعوا عثمان ، وقالوا : إنَّ الأُمَّة لتمضضُ بشر^(٤) .

فهل تريد الْدُّنيا أن تسمع بحزن ، وعزم أعلى ، وأشمخ من هذا الحزن ، والعزم من رجل زاد سُنه عن اثنين وثمانين سنة ، وهو في هذه الفورة ، والقوة من المتابعة والتَّقِيب عن المظلالم ؟ أم هل يريد النَّاس أن يروا عدلاً أرفع ، وأسمى من هذا العدل والإنصاف ، حتى إنَّ حقَّ أمير المؤمنين الشَّخصي متروكٌ لرعائِه ، ما دام حقَّ الله قائماً وحدوده مرعية ؟ نعم عند عثمان ، الذي لم يقف عند ذلك ، ولم يكتف بأنَ أرسل أمناءه للتفتيش عن أحوال النَّاس ، وكتابته من ثمَّ إلى أهل الأمصار بأنَّ يأتوا موسم الحجَّ ليرعوا شركاتهم - إنَ كانت لهم - أمام جموع الحجيج ، ولم يكتف عثمان بذلك كلَّه ، بل بعث إلى عمَّال الأمصار أنفسهم ؛ ليواجهوا النَّاس عندما يرفعون مظالمهم - إن وجدت - ثمَّ ليس لهم أمير المؤمنين عما يتناقله النَّاس ، وليشيروا عليه بالرأي النَّاصح السَّديد الرَّشيد^(٥) .

(١) تاريخ الطَّبرى (٣٤٨/٥).

(٢) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١١٧/١).

(٣) تاريخ الطَّبرى (٣٤٩/١).

(٤) المصدر السابِق نفسه.

(٥) عثمان بن عفان الخليفة الشَّاكر الصَّابر ، ص(٢١٢).

ثالثاً : مشورة عثمان لولاة الأمصار :

بعث عثمان رضي الله عنه إلى ولادة الأمصار واستدعاهم على عجلٍ : عبد الله بن عامر ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن سعد ، وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص - وهم من الولاة السابقين - : وكانت جلسة مغلقةً وخطيرةً ، جرت فيها الأبحاث التالية التي تقرّر خطّة العمل الجديدة في ضوء الأخبار المتناهية إلى المدينة عاصمة دولة الإسلام^(١) ، قال عثمان : ويحكم ! ما هذه الشّكایة ؟ وما هذه الإذاعة ؟ إني والله لخائف أن يكون مصدوقاً عليكم ، وما يعصب^(٢) هذا إلا بي . فقالوا له : ألم تبعث ؟ ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ، ألم يرجعوا ولم يشافهم أحد بشيء ؟ لا والله ما صدقوا ، ولا برأوا ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً ، وما كنت لتأخذ به أحداً فيضمّنك على شيء ، وما هي إلا إذاعة لا يحلُّ الأخذ بها ، ولا الانتهاء إليها ! قال : فأشيروا عليَّ . فقال سعيد بن العاص : هذا أمرٌ مصنوعٌ يُصنع في السرّ ، فيلقي به غير ذي معرفة ، فيخبر به ، فيُتحدث به في مجالسهم . قال : بما دواء ذلك ؟ قال : طلب هؤلاء القوم ، ثم قتل هؤلاء الذي يخرج هذا من عندهم .

وقال عبد الله بن سعد : خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم ؛ فإنه خير من أن تدعهم . قال معاوية : قد ولّتني ، فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير ، والرجلان أعلم بناحיתهما ، قال : بما الرأي ؟ قال : حسن الأدب ، قال : فما ترى يا عمرو ؟ ! قال : أرى أنك قد لنت لهم ، وتراضيتك عنهم ، وزدتهم عمّا كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشدّ في موضع الشدة ، وتلين في موضع اللين ، إن الشدة تنبغي لمن لا يألف الناس شرّاً ، واللّين لمن يخلف الناس بالتصح ، وقد فرشتهما جميعاً اللّين .

وقام عثمان ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال : كل ما أشرتم به عليَّ قد سمعت ، ولكلّ أمرٍ باب يؤتى منه ، إنَّ هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائِن ، وإنَّ بابه الذي يُغلق عليه ، فيُفكّك به اللّين ، والمؤاتاة ، والمتابعة ، إلا في حدود الله تعالى ذكره ، التي لا يستطيع أحدٌ أن يبادي بعيوب أحدها ، فإن سدَّه شيءٌ فرق ، فذاك والله ليُفتحنَ ، وليس لأحدٍ على حجّة حتى ، وقد علم الله أنَّ لم آل الناس خيراً ، ولا نفسي . ووالله إنَّ رحا الفتنة لدائرةٌ ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرّكها ! كفّفوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم ، واغتفروا لهم ، وإذا تعوّطيت حقوق الله ؛ فلا تذهبونا فيها^(٣) .

(١) معاوية بن أبي سفيان ، ص(١٢٦) .

(٢) يعصب بي : ينطّب بي .

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٣٥١) .

لقد خالف عثمان رضي الله عنه رأي أخيه عمرو باتباع الشدة ، ولم يخالف في اتباع سنة صاحبيه ، فرحي الفتنة دائرة ، ولا تعالج بالعنف ؛ لأن العنف هو الذي يدير هذه الرحى ، ولن يرضي أمير المؤمنين أن يكون صاحبها ، (فطوبى لعثمان إن مات ، ولم يحركها !) وكان واضحاً صريحاً رضي الله عنه فيما لا هواة فيه ، وهي حدود الله ، فلا مداهنة فيها ، وما غير ذلك فالرّفق أولى ، والمغفرة أفضل ، ولا بدّ من تأدية الحقوق كلّها^(١) .

وقد جاءت روایاتٌ بسندٍ فيه ضعيفٌ ، ومجهولون تشوّه العلاقة بين عمرو بن العاص ، وعثمان رضي الله عنهمَا وساهمت روایاتٌ ساقطةٌ في مسخ صورة عمرو بن العاص رضي الله عنه وتحويل علاقته بعثمان رضي الله عنه إلى علاقة فاتك خطط لقتل أميره ، ثم عاد بانتهازية ليطالب بدمه^(٢) ، وهذه الرواية ضعيفةٌ ، ومرفوضةٌ عند أهل التاريخ ، وأهل الحديث^(٣) ، وقد جاء في روایة بسندٍ فيها ضعفاء ، ومجهولون أيضاً بأنَّ عمرو بن العاص قال : يا عثمان ! إنَّك قد ركب الناس بمثل بنى أميَّة ، فقلت : وقالوا ، وزاغوا ، فاعتدل ، أو اعتزل ، فإنْ أبيت فاعترض عزماً ، وامض قدمًا^(٤) ، وجاء في نفس الرواية : أنَّ عبد الله بن عامر قال : أرى لك أن تجمرهم في هذه البووث حَتَّى يهمَ كُلُّ رجلٍ منهم قمل فروة رأسه ، ودبِّر دابته ، وتشغلهم عن الإرجاف بك^(٥) .

إنَّ عثمان رضي الله عنه من الولاة من التشكيل بمثيري الشَّغب ، وحبسهم ، أو قتلهم ، وقرَر أن يعاملهم بالحسنى ، واللين^(٦) ، وطلب من عماله أن يعودوا إلى أعمالهم ، وفق ما أعلنه لهم من أسلوب مواجهة الفتنة التي كان كُلُّ بصيرٍ يرى أنها قادمة^(٧) .

١- اقتراحان لمعاوية يرفضهما عثمان رضي الله عنهمَا :

قبل أن يتوجه معاوية بن أبي سفيان إلى الشَّام أتى إلى عثمان وقال له : يا أمير المؤمنين ! انطلق معِي إلى الشَّام ، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا يُقْبَل لك بها .

قال عثمان : أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء ، ولو كان فيه قطعٌ خيط عنقي . قال له

(١) عمرو بن العاص الأмир المجاهد ، للغضبان ، ص(٤٤٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٤٤٨) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) تاريخ الطَّبرِي (٣٤٠ / ٥) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) خلافة عثمان ، د. السُّلْمَى ، ص(٧٧) .

(٧) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٥١) .

معاوية : إذاً أبعث لك جيشاً من أهل الشَّام ، يقيم في المدينة ، لمواجهة الأخطار المتوقعة ؛
ليدافع عنك ، وعن أهل المدينة ، قال عثمان : لا حتى لا أقْرَر على حيران رسول الله ﷺ
الأرزاق ، بجندِ ، تساكنهم ، ولا أضيق على أهل الهجرة والثُّصرة . قال له معاوية : يا أمير
المؤمنين ! والله لتعتالنَّ ، أو لتعزِّيزَنَّ . قال عثمان : حسبي الله ونعم الوكيل^(١) !

لَكَانَّا معاوية رضي الله عنه كان يعلم : أنَّ وراء تلك الفتنة ، والشائعات يداً خبيثةً تخطط
لهذهِ مرهوبٍ ليس دونه ضرب الخليفة ، والخلافة ؛ لكن عثمان الخليفة الرَّاشد كان له رأيُ
آخر ، فهو يريد أن يسير مع هؤلاء لآخر الطريق حتَّى لا يترك لهم حجَّةً عند الله ولا عند النَّاس ،
فيفضحهم في الدنيا ، والآخرة ، وتلك مصابرَةٌ عظيمةٌ من هذا الإمام العادل العظيم^(٢) .

٢- عثمان يخترق صفوف المتأمرين بعد مجئهم للمدينة :

كان أمير المؤمنين عثمان من اليقظة والوعي ما يجعله يحقق بقلم استخاراته مع هؤلاء
المتأمرين ؛ حيث بدَّ في صفوفهم رجلين من المسلمين كانوا قد عوقياً من الخليفة ليطمئن
المتأمرون إليهم ، فقد أرسل عثمان رجلين ، مخزومياً ، وزهرياً ، فقال : انظرا ما يريدون ،
واعلما علمهم ، وكانوا مما نالهما من عثمان أدبٌ ، فاصطبروا للحقٍّ ولم يضطغنا^(٣) فلما رأوهما
بأنُّهما ، وأخبروهما بما يريدون ، فقالا : مَنْ معكم على هذا من أهل المدينة ؟ قالوا : ثلاثة
نفر ، فقالا : هل إِلَّا ؟ قالوا : لا . قالا : فكيف يريدون أن تصنعوا ؟ وشرح هؤلاء القوم
للرَّجلين أبعاد المؤامرة كاملةً والخطَّة المقترحة ، وقالوا : نريد أن نذكر له أشياء قد زرعنها في
قلوب النَّاس ، ثم نرجع إليهم ، فنزعم لهم أنا قَرَرْناه بها ، فلم يخرج ، ولم يتبع ، ثمَّ نخرج
كائناً حجاج حتَّى نقدم ، فتحطَّ به ، فتخليعه ، فإنْ أبي ؛ قتلناه ، وكانت إِيَّاهَا ، فرجعا إلى
عثمان ، فضحك ، وقال : اللَّهُمَّ سلم هؤلاء إِنَّك إن لم تُسلِّمْهم ؛ شقوا .

فأرسل إلى الكوفيين ، والبصريين ، ونادي : الصَّلاة جامعة ! وهم عنده في أصل المنبر ،
فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتَّى أحاطوا بهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأخبرهم خبر القوم ،
وحقيقة ما يريدون ، من تأكيد الشَّبهات عليه تمهيداً للخروج عليه ، وخلعه ، أو قتله ، وقام
الرجالان اللذان حادثا السَّبَيْن ، فشهدا بما أخبروهما به . فقال المسلمون جميعاً في داخل
المسجد : اقتلهم يا أمير المؤمنين ! لَأَنَّهُم ي يريدون الخروج على أمير المؤمنين ، وتفرق كلمة
المسلمين ، ورفض عثمان رضي الله عنه دعوة الصحابة لقتلهم ؛ لَأَنَّهُم مسلمون - في الظاهر -

(١) تاريخ الطَّبرى (٥/٣٥٣) .

(٢) عثمان بن عفان الخليفة الشَّاكر الصَّابر ، ص(٢١٤) .

(٣) اضطغنا فلانٌ على فلانٍ : حقد عليه .

من رعيته ، ولا يرضى أن يقال : عثمان يقتل مسلمين مخالفين له ؛ ولذلك ردّ عثمان بن عفان على تلك الدّعوة قائلاً : لانقتلهم ، بل نعفو ، ونصف ، وبنصرهم بجهدنا ، ولا نقتل أحداً من المسلمين ، إلا إذا ارتكب حدّاً يوجب القتل ، أو أظهر ردة ، وكفر^(١) .

رابعاً : إقامة الحجّة على المتمرّدين :

ثمَ دعا عثمان القوم السَّبئيُّين إلى عرض ما عندهم من شبهاتٍ ، وإظهار ما يرونـه من أخطاء ، وتجاوزاتٍ ، ومخالفـات وقعـ هو فيها ، وكانت جلـسة مصارحةٌ ، ومكاشفـة في المسـجد على مـرأـي وـمـسمـع من الصـحـابة والـمـسـلمـين ، فـتـكـلـمـ السـبـئـيـون ، وـعـرـضـواـ الأـخـطـاءـ الـتـيـ اـرـتـكـبـهاـ عـشـانـ - عـلـىـ حـدـ زـعـمـهـ - وـقـامـ عـشـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ بـالـبـلـانـ ، وـالـإـيـضـاحـ ، وـقـدـمـ حـجـجـهـ ، وـأـدـلـتـهـ فـيـمـاـ فعلـ ، وـالـمـسـلـمـونـ يـسـمـعـونـ هـذـهـ المـصـارـحةـ ، وـالـمـحـاسـبـةـ ، وـالـمـكـاـشـفـةـ ، وـأـورـدـ عـشـانـ ماـ أـخـذـوـهـ عـلـيـهـ ، ثـمـ بـيـنـ حـقـيـقـةـ الـأـمـرـ ، وـدـافـعـ عـنـ حـسـنـ فـعـلـهـ وـأـشـهـدـ معـهـ الصـحـابـةـ الـجـالـسـيـنـ فـيـ الـمـسـجـدـ^(٢) .

١- قالوا : إنّي أتممت الصّلاة في السّفر ، وما أتمّها قبلِي رسول الله ، ولا أبو بكر ، ولا عمر . لقد أتممت الصّلاة لـمـاـ سـافـرـتـ مـنـ الـمـدـيـنـةـ إـلـىـ مـكـةـ ، وـمـكـةـ بـلـدـ فـيـهـ أـهـلـيـ ، فـأـنـاـ مـقـيمـ بـيـنـ أـهـلـيـ ، وـلـسـتـ مـسـافـرـاـ أـلـيـسـ كـذـلـكـ ؟ فـقـالـ الصـحـابـةـ : اللـهـمـ نـعـمـ !

٢- وقالوا : إنّي حميت حمي ، وضيقـتـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ ، وـجـعـلـتـ أـرـضاـ وـاسـعـةـ ، خـاصـةـ لـرـعـيـ إـلـيـ !

ولـقـدـ كـانـ الـحـمـىـ قـبـلـيـ ، لـإـبـلـ الصـدـقةـ ، وـالـجـهـادـ ، حـيـثـ جـعـلـ الـحـمـىـ كـلـ منـ رـسـولـ اللـهـ ، وـأـبـوـ بـكـرـ ، وـعـمـرـ ، وـأـنـاـ زـدـتـ فـيـهـ لـمـاـ كـثـرـتـ إـبـلـ الصـدـقةـ ، وـالـجـهـادـ ، ثـمـ لـمـ نـمـنـعـ ماـشـيـةـ فـقـراءـ الـمـسـلـمـينـ مـنـ الرـعـيـ فـيـ ذـلـكـ الـحـمـىـ ، وـمـاـ حـمـيـتـ لـمـاـشـيـتـيـ ! وـلـمـ وـلـيـتـ الـخـلـافـةـ كـنـتـ مـنـ أـكـثـرـ الـمـسـلـمـينـ إـبـلـاـ ، وـغـنـمـاـ ، وـقـدـ أـنـفـقـتـهـ كـلـهـاـ ، وـمـاـ لـيـ الـآنـ ثـاغـيـةـ وـلـاـ رـاغـيـةـ ، وـلـمـ يـقـلـ لـيـ إـلـاـ بـعـيرـانـ ، خـصـصـتـهـمـاـ الـحـجـيـ ! أـلـيـسـ كـذـلـكـ ؟ فـقـالـ الصـحـابـةـ : اللـهـمـ نـعـمـ !

٣- وقالوا : إنّي أـبـقـيـتـ نـسـخـةـ وـاحـدـةـ مـنـ الـمـصـاحـفـ ، وـحرـقـتـ مـاـ سـواـهـاـ ، وـجـمـعـتـ التـائـسـ عـلـىـ مـصـحـفـ وـاحـدـيـ ! أـلـاـ إـنـ الـقـرـآنـ كـلـامـ اللـهـ ، مـنـ عـنـدـ اللـهـ ، وـهـوـ وـاحـدـ ، وـلـمـ أـفـعـلـ سـوـىـ أـنـ جـمـعـتـ الـمـسـلـمـينـ عـلـىـ الـقـرـآنـ ، وـنـهـيـتـهـمـ عـنـ الـاـخـتـلـافـ فـيـهـ ، وـأـنـاـ فـيـعـلـيـ هـذـاـ تـابـعـ لـمـاـ فـعـلـهـ أـبـوـ بـكـرـ ، لـمـاـ جـمـعـ الـقـرـآنـ ! أـلـيـسـ كـذـلـكـ ؟ فـقـالـ الصـحـابـةـ : اللـهـمـ نـعـمـ !

٤- وقالوا : إنّي رـدـدـتـ الـحـكـمـ بـنـ أـبـيـ الـعـاصـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ ، وـقـدـ كـانـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ نـفـاهـ إـلـىـ

(١) تاريخ الطّبرى (٥/ ٣٥٤ ، ٣٥٥).

(٢) الخلفاء الرّاشدون ، للخلالدي ، ص(١٥٤ ، ١٥٥).

الطائف! إنَّ الحكم بن العاص مكِّيٌّ، وليس مدنياً، وقد سيره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف ، وأعاده الرسول ﷺ إلى مكة بعد ما رضي عنه ، فالرسول ﷺ سيره إلى الطائف ، وهو الذي ردَّه وأعاده! أليس كذلك؟ فقال الصحابة : اللهمَّ نعم !

٥- قالوا : إنِّي استعملت الأحداث ، ووليت الشباب صغار السنَّ ! ولم أُولَّ إلا رجالاً فاضلاً محتملاً مرضياً ، وهؤلاء الناس أهل عملهم ، فسلوهم عنهم . ولقد ولَّى الذين مِنْ قبلِي من هم أحدهم منهم ، وأصغر منهم سنًا ، ولقد ولَّى رسول الله ﷺ أساميَّة بن زيد ، وهو أصغر ممَّن ولَّته ، وقالوا الرسول ﷺ أشدَّ مما قالوا لي ؟ أليس كذلك؟ قال الصحابة : اللهمَّ نعم ! إنَّ هؤلاء الناس يعيون للناس ما لا يفَسِّرونَه ، ولا يوْضِحُونَه .

٦- قالوا : إنِّي أعطيت عبد الله بن سعد بن أبي سرح ما أفاء الله به ، وإنِّي أعطيته خمساً الخمس - وكان مئة ألف - لِمَا فتح إفريقية ، جزاء جهاده ، وقد قلت له : إن فتح الله عليك إفريقية ؛ فلَك خمساً الخمس من الغنيمة نفلاً ، وقد فعلها قبلِي أبو بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما ومع ذلك قال لي الجنود المجاهدون : إننا نكره أن تعطيه خمساً الخمس - ولا يحقُّ لهم الاعتراض والرَّفْض - فأخذت خمساً الخمس من ابنِ سعد ، ورددته على الجنود ، وبذلك لم يأخذ ابن سعد شيئاً ! أليس كذلك؟ قال الصحابة : اللهمَّ نعم !

٧- قالوا : إنِّي أحبُّ أهل بيتي ، وأعطيتهم ! فأمَّا حبِّي لأهل بيتي ، فإنه لم يحملني على أن أميل معهم إلى جور ، وظلم الآخرين ، بل أحملُ الحقوق عليهم وأخذ الحقَّ منهم ، وأمَّا إعطاؤهم فإني أعطيتهم من مالي الخاص ، وليس من أموال المسلمين ؛ لأنِّي لا أستحِلُّ أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحدٍ من الناس . ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرَّغيبة من صُلب مالي أَزمان رسول الله ﷺ ، وأبي بكرٍ ، وعمر ، رضي الله عنهمَا ، وأنا يومئذ شَحِيقٌ حريصٌ ، أفحين أتَيْت على أسنان أهل بيتي ، وفني عمري ، وجعلت مالي الذي لي لأهلي ، وأقاربِي ؛ قال الملحدون ما قالوا ؟ وإنِّي والله ما أخذت من مصر من أمصار المسلمين مالاً ، ولا فضلاً ، ولقد ردَّت على تلك الأمصار الأموال ، ولم يُحضرُوا إلى المدينة إلا الأخماس من الغنائم ، ولقد تولَّ المسلمين تقسيم تلك الأخماس ، ووضعوها في أهلها ! ووالله ما أخذت من تلك الأخماس وغيرها فلساً فما فوقه ! وإنِّي لا آكل إلا من مالي ! ولا أعطي أهلي إلا من مالي !

٨- قالوا : إنِّي أعطيت الأرض المفتوحة لرجالٍ معينين ، وإنَّ هذه الأرضين المفتوحة ، قد اشترك في فتحها المهاجرون ، والأنصار ، وغيرهم من المجاهدين ، ولمَّا قسمَت هذه الأرضي على المجاهدين الفاتحين ؛ منهم من أقام بها ، واستقرَّ فيها ، ومنهم من رجع إلى أهله في المدينة ، أو غيرها ، وبقيت تلك الأرض ملكاً له ، وقد باع بعضهم تلك الأرضي ، وكان ثمنها في أيديهم !

وبذلك أورد عثمان رضي الله عنه أهم الاعتراضات التي أثيرت عليه ، وتولى توضيحها ، وبيان وجه الحق فيها^(١) .

وتروى من ذلك الدفاع المحكم الذي دافع به عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وساجل الصحابة فيه ، وذاكرا لهم إياته صورة لما كان يجري من التقد المعنف له ، رضي الله عنه ، وما كان يشيعه السبئيون من قالة السوء ، وما يعملون على ترويجه من باطل مزيف ، فقد أجمل رضي الله عنه ذكر الاعتراضات التي كانوا يعترضون بها عليه ، وبين وجه الحق فيما يفعل ، وأنه كان على بيته من أمره ، وعلى حجّة من دينه ، ولكنهم معرضون لا يريدون رشاداً ، ولا يبغون سداداً ، فمجادلته لهم مجادلة رجل مخلص مع آخر يترخص به الدوائر ، ويتسقط هفواته ، ليتفدّأ أغراضه ، ويلقي في نفوس الناس عنه إعراضًا ، ومن كان شأنه كذلك لا تقنعه الحجّة ، ولا يهديه الدليل ، ومن يضلّ الله ؟ فلا هادي له^(٢) .

وقد سمع كلامه ، وتوضيحه زعماء أهل الفتنة الذين بجانب المنبر ، كما سمعه الصحابة الكرام ، ومن معهم من المسلمين الصالحين ، وتأثر المسلمون بكلام عثمان ، وبيانه ، وتوضيحه ، وصدقه فيما قال : وازدادوا حباً ، أمّا السبئيون دعاة الفتنة ، والفرقة ، فلم يتأنّروا بذلك ، ولم يتراجعوا ؛ لأنّهم لم يكونوا باحثين عن حقّ ، ولا راغبين في خير ، إنّما كان هدفهم الفتنة ، والكيد للإسلام ، والMuslimين ، وقد أشار الصحابة ، والMuslimون على عثمان بقتل أولئك السبئيين (زعماء الفتنة) بسبب ما ظهر من كذبهم ، وتزويرهم ، وحقدهم ، بل أصرّوا عليه في قتلهم ، ليتخلص المسلمين من شرّهم ، وتستقرّ بلاد المسلمين ، ويُقضى على الفتنة التي يشيرها هؤلاء ، وأتباعهم ، ولكنّ عثمان كان له رأي آخر ، وتحليل معايير ، فاثر أن يتركهم ، ورأى عدم قتلهم ، محاولة منه لتأخير وقوع الفتنة ، ولم يتحذّذ عثمان ضدّ السبئيين القادمين من مصر ، والكوفة ، والبصرة ، أيّ إجراء مع علمه بما يخططون ، ويريدون ، وتركهم يغادرون المدينة ويعودون إلى بلادهم^(٣) .

خامساً : الاستجابة لبعض مطالبه :

الاستجابة لبعض مطالبه في خلع بعض الولاة ، وتولية من طلبوا توليته ، فهذه الأساليب كافية في المعالجة ، وإقامة الحقّ ، والعدل ؛ لو كانت الأمور تسير في وضعها الطبيعيّ ، لكن الواقع : أنّ وراء هذه الشّكاوى ، والإثارات أموراً خفيةً ، وأحقاداً جاهليّةً ، تسعى لإثارة الفتنة

(١) العواصم من القواصم ، ص(٦١ إلى ١١١) . وتاريخ الطّبرى (٥/٣٥٥ ، ٣٥٦) . والخلفاء الرّاشدون ، للخالدي ، ص(١٥٨) . والفتنة ، لأحمد عمروش ، ص(١٠ - ١٤) .

(٢) تاريخ الجدل ، لمحمد أبو زهرة ، ص(٩٨ ، ٩٩) .

(٣) الخلفاء الرّاشدون ، للخالدي ، ص(١٥٨ ، ١٥٩) .

بين المسلمين ، وتفريق وحدتهم ، ووقع ما أخبر به النبي ﷺ من استشهاد عثمان رضي الله عنه^(١) .

سادساً : ضوابط التعامل مع الفتن عند عثمان رضي الله عنه :

إنَّ المتأمِّل في هدي عثمان رضي الله عنه في تعامله مع الفتنة التي وقعت في عهده يمكنه أن يستنبط بعض الضوابط التي تُعين المسلم في مواجهته للفتن ، ومن هذه الضوابط :

١- الشَّتَّبُ :

فقد أرسل لجان تفتيش للأمصال ، واستمع لأهلها ، واستطاع أن يخترق جماعة السَّبَئِينَ ، ويقف على حقيقة أمرهم ، ولم يستعجل في إصداره للأحكام عليهم .

٢- لزوم العدل ، والإنصاف :

فقد اتَّضح هذا الصَّابط في كتبه للأمصال ، وطلب مَنْ ادَّعَى ، أَنَّهُ شُتم ، أو ضرب من الولاة ؛ فليأخذ بحقه حيث كان ، منه أو من عماله^(٢) .

٣- الحلم والأناء :

ويَتَّضح هذا الصَّابط في كتابه لأهل الكوفة عندما طلبوا عزل سعيد بن العاص ، وتعيين أبي موسى الأشعري ، وقد جاء في هذا الكتاب : . . . والله لأفرشَنُكُم عِرضي ، ولأبذرُنَّ لكم صبري ، ولأستصلحَنُكُم بجهدي ، فلا تدعوا شيئاً أحبتُموه لا يعصي الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصي الله فيه إلا استعففتم منه^(٣) .

٤- الحرص على ما يجمع ، ونبذ ما يفرق بين المسلمين :

ولذلك جمع النَّاس على مصحفٍ واحدٍ كما مرَّ معنا ، وعندما عرض عليه الأشرُّطُجُعيُّ عروضاً ثلاثة يأتي تفصيلها بإذن الله ؛ قال عثمان : . . . وإن قتلتمني ؛ فلم أرتكب ما يوجب قتلي ، ووالله لئن قتلتمني فإنَّكم لا تتحابُون بعدِي أبداً ، ولا تصلُّون جميعاً بعدِي أبداً ، ولا تقاتلون العدوَ جميعاً بعدِي^(٤) !

٥- لروم الصَّمت ، والحدُّر من كثرة الكلام :

من خلال سيرة عثمان رضي الله عنه تَتَّضح صفة قَلَّةِ كلامه إلا فيما ينفع من علمٍ ، أو نصحٍ ،

(١) خلافة عثمان للسلمي ، ص(٧٨) .

(٢) تاريخ الطبرى (٣٤٩/٥) .

(٣) تاريخ الطبرى (٣٤٣/٥) .

(٤) البداية والنهى (٧/١٨٤) .

أو توجيهٍ ، أو ردّ اتهاماتٍ باطلةٍ ، وقد كان رضي الله عنه كثير الصَّمت قليل الكلام .

٦- استشارة العلماء الرَّبَانِيُّينَ :

فقد كان رضي الله عنه يستشير علماء الصحابة ، كعليٍّ ، وطلحة ، والرَّبِّير ، ومحمد بن مسلمة ، وابن عمر ، وعبد الله بن سلام - رضي الله عنهم جميعاً - فالعلماء هم صمام الأمان ، والملجأ في الخطوب المدلهمة ، والفتن المظلمة ؛ لأنَّهم أبصر النَّاس بحالها ، وأعرفهم بمالها ، فمن التجأ إليهم؛ وجد الفهم السَّليم ، والتَّنَزُّل الصَّحيح والموقف الشرعي الواضح^(١) .

٧- الاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ في الفتنة :

إنَّ منهج عثمان رضي الله عنه أثناء الفتنة ، وسلكه مع المتمردين ، الذين خرجوا عليه لم تفرضه عليه مجريات الأحداث ، ولا ضغط الواقع ، بل كان منهجاً نابعاً من مشكاة البوة حيث أمره رسول الله ﷺ بالصَّبر ، والاحتساب ، وعدم القتال حتَّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وقد وفَّى ذُو التُّورين رضي الله عنه بوعده ، وعهده لرسول الله ﷺ طوال أيام خلافته ، حتَّى خرَّ شهيداً مضرَّجاً بدمائه الطَّاهرة الزَّكية^(٢) .

وقد قال محبُ الدِّين الخطيب : الَّذِي يدُلُّ عَلَيْهِ مَجْمُوعُ الْأَخْبَارِ عَنْ مَوَاقِفِ عُثْمَانَ مِنْ أَمْرِ الدِّفاعِ عَنْهُ ، أَوِ الْاسْتِسْلَامِ لِلْأَقْدَارِ ، هُوَ أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ الْفَتْنَةَ ، وَيَتَّقَى اللَّهُ فِي دَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَنَّهُ صَارَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ يُؤْدِي لَوْ كَانَتْ لَدِيهِ قُوَّةً رَاجِحَةً يَهَابُهَا الْبُغَاةُ ، فَيُرْتَدُّونَ عَنْ بَعْيَهُمْ ، بِلَا حَاجَةٍ إِلَى اسْتِعْمَالِ السَّلَاحِ لِلْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ النَّتِيْجَةِ ، وَقَبْلِ أَنْ تَبْلُغَ الْأَمْرُ مَبْلَغَهَا ؛ عَرَضَ عَلَيْهِ مَعَاوِيَةُ أَنْ يَرْسُلَ إِلَيْهِ قُوَّةً مِنْ جَنْدِ الشَّامِ تَكُونُ رَهْنَ إِشَارَتِهِ ، فَأَبَى أَنْ يَضْيَقَ عَلَى أَهْلِ دَارِ الْهِجْرَةِ بِجَنْدِ يَسَاكِنُهُمْ ، وَكَانَ لَا يَظْنُ أَنَّ الْجَرَأَةَ تَبْلُغُ بِفَرِيقٍ مِنْ إِخْرَانِهِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ يَتَكَالَّبُوا عَلَى دَمِ أَوْلَ مَهَاجِرٍ إِلَى اللَّهِ فِي سَبِيلِ دِينِهِ .

فَلَمَّا تَذَاءَبَ عَلَيْهِ الْبُغَاةُ ، وَاعْتَقَدُ : أَنَّ الدِّفاعَ عَنْهُ تَسْفِكُ فِيهِ الدَّمَاءَ جَزَافاً ؛ عَزِّمَ عَلَى كُلِّ مَنْ لَهُ عَلَيْهِ سَمْعٌ ، وَطَاعَةٌ أَنْ يَكُفُّوا أَيْدِيهِمْ ، وَأَسْلَحُوهُمْ عَنْ مَزَالِقِ الْعَنْفِ .

وَالْأَخْبَارُ بِذَلِكَ مُسْتَفِيَضَةٌ فِي مَصَادِرِ أُولَائِهِ ، وَشَانِئِيهِ ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ ظَهَرَتْ فِي الْمَيْدَانِ قُوَّةٌ مُنَظَّمةٌ ذاتِ هِيَةٍ تَقْفَ في وُجُوهِ الْتُّوَارِ ، وَتَضَعُ حَدَّاً لِغَطَرِسِتِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ ؛ لَارْتَاحَ عُثْمَانَ وَذَلِكَ ، وَسَرَّ بَهُ ، مَعَ مَا هُوَ مُطْمَئِنٌ إِلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ لَنْ يَمُوتْ إِلَّا شَهِيداً^(٣) .

* * *

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٧٢٨).

(٢) استشهاد عثمان ووقعة الجمل ، ص(١١٦).

(٣) العواصم من القواسم ، ص(١٣٨).

المبحث الثالث

احتلال أهل الفتنة للمدينة

أولاً : قدوم أهل الفتنة من الأمصار :

اتفق أهل الفتنة فيما بينهم على القيام بخطوتهم العملية النهائية في مهاجمة عثمان في المدينة ، وحمله على التنازل عن الخلافة ، وإلا ؛ يقتل ، وقرروا أن يأتوا من مراكزهم الثلاثة : مصر ، والكوفة ، والبصرة في موسم الحجّ ، وأن يغادروا بلا دهم مع الحجاج ، وأن يكونوا في صورة الحجاج ، وأن يعلنوا للآخرين : أنّهم خارجون للحجّ ، فإذا وصلوا المدينة تركوا الحجاج يذهبون إلى مكة لأداء مناسك الحجّ ، واستغلوا فراغ المدينة من معظم أهلها - المشغولين بالحجّ - وقاموا بمحاصرة عثمان ؛ تمهيداً لخلعه ، أو قتله^(١) .

وفي شوال سنة خمس وثلاثين كان أهل الفتنة على مشارف المدينة^(٢) ، فقد خرج المتمردون من مصر في أربع فرق ، لكل فرق أمير ، ولواء الأمراء أمير ، ومعهم شيطانهم عبد الله بن سباء ، وأمراء الفرق الأربع هم : عبد الرحمن بن عيسى البلوبي ، وكنانة بن بشر الشجبي ، وسودان بن حمران السكوني ، وقترة بن فلان السكوني ، وأمير هؤلاء الأمراء هو الغافقي بن حرب العكبي ، وكان عدد الفرق الأربعة ألف رجل ، وخرج المتمردون من الكوفة ألف رجل في أربع فرق ، وأمراء فرقهم هم : زيد بن صوحان العبدية ، والأستر الشعبي ، وزيد بن النضر الحارثي ، وعبد الله بن الأصم ، وأمير متمردي الكوفة هو عمرو بن الأصم .

وخرج متبردو البصرة ألف رجل في أربع فرق ، وأمراء فرقهم هم : حكيم بن جبلة العبدية ، وذريح بن عباد العبدية ، وبشير بن شريح القيسبي ، وابن المحرّش ابن عبد الحنفي ، وأمير متبردي البصرة هو حرقوص بن زهير السعدي ، وكان عبد الله بن سباء يسير مع هؤلاء مزهوأً مسروراً ، بنجاح خطّه اليهودية الشيطانية ، وكان أهل الفتنة من مصر يريدون عليّ بن أبي طالب خليفة ، وكان أهل الفتنة من الكوفة يريدون الرّبّير بن العوّام خليفة ، وكان أهل الفتنة من البصرة يريدون طلحة بن عبيد الله^(٣) ، وهذا العمل منهم كان بهدف الإيقاع بين الصحابة رضوان

(١) الخلفاء الرّاشدون ، للخالدي ، ص (١٥٩) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) تاريخ الطبري (٣٥٧/٥) .

الله عليهم ، وهو ما ذهب إليه الإمام الأجري ، حيث قال : وقد برأ الله - عز وجل - عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وطلحة ، والرَّبِير رضي الله عنهم من هذه الفرق ، وإنما أظهروا ؛ ليموّهوا على النَّاس ، وليوقعوا بين الصَّحابة ، وقد أعاد الله الكريم الصَّحابة من ذلك^(١) .

وبلغ خبر قدول عثمان رضي الله عنه قبل وصولهم ، وكان في قرية خارج المدينة ، فلما سمعوا بوجوده فيها ، اتجهوا إليه ، فاستقبلهم فيها ، ولم تصرّح لنا الرَّوايات باسم هذه القرية ، ويحدّد المدائني تاريخ قدومهم بليلة الأربعاء هلال ذي القعدة^(٢) ، وكان أول من وصل المصريون ، فقالوا لعثمان : ادع بالمحض ، فدعاه ، فقالوا : افتح السابعة ، وكانوا يسمون سورة يونس بالسابعة - فقرأ حتى أتى هذه الآية : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَلَلَّا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ إِنَّ اللَّهَ تَفَرَّوْتُمْ ﴾ [يونس : ٥٩] .

قالوا له : قف ، أرأيت ما حميت من الحمى ؟ آلة أذن لك أم على الله تفترى ؟ فقال : امضه ، نزلت في كذا ، وكذا ، فأماماً الحمى فإنَّ عمر حماه قبل الصدقة ، فلما وليت زادت إبل الصدقة ، فزدت في الحمى لما زاد من إبل الصدقة ، امضه ، قال : فجعلوا يأخذونه بالأية ، فيقول : امضه ، نزلت في كذا ، فما يزيدون ، فأخذوا ميثاقه ، وكتبوا عليه شرطاً ، وأخذ عليهم ألا يشقوا عاصا ، ولا يفارقوا جماعةً ما أقام لهم شرطهم ، ثم رجعوا راضين^(٣) .

● علي بن أبي طالب يرسله عثمان للمفاوضة مع أهل الفتنة من الأمصار :

ونزل القوم في ذي المروءة ، قبل مقتله بما يقارب شهرًا ونصفاً ، فأرسل عثمان إليهم علياً رضي الله عنه ورجالاً آخر لم تسمه الرَّوايات ، والتى بهم عليٌّ رضي الله عنه فقال لهم : تعطون كتاب الله ، وتعتبون من كل ما سخطتم ، فوافقوا على ذلك^(٤) ، وفي رواية : أنَّهم شادُوه ، وشادُهم مرَّتين ، أو ثلَاثاً ، ثمَّ قالوا : ابن عم رسول الله ﷺ ، ورسول أمير المؤمنين يعرض عليكم كتاب الله ! فقبلوا^(٥) ، فاصطلحوا على خمس : على أنَّ المنفي يُقبل ، والمحروم يُعطى ، ويوفر الفيء ، ويعدل في القسم ، ويستعمل ذو الأمانة والقوَّة ، وكتبوا ذلك في كتاب ، وأنَّ يردَ ابن عامر على البصرة ، وأنَّ يبقى أبو موسى على الكوفة^(٦) . وهكذا اصطلح

(١) استشهاد عثمان ووقعة الجمل ، لخالد الغيث ، ص(١١٨) .

(٢) فتنة مقتل عثمان ، د . محمد الغبان (١٢٧/١) .

(٣) المصدر السابق نفسه (١٢٨/١) .

(٤) تاريخ دمشق ، ترجمة عثمان ، ص(٣٢٨) . وتاريخ خليفة بن خيَّاط ص(١٦٩ - ١٧٠) .

(٥) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٢٩/١) .

(٦) المصدر السابق نفسه .

عثمان رضي الله عنه مع كل وفدي على حدّه ، ثم انصرفت الوفود إلى ديارها^(١) .

● الكتاب المزعوم بقتل وفد أهل مصر :

وبعد هذا الصلح وعودة أهل الأ MCSars جميعاً راضين تبيّن لمشاعلي الفتنة : أنَّ خطّتهم قد فشلت ، وأنَّ أهدافهم الدينية لم تتحقق ، لذا خطّطوا تخطيطاً آخر يذكي الفتنة ، ويحييها ، ويقتضي تدمير ما جرى من صلح بين أهل الأ MCSars ، وعثمان ، رضي الله عنه ، وبرز ذلك فيما يأتي : في أثناء طريق عودة أهل مصر ، رأوا راكباً على جملٍ يتعرّض لهم ، ويفارقهم - يظهر أنه هارب منهم - فكأنَّه يقول : خذوني ، فقبضوا عليه ، وقالوا له : مالك ؟ فقال : أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر ، ففتشوه ، فإذا بهم بالكتاب على لسان عثمان رضي الله عنه ، وعلىه خاتمه إلى عامله ، فتحوا الكتاب فإذا فيه أمرٌ بصلبهم ، أو قتلهم ، أو تقطيع أيديهم ، وأرجلهم ، فرجعوا إلى المدينة حتّى وصلوها^(٢) ، ونفي عثمان رضي الله عنه أن يكون كتب هذا الكتاب ، وقال لهم : إنَّهما اثنان : أنْ تقيموا رجلين من المسلمين ، أو يمين بالله الذي لا إله إلا هو ما كتب ، ولا أمللت ، ولا علمت ، وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل ، وينشق الخاتم . فلم يصدّقوه^(٣) .

وهذا الكتاب الذي زعم هؤلاء المتمرّدون البغاء المنحرفون : أنَّه من عثمان ، وعليه خاتمه يحمله غلامه على واحدٍ من إبل الصَّدقة إلى عامله بمصر ابن أبي سرح ، يأمر فيه بقتل هؤلاء الخارجين هو كتاب مزورٌ مكذوبٌ على لسان عثمان ، وذلك لعدة أمور :

١- أنَّ حامل الكتاب المزور قد تعرّض لهؤلاء المصريين ، ثمَّ فارقهم ، وكُرِّر ذلك مراراً ، وهو لم يفعل ذلك إلا ليُلْفِت أنظارهم إليه ، ويشير شكوكهم فيه ، وكأنَّه يقول لهم : معي شيء مهمٌ بشأنكم ! وإلا فلو كان من عثمان ؛ لخافهم حامل الكتاب المزعوم ، ولأبعد عنهم ، وأسرع إلى والي مصر ؛ ليضع بين يديه الأمر ، فينفذه .

٢- كيف علم العراقيون بالأمر ، وقد اتجهوا إلى بلادهم ، وفصلتهم عن المصريين - الذين أمسكوا بالكتاب المزعوم - مسافةٌ شاسعةٌ ، فالعراقيون في الشرق والمصريون في الغرب ، ومع ذلك عادوا جميعاً في آنٍ واحدٍ ، كأنما كانوا على ميعادٍ ؟ لا يعقل هذا إلا إذا كان الذين زوروا الكتاب ، واستأجروا راكباً ليحمله ، ويمثّل الدّور في (البُويْب) أمام المصريين ، قد استأجروا راكباً آخر انطلق إلى العراقيين ؛ ليخبرهم بأنَّ المصريين قد اكتشفوا كتاباً بعث به عثمان لقتل

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) تاريخ الطّبرى (٣٧٩/٥) .

(٣) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١٣٢/٥) . والبداية والنهاية (١٩١/٧) .

المنحرفين المصريين ! وهذا ما احتجَ به عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فقد قال : كيف علمت يا أهل الكوفة ، ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر ، وقد سرت مراحل ؛ ثمَّ طويتم نحونا^(١) ؟ بل إنَّ علياً يجزم : هذا والله أمرُ أبْرَم بالمدِينة^(٢) .

٣- كيف يكتب عثمان إلى ابن أبي سرح بقتل هؤلاء ، وابن أبي سرح كان عقب خروج المتمرِّدين من مصر متَّجهين إلى المدينة كتب إلى الخليفة يستأذنه بالقدوم عليه ، وقد تغلَّب على مصر محمد بن أبي حذيفة ، وفعلاً خرج ابن أبي سرح من مصر إلى العريش ، وفلسطين ، فالعقبة ، فكيف يكتب له عثمان بقتلهم ، وعنده كتابه الذي يستأذن به منه بالقدوم عليه ؟

٤- أن عثمان رضي الله عنه قد نهى عن قتل المتمرِّدين عندما حاصروه ، وأبي على الصَّحابة أن يدافعوا عنه ، ولم يأمر بقتل الخارجين دفاعاً عن نفسه - كما سيأتي تفصيله إن شاء الله - فكيف يكتب مثل هذا الكتاب المزور وقد خرجوا عنه من المدينة مظہرين التَّوْبَة ، والإِنَابَة .

٥- تخلُّفُ حُكيم بن جَبَلَة ، والأُشْتَر النَّخْعَيِّ - بعد خروج المتمرِّدين - في المدينة ، يشير إشارةً واضحة إلى أنَّهما هما اللَّذان افتعلَا الكتاب ؛ إذ لم يكن لهما أَيُّ عملٍ بالمدينة ليتخلَّفَا فيها ، وما مكثا إِلَّا لمثل هذا الغرض ، فهما صاحبا المصلحة في ذلك^(٣) ، وربما كان ذلك بتوجيهه من عبد الله بن سبأ ، ولم يكن لعثمان رضي الله عنه في ذلك أَيَّة مصلحة ، وكذلك ليس لمروان بن الحكم أَيَّة مصلحة ، والذين يَتَّهِمُون مروان في هذا إنَّما ينسبون إلى الخليفة الغفلة عن مهماته ، وأنَّ في ديوان الخلافة من يجري الأمور ، ويقضي بها دون علمه ، وبذلك يبرئون ساحة أولئك المجرمين التَّاقِمِين العادرين ، ثمَّ لو أنَّ مروان زَوْرَ الكتاب ، لكان أوصى حامل ذلك الكتاب أن يبتعد عن أولئك المنحرفين ، ولا يتعرض لهم في الطريق حتَّى يأخذوه وإلا ؛ لكن متأمراً معهم على عثمان ، وهذا محالٌ .

٦- إنَّ هذا الكتاب المشؤوم ليس أَوَّل كتاب يزوِّره هؤلاء المجرمون ، بل زَوَّروا كتاباً على لسان أمَّهات المؤمنين ، وكذلك على لسان عليٍّ ، وطلحة ، والزبير ، فهذه عائشة رضي الله عنها تُتَّهِم بأنَّها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان ، فتنفي ، وتقول : لا والذِّي آمن به المؤمنون ، وكفر به الكافرون ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتَّى جلست مجلسي هذا^(٤) ! ويعقب الأعمش فيقول : فكانوا يرون : أنَّه كتب على لسانها^(٥) ، ويَتَّهِم الوافدون علَيَّاً بأنَّه

(١) تاريخ الطَّبرِي (٣٥٩/٥) .

(٢) المصدر السَّابِق نفسه .

(٣) عثمان بن عفان الخليفة الشَّاكِر الصَّابر ، ص(٢٢٧) .

(٤) تحقيق موافق الصَّحابة (١/٣٣٤) .

(٥) تاريخ خليفة بن خيَاط ، ص(١٦٩) .

كتب إليهم أن يقدموه عليهم بالمدينة ، فينكر ذلك عليهم ، ويقسم : والله ما كتبت إليكم كتاباً^(١) ! كما ينسب إلى الصحابة بكتابه الكتب إلى أهل الأنصار بأمر ونهם بالقدوم إليهم ، فدين محمد قد فسد ، وترك ، والجهاد في المدينة خير من الرباط في الشغور البعيدة^(٢) ، ويعلق ابن كثير على هذا الخبر قائلاً : وهذا كذب على الصحابة ، وإنما كتبت كتب مزورة عليهم ، فقد كتب من جهة عليٍ ، وطلحة ، والرَّبِير إلى الخارج - قتلة عثمان - كُتب مزورة عليهم أنكروها ، وكذلك زُور هذا الكتاب على عثمان أيضاً ، فإنه لم يأمر به ، ولم يعلم به^(٣) .

ويؤكّد كلام ابن كثير ما رواه الطّبرى ، وخلفية من استنكار كبار الصحابة - عليٍ وعائشة ، والرَّبِير - أنفسهم لهذه الكتب في أصح الرّوايات^(٤) ، إنَّ الأيدي المجرمة التي زَوَّرت الرّسائل الكاذبة على لسان أولئك الصحابة ، هي نفسها التي أوقدت نار الفتنة من أوَّلها إلى آخرها ، ورَبَّت ذلك الفساد العريض ، وهي التي زَوَّرت ورَوَّجت على عثمان تلك الأباطيل ، وأنَّه فعل ، وفعل ، ولقتها للناس ، حتَّى قبلها الرّاع ، ثمَّ زَوَّرت على لسان عثمان ذلك الكتاب ؛ ليذهب عثمان ضحيةً إلى ربه شهيداً سعيداً ، ولم يكن عثمان الشَّهيد هو المجنى عليه وحده في هذه المؤامرة السَّبئيَّة اليهوديَّة ، بل الإسلام نفسه كان مجنياً عليه قبل ذلك ، ثمَّ التاريخ المشوه المحرف ، والأجيال الإسلامية التي تلقت تاريخها مشوهاً ، هي كذلك ممَّن جنى عليهم الخبيث اليهوديُّ ، وأعوانه من أصحاب المطامع ، والشهوات ، والحدُّوث ، وأما آن للأجيال الإسلامية أن تعرف تاريخها الحقُّ ، وسير رجالاتها العظام ؟ بل ألم يأن لمن يكتب في هذا العصر - من المسلمين - أن يخاف الله ، ولا يتجرأ على تجريح الأبراء قبل أن يتحقق ، ويدقق حتَّى لا يسقط ، كما سقط غيره^(٥) .

ثانياً : بدء الحصار ورأي عثمان في الصَّلاة خلف أئمَّة الفتنة :

لم تفصِّل الرّوايات الصحيحة كيفية بدء الحصار ، ووقوعه ، ولعلَّ الأحداث التي سبقته تلقي شيئاً من الضَّوء على كيفية بدئه ، فيبينما كان عثمان رضي الله عنه يخطب النَّاس ذات يوم إذا برجل يقال له : أعين^(٦) ، يقاطعه ، ويقول له : يانعثل^(٧) ! إِنَّك قد بدَلت ، فقال عثمان

(١) تحقيق موافق الصحابة (١/٣٣٥).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) البداية والنهاية (٧/١٧٥).

(٤) تحقيق موافق الصحابة (١/٣٣٥).

(٥) عثمان بن عفان الخليفة الشَّاكر الصَّابر ، ص (٢٢٨ ، ٢٢٩).

(٦) أعين بن ضبعية بن ناجية بن غفال الشَّيميُّ الحنظليُّ الذَّرميُّ .

(٧) هو لقب أطلقه الخارجون على عثمان رضي الله عنه ، وهذا اللقب أطلق من باب التَّنقيص .

رضي الله عنه : من هذا ؟ فقالوا : أعين ، قال عثمان : بل أنت أينها العبد ! فوثب الناس إلى أعين ، وجعل رجلٌ منبني ليث يزعهم عنه حتى أدخله الدار^(١) ، وكان رجوع المتمردين الثاني ، وقبل اشتداد الحصار كان عثمان رضي الله عنه يتمكّن من الخروج للصّلاة ، ودخول من شاء إليه ، ثمَّ منع الخروج من الدار حتى إلى صلاة الفريضة^(٢) ، فكان يصلّي بالناس رجلٌ من المحاصرين ، من أئمّة الفتنة ، حتى إنَّ عبيداً الله بن عديّ بن الخيار تحرّج من الصّلاة خلفه ، فاستشار عثمان في ذلك ؛ فأشار عليه بأن يصلّي خلفه ، وقال له : الصّلاة أحسن ما يعمل الناس ، فإذا أحسن الناس ، فأحسن معهم ، وإذا أساءوا ، فاجتنب إساءتهم^(٣) .

وفي بعض الرّوايات الضعيفة : أنَّ الذي كان يصلّي بالناس هو أميرهم الغافقي^(٤) ، ولا صحة لما روى الواقديُّ من أنَّ علياً رضي الله عنه أمر أباً أويوب الأنصاريَّ أن يصلّي بالناس ، فصلَّى بهم أول الحصر ، ثم صلَّى عليٌّ رضي الله عنه بهم العيد ، وما بعده^(٥) ، وإضافة إلى شدة ضعف إسناد هذه الرّواية ، فلو كان الذي يصلّي بالناس هو عليٌّ ، أو أبو أيوب الأنصاريُّ رضي الله عنهما لما تحرّج عبيداً الله بن عديّ بن الخيار من الصّلاة خلفهما^(٦) .

ثانياً : المفاوضات بين عثمان ومحاصريه :

وبعد أن تمَّ الحصار ، وأحاط الخارجون بدار عثمان رضي الله عنه وطلبوه منه خلع نفسه ، أو يقتلوه^(٧) ، ورفض عثمان رضي الله عنه خلع نفسه ، وقال : لا أخلع سريراً سربانيه الله^(٨) ، يشير إلى ما أوصاه به رسول الله ﷺ ، بينما كان قلةً من الصحابة - رضوان الله عليهم - يرون خلاف ما ذهب إليه ، وأشار عليه بعضهم بأن يخلع نفسه ليعصم دمه ، ومن هؤلاء المغيرة بن الأحسن ، رضي الله عنه ، لكنَّه رفض ذلك^(٩) .

(١) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٤٣/١) . وتاريخ دمشق ، ترجمة عثمان (٢٤٧) إسناده حسن . وزعهم : كفهم .

(٢) تاريخ دمشق ، ترجمة عثمان (٤١ - ٣٤٢) إسناده حسن .

(٣) البخاريُّ ، كتاب الصّلاة رقم (١٩٢) .

(٤) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٤٥/١) .

(٥) تاريخ الطّبرى (٤٤٤/٥) .

(٦) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٤٥/١) .

(٧) الطّبقات ، لابن سعد (٦٦/٣) . وتاريخ خليفة بن خياط ، ص (١٧١) .

(٨) التّمهيد ، ص (٤٦ - ٤٧) .

(٩) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٤٧/١) .

١- ابن عمر يحثّ عثمان على عدم التنازل عن منصب الخلافة :

دخل ابن عمر على عثمان رضي الله عنهما أثناء حصاره ، فقال له عثمان رضي الله عنه : انظر إلى ما يقول هؤلاء ، يقولون : أخلعها ولا تقتل نفسك ، فقال ابن عمر رضي الله عنهما : إذا خلعتها أخلدْ أنت في الدنيا ؟ فقال عثمان رضي الله عنه : لا ! قال : فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك ؟ قال عثمان : لا ! قال : فهل يملكون لك جنة أو ناراً ؟ قال : لا ! قال : فلا أرى لك أن تخليع قميصاً قمصكه الله ، فتكون سنة كلما كره قومٌ خليفتهم ، أو إمامهم ؛ قتلوه^(١) .

رضي الله عن عبد الله بن عمر ، ما كان أبعد نظره ، إنَّه لا يريد أن يسنَّ عثمان سنة سيئة للخلفاء - وحاشا لعثمان أن يفعل - فلو تنازل عثمان لهؤلاء الخارجين السبئيين ، وخلع نفسه ، لصار الخلفاء ألعوبةً وملهاةً بأيدي الطامعين ، أو المغرضين ، وبذلك تهُنُّ صورة الخليفة ، وتزول هيبيته عند الناس ، ولقد سَنَّ عثمان سنة حسنة لمن بعده بمشرورة ابن عمر ، وغيره من الصحابة ، رضوان الله عليهم ، حيث صبر ، واحتسب ، فلم يتنازل عن الخلافة ، ولم يسفك دماء المسلمين^(٢) .

إنَّ الاستجابة لمطالب المتمردين - وهم فئة قليلةٌ من الأمة - ليسوا من أهل الحل والعقد ، ولا من رجالات الإسلام ، وفقهاء الشريعة ستكون لها آثار خطيرةٌ على مسيرة الأمة ، وهيبة الخلافة ، وعلاقة الراعي بالرعيَّة ، وكان ثمن دفع هذه الآثار السيئة أن دفع الخليفة حياته ، وهو يعلم بمصيره ، ويستسلم له ، وهو أمرٌ ثقيل على النفس ، ولكنه قدم مصالح الأمة على مصلحته الشخصية ، مما يكشف عن قوَّة ، وعزيمة ، وشجاعة ، ومضاء ، ويردُّ به على تلك الْتَّهم التي وجّهت إليه من ضعفٍ في هذه الصفات ، فإنَّه رضي الله عنه كان قادرًا بإذن الله على كبح الفتنة ، ولكنه قدر حدوث مفاسد تغلب على مصلحة كبحها ، فأعرض عن ذلك درءًا لها ، وبذلك يُعلم خطأ العقاد عندما قال بأن قتل عثمان : لا يوصف بأكثر من أنه (مشاغبة دهماء) لم تجد من يكبحها^(٣) ، فإنَّ في ذلك غمراً في شخصية ، وشجاعة عثمان رضي الله عنه ، وهي حقًا فتنة دماء ، ولكن عدم كبحها يعدُّ منقبةً لعثمان رضي الله عنه ؛ لما فيه من تصحية في سبيل الله ، رجاء تحصيل مصلحة للأمة ، وعملًا بوصيَّة رسول الله ﷺ^(٤) .

(١) فضائل الصحابة (١/٤٧٣) إسناده صحيح .

(٢) الخلفاء الرشادون ، للخالدي ، ص (١٧٩) .

(٣) ذو التورين عثمان بن عفان ، ص (١٢٢) .

(٤) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١٤٩/١) .

٢- توعد المحاصرين له بالقتل :

وبينما كان عثمان رضي الله عنه في داره ، والقوم أمام الدار محاصروها ؛ دخل ذات يوم مدخل الدار ، فسمع توعد المحاصرين له بالقتل ، فخرج من المدخل ، ودخل على من معه في الدار ، ولو نه ممتنع ، فقال : إِنَّهُمْ لِيَتَوَعَّدُونِي بِالْقَتْلِ أَنفًا ! فقالوا له : يكفيكم الله يا أمير المؤمنين ! فقال : ولم يقتلونني ؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلات : رجلٌ كفر بعد إيمانه ، أو زنى بعد إحسانه ، أو قتل نفساً بغير نفسٍ » فوالله ما زنيت في جاهلية ، ولا في إسلام قط ، ولا تمنيت أن لي بديني بدلًاً من ذهاني الله ، ولا قلت نفساً ، ففيهم يقتلونني ^(١) ؟

ثم أشرف على المحاصرين ، وحاول تهدئة ثورتهم ، وثنיהם عن خروجهم على إمامهم ، مضمناً كلمة الرد على ما عابوه به ، وكشف الحقائق التيلبسها القوم ، عسى أن يفقن المغزير بهم ، ويعودوا إلى رشدهم ، فطلب من المحاصرين أن يخرجوا له رجالاً يكلمه ، فأخرجوه شاباً يقال له : صعصعة بن صوحان ، فطلب عثمان رضي الله عنه أن يبين له ما نقموه عليه ^(٢) .

٣- إقامة عثمان الحجّة على زيف استدلال صعصعة :

قال صعصعة : أخرجنا من ديارنا بغير حقٍ إلا أن قلنا : ربنا الله . فقال له عثمان رضي الله عنه : أتل ؟ أي : استدل بالقرآن ، فقرأ : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج : ٣٩] . فقال عثمان : ليست لك ، ولا لأصحابك ، ولكنها لي وأصحابي ، فقرأ عثمان الآية التي استدل بها صعصعة ، وما بعدها مما يفسرها ، ويبين زيف استدلال صعصعة بها فتلا : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [٢٩] أَخْرُجُوا مِنْ دِيْرِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا إِنَّا مُلْكُ الْأَنْتَارَ بَعْضُهُمْ يَعْصِي مِنْهُمْ صَوْمَاعَ وَبَيْعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدٍ يُذْكَرُ فِيهَا أَسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٤١] أَلَّذِينَ إِنْ تَكْثِرُهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَقَوُوا الرَّكْوَةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَهُ عَدِيقَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج : ٤١ - ٣٩] .

فأفهم عثمان رضي الله عنه الناس الآيات فهمًا صحيحًا ، كما نزلت ؛ مبيّنًا سبب نزولها ، وفيمن نزلت ، وعلى ما تدل ؟ لئلا يلبس عليهم من قرأ القرآن ، وهو لا يعرف معناه ، ويستدل به على ما يضاد مراده ^(٣) ، كما أنّ نفي عثمان لمن نفاه إنما هو عمل بالأية التي تلي الآية التي

(١) المسند (٦٣) وقال أحمد شاكر (٤٥٢) : إسناده صحيح .

(٢) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١٥٠/١) .

(٣) المصدر السابق نفسه (١٥١/١) .

استدلّ بها صعصعة ، فإنّها تأمر من مكّنه الله في الأرض ، أن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وعثمان خليفة ، ونفيهم أمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر لما قاموا به من تعدّ على بعض المسلمين ، ومن محاولات لإثارة الفتنة^(١) .

٤- تذكير عثمان رضي الله عنه للناس بفضائله :

وبعد أن ردّ عثمان رضي الله عنه على هؤلاء ، ذكر الناس بمكانته ، وببعض فضائله مناشداً من يعلمها ، أو سمعها من رسول الله ﷺ ليبيّنها للناس ، فقد قال : أنسد الله مَنْ شهد رسول الله ﷺ يوم حراء ؛ إذ اهتزَ الجبل ، فركله بقدمه ، ثمَ قال : « اسكن حراء ليس عليك إِلَّا نبِيٌّ ، أو صَدِيقٌ ، أو شَهِيدٌ »^(٢) ، فانتشد له رجالٌ . ثمَ قال : أنسد الله مَنْ شهد رسول الله يوم بيعة الرَّضوان ؛ إذ بعثني إلى المشركين إلى أهل مكّة فقال : هذه يدي ، وهذه يد عثمان ، فبایع لي ، فانتشد له رجالٌ . ثمَ قال : أنسد الله مَنْ شهد رسول الله ﷺ قال : « من يوسع لنا لهذا البيت في المسجد ببیتٍ له في الجنة » فابتعدت من مالي ، فوسّعت به المسجد . فانتشد له رجالٌ . ثمَ قال : أنسد الله مَنْ شهد رسول الله ﷺ يوم جيش العسرة ، قال : « من ينفق اليوم نفقة مقبلة ؟ » فجهزت نصف الجيش من مالي . فانتشد له رجالٌ . ثمَ قال : أنسد الله مَنْ شهد روماً بیاع ماوها ابن السبيل ، فابتعدتها من مالي ، فأبحتها ابن السبيل ، قال : فانتشد له رجالٌ^(٣) .

وعن أبي ثور الفهيمي يقول : قدمت على عثمان ، فبينا أنا عنده ، فخرجت فإذا بوفد أهل مصر قد رجعوا ، فدخلت على عثمان ، فأعلمه ، قال : فكيف رأيتمهم ؟ فقلت :رأيت في وجوههم الشَّرُّ ، وعليهم ابن عُديس البلويُّ ، فصعد ابن عُديس منبر رسول الله ﷺ فصلَّى بهم الجمعة ، وتقصَّص عثمان في خطبته ، فدخلت على عثمان ، فأخبرته بما قال فيهم ، فقال : كذب والله ابن عديس ! ولو لا ما ذكرت ، إنّي رابع أربعة في الإسلام ، ولقد أنكحني رسول الله ﷺ ابنته ، ثمَ تُوْفِيَت ، فأنكحني ابنته الأخرى ، ولا زنيت ، ولا سرت في جاهلية ، ولا إسلام ، ولا تغَيَّت ، ولا تمنَّيت الكفر منذ أسلمت ، ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت بها رسول الله ، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله ، ولا أنت على جماعة إلا وأنا

(١) المصدر السابق نفسه (١٥٢/١).

(٢) روى مسلم نحوه ، كتاب فضائل الصحابة ، حديث (٢٤١٧) ، ولفظه : أَنَّه كَانَ عَلَى جَبَلِ حَرَاءِ بِمَكَّةَ هُوَ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةَ، وَالرَّبِيعَ - وَفِي رَوَايَةِ : وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَتَحَرَّكَ فَقَالَ : « اسْكُنْ حَرَاءَ ! فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ ، أَوْ صَدِيقٌ ، أَوْ شَهِيدٌ ». وَهُوَ مِنْ مَعْجَزَاتِهِ.

(٣) المسند (٥٩/١) وقال أحمد شاكر (٤٢٠) : إسناده صحيحٌ .

أعتق فيها رقبةً منذ أسلمت ، إلا أن لا أجدها في تلك الجمعة ، فأجمعها في الجمعة الثانية^(١) .

ولمَّا رأى عثمان رضي الله عنه إصرار المتمردين على قتله ، حذَّرهم من ذلك ، ومن مغبَّته ، فاطَّلع عليهم من كُوَّة^(٢) ، وقال لهم : أيُّها النَّاس ، لا تقتلوني ، واستعنوني ، فوالله لئن قتلتُموني لا تقاتلوا جميـعاً أبداً ! ولا تجاهدوا عدوـاً أبداً ، لتخـلـفـنـ حـتـىـ تصـيـرـواـ هـكـذـاـ . وشـبـكـ بـيـنـ أـصـابـعـهـ^(٣) .

وفي رواية : أَنَّهُ قَالَ : أَيُّهَا النَّاس لَا تَقْتُلُونِي ، فَإِنِّي وَاللَّهِ أَوْحَى مُسْلِمٌ ، فَوَاللَّهِ إِنْ أَرَدْتَ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتَ ، أَصْبَتَ ، أَوْ أَخْطَأْتَ ، وَإِنَّكُمْ إِنْ تَقْتُلُونِي لَا تَصْلُوْا جَمِيعاً أَبْدَاً ، وَلَا تَغْزِوْا جَمِيعاً أَبْدَاً ، وَلَا يَقْسِمَ فِيْكُمْ بَيْنَكُمْ^(٤) .

وقال أيضـاً : فـوالـلـهـ لـئـنـ قـتـلـنـيـ لـاـ يـحـاـبـونـ بـعـدـيـ أـبـدـاـ ، وـلـاـ يـقـاتـلـونـ بـعـدـيـ عـدـوـاـ أـبـدـاـ^(٥) . وقد تـحـقـقـ ما حـذـرـهـ مـنـهـ ، فـبـعـدـ قـتـلـهـ وـقـعـ كـلـ ما قـالـهـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ ، وـفـيـ ذـلـكـ يـقـولـ الـحـسـنـ الـبـصـرـيـ : فـوالـلـهـ إـنـ صـلـىـ الـقـومـ جـمـيعـاـ إـنـ قـلـوبـهـمـ لـمـخـلـفـهـ^(٦) .

رابعاً : دفاع الصحابة عن عثمان رضي الله عنه ورفضه لذلك :

أرسل عثمان رضي الله عنه إلى الصحابة رضي الله عنهم يشاورهم في أمر المحاصرين ، وتوعدـهـمـ إـيـاهـ بـالـقـتـلـ ، فـكـانـتـ موـاقـفـهـ كـالـآـتـيـ :

١- عليٰ بن أبي طالب رضي الله عنه :

فقد أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : أَنَّ عَلِيًّا أُرْسِلَ إِلَى عُثْمَانَ فَقَالَ : إِنَّ مَعِي خَمْسَمَائَةَ دَارِعٍ ، فَأَئْذِنْ لِي ، فَأَمْنَعَكَ مِنِ الْقَوْمِ ، فَإِنَّكَ لَمْ تَحْدُثْ شَيْئاً يُسْتَحْلِّ بِهِ دَمِكَ ، فَقَالَ : جَزِيتُ خَيْراً ، مَا أَحَبُّ أَنْ يَهْرَقَ دَمِنِي سَبِيلًا^(٧) .

٢- الزبير بن العوام رضي الله عنه :

عن أبي حبيبة^(٨) ، قال : بعثني الزبير إلى عثمان - وهو محاصر - فدخلت عليه في يوم

(١) المعرفة والتاريخ (٤٨٨/٢) . وخلافة عثمان بن عفان ، للسلامي ، ص(٩١) .

(٢) الكوة : الخرق في الحائط يدخل منه الهواء ، والضوء (ج) كُويَ .

(٣) الطبقات (٣/٧١) . وتاريخ ابن خياط ، ص(١٧١) إسناده صحيح .

(٤) الطبقات (٣/٦٧ - ٦٨) . وفتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٥٦) .

(٥) تاريخ ابن خياط ، ص(١٧١) . وفتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١٥٧) إسناده حسن .

(٦) فتنـةـ مـقـتـلـ عـمـانـ ، رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ (١٥٧) .

(٧) تاريخ دمشق ، ص(٤٠٣) .

(٨) هو أبو حبيبة مولى الزبير بن العوام ، روى عن الزبير ، وسمع أبا هريرة وعثمان محسور .

صائفٍ ، وهو على كرسيٍّ ، وعنه الحسن بن عليٍّ ، وأبو هريرة ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الرُّبَير ، فقلت : بعثني إليك الرُّبَير بن العوَام ، وهو يقرئك السلام ، ويقول لك : إِنِّي على طاعتي ، لم أبدَّل ، ولم أنكِث ، فإن شئت ؛ دخلت الدَّار معك ، وكنت رجلاً من القوم ، وإن شئت ؛ أقمت ، فإنَّبني عمرو بن عوف وعدوني أن يصبحوا على بابي ، ثمَّ يمضون على ما أمرهم به ، فلما سمع - يعني : عثمان - الرِّسالَة ، قال : الله أكبر ، الحمد لله الذي عصم أخي ! أقرئه السلام ، ثمَّ قل له : أحبُّ إِلَيَّ ، وعسى الله أن يدفع بك عنِّي ، فلما قرأ الرِّسالَة أبو هريرة ؛ قام ، فقال : ألا أخبركم ما سمعت أذناني من رسول الله ﷺ ؟ قالوا : بل ! قال : أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « تكون بعدي فتنٌ ، وأمور » فقلنا : فأين المنجي منها يا رسول الله ؟ قال : « إلى الأمين ، وحزبه » وأشار إلى عثمان بن عفَّان ، فقام الثَّاسُ ، فقالوا : قد أمكنتنا البصائر ، فائذن لنا في الجهاد ؟ فقال : أعزْم على من كانت لي عليه طاعةً لا يقاتل^(١) .

٣- المغيرة بن شعبة رضي الله عنه :

فقد ورد : أنَّ المغيرة بن شعبة رضي الله عنه دخل عليه - وهو محاصرٌ - فقال : إنَّك إمام العامة ، وقد نزل بك ما ترى وإنِّي أعرض عليك خصالاً ثلاثة ، اختر إحداهنَّ : إما أن تخرج ، فتقاتلهم ، فإنَّ معك عدداً ، وقوَّة ، وأنت على الحقّ وهم على الباطل ، وإما أن تخرق بباباً سوى الباب الذي هم عليه ، فتقعد على رواحك فتلحق بمكَّة ، فإنَّهم لن يستحلُوك بها ، وإما أن تلحق بالشَّام فإنَّهم أهل الشَّام ، وفيهم معاوية ، فقال عثمان : أما أن أخرج ، فأقاتل ؛ فلن أكون أول من خلف رسول الله في أمته بسفك الدِّماء ، وأمَّا أن أخرج إلى مكَّة فإنَّهم لن يستحلُونني ، فإِنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يلحد رجلٌ من قريش بمكَّة يكون عليه نصف عذاب العالم ». ولن أكون أنا ، وأمَّا أن الحق بالشَّام فإنَّهم أهل الشَّام ، وفيهم معاوية ، فلن أفارق دار هجرتي ، ومجاورة الرَّسول ﷺ^(٢) .

٤- عبد الله بن الرُّبَير ، رضي الله عنه :

عزم الصحابة رضي الله عنهم على الدِّفاع عن عثمان رضي الله عنه ، ودخل بعضهم الدَّار ، ولكن عثمان رضي الله عنه عزم عليهم بشدةً ، وشدَّد عليهم في الكفٌ عن القتال دفاعاً عنه مما حال بين رغبتهم الصادقة في الدِّفاع عنه وبين تحقيقها ، وكان من ضمن أولئك عبد الله بن الرُّبَير

(١) فضائل الصحابة (١/٥١٢ - ٥١١) إسناده صحيح .

(٢) البداية والنهاية (٧/٢١١) .

رضي الله عنهم ، فقد قال لعثمان رضي الله عنه : قاتلهم ، فوالله لقد أحلَّ الله لك قتالهم ! فقال عثمان : لا والله لا أقاتلهم أبداً^(١) !

وفي روایة : يا أمير المؤمنين ! إنا معك في الدار عصابة مستبترة ، ينصر الله بأقل منه ، فائذن لنا ! فقال عثمان رضي الله عنه : أنسد الله رجلاً أهراق في دمه^(٢) ! ثم أمره على الدار ، وقال : من كانت لي عليه طاعة فليطع عبد الله بن الربيبر^(٣) .

٥- كعب بن مالك ، وزيد بن ثابت الأنصاريان رضي الله عنهم :
حثَّ كعب بن مالك رضي الله عنه الأنصار على نصرة عثمان رضي الله عنه ، وقال لهم : يا معشر الأنصار ! كونوا أنصار الله مرتين ، فجاءت الأنصار عثمان ، ووقفوا ببابه ودخل زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وقال له : هؤلاء الأنصار بالباب ، إن شئت كنّا أنصار الله مرتين^(٤) .
رفض القتال ، وقال : لا حاجة لي في ذلك ، كُفوا^(٥) !

٦- الحسن بن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهم :

وجاء الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهم وقال له : أخترط سيفي ؟ قال له : لا ! أبداً^(٦) الله إذاً من دمك ، ولكن ثم^(٧) سيفك ، وارجع إلى أبيك^(٨) .

٧ - عبد الله بن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنهم :

ولما رأى الصحابة أنَّ الأمر استفحَل ، وأنَّ السيل بلغ الرُّبَّى^(٩) ؛ عزم بعضهم على الدِّفاع عنه دون استشارته ، فدخل بعضهم الدار مستعداً للقتال ، فقد كان ابن عمر معه في الدار ، متقللاً سيفه ، لابساً درعه ليقاتل دفاعاً عن عثمان ، رضي الله عنه ، ولكنَّ عثمان عزم عليه أن

(١) الطبقات ، ابن سعد (٣/٧٠) إسناده صحيح .

(٢) المصدر السابق نفسه (٣/٧٠) . وتاريخ ابن خياط ، ص (١٧٣) .

(٣) الطبقات ، ابن سعد (٣/٧٠) إسناده صحيح إلى عبد الله بن الربيبر .

(٤) الطبقات ، ابن سعد (٣/٧٠) . وفتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٦٢) .

(٥) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٦٢) .

(٦) هكذا في الأصل ولعلها (أبداً إلى الله) .

(٧) هكذا في الأصل والثُّمُّ هو : إصلاح الشيء ، وإحكامه ، لسان العرب (١٢/٧٩) ويحتمل أن تكون مصححة من شم ، والشيم هو : إعادة السيف .

(٨) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٦٢) . والمصنف لابن أبي شيبة (١٥/٢٢٤) .

(٩) بلغ الماء الربيبر ، أو الربيبر ، ويروى بلغ السيل الربيبر ، أو الربيبر والربيبر : جمع زبة الأسد ، وهي حفرة تحفر لها في مكان مرتفع ليصطاد ، فإذا بلغ الماء فهو المصحف ، الربيبر : جمع ربوة وهذا المثل يضرب في الشرف الفظيع ، المستقصى في أمثال العرب للزمخشري (٢/١٤) .

يخرج من الدار خشية أن يقاتل مع القوم عند دخولهم عليه ، فيقتل . كما لبسه مرأة أخرى^(١) .

٨- أبو هريرة رضي الله عنه :

ودخل الدار على عثمان رضي الله عنه يقول : يا أمير المؤمنين ! طاب امضرب^(٢) ، فقال له : يا أبو هريرة أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإيّاي ؟ قال : لا ! قال : فإِنَّكَ وَاللَّهُ إِنْ قُتِلْتَ رجلاً وَاحِدًا فَكَانَمَا قُتِلَ النَّاسُ جَمِيعًا ! فرَجَعَ ، وَلَمْ يَقْاتِلْ ، وَفِي رَوَايَةٍ : أَنَّ أَبَا هَرِيرَةَ كَانَ مُتَقْلِدًا سِيفَهُ ؛ حَتَّى نَهَى عُثْمَانَ^(٣) .

٩- سليم بن سليط :

قال : نهانا عثمان رضي الله عنه عن قتالهم ، ولو أذن لنا ؛ لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارها^(٤) .

ويقول ابن سيرين : كان مع عثمان رضي الله عنه في الدار سبعوناً لو يدعهم ؛ لضربواهم إن شاء الله - حتى يخرجوهم من أقطارها ، منهم : ابن عمر ، والحسن بن علي ، وعبد الله بن الربيير ، ويقول أيضاً : لقد قتل عثمان - يوم قتل - وإن الدار لغاصّة ، منهم : ابن عمر ، وفيهم الحسن بن علي في عنقه السيف ، ولكن عثمان عزم عليهم ألا يقاتلوا^(٥) .

وبذلك يظهر زيف ما اتهم به الصحابة مهاجرين ، وأنصاراً من تخاذل عن نصرة عثمان رضي الله عنه ، وكل ما روي في ذلك ، فإنّه لا يسلم من علة إن لم تكن عللاً قادحةً في الإسناد ، والمتن جميماً^(٦) .

١٠- عرض بعض الصحابة على عثمان مساعدته في الخروج إلى مكة :

ولمّا رأى بعض الصحابة إصرار عثمان رضي الله عنه على رفض قتال المحاصرين ، وأنّ المحاصرين مصرون على قتله ، لم يجدوا حيلة لحمايته سوى أن يعرضوا عليه مساعدته في الخروج إلى مكة هرباً من المحاصرين ، فقد روى : أن عبد الله بن الربيير ، والمغيرة بن شعبة ، وأسامة بن زيد ، عرضوا عليه ذلك ، وكان عرضهم متفرقاً ، فقد عرض كلّ واحدٍ منهم عليه

(١) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٦٣/١) .

(٢) الميم بدل اللام ، فأصلها (الضرب) ؛ وهي لغة لبعض أهل اليمن .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ، ص (١٦٤) .

(٤) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٦٥/١) .

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر ، ترجمة عثمان ، ص (٣٩٥) .

(٦) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٦٦/١) .

ذلك على حدة ، وعثمان رضي الله عنه يرفض كلَّ هذه العروض^(١) .

● الأسباب التي دعت عثمان إلى منع الصحابة من القتال :

يظهر للباحثين من خلال روایات الفتنة : أنَّ هناك أسباباً خمسةً ، هي :

١- العمل بوصيَّة رسول الله ﷺ التي سارَهُ بها ، وبَيْنَها عثمان رضي الله عنه يوم الدَّار ، وأنَّها عَهْدٌ بِإِلَيْهِ ، وأنَّهُ صابرٌ نفْسِهِ عَلَيْهِ^(٢) .

٢- ماجاء في قوله : لن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بسفك الدِّماء ، أي : كره أن يكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بسفك دماء المسلمين^(٣) .

٣- علمه بأنَّ البغاء لا يريدون غيره ، فكره أن يتوقَّى بالمؤمنين ، وأحبَّ أن يقيهم بنفسه^(٤) .

٤- علمه بأنَّ هذه الفتنة فيها قتله ، وذلك فيما أخبره بها رسول الله ﷺ عند تبشيره إياه بالجنة على بلوى تصبيه ، وأنَّه سيقتل مصطبراً بالحقّ ، معطيه في فتنَة ، والدلائل تدلُّ على أنَّ أوانها قد حان ، وأكَّد ذلك تلك الرؤيا التي رأها ليلة قتله ، فقدرأى رسول الله ﷺ ، وقال له : أفتر عننا القابلة ، ففهم رضي الله عنه : أنَّ موعد الاستشهاد قد قرب .

٥- العمل بمشورة ابن سلام رضي الله عنه له ؛ إذ قال له : الكفَّ ، الكفَّ ، إِنَّهُ أبلغ لك في الحجَّة^(٥) .

وتحقَّق إخبار النَّبِيِّ ﷺ بأنَّ عثمان رضي الله عنه سوف يقتل ، وذلك فيما رواه عبد الله بن حواله رضي الله عنه^(٦) ، عن النَّبِيِّ ﷺ قال : « من نجا من ثلاَثٍ ؛ فقد نجا - ثلاَث مراتٍ - موتى ، والدَّجال ، وقتل خليفة مصطبرٍ بالحقّ ، معطيه »^(٧) .

وممَّا تقدَّم يتبَيَّن هدوءه في التَّفكير رضي الله عنه وأنَّ شدَّةَ البلوى لم تحلُّ بينه وبين ذلك التَّفكير الصَّحيح ، والرَّأي السليم ، فقد تضافرت الأسباب لتحديد هذا الموقف المسالم في قتال الخارجين عليه ، ولا شكَّ : أنَّه رضي الله عنه كان على الحقّ في مواقفه التي اتَّخذها ؛ لما

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) فضائل الصحابة (١/٦٠٥) إسناده صحيح .

(٣) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٦٧) . و(المسند/٣٩٦) أحمد شاكر .

(٤) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٦٧) وإسناد الرَّواية فيه ضعفٌ .

(٥) الطَّبقات (٣/٧١) إسناده حسنٌ .

(٦) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١٦٨) ، إسناده حسنٌ ، أو صحيح .

(٧) المسند (٤/٤١٩) (٥/٣٤٦) ، تحقيق : أحمد شاكر .

صحح عن النبي ﷺ : أنَّه أشار إلى وقوع هذه الفتنة ، وشهد لعثمان ، وأصحابه أنَّهم على الحق فيها^(١) .

قال ابن تيمية - رحمه الله - : ومن المعلوم بالتواتر : أنَّ عثمان كان من أكْفَ النَّاسِ عن الدَّمَاء ، وأصيْرُ النَّاسِ عن من نالَ مِنْ عَرْضِهِ ، وعلى من سعى في دمه ، فحاصروه ، وسعوا في قتله ، وقد عرف إرادتهم لقتله ، وقد جاء المسلمين ينصرونه ، ويشيرون عليه بقتالهم ، وهو يأمر النَّاسَ بِالْكَفْ عن القتال ، ويأمِّرُ مَنْ يطِيعُهُ ألا يقاتلهم . . . وقيل له : تذهب إلى مكَّةَ ؟ فقال : لا أكون مِنْ أَلْحَدِ الْحَرَمِ ، فقيل له : تذهب إلى الشَّامِ ؟ فقال : لا أفارق دار هجرتي ، فقيل له : فقاتلهم ! فقال : لا أكون أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ مُحَمَّداً في أمَّتِهِ بِالسَّيْفِ ، فكان صبر عثمان حتَّى قُتل من أَعْظَمِ فضائله عند المسلمين^(٢) .

خامساً : موقف أمَّهات المؤمنين ، وبعض الصحابيات :

١- أمُّ حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما :

كان موقف السيدة أمَّ المؤمنين ، أمُّ حبيبة من المواقف البالغة الخطير في هذه الأحداث ، وهو موقفٌ كان من الخطورة بحيث كادت رضي الله عنها أن تقتل فيه ، ذلك أنَّه لما حاصر عثمان رضي الله عنه ومنع عنه الماء ، سرَّح عثمان ابناً لعمرو بن حزم الأنباري - من جيران عثمان - إلى عليٍّ بأنَّهم قد منعوا الماء فإنْ قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئاً من الماء ؛ فافعلوا . وإلى طلحة وإلى الرَّبِّيرِ ، وإلى عائشة ، وأزواج النبي ﷺ ، فكان أَوَّلَهُمْ إِنْجاداً لِهِ عَلَيْهِ ، وأمُّ حبيبة^(٣) ، وكانت أمُّ حبيبة معنية بعثمان ، كما قال ابن عساكر ، وكان هذا طبيعياً منها ، حيث النسب الأمويُّ الواحد ، جاءت أمُّ حبيبة ، فضرروا وجه بغلتها ، فقالت : إنَّ وصايا بني أمية إلى هذا الرجل ، فأحببت أن ألقاه ، فأسألته عن ذلك كيلاً تهلك أموال أيتام ، وأرامل . قالوا : كاذبة ، وأهروا لها ، وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فندَت^(٤) بأمَّ حبيبة ، فتلَّقاها النَّاسُ وقد مالت راحتها ، فتعلَّقوا بها ، وأخذوها وقد كادت تقتل ، فذهبوا بها إلى بيتها^(٥) ، ويبدو : أنَّها رضي الله عنها أمرت ابن الجراح ، مولاها أن يلزم عثمان رضي الله عنه ، فقد حدثت أحداث الدَّار ، وكان ابن الجراح حاضراً^(٦) .

(١) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٦٨/١) . انظر الأحاديث الصحيحة التي ذكرتها في فضائله ، وإخبار النبي ﷺ عن قتله في هذا الكتاب .

(٢) منهاج السنة (٣/٢٠٢-٢٠٣) .

(٣) دور المرأة السياسي ، أسماء محمد ، ص (٣٤٠) .

(٤) نَذَ البعير ، ونحوه نَذَ ، وندَدَ : نفر ، وشدَ .

(٥) تاريخ الطبراني نقلأً عن دور المرأة السياسي ، ص (٣٤٠) .

(٦) تاريخ المدينة (٢/٢٩٨) .

٢- صفة زوجة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

وَمَا فَعَلَتْهُ السَّيْدَةُ أُمُّ حَبِيبَةَ فَعَلَتْ مِثْلَهُ السَّيْدَةُ صَفِيفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَلَقَدْ رُوِيَ عَنْ كَنَانَةِ^(١) ، قَالَ : كُنْتُ أَقْوَدْ بِصَفِيفَةِ لَرَدَّاً عَنْ عُثْمَانَ ، فَلَقِيَهَا الْأَشْتَرُ^(٢) ، فَضَرَبَ وَجْهَهُ بِغُلْتَهَا حَتَّى مَالَتْ ، فَقَالَتْ : ذَرُونِي ، لَا يَفْضُحُنِي هَذَا ! ثُمَّ وَضَعَتْ خَشْبًا مِنْ مَنْزِلِهَا إِلَى مَنْزِلِ عُثْمَانَ ، تَنَقَّلَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ ، وَالْمَاءُ^(٣) .

٣- عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها :

وَلَمَّا حَدَثَ مَا حَدَثَ لِلْسَّيْدَةِ أُمِّ حَبِيبَةِ أَعْظَمَهُ النَّاسُ جَدًا ، فَخَرَجَتْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنَ الْمَدِينَةِ وَهِيَ مُمْتَلَّةٌ غَيْظَانًا عَلَى الْمُتَمَرِّدِينَ ، وَجَاءَهَا مَرْوَانُ بْنُ الْحَكْمَ ، فَقَالَ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ! لَوْ أَقْمَتْ كَانَ أَجْدَرُ أَنْ يَرَاقِبُوا هَذَا الرَّجُلِ . فَقَالَتْ : أَتَرِيدُ أَنْ يُصْنَعَ بِي كَمَا صُنِعَ بِأُمِّ حَبِيبَةِ ، ثُمَّ لَا أَجِدُ مَنْ يَمْنَعُنِي ! لَا وَاللهِ ! لَا أُعِيرَ^(٤) ، وَلَا أُدْرِي إِلَمْ يَسْلِمَ أَمْرَ هُؤُلَاءِ^(٥) ، وَرَأَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ خَرْوَجَهَا رَبِّي كَانَ مَعِينًا فِي فَضْلِ هَذِهِ الْجَمْعَةِ كَمَا سِيَضْطَحُ مِنَ الرِّوَايَةِ الْأَتِيَّةِ بَعْدَ ، وَتَجَهَّرَتْ أَمْهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْحَجَّ هَرَبًا مِنَ الْفَتْنَةِ ، عَلَى أَنَّ خَرْوَجَهُنَّ لَمْ يَكُنْ تَنْزُهُنَّ عَنِ الْمَلَابِسَاتِ الْفَتْنَةِ ، وَحَسْبَ ، وَلَمْ يَكُنْ هَرَبَاً مَحْضًا ، وَإِنَّمَا كَانَ مَحَاوِلَةً مِنْهُنَّ لِتَخْلِصِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَيْدِي هُؤُلَاءِ الْمُفْتَوْنِينَ ، الَّذِينَ كَانُوا مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرَ ، أَخُو السَّيْدَةِ عائشَةَ ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الَّذِي حَاوَلَتْ أَنْ تَسْتَبَّعَهُ مَعَهَا إِلَى الْحَجَّ ، فَأَبَى . وَلَقَدْ دَلَّلَ عَلَى هَذِهِ الْمَحَاوِلَةِ مِنْهَا أَنَّ اسْتِبَاعَهَا لَهُ ، وَرَفَضَهُ كَانَا لِافْتِنَ لِلنَّاظِرَ ، حَتَّى إِنَّ حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ^(٦) ، قَدْ هَالَهُ رَفَضُ مُحَمَّدٍ لَأَنَّ يَتَبَعَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَارَنَ بَيْنَ هَذَا الرَّفَضِ وَبَيْنِ مَتَابِعَتِهِ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ ، قَائِلًا : يَا مُحَمَّدٌ ! تَدْعُوكَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَا تَتَبَعُهَا ، وَتَدْعُوكَ ذُؤْبَانَ^(٧) الْعَرَبَ إِلَى مَا لَا يَحْلُّ فَتَبَعُهُمْ ! فَأَبَى ، فَقَالَتِ السَّيْدَةُ عائشَةُ : أَمَا وَاللهِ لَوْ أَسْتَطَعْتُ أَنْ يَحْرِمَهُمُ اللَّهُ مَا يَجْوِلُونَ ؛ لَأَفْعَلَنَّ^(٨) !

(١) كنانة بن عدي بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف العبشمي .

(٢) دور المرأة السياسي ، ص (٣٤٠) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٣٧/٢) .

(٤) أَعِيرَ : مِنَ الْعَارِ . وَلَقَدْ يَدِيَ هَذَا التَّعْبِيرَ : أَنَّ الْحَالَةَ الَّتِي وَضَعَ فِيهَا الْغَوَّاغُ السَّيْدَةُ أُمَّ حَبِيبَةَ كَانَتْ شَدِيدَةُ الْإِيَّامِ .

(٥) تاريخ الطبرى (٤٠١/٥) .

(٦) حنظلة بن ربيع التميمي ، كان يكتب الوحي لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمى الكاتب .

(٧) ذؤبان : لصوص وصعاليك .

(٨) تاريخ الطبرى (٤٠١/٥) .

وهذا القول منها بعد ما حاولته مع أخيها دليل على أنها قد بدأت محاولتها لفض الثائرين عن عثمان ، ولإثارة الرأي العام عليهم منذ بدأ تفكيرها في الذهاب إلى مكة ، وهذا هو ما أكد عليه الإمام ابن العربي ، قال : إنَّه يروى أنَّ تغيبهم - تغيب أمَّهات المؤمنين مع عددٍ من الصحابة - كان قطعاً للشُّغب بين النَّاس ، وجاء أنَّ يرجع النَّاس إلى أمَّهاتهم ، وأمَّهات المؤمنين ، فيرجعوا حرمة نبيِّهم^(١) ، ويستمعوا إلى كلمتهنَّ ، التي طالما كانوا يقصدونها من كلِّ الآفاق^(٢) .

أي : أنَّ خروجهم كان نوعاً من التَّقْرِيق لهذه الجموع ، حيث كان معروفاً عند النَّاس التماس رأيهنَّ ، وفتواهنهنَّ ، وكنَّ - رضوان الله عليهم - لا يتصرَّون أن يصل الأمر بهؤلاء النَّاس إلى قتل الخليفة رضي الله عنه^(٣) .

٤- مواقف للصحابيات :

أ- وقد حاولت أسماء بنت عميس نفس المحاولة التي حاولتها أم المؤمنين عائشة ، فبعثت إلى ابنيها ، محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن جعفر^(٤) ، فقالت : إنَّ المصباح يأكل نفسه ، ويفسِّر للناس ، فلا تأثِّم في أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيكما ، فإنَّ هذا الأمر الذي تحاولون اليوم لغيركم غداً ، فاتَّقوا أن يكون عملكم اليوم حسرةً عليكم ، فلَجَّا ، وخرجَا مُغضَّبين ، يقولان : لا ننسى ما صنع بنا عثمان ، وتقول : ما صنع بكم ! إلا ألمكم الله^(٥) ؟ ! وقيل : الحديث كان بين ليلى بنت أسماء ، وأخويها^(٦) .

وهي في ذلك تشير إلى أنَّه لما جاء أهل الأنصار وكثروا راجعين إلى المدينة ، بعدما كانوا ناظروا عثمان رضي الله عنه فناظرهم ، وأقام عليهم الحجَّة ، فأظهروا : أمَّهم راجعون إلى بلادهم ، ثمَّ ما لبשו أن عادوا بدعوى : أنَّ عثمان رضي الله عنه بعث رسلاً في قتل أنسٍ كان منهم حسب دعواهم : محمد بن أبي بكر^(٧) ، ولعلَّ هذا هو ما يشير إليه محمد بن أبي بكر في قوله : لا ننسى ما صنع بنا عثمان . وقد نفي عثمان رضي الله عنه نسبة هذا الكتاب إليه ، وقال :

(١) العاصم من القواسم ، ص (١٥٦) .

(٢) دور المرأة السياسي ، ص (٣٤٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (٣٤٣) .

(٤) محمد بن جعفر بن أبي طالب ، أمَّه أسماء بنت عميس الخثعمية ، ولد بأرض الحبشة ، شهد صفين مع عليٍّ ، وكان مع أخيه محمد بمصر لمقتل .

(٥) تاريخ الطبرى (٢٠٢/٥) .

(٦) تاريخ الطبرى (٢٠٢/٥) .

(٧) دور المرأة السياسي ، ص (٣٤٣) .

إما أن تقيموا شاهدين على ذلك ، وإلا فيميني : أَنِّي ما كتبتُ ، ولا أَمْرُتُ ، وقد يكتب على لسان الرَّجُل ، ويُضرب على خطَّه ، ويُقْسَمُ على خاتمه^(١) .

لقد كانت السيدة أسماء رضي الله عنها واعية بما يجري من تدبير خفي لزعزعة أحوال المسلمين ، وتنحية عثمان رضي الله عنه عن الخلافة ، وهكذا فإن موقفها رضي الله عنها ، من ابنيها ، ووضوح الأمر عندها على هذا النحو الذي جعلها لا تتأثر في مقام الأمومة ، ولا تبدو إلا مُحِقَّة للحق في هذا الموقف الواضح ، هذا الموقف لا يستهان به ولا شك ، وهو يعد صورة حية لعدالة هؤلاء الصحابة الكرام^(٢) .

بـ- الصَّعْبَةُ بْنُ الْحَضْرَمَى :

ولمَا اشتدَّ حصار عثمان رضي الله عنه طلبت الصَّعْبَةُ بْنُ الْحَضْرَمَى من ابنتها طلحَةَ بْنَ عَبِيدِ اللهِ أَنْ يَكُلُّ عُثْمَانَ ؛ كي يردعه عن إصراره على إسلامه نفسه دون مدافعة من الصَّحَابَةِ ، واستنصرَ بِأَهْلِ الْأَمْصَارِ ، فقد خرجت الصَّعْبَةُ بْنُ الْحَضْرَمَى ، وقالت لابنتها طلحَةَ بْنَ عَبِيدِ اللهِ : إِنَّ عُثْمَانَ اشْتَدَّ حَصْرُهُ ، فَلُوْ كَلَّمَتَهُ ؛ حَتَّى ترَدَّعَهُ^(٣) . والرواية يبدو منها إشراق الصَّعْبَةِ على عثمان رضي الله عنه ، كما يبدو منها كذلك عنایةً أمَّ عبد الله بن رافع بالأمر ، ومتابعتها لما يجري من أحداث الفتنة^(٤) ، وهي التي روت عن الصَّعْبَةِ بْنُ الْحَضْرَمَى الحادثة^(٥) .

هذا هو الموقف العام لنساء المسلمين ، فقد كان موقفاً معتدلاً ، وقدراً على النَّظر السليم في المسألة رغم الغيوم ؛ التي كانت متتبسةً بها ، وهو على كل حال كان هذا موقف الصَّحَابَةِ جمِيعاً رضي الله عنهم ، وأرضاصهم^(٦) .

سادساً : من حجَّ بالنَّاسِ ذلك العام ؟ وهل طلب عثمان من الولاة نُصرته ؟

١ـ من حجَّ بالنَّاسِ ذلك العام (٣٥ هـ) ؟ :

استدعي عثمان عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهم ، وكلَّفَهُ أَنْ يحجَّ بالنَّاسِ هذا الموسم ، فقال له ابن عباس : دعني أكن معك ؛ وبجانبك يا أمير المؤمنين ! في مواجهة هؤلاء ، فوالله إنْ جهاد هؤلاء الخوارج أحبُّ إلَيَّ من الحجَّ ! قال له : عزمت عليك أن تحجَّ بال المسلمين ! فلم يجد

(١) العواصم من القواصم ، ص (١٢٠) .

(٢) دور المرأة السياسي ، ص (٣٤٤) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (٣٤٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق نفسه ، ص (٣٤٦ ، ٣٤٥) .

ابن عباسٍ أمامه إلا أن يطعِّم أمير المؤمنين ، وكتب عثمان كتاباً مع ابن عباس ، ليقرأ على المسلمين في الحجّ ، بينَ فِي قصَّتِهِ مَعَ الْخَوَارِجَ عَلَيْهِ ، وَمَوْقِفِهِ مِنْهُمْ ، وَطَلَبَتِهِمْ مِنْهُ^(١) ، وهذا نصُّ خطاب عثمان رضي الله عنه للMuslimين في موسم الحج عام ٣٥ هـ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَثْمَانَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ إِلَيْكُمُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي أَذْكُرُكُمْ بِاللَّهِ - جَلَّ وَعَزَ - الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ ، وَعَلَمْكُمُ الْإِسْلَامَ ، وَهَدَاكُمْ مِنَ الْضَّلَالِ ، وَأَنْقَذَكُمْ مِنَ الْكُفَّرِ ، وَأَرَاكُمُ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَوْسَعَ عَلَيْكُمْ مِنَ الرِّزْقِ ، وَنَصَرَكُمْ عَلَى الْعُدُوِّ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَتَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ ، وَقَوْلُهُ الْحَقُّ : «وَإِنَّ أَنَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُنْخُصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» [ابراهيم : ٣٤] .

وقال عز وجل : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمُ اللَّهُ حَقُّ تَقْالِيهِ وَلَا تَمُونُنَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [١٧] وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَنْرَقُوا وَإِذْ كُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحُوكُمْ يُنْعَيْهِ إِحْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَاعَ حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ مَا يَتَّبِعُهُ لَعَلَّكُمْ تَهَتَّدُونَ [١٨] وَلَئِنْ كُنْتُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [١٩] وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَرَكُوا وَأَخْتَلُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءُهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأَوْلَئِكَ هُمُ عَذَابُ عَظِيمٍ» [آل عمران : ١٠٢ - ١٠٥] .

وقال ، وقوله الحق : «وَإِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيشَانَهُ الَّذِي وَأَنْقَذَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَكِّعَنَا وَأَطَعَنَا وَأَنْقَوْلُوا إِلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» [المائدة : ٧] .

وقال ، وقوله الحق : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوهُ فَوْمًا بِجَهَلِهِ فَنُصِيبُوهُ عَلَى مَا فَعَلُتُمْ تَدِينَ [٢٠] وَأَعْلَمُو أَنَّ فِيكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لِعِنْتُمْ وَلَدِكُنَّ اللَّهُ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَبِّنُتُمُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفَّرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعَصَيَانُ أَوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ [٢١] فَضَلَّا مِنَ اللَّهِ وَفَقِمَّةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» [الحجرات : ٦ - ٨] .

وقوله - عز - ، وجل - : «إِنَّ الَّذِينَ يَشْرَكُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَآيَاتِنَّاهُمْ ثُمَّ نَقْلِلُ أُولَئِكَ لَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمةِ وَلَا يُرَبِّكِيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [آل عمران : ٧٧] .

وقال ، وقوله الحق : «فَانْقُلوْا إِلَيْهِ مَا أَسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا أَطْيَعُوا وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لَا نَفْسٌ كُمْ وَمَنْ يُوَقَّعْ سَخَّنَقَسِهِ فَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [التغابن : ١٦] .

وقال وقوله الحق : «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَيْلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ [٢٢] وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ

(١) الخلفاء الراشدون ، للخالدي ، ص (١٦٧ ، ١٦٨) .

أَنْكُنَا نَتَّخِذُونَ أَنْتُمْ دَخْلًا يَنْكُمْ أَمْهَةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُو كُمُّ اللَّهِ بِهِ وَلَيَمْتَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِقُونَ ﴿٢١﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَدَ كُمُّ أَمْهَةٍ وَحِدَةً وَلَكِنْ يُصْلِلُ مِنْ بَشَاءَ وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ وَلَسْتُ عَلَىٰ عَمَّا كُنْتُ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَا نَتَّخِذُوا أَنْتُمْ دَخْلًا يَنْكُمْ فَنَزَلَ قَدْمٌ بَعْدَ ثُبُورَهَا وَتَذَوَّقُوا الشَّوَّءَ بِمَا صَدَّدُمُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَشْرُوا بِعِهْدِ اللَّهِ ثُمَّنَا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْدُو وَمَا عِنْدَ اللَّهِ يَأْكُلُ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٢٥﴾ [النحل : ٩١ - ٩٦].

وقال ، قوله الحق : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ فَإِنْ تَنْزَعُمُ فِي شَيْءٍ فَرُدُودُهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ أَكْثَرُ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحَسْنُ تَأْوِيلًا » [النساء : ٥٩].

وقال ، قوله الحق : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَحْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَحْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي أَرْتَصَنَ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَ فَلَا يُشْرِكُونَ بِإِشْيَاءٍ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » [آل عمران : ٥٥].

وقال ، قوله الحق : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ تَكَثَ فِيَّ إِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَحَرَّ عَظِيمًا » [الفتح : ١٠].

أما بعد : فإنَّ الله - عَزَّ وَجَلَّ - رضي لكم السَّمْع ، والطَّاعة ، والجماعَة ، وحدِّركم المُعْصيَة ، والفرقة ، والاختلاف ، ونبَأكم ما قد فعله الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم ، وتقدَّم إليَّكم فيه ليكون له الحَجَّةُ عَلَيْكُمْ؛ إنْ عصيَتموه، فاقبِلُوا نصيحةَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - واحذروا عذابَهِ ، فإِنَّكُمْ لَنْ تجدُوا أَمَّةً هَلَكَتْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَخْتَلِفُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا رَأْسٌ يَجْمِعُهَا ، وَمَتَى مَا تَفْعَلُوا ذَلِكَ لَا تَقْيِيمُوا الصَّلَاةَ جَمِيعًا ، وَسُلْطَنٌ عَلَيْكُمْ عَدُوُّكُمْ ، وَيَسْتَحْلِلُ بَعْضُكُمْ حِرْمَةَ بَعْضٍ ، وَمَتَى يَفْعَلُ ذَلِكَ ؟ لَا يَقُولُ اللَّهُ سَبَحَانَهُ دِينُ ، وَتَكُونُوا شَيْعًا ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ - جَلَّ وَعَزَّ - لِرَسُولِهِ ﷺ : « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا يُشَيْعُونَ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أُمُّهُمْ إِلَى اللَّهِ شُمُّمٌ يُتَسْعَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » [الأعراف : ١٥٩].

وإِنِّي أوصِيكُمْ بِمَا أوصَاكُمُ الله ، وأحذِرُكُمْ عذابَهِ ، فإنَّ شَعِيبًا - عليهِ السَّلَام - قال لِقَوْمِهِ : « وَيَقُولُ لَا يَبْحِرُ مِنْكُمْ شَفَاقٌ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمًا ثُوجَأْفَوْ قَوْمًا هُودٍ أَوْ قَوْمًا صَلِيجٌ وَمَا قَوْمٌ لُوطٌ إِنْكُمْ يَعْيِدُونَ ﴿٨٩﴾ وَأَسْعَفُرُ وَأَرْبَكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّهِ إِنَّ رَبِّ رَحِيمٌ وَدُودٌ » [هود : ٩٠ - ٨٩].

اما بعد : إنَّ أَقْوَامًا مَمَّنْ كَانَ يَقُولُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ، أَظْهَرُوا لِلنَّاسِ أَنَّمَا يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ الله - عَزَّ وَجَلَّ - وَالْحَقِّ ، وَلَا يَرِيدُونَ الدُّنْيَا ، وَلَا مَنَازِعَةَ فِيهَا ، فَلَمَّا عُرِضَ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ ، إِذَا النَّاسُ فِي ذَلِكَ شَتَّى ، مِنْهُمْ أَخْذَلُ لِلْحَقِّ ، وَنَازَعَ عَنْهُ حِينَ يُعْطَاهُ ، وَمِنْهُمْ تَارَكُ لِلْحَقِّ ، وَنَازَلَ عَنْهُ

في الأمر ، يريد أن يبتئه بغير الحقّ ، طال عليهم عمري وراثاً عليهم^(١) ، أملهم الإمارة ، فاستعجلوا القدر ، وقد كتبوا إليكم : أنّهم قد رجعوا بالذى أعطيتهم ، ولا أعلم أبّي تركت من الذي عاهدتهم عليه شيئاً ، كانوا زعموا أنّهم يطلبون الحدود ، فقلت : أقيمواها على مَنْ علمتم تعلّمها في أحدٍ ، أقيمواها على من ظلمكم من قريبٍ ، أو بعيد ، قالوا : كتاب الله يُتلى ، فقلت : فليتله من ثلاثة غير غالٍ فيه بغير ما أنزل الله في الكتاب .

وقالوا : المحروم يرزق ، والمال يوفى ؛ ليُسْتَنَّ فيه السُّنَّةُ الحسنة ، ولا يُعتدى في الخمس ، ولا في الصدقة ، ويؤمِّر ذو القوَّة ، والأمانة ، وتردّ مظالم الناس إلى أهلها ، فرضيت بذلك ، واصطبرت له ، كتبت إليكم وأصحابي الذين زعموا في الأمر ، استعجلوا القدر ومنعوا مني الصلاة ، وحالوا بيني وبين المسجد ، وابتزُّوا ما قدروا عليه بالمدينة ، كتبت إليكم كتابي هذا ، وهم يخبرونني إحدى ثلات : إما يقيدوني بكلّ رجل أصبه خطأً ، أو صواباً ، غير متوكِّل منه شيءٌ ، وإما اعتزل الأمر ، فيؤمِّرون آخر غيري ، وإما يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد ، وأهل المدينة فيتبرّؤون من الذي جعل الله سبحانه عليهم من السمع ، والطاعة . فقلت لهم : إما إقادتي من نفسي ، فقد كان من قبلني خلفاء تخطئ ، وتصيب ، فلم يُستقد^(٢) من أحدٍ منهم ، وقد علمت أنّما يريدون نفسي ، وأمّا أن أتبرأ من الإمارة ، فإن يكْلُبُونِي^(٣) أحبُّ إلى من أن أتبرأ من عمل الله - عزّ وجلّ - وخلافته ، وأمّا قولكم : يرسلون إلى الأجناد ، وأهل المدينة فيتبرّؤون من طاعتي ، فلست عليكم بوكيل ، ولم أكن استكرهتهم من قبل على السمع والطاعة ، ولكن أتواها طائعين ، يتبعون مرضاة الله - عزّ وجلّ - وإصلاح ذات البين ، ومن يكن منكم يبتغي الدنيا ؟ فليس بتأثيل منها إلا ما كتب الله عزّ وجلّ له ، ومن يكن إنّما يريد وجه الله ، والدار الآخرة ، وصلاح الأمة ، وابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ ، والسنّة الحسنة التي استنَّ بها رسول الله ﷺ ، والخلفيتان من بعده ، رضي الله عنهم ، فإنّما يجزي بذلكم الله ، وليس بيدي جزاؤكم ، ولو أعطيتكم الدنيا كلّها ؛ لم يكن في ذلك ثمنٌ لدينكم ، ولم يُعنَّ عنكم شيئاً ، فاتّقوا الله ، واحتسبيوا ما عندك ، فمن يرضى بالثالث منكم فإني لا أرضاه له ، ولا يرضي الله سبحانه ، أن تنكثوا عهده ، وأمّا الذي تخيرونني فإنّما كله التّزع ، والتأمير ، فملكت نفسي ، ومن معى ، ونظرت حكم الله وتغيير النّعمة من الله سبحانه ، وكرهت سُنَّة السُّوء ، وشقاق الأمة ، وسفك الدّماء ، فإني أنسدكم بالله ، وبالإسلام ألا تأخذوا إلا الحقّ ، وتعطوه ممّي ، وترك البغي على أهله ، وخذلوا بينما بالعدل كما أمركم الله عزّ وجلّ ، فإني أنسدكم الله

(١) راث : أبطأ .

(٢) استقاد الحاكم : سأله أن يقيد القاتل بالقتل .

(٣) كلبه : ضربه بالكلاب . والكلاب : المهماز ، وهو حديدة في عقب خف الفارس يستحث بها فرسه .

سبحانه الذي جعل عليكم العهد ، والمؤازرة في أمر الله ، فإن الله سبحانه قال ، قوله الحق : ﴿ وَلَا نَقْرِئُ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا هِيَ أَحْسَنُ حَقًّا بِمَا أَنْذَمْنَا وَأَوْفَاهُ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْعُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤].

فإن هذه معدنة إلى الله ، ولعلكم تذكرون . أمّا بعد : فإني لا أبرئ نفسي ، ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَارَةٌ بِالْشَّوَّءِ إِلَّا مَارِجَمَ رَبِّ إِنَّ رَبَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٣].

وإن عاقبت أقواماً ؛ فما أبغي بذلك إلا الخير ، وإنّي أتوب إلى الله - عزّ وجلّ - من كل عملٍ عملته ، وأستغفره ، إنّه لا يغفر الذّنوب إلا هو ، إنّ رحمة ربّي وسعت كلّ شيء ، إنه لا يقتنط من رحمة الله إلا القوم الضالّون ، وإنّه يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السيّئات ويعلم ما تفعلون . وأنا أسأل الله - عزّ وجلّ - أن يغفر لي ، ولكم ، وأن يؤلّف قلوب هذه الأمة على الخير ، ويذكرها إليها الفسق . والسلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون ، والمسلمون ! قال ابن عباس : فقرأت هذا الكتاب عليهم قبل التّروية^(١) بمكة بيوم .

٢- هل طلب عثمان رضي الله عنه من الولاية نصرته ؟

يُزعم سيف بن عمر في روايته عند الطّبرى : أنّ عثمان لما حضر كتابة على عماله على الأمصار يستمدّهم ، فأبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري على رأس جيشٍ ، وكذا فعل عبد الله بن سعد في مصر ، فأرسل معاوية بن حديج ، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو على رأس قوّاته^(٢) . وهذا الزّعم لا يتّفق مع منهج عثمان في مواجهة الفتنة من إثارة العافية ، والكفّ ، ولا يتّفق مع تيقنه بالقتل ، ولا يتّفق مع ما لجأ إليه من صرف المدافعين عنه من كبار الصحابة ، وأبنائهم ، بل عيادة ، ومواليه الذين نهاهم أشدّ النّهي عن القتال ، بل جعل العتق نصيب من يكفُ يده منهم ، ولا يقاتل كما سوف نرى .

ولكنّ الذي يمكن تصوّره هو : أنّه كما بادر جماعةٌ من الصحابة إلى الدّفاع عن عثمان دون أن يطلب منهم ذلك ، ورغم محاولات العديدة لصرفهم ، فإنّه قد بادرت جماعاتٌ كثيفةٌ من أجناد المسلمين في الأمصار للدفاع عن الخليفة المظلوم من تلقاء أنفسهم ، وتوجيهه من أمرائهم ، ولا يصحُّ أن نظنّ : أنّ رجلاً مثل معاوية في قرباته من عثمان كان ي sisـعـه - لو أراد - أن يتّقاوس عن السّير إليه ، أو تسير الجنود إليه ، ولا يمكن أن نفترض أنّ رجالاً مثل أنصار عثمان بمصر - وعلى رأسهم معاوية بن حديج ، ومسلمة بن مخلد ، وغيرهما من أبطال المسلمين - كانوا سيتّظرون قابعين حتّى يقتل الخليفة ، ثمَّ يتحرّكون للثّار له ، ويعرضون نحورهم للقتل في سبيله ، بل الذي يمكن تصوّره ، وافتراضه ، أنّ جنوداً من الأمصار قد تحرّكت بالفعل نحو

(١) تاريخ الطّبرى (٤٢٥ / ٥ إلى ٤٣١) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (٣٧٩ / ٥ إلى ٣٨٠) .

المدينة لنجدة الخليفة دون أن يطلب منها نجدهه^(١).

٣- آخر خطبة خطبها عثمان رضي الله عنه :

كان آخر لقاء عام لعثمان مع المسلمين ، بعد أسبوع من الحصار ، حيث دعا الناس ، فاجتمعوا له جمِيعاً ، المحارب الطَّارئ من السَّبَئِين ، والمسالِم المقيم من أهل المدينة ، وكان في مقدمة القادمين : عليٌّ ، وطلحة ، والرَّبِّير ، فلما جلسوا أمامه ؛ قال لهم : إن الله - عزَّ وجلَّ - إنما أعطاكُم الدُّنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكم الدُّنيا لتركنا إليها ، وإنَّ الدُّنيا تفني ، والآخرة تبقى ، فلا تبطرنَّكم الفانية ، ولا تشغلنَّكم عن الباقيَة ، وآتُوكُم ما يبقى على ما يفني ، فإنَّ الدُّنيا منقطعةٌ ، وإنَّ المصير إلى الله ، واتَّقُوا الله - عزَّ وجلَّ - فإنَّ تقواه جُنَاحٌ ، ووقايةٌ من بأسه ، وانتقامه ، والرموا جماعتك ، ولا تصيروا أحْزاباً . قال تعالى : « وَأَعْصِمُوْا بِحَبْلِ اللَّهِ حَبْلًا وَلَا تَفْرَوُا وَلَا كُرُوا نَعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَلَمَّا يَنْتَهِيَتِ الْحَسْبَرُ فَأَصْبَحُتُمْ بِنَعْمَتِهِ إِلَهَنَا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَاعَةٍ حُفْرَةٍ مِّنَ السَّارِ فَانْقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهَدُونَ » [آل عمران : ١٠٣].

ثمَّ قال للMuslimين : يا أهل المدينة ! إنَّى أستودعكم الله ، وأسألَه أن يُحسن عليكم الخلافة من بعدي . وإنَّى والله لا أدخل على أحدٍ بعد يومي هذا ، حتَّى يقضي الله في قضاءه ، ولادعنَّ هؤلاء الخارجين وراء بابي ، ولا أعطيهم شيئاً ، يتَّخذونه عليكم دخلاً في دينِ ، أو دنيا ، حتَّى يكون الله هو الصَّانع في ذلك ما أحبَّ . وأمرَ أهل المدينة بالرجوع ، وأقسم عليهم ، فرجعوا إلا الحسن ، ومحمد بن طلحة ، وابن الرَّبِّير ، وأشياهاً لهم ، فجلسوا على باب عثمان عن أمر آبائهم ، وثاب إليهم ناسٌ كثير ، ولزم عثمان الدَّار^(٢) ، حتَّى أتاه أجله .

سابعاً : استشهاد عثمان رضي الله عنه :

وفضلاً عن تحرك جيوش الأنصار منها لنجدة الخليفة ، فقد كانت أيام الحج تنقضي سريعاً ، وتوشك جماعاتٍ من هؤلاء أن تزحف إلى المدينة لنجدة الخليفة ، وبخاصةً مع وجود عبد الله بن عباس ، وعائشة ، وغيرهما من المدافعين عن عثمان ، وقدمت الأخبار إلى المتمرِّدين بأنَّ أهل الموسم يريدون نصرة عثمان ، فلما أتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأنصار إليهم أعلقهم الشيطان ، وقالوا : لا يُخرجنَا ممَّا وقعنَا فيه إلا قتل هذا الرَّجل فيشتغل بذلك النَّاس عَلَيْهِ^(٣) .

(١) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ، ص (٢٧٨ ، ٢٧٩) .

(٢) تاريخ الطبراني (٥/٣٩٩ ، ٤٠٠) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، (٥/٤٠٢) .

١- آخر أيام الحصار وفيه الرؤيا :

وفي آخر أيام الحصار - وهو اليوم الذي قتل فيه - نام رضي الله عنه ، فأصبح يحدث الناس : ليقتلني القوم ^(١) ، ثم قال : رأيت النبي ﷺ في المنام ، ومعه أبو بكر ، وعمر ، فقال النبي ﷺ : يا عثمان ! أفتر عندي . فأصبح صائماً ، وقتل من يومه ^(٢) .

٢- صفة قتله :

هاجم المتمردون الدار ، فتصدى لهم الحسن بن عليٍّ ، وعبد الله بن الربر ، ومحمد بن طلحة ، وموان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم ، فنشب القتال فنادهم عثمان : الله ! الله ! أنتم في حلٌّ من نصرتي ، فأبوا ، ودخل عثمان في لينصروه ، فأمرهم ألا يفعلوا ، بل إنَّه أعلن : أَنَّهُ مَنْ كَفَ يَدَهُ مِنْهُمْ ؛ فَهُوَ حَرْرٌ ^(٣) ، وقال عثمان في وضوح ، وإصرار ، وحسم - وهو الخليفة الذي تجب طاعته : أَعْزِمُ عَلَى كُلِّ مَا رَأَى : أَنَّ عَلَيْهِ سَمِعاً ، وطاعةً إِلَّا كَفَ يَدَهُ ، وسلاحة ^(٤) ، ولا تبرير لذلك إلا بأنَّ عثمان كان واثقاً من استشهاده بشهادة النبي ﷺ له بذلك ؛ ولذلك أراد ألا تراق بسببه الدماء ، وتقوم بسببه فتنة بين المسلمين ^(٥) .

وكان المغيرة بن الأختنس بن شريق فيمن حجَّ ، ثمَّ تعجل في نفرٍ حجُّوا معه ، فأدرك عثمان قبل أن يقتل ، ودخل الدار يحمي عنه ، وقال : ما عذرنا عند الله إن تركناك ، ونحن نستطيع ألا ندعهم حتى نموت ؟ فأقدم المتمردون على حرب الباب والسفينة ، فثار أهل الدار وعثمان يصلُّي حتى منعوه ، وقاتل المغيرة بن الأختنس ، والحسن بن عليٍّ ، ومحمد بن طلحة ، وسعيد بن العاص ، وموان بن الحكم ، وأبو هريرة ، فأبلوا أحسن البلاء ، وعثمان يرسل إليهم في الانصراف دون قتالٍ ، ثمَّ ينتقل إلى صلاته ، فاستفتح قوله تعالى : ﴿ طه ٣١ ﴾ .

وكان سريع القراءة فما أزعجه ما سمع ، ومضى في قراءته ما يخطئ ، وما يتعذر ، حتى إذا أتى إلى نهايتها قبل أن يصلوا إليه ثمَّ عاد ، فجلس ، وقرأ : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنُنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَيْنَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧] .

(١) الطبقات ، لابن سعد (٣/٧٥) . وفتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/١٧٢) .

(٢) الطبقات (٣/٧٥) الخبر حسنٌ لغيره . وفتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/١٧٥) .

(٣) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ، ص(٢٨٢) . والبداية والنهاية (٧/١٩٠) .

(٤) العواصم من القواصم ، ص (١٣٣) .

(٥) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ، ص (٢٨٣) .

وأصيب يومئذ أربعة من شباب قريش ، وهم : الحسن بن عليٍّ ، وعبد الله بن الرّبير ، ومحمد بن حاطب ، ومروان بن الحكم^(١) ، وقتل المغيرة بن الأخنس ، ونيار بن عبد الله الأسلمي^(٢) ، وزياد الفهري ، واستطاع عثمان أن يقنع المدافعين عنه ، وألزمهم بالخروج من الدّار ، وخلي بيته وبين المحاصرين ، فلم يبق في الدّار إلا عثمان ، والله ، وليس بينه وبين المحاصرين مدافع ، ولا حام من الناس ، وفتح رضي الله عنه باب الدّار^(٣) .

وبعد أن خرج من في الدّار ممّن كان يريد الدفاع عنه ، نشر رضي الله عنه المصحف بين يديه ، وأخذ يقرأ منه وكان إذ ذاك صائماً ، فإذا برجلٍ من المحاصرين - لم تسمّه الروايات - يدخل عليه ، فلما رأه عثمان رضي الله عنه قال له : بيني وبينك كتاب الله^(٤) ، فخرج الرجل ، وتركه . وما إن ولَّ حتى دخل آخر ، وهو رجلٌ منبني سodos ، يقال له : الموت الأسود ، فخنقه قبل أن يضرره بالسيف ، فقال : والله ما رأيت شيئاً ألين من خنقه ، لقد خنقته حتى رأيت نفسه مثل الجان^(٥) ، تردد في جسده ، ثم أهوى إليه بالسيف ، فاتّاه عثمان رضي الله عنه بيده فقطعها ، فقال عثمان : أما والله إنّها لأول كفٌ خطّ المفصل^(٦) ، وذلك أنه كان من كتبة الوحي ، وهو أول من كتب المصحف من إملاء رسول الله ﷺ ، فقتل رضي الله عنه والمصحف بين يديه ، وعلى أثر قطع اليد انتضج الدّم على المصحف الذي كان بين يديه يقرأ منه ، وسقط على قوله تعالى : «**وَسَيَّكُنْفِي كَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ أَسْعِي أَمْكِلِمُ**» [القرآن : ١٣٧]^(٧) .

وفي رواية : إنَّ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَهُ رَجُلٌ يُسَمَّى رومان اليماني ، ضربه بصلجان ، ولما دخلوا عليه ليقتلوه أشدّ قائلًا :

أَرَى الْمَوْتَ لَا يُقْيِي عَزِيزًا وَلَمْ يَدْعُ لِعَادٍ مَلَادًا فِي الْبِلَادِ وَمُرْتَقَى
وَقَالَ أَيْضًا :

يَبْيَثُ أَهْلُ الْحِضْنِ وَالْحِضْنُ مُغْلَقٌ وَيَأْتِي الْجِبَالَ فِي شَمَارِيخِهَا^(٨) الْعَلَى^(٩)

(١) فتنة مقتل عثمان، رضي الله عنه (١٦٩/١) رواية صحيحة. وتاريخ الطبرى (٤٠٤/٥).

(٢) الخلفاء الراشدون ، للخالدي ، ص (١٨٤ ، ١٨٥) . والبداية والنهاية (١٩٦/٧) .

(٣) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١٨٨/١) .

(٤) تاريخ الطبرى (٤٠٦ ، ٤٠٥/٥) .

(٥) تاريخ ابن خيّاط ، ص (١٧٤ ، ١٧٥) إسناده صحيح ، أو حسن .

(٦) تاريخ الطبرى (٣٩٨/٥) .

(٧) المصدر السابق نفسه ، (٣٩٨/٥) الخبر له طرق عديدة بمجموعها يرتقي إلى درجة الحسن لغيره .

(٨) شماريختها : رؤوسها (لسان العرب ٣/٣١) . والبداية والنهاية (١٩٢/٧) .

(٩) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١٩١/١) . والبداية والنهاية (١٩٢/٧) .

ولمَا أحاطوا به ، قالت امرأته نائلة بنت الفرافصة : إن تقتلوه ، أو تدعوه ، فقد كان يحيى الليل بركرة ، يجمع فيها القرآن^(١) وقد دافعت نائلة عن زوجها عثمان ، وانكبت عليه ، وأتّقت السيف بيدها ، فتعمّدَها سودان بن حمران ، ونضع أصابعها ، فقطع أصابع يدها ، وولَّ ، فغمز أوراكها^(٢) .

ولمَّا رأى أحد غلمان عثمان رضي الله عنه الأمر ؛ راعه قتل عثمان رضي الله عنه ، وكان يسمّي (نجيح) فهجم نجيح على سودان بن حمران ، فقتله ، ولمَّا رأى قتيرة بن فلان السكوني نجيحاً قد قتل سودان ، هجم على نجيح فقتله ، وهجم غلام آخر لعثمان رضي الله عنه اسمه (صبيح) على قتيرة بن فلان فقتله ، فصار في البيت أربعة قتلى ، شهيدان ، مجرمان ، وأمّا الشهيدان : فعثمان رضي الله عنه ، وغلامه نجيح ، وأمّا المجرمان ، فسودان ، وفتيرة السكونيَّان ، ولما تمَّ قتل عثمان رضي الله عنه نادى منادي القوم السبئيين قائلاً : إنَّه لم يحلَ لنا دم الرجل ويحرِّم علينا ماله ، ألا إِنَّ ماله حلال لنا ، فانهبو ما في البيت ، فعاد رعاع السبئيين في البيت فساداً ، ونهبوا كلَّ ما في البيت ، حتَّى نهبو ما على النساء ، وهجم أحد السبئيين ، ويدعى كلثوم التَّجبي على امرأة عثمان رضي الله عنه نائلة رضي الله عنها ونهب الملاعة التي عليها ، ثمَّ غمز ورُكَّها ، وقال لها : ويَحْ أُمَّكَ من عجِيزة ما أَتَمَّكَ ! فرأَه غلام عثمان رضي الله عنه (صبيح) وسمعه ، وهو يتكلَّم في حقِّ نائلة هذا الكلام الفاحش ، فعلاه بالسيف فقتله^(٣) . وهجم أحد السبئيين على الغلام فقتله .

وبعدما أتمَ السبئيون نهب دار عثمان ، تنددوا ، وقالوا : أدركوا بيت المال ، وإياكم أن يسبقكم أحدُ إليه ، وخذلوا ما فيه ، وسمع حَرَّاس بيت المال أصواتهم ، ولم يكن فيه إلا غراراتان من طعام فقالوا : انجووا بأنفسكم فإنَّ القوم يريدون الدنيا ، واقتتحم السبئيون بيت المال ، وانهبو ما فيه^(٤) .

حقَّ الخوارج السبئيون مرادهم ، وقتلوا أمير المؤمنين ، وتوقفَ كثير من أتباعهم من الرُّعاع والغواء بعد قتل عثمان ؛ ليفكروا ، وما كانوا يظُنُّون : أَنَّ الْأَمْرَ سِيَّتْهِي بِهِمْ إِلَى قَتْلِهِ ، لقد استغفلُهم شياطينهم السبئيون ، واستغلُّوهم في الشُّغُب على عثمان ، أمّا أن يقتلوه فهذا ما استفظعوه ، واستشعروه ، وأسقط في أيدي هؤلاء الغواء ، وحصل لهم كما حصل لبني إسرائيل ، لما عبدوا العجل ، ندم بعضهم ، كما قال الله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُّوسَىٰ مِّنْ بَعْدِهِ مِنَ

(١) الطَّبقات (٣/٧٦) . وفتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١٩١/١) .

(٢) تاريخ الطَّبرِي (٤٠٦/٥ ، ٤٠٧) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (٤٠٧/٥) .

(٤) تاريخ الطَّبرِي (٤٠٧/٥) .

حُلِّيَّهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوارٌ الَّتِي رَوَاهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَيِّلًا أَنْخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٦﴾
وَلَمَّا سُقِطَ فِي سَقْطِهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلَّوْا قَاتُلُوا لِئَنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَعْفُرْ لَنَا لَكُونَنَا مِنَ
الْخَسِيرِينَ ﴿١٤٨﴾ [الأعراف: ١٤٩ - ١٤٨].

وحزن الصالحون في المدينة لمقتل خليفتهم ، وصاروا يسترجعون ، ويكون ، لكن ماذا يفعلون ؟ وجيوش الخوارج السبئيين تتحلل المدينة ، وتعيث فيها فساداً ، وتبعد أهلها من فعل أي شيء ؟ وكان الحاكم الفعلي للمدينة هو أمير خوارج مصر (الغافقي بن حرب العكري) وكان معهم شيطانهم المخطط (عبد الله بن سباً) وهو فرخ مسرورٌ لما وصل إليه من أهدافٍ ، ومارب يهودية شيطانية ، وعلق كبار الصحابة على مقتل عثمان^(٢).

أ- الرُّبِّيرُ بْنُ الْعَوَامِ رضيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا عُلِمَ بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ ؛ قَالَ : رَحْمَةُ اللهِ عَثْمَانَ ! إِنَّا لِلهِ،
وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! فَقَيْلَ لَهُ : إِنَّ الْقَوْمَ نَادِمُونَ . فَقَالَ : دَبَّرُوا ، وَدَبَّرُوا ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ اللهُ
تَعَالَى : « وَجِيلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا قُلَّلَ بِإِشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ إِيمَانِهِمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ » [سبا] :
[٥٤].

ب- طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه لـما علم بمقتل عثمان ؛ قال : رَحْمَةُ اللهِ عَثْمَانَ ! إِنَّا
لِلهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! فَقَيْلَ لَهُ : إِنَّ الْقَوْمَ نَادِمُونَ . قَالَ : تَبَّأْ لَهُمْ ! وَقَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى : « مَا
يَنْظَرُونَ إِلَّا صِحَّةً وَحْدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَنْصَمِرُونَ ﴿٤٤﴾ فَلَا يَسْتَطِعُونَ تَوْصِيَّةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ »
[يس: ٥٠ - ٤٩].

ج- عَلَيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا عُلِمَ بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ ؛ قَالَ : رَحْمَةُ اللهِ عَثْمَانَ ! إِنَّا لِلهِ،
وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! فَقَيْلَ لَهُ : إِنَّ الْقَوْمَ نَادِمُونَ . فَقَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى : « كَثُنَلَ الشَّيْطَانُ إِذَا
أَكَفَرَ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِلَيْهِ بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمَيْنَ ﴿١١﴾ فَكَانَ عَقِيقَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ
خَلِيلَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ » [الحجر: ١٦ - ١٧].

د- سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : ولـما علم سعد بن أبي وقاص بذلك ، قال : رَحْمَةُ اللهِ
عَثْمَانَ ! ثُمَّ تلا قَوْلَهُ تَعَالَى : « قُلْ هَلْ نُنَيْشُكُ بِالْأَحْسَنِنَ أَعْمَلَأَنَّ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِيَوْمِ رَبِيعَهُمْ وَلَقَائِهِمْ فَحَطَّتْ أَعْنَالُهُمْ فَلَا لُقْمَانُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمةِ وَرَزَقَهُمْ
ذَلِكَ جَرَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَأَنْهَذُوا إِيَّاهُ وَرَسَّلُهُ هُرْزَوًا » [الكهف: ١٠٣ - ١٠٦].

ثـ قال سعد : اللَّهُمَّ أَنْدَمْهُمْ ، وَانْخَرْهُمْ ، وَانْخَذْهُمْ ، ثـ خَذْهُمْ^(٣) ! واستجواب الله دعوة

(١) البداية والنهاية (١٩٧/٧، ١٩٨، ١٩٧/٧).

(٢) الخلفاء الرأسدون ، للخلالي ، ص (١٩٠). البداية والنهاية (١٩٧/٧).

(٣) تاريخ الطبرى (٤٠٨، ٤٠٧/٥). والبداية والنهاية (١٨٩/٧).

سعد - وكان مستجاب الدعوة - فقد أخذ كل من شارك في قتل عثمان ، مثل عبد الله بن سباء ، والغافقيّ ، والأشتر ، وحكيم بن جبلة ، وكنانة التّجبيّ ، حيث قتلوا فيما بعد^(١) .

ثامناً: تاريخ قتله ، وسنته عند استشهاده ، وجنائزه ، والصلوة عليه ، ودفنه :

١- تاريخ قتله :

إنَّ في تحديد السنة التي قتل فيها عثمان رضي الله عنه شبه إجماع من المؤرِّخين ، فلم يقع خلافٌ في أنَّه كان في السنة الخامسة بعد الثلاثين من الهجرة ، إلا ما رُوي عن مصعب بن عبد الله من أنَّه كان من السنة السادسة والثلاثين^(٢) وهو قولٌ شاذٌ مخالفٌ للإجماع ، فمن قال بالقول الأول جمْعٌ غَيْرُ ، منهم : عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وعامر بن شرحبيل الشعبيُّ ، ونافع مولى ابن عمر ، ومخرمة بن سليمان ، وغيرهم كثير^(٣) ، ولم يختلف المؤرِّخون في الشهر الذي قتل فيه ، وأنَّه ذو الحجَّة ، إلا أنَّه اختلف في تحديد ما بعد ذلك من اليوم والساعة ، والذي ترجَّح لدىَّ من أقوال العلماء الكثيرة : أنَّه استشهد في ١٨/١٢ هـ^(٤) .

وأمّا عن تحديد اليوم الذي قتل فيه من أيام الأسبوع ففيه ثلاثة أقوال ؛ والذي ترجَّح لدىَّ من هذه الأقوال قول الجمهور ، وهو يوم الجمعة ؛ لأنَّه قول الجمهور ، ولم يخالفه قولٌ أقوى منه^(٥) ، وكان وقت قتله صبيحة يوم الجمعة ، وهو ما ذهب إليه الجمهور ، ولم يخالف بأقوى منه^(٦) .

٢- سنته عند استشهاده :

اضطربت الروايات في سنه عند استشهاده ، والخلاف في ذلك قديمٌ ، حتَّى إنَّ الطَّبرِيَّ - رحمه الله - يقول : اختلف السَّلف قبلنا في قدر مدة حياته^(٧) ، والذي أميل إليه أنَّه توفي وسنه : اثنان ، وثمانون (٨٢ سنة) وهو قول الجمهور ويترجَّح هذا القول لعدة أسبابٍ ، منها :

أ- أنَّ نتيجة مقارنة سنة ولادته مع سنة استشهاده تؤيد هذا القول ؛ فإنَّه ولد في السنة السادسة

(١) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٩٢) .

(٢) تاريخ الطَّبرِي (٤٣٥/٥ ، ٤٣٦) .

(٣) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١٩٣/١ ، ١٩٤) .

(٤) تاريخ الطَّبرِي (٤٣٥/٥) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤٣٦/٥) .

(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤٣٧/٥) .

(٧) تاريخ الطَّبرِي (٤٣٨/٥) .

بعد عام الفيل ، واستشهد في السنة الخامسة والثلاثين بعد الهجرة ، فطُرُح تاريخ مولده من تاريخ استشهاده يتبيّن لنا سُنُّه عند استشهاده .

بـ-إِنَّهُ قَوْلُ الْجَمْهُورِ ، وَلَمْ يَخُالِفْهُ قَوْلُ أَقْوَى مِنْهُ^(١) .

٢ـ جنازته والصلوة عليه ، ودفنه :

قام نفر من الصحابة في يوم قتله بغسله ، وكففوه وحملوه على باب ، ومنهم حكيم بن حزام ، وحوبيط بن عبد العزّى ، وأبو الجهم بن حذيفة ، ونيار بن مكرم الأسلميُّ ، وجبير بن مطعم ، والرُّبَّير بن العوام ، وعليٌّ بن أبي طالب ، وجماعةٌ من أصحابه ، ونسائه ، منهنَّ أمرأاته نائلة ، وأم البنين بنت عتبة بن حصين ، وصبيان ، وصلَّى عليه جبير بن مطعم ، وقيل : الرُّبَّير بن العوام ، وقيل : حكيم بن حزام ، وقيل : مروان بن الحكم ، وقيل : المسور بن مخرمة^(٢) ، والذِّي ترجح عندي : أَنَّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ الرُّبَّيرُ بْنُ الْعَوَامَ لِرِوَايَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مسنته ، فقد بيَّنت تلك الرِّوَايَةُ أَنَّ الرُّبَّيرَ بْنَ الْعَوَامَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، صَلَّى عَلَى عُثْمَانَ ، وَدَفَنَهُ ، وَكَانَ أَوْصَى إِلَيْهِ^(٣) .

وقد دُفِنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَلًا وَقَدْ أَكَدَ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ ، وَالذَّهَبِيُّ حَيْثُ ذَكَرَ أَنَّهُ دُفِنَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ ، وَالْعَشَاءِ^(٤) ، رَضِوانُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا مَا رَوَاهُ الطَّبرانيُّ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ الْمَاجِشُونَ ، قَالَ : سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ : قَتْلُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَقَامَ مَطْرُوحًا عَلَى كَنَاسَةِ بَنِي فَلَانِ ثَلَاثَاتٍ^(٥) ، فَالرِّوَايَةُ السَّابِقَةُ ضَعِيفٌ سَنْدُهَا ، وَبَاطِلٌ مَنْتَهَا ، فَأَمَّا السَّنَدُ فَيَهُ عَلَّتَانٌ :

أـ- ضعف عبد الملك بن الماجشون الذي كان يروي المناكير عن الإمام مالك .

بـ- أن هذه الرِّوَايَةُ مرسلةٌ حيث إنَّ الإمام مالكًا لم يدرك مقتل عثمان رضي الله عنه لأنَّه لم يولد إلا سنة ٩٣ هـ^(٦) .

وأَمَّا متن هذه الرِّوَايَةِ ؛ فباطلٌ ، وفيه يقول ابن حزم : مَنْ قَالَ : إِنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقَامَ مَطْرُوحًا عَلَى مَزْبَلَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَكَذَبٌ بَحْثٌ ، وَإِفْلُكٌ مُوضِوعٌ ، وَتَولِيدٌ مَنْ لَا حَيَاءٌ فِي وَجْهِهِ . . . ولقد أمر رسول الله ﷺ برمي أجساد قتلى الكفار من قريش يوم بدر في القليب ، وألقى التَّرَاب

(١) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/٢٠٤) .

(٢) البداية والنهاية (٧/١٩٩) .

(٣) الموسوعة الحدیثیة مستند الإمام أحمـد (١/٥٥٥) رجـال الإسنـاد ثـقـات إـلا أـنـه مـنـقطعـ .

(٤) الطبقات (٣/٧٨) . وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء) ، ص (٤٨١) .

(٥) المعجم الكبير (١/٧٨) . واستشهاد عثمان ، ص (١٩٤) .

(٦) التهذيب ابن حجر (٦/٤٠٨) .

عليهم ، وهم شرُّ خلق الله تعالى ، وأمر عليه السلام أن يحضر أخاديد لقتلى يهود قريطة ، وهم شرُّ من وارته الأرض ، فمواراة المؤمن والكافر فرضٌ على المسلمين ، فكيف يجوز لذى حياءٍ في وجهه أن ينسب إلى عليٍّ وهو الإمام ، وَمَنْ بِالْمَدِينَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ ؟ أَنَّهُمْ تَرَكُوا رجلاً مِيَّاً بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ عَلَى مَزْبَلَةٍ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، لَا يَوْرُونَهُ^(١) .

إنه لا يدخل في عقل أي إنسانٍ سليمٍ من داء الرَّفض : أَنَّهُمْ يَتَرَكُونَ إِمَامَهُمْ مَلْقُى دُونِ دُفِنٍ ثلاثة أيامٍ مِمَّا كَانَ قَوْةً أَوْلَئِكَ الْفَجْرَةُ الَّذِينَ جَاؤُوا الْحَصَارَهُ وَقُتْلُهُ ، فَالصَّحَابَهُ كَمَا وَصَفَهُمْ رَبُّهُمْ لَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَهُ لَائِمٌ ، وَإِنَّمَا تَلْكَ الرِّوَايَاتُ الَّتِي شُوَهَتْ كَتَبَ التَّارِيخَ مِنْ دُسُّ الرَّوَايَضِ^(٢) .

٤- براءة محمد بن أبي بكر الصديق من دم عثمان رضي الله عنه :

إنَّ قاتل عثمان رضي الله عنه رجلٌ مصريٌّ ، لم تفصح الرِّوَايَاتُ عَنْ اسْمِهِ ، وَبَيَّنَتْ : أَنَّهُ سَدُوْسِيُّ الْأَصْلِ ، أَسْوَدُ الْبَشَرَةِ ، لَقْبُ بِ(جبلة) لسواد بشرته ، كما لقب أيضاً بـ(الموت الأسود) وذهب محبُّ الدِّينِ الْخَطِيبُ إِلَى أَنَّ الْقَاتِلَ : هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأً حَيْثُ قَالَ : وَمِنَ الثَّابَتِ أَنَّ ابْنَ سَبَأً كَانَ مَعْ ثُوَّارِ مَصْرِ عِنْدَ مَجِيئِهِمْ مِنَ الْفَسْطَاطِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَهُوَ فِي كُلِّ الْأَدْوَارِ الَّتِي مُثَلَّهَا كَانَ شَدِيدُ الْحَرْصِ عَلَى أَنْ يَعْمَلَ مِنْ وَرَاءِ سَتَارٍ ، فَلَعِلَّ بِ(الموت الأسود) اسْمُ مُسْتَعَازٍ لَهُ أَرَادَ أَنْ يُرْمِزَ بِهِ إِلَيْهِ ، لِيُتَمَكَّنَ مِنْ مُوَاصِلَةِ دَسَائِسِهِ لِهُدُمِ الْإِسْلَامِ^(٣) ، وَقَدْ يَشَهِّدُ لَهُ : أَنَّ ابْنَ سَبَأً أَسْوَدُ الْبَشَرَةِ ، فَقَدْ صَحَّ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ وَصَفَهُ بِالْخَبِيثِ ، وَسَوْدَ الْبَشَرَةِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : الْخَبِيثُ الْأَسْوَدُ^(٤) .

وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِتَهْمَةِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ، بِقَتْلِ عَوْمَانَ بِمُشَاقِصَهُ ، فَهَذَا باطِلٌ ، وَقَدْ جَاءَتْ رِوَايَاتٌ ضَعِيفَةٌ فِي ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّ مَتَوْنَهَا شَادَّهُ ، لِمُخَالَفَتِهَا لِلرِّوَايَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ : أَنَّ الْقَاتِلَ هُوَ رَجُلٌ مصريٌّ^(٥) ، وَقَدْ ذَكَرَ الدُّكْتُورُ يَحْيَى الْيَحْيَى عَدَّةَ أَسْبَابٍ تَرْجِحُ بِرَاءَةَ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ دَمِ عَوْمَانَ ، مِنْهَا :

أ- أَنَّ عَايَشَةَ رضي الله عنها خرجت إلى البصرة للمطالبة بقتلة عثمان ، ولو كان أخوها منهم ما حزنَتْ عَلَيْهِ ، لَمَّا قُتِلَ فِيمَا بَعْدُ ، وَسِيَّاتِي تَفْصِيلَهُ عِنْدَ حَدِيثِنَا عَنْ عَلِيٍّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى .

(١) الفصل (٤/٢٣٩ ، ٢٤٠) .

(٢) عقيدة أهل السنة (٣/١٠٩١) .

(٣) العواصم من القواسم ، نقاً عن فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/٢٠٧) .

(٤) لسان الميزان (٣/٢٩٠) .

(٥) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/٢٠٩) .

ب - لَعْنُ عَلِيٍّ رضي الله عنه لقتلة عثمان رضي الله عنه وتبَرُّؤه منهم يقتضي عدم تقريرهم ، وتوليتهم ، وقد ولَى محمد بن أبي بكر مصر ، فلو كان منهم ؟ ما فعل ذلك .

ج - ما أخرجه ابن عساكر بسنده عن محمد بن طلحة بن مصرف ، قال : سمعت كنانة مولى صفية بنت حبيبي ، قال : شهدت مقتل عثمان وأنا ابن أربع عشرة سنة . قالت : هل أندى محمد بن أبي بكر بشيء من دمه ؟ فقال : معاذ الله ! دخل عليه ، فقال عثمان : يا بن أخي ! لست بصاحبِي ، فخرج ، ولم يُدْرِكْ من دمه بشيء^(١) .

ويشهد لهذا ما أخرجه خليفة بن خيّاط ، والطبراني بإسناد رجاله ثقائلاً عن الحسن البصري - وكان ممَّن حضر يوم الدّار^(٢) ؛ أنَّ ابن أبي بكر أخذ بلحيته ، فقال عثمان : لقد أخذت مني مأخذنا ، أو قعدت مني مقعداً ما كان أبوك ليقعده ! فخرج ، وتركه^(٣) .

وبهذا يتبيَّن لنا براءة محمد بن أبي بكر الصديق من دم عثمان ، براءة الذئب من دم يوسف ، كما تبيَّن : أنَّ سبب تهمته هو دخوله عليه قبل القتل^(٤) ، وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله - أنَّه لَمَّا كلمه عثمان رضي الله عنه استحى ، ورجع ، وتندَّم ، وغطَّى وجهه ، وحاجز دونه ، فلم تفده محاجزته^(٥) .

* * *

(١) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبراني ص (٢٤٣) .

(٢) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبراني ص (٢٤٤) . وتهذيب الكمال (٩٧ / ٦) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (٢٤٤) .

(٤) فتنَة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (٢٠٩ / ١) .

(٥) البداية والنهاية (١٩٣ / ٧) .

المبحث الرّابع

موقف الصّحابة رضي الله عنهم من مقتل عثمان رضي الله عنه

شوّهت بعض كتب التّاریخ مواقف الصّحابة من فتنة مقتل عثمان ؛ وذلك بسبب الرّوایات الإمامية التي ذكرها كثيرٌ من المؤرّخین ، فالمتّبع لأحداث الفتنة في تاریخ الإمام الطّبریيّ ، وكتب التّاریخ الأخرى من خلال روایات أبي مخنف ، والواقدی وابن أعثم ، وغيرهم من الإخباريين يشعر : أنَّ الصّحابة هم الّذين كانوا يحرّكون المؤامرة ، ويثيرون الفتنة ، فأبو مخنف ذو المیول الشّیعیة لا يتورّع في اتهام عثمان بأئمّة الخليفة الّذی کثُرت سقطاته ، فاستحقَ ما استحقَ ، ويُظہر طلحة في مرويّاته کوأحدٍ من الثائرين على عثمان ، والمؤلّفين ضدَّه ، ولا تختلف روایات الواقدی عن روایات أبي مخنف ، فعمرو بن العاص يقدم المدينة ، ويأخذ في الطّعن على عثمان ، وقد کثُرت الرّوایات الإمامية التي تتّهم الصّحابة بالتأمر ضدَّ عثمان رضي الله عنه وأنَّهم هم الّذين حرَّكوا الفتنة ، وأثاروا الناس ، وهذا کله كذبٌ ، وزورٌ^(١) .

وخلالاً للرّوایات الإمامية والموضوعة والصّعيفه فقد حفظت لنا كتب المحدثين - بحمد الله - الرّوایات الصّحیحة التي يظهر فيها الصّحابة من المؤازرين لعثمان ، والمنافحين عنه ، المتبرّئين من قتلـه ، والمطالبين بدمـه بعد مقتله ، وبذلك يُستبعد أيُّ اشتراكٍ لهم في تحريك الفتنة ، أو إثارتها^(٢) .

إنَّ الصّحابة جمیعاً رضي الله عنهم أبرياء من دم عثمان رضي الله عنه ومن قال خلاف ذلك ؟ فكلامـه باطلٌ لا يستطيع أن يقیم عليه أيَّ دلیل ينهض إلى مرتبة الصّحة ، ولذلك أخرج خلیفـة في تاریخـه عن عبد الأعلى بن الهیشـم ، عن أبيه ، قال : قلت للحسن : أكان فیمن قتل عثمان أحدٌ من المهاجرـین ، والأنصار ؟ قال : لا ، كانوا أعلاجـاً^(٣) ، من أهل مصر . وقال الإمام التّنـوويـ: ولم يشارـك في قتلـه أحدٌ من الصّحـابة ، وإنـما قتلـه همجٌ ، ورعاـعٌ من غوغـاء القـبائل سفلـة الأطـراف والأراذـل ، تحـبـبـوا ، وقصدـوه من مصر ، فعجزـت الصّحـابة الحـاضـرون عن

(١) تحقيق مواقف الصّحابة (١٤/١٨ إلى ١٤) .

(٢) المصدر السّابق نفسه .

(٣) العلاجـ : کلُّ جـافـ شـدـيدـ من الرـجالـ .

دفعهم ، فحصروه حتى قتلوه ، رضي الله عنه^(١) .

وقد وصفهم الزبير رضي الله عنه بأنهم غوغاء من الأنصار ، ووصفتهم السيدة عائشة بأنهم نزاع القبائل^(٢) . ووصفهم ابن سعد بأنهم حثالة الناس متّفقون على الشر^(٣) . ووصفهم ابن تيمية بأنهم خوارج مفسدون ، وضالّون ، باغون معتدون^(٤) ، ووصفهم الذّهبي بأنهم رؤوس شرّ ، وجفاء^(٥) ، ووصفهم ابن العماد الحنبلي في الشذرات بأنهم أراذل من أرباش القبائل^(٦) .

ويشهد على هذا الوصف تصرّف هؤلاء الرّعاع من ذالك الحصار إلى قتل الخليفة رضي الله عنه ظلماً ، وعدواناً ، فكيف يمنع الماء عنه ، والطّعام ، وهو الذي طالما دفع من ماله الخاص ما يروي ظمأ المسلمين بالمجان^(٧) ، وهو الذي ساهم بأموالٍ كثيرةٍ عندما يلمُ بالناس مجاعةً ، أو مكرورةً ، وهو الدائم العطاء عندما يصيب الناس ضائقهً ، أو شدّةً من الشّدائِد^(٨) ، حتى إنَّ الذي رضي الله عنه يصف هذا الحال ، وهو يؤنب المحاصرين بقوله : يا أيُّها النَّاس ! إنَّ الذي تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين ، ولا أمر الكافرين ، فلا تمنعوا عن هذا الرَّجل الماء ، ولا المادة - الطّعام - فإن الرُّوم ، وفارس لتأسر ، وتطعم ، وتستقي^(٩) .

لقد صحت الأخبار ، وأكَّدت حوادث التاريخ على براءة الصحابة من التحرير على عثمان أو المشاركة في الفتنة ضده^(١٠) .

● وإليك أقوال الصحابة في البراءة من دم عثمان :

أولاًً : ثناء أهل البيت على عثمان رضي الله عنه وبراءتهم من دمه :

١- موقف السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها :

أ- عن فاطمة بنت عبد الرحمن اليمكريَّة عن أمها : أنها سالت عائشة ، وأرسلها عُمّها ،

(١) شهيد الدّار عثمان بن عفان ، ص (١٤٨) .

(٢) شرح التّوسي على صحيح مسلم (١٤٨/١٥) ، كتاب فضائل الصحابة .

(٣) تحقيق موافق الصحابة (٤٨١/١) ، طبقات ابن سعد (٧١/٣) .

(٤) منهاج السنة (٢ - ١٨٩) .

(٥) دول الإسلام للذهبي (١٢١/١) .

(٦) انظر : تحقيق موافق الصحابة (٤٨٢/١) . البخاري ، كتاب مناقب عثمان (٤/٢٠٢) . وشذرات الذّهب (٤٠/١) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

(٨) التمهيد والبيان ، ص (٢٤٢) .

(٩) تاريخ الطّبرى (٤٠٠/٥) .

(١٠) تحقيق موافق الصحابة (١٨/٢) .

فقالت : إِنَّ أَحَدَ بْنِكَ يَقْرَئُكَ السَّلَامَ ، وَيَسْأَلُكَ عَنْ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ أَكْثَرُوا فِيهِ !
قالت : لَعْنَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَهُ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ قَاعِدًا عِنْدَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ رَسُولَهُ ﷺ مُسْنَدٌ ظَهَرَهُ إِلَيَّ ،
وَأَنَّ جَبَرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيَوْحِي إِلَيْهِ الْقُرْآنَ ، وَإِنَّهُ لِيَقُولُ : اكْتُبْ عُثْمَانَ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَنْزِلَ تَلْكَ
الْمَنْزِلَةَ إِلَّا كَرِيمًا عَلَى اللَّهِ ، وَرَسُولِهِ^(١) .

بـ- وعن مسروق عن عائشة ، قالت حين قتل عثمان : تركتموه كالثوب النقي من الدنس ،
ثُمَّ قررتموه تذبحونه ، كما يذبح الكبش ! فقال لها مسروق : هذا عملك ، أنت كتبت إلى الناس
تأمرنهم بالخروج إليه ! قالت عائشة : لا والذى آمن به المؤمنون ، وكفر به الكافرون ما كتبت
إليهم بسوداء في بيضاء حتى جلست مجلسى هذا^(٢) ! وقد مر معنا كذب السبئيين ، وأنهم كتبوا
رسائل لأهل الأمصار ، ونسبوها كذباً وزوراً للسيدة عائشة رضي الله عنها .

جـ- ولما سمعت بموت عثمان في طريق عودتها من مكة إلى المدينة رجعت إلى مكة ودخلت
المسجد الحرام ، وقصدت الحجر ، فتستررت فيه ، واجتمع الناس إليها ، فقالت : أيها الناس ! إن
الغوغاء من أهل الأمصار ، وأهل المياه ، وعيid أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا
المقتول بالأمس الإرب^(٣) ، واستعمل من حدث سنه ، وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواضع
من الحمى حماها لهم ، وهي أمر قد سبق بها ، لا يصلح غيرها ، فتابعهم ، ونزع لهم عنها
استصلاحاً لهم ، فما لم يجدوا حاجه ، ولا غدرأً خلجو^(٤) ، وبادروا بالعدوان ، ونبأ فعلهم عن
قولهم ، فسفكوا الدَّم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا
الشهر الحرام . والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ، فنجاة^(٥) من اجتماعكم
عليهم حتى يتكل^(٦) بهم غيرهم ، ويشرد^(٧) من بعدهم ، ووالله لو أنَّ الذى اعتدوا به عليه كان
ذنباً ، لخلص منه كما يخلص الذهب من خبته ، أو التَّوْبَ من درنه ؛ إذ ما صوَّهُ كما يماصِّ التَّوْبَ
بالماء^(٨) .

وعلى العكس من الصورة الطيبة التي نفهمها من الرَّوايات السَّابقة الموثوقة للعلاقة بين أم

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٣٧٨/١) . المستند (٢٦١ ، ٢٥٠/٦) . والبداية والنهاية (٢١٩/٧) .

(٢) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (٣٩١/١) . وتاريخ خليفة بن خياط ، ص (١٧٦) ، إسناده صحيح
إلى عائشة ، رضي الله عنها .

(٣) الأرب : الحاجة ، والدَّهاء ، والفطنة ، والعقل .

(٤) خلجو : تحرّكوا ، واضطربوا .

(٥) نجاة : اطلبوا النجاة باجتماعكم عليهم .

(٦) يتكل بهم غيرهم : حتى يردعهم ، ويرفع بهم غيرهم .

(٧) يشد : يفرق ، ويبعد جمعهم .

(٨) تاريخ الطبرى (٤٧٤/٥ ، ٤٧٣/٤) .

المؤمنين عائشة ، وعثمان ، فإنَّه تبقى عند الطَّبْرِيُّ وغيره روایاتٌ أخرى صوَّرت العلاقة بين عائشة ، وعثمان على صورة متناقضَة تماماً لما انتهينا إليه ، وشوَّهت الدَّور الرَّائع التَّابع ، الوعي ، الذي قامت به رضي الله عنها ، دفاعاً عن حرمات الله عَزَّ وجَلَّ ، ودفعاً عن عثمان رضي الله عنه ، وفهمَا لِلأَعْيَب السَّبَيَّةَ^(١) .

إنَّ الرَّوَايَاتُ الَّتِي جاءت في العقد الفريد ، وفي الأغاني ، وتاريخ اليعقوبي ، وتاريخ المسعودي ، وأنساب الأشراف ، وما انتهت إليه من استدلالات في شأن الدَّور السياسي للسيدة عائشة رضي الله عنها في حياة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، إنَّ جمِيع ما تؤديُ إليه من استدلالات تدين الموقف السياسي للسيدة عائشة رضي الله عنها ، لا يعتدُ بها لمخالفتها للروايات الصَّحِّحة ، وقيامها على روایاتٍ واهية^(٢) ، فأغلبها روایاتٌ غير مسندة ، والمسند مجرُوحُ الإسناد ، لا يحتجُ بروايته ، هذا إلى فساد متونها إذا ما قورنت بالروايات الأخرى الأكثر صحةً ، وقرباً بالحقيقة^(٣) .

وقد قامت السيدة أسماء محمد زيداً بدراسة الأسانيد ، والمدون للروايات التي تحدَّث عن الدَّور السياسي للسيدة عائشة في أحداث الفتنة ، ونقدت الروايات القائلة بالخلاف السياسي بين عائشة ، وعثمان عند الطَّبْرِيُّ ، وغيره ، وبَيَّنت زيفها ، وكذبها ، ثُمَّ قالت : وكان الأخرى بنا أن نعرض عن ذكرها جميعاً - كما ذكرت آنفاً - لعدم وصولها إلينا عن طريقٍ معتمدٍ ، بل الطُّرق التي وصلت منها رُمي أصحابها بالتشَيُّع ، والكذب ، والرَّفض ، لكننا عرضنا لها ؛ لشيوعها في أغلب الدراسات الحديثة ، وللتَّدليل على سقوطها ، فهي روایاتٌ - كما أَتَضَحَ لنا - حاولت خلق تاريخ لا وجود له أصلاً من الخلاف ، والتَّنَكُّر بين عثمان ، وعائشة ، وبين عثمان والصحابة جميعاً^(٤) ، ولو صحَّ : أنَّ عائشة اتفقت مع المتمرِّدين على التَّحرِيض على عثمان رضي الله عنه لكان من المتوقَّع أن يكون عندها نوعٌ من التَّماس العذر لهؤلاء المتمرِّدين ، لكن لم يصحَّ عنها رضي الله عنها شيءٌ من هذا ، وإنَّه لو صحَّ شيءٌ من هذه الروايات في وصف موقف السيدة عائشة رضي الله عنها من مقتل عثمان ، فهي روایاتٌ كفيلةٌ بإسقاط العدالة عن عائشة رضي الله عنها وعن الصحابة الذين اشتركوا معها ، وهو ما لا يقبل به للخبر الصادق عن الله ، ورسوله في تقرير عدالتهم ؛ التي كانت كافيةً لدحض هذه الروايات ، لكنَّا توَقَّفنا أمام الرَّوَايَات ، تأكيداً متأكِّلاً

(١) دور المرأة السياسي في عهد النبي ، والخلفاء الرَّاشدين ، ص (٣٥٢) .

(٢) انظر : أيضاً في هذه الاستدلالات الباطلة ، للعقاد (الصَّدِيقَةُ بُنْتُ الصَّدِيقِ) ، ص (١١٦-١٢٤) .

(٣) دور المرأة السياسي ، ص (٣٧٠) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

على سقوط هذه الرِّوایات ، وَمِنْ بعدها الاستدلالاتُ القائمةُ عليها ، حتَّى تجتمعُ الأدلةُ الْدِّينيةُ ، والعلميةُ ، والتَّارِيخيَّةُ ، في صعيدٍ واحدٍ تؤكِّدُ بعضها بعضاً^(١) .

٢- عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه :

كان عليٌّ رضي الله عنه وآل البيت يجلُّونه ، ويعرفون بحقّه فكان :

أ- أوَّل من بايعه بعد عبد الرَّحمن بن عوف عليٌّ بن أبي طالب^(٢) ، وعن قيس بن عباد ، قال : سمعت علياً رضي الله عنه ، وذكر عثمان ، فقال : هو رجلٌ قال له رسول الله ﷺ : « ألا تستحي ممَّن تستحي منه الملائكة »^(٣) .

ب- وقد شهد رضي الله عنه له بالجنة ، فعن الزَّمال بن سبرة ، قال : سألت علياً عن عثمان ، فقال : ذاك امرؤٌ يُدعى في الملا الأعلى : ذا التُّورين ، كان ختن رسول الله ﷺ على ابنته ، ضُمن له بيته في الجنة^(٤) .

ج- وكان رضي الله عنه طائعاً ، معترفاً بإمامته ، وخلافته ، لا يعصي له أمراً ، فقد روى ابن أبي شيبة بإسناده عن ابن الحنفية عن عليٍّ : قال لو سيرني عثمان إلى صرار ؟ لسمعت ، وأطاعت^(٥) ، والصَّرار : هو الخيط الذي يُشدُّ فوق الخلف ، والتَّوْدِيَة لثلا يرضعها ولدها^(٦) . وفيه دليلٌ على مدى اتباعه ، وطاعته لعثمان رضي الله عنهما^(٧) .

د- ولما جمع عثمان رضي الله عنه النَّاس على قراءةٍ واحدةٍ ، بعد استشارة الصحابة رضوان الله عليهم ، وإجماعهم على ذلك ، قال عليٌّ رضي الله عنه : لو وليت الذيولي ، لصنعت مثل الذي صنع^(٨) .

ه- ولقد أنكر عليٌّ رضي الله عنه قتل عثمان ، وتبرأ من دمه ، وكان يقسم على ذلك في

(١) دور المرأة السياسي ، ص (٣٧١) .

(٢) البخاريُّ ، كتاب فضائل الصحابة ، رقم (٣٧٠٠) .

(٣) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، رقم (٢٤٠١) .

(٤) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتَّفريط ، ص (٢٢٧) . المختصر من كتاب الموافقة بين أهل البيت والصحابة للرمضاني ، مخطوط بمكتبة المخطوطات بالجامعة الإسلامية . المخطوطة : قد طبعت عن طريق دار الحديث أخيراً .

(٥) السنّة للخلال (١/٣٢٥) ، رقم (٤١٦) إسناده صحيح .

(٦) لسان العرب (٤/٤٥١) .

(٧) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتَّفريط ، ص (٢٢٧) .

(٨) السنّن للبيهقي (٢/٤٢) .

خطبته ، وغيرها : أنه لم يقتله ، ولا أمر بقتله ، ولا مالاً ، ولارضي ، وقد ثبت ذلك عنه بطريق تفید القطع^(١) ، خلافاً لما تزعمه الإمامية من أنه كان راضياً بقتل عثمان ، رضي الله عنهما^(٢) ، وقال الحاكم بعد ذكر بعض الأخبار الواردة في مقتله ، رضي الله عنه : فأمّا الذي ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فإنه كذبٌ ، وزورٌ ، فقد توالت الأخبار بخلافه^(٣) . وقال ابن تيمية : وهذا كله كذبٌ على عليٍّ رضي الله عنه ، وافتراه عليه ، فعليٌّ رضي الله عنه لم يشارك في دم عثمان ، رضي الله عنه ولا أمر ، ولارضي ، وقد روی عنه ذلك ، وهو الصادق الباٰر^(٤) ، وقد قال عليٌّ رضي الله عنه : اللهم إني أبدأ إليك من دم عثمان^(٥) .

وروى الحاكم بإسناده عن قيس بن عباد ، قال : سمعت علياً رضي الله عنه يوم الجمل يقول : اللهم إني أبدأ إليك من دم عثمان ، ولقد طاش عقلني يوم قتل عثمان ، وأنكرت نفسي ، وجاؤوني للبيعة ، فقلت : والله إني لاستحي من الله أن أبایع قوماً قتلوا رجلاً قال فيه رسول الله ﷺ : « لا تستحي من تستحي منه الملائكة » ، وإنني لاستحي من الله أن أبایع وعثمان قتيلاً على الأرض لم يدفن بعد ، فانصرفوا ، فلما دُفِن رجع الناس ، فسألوني البيعة ، فقلت : اللهم إني مشفقٌ مما أقدم عليه ، ثم جاءت عزيمة ، فبأیعت ، فلقد قالوا : يا أمير المؤمنين ! فكاناما صدح قلبي ، وقلت : اللهم خذ مني لعثمان ؟ حتى ترضى^(٦) !

وروى الإمام أحمد بسنده عن محمد بن الحنفية قال : بلغ علياً : أن عائشة تلعن قتلة عثمان في المربد^(٧) قال : فرفع يديه ، حتى بلغ بهما وجهه ، فقال : وأنا أعن قتلة عثمان ، لعنهم الله في السهل ، والجبل . قال مررتين ، أو ثلاثة^(٨) . وروى ابن سعيد بسنده عن ابن عباسي : أن علياً قال : والله ما قتلت عثمان ، ولا أمرت بقتله ! ولكنني نهيت ، والله ما قتلت عثمان ، ولا أمرت ! ولكنني غلبت . قالها ثلاثة^(٩) . وجاء عنه أيضاً : أنه قال رضي الله عنه : من تبرأ من

(١) البداية والنهاية (٢٠٢/٧) .

(٢) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ، ص (٢٢٩) . حق اليقين لعبد الله شبر ص (١٨٩) .

(٣) المستدرک (١٠٣/٣) .

(٤) منهاج السنة (٤٠٦/٤) .

(٥) العقيدة في أهل البيت ، ص (٢٣٠) ، إسناده حسن ، الطبقات (٣/٣) رواه من طريق كلها صحيحة .

(٦) المستدرک (٩٥/٣) . حديث صحيح على شرط الشیخین ، ولم يخرّجاه ، ووافقه الذهبي .

(٧) موضع قرب البصرة بينهما نحو ثلاثة أميال .

(٨) فضائل الصحابة (١/٥٥٥) رقم (٧٣٣) . إسناده صحيح .

(٩) الطبقات (٨٢/٣) . والبداية والنهاية (٢٠٢/٧) .

دين عثمان ؟ فقد تبرأ من الإيمان ، والله ما أعننت على قتله ، ولا أمرت ، ولا رضيت^(١) !

وقال عليٌّ رضي الله عنه عن عثمان رضي الله عنه : . . . كان أوصلنا للرَّحْم ، وأتقانا للرَّبِّ تعالى^(٢) .

ز- وعن أبي عونٍ ، قال : سمعت محمدً بن حاطب ، قال : سألت علياً عن عثمان ، فقال : هو من الذين آمنوا ، ثم آتقو ، ثم آتقو ، ثم يختتم الآية^(٣) .

ح- عن عميرة بن سعدٍ قال : كُنَّا مع عليٍّ رضي الله عنه على شاطئ الفرات ، فمررت سفينه مرفوع شراعها ، فقال عليٌّ : يقول الله عز وجل : ﴿وَلَهُ الْمَوَارِ الْمُسْتَكَاثُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَم﴾ [الرحمن : ٢٤] وَالَّذِي أَنْشَأَهَا فِي بَحْرٍ مِّنْ بَحَارِهِ مَا قُتِلَ عُثْمَانُ ، وَلَا مَالَاتْ عَلَى قُتْلِهِ^(٤) ! .

ط- وروى الإمام أحمد في مسنده عن محمدً بن حاطب ، قال : سمعت علياً يقول : «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَ الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبَدِّعُونَ» [الأنبياء : ١٠١] منهم عثمان^(٥) . وقال عليٌّ رضي الله عنه : إِنَّمَا وَهَنْتَ يَوْمَ قُتْلِ عُثْمَانَ^(٦) .

وقد اعنى الحافظ ابن عساكر بجمع الطُّرق الواردة عن عليٍّ رضي الله عنه في تبرؤه من دم عثمان ، وقسمه على ذلك في الخطب وغيرها ، وكذا قسمه : أَنَّه لَم يرض بذلك ، وثبت ذلك عنه من طرق تفيد القطع عند كثيرٍ من أئمة الحديث^(٧) .

٣- ابن عباسٍ رضي الله عنه :

روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباسٍ : أَنَّه قال : لو اجتمع النَّاسُ على قتل عثمان ؛ لرموا بالحجارة كما رمي قوم لوط^(٨) ، وقال رضي الله عنه في مدح عثمان ، وذمٌ من ينتقصه : رحم الله أبا عمرو ! كان والله أكرم الحفدة ، وأفضل البررة ، هاجداً بالأسحار ، كثير الدُّموع عند ذكر النار ، نهاضاً عند كلٍّ مكرمة ، سباقاً إلى كلٍّ منحة ، حبيباً أبياً وفيماً ، صاحب جيش العسرا ، ختن رسول الله ﷺ ، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين إلى يوم الدين^(٩) !

(١) الرِّيَاضُ النَّصْرَةُ ، ص (٥٤٣) .

(٢) صفة الصَّفَوة (١/٣٠٦) .

(٣) فضائل الصحابة (١/٥٨٠) إسناده صحيح .

(٤) المصدر السابق نفسه (١/٥٥٩ ، ٥٦٠) إسناده لغيره رقم (٣٧٩) .

(٥) المصدر السابق نفسه (١/٥٨٠) ، رقم (٧٧١) إسناده صحيح .

(٦) المنتظم في تاريخ الملوك ، والأمم (٥/٦١) .

(٧) انظر : البداية والنهاية (٧/١٩٣) .

(٨) فضائل الصحابة (١/٥٦٣) ، رقم (٧٤٦) .

(٩) العقيدة في أهل البيت ، ص (٢٣٤) . مروج الذهب للمسعودي (٣/٦٤) .

٤- زيد بن عليٍّ ، رحمه الله :

روى ابن عساكر بإسناده إلى السُّدِّيِّ ، قال : أتيته - أي : زيد - وهو في بارق - حَيٌّ من أحياء الكوفة - فقلت له : أنتم سادتنا ، وأنتم ولاة أمورنا ، فما تقول في أبي بكرٍ ، وعمر؟ فقال : تولئهما ، وكان يقول : البراءة من أبي بكرٍ ، وعمر ، وعثمان البراءة من عليٍّ ، والبراءة من عليٍّ البراءة من أبي بكرٍ ، وعمر ، وعثمان^(١) .

٥- عليٌّ بن الحسين ، رحمه الله :

وقد ثبت عن عليٍّ بن الحسين البراءة من قول الإمامية في أبي بكرٍ ، وعمر ، وعثمان ، رضي الله عنهم ، فقد روى أبو نعيم بسنده عن محمد بن عليٍّ ، عن أبيه عليٍّ بن الحسين : أنه قال : جلس قومٌ من أهل العراق ، فذكروا أبي بكرٍ ، وعمر ، فنالوا منها ، ثم ابتدأوا في عثمان ، فقال لهم : أخبروني أنتم من المهاجرين الأوَّلين : ﴿لِفَقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ اخْرَجُوا مِن دِيْرِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَعَوَّنَ فَصَلَا مِنَ اللَّهِ وَرَضُوْنَ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّابِدُونَ﴾ [الحشر : ٨] قالوا : لا ! قال : فأنت من الذين ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُونَ الدَّارَ وَالْأَيْمَنَ مِنْ قَبْلِهِرِ يَحْبُّونَ مِنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَمْدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مَمَّا أَتَوْا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَاصَّةٌ وَمَنْ يُوقَ شَعَّ نَفْسِهِ فَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] قالوا : لا ! فقال لهم : أما أنت فقد أقررتم ، وشهدتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ، ولا من هؤلاء ، وأناأشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله - عز وجل - فيهم : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوْ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُوْنَ رَبَّنَا أَعْفِرْ لَنَا وَلَا حَوْنَا الَّذِينَ سَبَقُوْنَا بِالْإِيمَنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غَلَّ لِلَّذِينَ أَمَنُوا بِرَبِّنَا إِنَّكَ رَبُّ رَحْمَم﴾ [الحشر : ١٠] . فقوموا عنّي ، لا بارك الله فيكم ! ولا قرب دوركم ، أنت مستهزءون بالإسلام ، ولست من أهله^(٢) !

ثانياً : موقف عمَّار بن ياسر رضي الله عنه :

جاء في الروايات التاريخية التي تحمل في طياتها غثناً ، وسميناً ، أنَّ هناك خلافاً بين عمَّار ، وعثمان ، رضي الله عنهم ، وقد خطّم بعضها بأسانيد ، وأخرى لا خطام لها ، ولا زمام ، ولم أجد من أغنى فيه بحثاً ، وتحليلاً إلا لماماً ، والتعرّض لمثل هذا الموضوع الذي يمسُّ كرامة أطهر خلق الله ، وأحبّهم إليه ، وإلى نبيه ، لا يمكن معه الاعتماد على روایاتٍ تسرح في أعراض

(١) العقيدة في أهل البيت ، ص (٣٣٥) . وتهذيب تاريخ دمشق (٦/١٢) .

(٢) العقيدة في أهل البيت ، ص (٢٣٦) . والبداية والنهاية (٩/١١٢) . والجامع لأحكام القرآن (١٨/٣٢-٣١) .

الصَّحابة كما تشاء ، وتمرح من غير زمام ، أو خطام^(١) ، ومن اللُّهم السَّاقطة التي ساقتها الروايات الضعيفة :

١- ضرب عمار بن ياسر

تعتبر الروايات التي تحدثت عن ضرب عثمان لعمار من أشهر الروايات في هذا الموضوع ، وأكثرها ، ولقد تفننوا واصعوها في ذكر الأساليب التي استخدمها عثمان رضي الله عنه بالضرب ، وفي ذكر ما نتج عنه ، وهي مع فساد أسانيدها تحمل نكارةً شديدةً في متونها^(٢) ، يقول القاضي أبو بكر بن العربي في عواصمه ضمن تفنيده لما نسب إلى عثمان رضي الله عنه من افتراءات : وأمّا ضربه لابن مسعود رضي الله عنه ومنعه عطاءه ؛ فزورٌ ، وضربه لعمار رضي الله عنه إفلاً مثله ، ولو فرق أمعاه ما عاش أبداً ، وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوه لا ينبغي أن يستغل بها ؛ لأنَّها مبنيةٌ على باطلٍ ، ولا يُبني حقٌّ على باطلٍ ، ولا نذهب الرَّمان في مماشاة الجَهَال ، فإنَّ ذلك لا آخر له^(٣) .

إنَّ أخلاق عثمان رضي الله عنه في ستة ، وإيمانه ، وحيائه ، ولين عريكته ، ورقة طبعه وبسابقته ، وجليل مكانته في الإسلام أجمل من أن تنزل به إلى هذا الدَّرك من التَّصرُّف مع رجلٍ من أجيال أصحاب النبي ﷺ ، يعرف له عثمان سبقته ، وفضله ، مهما كان بينهما من اختلاف في الرأي ، أفيضرى عثمان لنفسه - وهو الذي أبى على الناس أن يقاتلوا دونه ، ورضي بالموت صابراً محتسباً حقناً لدماء المسلمين واتقاءً للفتنة العامة - أفيضرى أن يصنع بعمار - وهو أعلم بسابقته ، وفضله في الإسلام - ما ذكرت الروايات المزعومة بأنَّه أمر غلمانه بأن يضربوه حتى أغمي عليه ، ثمَّ يقوم عثمان في هذه الحال فيطأه في بطنه ؟ ثمَّ هل ترضى أخلاق عثمان ، وحياؤه بأن يدعوه بدعة الجاهلية ، فيعيِّر عماراً بأمه سمية ، وهي من أهل السَّابقة ، والفضل ، وعثمان يعرف شرف انتساب عمَّار إلى أمَّه سمية رضي الله عندهما ، أوَّل شهيدة في الإسلام ؟ !

كلا إنَّ الأخبار الصَّحِيحة ، والموثوقة لا يوجد فيها ما يدلي عثمان رضي الله عنه من هذا الأسلوب المنحط في الرَّجر ، والتَّأديب ، علاوةً على أنَّ أخلاقه ، وطبيعته ، وسيرته ، تستبعد ذلك تماماً . وممَّا لا شكَّ فيه : أنَّ عرض أمثال تلك الروايات المزعومة على ما عرف من مواقف ، وأخلاق أولئك الأئمَّة الأعلام ، والأخذ بالاعتبار مقاييس ذلك العصر ، ومعاييره لهو

(١) عمار بن ياسر ، لأسماء أحمد سلطان ، ص (١٢٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) العواصم من القواصم ، ص (٨٤-٨٢) .

أصدق ميزانٍ في النَّقْدِ ، لكشف دخائل الوضاعين ، والمفترين^(١) .

٢- اتهام عمار بالمساهمة في الفتنة ، وإثارة الشُّغب ضدَّ عثمان:

اعتمد المؤرِّخون في نسبة هذه الافتاءات إلى عمَّار رضي الله عنه على روایات لم تسلم إحداها من الطَّعن في صحة أسانيدها ، أو في استقامة متونها ، وتنوعُ الثُّمَّه المنسوبة إلى عمَّار رضي الله عنه في تحريره لأمر الفتنة ، وتحريضه على عثمان ، وسعيه بين العامة للثَّمُرُد عليه ، فمنها ما ذكر من إرسال عثمان رضي الله عنه له إلى مصر لاستجلاء ما يحدث فيها مما نقل إليه عن تمُرُد العامة هناك ، أنَّ السَّبَّيْن استطاعوا استقطاب عمَّار ، والتأثير عليه . وهذا الخبر الذي يرويه الطَّبرِي^(٢) فيه شعيب بن إبراهيم التَّمِيِّي الكوفي راوية كتب سيف ، فيه جهالة ، وقال عنه الرَّاوِي : ليس بالمعروف ، وله أحاديث ، وأخبار ، وفيها بعض التَّكَارَة ، وفيها ما فيه من تحامل على السَّلْف^(٣) ، ورواه عمر بن شَبَّة في تاريخ المدينة ، وفيه شيخ عمر : عليٌ بن عاصم . قال عنه ابن المديني : كان عليٌ بن عاصم كثير الغلط ، وإذا ردَّ عليه ، لم يرجع ، وكان معروفاً في الحديث ، ويروي أحاديث منكرة^(٤) ، وقال يحيى بن معين : ليس بشيء^(٥) ، وقال مرأة : كذاب ، ليس بشيء^(٦) ، وقال السَّائِي : متزوك الحديث^(٧) ، وقال البخاري^(٨) : ليس بالقوى عندهم ، يتكلَّمون فيه^(٩) ، وهناك من تلطف بالكلام عليه ، وقال عنه ابن حجر : صدوقٌ يخطئ ، ويصرئ ، ورمي بالشَّيْعَة^(١٠) ، وخبرٌ هذا حال إسناده لا يمكن الاطمئنان إليه ، لا سيما ما عرف عن عمَّار رضي الله عنه من الورع الذي يربأ به عن الانغماس في مثل تلك الأحوال التي ما عهدنا مرتدًا لها إلا سبئياً يهودياً حاقداً ، ومعاذ الله أن يصل الحال بصحابي من صحابة النَّبِيِّ ﷺ إلى هذا المستوى . يقول خالد الغيث : وهذا الخبر يعارضه ما ثبت من عدالة الصحابة - رضوان الله عليهم - هذا فضلاً عن عدم وروده من طريق صحيح^(١٠) .

(١) الخليفة المفترى عليه عثمان بن عفَّان ، ص(٤١-٤١) . وعمَّار بن ياسر ، ص(١٣٧) .

(٢) تاريخ الطَّبرِي (٥/٣٤٨) .

(٣) استشهاد عثمان ووقة الجمل ، ص(٣٠) .

(٤) سير أعلام النَّبلاء (٩/٢٥٣) .

(٥) المصدر السابق نفسه (٩/٢٥٥) .

(٦) المصدر السابق نفسه (٩/٢٥٧) .

(٧) المصدر السابق نفسه (٩/٢٥٥) .

(٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) تقريب التَّهذِيب ، ص(٤٠٣) .

(١٠) استشهاد عثمان ووقة الجمل ، ص(٨٦) .

ومن الرّوايات الباطلة في هذا الباب ما نسب إلى سعيد بن المسيب ، وفيها : أنَّ الصحابة بمجملهم نعموا على عثمان رضي الله عنه مع من نقم ، وحققوا عليه ، وخاصة أبي ذئْرًا ، وابن مسعود ، وعمَّار بن ياسر ، رضي الله عنهم^(١) . وآفة هذه الرّواية : أنَّ فيها تدليسًا ليس من النوع الممكِن إقراره ، والتجاوز عن ، فقد أسقط منها ، راوٍ متّهم بالوضع ، والكذب ، وهو إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله ، ولذلك جاء تضييف علماء الحديث لهذه الرّواية وبيان زيفها عند ترجمتهم لمحمد بن عيسى ابن سميح راوي الخبر عن ابن أبي ذئب ، يقول الإمام البخاري عن ابن سميح : يقال : إنَّه لم يسمع من ابن أبي ذئب هذا الحديث ، يعني حديثه عن الزهرى في مقتل عثمان . ويقول ابن حبان : إنَّ ابن سميح لم يسمع حديثه من ابن أبي ذئب ، وإنَّما سمعه من إسماعيل بن يحيى ، فدلَّس عنه .

وقال الحاكم : أبو محمد - يعني : ابن سميح - روى عن ابن أبي ذئب حديثاً منكراً ، وهو حديث مقتل عثمان ، ويقال : كان في كتابه عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي ذئب ، فأسقطه ، وإسماعيل ذاهب الحديث^(٢) .

ويقول الدكتور يوسف العش : والرّواية المنسوبة إلى سعيد بن المسيب يجب استبعادها ، فهي بعد التحرّي تظهر موضوعة ، فقد نصَّ الحاكم النسابوري : أنَّ أحد رجال سندها قد أسقط من السند رجلاً واهياً ، وأنَّها منكرة ، الواقع : أنَّها لا تنبئ عن الاحترام الذي يكنُه سعيد بن المسيب للصحابة في أقواله الأخرى الصَّحِحة^(٣) .

٣- براءة عمَّار من دم عثمان رضي الله عنهما :

وممَّا يروى في ذلك اتّهام مسروق ، وأبي موسى رضي الله عنهمَا لعمار بذلك عند قدومه مع الحسن لاستئثار أهل الكوفة ، وهذه الرواية قد وَهَى إسنادها بشعيب المجهول ، وسيف الملعول ، كما أنَّ الرّواية التي في صحيح البخاري لا تذكر شيئاً من ذلك ، فزيادتها لا تتحمل القبول ، لا سيَّما مع طعنها في صحابي مثل عمَّار ابن ياسر المغار - على لسان النبي ﷺ - من الشَّيطان^(٤) ، والمليء إلى المشاش من الإيمان^(٥) .

(١) تاريخ دمشق (٤١٥/٣٩) . وعمَّار بن ياسر ، ص (١٤٤) .

(٢) تحقيق موقف الصحابة (١٦/٢ - ١٨) . والتاريخ الكبير للبخاري (١/٢٠٣) . والتهذيب (٩/٣٩١) . وتهذيب التهذيب (٩/٣٩٢) .

(٣) الدولة الأموية ، ص (٣٩) .

(٤) البخاري ، رقم (٣٧٤٣) .

(٥) عمَّار بن ياسر ، ص (١٤٧) .

وقد بين العلماء بطلان مثل هذا الاتهام الذي لم يختص بعمّار فحسب ، بل تعدّاه إلى مجموعة أخرى من أجيال الصحابة ، يقول ابن كثير : أمّا ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلموا ، ورضي بقتله ؛ فهذا لا يصح عن أحدٍ من الصحابة بل كلُّهم كرهه ، ومقتنه ، وسبَّ منْ فعله^(١) ، ويقول القاضي أبو بكر بن العربي : فهذا أشبه ما روي في الباب ، وبه يتبيّن - وأصل المسألة سلوك سبيل أهل الحق - أنَّ أحداً من الصحابة لم يسعَ عليه ، ولا قعد عنه ، ولو استنصر ما غالب ألف أو أربعة آلاف غرباء عشرين ألفاً بلدَيْن ، أو أكثر من ذلك ، ولتكنَّ ألقى بيده إلى المصيبة^(٢) ، ويقول : وقد انتدب المُردة ، والجهلة إلى أن يقولوا : إنَّ كُلَّ فاضل من الصحابة كان عليه مشاغباً مؤلِّباً ، وبما جرى عليه راضياً ، واخترعوا كتاباً فيه فصاحةً وأمثالُ ، كتب عثمان به مستصرحاً إلى عليٍّ ، وذلك كُلُّ مصنوعٌ ، ليوغرروا قلوب المسلمين على السلف الماضيين ، والخلفاء الرَّاشدين ، فالذى يُنخلُّ من ذلك : أنَّ عثمان مظلومٌ محجوجٌ بغير حجة ، وأنَّ الصحابة بُرآءٌ من دمه بأجمعهم ؛ لأنَّهم أتوا إرادته ، وسلموا له رأيه في إسلام نفسه^(٣) .

ثالثاً : براءة عمرو بن العاص من دم عثمان :

لما أحيط بعثمان رضي الله عنه خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجّهاً إلى الشَّام ، وقال : والله يا أهل المدينة ! ما يقيم بها أحدٌ فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله - عزَّ وجلَّ - بذلك ، ومن لم يستطع نصره ؛ فليهرب ، فسار ، وسار معه ابنه عبد الله ، ومحمد ، وخرج بعده حسان بن ثابت ، وتتابع على ذلك ما شاء الله^(٤) ، وعندما جاءه الخبر عن مقتل عثمان رضي الله عنه وبأنَّ الناس بايعوا عليَّ بن أبي طالب ، قال عمرو : أنا أبو عبد الله ، تكون حربٌ منْ حَكَّ فيه قرحة ؟ نكأها ، رحم الله عثمان ، ورضي الله عنه ، وغفر له ! فقال سلامة بن زنباع الجذاميُّ : يا معاشر العرب ! إنه قد كان بينكم وبين العرب بابٌ ، فاتَّخذوا باباً ؛ إذ كسر الباب . فقال عمرو : وذاك الذي نريد ، ولا يصلح الباب إلا أشافِ^(٥) ، تُخرج الحقَّ من حافرة البأس ، ويكون النَّاس في العدل سواءً ، ثم تمثَّل عمرو بن العاص بهذه الأبيات :

فِي الْهَفَنْسِي عَلَى مَالِكٍ أَيْضُرِفُ مَالِكٍ حِفْظَ الْقَدْرِ

(١) البداية والنهاية (٧/٢٠٧) .

(٢) العواصم من القواصم ، ص (١٢٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (١٣٢) .

(٤) تاريخ الطبرى ، نقلًا عن عمرو بن العاص ، للغضبان ، ص (٤٦٤) .

(٥) أشافِ : جمع أشافى ، وهو المثقب .

أَنْزَعَ مِنَ الْحَرَّ^(١) أَوْدَى بِهِمْ فَأَغْذُرُهُمْ أَمْ بِقَوْمِي سَكَرْ
ثُمَّ ارْتَحَلَ راجلًا يَبْكِي ، وَيَقُولُ : يَا عُثْمَانَاه ! أَنْعِي الْحَيَاةِ ، وَالَّذِينَ .. حَتَّى قَدْ
دَمْشَقَ^(٢) .

هَذِهِ هِيَ الصُّورَةُ الصَّادِقَةُ عَنْ عُمَرٍ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْمُتَتَالِيَةُ مَعَ شَخْصِيهِ ، وَخَطَّ حَيَاتَهُ ،
وَقَرْبَهُ مِنْ عُثْمَانَ . أَمَّا الصُّورَةُ الَّتِي تَمْسَخُ إِلَى رَجُلِ مَصَالِحٍ ، وَصَاحِبِ مَطَامِعٍ ، وَرَاغِبِ دُنْيَا ،
فَهِيَ الرَّوَايَةُ الْمُتَرَوِّكَةُ الْمُضَعِّفَةُ رَوَايَةُ الْوَاقِدِيِّ عَنْ مُوسَى بْنِ يَعْقُوبَ^(٣) وَقَدْ تَأَثَّرَ بِالرَّوَايَاتِ
الْمُضَعِّفَةِ ، وَالسَّقِيمَةِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالْمُؤْرِخِينَ ، فَأَهْوَوَا بِعُمَرٍ وَإِلَى الْحَضِيْضِ ، كَالَّذِي
كَتَبَهُ مُحَمَّدُ شَيْتُ خَطَابَ^(٤) ، وَعَبْدُ الْخَالِقِ سَيِّدُ أَبْوَ رَابِيَةَ^(٥) ، وَعَبَّاسُ مُحَمَّدُ الْعَقَادُ الَّذِي
يَتَعَالَى عَنِ النَّظَرِ فِي الْإِسْنَادِ ، وَيَسْتَخْفُ بِقَارَئِهِ ، وَيُظَهِّرُ لَهُ صُورَةً مَعَاوِيَةً وَعُمَرٍ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
بِأَنَّهُمَا : اِنْتَهَازِيَانَ ، صَاحِبَا مَصَالِحٍ ، وَلَوْ أَجْمَعَ النَّاقِدُونَ التَّارِيخِيُّونَ عَلَى بُطْلَانِ الرَّوَايَاتِ الَّتِي
اسْتَنَدَ إِلَيْهَا فِي تَحْلِيلِهِ فَهَذَا لَا يَعْنِي لِلْعَقَادِ شَيْئًا ، فَقَدْ قَالَ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ رَوَايَاتِهِ ضَعِيفَةً ، وَاهِيَّةً ، لَا
تَقْوِيمُ بِهَا حَجَّةً : .. وَلِيَقْلِلَ النَّاقِدُونَ التَّارِيخِيُّونَ مَا بَدَأُوا لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا فِي صَدَقِ هَذَا الْحَوَارِ ،
وَصَحَّةِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَمَا ثَبَّتَ نَقْلَهُ ، وَلَمْ يَثْبُتْ مِنْهُ سُنْدُهُ ، وَلَا نُصْبُهُ فَالَّذِي لَا رِيبُ فِيهِ ، وَلَوْ
أَجْمَعَتِ التَّوَارِيخُ قَاطِبَةً عَلَى نَفْضِهِ : أَنَّ الْاِتْفَاقَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ ، كَانَ اِتْفَاقًا مَسَاوِيَّةً ، وَمَعَاوِيَةً
عَلَى الْمُلْكِ ، وَالْوَلَايَةِ ، وَأَنَّ الْمَسَاوِيَّةَ بَيْنَهُمَا كَانَتْ عَلَى النَّصِيبِ الَّذِي آتَى كُلُّ مِنْهُمَا ،
وَلَوْلَا لَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا اِتْفَاقٌ^(٦) .

إِنَّ شَخْصِيَّةَ عُمَرِ بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْحَقِيقَيَّةُ : أَنَّهُ رَجُلٌ مُبَادِئٌ غَادَرَ الْمَدِينَةَ حِينَ
عَجزَ عَنِ نَصْرَةِ عُثْمَانَ ، وَبَكَى عَلَيْهِ بَكَاءً مُرَا حِينَ قُتِلَ ، فَقَدْ كَانَ مِنْ أَقْرَبِ أَصْحَابِهِ ، وَخَلَانِهِ ،
وَمُسْتَشَارِيهِ ، وَكَانَ يَدْخُلُ فِي الشُّورِيَّ - فِي عَهْدِ عُثْمَانَ - مِنْ غَيْرِ لَوْلَايَةٍ ، وَمُضِيَ إِلَى مَعَاوِيَةِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِيَتَعَاوَنَا مَعًا عَلَى حَرْبِ قَتْلَةِ عُثْمَانَ وَالثَّارِ لِلخَلِيفَةِ الشَّهِيدِ^(٧) ، لَقَدْ كَانَ مَقْتُلُ
عُثْمَانَ كَافِيًّا لَأَنْ يَحرِّكَ كُلَّ غَضْبِهِ عَلَى أُولَئِكَ الْمُجْرِمِينَ السَّفَاكِينَ ، وَكَانَ لَا بدَّ مِنْ اِخْتِيَارِ مَكَانٍ
غَيْرِ الْمَدِينَةِ لِلثَّارِ مِنْ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ تَجَرَّوْا عَلَى حَرْمِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَقَتَلُوا خَلِيفَتَهُ عَلَى أَعْيُنِ

(١) الْحَرَّ ، جَمِيعُ حَرَّةٍ ، وَهِيَ الظُّلْمَةُ الشَّدِيدَةُ .

(٢) تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ ، نَقْلًا عَنْ عُمَرِ بْنِ الْعَاصِ ، لِلْغُضَبَانِ ، ص (٤٨١) .

(٣) عُمَرِ بْنِ الْعَاصِ ، لِلْغُضَبَانِ ، ص (٤٨١) .

(٤) سَفَرَاءُ النَّبِيِّ ﷺ ، ص (٥٠٨) .

(٥) عُمَرِ بْنِ الْعَاصِ ، لِعَبْدِ الْخَالِقِ سَيِّدِ أَبْوَ رَابِيَةَ ، ص (٣١٦) .

(٦) عُمَرِ بْنِ الْعَاصِ ، لِلْعَقَادِ ، ص (٢٣١-٢٣٢) .

(٧) عُمَرِ بْنِ الْعَاصِ ، لِلْغُضَبَانِ ، ص (٤٨٩ ، ٤٩٠) .

الناس ، وأئي غرابة أن يغضب عمرو لعثمان ؟ وإن كان هناك من يشك في هذا الموضوع ؛ فمداره على الروايات المكذوبة التي تصور عمراً : كل همه السلطة والحكم^(١) .

رابعاً : من أقوال الصحابة في الفتنة :

١-أنس بن مالك رضي الله عنه :

قيل لأنس بن مالك رضي الله عنه : إن حب علي ، وعثمان لا يجتمعان في قلب ، فقال أنس : كذبوا ! لقد اجتمع حبُّهما في قلوبنا^(٢) .

٢-حذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

عن خالد بن الربيع قال : سمعنا بوجع حذيفة ، فركب إليه أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه في نفرٍ فيهم إلى المدائن ، قال : ثم ذكر قتل عثمان ، فقال : اللهم إني لم أشهد ، ولم أقتل ، ولم أرض^(٣) ! وأخرج أحمد بن حنبل عن ابن سيرين عن حذيفة ، قال : لما بلغه قتل عثمان ؛ قال : اللهم إني تعلم برائي من دم عثمان ، فإن كان الذين قتلوا أصحابوا ، فإني بريء منهم ، وإن كانوا أخطؤوا فقد تعلم برائي من دمه ، وستعلم العرب لئن كانت أصابت بقتله ؛ لحلينا بذلك لينا ، وإن كانت أخطأت بقتله لتحتلين بذلك دماً ، فاحتلوا بذلك دماً ، ما رفعت عنهم السيف ، ولا القتل^(٤) .

وروى ابن عساكر عن جندب بن عبد الله - له صحبة - : أنه لقي حذيفة ، فذكر له أمير المؤمنين عثمان فقال : أما إيمانكم سيقتلونه ! قال : قلت : فأين هو ؟ قال : في الجنة ، قلت : فأين قاتلوه ؟ قال : في النار^(٥) .

٣-أم سليم الانصارية رضي الله عنها :

قالت أم سليم الانصارية رضي الله عنها لما سمعت بقتل عثمان : رحمه الله ! أما إنه لن يحلوا بعده إلا دماً^(٦) .

(١) المصدر السابق نفسه ، ص (٤٩٢) .

(٢) تحقيق موقف الصحابة (٢/٢٥) . والتأهيل لابن حجر (٧/١٤١) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (٢/٢٧) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) تحقيق موقف الصحابة (٢/٢٨) ، تاريخ دمشق ، ص (٣٨٨) .

(٦) البداية والنهاية (٧/١٩٥) .

٤- أبو هريرة رضي الله عنه :

وعن أبي مريم قال :رأيت أبا هريرة يوم قتل عثمان وله ضفيرتان ، وهو ممسك بهما ، وهو يقول : قُتل والله عثمان على غير وجه الحق^(١) !

٥- أبو بكرة رضي الله عنه :

وروى ابن كثير في البداية والنهاية عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : لأنَّ أخْرَ من السَّماءِ إِلَى الأرضِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُشْرِكَ فِي قَتْلِ عُثْمَانَ^(٢) .

٦- أبو موسى الأشعري رضي الله عنه :

عن أبي عثمان الْهَدِيِّ قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : إِنَّ قَتْلَ عُثْمَانَ رضي الله عنه لَوْ كَانَ هَدِيًّا ، لَا حَتَّلْتَ بِهِ الْأَمَّةَ لِبَنًا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ ضَلَالًا ، فَاحْتَلْتَ بِهِ دَمًا^(٣) .

٧- سُمْرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ رضي الله عنه :

روى ابن عساكر بإسناده إلى سُمْرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قال : إِنَّ الإِسْلَامَ كَانَ فِي حَصْنٍ حَصِينٍ ، وَإِنَّهُمْ ثَلَمُوا فِي الإِسْلَامِ ثَلَمَةً بَقْتَلُهُمْ عُثْمَانَ ، وَإِنَّهُمْ شَرَطُوا أَشْرَطَةً ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يَسْلُوْا ثَلَمَتْهُمْ ، أَوْ لَا يَسْلُوْنَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ كَانَتْ فِيهِمُ الْخَلَافَةُ ، فَأَخْرَجُوهَا ، وَلَمْ تَعْدْ فِيهِمْ^(٤) .

٨- عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما :

وأخرج أبو نعيم في (معرفة الصحابة) بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : عثمان بن عفان ذو الثورين قتل مظلوماً ، أوتي كفلين من الأجر^(٥) .

٩- عبد الله بن سلام رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : لا تقتلوا عثمان فإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ، لَمْ تَصْلُوْا جَمِيعًا^(٦) أَبْدًا ! وفي روایة : وَاللَّهِ لَا تَهْرُقُونَ مِحْجَمًا مِنْ دَمٍ - أي : من دم عثمان - إِلَّا ازدَدْتُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ بُعدًا^(٧) .

(١) تحقيق موافق الصحابة (٢/٣١) ، تاريخ دمشق ، ص (٤٩٣) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) تاريخ المدينة (٤/١٢٤٥) .

(٤) تحقيق موافق الصحابة (٢/٣١) . تاريخ دمشق ، ص (٣٨٨) .

(٥) معرفة الصحابة (١/٢٤٥) . والمعجم الكبير (١/٤٦) .

(٦) تحقيق موافق الصحابة (٢/٣٤) . فضائل الصحابة وإسناده صحيح .

(٧) الطبقات (٣/٨١) .

١٠- الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهمما :

عن طلق بن خشاف ، قال : انطلقنا إلى المدينة ، ومعنا قرط بن خيثمة ، فلقينا الحسن بن عليٍّ ، فقال له قرط : فيم قُتِلَ أمير المؤمنين عثمان؟ فقال : قُتِلَ مظلوماً^(١).

١١- سلمة بن الأكوع رضي الله عنه :

ومن يزيد بن أبي عبيدة ، قال : لما قُتِلَ عثمان ؟ خرج سلمة بن الأكوع - وهو بدريٌّ - من المدينة قبل الرَّبْذة ، فلم يزل بها حتَّى كان قبيل أن يموت^(٢).

١٢- عبد الله بن عمر رضي الله عنهمما :

فمن أبي حازم ، قال : كنت عند عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فذكر عثمان ، فذكر فضله ، ومناقبه ، وقرباته ؛ حتَّى تركه أنقى من الرُّجاجة ، ثمَّ ذكر علي بن أبي طالبٍ ، فذكر فضله ، وسابقته ، وقرباته ؛ حتَّى تركه أنقى من الرُّجاجة ، ثمَّ قال : من أراد أن يذكر هذين فليذكرهما ، هكذا ، أو فليدع^(٣) ، وقال ابن عمر رضي الله عنهمما أيضاً : لا تسبُوا عثمان ، فإنَّا كنا نعده من خيارنا^(٤).

خامسًا : أثر مقتل عثمان في حدوث فتنٍ أخرى :

لقد كانت فتنة قتل عثمان سبباً في حدوث كثيرٍ من الفتن الأخرى ، وألقت بظلالها على أحداث الفتنة التي تلتُها ، فتغَيَّرت قلوب الناس ، وظهر الكذب ، وببدأ الخلط البَياني للانحراف عن الإسلام في عقيدته ، وشرعيته^(٥) ، وكان مقتل عثمان من أعظم الأسباب التي أوجبت الفتنة بين الناس ، وبسببه تفرَّقت الأُمَّة إلى اليوم^(٦) ، فتفرَّقت القلوب ، وعظمت الكروب ، وظهرت الأشرار ، وذلَّ الأخيار ، وسعى في الفتنة من كان عاجزاً عنها ، وعجز عن الخير والصلاح من كان دأبه إقامته ، فبایعوا أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وهو أحق النَّاس بالخلافة حينئذٍ ، وأفضل من بقي ، لكنَّ القلوب متفرقةٌ ، ونار الفتنة متوقدةٌ ، فلم تتنقَّل الكلمة ، ولم تنتظم الجماعة ، ولم يتمكَّن الخليفة ، وخيار الأُمَّة من كلِّ ما يريدونه من الخير ، ودخل في الفرقة ، والفتنة أقوام^(٧).

(١) تاريخ المدينة (٤/١٢٤).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٧٩).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (٢/٣٧٩). فضائل الصحابة وإسناده صحيح.

(٥) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص (٥٩٠).

(٦) مجموعة الفتاوى (٢٥/١٦٢).

(٧) المصدر السابق نفسه.

وبدأ ضعف الفتوحات تدريجياً خلال السّنين الأخيرة من خلافة عثمان ، عندما بدأت الفتن تضرب بلاد الإسلام ومركز الخلافة ، ثمَّ توافت عندما قتل عثمان ، واستمرت متوقفة - بل تراجعت في بعض الأماكن - إلى بداية عهد معاوية ، حيث استقرت أحوال المسلمين ، فانطلقت الفتوحات شرقاً ، وغرباً وشمالاً^(١) .

سادساً : الظُّلم والاعتداء على الآخرين من أسباب الهلاك في الدُّنيا ، والآخرة :

إنَّ الظُّلم ، والاعتداء على الآخرين بغير حقٍّ ، من أسباب الهلاك في الدُّنيا والآخرة ، كما قال الله عز وجل : «وَتَلَكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكَهُمْ مَوْعِدًا» [الكهف : ٥٩] وإنَّ المتبوع لأحوال أولئك الخارجين على عثمان رضي الله عنه المعذبين عليه يجد : أنَّ الله تعالى لم يمهلهم ، بل أذلَّهم ، وأخزاهم ، وانتقم منهم فلم ينجُ منهم أحد^(٢) .

روى خليفة بن خيّاط في تاريخه بإسنادٍ صحيح إلى عمران بن الحُذير ، قال : إن لا يكن عبد الله بن شقيق حَدَثَنِي أَنَّ أَوَّلَ قَطْرَةً قَطَرَتْ مِنْ دَمِهِ - يعني : عثمان - عَلَى «فَسَيْكَفِيكَهُمُ اللَّهُ» [البقرة : ١٣٧] ، فإنَّ أبا حُرِيَّتْ ذَكَرَ : أَنَّهُ ذَهَبَ وَسُهْلَ النَّمِيرِيُّ ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْهِ الْمَصْحَفَ ، فَإِذَا الْقَطْرَةُ عَلَى «فَسَيْكَفِيكَهُمُ اللَّهُ» فَإِنَّهَا فِي الْمَصْحَفِ مَا حُكِّتَ ، وَفِي تَارِيخِ ابْنِ عَسَكِرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ : كُنْتُ أَطْوِفُ بِالْكَعْبَةِ ، فَإِذَا رَجَلٌ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ، وَمَا أَظَنْتُ أَنْ تَغْفِرَ لِي ! قَلْتُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ! مَا سَمِعْتَ أَحَدًا يَقُولُ مَا تَقُولُ ! قَالَ : كُنْتَ أَعْطَيْتَ اللَّهَ عَهْدًا إِنْ قَدِرْتَ أَنْ أَلْطَمَ وَجْهَ عَثْمَانَ إِلَّا لَطَمْتَهُ ، فَلَمَّا قُتِلَ وُضِعَ عَلَى سَرِيرِهِ فِي الْبَيْتِ ، وَالنَّاسُ يَجْيِئُونَ ، فَيَصْلُوُنَ عَلَيْهِ ، فَدَخَلَتْ كَأْنِي أَصْلِي عَلَيْهِ ، فَوُجِدَتْ خَلْوَةً فَرَفَعَتِ التَّوْبَ عنْ وَجْهِهِ ، فَلَطَمْتَ وَجْهَهُ ، وَسَجَّيْتَهُ ، وَقَدْ يَبْسُطَ يَمِينِي ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ : رَأَيْتَهَا يَابْسَةً كَأَنَّهَا عَودٌ^(٣) ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ آثارِ ظُلْمِ هُؤُلَاءِ الْحَاقِدِينَ إِلَّا سُلُّ الْمُسْلِمِينَ السَّيْفُ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ لَكُفِيَ بِذَلِكَ رَادِعًا لَهُمْ ، وَلَكُلَّ مَنْ سَارَ فِي فَلَكِهِمْ ، قَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدَ : مِنْ عَلَيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى رِجْلَيْنِ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَمَا قُتِلَ عَثْمَانُ ، وَقَبْلَ بَيْعَتِهِ ، وَهُمَا يَقُولَانِ : قُتِلَ ابْنُ بَيْضَاءَ ، وَمَكَانَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ ، ثُمَّ وَاللَّهُ مَا انتَطَحَ فِيهِ عَنْزَانٌ ! فَقَالَ عَلَيْهِ : مَا قُلْتَمَا ؟ فَأَعْدَادًا عَلَيْهِ ، فَقَالَ : بَلِي وَاللَّهُ ! وَرَجَالٌ بَعْدَ رَجَالٍ ، وَكَتَابٌ بَعْدَ كَتَابٍ ، أَوْ يَخْرُجُ ابْنُ مَرِيمٍ^(٤) .

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص (٥٩١) .

(٢) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٤٨٣/١) .

(٣) سير الشهداء دروس عبر ، للسيحياني ، ص (٦٧) . تاريخ دمشق ، ص (٤٥٨) ، وتحقيق مواقف الصحابة (٤٨٥/١) .

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (٤٨٥/١) .

سابعاً : تأثر المسلمين لمقتل عثمان رضي الله عنه ، وما قيل من أشعار :

كان وقع المصيبة على نفوس المؤمنين عظيماً ، فجلّهم الحزن ، وفاضت مآقיהם بالدموع ، ولهجت ألسنتهم بالشّاء على عثمان ، رضي الله عنه ، والترّحُم عليه ، وقام حسان بن ثابت رضي الله عنه يرثي أمير المؤمنين ، ويكثر التفجّع لمقتله ، ويهاجم قاتليه ، ويقرّعُهم بما كسبت أيديهم^(١) ، فيقول :

وَغَزَّوْتُمْ وَنَا عِنْدَ قَبْرِ مُحَمَّدٍ
وَلَيْسَ أَمْرُ الْفَاجِرِ الْمُتَعَمِّدٍ
حَوْلَ الْمَدِينَةِ كُلَّ لَيْنِ مِذْوَدٍ^(٢)
وَلَمِثْلُ أَمْرِ أَمِيرِكُمْ لَمْ يَرْشُدِ
بُذْنُ تُذَبِّحُ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ
أَمْسَى مُقِيمًا فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ^(٣)

أَتَرْكْتُمْ غَرْوَ الدَّرُوبِ وَرَاءَكُمْ
فَلَيْسَ هَذِيُّ الْمُسْلِمِينَ هُدِيشُ
إِنْ تُقْدِمُوا نَجْعَلْ قِرَى سَرَوَاتِكُمْ
أَوْ تُسْدِرُوا فَلَيْسَ مَا سَافَرْتُمْ
وَكَانَ أَصْحَابَ الْبَيِّ عَشِيشَةَ
أَبْكَى أَبَا عَمِّرٍ وَلِحُسْنِ بَلَائِهِ

* وقال حسان أيضاً :

يَدُ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ الْمُقَدَّدِ^(٤)
وَجَثَّمُ بِأَمْرِ جَائِرٍ غَيْرَ مُهْتَدٍ
وَأَوْفَيْتُمْ بِالْعَهْدِ عَهْدَ مُحَمَّدٍ
وَأَوْفَاكُمْ عَهْدًا لَّدَى كُلَّ مَشْهَدٍ
عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ الرَّشِيدِ الْمُسَدَّدِ^(٥)

مَاذَا أَرْدَتُمْ مِنْ أَخْيِي الدَّيْنِ بَارَكْتُ
قَتْلُكُمْ وَلَيَ اللَّهِ فِي جَوْفِ دَارِهِ
فَهَلَا رَاعَيْتُمْ ذَمَّةَ اللَّهِ بَيْنَكُمْ
أَلَمْ يَكُنْ فِيْكُمْ ذَا بَلَاءً وَمَضْدَقٍ
فَلَا ظَفِرَتْ أَيْمَانُ قَوْمٍ تَبَايَعُوا

* وقال حسان أيضاً :

فَلَيْاْتِ مَأْسَدَةً فِي دَارِ عُثْمَانَ
فَبَلَ المَخَاطِمِ^(٦) يَيْضُ زانْ أَبْدَانَا

(١) سير الشهداء ، للسيحياني ، ص (٦٢) .

(٢) مذود : آلة الذود .

(٣) تاريخ الطبرى (٤٤٥/٥) .

(٤) الأديم المقدّد : الجلد اليابس .

(٥) البداية والنهاية (٧/٢٠٥) .

(٦) الماذى : خالص الحديد .

(٧) المخاطم : الأنوف .

قَدْ يَنْقُعُ الصَّبْرُ فِي الْمَكْرُوْهِ أَحْيَانًا
وَبِالْأَمْيَرِ وَبِالإِخْرَانِ إِخْرَانًا
مَا دُمْتُ حَيًّا وَمَا سُمِّيْتُ حَسَانًا
الله أَكْبَرُ يَا ثَازَاتِ عُثْمَانًا^(١)!

صَبْرًا فِدَى لِكُمْ أُمِّي وَمَا وَلَدَتْ
فَقَدْ رَضِيْنَا بِأَهْلِ الشَّامِ نَافِرَةً
إِنِّي لِمِنْهُمْ وَإِنْ عَابُوا وَإِنْ شَهَدُوا
لَسْمَعْنَ وَشِيكَا فِي دِيَارِهِمْ
وقال أيضًا :

بَابُ صَرِيعٍ وَبَابُ مُخْرَقٍ خَرِبٌ
فِيهَا وَيَهُوي إِلَيْهَا الذَّكْرُ وَالْحَسَبُ
لَا يَسْتَوِي الصَّدْقُ عِنْدَ الله وَالْكَذْبُ
بِغُرَرَةٍ عَصَبُ مِنْ خَلْفِهَا عَصَبُ
مُسْتَلِمًا قَدْ بَدَا فِي وَجْهِهِ الغَضَبُ^(٢)

إِنْ تُمْسِ دَارُ ابْنِ أَرْوَى مِنْهُ خَاوِيَةً
فَقَدْ يُصَادِفُ بَاغِيَ الْخَيْرِ حَاجَتَهُ
يَا أَيَّهَا النَّاسُ أَبْدُوا ذَاتَ أَنْفُسِكُمْ
قُومُوا بِحَقِّ مَلِيْكِ النَّاسِ تَعْرِفُوا
فِيهِمْ حَبِيبُ شَهَابُ الْمَوْتِ يَقْدِمُهُمْ

هَذِ الْجَبَالُ فَأَنْفَضْتُ بِرُجُوفِ
وَالشَّمْسِ بَازِغَةً لَهُ بِكُسْوَفِ
بِالنَّعْشِ فَرُوْقَ عَوَاطِقِ وَكُتُوفِ
مَاذَا أَجَنَّ صَرِيعَهُ الْمَسْقُوفُ^(٣)
سَبَقْتُ لَهُ فِي النَّاسِ أَوْ مَعْرُوفِ
أَمْسَى بِمَنْزِلَةِ الضَّيَاعِ بِطُوفُ
كَادَتْ وَأَيْقَنَ بَعْدَهَا بِحُثُوفِ
حَتَّى سَمِعْتُ بِرَأْةِ التَّلَهِيفِ
مُتَفَرِّقَيْنَ قَدْ جَمَعُوا بِحُفُوفِ^(٤)
عُثْمَانَ صَهْرِ فِي الْبِلَادِ عَفِيفِ
وَالْخَيْرِ فِيهِ مُبِينٌ مَعْرُوفُ
مَا دُمْتَ حَيًّا فِي الْبِلَادِ تَطُوفُ

* وقال كعب بن مالك ، رضي الله عنه :
وَيْخُ لِأَمْرِ قَدْ أَتَانِي رَائِعُ
قَتْلُ الْإِمَامِ لَهُ التُّجُومُ خَواضِعُ
يَا لَهُ فَنَسِيَ إِذْ تَوَلَّوْا غَذَّةً
وَلَوَا وَدَلَّوْا فِي الْضَّرِيعِ أَخَاهُمْ
مِنْ نَائِلِ أَوْ سُؤْدُدِ وَحَمَالَةً
كَمْ مِنْ يَئِيمَ كَانَ يَجْبُرُ عَظَمَهُ
فَرَجَتَهَا عَنْهُ بِرُحْمَكَ بَعْدَمَا
مَا زَالَ يَقْبَلُهُمْ وَيَرْأُبُ ظُلْمَهُمْ
أَمْسَى مُقِيْمًا بِالْبَقِيعِ وَأَصْبَحُوا
النَّازُ مَوْعِدُهُمْ بِقَتْلِ إِمَامِهِمْ
جَمَعَ الْحَمَالَةَ^(٥) بَعْدِ حِلْمٍ رَاجِحٍ
يَا كَفُّ لَا تَنْقَكَ تَبِكِي هَالِكًا

(١) تاريخ الطبرى (٤٤٧/٥) .

(٢) حبيب بن مسلمة الفهري ، تاريخ الطبرى (٤٤٦/٥) .

(٣) التمهيد والبيان ، ص (٢١٠) .

(٤) التمهيد والبيان ، ص (٢١١) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

وقال كعب أيضاً :

وَأَيْقَنَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَافِلٍ
عَفَا اللَّهُ عَنْ كُلِّ امْرَئٍ لَمْ يَقَاتِلِ
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَعْدَ التَّوَاصُلِ؟
عَنِ النَّاسِ إِذْبَارُ النَّعَامِ الْجَوَافِلِ^(١)

فَكَفَّ يَدَنِي ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهُ
وَقَالَ لِأَهْلِ الدَّارِ لَا تَقْتُلُوهُمْ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللَّهَ صَبَّ عَلَيْهِمْ
وَكَيْفَ رَأَيْتَ الْخَيْرَ أَدْبَرَ بَعْدَهُ

* وقال راعي الإبل النميري في ذلك :
عَشِيَّةَ يَدْخُلُونَ بِعَيْرٍ إِذْنِ
خَلِيلٍ مُحَمَّدٍ وَوزِينُ صَدْقٍ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

(١) البداية والنهاية (٧/٢٠٥).

(٢) أي : خير من وطئ التراب في أمّة محمدٍ ﷺ بعد رسول الله ﷺ ، ثمَّ أبو بكر ، ثمَّ عمر ، ثمَّ عثمان .

البداية والنهاية (٧/٢٠٦).

الخلاصة

- ١ - كان رضي الله عنه في أيام الجاهلية من أفضل الناس في قومه ؛ فهو عريضُ الجاه ، ثريٌ ، شديد الحياة ، عذب الكلمات ، فكان قومه يحبونه أشدَّ الحب ، ويوقرونَه ، لم يسجد في الجاهلية لصنم قطُّ ، ولم يقترب فاحشةً قطُّ ، فلم يشرب الخمر في الجاهلية .
- ٢ - كان عثمان قد ناهز الرابعة والثلاثين من عمره حين دعاه أبو بكر الصديق إلى الإسلام ، ولم يعرف عنه تلُكُّؤ ، أو تلعمٌ ، بل كان سباقاً أجاب على الفور دعوة الصديق ، فكان بذلك من السَّابقين الأولين .
- ٣ - فرح المسلمون بإسلام عثمان فرحاً شديداً ، وتوثّقت بينه وبينهم عُرا المحبة وأخوة الإيمان ، وأكرمه الله تعالى بالرَّواج من بنت رسول الله ﷺ رقية .
- ٤ - إنَّ سنَّة الابتلاء ماضيةٌ في الأفراد ، والجماعات ، والشعوب ، والأمم ، والدول ، وقد مضت هذه السنَّة في الصحابة الكرام ، وتحملوا من البلاء ما توء به الرَّواسي الشَّامخات ، وبذلوا أموالهم ، ودماءهم في سبيل الله ، وبلغ بهم الجهد ماشاء الله أن يبلغ ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء ، فقد أودى عثمان ، وعدُّب في سبيل الله تعالى على يدي عمِّه الحكم بن أبي العاص .
- ٥ - منذ اليوم الذي أسلم فيه عثمان لزم النبي ﷺ حيث كان ، ولم يفارقه إلا للهجرة بادئه ، أو في مهمةٍ من المهام التي يندب لها ، ولا يعني فيها أحدٌ عناءه ، شأنه في هذه الملازمة شأن الخلفاء الرَّاشدين جميعاً ، كأنَّما هي خاصةٌ من خواصِّهم ، رشحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين .
- ٦ - كان ذو الثُّورين على صلةٍ وثيقةٍ بالدعوة الكبرى من سنته الأولى ، فلم يفتهُ من أخبار النُّبوة الخاصة ، والعامَّة في حياة النبي ﷺ ، ولم يفتهُ شيءٌ بعدها من أخبار الخلافة في حياة الشَّيختين ، ولم يفتهُ بعبارةٍ أخرى شيءٌ ممَّا نسمَّيه اليوم بأعمال التأسيس في الدولة الإسلامية .
- ٧ - كان المنهج التَّربويُّ الذي تربَّى عليه عثمان بن عفَان ، وكلُّ الصحابة الكرام هو القرآن الكريم ، المتنَّزِل من عند ربِّ العالمين .

- ٨ - إن الرَّافِدُ الْقَوِيُّ الَّذِي أَثَرَ فِي سُخْصِيَّةِ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ، وَصَقْلِ مَوَاهِبِهِ ، وَفَجَرَ طَاقَتِهِ ، وَهَذِبَ نَفْسَهُ هُوَ مَصَاحِبَتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَتَلَمَّذَهُ عَلَى يَدِيهِ فِي مَدْرَسَةِ التَّبْوَةِ ، ذَلِكُ : أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَازِمَ الرَّسُولِ ﷺ فِي مَكَّةَ بَعْدِ إِسْلَامِهِ كَمَا لَازِمَهُ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ هِجْرَتِهِ ، فَقَدْ نَظَمَ عُثْمَانَ نَفْسَهُ ، وَحَرَصَ عَلَى التَّلَمِّذَةِ فِي حَلْقَاتِ مَدْرَسَةِ التَّبْوَةِ فِي فَرْوَعَ شَتَّى مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْعِلُومِ عَلَى يَدِي مَعْلُومِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَهَادِيَهَا ، وَالَّذِي أَدَبَهُ رَبُّهُ ، فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ .
- ٩ - لَمْ يَكُنْ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِمَّنْ تَخَلَّفُوا عَنْ بَدْرٍ لِتَقَاعُسِهِ مِنْهُ ، أَوْ هَرُوبِ يَنْشُدِهِ ، كَمَا يَزَعُمُ أَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ مِمَّنْ طَعَنَ عَلَيْهِ بِتَغْيِيْبِهِ عَنْ بَدْرٍ ، فَهُوَ لَمْ يَقْصِدْ مُخَالَفَةَ الرَّسُولِ ﷺ ، لَأَنَّ الْفَضْلَ الَّذِي حَازَهُ أَهْلُ بَدْرٍ فِي شَهُودِ بَدْرٍ طَاعَةً الرَّسُولِ ، وَمُتَابَعُهُ ، وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ فِيمَنْ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَدَّهُ ﷺ لِلْقِيَامِ عَلَى ابْنِهِ ، فَكَانَ فِي أَجْلٍ فَرِضٍ لِطَاعَتِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ، وَتَخَلَّفَهُ ، وَقَدْ ضَرَبَ لَهُ بِسْمِهِ ، وَأَجْرَهُ ، فَشَارَكُوهُ فِي الْغَنِيمَةِ ، وَالْفَضْلِ ، وَالْأَجْرِ لِطَاعَتِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَانْقِيَادِهِ لَهُمَا .
- ١٠ - فِي الْحَدِيبَيَّةِ ذُكِرَ الْمُحَبُّ الطَّبَرِيُّ اخْتِصَاصُ عُثْمَانَ بَعْدَهُ أَمْوَارٍ ، مِنْهَا : اخْتِصَاصُهِ بِإِقَامَةِ يَدِ النَّبِيِّ الْكَرِيمَةِ مَقَامَ يَدِ عُثْمَانَ لِمَا بَاَيَعَ الصَّحَابَةَ ؛ وَعُثْمَانَ غَائِبٌ ، وَاخْتِصَاصُهِ بِتَبْلِيغِ رَسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَنْ بَمَكَّةَ أَسِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَذَكْرُ شَهَادَةِ النَّبِيِّ لِعُثْمَانَ بِمُوافَقَتِهِ فِي تَرْكِ الطَّوَافِ لِمَا أَرْسَلَهُ فِي تِلْكَ الرَّسَالَةِ .
- ١١ - قَبْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَفَاعَةُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي السَّرِّحِ فِي فَتْحِ مَكَّةَ .
- ١٢ - مِنْ حَيَاةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْمَدِينَةِ : زَوَاجُهُ مِنْ أُمَّ الْكَلْثُومِ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ وَفَاتَةِ رَقِيَّةِ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَوَفَاتَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ ، ثُمَّ وَفَاتَةِ أُمَّ الْكَلْثُومِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .
- ١٣ - مِنْ مُسَاهِمَتِهِ الْإِقْتِصَادِيَّةِ فِي بَنَاءِ الدُّولَةِ : شَرَاءُ بَئْرُ رُومَةَ بِعِشْرِينَ أَلْفِ دَرْهَمٍ ، وَجَعَلُوهَا عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَتَوْسِعَةِ الْمَسْجِدِ النَّبِيِّيِّ ، وَإِنْفَاقَهُ الْكَبِيرُ عَلَى جَيْشِ الْعَسْرَةِ .
- ١٤ - وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٍ فِي فَضْلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ مِنْهَا مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهِ مَعَ غَيْرِهِ ، وَمِنْهَا مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهِ وَحْدَهُ ، وَقَدْ أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْفَتَنَةِ الَّتِي يُقْتَلُ فِيهَا عُثْمَانَ .
- ١٥ - كَانَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَهْلِ الشُّورِيَّةِ الَّذِينَ يُؤْخَذُ رَأْيُهُمْ فِي أَمَهَاتِ الْمَسَائلِ فِي عَهْدِ الصَّدِيقِ ؛ فَهُوَ ثَانِي اثْنَيْنِ فِي الْحَظْوَةِ عَنْدَ الصَّدِيقِ ، فَعُمَرُ بْنُ الخطَابِ لِلْحَزْمِ وَالشَّدَائِدِ ، وَعُثْمَانَ لِلرَّفْقِ وَالْأَنَاءِ ، وَكَانَ عُمَرُ وَزِيرُ الْخِلَافَةِ الصَّدِيقِيَّةِ ، وَكَانَ عُثْمَانَ أَمِينَهَا لِلْعَامِ ، وَنَامُوسُهَا الأَعْظَمُ ، وَكَاتِبُهَا الْأَكْبَرُ .

- ١٦ - كان عثمان ذا مكانة عند عمر ، فكانوا إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شيء رموه بعثمان ، وبعبد الرحمن بن عوف ، وكان عثمان يسمى الرَّدِيف - والرَّدِيف بلسان العرب هو الذي يكون بعد الرَّجل - والعرب تقول ذلك للرَّجل الذي يرجونه بعْدَ رَئِيسٍ ، وكانوا إذا لم يقدر هذان على عمل شيء ؛ ثُلُثًا بالعباس .
- ١٧ - من أفضل أعمال عبد الرحمن بن عوف عزله نفسه من الأمر وقت الشُّورى ، واختياره للأمة من أشار به أهل الحلّ ، والعقد ، فنهض في ذلك أئمَّ نهوضٍ على جمع الأمة على عثمان .
- ١٨ - هناك أباطيل ضالَّة ، وأكاذيب كثيرة دُسَّت في التاريخ الإسلامي في قصة الشُّورى ، وتولية عثمان الخلافة ، وقد تلقَّفها المستشرقون ، وقاموا بتوسيع نشرها ، وتأثَّر بها الكثير من المؤرِّخين ، والمفكرين المُحدَثين ، ولم يمحَّصوا الروايات ، ويحقِّقوا في سندتها ، ومتتها ، فانتشرت بين المسلمين .
- ١٩ - جاءت الأدلةُ الكثيرة التي تشير وتبنِي إلى أحقيَّة عثمان رضي الله عنه بالخلافة ، ولا نزاع عند المتمسِّكين بالكتاب والسنَّة في ذلك ، وقد أجمع أصحاب رسول الله ، وكذا من جاء بعدهم ممَّن سلك سبيلهم من أهل السنَّة والجماعة على أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه أحقُّ الناس بخلافة الْبُوَّة بعد عمر بن الخطَّاب رضي الله عندهما .
- ٢٠ - عندما بُويغ عثمان رضي الله عنه بالخلافة قام في النَّاس خطيباً ، وأعلن عن نهجه السياسي ، مبيناً : أنَّه سيتَّقَيد بالكتاب والسنَّة ، وسيرة الشَّيَخِين ، كما أتَاهُ أشار في خطبته إلى أنَّه سيُسوس النَّاس بالحلم ، والحكمة إلا فيما استوجبه من الحدود ، ثمَّ حذرَهم من الرُّكُون إلى الدُّنيا ، والافتتان بحطامها خوفاً من التَّنافس والتَّباغض ، والتَّحسُّد بينهم ، مما يفضي بالأمة إلى الفرقة والخلاف .
- ٢١ - إنَّ شخصية ذي التُّورين تعتبر شخصية قياديَّة ، وقد اتَّصف رضي الله عنه بصفات القائد الرَّبَّاني ؛ من العلم ، والقدرة على التَّوجيه ، والتعليم ، والحلم ، والسماعة ، واللين ، والعفو ، والتَّواضع ، والحياء ، والعفة ، والكرم ، والشَّجاعة ، والحزم ، والصَّبر ، والعدل ، والعبادة ، والخوف ، والبكاء ، والمحاسبة ، والرُّهد ، والشكُر ، وتقدُّمُ أحوال النَّاس ، وتحديد الاختصاصات ، والاستفادة من أهل الكفاءات .
- ٢٢ - إنَّ معرفة صفات الخلفاء الرَّاشدين ، ومحاولة الاقتداء بهم خطوةٌ صحيحةٌ لمعرفة صفات القادة الرَّبَّانيَّين الذين يستطيعون أن يقودوا الأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوطٍ ثابتةٍ .

٢٣ - قامت سياسة عثمان المالية على الأسس العامة التالية : تطبيق سياسة مالية عامة إسلامية ، عدم إخلال الجبائية بالرعاية ، أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين ، وأخذ ما على أهل الذمة لبيت مال المسلمين بالحق ، وإعطاؤهم ما لهم ، وعدم ظلمهم ، وتخلى عمال الخراج بالأمانة ، والوفاء ، وتفادي آية انحرافاتٍ مالية يسفر عنها تكامل النعم لدى العامة .

٢٤ - كانت الفوائد في عهد عثمان تصرف على : صرف مرتبات الولاة ، ومرتبات الجندي ، وعلى الحجج ، وإعادة بناء المسجد النبوى ، وتمويل توسيعة المسجد الحرام ، وإنشاء أول أسطول بحري ، وتحويل الساحل من الشعيبة إلى جدة ، وحفر الآبار ، والإنفاق على المؤذنين ، وغيرها من الأمور .

٢٥ - أثّم عثمان رضي الله عنه من قبل الغوغاء والخوارج بإسرافه في بيت المال ، وإعطائه أكثره لأقاربه ، وقد ساند هذا الانهيار حملة دعائية باطلة قادها السبئيون ، وتلقّفها أعداء الإسلام ضده إلى يومنا هذا ، وتسربت في كتب التاريخ ، وتعامل معها المفكرون والمؤرخون على كونها حقائق ، وهي باطلة لم تثبت لأنّها مختلقة .

٢٦ - يعتبر عهد ذي الثورين امتداداً للعهد الرشادي الذي تجلّى أهميته بصلته بالعهد النبوى ، وقربه منه ، فكان العهد الرشادي عامّة ، والجانب القضائي فيه خاصّة ، امتداداً للقضاء في العهد النبوى ، مع المحافظة الكاملة ، والثانية على جميع ما ثبت في العهد النبوى ، وتطبيقه بحدّافيره ، وتنفيذها بنصّه ، ومعناه .

٢٧ - كانت خطّة عثمان في الفتوحات تتّسم بالجسم ، والعزم ، وتمثّلت في الآتي : إخضاع المتمرّدين من الفرس ، والروم ، وإعادة سلطان الإسلام إلى هذه البلاد ، واستمرار الجهاد والفتوحات فيما وراء هذه البلاد لقطع المدد عنهم ، وإقامة قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد الإسلامية ، وإنشاء قوّة بحرية عسكرية لافتقار الجيش الإسلامي إلى ذلك .

٢٨ - كانت معسكرات الإسلام ومسالحة (ثغوره) في عهد عثمان هي عواصم أقطاره الكبرى ، فمعسكر العراق : الكوفة ، والبصرة ، ومعسكر الشام في دمشق بعد أن حلّ محل الشام كُلُّه لمعاوية بن أبي سفيان ، ومعسكر مصر ، وكان مركزه الفسطاط ، وكانت هذه المعسكرات تقوم بحماية دولة الإسلام ، ومواصلة الفتوحات ، ونشر الإسلام .

٢٩ - من أشهر قادة الفتوحات في عهد عثمان رضي الله عنه : الأحنف بن قيس ، وسليمان ابن ربيعة ، وعبد الرحمن بن ربيعة ، وحبيب بن مسلمة .

٣٠ - كانت معركة ذات الصواري من مظاهر تفوق العقيدة الصَّحيحة الصلبة على الخبرة العسكرية ، والتفوق في العدد والعدد ، فلقد كان الرُّوم هم أهل البحر منذ القدم ، وقد مُروا بتجارب طويلة في الحروب البحرية ، بينما كان المسلمون حديثي عهْدِ برکوب البحر ، والقتال البحريّ .

٣١ - من أهم الدُّرُوس ، وال عبر ، والفوائد في فتوحات عثمان بن عَفَانَ رضي الله عنه : تحقق وعد الله للمؤمنين بالنصر ، والتمكين ، التطور في فنون الحرب والسياسة ، رکوب المسلمين البحر ، جمع المعلومات عن الأعداء ، الحرص على وحدة الكلمة في مواجهة العدوّ .

٣٢ - يظهر من قصَّة جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه مدى فهم الصحابة رضي الله عنهم لآيات النَّهْي عن الاختلاف ، حيث إنَّ الله نهى عن الاختلاف ، وحدَّر منه ، فلعمق فهمهم لهذه الآيات ارتعد حذيفة رضي الله عنه عندما سمع بوادر الاختلاف في قراءة القرآن ، فرحل فوراً إلى المدينة النبوية ، وأخبر عثمان رضي الله عنه بما رأى ، وبما سمع ، وفي مدة قصيرة حسم عثمان الأمر ، وأغلق باب الخلاف .

٣٣ - إنَّ الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين ، وتوحيد صَفَّهم من أعظم الجهاد ، وهذه الخطوة مهمَّةٌ في إعزاز المسلمين ، وإقامة دولتهم ، وتحكيم شرع ربِّهم ، وهذا من فقه الخلفاء الرَّاشدين ، ويتجلَّ في أبهى صورةٍ في جمع عثمان رضي الله عنه للأمة على مصحفٍ واحدٍ .

٣٤ - كانت أقاليم الدُّولَةِ الإِسْلَامِيَّةِ في عهد عثمان رضي الله عنه كَلَّا من : مَكَّةَ ، والمدينة ، والبحرين ، واليامنة ، واليمن ، وحضرموت ، والشَّام ، وأرمينية ، ومصر ، والبصرة ، والكرفَةِ .

٣٥ - اتَّخذ عثمان رضي الله عنه أساليب متنوَّعةً لمراقبة عمَّاله ، والاطلاع على أخبارهم ، منها : حضوره لموسم الحجَّ ، سُؤال القادمين من الأمصار ، والولايات ، إرسال المفتشين إلى الولايات ، استقدام الولاة وسؤالهم ، وغير ذلك من الأساليب .

٣٦ - من حقوق الولاة في العهد الرَّاشدي : الطَّاعة في غير معصية الله ، بذل النَّصيحة للولاة ، إيصال الأخبار الصَّحيحة إليهم ، احترامهم بعد عزلهم ، وإعطاؤهم مرتباتهم .

٣٧ - من واجبات الولاة في العهد الرَّاشدي : إقامة أمور الدين ، تأمين النَّاس في بلادهم ، الجهاد في سبيل الله ، بذل الجهد في تأمين الأرزاق للنَّاس ، تعيين العمال ، والموظفين ،

رعاية أهل الدّمة ، مشاورة أهل الرأي في ولايتهم ، النّظر في حاجة الولاية العمرانية ، مراعاة الأحوال الاجتماعيّة لسكان الولاية .

٣٨ - إنّ عثمان خليفة راشد يقتدى به ، وأفعاله تشكّل سوابق دستورية في هذه الأمة فكما أنّ عمر سنّ لمن بعده التّحرّج عن تقريب الأقربين ، فإنّ عثمان سنّ لمن بعده تقريب الأقربين إذا كانوا في كفاءتهم الإدارية ، وكلّ ما أنكر على عثمان لا يخرج عن دائرة المباح .

٣٩ - إنّ الولاة الّذين ولاهم عثمان رضي الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاية ، والمقدّرة في إدارة شؤون ولاياتهم ، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان ، وساروا في الرّاعية سيرة العدل والإحسان ، ومنهم من تقلّد مهام الولاية في عهد الصّديق ، والفاروق ، رضي الله عنهم .

٤٠ - إنّ الذي يرجع إلى الصّحيح الممحض من وقائع التّاريخ ، ويتبّع سيرة الرجال الّذين استعملوا بهم أمير المؤمنين عثمان ، وما كان لجهادهم من جميل الأثر في تاريخ الدّعوة الإسلامية ، بل ما كان لحسن إدارتهم من عظيم النّتائج في هذه الأمة ، وسعادتها ؛ فإنّه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الجهر بالإعجاب ، والفخر كلّما أمعن في دراسة ذلك الدّور من أدوار التّاريخ الإسلاميّ .

٤١ - إنّ عثمان رضي الله عنه لم يسلم من كثيرٍ من الباحثين في كتاباتهم غير المنصفة ، وغير المحقّقة عن عهد عثمان ، فقد تورّط الكثير منهم في الروايات الضعيفة والإماميّة ، وبنوا أحکاماً باطلةً ، وجاءت في حقّ عثمان ، مثل طه حسين في كتابه : الفتنة الكبرى ، وراضي عبد الرحيم في كتابه : النّظم الإسلاميّة ، ومحمد الرئيس في كتابه : النّظريات السياسيّة ، وعلى حسين الخربوطي في كتابه : الإسلام والخلافة ، وأبي الأعلى المودودي في كتابه : الملك والخلافة ، وسيّد قطب في كتابه : العدالة الاجتماعيّة ، وغيرهم ، لقد كان عثمان رضي الله عنه بحق الخليفة المظلوم الذي افترى عليه خصومه الأوّلون ، ولم ينصفه المتأخرون .

٤٢ - إنّ الحقيقة التّاريخيّة تقول : إنّ عثمان رضي الله عنه لم ينف أبا ذرٍ رضي الله عنه ، إنّما استأذنه ، فأذن له ، ولكنّ أعداء عثمان رضي الله عنه كانوا يشيّعون عنه بأنّه نفاه .

٤٣ - إنّ أبا ذرٍ رضي الله عنه لم يتأثّر لا من قريبٍ ولا من بعيد بآراء عبد الله بن سبأ اليهوديّ ، وقد أقام بالرّبّدة حتّى توفي ، ولم يحضر شيئاً مما وقع من الفتن .

٤٤ - من أسباب فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه أمور عدّة ، منها : الرّخاء ، وأثره في المجتمع ، طبيعة التّحول الاجتماعيّ في عهد عثمان رضي الله عنه مجيء عثمان بعد عمر ،

رضي الله عنهم خروج كبار الصحابة من المدينة : العصبية الجاهلية ، توقف الفتوحات ، المفهوم الخاطئ للورع ، طموح الطامحين ، تأمر الحاقدين ، التَّدْبِيرُ الْمُحْكَمُ لإثارة المآخذ ضدَّ عثمان ، استخدام الأساليب ، والوسائل المهيجة للناس ، دور عبد الله بن سبأ في الفتنة .

٤٥ - كانت بداية اشتعال الفتنة بالكوفة ، وقد تمَّ نفي رجالها إلى الشَّام ، ثمَّ استقرَّ أمرهم عند عبد الرَّحْمَنِ بنِ خالدِ الْوَلِيدِ بِالْجَزِيرَةِ ، ثُمَّ رجعوا إلى الكوفة بعد مكاتبة يزيد بن قيس لهم بالمجيء للكوفة .

٤٦ - كانت سياسة عثمان رضي الله عنه في التعامل مع الفتنة قائمةً على الحلم ، والتَّائِي ، والعدل ، وقد اتَّخذ عدَّةً أساليب لمواجهتها منها : إرسال لجان تفتيش ، وتحقيق ، كتب إلى أهل الأمصار كتاباً شاملاً بمثابة إعلانٍ عامٍ لكل المسلمين ، مشورة عثمان لولاة الأمصار ، إقامة الحجَّة على المتمرِّدين ، الاستجابة لبعض مطالبهم .

٤٧ - إنَّ المتأمِّل في هدي عثمان رضي الله عنه في تعامله مع الفتنة التي وقعت في عهده ، يمكنه أن يستنبط بعض الضوابط التي تعين المسلم لمواجهته للفتن ، ومن هذه الضوابط : التَّثْبِيتُ ، لزوم العدل ، والإنصاف ، والحلم ، والأناة ، الحرص على ما ينفع ، ونبذ ما يفرُّق بين المسلمين ، لزوم الصَّمت والحذر من كثرة الكلام ، استشارة العلماء الرَّبَّانِين ، الاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ في الفتنة .

٤٨ - يظهر للباحثين أنَّ هناك أسباباً دعت عثمان إلى منع الصحابة من القتال ، وهي : العمل بوصيَّة الرَّسُول ﷺ التي سارَهُ بها ، وبيَّنَها عثمان رضي الله عنه يوم الدَّار ، وأنَّها عهْدٌ عُهدَ به إليه ، وأنَّه صابرٌ نفسه عليه ، كره أن يكون أوَّل من خلف رسول الله ﷺ في أمْتَه بسفك دماء المسلمين ، علِمُهُ بأنَّ البغاء لا يريدون غيره ، فكره أن يتوقَّى بالمؤمنين ، وأحبَّ أن يقيهم بنفسه ، علِمُهُ بأنَّ هذه الفتنة فيها قتله ، وذلك فيما أخبره بها رسول الله ﷺ عند تبشيره إياه بالجهة على بلوى تصبيه ، وأنَّه سيقتل مصطبراً بالحقّ ، معطيه في فتنة ، العمل بمشورة ابن سلام رضي الله عنه له ، إذ قال له : الكفَ ! الكفَ ! فإنه أبلغ لك في الحجَّةِ .

٤٩ - إنَّ قاتل عثمان رضي الله عنه رجلٌ مصرِّيٌّ ، لم تفصَّل الرَّوایاتُ عن اسمه ، وأمَّا ما يتعلَّق بتهمة محمد بن أبي بكر بقتل عثمان بمساقبه ، فهذا باطلٌ ، والرَّوایاتُ بذلك روایاتٌ ضعيفةٌ ، كما أنَّ متونها شاذَّةً لمخالفتها للرواية الصحيحة التي تبيَّن : أنَّ القاتل هو رجلٌ مصرِّيٌّ .

٥٠ - إنَّ الصَّحَابَةَ جَمِيعاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَبْرَيَاءَ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَدْ صَحَّتِ الْأَخْبَارُ ، وَأَكَدَّتِ الْحَوَادِثُ ، وَالتَّارِيخُ عَلَى بِرَاءَةِ الصَّحَابَةِ مِنَ التَّحْرِيقِ عَلَى عُثْمَانَ ، أَوْ الْمُشَارِكَةِ فِي الْفَتْنَةِ ضَدَّهِ ، كَمَا أُورِدَنَا ذَلِكَ بِالرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ .

٥١ - إنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ مُتَيقِّظاً ، وَلَمْ تَنْطِلْ عَلَيْهِ الْمُؤَامَرَةُ ، وَلَا أَهْدَافُهَا ، بَلْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَخْرُقَ صَفَوفَ الْمُتَمَرِّدِينَ ، وَيُكَشِّفَ مُخْطَطَهُمْ كَامِلاً ، وَوَاجَهَ بِشَجَاعَةٍ فَائِقةٍ ، وَكَرِهَ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَسْلُلُ السِّيفَ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَآثَرَ أَنْ يَفْدِي الْأُمَّةَ بِنَفْسِهِ ، وَهَذِهِ قَمَّةُ التَّضْاحِيَةِ ، وَالإِيَّاثِ .

٥٢ - كَانَتْ فَتْنَةُ مَقْتَلِ عُثْمَانَ سَبِيباً فِي حَدَوثِ كَثِيرٍ مِنَ الْفَتْنَاتِ الْأُخْرَى ، وَأَلْقَتْ بِظَلَالِهَا عَلَى أَحَدَاتِ الْفَتْنَةِ الَّتِي تَلِيهَا ، فَتَغَيَّرَتْ قُلُوبُ النَّاسِ ، وَظَهَرَ الْكَذْبُ ، وَبِدَا الْخَطُّ الْبَيَانِيُّ لِلَانْجَرَافِ عَنِ الْإِسْلَامِ فِي عَقِيدَتِهِ ، وَشَرِيعَتِهِ .

٥٣ - إِنَّ الْظُّلْمَ ، وَالْاعْتِدَاءَ عَلَى الْآخِرِينَ بِغَيْرِ حُقُّ مِنْ أَسْبَابِ الْهَلاَكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : «وَتَلَكَ الْقَرْعَ أَهْلَكَنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِهِمْ كُلَّهُمْ مَوْعِدًا» [الكهف : ٥٩] وَإِنَّ الْمُتَبَيِّعَ لِأَحْوَالِ أُولَئِكَ الْخَارِجِينَ عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمُعْتَدِينَ عَلَيْهِ يَجِدُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَهْمِلْهُمْ ، بَلْ أَذْلَهُمْ ، وَأَخْزَاهُمْ ؛ وَانْتَقَمَ مِنْهُمْ ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

٥٤ - كَانَ وَقْعُ الْمُصِيَّبَةِ عَلَى نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ عَظِيمًا ، فَذَهَلَتْ عُقُولُهُمْ ، وَجَلَّهُمُ الْحَزَنُ ، وَفَاضَتْ مَآقِيَهُمْ بِالْدَمْوعِ ، وَلَهِجَتْ أَسْنَتُهُمْ بِالثَّنَاءِ عَلَى عُثْمَانَ ، وَالْتَّرْحُمُ عَلَيْهِ ، وَقَامَ حَسَانُ بْنُ ثَابَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَرْثِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُكَثِّرُ التَّفْجُعَ لِمَقْتَلِهِ ، وَيَهْجُو قَاتِلِهِ بِقَصَائِدِ مُبَكِّيَةٍ حَزِينَةٍ ، حَفَظَهَا لَنَا التَّارِيخُ ، وَلَمْ تَهْمِلْهَا الْلِيَالِيُّ ، وَلَمْ تَفْصِلْهَا عَنَّا حَوْاجِزُ الزَّمْنِ ، وَلَا أَسْوَارُ الْقُرُونِ .

٥٥ - وَبَعْدَ فَهْذَا مَا يَسِّرَهُ اللَّهُ لِي مِنْ جَمِيعِ ، وَتَرْتِيبِ ، وَتَحْلِيلِ ، تَضَمَّنَتْهَا فَصُولُ هَذَا الْكِتَابِ (عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، شَخْصِيَّتِهِ ، وَعَصْرِهِ) فَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ صَوَابٍ ، فَهُوَ مَحْضُ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيَّ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمَنَةُ ، وَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ خَطَأً ، فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ، وَاللَّهُ ، وَرَسُولُهُ بْرِيءٌ مِنْهُ ، وَحَسْبِيُّ أَنِّي كُنْتُ حَرِيصاً عَلَى بَيَانِ الْحَقَائِقِ ، وَالْبَرَاهِينِ وَالْأَدَلَّةِ الَّتِي تَبَيَّنَ حَقِيقَةُ الْخَلِيلَةِ الرَّاشِدِ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَأَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُنْفَعَ بِهِذَا الْكِتَابِ إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ يَذْكُرَنِي مِنْ يَقْرَئُهُ فِي دُعَائِهِ ، فَإِنَّ دُعَوةَ الْأَخِيِّ فِي ظَهَرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَأَخْتَمُ هَذَا الْكِتَابَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : «وَالَّذِينَ جَاءُوكُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا

وَلَا إِخْرَقْنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غُلَّا لِلَّذِينَ أَمْنَوْرَبَتَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ [الحشر : ١٠]

* وبقول الشاعر :

جَلَّ مَنْ لَا عِنْدَهُ فِيهِ وَعَلَا

إِنْ تَحِدْ عَيْنَاهَا فَسُدَّ الْخَلَال

* وبقول الشاعر :

أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الْكَسْلِ
تَشْتَغِلُ عَنْهُ بِمَالِ وَحْشَوْلِ
يَعْرِفُ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرُ مَا بَذَلْ
كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرَبِ وَصَلَ

اطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ ، فَمَا
احْتَفَلْ لِلْفَقِيرِ فِي الدِّينِ وَلَا
وَاهْجُرِ النَّسَوَمَ وَحَصَلْ فَمَنْ
لَا تَقْلِ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه الفقير إلى عفوريه

ومغفرته ، ورحمته ، ورضوانه
علي محمد محمد الصلاوي
ربيع الثاني ١٤٢٣ هـ

٢٠٠٢/٦/١٨ م

تعريف ببعض المناطق التي ذكرت في البحث^(١)

- ١- طبرستان : منطقة تقع جنوب بحر قزوين ، عاصمتها مدينة همدان ، جاء اسمها من جمع الكلمة « طبر » التي تعني في اللغة الفارسية الفأس مع « زنان » التي تعني : النساء .
- ٢- أذربيجان : أصل الكلمة : أتروباتن ، التي تعني : أرض النار ، وتقع هذه المنطقة غرب بحر قزوين ، عاصمتها مدينة « أردبيل » .
- ٣- أرمانيا : صقع كبير يقع شرق آسيا الصغرى جنوب البحر الأسود ، جاءت تسميتها من سكانها الأرمن ، وهم قبائل هندية وأوروبية اعتنقوا النصرانية في بداية القرن الرابع الميلادي ، بعد ذلك تحولوا إلى المذهب المونوفيسكي (أصحاب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام) ، كان سكانها قد قاوموا الفتح الإسلامي لبلادهم ، وبقوا محافظين على ديانتهم النصرانية .
- ٤- طخارستان : إقليم يقع جنوب غرب بلاد ما وراء النهر ، عاصمتها « بلخ » تقع غالبية أراضيها حالياً ضمن « أفغانستان » أهم مراكزها اليوم « قندز » و« خوست » .
- ٥- خراسان : معناها : مشرق الشّمس ، تقع شرق الهضبة الإيرانية ، عاصمتها مرو .
- ٦- سجستان : منطقة تقع جنوب إقليم خراسان ، عاصمتها « بست » جاء اسمها من سكّنِ قوم فيها يدعون بالسّاكا (الإ斯基ثيين) ، أمّا التّرجمة الحرفيّة لها ؛ فتعني : أرض الكلاب على أساس أنّ « سك » تعني : الكلاب في اللغة الفارسية ، وأستان المنطقة ، وحالياً تدعى « سیستان » .
- ٧- بلاد ما وراء النهر : وهي الأرضي الواقعه ما بين نهري جيحون (آموداريا) وسيحون (سرداريا) ، ومن مدنها بخارى وسمرقند وطشقند ، وحالياً تقع ضمن جمهوريات تركمنستان وأوزبكستان وطاجيكستان .
- ٨- جرجان : إقليم يقع شرق بحر قزوين ، وكان اسمها سابقاً إقليم باكتريا ، حيث بُشّر فيه زرادشت بدعوته .

(١) التعريف بهذه المناطق قام به الدكتور فرنست مرعي الدهوكى جزاء الله خيراً .

٩- خوزستان : إقليم يقع جنوب غرب الهضبة الإيرانية يحدّد العراق العربي ، قصبتها الأهواز ، أطلق عليها العرب اسم إقليم عربستان ، سيطر عليه الشاه رضا بهلوي سنة ١٩٢٥ م بعد أن اعتقل حاكمها العربي الشيخ خرزل الكعبي ، وهي مشهورة بالنَّفط .

* * *

المصادر والمراجع

- ١- أباظيل يجب أن تمحى من التّارikh ، إبراهيم شعوط ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ط٥ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- ٢- أثر الشّيئع على الرّوایات التّاريخيّة ، د . عبد العزيز نورولي ، دار الخضيري ، المدينة ، الطّبعة الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .
- ٣- أحداث وأحاديث الفتنة الأولى ، عبد العزيز صغير دخان ، تحت الطّبع .
- ٤- الأحكام السلطانية ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ٥- أدب صدر الإسلام ، واضح الصّمد .
- ٦- الأدب في الإسلام في عهد الثّبّة وخلافة الرّاشدين ، د . نايف معروف ، دار النّقائس ، الطّبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- ٧- الأساس في السّنة ، وفقيها ، والسيّرة التّبويّة ، سعيد حوّى ، دار السلام ، الطّبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .
- ٨- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لعز الدين بن الأثير ، أبي الحسن بن علي بن محمد الجزرّي ، دار إحياء التّراث العربي ، بيروت ، الطّبعة الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .
- ٩- أشهر مشاهير الإسلام ، رفيق العظم ، دار الرّائد العربي ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة السادسة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- ١٠- أصول الإسماعيلية ، لويس بارنارد ، ترجمه إلى العربية خليل أحمد جلو ، جاسم محمد الرّجب ، بغداد مكتبة المثنى ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٧ م .
- ١١- أصول مذهب الشّيعة الإمامية ، ناصر بن عبد الله الغفاري ، دار الرّضا للنشر والتّوزيع ، الطّبعة الثالثة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .
- ١٢- أضواء البيان في تاريخ القرآن ، صابر حسن محمد أبو سليمان ، دار عالم الكتب ، الطّبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .

- ١٣- أعلام المسلمين لخالد البيطار .
- ١٤- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسيّ ، عالم الكتب ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م .
- ١٥- الأموال لأبي عبيد .
- ١٦- أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالبٍ من الميلاد إلى الاستشهاد ، د . أحمد السيد يعقوب السيد يوسف الرفاعي ، دار الفضيلة ، القاهرة .
- ١٧- الأمين ذو الثورين ، محمود شاكر ، المكتب الإسلاميّ ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م .
- ١٨- الأنساب ، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ، تحقيق : عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، بيروت ، الناشر محمد أمين دمح ، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م .
- ١٩- أوليات الفاروق ، د . غالب عبد الكافي القرشيّ ، المكتب الإسلامي بيروت ، مكتبة الحرمين الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .
- ٢٠- الإبانة في أصول الدين ، لأبي الحسن الأشعريّ ، طبعة الجامعة الإسلامية ١٩٧٥ م .
- ٢١- الإتقان للسيوطنيّ ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م .
- ٢٢- إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ، محمد الخضري ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م .
- ٢٣- الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية نشأتها ، وتطورها ، الدكتور سليمان بن صالح بن سليمان آل كمال ، جامعة أم القرى ، معهد البحوث وإحياء التراث .
- ٢٤- إرشاد العباد للاستعداد ل يوم المعاد ، عبد العزيز المحمد السلمان ، مطبع الخالد ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ .
- ٢٥- الإصابة في تمييز الصحابة ، أحمد بن علي بن حجر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م .
- ٢٦- الانشرح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق ، د . علي محمد الصلاحي ، مكتبة الصحابة ، الشارقة ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م .
- ٢٧- الاجتهاد في الفقه الإسلامي ، عبد السلام السليمانيّ ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، طبعة ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م .

- ٢٨- استشهاد عثمان ، ووقة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطّبرى دراسة نقدية ، د . خالد بن محمد الغيث ، دار الأندلس الخضراء ، جدّة ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ .
- ٢٩- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.
- ٣٠- الاعتصام ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي .
- ٣١- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، لتقىي الدين ابن تيمية ، تحقيق : د . ناصر العقل ، طبع مطبع العبيكان الرّياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ .
- ٣٢- البحرين في صدر الإسلام ، وأثرها في حركة الخوارج ، عبد الرحمن عبد الكريم التّجم ، دار الحرية بغداد ١٩٧٣ م.
- ٣٣- البداية والنهاية ، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، دار الرّيان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- ٣٤- البيان والتّبیین ، للجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، دار الخانجي بمصر ، ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م.
- ٣٥- تاريخ الدّعوة الإسلامية في زمن الرّسول والخلفاء الرّاشدين ، د . جميل عبد الله المصري ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
- ٣٦- تاريخ ابن خلدون .
- ٣٧- تاريخ ابن خلدون ، دار النّقائس ، الرّياض ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م.
- ٣٨- تاريخ الأمم والملوک لأبي جعفر الطّبرى ، دار الفكر ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
- ٣٩- تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الرّاشدين ، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
- ٤٠- التاريخ الإسلامي موافق وعبر ، د . عبد العزيز عبد الله الحميدي ، دار الدّعوة ، الإسكندرية ، دار الأندلس الخضراء ، جدّة ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.
- ٤١- تاريخ التشريع الإسلامي ، محمد الخضري ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة السّعادة ، الطبعة السادسة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م.
- ٤٢- تاريخ الجدل ، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٣٤ م.

- ٤٣- تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية وصدر الإسلام ، نكلسون ، رينولد ، ترجمة صفاء خلوصي ، بغداد : مطبعة المعارف ١٣٨٨ هـ - ١٩٧٩ م.
- ٤٤- تاريخ القضاء في الإسلام ، د. محمد الرّحيلي ، دار الفكر دمشق ، دار الفكر المعاصر لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٤٥- تاريخ القضايعي ، كتاب عيون المعارف ، وفنون أخبار الخلائق للإمام القاضي محمد بن سلام بن جعفر الشافعي ، مطبوعات جامعة أم القرى .
- ٤٦- تاريخ المدينة ، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري ، تحقيق : محمود شلتوت ، نشر السيد حبيب محمود أحمد ، المدينة ١٣٩٣ هـ .
- ٤٧- تاريخ اليعقوبي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، طبعة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٤٨- تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي ، حسن سليمان محمود ، الطبعة الأولى ، بغداد ١٩٦٩ م.
- ٤٩- تاريخ خليفة بن خيّاط ، أبو عمر خليفة بن خيّاط بن أبي هبيرة الليثي ، تحقيق : أكرم ضياء العمري ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرّسالة ، ودار القلم ، بيروت ١٣٩٧ هـ .
- ٥٠- تاريخ دمشق ، ابن عساكر ، ترجمة عثمان رضي الله عنه ، تحقيق : سكينة الشهابي ، نشر المجمع العلمي بدمشق ١٩٨٤ م.
- ٥١- تبصير المؤمنين بفقه التّنصر والثّمكين في القرآن الكريم ، علي الصّلابي ، دار الصحابة ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ .
- ٥٢- التّبيين في أنساب القرشيين ، موقف الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ، حقيقة محمد نايف الدّلّيمي ، عالم الكتب ، الطبعة الثانية .
- ٥٣- تجريد أسماء الصحابة ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي ، تصحيح صالحة عبد الحكيم شرف الدين ، طبعة شرف الدين الكتبى وأولاده بومباي ، الهند ، ١٣٨٩ هـ .
- ٥٤- تحفة الأحوذى بشرح سنن التّرمذى ، محمد عبد الرحمن المباركفورى ، تصحيح عبد الرحمن محمد عثمان ، مطبعة الاعتماد ، نشر محمد عبد المحسن الكتبى .
- ٥٥- تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة من روایات الطّبرى والمحدثين ، تأليف د. محمد أم prezziون ، دار طيبة ، مكتبة الكوثر ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

- ٥٦- تذكرة الحفاظ ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، بيروت ، دار إحياء التراث .
- ٥٧- التربية القيادية ، منير الغضبان ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- ٥٨- تفسير القرطبي ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، القرطبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ١٩٦٥ م.
- ٥٩- التفوّق والتّجابة على نهج الصحابة ، حمد بن يبلة بن مرهان العجمي ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، الطبعة الأولى .
- ٦٠- تقريب التّهذيب ، لابن حجر .
- ٦١- التّمهيد والبيان في مقتل الشّهيد عثمان ، محمد بن يحيى بن أبي بكر المالقي الأندلسى ، حقّقه د. محمود يوسف زايد ، دار الثقافة الدّوّارة ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- ٦٢- التنظيمات الاجتماعية ، والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ، صالح العلي ، الطبعة الثانية ، دار الطّليعة ، بيروت ١٩٧٩ م.
- ٦٣- تهذيب ابن عساكر ، دار إحياء التّراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ٦٤- تهذيب التهذيب ، أحمد بن علي بن حجر ، دار صادر ، بيروت .
- ٦٥- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ، مكتبة طيبة ، المدينة المنورة ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- ٦٦- الجرح والتعديل ، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرّازى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدّكّن ، الهند ١٣٧٢ هـ .
- ٦٧- جمهرة أنساب العرب ، علي بن أحمد بن حزم الأندلسى ، تحقيق : عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٣٨٢ هـ .
- ٦٨- جولة تاريخية في عصر الخلفاء الرّاشدين ، د. محمد السيد الوكيل ، دار المجتمع ، الطبعة الخامسة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٦٩- حذيفة بن اليمان ، إبراهيم العلي ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

- ٧٠- حروب الإسلام في الشّام في عهود الخلفاء الرّاشدين ، محمد أحمد باشميل ، الطّبعة الأولى ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م.
- ٧١- حروب الرّدّة وبناء الدّولة الإسلاميّة ، أحمد سعيد بن سالم ، دار المنار ، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٤ م.
- ٧٢- الحضارة العربيّة في الإسلام ، د. واضح الصّمد ، المؤسّسة الحديثة للكتاب ، طرابلس-لبنان .
- ٧٣- حقبة من التّاريخ ، عثمان الخميس ، دار الإيمان ، الإسكندرية .
- ٧٤- الحكمة في الدّعوة إلى الله ، سعيد القحطاني ، مؤسّسة الجريسي ، الرّياض ، السّعوديّة ، الطّبعة الأولى ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م.
- ٧٥- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ، دار الكتب العلميّة ، بيروت .
- ٧٦- الخراج لأبي يوسف ، منشورات مكتبة الرّياض الحديثة ، بدون تاريخ الطّبع .
- ٧٧- الخراج وصناعة الكتابة ، أبو الفتوح قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي ، شرح ، وتحقيق : د. محمد حسين الزّبيدي ، دار الرّشيد ، بغداد ١٩٨١ م.
- ٧٨- الخلافة الرّاشدة والدّولة الأمويّة من فتح الباري ، يحيى بن إبراهيم اليحيى ، دار الهجرة ، الطّبعة الأولى ١٤١٧ هـ- ١٩٩٦ م.
- ٧٩- الخلافة بين التنّظير والتطّبيق ، محمود المرداوي ، الطّبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.
- ٨٠- خلافة عثمان بن عفّان ، د. محمد بن صامل السّلمي ، مكتبة سالم ، العزيزيّة ، جامعة أمّ القرى ، الطّبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ .
- ٨١- الخلافة ، والخلفاء الرّاشدون بين الشّوري ، والديمقراطية ، المستشار سالم البهنساوي ، مكتبة المنار الإسلاميّة ، الطّبعة الثانية ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧ م.
- ٨٢- الخلفاء الرّاشدون أعمال وأحداث ، د. أمين القضاة ، دار الفرقان ، الأردن ، طبعة الفرقان الأولى ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠ م.
- ٨٣- الخلفاء الرّاشدون بين الاستخلاف والاستشهاد ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، الدّار الشاميّة ، بيروت الطّبعة الأولى ١٤١٦ هـ- ١٩٩٥ م.

- ٨٤- الخلفاء الرّاشدون ، حسن أئيوب ، دار التّوزيع والشّر الإلّاميّة ، الطّبعة الأولى ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧ م.
- ٨٥- الخلفاء الرّاشدون ، عبد الوهاب النّجاشي ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- ٨٦- الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب ، عبد الرحمن عبد الكريم العاني ، د . حسن فاضل زغين ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد طبعة ١٩٨٩ م.
- ٨٧- الخوارج والشّيعة ، يوليос فلهاوزن .
- ٨٨- دراسات في الأهواء والفرق والبدع ، موقف السّلف منها ، د . ناصر بن عبد الكريم العقل ، مركز دار إشبيليا ، الطّبعة الأولى ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧ م.
- ٨٩- دراسات في عهد الثّبوة والخلافة الرّاشدة ، د . عبد الرحمن الشّجاع ، الطّبعة الأولى ١٤١٩ هـ- ١٩٩٩ م. دار الفكر المعاصر-صنعاء .
- ٩٠- الدرّاهم المضروبة على الطّراز السياسي للخلفاء الرّاشدين في المتحف العراقي ، مجلة المسكوكات ، مديرية الآثار العامة بغداد ١٩٦٩ م ، وداد علي القرزا .
- ٩١- دماء على قميص عثمان بن عفان ، دار البشير ، الطّبعة الأولى ١٤٢١ هـ- ٢٠٠١ م.
- ٩٢- الدّوحة التّبنيّة ، د . فاروق حمادة ، دار القلم ، دمشق ، الطّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠ م.
- ٩٣- دور المرأة السياسي في عهد النبي ﷺ والخلفاء الرّاشدين ، تأليف : أسماء محمد أحمد زيادة ، دار السلام بمصر ، الطّبعة الأولى ١٤٢١ هـ- ٢٠٠١ م.
- ٩٤- الدّولة الأمويّة المفترى عليها ، دراسة الشبهات ورد المفترىات ، د . حمدي شاهين ، دار القاهرة للكتاب ٢٠٠١ م.
- ٩٥- الدّولة الأمويّة ، يوسف العش ، دار الفكر ، الطّبعة الثانية ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٥ م.
- ٩٦- الدّولة الإسلاميّة في عصر الخلفاء الرّاشدين ، د . حمدي شاهين ، دار القاهرة .
- ٩٧- الدّولة والسيادة ، د . فتحي عبد الكريم ، مكتبة وهة بمصر ، الطّبعة الثانية ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- ٩٨- الدين الخالص ، محمد صدّيق حسن القنوجي البخاري ، تحقيق : محمد زهري النّجاشي ، مكتبة الفرقان .

- ٩٩- ديوان أعشى همدان ، عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث ، تحقيق : د . حسن عيسى أبو ياسين ، الرياض ، دار العلوم ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.
- ١٠٠- ذات الصواري ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.
- ١٠١- ذو التورين عثمان بن عفان ، محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م بيروت - لبنان .
- ١٠٢- ذو التورين عثمان بن عفان ، محمد مال الله ، مكتبة ابن تيمية ، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م.
- ١٠٣- الرد على الرافضة لأبي حامد محمد المقدسي ، تحقيق : عبد الوهاب خليل الرحمن ، الدار السلفية ، بومباي الهند ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ .
- ١٠٤- الرقة والبكاء ، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م.
- ١٠٥- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، أبو القاسم الشهيلي ، تحقيق : عبد الرحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة ، طبعة ١٣٨٧ هـ .
- ١٠٦- الرياض النّصرة في مناقب العشرة ، لأبي جعفر أحمد الشّهير بالمحبّ الطّبرّي ، المكتبة القيمة ، القاهرة .
- ١٠٧- زاد المعاد في هدي خير العباد ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط ١٣ ، ١٤٠٦ هـ .
- ١٠٨- الرُّهْد للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨ م.
- ١٠٩- سفراء النبي ﷺ ، محمود شيت خطاب ، مؤسسة الرّيان ، ودار الأندلس الخضراء بجدة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٩٦ م.
- ١١٠- سنن أبي داود ، الإمام أبو داود ، تحقيق وتعليق عَرَّت الدّعَاس ، سوريا ١٣٩١ هـ .
- ١١١- سنن ابن ماجه ، الحافظ أبو عبد الله محمد بن زيد القزويني ، دار الفكر .
- ١١٢- سنن الترمذى ، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى ، دار الفكر ١٣٩٨ هـ .
- ١١٣- السنن الكبرى ، للحافظ أحمد بن الحسين البهقى ، طبع دار المعارف ، بيروت لبنان ، توزيع مكتبة المعارف ، الرياض .

- ١١٤- **الشّيّة ، والبدعة ، عبد الله باعلوي الحضرمي** ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشاميّة ، بيروت ، طبعة دار القلم الأولى ١٤١٣ هـ- ١٩٩٢ م.
- ١١٥- **الشّيّة ، أبو بكر أحمد بن محمد الخلال ، تحقيق : د . عطية الزّهراوي** ، دار الرّأي ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ .
- ١١٦- **السيادة العريّة ، والشّيعة ، والإسرائيليات ، فان فولتن ترجمة حسن إبراهيم حسن ، ومحمد زكي إبراهيم** ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ١٣٨٥ هـ- ١٩٦٥ م.
- ١١٧- **السياسة الشرعيّة في إصلاح الرّاعي والرّعية ، تقى الدين أحمد بن تيمية** ، دار المعرفة بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٦٩ م.
- ١١٨- **السياسة المالية لعثمان بن عفان ، قطب إبراهيم محمد** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ م.
- ١١٩- **سير أعلام الثلّاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي** ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرّسالة بيروت ١٤٠٢ هـ .
- ١٢٠- **سير الشّهداء دروس وعبر ، عبد الحميد بن عبد الرحمن السّخياني** ، دار الوطن ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ- ١٩٩٩ م.
- ١٢١- **السيرة النبوية في ضوء القرآن والشّيّة ، د . محمد أبو شهبة** ، دار القلم ، دمشق ، ط ١٤١٧٣ هـ- ١٩٩٦ م.
- ١٢٢- **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، د . مهدي رزق الله أحمد** ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، ط ١٤١٢ هـ- ١٩٩٩ م.
- ١٢٣- **السيرة النبوية لابن هشام ، دار إحياء الثّراث ، الطبعة الثانية ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.**
- ١٢٤- **السيرة النبوية ، دروس ، وعبر ، مصطفى السباعي** ، المكتب الإسلامي ، بيروت-لبنان ، الطبعة التاسعة ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- ١٢٥- **السيرة النبوية ، عرض وقائع وتحليل أحداث ، د . علي محمد الصّلابي** ، دار الصحابة ، الشّارقة ، طبعة أولى ٢٠٠١ م.
- ١٢٦- **شدّرات الذّهب في أخبار من ذهب ، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي** ، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة ، والنشر .

- ١٢٧ - شرح صحيح مسلم ، للإمام النّوويّ ، بيروت ، دار الفكر ، طبعة ١٤٠١ هـ . ١٩٨١ م.
- ١٢٨ - الشرف والشّامي بحركة الفتح الإسلامي ، د . علي محمد الصّلابي ، مكتبة الصحابة ، الشّارقة ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ . ٢٠٠١ م.
- ١٢٩ - شعراء الخلفاء ، نبال تيسير الخماش .
- ١٣٠ - شهيد الدّار عثمان بن عفان ، أحمد الخروف ، دار البيارق ، دار عمّار ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ . ١٩٩٧ م.
- ١٣١ - الصّارم المسلول على شاتم الرّسول ، لتقى الدين ابن تيمية .
- ١٣٢ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة بدون تاريخ ، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميركيّة .
- ١٣٣ - صحيح البخاريّ ، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاريّ ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ . ١٩٩١ م.
- ١٣٤ - صحيح التّوثيق في سيرة وحياة ذي الثّورين ، مجدي فتحي السّيّد ، دار الصحابة بطنطا ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ . ١٩٩٦ م.
- ١٣٥ - صحيح السّيرة النّبوية ، إبراهيم العلي ، دار النّقائس ، ط ١٤٠٨٣ هـ . ١٩٩٨ م.
- ١٣٦ - صحيح الشّنائي للألباني ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ . ١٩٨٨ م.
- ١٣٧ - صحيح سنن ابن ماجه ، للألباني ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، ط ١٤٠٨٣ هـ . ١٩٨٨ م.
- ١٣٨ - صحيح سنن التّرمذى ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ .
- ١٣٩ - صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التّراث العربيّ ، بيروت - لبنان الطبعة الثانية ١٩٧٢ م.
- ١٤٠ - الصّدّيق بنت الصّدّيق ، للعقاد ، مطبعة المعارف ، مصر ١٩٤٣ م.
- ١٤١ - صفة الصّفوة للإمام أبي الفرج ابن الجوزي ، دار المعرفة ، بيروت .
- ١٤٢ - صلاح الأمة في علو الهمة ، د . سيد بن حسين العفّانى ، دار الرّسالة ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ . ١٩٩٧ م.

- ١٤٣- الصّواعق المحرقة في الرّد على أهل البدع والزّندقة ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر الهيثمي ، دار الكتب العلمية بيروت .
- ١٤٤- الطّبقات الكبرى ، محمد سعيد بن منيع الهاشمي ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ١٤٥- عائشة والسياسة ، سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م.
- ١٤٦- عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام ، سلمان بن حمد العودة ، دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الثالثة ١٤١٢ هـ .
- ١٤٧- عبد الله بن مسعود ، عبد السّtar الشّيخ ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- ١٤٨- عبد الملك بن مروان والدّولة الأمويّة ، ضياء الدين الرئيس مطبع سجل العرب ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٦٩ م.
- ١٤٩- عثمان بن عفّان ، الخليفة الشّاكر الصّابر ، عبد السّtar الشّيخ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.
- ١٥٠- عثمان بن عفّان ، صادق عرجون ، الدّار السعودية ، الطبعة الثالثة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- ١٥١- عثمان بن عفّان ، محمد حسين هيكل .
- ١٥٢- العشرة المبشرون بالجنة ، محمد صالح عوض ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
- ١٥٣- عصر الخلافة الرّاشدة ، الدكتور أكرم ضياء العمري ، مكتبة العلوم والحكم ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- ١٥٤- عصر الخلفاء الرّاشدين ، د . عبد الحميد بخيت ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٦٥ م.
- ١٥٥- عقائد الشّيعة ، رونلسن ، دوايت تعرّيف (ع ، م) القاهرة ، مكتب الخانجي ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.
- ١٥٦- العقد الفريد ، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه بن حبيب ، دار الفكر ، بيروت .

- ١٥٧ - عقيدة السَّلْف ، وأصحاب الحديث ، ضمن الرسائل المنيرية ، للشيخ إسماعيل الصَّابوني ، نشر محمد أمين دمج ، بيروت ، ١٩٧٠ م.
- ١٥٨ - عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في الصحابة الكرام ، الدكتور ناصر بن علي عايش حسن الشَّيخ ، مكتبة الرُّشد ، الرياض .
- ١٥٩ - العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتَّفريط ، د. سليمان بن سالم بن رجاء السُّعدي ، مكتبة الإمام البخاري ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ١٦٠ - العقيدة والشريعة الإسلامية ، جولد تسهير أجناس ، ترجمة د. محمد يوسف موسى وأخرين ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة .
- ١٦١ - عمَّار بن ياسر ، رجل المحنَّة وميزان الفتنة ، أسامة أحمد سلطان ، المكتبة المكِّية ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- ١٦٢ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري .
- ١٦٣ - عمرو بن العاص الأمير المجاهد ، د. منير محمد الغضبان ، جامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ .
- ١٦٤ - عمرو بن العاص ، عبد الخالق سيد أبو رابية ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ١٦٥ - عمرو بن العاص ، محمود العقاد ، الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م.
- ١٦٦ - العواسم من القواصم ، القاضي أبو بكر بن العربي ، تحقيق : محب الدين الخطيب ، إعداد محمد سعيد مبيض ، دار الثقافة قطر ، الدوحة ، الطبعة الثانية ١٩٨٩ م .
- ١٦٧ - غزوة الحديبية لأبي فارس ، دار الفرقان ، عمان ، الأردن .
- ١٦٨ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تحقيق : الأستاذ محب الدين الخطيب ، دار الريان ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ .
- ١٦٩ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدرایة من علم التفسير ، محمد علي الشوكاني ، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- ١٧٠ - الفتنة الكبرى ، عثمان ، طه حسين ، دار المعارف بمصر ١٩٤٧ م .
- ١٧١ - الفتنة الكبرى ، علي وبنوه ، طه حسين ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م .
- ١٧٢ - فتنة مقتل عثمان ، د. محمد عبد الله الغبان ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م .

- ١٧٣- الفتنة ، أحمد عرموش .
- ١٧٤- فتوح البلدان ، لأبي العباس ، أحمد بن يحيى البلاذري ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- ١٧٥- فتوح مصر وأخبارها ، لابن عبد الحكم ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، نسخة عن طبعة لندن ١٣٣٩ هـ - ١٩٢٠ م ، نشر مكتبة المثلث ، بغداد .
- ١٧٦- فرائد الكلام للخلفاء الكرام ، قاسم عاشور ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .
- ١٧٧- فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، محمد صالح الغرسى ، دار السلام ، مصر ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .
- ١٧٨- الفصل في الملل والأهواء والنحل ، لأبي محمد بن حزم الظاهري ، مكتبة الخانجي ، مصر .
- ١٧٩- فضائل الصحابة ، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، دار ابن الجوزي ، السعودية ، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
- ١٨٠- فقه الأولويات ، محمد الوكيلي ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، هيرندين ، فيرجينيا ١٤١٦ هـ - ١٩٩٧ م ، الطبعة الأولى .
- ١٨١- فقه الخلافة ، وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية ، د . عبد الرزاق أحمد السنهوري ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
- ١٨٢- الفكر الإسلامي بين المثالى والتطبيق ، كامل الشريف .
- ١٨٣- فيض القدير للمناوي .
- ١٨٤- قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، محمود شيت خطاب ، دار الأندلس الخضراء ، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .
- ١٨٥- قادة فتح السند وأفغانستان ، محمود شيت خطاب ، دار الأندلس الخضراء ، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .
- ١٨٦- قادة فتح بلاد المغرب ، محمود شيت خطاب ، دار الفكر ، الطبعة السابعة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- ١٨٧- القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .
- ١٨٨- القواعد الفقهية ، مفهومها - تطورها ، دراسة مؤلفاتها ، أدلةها - تطبيقاتها ، علي أحمد التلوي ، بيروت ، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

- ١٨٩- القيود الواردة على سلطة الدولة ، عبد الله الكيلاني ، دار البشير ، عُمان ، مؤسسة الرّسالة ، الطّبعة الأولى ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧ م .
- ١٩٠- الكامل في التّاريخ ، أبو الحسن علي بن أبي المكارم الشّيباني المعروف بابن الأثير ، تحقيق : علي شيري ، دار إحياء التّراث العربيّ ، بيروت ، الطّبعة الأولى ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٩ م .
- ١٩١- الكامل في اللّغة والآداب ، لأبي العباس محمد بن يزيد ، التّاشر : البابي الحلبـي ، مصر ، طبعة ١٣٥٦ هـ- ١٩٣٧ م ، مؤسسة الرّسالة .
- ١٩٢- كتاب الإمامة ، والرّد على الرّافضة ، لأبي نعيم الأصبهاني ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورـة ، الطّبعة الثالثة ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠١ م .
- ١٩٣- الكفاءة الإدارية في السياسة الشرعية ، د . عبد الله قادرـي ، دار المجتمع ، جـدة ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م .
- ١٩٤- كيف نكتب التّاريخ الإسلاميّ ؟ محمد قطب ، دار الوطن السّعودـية ، الطّبعة الأولى ١٤١٢ هـ .
- ١٩٥- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور ، دار صادر بيروت .
- ١٩٦- لسان الميزان ، أحمد بن علي بن حجر ، حيدر آباد الدّكـن ، مطبعة دائرة المعارف العثمانـية ١٣٣١ هـ- ١٩١٢ م .
- ١٩٧- ليبيا من الفتح العربي حتّى انتقال الخلافة الفاطميّة إلى مصر ، د . صالح مصطفـي مفتاح المزيـني ، منشورات جامعة قاريونـس ، بنغازي ، الطّبعة الثالثة ١٩٩٤ م .
- ١٩٨- مبادئ الاقتصاد الإسلامي ، سعاد إبراهيم صالح ، دار عالم الكتب ، الرّياض ، الطّبعة الأولى ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م .
- ١٩٩- المجرـوحـين من المـحدـثـين ، أبو حاتـم محمدـ بن حـبـانـ بنـ أـحمدـ التـمـيميـ ، تحقيق : إبراهـيمـ محمودـ زـايدـ ، حـلـبـ ، دـارـ الـوعـيـ .
- ٢٠٠- مجلة البحوث الإسلاميـة ، العدد العاشر .
- ٢٠١- مجلـةـ المؤـرـخـ العربيـ ، رقمـ ٢١ـ .
- ٢٠٢- مجمع الأمثل للميداني ، تحقيق : محمد محيـي الدينـ عبدـ الحـميدـ ، دـارـ المـعـرـفـةـ ، بيـرـوـتـ ، ١٣٧٤ـ هـ- ١٩٥٥ـ مـ .
- ٢٠٣- مـجمـعـ الزـوـائدـ ، وـمنـبعـ الـفوـائدـ ، نـورـ الدـينـ عـلـيـ بنـ أـبـيـ بـكـرـ الـهـيـشـميـ ، بـتـحـرـيرـ

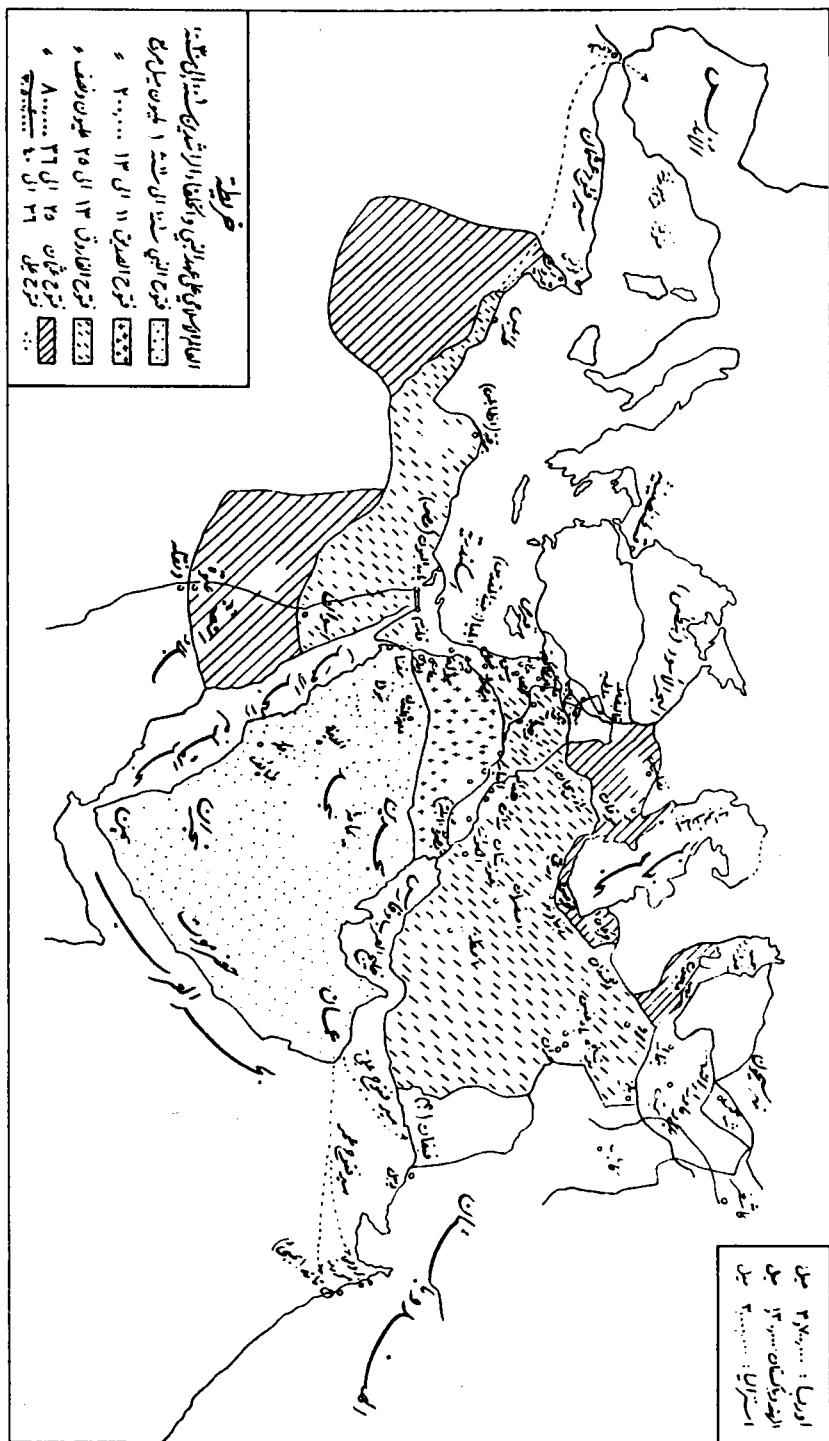
- الحافظين : العراقي ، وابن حجر ، دار الكتاب العربي ، بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ .
- ٢٠٤- مجموعة الفتاوى ، تقى الدين أحمد بن تيمية الحرّانى ، دار الوفاء ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م .
- ٢٠٥- مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي ، والخلافة الرشيدة ، محمد حميد الله ، دار النقائس ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م .
- ٢٠٦- المدينة المنورة ، فجر الإسلام ، والعصر الرشيدى ، محمد محمد حسن شراب ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م .
- ٢٠٧- مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبرى ، يحيى إبراهيم اليحيى ، دار العاصمة ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ .
- ٢٠٨- مرويات العهد المكى ، عادل عبد الغفور .
- ٢٠٩- مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبرى ، خالد الغيث ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م .
- ٢١٠- المستدرك على الصحيحين ، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله النسابوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت-لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م .
- ٢١١- مسند الإمام أحمد ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .
- ٢١٢- المعارف لابن قتيبة .
- ٢١٣- معاوية بن أبي سفيان ، صحابي كبير ، وملك مجاهد ، منير محمد الغضبان ، دار القلم دمشق ، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م .
- ٢١٤- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م .
- ٢١٥- معجم الطبراني الكبير ، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، مكتبة العلوم والحكم ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٥ م .
- ٢١٦- معرفة الصحابة لأبي نعيم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ تحقيق : محمد راضي بن حاج عثمان ، مكتبة الدار في المدينة النبوية ، ومكتبة الحرمين في الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .
- ٢١٧- المعرفة والتاريخ ، لأبي يوسف الفسوسي ، تحقيق : أكرم ضياء العمري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٣٩٤ هـ .

- ٢١٨- المغازي ، محمد عمر الواقدي ، تحقيق : د . مارسدن جونسن ، عالم الكتب بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .
- ٢١٩- المغني ، موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة ، تحقيق : د . عبد الله التركى ، د . عبد الفتاح الحلو ، دار هجر القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ .
- ٢٢٠- المنار المنيف في الصحيح ، والضَّعيف ، القاهرة ، مطبعة السُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ .
- ٢٢١- مناقب الشافعي للبيهقي ، تحقيق : أحمد صقر ، مكتبة دار الثراث ، طبع دار النَّصْر ، الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ .
- ٢٢٢- المستظم في تاريخ الملوك والأمم ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ٢٢٣- منهاج السُّنَّةِ لابن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، مؤسسة قرطبة .
- ٢٢٤- منهاج التربية الإسلامية لمحمد قطب ، دار الشُّرُوق ، الطبعة الخامسة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .
- ٢٢٥- منهاج الرسول في غرس الروح الجهادية في نفوس أصحابه ، د . السيد محمد نوح ، نشرته جامعة الإمارات العربية المتحدة ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م .
- ٢٢٦- موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ، تحقيق : حسين الدَّاراني ، عبده كوشك ، دار الثقافة العربية ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ .
- ٢٢٧- الموعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار ، المعروف بالخطط للمقريزي ، أحمد بن علي بن عبد القادر تقى الدين أبي العباس المقريзи .
- ٢٢٨- موسوعة التاريخ الإسلامي ، أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٦ م .
- ٢٢٩- الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد ، وزارة الشؤون الإسلامية ، والأوقاف ، والدعوة ، والإرشاد بالسعودية ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م .
- ٢٣٠- موسوعة فقه عثمان بن عفان ، الدكتور محمد رؤاس قلعي ، دار النفائس طبعة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٣ م .
- ٢٣١- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق : علي البحاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ .
- ٢٣٢- التلجمون الراهنة في ملوك مصر والقاهرة ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة بدون تاريخ .

- ٢٣٣- نساء أهل البيت ، أحمد خليل جمعة ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .
- ٢٣٤- نشأة الفقه الاجتهادي وأطواره ، محمد السادس ، مطبعة الأزهر ١٣٨٧ هـ .
- ٢٣٥- مجمع البحوث بالأزهر المؤتمر الرابع .
- ٢٣٦- نظام الأرضي في صدر الدولة الإسلامية ، محمد حسن أبو يحيى ، دار عمار ، عمان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .
- ٢٣٧- نظام الحكم في الإسلام ، عارف أبو عيد ، دار النقائس ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .
- ٢٣٨- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ، ظافر القاسمي ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ .
- ٢٣٩- نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، الدكتور مصطفى حلمي ، دار الدعوة الإسكندرية .
- ٢٤٠- النظم الإسلامية ، صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السابعة ١٩٨٩ م .
- ٢٤١- النظم الإسلامية ، وقائع ندوة أبو ظبي ، مكتب التراث العربي لدول الخليج ، طبعة ١٤٠٧ هـ .
- ٢٤٢- نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب التوييري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٣٩٥ هـ .
- ٢٤٣- الهجرة في القرآن الكريم ، أحرمي سامعون جزولي ، مكتبة الرؤشد الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ .
- ٢٤٤- وجوب التعاون بين المسلمين للسعدي ، دار المعارف ، الرياض ، طبعة ١٤٠٢ هـ .
- ٢٤٥- الوحدة الإسلامية ، محمد أبو زهرة .
- ٢٤٦- وفيات الأعيان ، وأبناء الزَّمان ، لابن خلkan أبي العباس شمس الدين أحمد ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

- ٢٤٧- ولادة مصر ، أبو يوسف محمد يوسف الكندي ، تحقيق : د . حسين نصار ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ٢٤٨- ولاية الشرطة في الإسلام ، د . نمر الحميداني ، دار عالم الكتب ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .
- ٢٤٩- الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الرشادين ، د . عبد العزيز إبراهيم العمري ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ .
- ٢٥٠- اليمن في صدر الإسلام ، د . عبد الرحمن السجاع ، دار الفكر ، دمشق .

* * *



فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٤	الإهداء
٥	المقدمة

الفصل الأول

ذو التُّورين عثمان بن عفَّان بين مَكَّة والمدينة	
١٣	المبحث الأول : اسمه ، ونسبه ، وكنيته ، وصفته ، وأسرته ، ومكانته في الجاهلية
١٣	أولاًً : اسمه ، ونسبه ، وكنيته ، وألقابه
١٤	ثانياً : أسرته
١٦	ثالثاً : مكانته في الجاهلية
١٧	رابعاً : إسلامه
١٩	خامساً : زواجه من رقِيَّة بنت رسول الله ﷺ
١٩	سادساً : ابلاوه وهجرته إلى الحبشة
٢٣	المبحث الثاني : حياة عثمان رضي الله عنه مع القرآن الكريم
٢٨	المبحث الثالث : ملازمته للنبي ﷺ في المدينة
٢٩	أولاًً : عثمان رضي الله عنه في ميادين الجهاد مع رسول الله ﷺ
٣٠	١- عثمان وغزوة بدر
٣١	٢- عثمان وغزوة أحد
٣٢	٣- في غزوة غطفان
٣٢	٤- في غزوة ذات الرِّقاع
٣٥	٥- في بيعة الرِّضوان
٣٦	٦- شفاعة عثمان بن عفَّان في عبد الله بن أبي السرح في فتح مَكَّة
٧	٧- غزوة تبوك

ثانياً : من حياته الاجتماعية في المدينة .. .	٣٨
١- زواجه من أم كلثوم .. .	٣٨
٢- وفاة عبد الله بن عثمان .. .	٣٩
٣- وفاة أم كلثوم رضي الله عنها .. .	٣٩
ثالثاً : من مساهمته الاقتصادية في بناء الدولة .. .	٤٠
١- بتر رومة .. .	٤٠
٢- توسيعة المسجد النبوي .. .	٤١
٣- العسراة وعثمانها المعطاء .. .	٤١
المبحث الرابع : من أحاديث الرَّسُول ﷺ في عثمان بن عفان .. .	٤٢
أولاً : فيما ورد في فضله مع غيره .. .	٤٢
١- افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه .. .	٤٢
٢- اسكن أحد ، فليس عليك إلا نبي ، وصديق ، وشهيدان .. .	٤٢
٣- اهدأ فما عليك إلا نبي ، أو صديق ، أو شهيد .. .	٤٣
٤- حياء عثمان رضي الله عنه .. .	٤٣
٥- استحياء الملائكة من عثمان .. .	٤٣
٦- أصدقها حياء عثمان .. .	٤٤
ثانياً : إخبار رسول الله ﷺ عن الفتنة التي يقتل فيها عثمان .. .	٤٤
١- من نجا من ثلاثة فقد نجا .. .	٤٤
٢- يقتل فيها هذا المقنع يومئذ .. .	٤٤
٣- هذا يومئذ على الهدى .. .	٤٤
٤- تهيج فتنة كالصياصي ، فهذا ومن معه على الحق .. .	٤٤
٥- هذا يومئذ وأصحابه على الحق والهدى .. .	٤٥
٦- عليكم بالأمين وأصحابه .. .	٤٥
٧- فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه .. .	٤٥
٨- إنَّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً ، وإنِّي صابرٌ نفسي عليه .. .	٤٥
المبحث الخامس : ذو الثورين في عهد الصَّدِيق ، والفاروق .. .	٤٨
أولاً : في عهد الصَّدِيق .. .	٤٨
١- من أهل الشُّورى في مسائل الدولة العليا .. .	٤٨
٢- أزمة اقتصادية في عهد الصَّدِيق .. .	٤٩

٥٠	ثانياً : في عهد الفاروق
٥١	١- الديوان
٥١	٢-التّاريخ
٥٢	٣-أرض الخراج
٥٢	٤-حجّه مع أمّهات المؤمنين

الفصل الثاني

استخلاف ذي الثورين ، ومنهجه في الحكم ، وأهم صفاته الشخصية

٥٣	المبحث الأوّل : استخلاف ذي الثورين
٥٣	أولاًً : الفقه العمري في الاستخلاف
٥٤	١- العدد الذي حدّده للشّوري ، وأسماؤهم
٥٤	٢- طريقة اختيار الخليفة
٥٤	٣- مدة الانتخابات أو المشاورة
٥٥	٤- عدد الأصوات الكافية لاختيار الخليفة
٥٥	٥- الحكم في حال الاختلاف
٥٦	٦- جماعة من جنود الله تراقب الاختيار ، وتمتنع الفوضى
٥٦	٧- جواز تولية المفضول مع وجود الأفضل
٥٦	٨- جمع عمر بين العَيْن ، وعدمه
٥٦	٩- الشّوري ليست بين السّتة فقط
٥٧	١٠- أهل الشّوري أعلى هيئة سياسية
٥٨	ثانياً : وصية عمر رضي الله عنه للخليفة الذي بعده
٥٩	١- الحرصن على تقوى الله وخشيته
٥٩	٢- النّاحية السياسيّة
٦٠	٣- النّاحية العسكريّة
٦٠	٤- النّاحية الاقتصاديّة والماليّة
٦٠	٥- النّاحية الاجتماعيّة
٦١	ثالثاً : منهج عبد الرّحمن بن عوف في إدارة الشّوري
٦١	١- اجتماع الرّهط للمشاورة
٦٢	٢- عبد الرّحمن يدعو إلى التنازل
٦٢	٣- تفويض ابن عوف بإدارة عملية الشّوري
٦٣	٤- الاتفاق على بيعة عثمان

٥- حكمة عبد الرحمن بن عوف في تنفيذ خطة الشورى	٦٣
رابعاً : أباطيل إمامية دسّت في قصة الشورى	٦٤
١- اتهام الصحابة بالمحاباة في أمر المسلمين	٦٥
٢- حزب أموي ، وحزب هاشمي	٦٦
٣- أقوال نسبت زوراً وبهتاناً لعلي ، رضي الله عنه	٦٧
٤- اتهام عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة	٦٧
خامساً : أحقيّة خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه	٦٧
سادساً : انعقاد الإجماع على خلافة عثمان رضي الله عنه	٧١
سابعاً : حكم تقديم علي على عثمان رضي الله عنهمـا	٧٤
المبحث الثاني : منهج عثمان بن عفان في الحكم	٧٦
أولاً : كتب عثمان إلى عماله ، وولاته ، وأمراء الجنـد ، وعامة الناس	٧٦
١- أول كتاب كتبه عثمان رضي الله عنه إلى جميع ولاته	٧٧
٢- كتابه إلى قادة الجنـدوـن	٧٨
٣- كتابه إلى عـمال الخراج	٧٨
٤- كتابه إلى العائـة	٧٩
ثانياً : المرجعية العليا للـدولـة	٧٩
١- المصدر الأول : كتاب الله	٨٠
٢- المصدر الثاني : السـنة المطـهـرة	٨٠
٣- الاقتداء بالـشـيـخـين	٨٠
ثالثاً : حقـ الأـمـةـ في محاـكـمـةـ الـخـلـيقـةـ	٨١
رابعاً : الشـورـى	٨١
خامساً : العـدـلـ ، والـمـساـواـةـ	٨٢
سادساً : الـحرـيـاتـ	٨٣
سابعاً : الـاحـتسـابـ	٨٣
١- إنـكارـهـ عـلـىـ لـبسـ الـثـوـبـ الـمعـصـفـ	٨٣
٢- إنـكارـهـ عـلـىـ قـاصـدـاتـ الـعـمـرـةـ ، والـحـجـ	٨٣
٣- أمرـهـ بـذـبـحـ الـحـمـامـ	٨٤
٤- احتـسابـهـ عـلـىـ اللـعـبـ بـالـنـزـدـ	٨٤
٥- إخـراـجهـ مـنـ يـرـاهـ عـلـىـ شـرـ	٨٤
٦- ضـرـبـهـ لـمـنـ اـسـتـخـفـ بـعـمـ النـبـيـ ﷺ	٨٤

٨٤	٧-نهيه عن الخمر لأنها أم الخبائث
٨٥	٨- من خطب عثمان في المجتمع ومن حكمه
٨٥	أ-خطبة في الاستعداد ليوم المعاذ
٨٥	ب-النذير بمكارم الأخلاق
٨٥	ج-من حكمه التي سارت بين الناس
٨٧	٩-عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والشعر ، والشعراء
٨٩	المبحث الثالث : أهم صفاته
٨٩	أولاً : العلم والقدرة على التوجيه ، والتعليم
٩٢	ثانياً : الحلم
٩٣	ثالثاً : السماحة
٩٣	رابعاً : اللين
٩٣	خامساً : العفو
٩٣	سادساً : التواضع
٩٥	سابعاً : الحياة ، والعفة
٩٦	ثامناً : كرمه
٩٦	تاسعاً : شجاعته
٩٧	عاشرأً : الحزم
٩٨	الحادية عشرة : الصبر
٩٩	الثانية عشرة : العدل
٩٩	الثالثة عشرة : عبادته
١٠٠	الرابعة عشرة : خوفه من الله ، وبكاؤه ، ومحاسبته لنفسه
١٠٠	الخامسة عشرة : زهده
١٠١	الستادسة عشرة : الشُّكْر
١٠٢	السبادعة عشرة : تفُقد أحوال الناس
١٠٢	الثامنة عشرة : تحديد الاختصاصات
١٠٢	النائعة عشرة : الاستفادة من أهل الكفاءات

الفصل الثالث

١٠٤	المبحث الأول : المؤسسة المالية
	المؤسسة المالية ، والقضائية في عهد عثمان رضي الله عنه

أولاً : السياسة المالية التي أعلنها عثمان عندما تولى الحكم	١٠٤
١-نية عثمان بن عفان تطبيق سياسة مالية عامّة	١٠٥
٢-عدم إخلال الجباية بالرّعاية	١٠٧
٣-أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين	١٠٧
٤-إعطاء المسلمين ما لهم من بيت المال بالحق	١٠٧
٥-عدم ظلم أهل الذمة ، وأخذ ما عليهم من بيت المال بالحق ، وإعطاؤهم حقوقهم بالحق كذلك	١٠٨
٦-عدم ظلم اليتيم	١٠٩
٧-تلقي عمال الخراج بالأمانة ، والوفاء	١٠٩
٨-أثر تكامل النّعم على مسار الأمة	١١٠
٩-المقارنة بين السياسة العمرية والعثمانية	١١٠
ثانياً : توجيهات عثمانية توضح للناس قواعد زకائهم	١١٠
ثالثاً : خمس الغنائم	١١٣
رابعاً : الإيرادات العامة من الجزية في عهد عثمان رضي الله عنه	١١٦
خامساً : الإيرادات العامة من الخراج والعشور في عهد عثمان	١٢٠
سادساً : سياسة عثمان بن عفان في إقطاع الأرض	١٢٠
سابعاً : سياسة عثمان في حمى الأرض	١٢٣
ثامناً : أنواع التّنفقات العامة في عهد عثمان	١٢٤
١-نفقات الخليفة	١٢٤
٢-صرف مرتبات الولاة من بيت المال	١٢٤
٣-الإنفاق من بيت المال على مرتبات الجند	١٢٤
٤-الإنفاق العام على الحجّ من بيت المال	١٢٤
٥-تمويل إعادة المسجد النبوي من بيت المال	١٢٥
٦-تمويل توسيعة المسجد الحرام من بيت المال	١٢٥
٧-الإنفاق على إنشاء أول أسطول بحري	١٢٥
٨-الإنفاق على تحويل السّاحل من الشّعيبة إلى جدّة	١٢٦
٩-تمويل حفر الآبار من بيت مال المسلمين	١٢٦
١٠-الإنفاق على المؤذنين من بيت المال	١٢٦
١١-تمويل أهداف الإسلام العليا	١٢٦
تاسعاً : استمرار نظام الأعطيات في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه	١٢٧

عاشرًا : تدفق الأموال على الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية	١٢٨
الحادية عشرة : عثمان ، وأقاربه ، والعطاء من بيت المال ..	١٢٩
المبحث الثاني : المؤسسة القضائية ، وبعض الاجتهادات الفقهية	١٣٣
ابن عمر يعتذر عن القضاء ..	١٣٤
دار القضاء ..	١٣٥
أشهر القضاة في خلافة عثمان ..	١٣٥
أولاً : فيما يتعلق بالقصاص ، والحدود ، والتعزير ..	١٣٥
١- أول قضيّة واجهت عثمان رضي الله عنه : قضية قتل	١٣٥
٢- قتل اللصوص ..	١٣٧
٣- رجل قتل تاجرًا ماله ..	١٣٧
٤- عقوبة الساحر ..	١٣٧
٥- جنائية الأعمى ..	١٣٧
٦- جنائية المقتليين على بعضهما ..	١٣٨
٧- الجنائية على الحيوان ..	١٣٨
٨- الجنائية على الصائل ..	١٣٨
٩- استتابة المرتد ، وحدُه ..	١٣٩
١٠- إني قلت ؟ فهل لي من توبة ؟ ..	١٣٩
١١- حدُ الخمر ..	١٣٩
١٢- إقامة الحد على أخيه من أمّه (الوليد بن عقبة) ..	١٣٩
١٣- سرقة الغلام ..	١٤٠
١٤- الحبس تعزيرًا ..	١٤٠
١٥- حد القذف بالتعريض ..	١٤٠
١٦- عقوبة الزنى ..	١٤١
١٧- التعزير بالنفي والطرد ..	١٤١
١٨- دفع الناس عن جنازة العباس ..	١٤١
ثانيةً : في العبادات والمعاملات ..	١٤٢
١- إتمام عثمان الصلاة بمنى ، وعرفات ..	١٤٢
٢- زاد الأذان الثاني يوم الجمعة ..	١٤٤
٣- اغتساله كلَّ يومٍ منذ أسلم ..	١٤٥
٤- سجود التلاوة ..	١٤٥

١٤٦	٥ - صلاة الجمعة في السواحل
١٤٦	٦ - استراحة عثمان في الخطبة
١٤٦	٧ - جعل القنوت قبل الرُّكوع
١٤٦	٨ - أعلم الناس بأحكام الحجّ
١٤٦	٩ - النَّهي عن الإحرام قبل الميقات
١٤٧	١٠ - سفر المعتدلة للحجّ ، وال عمرة
١٤٧	١١ - النَّهي عن متعة الحجّ
١٤٧	١٢ - أكل لحم الصيد
١٤٨	١٣ - كراهة الجمع بين القرابة في الزواج
١٤٨	١٤ - في الرَّضاعة
١٤٨	١٥ - في الحَلْع
١٤٨	١٦ - يجب الإحداد على المعتدة لوفاة زوجها
١٤٩	١٧ - لا تنكحها إلا نكاح رغبة
١٤٩	١٨ - طلاق السَّكران
١٤٩	١٩ - هبة الوالد لولده
١٥٠	٢٠ - الحجر على السَّفَيْه
١٥٠	٢١ - الحجر على المفلس
١٥٠	٢٢ - تحريم الاحتكار
١٥١	٢٣ - ضوال الإبل
١٥٢	٢٤ - توريث المرأة المطلقة في مرض الموت
١٥٢	٢٥ - توريث المطلقة مالم تنقض عدّتها
١٥٣	٢٦ - توريث الحميم

الفصل الرابع

الفتوحات في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه

١٥٤	تمهيد
١٥٦	المبحث الأول : فتوحات عثمان في المشرق
١٥٦	أولاً : فتوحات أهل الكوفة : أذربيجان ٢٤ هـ
١٥٧	ثانياً : مشاركة أهل الكوفة في إحباط تحركات الرُّوم
١٥٧	ثالثاً : غزو سعيد بن العاص طبرستان ٣٠ هـ
١٥٨	رابعاً : هروب ملك الفرس (يزدجرد) إلى خراسان

خامساً : مقتل يزدجرد ملك الفرس ٣١ هـ	١٥٨
سادساً : تعاطف النصارى مع يزدجرد بعد مقتله	١٦٠
سابعاً : فتوحات عبد الله بن عامر ٣١ هـ	١٦١
ثامناً : غزو الباب وبلنجر سنة اثنين وثلاثين	١٦٢
١- مقتل يزيد بن معاوية	١٦٢
٢- ما أحسن حمرة الدماء في بياضك	١٦٣
٣- ما أحسن لمع الدماء على الشياب	١٦٣
٤- إن هؤلاء يموتون كما تموتون	١٦٣
٥- صبر آل سلمان	١٦٣
تاسعاً : أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة وأهل الشام ٣٢ هـ	١٦٤
عاشرًا : فتوحات ابن عامر سنة اثنين وثلاثين	١٦٥
الحادية عشرة : القتال بين جيش الأحنف ، وأهل طخارستان والجوزجان ، والطالقان ، والفاريان	١٦٦
الثانية عشرة : صلح الأحنف مع أهل بلخ ٣٢ هـ	١٦٧
الثالثة عشرة : لأجعلن شكري لله على ذلك أن أخرج محروماً معتمراً من موقفي هذا	١٦٨
الرابعة عشرة : هزيمة قارن في خراسان	١٦٨
الخامسة عشرة : من قادة فتح بلاد المشرق في عهد عثمان : الأحنف بن قيس	١٦٩
المبحث الثاني : الفتوحات في الشام	١٧٧
أولاً : فتوحات حبيب بن مسلمة الفهري	١٧٧
ثانياً : أول من أجاز الغزو البحري عثمان بن عفان	١٧٧
ثالثاً : غزو قبرص	١٧٨
رابعاً : الاستسلام ، وطلب الصلح	١٨٠
خامساً : عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامي بالشام	١٨١
سادساً : القبارصة ينقضون الصلح	١٨٢
سابعاً : ما أهون الخلق على الله ، إذا هم عصوه	١٨٣
ثامناً : عبادة بن الصامت يقسم غنائم قبرص	١٨٤
المبحث الثالث : فتوحات الجبهة المصرية	١٨٥
أولاً : ردع المتمردين في الإسكندرية	١٨٥
ثانياً : فتح بلاد التوبية	١٨٧
ثالثاً : فتح إفريقيا	١٨٨

رابعاً : بطولة عبد الله بن الرّبير في فتح إفريقيا	١٩١
خامساً : معركة ذات الصّواري	١٩٤
أحداث المعركة	١٩٦
نتائج ذات الصّواري	١٩٨
سادساً : أهم الدروس ، وال عبر ، والفوائد في فتوحات عثمان رضي الله عنه	١٩٩
١- تحقيق وعد الله للمؤمنين	١٩٩
٢- التَّطْوُر في فنون الحرب والسياسة	٢٠٠
٣- بدء التجنيد الإلزامي في عهد عمر واستمراره في عهد عثمان	٢٠٠
٤- اهتمام عثمان بحدود الدولة الإسلامية	٢٠١
٥- قسمة الغنائم بين أهل الشّام والعراق	٢٠٣
٦- الحرص على وحدة الكلمة في مواجهة العدو	٢٠٣
٧- شرط ما يحتاج إليه الجنود في بنود الصلح	٢٠٤
٨- جمع المعلومات عن الأعداء	٢٠٤
٩- عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي من قادة الفتوح في عهد عثمان	٢٠٤
١٠- سلمان بن ربيعة الباهلي من قادة الفتوح في عهد عثمان	٢٠٦
١١- حبيب بن مسلمة الفهري من قادة الفتوح في عهد عثمان	٢٠٨
المبحث الرابع : أعظم مفاخر عثمان جمع الأمة على مصحف واحد	٢١١
أولاً : المراحل التي مررت بها كتابة القرآن الكريم	٢١١
١- المرحلة الأولى : في العهد النبوي	٢١١
٢- المرحلة الثانية : في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه	٢١٢
بعض نتائج جمع القرآن في المرحلة الثانية	٢١٣
القومات الأساسية لزيد بن ثابت للقيام بهذه المهمة	٢١٣
الفرق بين المكتوب في العهد النبوي ، وعهد الصديق	٢١٤
٣- المرحلة الثالثة في جمع القرآن : في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه	٢١٤
الباعث على جمع القرآن في عهد عثمان	٢١٤
ثانياً : استشارة جمهور الصحابة في جمع القرآن	٢١٦
ثالثاً : الفرق بين جمع الصديق ، وجمع عثمان رضي الله عنهما	٢١٧
رابعاً : هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة ؟	٢١٨
خامساً : عدد المصاحف التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار	٢١٩
سادساً : موقف عبد الله بن مسعود من مصحف عثمان	٢٢٠

سابعاً : فهم الصحابة لآيات التهـي عن الاختلاف	٢٢١
الفصل الخامس	
مؤسسة الولاية في عهد عثمان رضي الله عنه	
المبحث الأول : أقاليم الدولة في عهد عثمان ، و سياسته مع الولاية	٢٢٥
أولاً : مكـة المكرـمة	٢٢٥
ثانياً : المدينة المنورـة	٢٢٦
ثالثاً : البحرين ، واليـامة	٢٢٦
رابعاً : الـيمـن ، وحضرموت	٢٢٧
خامساً : ولاية الشـام	٢٢٨
سادساً : أرمينـية	٢٢٩
سابعاً : ولاية مصر	٢٣٠
ثامناً : ولاية البصرـة	٢٣١
تاسعاً : ولاية الكوفـة	٢٣٤
المبحث الثاني : سياسة عثمان مع الولاية وحقوقهم وواجباتهم	
أولاً : سياسة عثمان مع الولاية	٢٣٩
ثانياً : أساليب عثمان رضي الله عنه لمراقبة عمـالـه ، والاطـلاـع على أخـبـارـهـم	٢٤٠
١- حضوره لموسم الحجـج	٢٤٠
٢- سـؤـالـ القـادـمـينـ منـ الأـصـارـ والـولـاـيـات	٢٤١
٣- وجـودـ أـنـاسـٍـ مـنـ أـهـلـ الـبـلـادـ يـكـتـبـونـ إـلـىـ الـخـلـيـفـة	٢٤١
٤- إـرـسـالـ الـمـفـتـشـيـنـ إـلـىـ الـوـلـاـيـات	٢٤١
٥- السـفـرـ إـلـىـ الـوـلـاـيـاتـ ،ـ وـ الـاطـلاـعـ عـلـىـ أـحـوـالـهـاـ مـباـشـرـة	٢٤١
٦- طـلـبـ المـوـفـدـيـنـ مـنـ الـوـلـاـيـاتـ لـسـؤـالـهـمـ عـنـ أـمـرـائـهـمـ ،ـ وـ وـلـاتـهـم	٢٤١
٧- اـسـتـقـدـامـ الـو~ل~ا~ ،ـ وـ سـؤـالـهـمـ عـنـ أـحـوـالـبـلـادـهـم	٢٤٢
٨- الـمـرـاسـلـةـ مـعـ الـو~ل~ا~	٢٤٢
ثالثاً : حقوق الولاية	٢٤٣
١- الطـاعـةـ فـيـ غـيرـ مـعـصـيـة	٢٤٣
٢- بـذـلـ التـصـيـحةـ لـلـو~ل~ا~	٢٤٣
٣- يـجـبـ عـلـىـ الرـئـيـسـ لـلـو~ل~ا~ إـيـصالـ الـأـخـبـارـ الصـحـيـحةـ إـلـيـه	٢٤٣
٤- مؤـازـرـةـ الـو~ل~ا~ فـيـ مـوـقـعـه	٢٤٤

٢٤٤	٥-احترامهم بعد عزلهم
٢٤٤	٦-مرتبات الولاية
٢٤٥	رابعاً : واجبات الولاية
٢٤٥	١-إقامة أمور الدين
٢٤٧	٢-تأمين الناس في بلادهم
٢٤٧	٣-الجهاد في سبيل الله
٢٤٩	٤-بذل الجهد في تأمين الأرزاق للناس
٢٤٩	٥-تعيين العمال والموظفين
٢٥٠	٦-رعاية أهل الذمة
٢٥٠	٧-مشاورة أهل الرأي في ولايته
٢٥٠	٨-النظر في حاجة الولاية العمرانية
٢٥٠	٩-مراقبة الأحوال الاجتماعية لسكان الولاية
٢٥١	١٠-أوقات عمل الوالي
٢٥٢	المبحث الثالث : حقيقة ولادة عثمان رضي الله عنه
٢٥٣	أولاً : معاوية بن أبي سفيان بن حرب الأموي
٢٥٧	ثانياً : عبد الله بن عامر بن كريز
٢٦١	ثالثاً : الوليد بن عقبة
٢٦٦	رابعاً : سعيد بن العاص
٢٧٠	خامساً : عبد الله بن سعد بن أبي السرح
٢٧٢	سادساً : مروان بن الحكم ، ووالده
٢٧٤	سابعاً : هل جامل عثمان أحداً من أقاربه على حساب المسلمين ؟
٢٧٧	المبحث الرابع : حقيقة العلاقة بين أبي ذر الغفارى وعثمان بن عفان رضي الله عنهمَا
٢٧٧	أولاً : مجمل القصة
٢٨٣	ثانياً : بطلان تأثير ابن سبأ على أبي ذر رضي الله عنه
٢٨٥	ثالثاً : وفاة أبي ذر رضي الله عنه وضم عثمان عياله إلى عياله

الفصل السادس

أسباب فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه

المبحث الأول : أهمية دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان وما ترتب عليها من

أحداث ، والحكمة من إخباره عليه السلام بوقوعها ..

٢٨٧

أولاً : أهمية دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه وما ترتب عليها من أحاديث في الجمل ، وصفين ، وغيرهما ٢٨٧
ثانياً : الحكمة من إخباره <small>عليه السلام</small> بوقوعها ٢٩٢
المبحث الثاني : أسباب فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ٢٩٦
أولاً : الرذاء ، وأثره في المجتمع ٢٩٩
ثانياً : طبيعة التحول الاجتماعي في عهد عثمان رضي الله عنه ٣٠٢
١- المتغيرات في نسيج المجتمع البشري ٣٠٣
٢- تكوينات نسيج المجتمع الثقافي ٣٠٧
٣- ظهور جيل جديد ٣٠٨
٤- استعداد المجتمع لقبول الشائعات ٣٠٩
ثالثاً : مجيء عثمان بعد عمر ، رضي الله عنهم ٣١٠
رابعاً : خروج كبار الصحابة من المدينة ٣١٠
خامساً : العصبية الجاهلية ٣١١
سادساً : توقيف الفتوحات ٣١٢
سابعاً : المفهوم الخاطئ للورع ٣١٢
ثامناً : طموح الطامحين ٣١٣
تاسعاً : تامر الحاذدين ٣١٣
عاشرًا : التدبير المحكم لإثارة المأخذ ضد عثمان رضي الله عنه ٣١٤
الحادي عشر : استخدام الأسلوب والوسائل المهيجة للناس ٣١٥
الثاني عشر : أثر السببية في أحداث الفتنة ٣١٦
١- السببية حقيقة ، أم خيال ؟ ٣١٦
٢- دور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة ٣٢١

الفصل السابع

مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه

المبحث الأول : اشتعال الفتنة ٣٢٤
أولاً : تأدي أصحاب الأهواء من الإصلاح ٣٢٥
ثانياً : عبد الله بن سبأ اليهودي على رأس العصابة ٣٢٦
ثالثاً : أهل الفتنة يفسدون في مجلس سعيد بن العاص ٣٢٨
رابعاً : أهل الفتنة منفرون عند معاوية ٣٢٨

خامساً : رجوع أهل الفتنة إلى الكوفة ثم نفيهم إلى الجزيرة	٣٣٤
١- أهل الفتنة بالبصرة يفترون على أشیح عبد القيس	٣٣٥
٢- ابن سبأ يحدّد سنة أربع وثلاثين للهجرة للتحرك	٣٣٥
٣- أوضاع أهل الكوفة عند تحرك أهل الفتنة	٣٣٦
٤- القعقاع بن عمرو التميمي يقضي على التحرّك الأوّل	٣٣٦
٥- يزيد بن قيس يكاتب أهل الفتنة عند عبد الرحمن بن خالد	٣٣٦
٦- القعقاع بن عمرو يرى قتل قادة أهل الفتنة	٣٣٧
٧- أهل الفتنة يمنعون سعيد بن العاص من دخول الكوفة	٣٣٨
٨- أبو موسى الأشعري يهدّي الأمور ، وينهى عن العصيان	٣٣٩
٩- كتاب عثمان إلى الخارجين في الكوفة	٣٤٠
المبحث الثاني : سياسة عثمان رضي الله عنه في التعامل مع الفتنة	٣٤١
أولاً : رأي بعض الصحابة بأن يرسل عثمان لجان تفتيش ، وتحقيق	٣٤١
ثانياً : كتب إلى أهل الأنصار كتاباً شاملاً بمثابة إعلان عام لكل المسلمين	٣٤٢
ثالثاً : مشورة عثمان لولاة الأنصار	٣٤٣
١- اقتراحان لمعاوية يرفضهما عثمان رضي الله عنهم	٣٤٤
٢- عثمان يخترق صفو المتأمرين بعد مجئهم للمدينة	٣٤٥
رابعاً : إقامة الحجّة على المتمرّدين	٣٤٦
خامساً : الاستجابة لبعض مطالبهم	٣٤٨
سادساً : ضوابط التعامل مع الفتنة عند عثمان رضي الله عنه	٣٤٩
١- التثبت	٣٤٩
٢- لزوم العدل ، والإنصاف	٣٤٩
٣- الحلم ، والأناة	٣٤٩
٤- الحرص على ما يجمع ، ونبذ ما يفرق بين المسلمين	٣٤٩
٥- لزوم الصمت والحذر من كثرة الكلام	٣٤٩
٦- استشارة العلماء الرّبّانين	٣٥٠
٧- الاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ في الفتنة	٣٥٠
المبحث الثالث : احتلال أهل الفتنة للمدينة	٣٥١
أولاً : قدوم أهل الفتنة من الأنصار	٣٥١
عليٌّ بن أبي طالب يرسله عثمان للمفاوضة مع أهل الفتنة من الأنصار	٣٥٢
الكتاب المزعوم بقتل وفده أهل مصر	٣٥٣

ثانياً : بدء الحصار ، ورأي عثمان في الصلاة خلف أئمّة الفتنة ٣٥٥	
ثالثاً : المفاوضات بين عثمان ومحاصريه ٣٥٦	
١- ابن عمر يحث عثمان على عدم التنازل عن منصب الخلافة ٣٥٧	
٢- توعد المحاصرين له بالقتل ٣٥٨	
٣- إقامة عثمان الحجّة على زيف استدلال صعصعة ٣٥٨	
٤- تذكير عثمان رضي الله عنه النّاس بفضائله ٣٥٩	
رابعاً : دفاع الصحابة عن عثمان رضي الله عنه ورفضه لذلك ٣٦٠	
١- عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ٣٦٠	
٢- الرّبّير بن العوّام رضي الله عنه ٣٦٠	
٣- المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ٣٦١	
٤- عبد الله بن الرّبّير رضي الله عنه ٣٦١	
٥- كعب بن مالك ، وزيد بن ثابت الأنصاريان رضي الله عنهم ٣٦٢	
٦- الحسن بن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهم ٣٦٢	
٧- عبد الله بن عمر بن الخطّاب رضي الله عنهم ٣٦٢	
٨- أبو هريرة رضي الله عنه ٣٦٣	
٩- سليمان بن سليم ٣٦٣	
١٠- عرض بعض الصحابة على عثمان مساعدته في الخروج إلى مكة ٣٦٣	
الأسباب التي دعت عثمان إلى منع الصحابة من القتال ٣٦٤	
خامساً : موقف أمّهات المؤمنين ، وبعض الصحایيات ٣٦٥	
١- أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهم ٣٦٥	
٢- صفية زوجة رسول الله ﷺ ٣٦٦	
٣- عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها ٣٦٦	
٤- موافق للصحابيات ٣٦٧	
أ- أسماء بنت عميس ٣٦٧	
ب- الصّعبة بنت الحضرمي ٣٦٨	
سادساً : من حجّ بالنّاس ذلك العام ؟ وهل طلب عثمان من الولاية نصرته ؟ ٣٦٨	
١- من حجّ بالنّاس ذلك العام (١٤٥هـ) ؟ ٣٦٨	
٢- هل طلب عثمان رضي الله عنه من الولاية نصرته ؟ ٣٧٢	
٣- آخر خطبة خطبها عثمان رضي الله عنه ٣٧٣	
سابعاً : استشهاد عثمان رضي الله عنه ٣٧٣	

١-آخر أيام الحصار وفيه الرؤيا	٣٧٤
٢-صفة قتله	٣٧٤
ثامناً : تاريخ قتله ، وسنته عند استشهاده ، وجنائزته ، والصلوة عليه ، ودفنه	٣٧٨
١-تاريخ قتله	٣٧٨
٢-سنته عند استشهاده	٣٧٨
٣-جنائزه ، والصلوة عليه ، ودفنه	٣٧٩
٤-براءة محمد بن أبي بكر الصديق من دم عثمان رضي الله عنه	٣٨٠
المبحث الرابع : موقف الصحابة رضي الله عنهم من مقتل عثمان رضي الله عنه	٣٨٢
أولاً : ثناء أهل البيت على عثمان رضي الله عنه وبراءتهم من دمه	٣٨٣
١-موقف السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها	٣٨٣
٢-عليٌّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه	٣٨٦
٣-ابن عباس رضي الله عنه	٣٨٨
٤-زيد بن عليٍّ رحمة الله	٣٨٩
٥-علي بن الحسين رحمة الله	٣٨٩
ثانياً : موقف عمّار بن ياسر رضي الله عنه	٣٨٩
١-ضرب عمّار بن ياسر	٣٩٠
٢-اتهام عمّار بالمساهمة في الفتنة ، وإثارة الشغب ضدّ عثمان	٣٩١
٣-براءة عمّار من دم عثمان رضي الله عنهم	٣٩٢
ثالثاً : براءة عمرو بن العاص من دم عثمان	٣٩٣
رابعاً : من أقوال الصحابة في الفتنة	٣٩٥
١-أنس بن مالك رضي الله عنه	٣٩٥
٢-حديفة بن اليمان رضي الله عنه	٣٩٥
٣-أم سليم الانصارية رضي الله عنها	٣٩٥
٤-أبو هريرة رضي الله عنه	٣٩٦
٥-أبو بكرة رضي الله عنه	٣٩٦
٦-أبو موسى الأشعري رضي الله عنه	٣٩٦
٧-سمرة بن جندب رضي الله عنه	٣٩٦
٨-عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم	٣٩٦
٩-عبد الله بن سلام رضي الله عنه	٣٩٦
١٠-الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهم	٣٩٧

٣٩٧	١١- سلمة بن الأكوع رضي الله عنه
٣٩٧	١٢- عبد الله بن عمر رضي الله عنهمما
٣٩٧	خامساً: أثر مقتل عثمان في حدوث فتنٍ أخرى
٣٩٨	سادساً: الظلم ، والاعتداء على الآخرين من أسباب الهلاك في الدنيا ، والآخرة
٣٩٩	سابعاً: تأثير المسلمين لمقتل عثمان رضي الله عنه وما قيل من أشعار
٤٠٢	الخلاصة
٤١١	تعريف ببعض المناطق التي ذكرت في البحث
٤١٣	المصادر والمراجع
٤٣٢	الفهرس

* * *

المؤلف في سطور

علي محمد محمد الصَّلَابِي

- * ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .
- * حصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز ، وكان الأول على دفعته عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- * نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية كلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن عام ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
- * نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية .

* صدرت له عدّة كتب :

- ١ - من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين .
 - ٢ - الوسطية في القرآن الكريم .
- سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي) .
- ٣ - صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي .
 - ٤ - عصر الدّولتين الأمويّة ، والعباسية ، وظهور فكر الخوارج .
 - ٥ - الدولة العبيديّة (الفاطمية) الرّافضية .
 - ٦ - فقه التّمكين عند دولة المرابطين .
 - ٧ - دولة الموحّدين .
- ٨ - الدولة العثمانية ، عوامل التّهوض ، وأسباب السقوط .
- ٩ - الحركة السنّوية في ليبيا .
- (أ) الإمام محمد بن علي السنّوسي ، ومنهجه في التّأسيس .
- (ب) محمد المهدى السنّوسي ، وأحمد الشريف .
- (ج) إدريس السنّوسي ، وعمر المختار .
- ١٠ - فقه التّمكين في القرآن الكريم .
 - ١١ - السّيرة النّبوية ، عرض وقائع ، وتحليل أحداث .